أ.د. محمّد سهيل طقّوش

تاريخ العرب قبل الإسلام



دار النفائس

تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور محمد سهيل طقوش

أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الإمام الأوزاعي

كلية الدراسات الإسلامية

دار النفائس

تاريخ العرب قبل الإسلام
تأليف: أ.د. محمد سهيل طقوش

الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م
ISBN 978 - 9953 - 18 - 465 - 4

نشر | Publisher

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان ـ بناية الصباح
وصفي الدين ـ ص.ب 5152 ـ 14
الرمز البريدي: 2020 ـ 1105
فاكس: 009611861367
هاتف: 009611810194 ـ 803152
بيروت ـ لبنان

DAR AN-NAFAES
Printing-Publishing-distribution
Verdun Str - Safiedine bldg.
P.o.Box 14-5152
Zip code 1105-2020
Fax: 009611 861367
Tel: 00961 1 803152 - 810194.
Beirut - Lebanon

Email: alnafaes@yahoo.com
Web Site: WWW.alnafaes.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القدس عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٩

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين محمد بن عبد الله، خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد:

تتناول هذه الدراسة تاريخ العرب قبل الإسلام، والواقع أن الجزيرة العربية بخاصة وبلاد العرب في منطقة غربي آسيا بعامة، تتميز بموقع فريد بوقوعها على أهم الطرق الرئيسة في العالم بين الشرق والغرب، وقد شكَّلت معبراً بين القارات الثلاث: آسيا وأفريقيا وأوروبا، منذ الأزمنة القديمة. ويُعدُّ الحجاز، قلب الجزيرة العربية، الموطن الأول لآدم بعد هبوطه من الجنة إلى الأرض، ولذريته من بعده، ومركز انطلاقهم إلى الأقاليم المجاورة، وعليه كانت الجزيرة العربية، بعامة، المخزون البشري الهائل الذي أمدَّ العالم بالقوة البشرية. وبنى آدم الكعبة في مكة بأمر الله ﷻ، وأعاد إبراهيم الخليل عليه السلام بناءها بمساعدة ابنه إسماعيل، ودعا الناس للطواف من حولها، والسعي بين الصفا والمروة، والقيام بمناسك الحج.

ونشأت في بلاد العرب في العصور التاريخية وفي أوقات مختلفة، دول كان أبرزها: السومرية والأكادية والبابلية والأشورية والكلدانية وتدمر والبتراء والحيرة وغسان وميسان والحضر والرها ومكة وغيرها، زخرت بالمنجزات الحضارية المتقدمة التي أثَّرت في تطور البشرية عبر العصور، مثل: الشرائع السماوية، والشرائع التي وضعها الحكام، والعلوم الهندسية من عمارة وسدود وأعمال ري، ومعارف عن الزراعة والصناعة والتجارة وعلومها، والفلك والأنواء مثل: الظاهرات الجوية والمناخية، والطب، والكتابة العربية بالأحرف الأبجدية الهجائية.

وصنَّف علماء الأنساب والإخباريون الشعوب العربية القديمة في طبقتين: بائدة وباقية، ويعنون بالبائدة تلك التي كانت تعيش في جزيرة العرب ثم بادت قبل الإسلام واندثرت أخبارها باستثناء ما ورد في القرآن الكريم وبعض الروايات العربية، مثل: عاد وثمود وإرم وطسم وجديس وغيرها. وأما العرب الباقية، فهم الذين كُتب لهم البقاء بعد هلاك الطبقة الأولى، وينتمي إليهم كل العرب الصرحاء عند ظهور الإسلام.

سنتجاوز في هذه الدراسة تاريخ الشعوب العربية البائدة وكذلك الدول التي شغلت حيزاً في المدة الزمنية البعيدة عن ظهور الإسلام، وسنقصرها على بحث أوضاع الشعوب العربية ودولها داخل الجزيرة العربية وخارجها في المدة القريبة من ظهور الإسلام. ولما كان المقصود عادة بهذه المدة بما لا يتجاوز مائة وخمسين عاماً، وهو التاريخ الذي ترجع إليه أقدم الوثائق التي وصلت إلينا من الشعر العربي الجاهلي أو من الأحداث التي عُرفت بأيام العرب أو أخبارهم، وتداولها القصَّاص والرواة شفاهاً إلى أن سجَّلها بعض المؤرخين الأوائل، إلّا أن هذه المدة قصيرة في المدى الزمني لا تسمح بالبحث عن جذور التاريخ السياسي والحضاري للعرب الجاهليين، لذلك برزت الحاجة إلى توسيع نطاق البحث زمنياً إلى ما قبل المائة والخمسين عاماً من تاريخ العرب قبل الإسلام والتي تكاد تشغلها المرحلة الجاهلية، وتُعدُّ مدخلاً طبيعياً لتاريخ العرب في العصور الإسلامية، ومعنى ذلك مزيداً من الوقوف على التاريخ الإسلامي من خلال الوصول إلى جذوره. والمعروف أن التعمُّق في بحث تاريخ العرب قبل الإسلام هو من الأمور المطلوبة وفق ما يتطلبه المنهج التاريخي.

ويستثير البحث التاريخي لأوضاع الجاهليين اهتمام كثير من الباحثين العرب والمستشرقين والمثقفين ممن يتطلعون إلى سبر أغوار ماضي الأمة العربية ومنابتها الأولى من خلال الأصول التي عبَّر عنها العرب القدماء عن تصوراتهم لظاهرات الكون والطبيعة، وعلاقاتهم الاجتماعية، وأوضاع حياتهم الاقتصادية والدينية والسياسية، وهي مرحلة أساسية؛ لأنها تشكل بدايات حركة التاريخ العربي، كما أنها مهمة لأنها تقدم للباحث والمثقف والقارئ لوحة تتضمن إنجازات العرب القدماء في مختلف نواحي الحياة، وبشكل خاص أسس تاريخهم، بحيث لا يمكننا تفسير كثير من تلك الظاهرات إلّا إذا بحثنا عن أصولها القديمة في مرحلة الجاهلية.

لم يحظَ تاريخ العرب قبل الإسلام بالاهتمام الكافي من جانب المؤرخين العرب، وقد وصلت أخباره إلينا مضطربة، مشوشة، تختلط فيها الحقائق التاريخية بالروايات الخرافية، ويسودها العنصر القصصي بما لا يمكن الركون إليها والاعتماد عليها كمصدر رئيس للكتابة في هذا الموضوع، وأكثر ما ذكره الإخباريون والرواة هو أساطير وقصص شعبي وأخبار اقتبسوها من أهل الكتاب لا سيما اليهود، وما وضعه الوضَّاعون في الإسلام لغايات خاصة، انصبَّت كلها على الجوانب السلبية؛ كالغزو والسلب ووأد البنات وما شابه ذلك، ولم تشر إلى الجوانب الحضارية المضيئة إلّا عرضاً، كما حاولت أن تقدم الشعوب العربية على أنها بدوية قبلية متخلِّفة يغزو

بعضها بعضاً، وتعيش على هامش المجتمعات المتحضِّرة، ولم تساهم بشيء يُذكر في بناء صرح الحضارة.

وظل الناس يتداولون هذه الأخبار على أنها تاريخ العرب قبل الإسلام حتى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، عندما دخل المستشرقون والرحالة والمنقِّبون، على خط البحث عن الكنوز العربية الدفينة في اليمن والحجاز وجنوبي بلاد الشام، ودوَّنوا ما عثروا عليه من النقوش الكتابية القديمة، وآثار مدن وقلاع ومعابد وسدود، بلغاتهم الأوروبية، ما ألقى أضواء هامة على جوانب من حياة العرب قبل الإسلام، وفتحت الباب للولوج عبره إلى الجذور التاريخية لهؤلاء، ولنا في حاضرة دولة كندة، وهي قرية، مثالاً على ذلك، وعلى الرغم من ذلك، فإن ما صدر من بحوثهم يُعدُّ قليلاً نسبياً، وما زال تاريخ العرب قبل الإسلام بحاجة إلى مزيد من البحوث الأثرية والدراسات التاريخية التي تساعد على فصل الأخبار المدوَّنة عما اختلط بها من أساطير، وتعتمد في أصولها على الحقائق العلمية التي يمكن أن تسفر عنها الأبحاث الأثرية، وهذا الذي حثَّنا على الكتابة في هذا الموضوع لعلنا نضيف مدماكاً صغيراً إلى الصرح العلمي الكبير لأمتنا العربية والتي أرسى قواعدها بعض مؤرخينا الكبار في العصور الإسلامية الأولى.

استندتُ في هذه الدراسة على مصادر ومراجع متنوعة مبينة في ثبت المصادر والمراجع، وآمل، بما استندت عليه، أن يُجلي الحقيقة التاريخية.

أما تشكيل الموضوعات، التي يراها القارئ بعناوينها، فقد قسمتها إلى خمسة أبواب موزَّعة على ثمانية عشر فصلاً.

عالجت في **الباب الأول** أوضاع العرب الاقتصادية في أربعة فصول:

تضمّن **الفصل الأول** نبذة عن جزيرة العرب من حيث طبيعتها وسكانها.

واحتوى **الفصل الثاني** على بحث في الرعي والزراعة.

وبحثت في **الفصل الثالث** الحياة الصناعية عند العرب الجاهليين.

وسجّلت في **الفصل الرابع** أوضاع العرب التجارية.

وعالجت في **الباب الثاني** أوضاع العرب الأدبية في ثلاثة فصول:

تضمّن **الفصل الخامس** بحثاً في اللغة العربية من حيث تاريخها وأبعاد الصلة بينها وبين حياة أهلها الذين تكلموا ودوَّنوا أعمالهم بها.

واحتوى **الفصل السادس** على دراسة في الشعر العربي الجاهلي الذي يمثل صورة عن حياة الجاهليين، وما تعرَّض له من النقد والشك، وتطرقتُ إلى فنونه وختمته بذكر المعلقات الشعرية الجاهلية.

وبحثت في **الفصل السابع** موضوع النثر العربي الجاهلي وما تضمن من أمثال وحِكَم وخطابة وقصص وغيرها.

وعالجت في **الباب الثالث** أوضاع العرب الاجتماعية في ثلاثة فصول:

تضمن **الفصل الثامن** بحثاً في القبيلة العربية وطبقات المجتمع العربي.

واحتوى **الفصل التاسع** على دراسة في الأحوال الشخصية للعرب في جاهليتهم.

وبحثت في **الفصل العاشر** موضوع الثقافات العلمية والعملية من إنشاءات معمارية وعلوم الطب والفلك والأنواء وما يتصل بها.

وعالجت في **الباب الرابع** أوضاع العرب الدينية في ثلاثة فصول:

تضمن **الفصل الحادي عشر** سجلاً بالجذور التاريخية للتفكير الديني عند العرب الجاهليين.

واحتوى **الفصل الثاني عشر** على دراسة الوثنية في بلاد العرب.

وبحثت في **الفصل الثالث عشر** موضوع الفكر التوحيدي في الجزيرة العربية.

وعالجت في **الباب الخامس** أوضاع العرب السياسية في خمسة فصول:

تضمن **الفصل الرابع عشر** بحثاً في أوضاع اليمن مع تعداد الدول التي مرَّت على هذا البلد وما خلَّفته من آثار سياسية وحضارية.

واحتوى **الفصل الخامس عشر** على دراسة أربع دول هي: كندة وميسان والحضر وهجر.

وبحثت في **الفصل السادس عشر** أوضاع دولتين عربيتين قامتا في شمالي الحجاز وبلاد الشام هما: دولة الأنباط ودولة تدمر.

وتضمن **الفصل السابع عشر** دراسة أوضاع مملكتين عربيتين قامتا في الحيرة والشام هما: دولتا المناذرة والغساسنة.

وبحثت في **الفصل الثامن عشر** أوضاع مكة من مختلف جوانبها وما خلَّفه القرشيون من أثر على العصر الإسلامي اللاحق.

وأنا على ثقة بأن القارئ سيجد في هذه الدراسة متعة وفائدة، كما سيلمس موضوعية في معالجة الأحداث.

وأسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها القارئ العربي والمسلم؛ إنه سميع مجيب.

أ.د. محمد سهيل طقوش

البَابُ الأوّل

أوضاع العرب الاقتصادية

الفصل الأول: جزيرة العرب: طبيعتها وسكانها

الفصل الثاني: الرعي والزراعة

الفصل الثالث: الصناعة

الفصل الرابع: التجارة

الفَصْــلُ الأولُــ

جزيرة العرب: طبيعتها وسكانها

البيئة الجغرافية

ترتبط الأصول الأولية لأشكال السلوك البشري للعرب الجاهليين[1] ارتباطاً عضوياً بالبيئة الجغرافية التي وُلدت ونشأت فيها. وأدَّت البيئة الجغرافية للجزيرة العربية[2] دوراً بارزاً في تطور مسار التاريخ الجاهلي من خلال تأثيرها على الجغرافية البشرية لسكان الجزيرة. فالإنسان دائماً وليد بيئته، وإذا كانت بيئته تتباين بشكل واضح من مكان إلى آخر، ينتج عن ذلك بالضرورة اختلاف في تطوره في المناطق المختلفة. وسنحاول الإلمام، في الفقرات التالية، بجغرافية الجزيرة العربية وأقسامها الطبيعية من حيث الوضع الجغرافي، التركيب والبنية، الوضع الطبيعي، والطبقات السكانية.

الوضع الجغرافي

تشكل شبه الجزيرة العربية رقعة جغرافية مترامية الأطراف، تقع في القسم الجنوبي الغربي من قارة آسيا، وهي أقصى منطقة في هذه القارة في هذا الاتجاه، تبلغ مساحتها ثلاثة ملايين كيلومتراً مربعاً، وتُعدُّ أكبر شبه جزيرة في العالم، ويطلق

---

(١) إن تسمية عصر ما قبل الإسلام بالعصر الجاهلي هي تسمية إسلامية مستحدثة استندت إلى الآية القرآنية ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ . . .﴾ [الفتح/٢٦].
وكلمة الجاهلية، كما تدل الآية، تشير إلى مضمون أخلاقي سلوكي، فليس المقصود بها، إذن، معنى الجهل المضاد للمعرفة، بدليل ما ورد عن النبي ﷺ من أن أبا ذر عيَّر أمامه رجلاً بأمه، فقال؛ أي: النبي، لأبي ذر: (إنك امرؤ فيك جاهلية). وقد قسَّم المؤرخون والمفسرون الإسلاميون الجاهلية إلى جاهلية أولى، وهي التي وُلد فيها إبراهيم، وجاهلية ثانية القريبة من الإسلام، ولا تمتد في المدى الزمني إلى ما قبل القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وهي التي وُلِد فيها النبي محمد ﷺ.

(٢) إذا كنا نتخذ الجزيرة العربية كإطار في دراستنا، فإن مبرر ذلك يعود إلى أنها كانت بمثابة خزان بشري يفيض على أطرافها موسعاً بذلك النطاق الجغرافي لبلاد العرب.

العلماء العرب عليها اسم جزيرة العرب تجوزاً، ولعلَّ الذي دفعهم إلى النظر إليها بشكل تجاوزي أمران:

الأول: إحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها، فصاروا فيها في مثل الجزيرة من جزائر البحر[١].

الثاني: أن المنطقة تشبه جزيرة بشرية يتحدث سكانها اللغة العربية، وتحدها من ناحية الشمال مجموعات بشرية يتحدث سكانها بلغات أخرى ما دفع أحد هؤلاء العلماء إلى أن يقول: إن المنطقة «تسمى جزيرة العرب لأن اللسان العربي فيها شائع وإن تفاضل»[٢].

أما تفاصيل موقعها، فيحدها من الشرق الخليج العربي المعروف في المصادر الكلاسيكية، اليونانية والرومانية، باسم الخليج الفارسي والبحر الفارسي، وعُرف في نصوص وادي الرافدين عند أهل العراق القدامى بـ«البحر الجنوبي» والبحر الأسفل والبحر التحتاني والبحر الذي تشرق منه الشمس والبحر المر والبحر المالح[٣].

ويحدُّها من الجنوب المحيط الهندي، وقد أطلق الكُتّاب اليونان والرومان على القسم المتصل منه بسواحل جزيرة العرب الجنوبية والملاصق لسواحل أفريقيا الشرقية المقابلة لهذه السواحل اسم البحر الأريتري.

أما حدُّها الغربي فهو البحر الأحمر الذي أطلق عليه الكُتَّاب اليونان والرومان الاسم نفسه، كما سمّوه باسم خليج العرب، وأطلقوا على طرفه الشمالي من ناحية شبه الجزيرة العربية اسم خليج أيلة أو خليج الأيلانيين وذلك نسبة إلى أيلات أو أيلوت، وهي التسمية العبرية لميناء العقبة، وعرفه الكُتَّاب العرب باسم بحر القلزم[٤]. والمعروف أن البحر الأحمر، الذي يفصل الجزيرة العربية عن القارة الأفريقية، يُمثل في الواقع الجزء الأكبر من أخدود انهدامي يُعدُّ امتداداً طبيعياً لوادي الأردن والبحر الميت ووادي عربة ووادي البقاع من ناحية الشمال. وتتخلَّل شواطئه الشرقية المطلة على الجزيرة العربية صخور مرجانية متشعبة لا تصلح معها رسو السفن ولا تقوم عليها موانئ ما جعل الملاحة صعبة في هذه الأماكن، وقلَّلت عدد

---

(١) الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب: صفة جزيرة العرب: ص٨٤. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت: معجم البلدان: جـ٢ ص١٣٧.

(٢) الهمداني: ص٣٩.

(٣) Rou, George: Ancient Iraq p247.

(٤) Smith: A Dictionary of The Bible comprising its Antiquities Biography, Geography and Natural History. Vol I p1009.

الموانئ الصالحة لرسو السفن، كما قلَّلت الاستفادة من التجارة البحرية، ودفعت العرب إلى عدم الاهتمام بالنشاط البحري بشكل عام. وتوجد في أقصى جنوب هذا البحر، أضيق أماكنه وهي المعروفة باسم باب المندب، وينتشر فيه عدد من الجزر تُيسِّر الانتقال بين الطرف الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية وبين الشاطئ الجنوبي لأفريقيا، وكان ذلك السبب الرئيس للانفتاح الحضاري والعلاقات العسكرية بين اليمن والحبشة في المرحلة التي نؤرخ لها.

أما الحد الشمالي والشمالي الشرقي لشبه الجزيرة العربية، فهو خط يمتد من خليج العقبة حتى مصب شط العرب في الخليج العربي، ويشكل المنطقة الصحراوية التي تمتد من وادي الرافدين والمنطقة السورية، ويُكوِّن الحدود التي تفصلها عن الهلال الخصيب[(١)]، ثم إن نهر الفرات يُقبل من بلاد الروم فيظهر بناحية قنَّسرين ثم ينحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق حتى يصب في البحر، في ناحية البصرة والأبلة، ويمتد إلى عبَّادان[(٢)]. ويُعرف القسم الشرقي من هذه المنطقة، وهو المتاخم لوادي الرافدين، باسم بادية السماوة، في حين يُعرف القسم الغربي المتاخم لبلاد الشام باسم بادية الشام. وتوجد عند الأطراف الجنوبية الغربية لهذه البادية الأخيرة بعض مناطق صخرية على شيء من الاتساع، ما سمح بنشوء بعض المدن، مثل البتراء عاصمة الأنباط.

ويذكر ابن خلدون أن جزيرة العرب بين بحر فارس والقلزم «كأنها داخلة من البر في البحر، يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب، وبحر القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق، وتُفضي إلى العراق فيما بين الشام والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما»[(٣)].

التركيب والبنية

تتكوَّن معظم أراضي الجزيرة العربية من بواد وسهول غلبت عليها الطبيعة الصحراوية مع اختلاف طبيعة سطحها، إذ إن بعضه مغطى بالكثبان الرملية، وبعضه الآخر عبارة عن جبال وآكام وأغوار منخفضة بالإضافة إلى نجد مرتفع، إنها:

ـ أراضٍ مرتفعة في الغرب تسيطر على السهول الضيقة وتُكوِّن سلسلة من المرتفعات توازي ساحل البحر الأحمر، وتقترب منه في أماكن عدة، ويبلغ متوسط

(١) الهمداني: ص٨٤. الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد: مسالك الممالك: ص١٣، ١٤.

(٢) الحموي: جـ٢ ص١٣٧.

(٣) ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد: مقدمة ابن خلدون: جـ١ ص٢٨١، ٢٨٢.

ارتفاعها زهاء خمسة آلاف قدم، أما أقصى ارتفاع لها فيبلغ زهاء اثني عشر ألفاً وثلاثمائة وستة وعشرين قدماً ويقع في اليمن.

- أراضٍ محصورة بين السلسلة المشار إليها وساحل البحر، وهي ضيقة بشكل عام، وتسيطر على هذه المرتفعات وتنحدر إليها انحداراً شديداً وقصيراً، ومعظم سواحلها صخرية يصعب رسو السفن فيها.

- أراضٍ أقل ارتفاعاً في الشرق تنحدر إلى الخليج العربي بشكل تدريجي وطويل، وتتألف الأراضي الوسطى من هضبة تدعى نجد، يبلغ ارتفاعها ألفين وخمسمائة قدم.

- سلاسل من الجبال تسيطر على المنخفضات الساحلية الجنوبية وعلى ما يليها من الأراضي البرية، وتتصل بسلسلة جبال اليمن، وتكثر فيها الأودية التي تفصل بين السلاسل في مختلف الاتجاهات، وتُحدد اتجاه المياه والسهول، ويُشكل الجبل الأخضر أعلى ارتفاع لهذه السلسلة، زهاء عشرة آلاف قدم[١].

وتطلعنا الدراسة الجغرافية، من حيث التركيب والبنية، أن الجزيرة العربية تنقسم إلى الأنواع التالية:

النفود: إنه أحد التكوينات الصحراوية الثلاثة، وهو اسم لم يكن يعرفه العرب[٢]، وكان يسمى قديماً بادية السماوة أو رملة عالج[٣] تكوَّن بفعل تفتت أحجار الغرانيت، يقع في شمالي الجزيرة العربية بين نجد وبادية الشام وبين نجد والأحساء، يمتد نحو مائة وأربعين ميلاً من الشمال إلى الجنوب ومائة وثمانين ميلاً من الشرق إلى الغرب[٤]، مع انخفاض تدريجي نحو الشرق يصل إلى نحو مائة وخمسين متراً. ويُغطي وجه النفود كثبان رملية متموجة يبلغ ارتفاع بعضها خمسة عشر متراً. وتأخذ هذه المرتفعات أشكالاً مختلفة مثل نعل الفرس. وعلى الرغم من جفاف المنطقة، فإنها تتعرَّض بين حين وآخر لشتاء ممطر، فينبت في بعض بقاعها نبات صحراوي وأزهار صغيرة، يقصدها الأعراب للرعي. وقد تنمو فيها النباتات المرتفعة ذات السيقان القوية كبعض أنواع الغضى، يستخدمها البدو حطباً، وقد يحرقونها لاستخراج الفحم منها.

لكن هذا الاخضرار لا يستمر طويلاً، إذ يحل الجفاف بعد أسابيع أمام رياح السموم الحارقة التي تهب من الشرق والجنوب، في أواخر فصل الربيع وخلال أشهر الصيف فتقضي على كل نابت أخضر ويرحل عنها البدو[٥].

---

(١) علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جا ص١٤٤، ١٤٥.
(٢) أمين، أحمد: فجر الإسلام ص١٥.
(٣) الحموي: ج٤ ص٧٠.
(٤) أمين: ص١٥.
(٥) علي: جا ص١٥٢، ١٥٣.

الدهناء: إنه التكوين الصحراوي الثاني، وهو عبارة عن مساحات من الأراضي ذات رمال حمراء تمتد من النفود في الشمال إلى حضرموت ومهرة في الجنوب واليمن في الغرب وعُمان في الشرق وتقدَّر مساحته بخمسين ألف ميل مربع. وتُسمَّى الأقسام الجنوبية منه بالربع الخالي لخلوها من الناس، ويُطلق على القسم الغربي منه اسم الأحقاف؛ أي: الكثبان الرملية. وعندما تسقط الأمطار الموسمية في المنطقة، تنبت الأعشاب التي يقصدها البدو للرعي فيقيمون عليها ثلاثة أشهر يرعون ماشيتهم ويشربون من لبنها، فإذا جاء الصيف بحرارته المرتفعة، جفَّ الزرع، وانعدمت الحياة، والمعروف أنه اقترن اسم المنطقة باسم عاد، قوم هود.

ويبدو أن المنطقة كانت أكثر استيطاناً لمدة طويلة قبل الإسلام بدليل:

- أنها كانت أكثر خصباً بفعل كثرة الأمطار ووجود الينابيع.
- تقاطعت مع بعض الطرق التي تسلكها القوافل التجارية من جنوبي الجزيرة العربية إلى شواطئ الخليج، بدليل بيت شعر للأعشى[(١)] يشير إلى قوافل الجمال التي تمر بالدهناء إلى شاطئ الخليج فتحمل السلع من سوق دارين وهي أحد موانئ جزيرة تاروت[(٢)] وتعود إلى الشمال.

يمرون بالدهناء خفافاً عيابهم ويرجعن من دارين بجر الحقائب[(٣)]

الحرار: إنه التكوين الصحراوي الثالث، والحرة: أرض بركانية تغطيها أحجار سوداء نخرة كأنها أُحرقت بالنار، تكوَّنت بفعل البراكين، وهي على نوعين: نوع يتألف من فجوات البراكين نفسها ونوع ناتج عن تفتت الحمم. والحرة مستديرة الشكل عادة، فإن كان فيها بعض الاستطالة، فإنها غير واسعة، وتلك هي اللابة أو الكراع[(٤)].

تقع حرار جزيرة العرب على امتداد المنطقة الغربية من شرقي حوران وتمتد منتشرة إلى المدينة، وتقع المدينة نفسها بين حرتين: واقم في الشرق ووبرة في الغرب، ثم إلى الجنوب قرب باب المندب، كما توجد في بعض المناطق الوسطى والشرقية الجنوبية من هضبة نجد، بالإضافة إلى المناطق الجنوبية في الربع الخالي، منها حرة تبوك، وحرة النار قرب خيبر[(٥)].

---

(١) عاش الأعشى في أواخر العصر الجاهلي، كان كثير التنقل والأسفار البعيدة في أنحاء الجزيرة العربية، أدرك الإسلام إلا أنه لم يدخل في الدين الجديد وقد صدَّته قريش عنه، وقتل سنة ٦٢٩م عندما عثر به بعيره. انظر: الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين: الأغاني: جـ٩ ص١٢٥، ١٢٦.

(٢) تقع شمالي قطر.

(٣) علي: جـ١ ص١٥٠.

(٤) الحموي: جـ٢ ص٢٤٥.

(٥) المصدر نفسه.

ولما كانت معظم الحرار تتكوَّن من أحجار ذات رؤوس مدبَّبة، فإنه يصعب السير عليها، وتقلُّ الاستفادة منها، فتتحول تدريجياً إلى مناطق صحراوية، كما تسبَّبت أكثر الحرار في هلاك كثير ممن كان يسكن في جوارها وفي هجرة من نجا، فتحولت إلى مناطق خالية.

واشتهرت بعض مناطق الحرار بالخصب وبكثرة المياه فيها لا سيما حرار الحجاز ومنها خيبر التي ميزت على سائر القرى فقيل عنها: إنها «خير قرى عربية». واستفاد الجاهليون من الحرار باستخراج الأحجار منها كأحجار الرحى والمعادن، فكانت موطناً من مواطن التعدين القديمة مثل حرة بني سُليم وبني الرفاع على ساحل البحر الأحمر شمالي غربي ينبع[١].

وقد ظلَّ بعض الحرار ثائراً بشكل متقطع حتى العصر الإسلامي، مثل حرة النار التي كانت لا تزال ثائرة في عهد الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، وذُكر أن سحب الدخان كانت لا تزال تخرج من بعض الجبال القريبة من المدينة في عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان. ويبدو أن باطن الأرض كان لا يزال غير مستقر بدليل أن آخر حدث بركاني حصل في عام (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) عندما ثارت إحدى الحرات في شرقي المدينة[٢] لأسابيع عدة، وامتدت الحمم التي قذفتها إلى مسافة بضعة كيلومترات من المدينة. وكانت ثورة هذه الحرة فيما يبدو، مظهراً من مظاهر الهزات الأرضية والانفجارات البركانية التي ضربت بعض المناطق في غربي آسيا في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي وخلال القرن الثالث عشر[٣].

الدارات: الدارة أرض سهلة على شيء من الاستدارة تحيط بها التلال وتحتوي على قدر من المياه الجوفية، تنبت فيها الأعشاب والنباتات الصحراوية. والدارة كل جوبة بين جبال في حزن كان ذلك أو سهل[٤]، والدارة رمل مستدير في وسطه فجوة وهي الدورة[٥]، وهي تنيف على ستين[٦]، ولبعضها شهرة، إذ وردت أسماؤها في الشعر الجاهلي والإسلامي مثل: دارة جلجل التي وردت في شعر امرئ القيس الكندي، ودارة الآرام[٧]. ومن المناطق العشبية التي تكثر فيها الدارات بادية السماوة غربي العراق، وبادية الشام شرقي بلاد الشام.

---

(١) الحموي: جـ٢ ص٢٤٦.
(٢) علي: جـ١ ص١٤٧.
(٣) يحيى، لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة: ص٩٥.
(٤) الحموي: جـ٢ ص٤٢٤.
(٥) الأصمعي، عبد الملك بن قريب: كتاب الدارات، باعتناء أوغست هغنر. مجلة المشرق، السنة الأولى، الجزء الأول، ١٨٩٨م، ص٢٤ وما بعدها.
(٦) الحموي: جـ٢ ص٤٢٤.
(٧) المصدر نفسه: ص٤٢٥، ٤٢٦.

الجبال: نجد في حدود هذا الإطار، الذي يحتوي على المناطق الصحراوية، أن العمود الفقري للجزيرة العربية هو سلسلة من الجبال تمتد من جنوبي بلاد الشام في الشمال، إلى اليمن في الجنوب، موازية لساحل البحر الأحمر وقريبة منه[١]، وبعض قممها مرتفعة قد تتساقط الثلوج عليها كجبل دباغ الذي يرتفع ألفين ومائتي متر عن سطح البحر، وجبل شيبان. وتنخفض هذه السلسلة عند دنوِّها من مكة، ثم تعود إلى الارتفاع حيث تصل إلى مستوى عالٍ في اليمن، فتتساقط الثلوج على قمم بعضها، وتنحدر هذه السلسلة انحداراً شديداً نحو الغرب حيث المنخفض الساحلي على البحر الأحمر، في حين تنحدر بتدرُّج وامتداد كبير عبر كل القسم الشرقي للجزيرة العربية[٢].

وتمتد في محاذاة السواحل الجنوبية، سلاسل جبلية تتفرَّع من جبال اليمن، ثم تتجه شرقاً إلى عُمان حيث يرتفع الجبل الأخضر إلى تسعة آلاف وتسعمائة قدم، مُشكِّلاً استثناء واضحاً للاتجاه الشرقي المتدرج للجزيرة العربية. وتتخلل هذه السلاسل الجنوبية أودية تحدد اتجاه مسايل الأمطار إلى البحر[٣].

وتفصل بين البحر والسلاسل الجبلية، سهول ساحلية ضيقة في الغالب، لا تتجاوز خمسة عشر ميلاً، وتكون هذه السواحل حارة رطبة في أكثر الأحيان، وتمنع وصول الهواء المشبع بالرطوبة من البحر الأحمر والخليج العربي وبالتالي سقوط الأمطار، في أواسط الجزيرة العربية وفيما وراء السفوح الشرقية للسراة، والسفوح الشمالية للسلاسل الجبلية الجنوبية[٤]، لذلك كثرت الأودية التي تسيل فيها المياه، في هذه المناطق، وزادت إمكانات الخصب والزراعة في البقاع الواقعة وراء السراة حتى الخليج.

وتشكل نجد هضبة تتكوَّن من الغرانيت يُقال لها جبل شمَّر وتتألف من سلسلتين يقال لإحداهما: أجأ، وللأخرى: سلمى، وهما من منازل طيء، وقد عُرفت قديماً بجبلي طيء.

وتحتوي هذه السلسلة، بالإضافة إلى السهل الكبير المنبسط بينهما، على ينابيع عديدة بحيث يمكن الحصول على الماء من تحت طبقات الصخور والرمال بسهولة.

الأنهار والأودية: لا يوجد في الجزيرة العربية أنهار كبيرة بالمعنى المعروف ولا بحيرات، لذلك تتميز، بوجه عام، بأنها إقليم حار جاف وناري، وأضحت بقاعها صحراوية قليلة السكان، غير أنها كثيرة الأودية تمتلئ بالسيول عند سقوط الأمطار،

---

(١) يحيى: ص٩٢.

(٢) علي: جا ص١٥٦.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) المرجع نفسه: ص١٥٧.

وهي في الغالب طويلة. أما الأودية التي تصب مياهها في البحر الأحمر أو الخليج العربي، فهي قصيرة وذات مجرى أعمق وانحدار أشد، لذلك تسير المياه فيها بسرعة فتجرف ما يعترض تقدُّمها. وقد تُكوِّن السيول خطراً يهدد المدن والقوافل والأملاك، ويتسبَّب بخسائر فادحة[١]، وفي كتب المؤرخين والكُتَّاب المسلمين إشارات إلى سيول جارفة أحدثت الخراب والدمار[٢]. نذكر من بين الأودية: وادي الرمة عند حرة خيبر، أو حرة فدك، ويقال له: بطن الرمة، ويبلغ طوله حوالي مائة وخمسين كيلومتراً، ووادي الحمض، أو وادي إضم، يبدأ من حرة خيبر ثم يتجه نحو الجنوب الغربي إلى أن يصل إلى يثرب، ويبلغ طوله نحو تسعمائة كيلومتر، ووادي العقيق، ووادي القرى في الحجاز الذي يستمد مياهه من السيول التي تنحدر إليه من الجبال والينابيع الموجودة في خيبر.

الأمطار: الغالب على جو الجزيرة العربية الجفاف، فالأمطار قليلة على الرغم من أن الماء يحيط بها من ثلاث جهات، إلّا أن كُلّاً من البحر الأحمر والخليج العربي لا يساعدان، لضيقهما، على أن يحدَّا من قوة الجفاف. أما المحيط الهندي، فإن رطوبته تساعد على سقوط الأمطار الموسمية في فصل الصيف بانتظام في الأماكن القريبة من الشاطئ. فقد تسقط الأمطار على جبال اليمن بغزارة في فصل الصيف، وتنزل في تهامة اليمن في فصل الشتاء أحياناً، ويبلغ تأثير الرياح الموسمية حتى الطائف، فتنزل فيها الأمطار في أواخر فصل الصيف. أما الأقسام الوسطى، فيسقط المطر من الغيوم المتبخرة في الخليج العربي والبحر الأحمر ويكثر في أعالي جبل شُمَّر.

وتشح الأمطار في الحجاز أحياناً وقد تنقطع ثلاث سنوات متوالية، وينتج عن ذلك قحط وجدب. وأطلق العرب على هذه السنوات اسم «السنين البيض» أو «السنين الشهباء»، ومع ذلك فقد ينهمر المطر على مكة والمدينة في فصل الشتاء فيشكل سيولاً مدمرة تنحدر من الجبال إلى الوديان والشعاب، وكثيراً ما جرفت الكعبة.

أما في حال الأمطار المعتدلة، فيشرب الناس ويسقون حيواناتهم ويروون مزروعاتهم وتمتلئ الآبار والخزانات والغدران والدارات بالمياه.

نتيجة لتوزع الأمطار على هذا النحو، نشأت بعض عوامل التمييز بين سكان الجزيرة العربية. ففي الشمال حيث الأمطار غير منتظمة، لم تتولَّد حياة زراعية

---

(١) علي: جا ص١٥٨.

(٢) البلاذري، الإمام أبو الحسن: فتوح البلدان: ص٦٥، ٦٦.

مستقرة، وإنما تنبت فيها المراعي التي يعيش عليها أهل البادية، فتميزت الحياة فيها بالرعي والتنقل. أما في الجنوب، فقد نشأت مجتمعات مستقرة اعتمدت على الزراعة بفعل انتظام سقوط الأمطار.

الرياح: مناخ الجزيرة العربية شديد الحرارة بعامة، يعتدل في الليل في الأراضي المرتفعة صيفاً ويتجمَّد ماؤها شتاء. وتهب على الجزيرة العربية أربعة أنواع من الرياح، تتفاوت في البرودة والسخونة واللطافة، وكذلك في مصادرها، وهي رياح القبول، والدبور والتيمن والتيسر[(١)].

تهب رياح القبول من الشرق، وهي ألطف الرياح وأطيبها، وتُسمَّى الصَّبا؛ لأن النفس تصبو إليها، وفضَّلها العرب لرقتها، ولأنها تأتي بالسحاب والمطر وتحدث الري والخصب، وهي عندهم اليمانية، وكثيراً ما تغنَّى الشعراء بمدحها، وتهب على إقليم نجد بشكل خاص[(٢)].

وتهب رياح الدبور من الغرب مصحوبة بالأمطار، ولذلك عُرفت بالذاريات والمعصرات[(٣)]. وتهب رياح التيمن من الجنوب، كما تهب رياح التيسر الباردة من الشمال قادمة من هضاب الأناضول المغطاة بالثلوج، ومرتفعات بلاد الشام، ولذلك عُرفت بالشامية، وكانت مكروهة لما يصحبها من برد، وتُعرف أيضاً بالحدواء؛ لأنها تحدو السحاب؛ أي: تسوقه، وتذهب بالخصب[(٤)]، وتُسمى الرياح الحارة السَّموم وتهب في فصل الصيف.

الوضع الطبيعي

تعرَّفت دول وشعوب العالم القديم على الجزيرة العربية من خلال ملامحها الجغرافية، وحاولوا تقسيمها بما يتفق مع اهتماماتهم السياسية والاقتصادية ومعلوماتهم الجغرافية. فمنذ أواسط القرن التاسع قبل الميلاد بدأت الشعوب المجاورة لهذه الجزيرة تهتم بالمنطقة، وبخاصة القسم الشمالي منها، مع اختلاف في مدى الامتداد. ففي عهد الملك الأشوري شلمنصَّر الثالث (٨٦٠ ـ ٨٢٥ق.م) كانت بلاد العرب تعني القسم الشمالي من الجزيرة، وهو القسم الذي يشكله الممر بين وادي الرافدين وسوريا. واتسع هذا التطور في عهد الملك البابلي نابونيد (٥٥٦

---

(١) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر: جـ٢ ص٢٢١. الهمداني: ص٢٦٨.

(٢) الهمداني: ص٢٦٨. الألوسي، محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: جـ٣ ص٣٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الحموي: جـ٢ ص٢٢٩.

ـ ٥٣٩ق.م) الذي أقام في تيماء في الشمال الغربي للجزيرة العربية، ووصل بحملاته جنوباً إلى يثرب[١].

وسمَّى العبريون القسم الشمالي من الجزيرة العربية: جبل المشرق[٢]، وأرض المشرق، وأرض بني المشرق[٣] وهي المنطقة نفسها التي سُميت بالعربية في غلاطية[٤].

وأشار الكُتّاب اليونان إلى جزيرة العرب في القرن الثامن قبل الميلاد على أنها بادية الشام، وهو التصور الآرامي نفسه. غير أن هذا التصور تراجع في العهد الفارسي في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد ليتوافق مع تصور الأشوريين[٥].

وشهدت المدة الزمنية، بدءاً من النصف الثاني من القرن المذكور، تغيُّراً كبيراً في تحديد بلاد العرب لدى الشعوب والدول، لا سيما الكُتَّاب الكلاسيكيين، اليونان والرومان. فقد حدَّد المؤرخ اليوناني هيرودوتس بلاد العرب لتشمل كل الجزيرة العربية بالإضافة إلى باديتي العراق والشام؛ أي: المنطقة الصحراوية الشمالية الواقعة على الحدود الجنوبية للهلال الخصيب.

وقسَّم هؤلاء الكُتَّاب جزيرة العرب بشكل عام إلى أقسام طبيعية تتفق مع التضاريس الطبيعية والوضعين السياسي والاقتصادي في القرن الأول الميلادي.

فمن حيث التضاريس الطبيعية، فقد وصفوا تضاريسها وشواطئها ومناخها وسكانها ونباتها وحيوانها.

ومن حيث الناحية السياسية، فقد قسَّموها إلى ثلاثة أقسام: قسم مستقل، وقسم يجاور الحدود الرومانية، ومن ثَمَّ أصبح تحت نفوذهم، وقسم ضمَّ البادية إلى نهر الفرات.

ومن حيث الوضع الاقتصادي، فقد قسموها إلى ثلاثة أقسام هي: المناطق الزراعية، والمناطق الرعوية، والمناطق التي يعيش سكانها على التجارة.

وعندما وصل التقسيم العام إلى تفصيلات، ضمَّ ثلاث مناطق: العربية الصحراوية، والعربية الصخرية، والعربية السعيدة.

العربية الصحراوية: تشمل البادية الواسعة الفاصلة بين العراق والشام والمعروفة باسم بادية الشام، وتُشكِّل القسم الأكبر من التكوين الصحراوي الذي يتوسط وادي

---

(١) يحيى: ص٩٦، ٩٧.

(٢) العهد القديم: سفر التكوين، الإصحاح ١٠، الآية ٣٠.

(٣) المصدر نفسه: الإصحاح ٢٥، الآية ٦. الإصحاح ٢٩، الآية ١.

(٤) العهد الجديد: غلاطية، الإصحاح الأول، الآية ١٧.

(٥) يحيى: ص٩٧.

الفرات شرقاً والشام غرباً، ويُكوِّن نهر الفرات حدودها الشرقية حتى التقائها بالعربية السعيدة، أما حدودها الشمالية فغير ثابتة، وتتبدَّل وفقاً للتقلبات السياسية، وكذلك حدودها الغربية. ودخلت في كنفها المناطق الصحراوية الممتدة إلى الحيرة؛ أي: إلى حدود المناطق الزراعية، وأُطلقت أيضاً على المناطق الصحراوية التي تسكنها القبائل المتبدية، وتقع في شمالها وشمالها الشرقي مملكة تدمر، وتلتقي من ناحية الشمال والشمال الغربي بالعربية الحجرية، فتدخل بذلك في جملة بلاد الشام، وتُكوِّن البادية إلى الفرات حدودها الشرقية.

العربية الصخرية: تشمل الأراضي التي يسكنها الأنباط، وأُطلق هذا الاسم أيضاً على شبه جزيرة سيناء، وتضم المملكة النبطية القسم الغربي من هذا الامتداد المذكور، وتقع في وسطها مدينة البتراء المنحوتة في الصخر قرب وادي موسى في الأردن والتي اتخذها الأنباط عاصمة لهم في القرن الأول للميلاد، قبل أن تقع في قبضة الرومان، وكانت حدودها تتسع وتتقلَّص وفقاً للتقلُّبات السياسية، فقد وصل نفوذ الأنباط إلى دمشق في الشمال أحياناً، كما امتد نفوذهم في الجنوب إلى المنطقة المعروفة بمدائن صالح[(١)].

العربية السعيدة: إنها أكبر الأقسام الثلاثة، تشمل وسط الجزيرة وجنوبها، الحجاز ونجد واليمن؛ أي: كل المناطق التي يقال لها جزيرة العرب. تقع العربية السعيدة جنوبي خط يمتد من الطرف الشمالي للخليج العربي في الشرق إلى رأس خليج العقبة في الغرب، أو إلى نقطة على الشاطئ الشرقي لهذا الخليج، وقد سمَّى الكُتَّاب الكلاسيكيون العربية السعيدة بهذا الاسم بفعل وفرة مواردها الزراعية والتجارية.

وقسَّم الجغرافيون العرب في العصر الإسلامي، الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام هي: الحجاز وتهامة واليمن والعروض ونجد، منطلقين من الوضع الطبيعي المحض وعاكسين تصوُّر سكان الجزيرة في العصر السابق للإسلام، فأخرجوا بذلك القسم الأكبر مما دعاه الكلاسيكيون العربية الصخرية بالإضافة إلى البادية الواسعة، فحصروا في هذا التقسيم، الجزيرة، بالعربية السعيدة[(٢)]، غير أن ابن حوقل، زاد على هذا التقسيم بادية العراق وبادية الجزيرة الفراتية، فيما بين دجلة والفرات، وبادية الشام[(٣)]. ويُرجع الرواة أقدم رواياتهم في هذا التقسيم إلى

---

(١) في القسم الشمالي الغربي من المملكة العربية السعودية حالياً.

(٢) الهمداني: ص٨٥. الحموي: ج٢ ص١٣٧. القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ج٤ ص٢٥٠، ٢٥١.

(٣) ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي: صورة الأرض ص٢٩.

عبد الله بن عباس[1].

الحجاز: إنه المنطقة الجبلية الممتدة من شرقي تهامة من الشمال إلى الجنوب مُشكِّلة سلسلة جبال السراة وفاصلة بين تهامة وهضبة نجد. ويمتد إقليم الحجاز حتى حدود الشام عند العقبة. وسُمي حجازاً لأنه يحجز بين تهامة ونجد أو لأنه يحجز بين الغور والشام وبين جبال السراة ونجد.

تكثر الأودية في إقليم الحجاز والتي تمتلئ بالسيل عند هطول الأمطار وتسير مياهها نحو البحر نذكر منها: وادي إضم، ووادي نخال ويصب في الصفراء بين مكة والمدينة، ووادي القرى ويقع بين العلا والمدينة، ويتصل به واديان هما وادي جزل من الشمال، ووادي الحمض من الجنوب، وكان يمر به طريق القوافل الرئيس القديم، ووادي يدا قرب أيلة الذي يتصل بوادي القرى. وتتخلَّل هذا الإقليم الأراضي البركانية والحرات، وإذا توفرت المياه (آبار، ينابيع) قامت القرى الكبيرة.

نشأت أهمية الحجاز من وقوعه على الطريق التجاري الذي يربط اليمن بمناطق الشمال ويضم من المدن، مكة[2]، والمدينة والطائف وخيبر وفدك وتيماء، وهو قطر فقير ومناخه في بعض مناطقه معتدل كالطائف، وفيما عدا ذلك حارٌّ بل شديد الحرارة.

تهامة[3]: تشمل تهامة المنطقة الساحلية الضيقة والمنخفضة الموازية لامتداد البحر الأحمر، وتقع بين اليمن جنوباً وينبع شمالاً، ويحجزها عن داخل الجزيرة سلسلة جبال السراة. وسميت تهامة بذلك، من التهم، وهو شدة الحر وركود الريح، لشدة حرها وركود ريحها أو لتغيُّر هوائها، وفي رواية لانخفاض أرضها، إذ إن كلمة تهامة عند العرب هي الأرض المنخفضة. ويختلف عرضها باختلاف قُرب أو بُعد السلاسل الجبلية من البحر، وقد يبلغ عرضها خمسين ميلاً في بعض الأمكنة، وترتفع أرض تهامة الجنوبية كلما اتجهت نحو الشرق.

ويقال لتهامة الواقعة في اليمن، تهامة اليمن وهي سهل خصب يتغذى بمياه الأودية، ويكثر فيه الأشجار والزرع، ومن مدنه الساحلية: ينبع، وجدة فرضة مكة، والحديبية، وتبوك الواقعة بين الحجر وبين أول الشام.

اليمن: يُطلق على الجنوب كله، وهو إقليم واسع، يمتد حدوده من تهامة إلى العروض، ويخترقه جبال السراة حتى البحر عند حدوده الجنوبية، ويشمل حضرموت ومهرة والشَّحر، وقد يُطلق على الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة، وهو المشهور.

---

(١) الهمداني: ص٨٣.

(٢) يجعل بعض مؤرخي العرب مكة من تهامة. انظر: الحموي: جـ٢ ص٦٣.

(٣) الحموي: جـ٢ ص٦٣، ٦٤.

وسُمِّي اليمن بهذا الاسم لتيامن العرب إليه؛ لأنه أيمن الأرض بالنسبة للشخص الذي يقف وظهره إلى البحر ونظره على امتداد الجزيرة، لكن الراجح أن الاسم مشتق من يمنت أو يمنات الواردة في نص يعود إلى أيام الملك شمر يهرعش أو يرعش، ولعل يمنات من اليُمن والخير لما أودع الله فيه من البركة، لذلك عُرف عند العرب بالأخضر لكثرة مزارعه ونخيله وأشجاره وثماره(١).

يتخلل إقليم اليمن وديان جافة تنساب فيها مياه الأمطار، وربما كانت بقايا أنهار قديمة جفَّت على مرِّ القرون.

العروض: يُغطي العروض الامتداد الذي يبدأ من الأطراف الشرقية لليمن والذي يستمر في اتجاه شرقي وشمالي شرقي حتى يصل إلى اليمامة والبحرين وما يجاورهما في شرقي الجزيرة العربية، إنه الإقليم الواقع على ساحل بحر الخليج، ما بين عُمان ومصب نهر دجلة عند عبَّادان والبصرة، وسُمي بالعروض لأنه يعترض بين اليمن ونجد والعراق(٢). من أقسام العروض: شبه جزيرة قطر التي تمتد من عُمان إلى حدود الأحساء، يليها الأحساء، الأرض الرملية التي تحوي الماء في باطنها على عمق قليل، واشتهرت بكثرة نخيلها وتمرها(٣). ويُعرف البحرين عند بعض الجغرافيين العرب باسم عاصمته حجر المشهورة أيضاً بكثرة نخيلها وتمرها(٤).

وكانت اليمامة تُسمى قديماً جوا، وعندما نزلتها طسم وجديس عُرفت بهذا الاسم نسبة إلى اليمامة بنت سهم من جديس(٥) ويعدَّها بعض الجغرافيين من نجد(٦)، وكانت عامرة بالقرى عند ظهور الإسلام وبخاصة حاضرتها هجر، ونزلتها قبيلة عبد القيس في الجاهلية.

وفي جنوبي البحرين عُمان ومن مدنها صحار ودبا، وكان بها سوق مشهور في الجاهلية. واشتهر سكان العروض بعامة بالملاحة واستخراج اللؤلؤ.

نجد: هي الهضبة الوسطى وقلب جزيرة العرب، وتقع بين بادية السماوة في الشمال والدهناء في الجنوب، وأطراف العراق شرقاً والحجاز غرباً، وهي أوسع أقاليم الجزيرة العربية. وقسَّمها العرب إلى قسمين انطلاقاً من تكوينها الطبيعي الذي يبدأ مرتفعاً في الغرب ثم ينحدر حتى يصل إلى منطقة العروض في الشرق هما: نجد السافلة: ما ولي

---

(١) الهمداني: ص٩٠، ٩١. الحموي: جـ٥ ص٤٤٧. علي: جـ١ ص١٧٠، ١٧١. سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ العرب في عصر الجاهلية ص٩٢.

(٢) الحموي: جـ٤ ص١١٢.

(٣) الهمداني: ص٨٥، ٨٦.

(٤) الحموي: جـ٥ ص٣٩٣.

(٥) المصدر نفسه: ص٤٤٢.

(٦) المصدر نفسه.

العراق، ونجد العالية: ما ولي الحجاز وتهامة. وحدُّها ذات عرق من ناحية الحجاز، وما ارتفع عن بطن الرمة فهو نجد إلى أطراف العراق وبادية السماوة[١].

يتكوَّن سطح الهضبة من أودية وتلال ترتفع عن سطحها بضع مئات من الأقدام، وتتألف حجارتها في الغالب من صخور كلسية ورملية وغرانيتية. وبنجد جبلان مشهوران هما أجأ وسلمى المنسوبان إلى طيء، وبأدنى جبل أجأ مدينة حائل، وعلى سفح جبل سلمى بلدة فيد الواقعة على طريق الحاج العراقي[٢].

تتألف نجد من الوجهة الطبيعية من ثلاث مناطق هي[٣]:

منطقة وادي الرمة: تتألف أرضها من طبقات طباشيرية في الشمال وحجارة رملية في الجنوب، وتتخللها أراضٍ خصبة تتوافر فيها المياه على أعماق مختلفة، ليست بعيدة في جوف الأرض، وتتسرب إليها المياه من المرتفعات التي تُشرف عليها وبخاصة من جبل شمر، ومن الحرار الغربية، ويتراوح عرض وادي الرمة بين خمسمائة متر وميلين، وتصل مياه السيول إلى ارتفاع تسعة أقدام في بعض الأوقات.

المنطقة الوسطى: هي هضبة تتألف من تربة طباشيرية متموجة تتخللها أودية، وبها جبل طويق الذي يرتفع ستمائة قدم عن سطح الهضبة. وتتفرع من هذا الجبل أودية عدة تسيل فيها المياه في موسم الأمطار، فتصل إلى الربع الخالي وتغور فيه.

المنطقة الجنوبية: تتكوَّن من المنحدرات الممتدة من جبل طويق ومرتفعات المنطقة الوسطى إلى الصحاري في اتجاه الجنوب، وتتخلَّلها مناطق معشوشبة ذات آبار وينابيع وتقلُّ المياه في جنوبها، وتظهر الرمال حيث تتصل عندئذ بالأحقاف، ومن مناطقها المشهورة، الأفلاج والسليل والدواسر.

---

(١) الهمداني: ص٨٥. الحموي: جـ٥ ص٢٦٢.

(٢) علي: جـ١ ص١٨١.

(٣) المرجع نفسه: ص١٨١، ١٨٢.

الشعوب العربية

المدلول الاصطلاحي لكلمة عرب

المقصود بالعرب سكان المنطقة الواسعة الذين أعطوها اسمهم فصارت تُعرف ببلاد العرب[(١)]، واختلف علماء اللغة في مدلول هذه الكلمة الاصطلاحي من حيث اللفظ ومصدر الاشتقاق، وعلى الرغم من كثرة التفسيرات اللغوية، نذكر من بينها ما يلي:

ـ التزم الكُتَّاب العرب الأوائل عند دراستهم تفسير كلمة عرب، بمنهجهم التقليدي في علم الأنساب، فالعربية منسوبة إلى يعرب بن قحطان، مشتقة من اسمه، فهو أول من أعرب في لسانه، وتكلَّم بهذا اللسان العربي[(٢)]، وتعلَّمها إخوته وبنو عمومته منه، وكانوا قد تركوا بابل ليقيموا بجواره في اليمن، وهؤلاء هم القحطانيون. ويذكر العدنانيون أن أول من تكلم بالعربية الخالصة، الحجازية التي أنزل عليها القرآن، هو إسماعيل بن إبراهيم وكان عمره آنذاك أربع عشر سنة، وهو جدُّ العرب المستعربة[(٣)].

ـ إن كلمة عرب مشتقة من الفعل يُعرب؛ أي: يُفصح في الحديث، وأصبحت تدل على العرب كجنس لفصاحتهم في اللسان، فيقال: رجل معرب إذا كان فصيحاً، ورجل عربي اللسان إذا كان فصيحاً[(٤)].

ـ سُمي العرب عرباً نسبة إلى بلدهم العربات، وعربة هي مكة، وباحة العرب، ودار أبي الفصاحة إسماعيل بن إبراهيم. وقال الكُتَّاب: «وأقامت قريش بعربة فتنخَّت بها، وانتشر سائر العرب في جزيرتها، فنُسبوا كلهم إلى عربة؛ لأن أباهم إسماعيل بن إبراهيم، نشأ وربَّى أولاده فيها، فكثروا، فلما لم تحتملهم البلاد انتشروا، وأقامت

---

(١) تشمل بلاد العرب، من واقع هذه الدراسة، الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف: جـ١ ص١٠.

(٣) الجرهمي، عبيد بن شرية: أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها أو كتاب الملوك وأخبار الماضين، ملحق بكتاب التيجان في ملوك حمير، لوهب بن منبه ص٣١٤ ـ ٣١٩. الأصمعي: تاريخ العرب قبل الإسلام ص٨. ابن منظور: جـ١ ص٥٨٧، ٥٨٨.

(٤) ابن منظور: جـ١ ص٥٨٦. الألوسي: جـ١ ص٨.

قريش بها»[١].

- إن كلمة عرب مشتقة من أصل سامي قديم بمعنى الغرب. فقد أطلق سكان بلاد ما بين النهرين اسم عريبي على الأقوام الذين كانوا يقيمون في البادية الواقعة إلى الغرب من بلادهم، وهي بادية العراق والمسماة بهذا الاسم[٢].

- يرى بعض الباحثين المحدثين أن كلمة عرب مشتقة من الكلمات العبرية التالية ذات الصلة بالبداوة والبادية:

١ - أرابا: وتعني الأرض الداكنة[٣]، أي: المغطاة بالكلأ، ويشير هذا المعنى إلى حالة اجتماعية قائمة على التنقل والترحال وراء موارد العشب[٤].

٢ - إرب: ومعناها الحرية وعدم الخضوع لنظام ما[٥]، وهذه من صفات البدو.

٣ - عابار: بمعنى التنقل من مكان إلى آخر[٦]. وقد ارتبط هذا المعنى بالبداوة من واقع أن العرب أنفسهم استعملوا هذه اللفظة ليميزوا البدو من سكان المدن والقرى الناطقين بالعربية.

٤ - عرابة: بمعنى الجفاف والصحراء[٧]، ومنها تسمية وادي العربة الممتد من البحر الميت إلى خليج العقبة[٨].

وتتبَّع المستشرقون وعلماء التوراة المحدثون، تاريخ هذه اللفظة ومدلولها في اللغات السامية القديمة، ووجدوا أن أقدم نص وردت فيه كلمة عرب هو نص أشوري يرجع إلى عام (٨٥٣ق.م)، إذ ورد في نص للملك شلمنصَّر الثالث أشار فيه إلى أحد زعماء الثوار الذين تغلَّب عليهم واسمه جنديبو العريبي، الذي تحالف مع ناصر بيرابدري الدمشقي ضده في معركة كركر[٩]. وقد اتخذت اللفظة عندهم معنى البداوة وإمارة أو مشيخة، كانت تحكم في البادية المتاخمة للحدود الأشورية من قِبل أمير يدعى جنديبو؛ أي: جندب[١٠].

---

(١) ابن منظور: جـ١ ص٥٨٧.

(٢) لويس، برنارد: العرب في التاريخ: ص٩.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) سالم: ص٦١.

(٥) لويس: ص٩.

(٦) المرجع نفسه.

(٧) المرجع نفسه.

(٨) علي: جـ١ ص٩٩.

(٩) نشبت معركة كركر على نهر العاصي شمالي حمص في عام (٨٥٤ق.م) بين الآشوريين بقيادة شلمنصر الثالث وبين حلف مكوَّن من ملكي حماة ودمشق أرخوليني الآرامي وحدد عازار، وساندهما جنود من كيليكيا وفينيقيا وعمون مع ألف جمل عربي.

(١٠) Margoliouth: The Relations between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam p3.
The Jewish Encyclopedia, p41. =

ووردت في الكتابات البابلية كلمة ماتورابي، ومعناها: أرض العرب، وكانت تحفل بالأعراب[١]. وظهرت للمرة الأولى في عام (٥٣٠ق.م) لفظة عرباية في نص فارسي مكتوب باللغة الأخمينية، في نقش بهستون لدارا الكبير. وقصد الفرس بها البادية الفاصلة بين العراق والشام بما فيها شبه جزيرة سيناء[٢].

واقتبس العبرانيون كلمة عرب من الأشوريين والبابليين واستعملوها بالمعنى نفسه؛ أي: القفر والجفاف[٣]، ووردت لفظة عربية وعربة وبلاد العرب في العهد القديم بمعنى البداوة والقفر «ولا يضرب إعرابي فيها خيمة»[٤].

وذكرت التوراة الأقسام الشمالية من الجزيرة العربية، أكثر من الأقسام الجنوبية (اليمن). وكانت كلمة أعرابي تعني لليهود: سكان القفار المتنقلين أكثر مما تعني سكان المراعي الذين يتحضَّرون ويستقرون وبخاصة المتنقلين منهم قرب الهلال الخصيب[٥]. وكانت بلاد العرب إحدى البلدان التي أنذرها أشعيا وإرميا، وتنبأ عليها بحكم الله وغضبه «قول على العربة، في الغابة في العربة تبيتون يا قوافل الدَّدانيين...»[٦]. «لقد قعدت لهم على الطرقات كالأعرابي فى البادية»[٧]. «وجميع ملوك العرب»[٨]. ومما يؤيد هذه التفسيرات ورود كلمة هاعرابة في العبرية، ويراد بها وادي العربة الممتدة من شمالي البحر الميت أو بحر الجليل إلى خليج العقبة، وتعني هذه اللفظة بالعبرية: القفر والجفاف، وحافة الصحراء، وأرض محروقة؛ أي: معاني ذات صلة بالبداوة والبادية، وأطلق العرب على هذه المنطقة اسم العربة وتقيم فيها قبائل بدوية شملتها هذه اللفظة[٩].

وفرَّق العبرانيون في التسمية بين الحضر والبدو، إذ عندما يذكرون الحضر يسمونهم بأسماء قبائلهم أو بأسماء المواضع التي ينزلون فيها. أما تعميم كلمة عرب على سكان الجزيرة العربية فقد جاء متأخراً على أثر احتكاك العبرانيين بالقبائل التي كانت تقيم في البادية[١٠].

= Gabrieli, Francisco: Les Arabes p11.

علي: جـ١ ص١٦. دائرة المعارف الإسلامية: جـ٢٣ ص٧٢٤٤.

(١) Margoliouth: p3.
(٢) علي: جـ١ ص١٧.
(٣) قاموس الكتاب المقدس: ص٦١٥.
(٤) سفر أشعيا: الإصحاح ١٣، الآية ٢٠.
(٥) قاموس الكتاب المقدس: ص٦١٦.
(٦) سفر أشعيا: الإصحاح ٢١، الآية ١٣.
(٧) سفر إرميا: الإصحاح ٣، الآية ٢.
(٨) المصدر نفسه: الإصحاح ٢٥، الآية ٢٤.
(٩) علي: جـ١ ص١٩.
(١٠) المرجع نفسه: ص٢٠، ٢١.

ووردت كلمة عرب عند الكُتَّاب اليونان منذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد، وأول من ذكرها أخيلوس (٥٢٥ ـ ٤٥٦ق.م) في معرض كلامه على جيش الملك الفارسي أحشويرش حيث أشار إلى اشتراك قائد عربي في هذا الجيش، كان مشهوراً في قومه[١]، ثم ذكرها هيرودوتس في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، وقد أطلق كلمة العربية على البادية والجزيرة العربية كلها بما فيها صحراء سيناء والأراضي الواقعة إلى الشرق من نهر النيل[٢]. وأضحى هذا اللفظ شائعاً بعد ذلك عند جميع الكُتَّاب اليونان والرومان، وصارت كلمة العربية عَلَماً على الأراضي المأهولة بالعرب والتي تغلب عليها الطبيعة الصحراوية، وكلمة عربي عَلَماً على الشخص الذي يقيم في تلك الأراضي من بدو وحضر[٣].

ولم ترد هذه الكلمة في المصادر العربية الأثرية إلّا متأخرة. فقد ورد اسم العرب في نص عربي شمالي يعود تاريخه إلى عام (٣٢٨م)، وهو خاص بامرئ القيس بن عمرو، وقد ورد فيه: «مر القيس ير عمرو ملك العرب كله...». ويبدو أنه قصد الأعراب؛ أي: القبائل التي كانت تقطن البادية، ولم يرد بها البدو والحضر[٤]. كما وردت كلمة أعرب في نص جنوبي بمعنى أعراب، ولم يقصد بها قومية أي علم لهذا الجنس المعروف الذي يشمل كل سكان بلاد العرب من بدو وحضر «وأعرب ملك حضرموت» أي: أعراب ملك حضرموت، وذلك بفعل أن أهل المدن والمتحضرين كانوا يُعرفون بمدنهم أو بقبائلهم، وكانت مستقرة في الغالب[٥].

نتيجة لما تقدم، فإن لفظة عرب هي بمعنى البداوة، في كل اللغات السامية، ولم تكن تُفهم إلّا بهذا المعنى في أقدم النصوص التاريخية التي وصلت إلينا وهي النصوص الأشورية، وقد قصدت بها البدو بعامة، واستُعملت بهذا المعنى عند غيرهم. ولما توسَّعت مدارك الأعاجم وزاد اتصالهم واحتكاكهم بالعرب وبجزيرة العرب، توسَّعوا في استعمال اللفظة حتى أضحت تشمل أكثر العرب بوصفهم أهل بادية، وأن حياتهم حياة أعراب، ومن هنا غلبت على بلادهم فصارت عَلَمية عند أولئك الأعاجم، على بلاد العرب وعلى سكانها، ولذلك أطلق اليونان والرومان على بلاد العرب لفظة العربية بمعنى بلاد العرب[٦].

وعرف اليونان واللاتين والأوروبيون في العصر الحديث، العرب باسم ساراسين، وأطلقوه على قبائل عربية كانت تقيم في بادية الشام وسيناء وفي الصحراء المتصلة

---

(١) Encyclopedia Biblica I p273..
(٢) Ibid: p271. لويس: ص١١.
(٣) علي: جا ص٢١، ٢٢.
(٤) المرجع نفسه: ص٢٣.
(٥) المرجع نفسه.
(٦) المرجع نفسه: ص٢٥، ٢٦.

بأدوم[١]. واختلف العلماء لدى البحث في أصل التسمية، فقال بعضهم بأنها مشتقة من سرق فهي السراقين أو السارقين بمعنى اللصوص، ويُراد بهم بدو الصحراء نظراً لكثرة غزوهم، أو من شرق، ويُراد بها الأرض التي تقع شرقي النبط، أو من شرقو، وتعني: سكان الصحراء[٢].

وسمَّى الروم ـ البيزنطيون ـ العرب ساراقينوس بمعنى عبيد سارة ضغناً منهم على هاجر وابنها إسماعيل بفعل إنها كانت أمة لسارة، على الرغم من إنكار الامبراطور البيزنطي نقفور فوكاس ذلك[٣].

ويوضح بطليموس في جغرافيته هذه التسمية إذ يُطلق اسم السركنوا على إقليم الثاديتاي وهي المنطقة الواقعة جنوبي الإقليم الذي تنزل فيه قبيلة طيء بين منطقة الشراة وصحراء النفود. واستناداً إلى هذا التوضيح يصبح إقليم السركنوا واقعاً في النصف الشمالي الغربي من المنطقة التي تُعرف في الوقت الحاضر باسم شُمَّر، وكان هذا الاسم يُطلق على جميع البدو من العرب الذين يسكنون شرقي مملكة الأنباط في البادية العربية[٤].

طبقات العرب

صنَّف معظم علماء الأنساب والإخباريين الشعوب العربية في طبقتين: بائدة وباقية[٥]. ويُعنون بالبائدة، القبائل العربية القديمة التي كانت تعيش في جزيرة العرب ثم بادت قبل الإسلام، وانقرضت أخبارها بفعل عاملين:

الأول: تغيُّر المعالم الطبيعية الناتج عن الرمل الزاحف الذي طغى على العمران القديم في أواسط الجزيرة العربية وفي الأحقاف في الجنوب.

الثاني: ثورات البراكين وما ترتَّب عليها من تدمير المدن[٦].

ويُطلق على هذه الطبقة اسم العاربة إما بمعنى الرساخة في العروبية أو المبتدعة لها بما كانت أول أجيالها، وتُسمى البائدة أيضاً بمعنى الهالكة؛ لأنه لم يبق على وجه الأرض أحد من نسلها. إنهم مادة العرب وأرومتها وأقدم طبقاتها وأول من تكلم بالعربية[٧]، وهؤلاء القبائل هم: عاد، ثمود، عمليق (العمالقة)، طسم،

---

(١) علي: جـ١ ص٢٦، ٢٧.

(٢) مجلة الهلال، السنة السادسة ١٨٩٧م: جـ٨ ص٢٩٦.

(٣) المسعودي: التنبيه والإشراف ص١٦٨.

(٤) موسل، لويس: شمالي الحجاز ص١٢٩.

(٥) الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك: جـ١ ص٦١٨، ٦٢٦.

(٦) فروخ، عمر: تاريخ الجاهلية: ص٤٥.

(٧) ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد: تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر وديوان المبتدأ =

جديس، أميم وجاسم، وقد يُضاف إليهم أحياناً، عبيل، جرهم الأولى ودبار، ويرجعون بنسبهم إلى سام بن نوح[١].

وأما العرب الباقية الذين يُسمون أيضاً بالمتعربة والمستعربة فهم بنو يعرب بن قحطان، وبنو معد بن عدنان بن أد، الذين أخذوا اللغة العربية عن العرب البائدة. وقد تعرَّب قحطان وجماعته عندما نزلوا اليمن، واختلطوا بالناس هناك، وفي رواية بأن يعرب كان يتكلم السريانية، فانعدل لسانه إلى العربية، فتعرَّب[٢]. إنهم العرب الباقون الذين يشكِّلون جمهرة العرب بعد هلاك الطبقة الأولى، وهم الذين كُتب لهم البقاء، وينتمي إليهم كل العرب الصرحاء عند ظهور الإسلام، ويرجعون بنسبهم إلى سام بن نوح.

وهناك تقسيم آخر يُصنِّف العرب في ثلاث طبقات: العرب البائدة، والعرب العاربة، والعرب المستعربة، ويُطلق على الطبقتين الأخيرتين اسم العرب الباقية. فالعرب العاربة هم الذين انحدروا من نسل قحطان أو يقطان، كما ورد في العهد القديم[٣]، وهو أول من تكلم بالعربية، إنهم العرب ذو الأصالة والقدم. وهؤلاء هم القحطانية من حمير وأهل اليمن وفروعها الذين يمثلون أهل جنوب بلاد العرب، في مقابل العرب المستعربة، وهم المعديون الذين انحدروا من ولد معد بن عدنان بن أد، وسكنوا نجد والحجاز والشمال وينحدرون من إسماعيل بن إبراهيم، ولم يكونوا عرباً فاستعربوا، وسموا بالمستعربة؛ لأن إسماعيل عندما نزل مكة كان يتكلم العبرانية أو الآرامية أو الكلدانية، فلما صاهر اليمنية تعلَّم لغتهم العربية[٤].

ويقسم ابن خلدون العرب إلى أربع طبقات متعاقبة في المدى الزمني: العرب العاربة وهم البائدة، ثم العرب المستعربة وهم القحطانية، ثم العرب التابعة لهم من عدنان والأوس والخزرج والغساسنة والمناذرة، ثم العرب المستعجمة وهم الذين دخلوا في نفوذ الدولة الإسلامية، وعلى الرغم من أنه يتردَّد في إخراج القحطانية من العرب العاربة «وربما يُقال: إن من العرب العاربة يقطن (أي قحطان) أيضاً»، فإنه في تقسيمه العام للعرب في طبقاتهم المختلفة يضع القحطانية في الطبقة الثانية من العرب وهم المستعربة الذين اصطنعوا اللسان العربي[٥].

= والخبر: جـ٢ ص١٨، ١٩. علي: جـ١ ص٢٩٠.

(١) الطبري: جـ١ ص٦٢٦. ابن خلدون: جـ١ ص١٦، ١٧.

(٢) فروخ: ص٤٤.

(٣) سفر التكوين: الإصحاح ١٠، الآية ٢٤ ـ ٣٠.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر: جـ١ ص٢٦٢. ابن خلدون: جـ٢ ص٤٦، ٤٧.

(٥) المصدران نفساهما.

والواقع أن هذا التقسيم بين العرب العاربة والعرب المستعربة مرده ما ورد في العهد القديم، وقد نهل منه من عُني بأخبار بدء الخلق، ثم اتفق النسابون والإخباريون على تقسيم العرب من حيث النسب إلى قسمين: قحطانية: منازلهم الأولى في اليمن، وعدنانية: منازلهم الأولى في الحجاز[1].

وإذا جاز لنا أن نوافق الإخباريين بتقسيم العرب إلى بائدة وباقية؛ لأن هذا التقسيم هو واقع ومعروف لدى العلماء ولدى العامة أيضاً إلّا أننا لا نجد مبرراً في إطلاق وصف عرب خُلَّص على قسم من العرب، وعرب غير خُلَّص على قسم آخر، وبخاصة أن جميع المصادر تُرجع أصل جميع العرب بشقيهم البائدة والباقية، إلى سام بن نوح[2].

لم يفرق القرآن الكريم بين العرب في طبقاتهم، ويشير إلى أنهم ينحدرون من جد واحد هو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، أبو العرب ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ . . .﴾ [الحج/٧٨].

كذلك، لم يرد في الشعر الجاهلي ما يشير إلى تقسيم العرب إلى قحطانية وعدنانية سوى أبيات قيلت في التفاخر بقحطان أو بعدنان، ثم إن هذا الشعر لا يرقى إلى عصر الجاهلية الأولى؛ لأن معظمه قيل قبيل الإسلام، كما أن علماء الأجناس لم يلاحظوا فروقاً جثمانية بين القحطانيين والعدنانيين[3].

ولم يظهر هذا الانقسام في حياة النبي ولا خلال عصر صدر الإسلام، الخلفاء الراشدين، وإنما برز في العصر الأموي من واقع النزاع الحزبي وبعد شيوع نظرية العهد القديم في الأنساب واستناد النسابين في رواياتهم إلى أهل الكتاب[4]، والراجح أن أصل العداء مرده إلى النزاع الطبيعي بين البداوة والحضارة[5].

سنتجاوز في هذه الدراسة تاريخ الشعوب العربية البائدة التي أشارت إليهم الروايات العربية القديمة وذكر القرآن الكريم قصص بعضهم، ملتزمين بتحديد الموضوع في تاريخ العرب قبل الإسلام على الشعوب العربية الباقية داخل الجزيرة العربية وخارجها في المدة القريبة من ظهور الإسلام ليتناسب عنوان الدراسة مع مضمونها، آملين بأنّا لا نخرج عن الهدف الذي يُبرِّر ذلك، وحتى لا نتجرأ على الدخول في ميدان بعيد جداً عن مرحلة الجاهلية القريبة من العصر الإسلامي، مع إبداء ما يلي:

---

(١) ابن خلدون: جـ٢ ص١٥، ١٦.

(٢) معطي، علي: تاريخ العرب السياسي قبل الإسلام: ص٩٦.

(٣) علي: جـ١ ص٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨٥، ٤٢٢.   (٤) المرجع نفسه: ص٣٦٤.

(٥) أمين: ص٢٠.

ـ إن المعلومات المتوافرة عن العرب البائدة قليلة جداً وتكاد تكون نادرة، وبخاصة تلك المتعلقة بالقبائل التي بادت تماماً وانقرضت ولم يبق من آثارها شيء يدل على وجودها أو إنجازاتها.

ـ إن الأشخاص القلائل الذين نجّاهم الله من هذه القبائل البائدة بفضل صلاحهم، اندمجوا في جماعات أخرى لم ينالها العذاب ولا تعرَّضت للانقراض، وقد شكَّلوا معهم مجتمعاً جديداً.

ـ إن بعض الشعوب العربية البائدة كان على درجة عالية من القوة والجبروت والتقدُّم الحضاري الذي يشهد عليه ما خلَّفوه من آثار لا تزال باقية وذكرها القرآن الكريم مثل قوم عاد وقوم ثمود، ومن المؤكد أن عادات هذه الأقوام وتقاليدها قد اندثرت ولم يبق منها شيء على الإطلاق، والراجح أن الأشخاص الذين نجوا، تجنَّبوا عادات قومهم وأساليب حياتهم، ولم يحملوا معهم من الماضي إلّا النذر اليسير الذي لا يُشكِّل قيمة حضارية، وبذلك توقَّف تاريخهم.

ـ شكَّل الأشخاص الذين نجوا من الكوارث والعذاب وتبعوا في المدى الزمني الأقوام الذين اندمجوا في منظومتهم الاجتماعية، الأقوام العربية الباقية التي عمرت الأرض وأنتجت الحضارة الجديدة والتي لا تزال موضوع اهتمامات الباحثين ودراساتهم[1].

---

(١) معطي: ص١٢٠، ١٢١.

الفَصْلُ الثَّاني

الرعي والزراعة

تمهيد

يتأثر الوضع الاقتصادي عادة بطبيعة الإقليم، إذ إن للطبيعة أثراً كبيراً في تحديد خيرات الإقليم وإنتاجه الزراعي والصناعي والحيواني. وقد أثَّرت طبيعة الجزيرة العربية في تكييف اقتصاد العرب الجاهليين في العصر السابق لظهور الإسلام، وفي تحديد موارده، وفي توجيه العرب الاقتصادي. فاعتمد سكان المناطق الصحراوية، بشكل رئيس، على الرعي المتنقل لأنعامهم ومواشيهم وعلى التجارة، في حين اعتمد سكان المناطق الخصبة على الزراعة ولم يهملوا التجارة، كما كان عندهم إلمام بالصناعة، فكانوا أوفر حظاً من البدو.

وتبرز في الوضع الاقتصادي للجزيرة العربية في العصر السابق لظهور الإسلام ظاهرة واضحة تتمثل بتعدُّد الموارد وتنوُّعها. وجاءت هذه الظاهرة نتيجة عاملين:

الأول: تنوُّع طبيعة الأرض والمناخ، وانعكس ذلك في:

- المناطق الصحراوية التي لا تصلح إلّا للرعي المتنقل حيث تصل الطبيعة إلى درجة قصوى في قلة الخصوبة وفي ندرة المطر، ويصبح بقاء البدو في منطقة معينة لموسم معين رهناً بظهور بعض العشب من حين لآخر.
- مناطق أقل قسوة في طبيعتها حيث يكثر العشب من حين لآخر، ويستمر مدة طويلة نسبياً، ومن ثَمَّ يقترب أهل البادية من الرعاة إلى صفة الإقامة الثابتة في المناطق التي توجد فيها مراعيهم، مثل المناطق الواقعة على حافة الهلال الخصيب المجاور لوادي الرافدين وبادية الشام.
- مناطق تكثر فيها الواحات التي احتوت على بعض الينابيع التي تسمح بقدر من الزراعة مثل بعض الواحات الموجودة في نجد والحجاز والقسم الشمالي الغربي من جزيرة العرب.
- مناطق حظيت بتربة خصبة نتيجة هطول الأمطار الموسمية بغزارة وانتظام، مثل القسم الجنوبي الغربي للجزيرة العربية حيث تكثر الزراعة في منطقة اليمن.

الثاني: الموقع الجغرافي للجزيرة العربية براً وبحراً بين مناطق الشرقين الأدنى

والأقصى من جهة، وبين المناطق المطلة على البحر الأبيض المتوسط في الغرب من جهة أخرى، والتي تجعل منها معبراً ومنطلقاً لقوافل التجارة البرية والبحرية بين المنطقتين.

انطلاقاً من الظروف الطبيعية والسكانية، نرى سكان الجزيرة العربية في مرحلة الجاهلية ينقسمون إلى ثلاث فئات:

- فئة غير مستقرة تطلب العيش بالترحُّل والرعي.
- فئة مستقرة تعمل في الزراعة.
- فئة بين الاستقرار والترحُّل.

وقد نتج عن هذا التقسيم نشوء ظواهر عدة لعل أهمها الرعي والزراعة.

الرعي

شكَّل الرعي، بنوعيه الثابت والمتنقل، المورد الاقتصادي الأساس للرعاة البدو سكان البادية، في القسم الأكبر من الجزيرة العربية، وذلك بفعل تأثير الطبيعة الجغرافية، وهو أحد ركائز الاقتصاد العربي.

فالرعي الثابت هو الذي مارسه سكان بعض القرى والواحات، حيث يخرج الرعاة صباحاً بالماشية إلى المراعي القريبة ثم يعودون بها مساء إلى حظائرها. وأما الرعي المتنقل فهو الذي مارسته القبائل العربية غير المستقرة في البوادي، والذي يُعدُّ مصدراً أساسياً لمعايشهم[(١)].

وتختلف مناطق الرعي من حيث الخصوبة والجودة بين منطقة وأخرى، فتمتاز منطقة شمالي الجزيرة العربية بخصوبة أراضيها وجودة مراعيها، وتنمو في وسط الجزيرة أعشاب كثيرة وشجيرات في الحقول وفي بعض الأودية، ولكن بكثافة أقل من المناطق الأخرى وذلك بفعل قلَّة الأمطار وندرتها أحياناً[(٢)].

وتُعدَّ مراعي شرقي الجزيرة غنية ومستقرة وذلك بفعل ارتفاع نسبة الرطوبة وتكوُّن الندى الذي يساعد على نمو الأعشاب والنباتات، ثم إن انتشار الواحات في أسفل سفوح المرتفعات يُعدُّ عاملاً آخر ساعد على غنى المراعي.

أما الأقسام الغربية، فتنتشر مراعيها المتنقلة في الدهناء والصمان[(٣)].

وتتنوَّع المراعي والنباتات في مناطق غربي وجنوب غربي الجزيرة العربية، وذلك

---

(١) Lammens, Henry: Le Berceau de L'Islam p85.

(٢) دراز، عمر عبد المجيد: المراعي ووسائل تحسينها في المملكة العربية السعودية ص٣٢، ٣٦.

(٣) أبو العلاء، محمد طه: جغرافية شبه الجزيرة العربية ص١٧٥.

بفعل تنوُّع مظاهرها الطبيعية ومقدار ما يهطل من الأمطار، وتكثر في المرتفعات وفي السواحل التي ترتفع فيها نسبة الرطوبة، كما تكثر في المنحدرات الشرقية للمرتفعات وبخاصة في الأودية الكبيرة التي يتجنب السكان زراعتها بفعل عِظم السيول وشدة تدفقها. وتنبت الأعشاب بكثافة في هذه الأودية حيث يغلب عليها النوع الثابت من الرعي(١).

أما الأعشاب التي تنبت في هذه المراعي فهي كثيرة ومتنوعة نذكر منها: العرقصان، البقل، الذرف، الشقاي، الخمخم، اليمنة، الزباد، الصفراء، الحريت، الأقحوان، القت، الخضرة، النضيء، السبط، الثقات، التمام، العرفج، الغمضاء، الرمث، الغضة، الدغل، الصليان وغيرها(٢).

كانت أراضي المراعي وتجمعات المياه كالآبار والينابيع على نوعين، عامة وخاصة، فالمراعي العامة أو المشاعية لا تدخل في ملكية أحد وإنما يرعى فيها كل أفراد القبيلة التي تستقر في مناطق العشب، وهو أمر أملته ظروف الطبيعة والتعايش معها، وشكَّلَ الأساس الذي يقوم عليه المجتمع القبلي، فكثيراً ما تذكر روايات المصادر أن هذا الموضع أو ذاك هو مرعى لإبل بني فلان؛ أي أنها تذكر جماعة من القبائل تملك هذه المواضع، فأضحى بذلك قانوناً ملازماً لرعاة البادية، سواء في العصر الجاهلي أو حتى بعد ظهور الإسلام، على الرغم من تقلُّصه وإشرافه على الزوال، ونجده ينعكس في حديث للنبي محمد ﷺ. يقول فيه: (الناس شركاء في ثلاث: الماء والنار والكلأ)، والمعروف أن النبي حرَّم حمى الأفراد من زعماء وغيرهم وأبقى حمى الدولة والناس(٣)، لكن تداخلت مع هذه الملكية المشاعية أراض في نطاق الملكية الخاصة طوال المدة التي تقضيها القبيلة في منطقة أو أخرى من مناطق العشب، وهذه الأراضي هي الأحماء التي كان الانتفاع بها قاصراً على بعض أفراد أو مجموعات من القبيلة، ترعى إبلهم فيها وحدهم إلى جانب الانتفاع بأراضي الرعي المشاعية التي ترعى فيها إبل القبيلة كلها. وكان رئيس القبيلة وساداتها أو الأشخاص ذوو السطوة والنفوذ فيها، يتمتعون بهذا الحق. ولكن ملكية أراضي المراعي سواء كانت مشاعية أو أحماء، كانت ملكية مؤقتة تستمر ما دام العشب في المنطقة، وتزول عندما تترك القبيلة المرعى لتنتجع العشب في منطقة أخرى، وتصبح الملكية للقبيلة التي تحل محلها.

---

(١) دراز: ص٤٣، ٤٧.

(٢) الأصفهاني، الحسن بن عبد الله: بلاد العرب: ص٢٩٧.

(٣) ابن سلام، أبو عبيد القاسم: كتاب الأموال: ص١٢٤.

لم يكن الرعي المورد الوحيد لسكان البادية، وإنما مارس البدو مهناً أخرى بالتوازي مع الرعي كموارد مساعدة، منها:

ـ الحصول على جزء من محصول التمر الذي ينتجه النخيل في الواحات المجاورة لمناطق الرعي، إما عن طريق القوة بشنِّ الغارات على هذه الواحات وسلب جزء من محصولها أو عن طريق حماية السكان ومحاصيلهم من تعرضهم لمغيرين آخرين.

ـ استغلال مردود القوافل التجارية في أراضي البدو، فتحصل القبيلة على أجر معلوم من هذه القوافل مقابل إرشادها وحمايتها وتقديم ما تحتاج إليه من خدمات على طول الطرق التي تقع عبر أراضيها. فكان سكان كل منطقة يسلمون القافلة إلى سكان المنطقة التي تليهم حتى تصل إلى محطتها الأخيرة.

ـ الوساطة بين البادية والحضر، وهو دور كان يتطور باضطراد. وكان سكان البوادي من الرعاة هم الذين يقومون بهذه الوساطة في المناطق السهلية الخصبة المتاخمة للصحراء سواء في بادية العراق أو في بادية الشام، وكان يُسمح لهم بإقامة نوع من التبادل التجاري مع المدن والقرى الواقعة على الحدود، فيقدِّم البدو ما يحتاج إليه الحضر من نتاجهم من الأغنام أو وبر الجمال الذي يصلح للنسيج مقابل ما يحتاجون هم من السلع، وربما تطورت هذه العلاقة التبادلية إلى نوع من إقامة البدو في بعض الأراضي الواقعة على حدود الدولة بصورة دائمة بهدف الحماية من واقع انخراطهم كجند مرتزقة في قوات هذه الدولة، وقد يمارسون الزراعة أو بعض المهن في هذه الأراضي[1].

ويرتبط بالرعي ما يقوم به البدو من تربية المواشي والحيوانات. والحقيقة أن الطابع المميز لهذا الأسلوب كونه تابعاً بشكل مطلق للظروف الطبيعية، ولا سيما المناخية، أن ليس للإنسان من سيطرة فيه سوى قدرته على التنقل، وهو تنقُّل قسري بحثاً عن الماء والكلأ. والواضح أن هذه التبعية للطبيعة هي عامل ضعف وكبح زادت في تخلُّف الاقتصاد البدوي، إضافة إلى حروب الثأر بين القبائل أو النزاعات المسلحة من أجل الحصول على المراعي وموارد المياه، في حين كانت عوامل الاقتصاد الحضري تدفع به إلى الخضوع لقوانين تطور الاقتصاد الحضري ذاته بقدر ما كانت تقتضيه القوانين العامة لتطور المجتمع البشري في مثل ظروف الجاهلية العربية تلك[2].

ومهما يكن من أمر، فقد اعتمد البدوي في حياته على تربية المواشي كمصدر آخر لمعيشته، ولا سيَّما الإبل التي تُعد من أهمها وأقدمها وأعزِّها عند العرب، والحليف

---

(١) يحيى: ص٢٩٣، ٢٩٤.

(٢) مروة، حسين: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية: جا ص٢٠٢، ٢٠٣.

الأول لرعاة البادية في تنقُّلهم، وتتلاءم صفاتها مع طبيعة الجزيرة العربية أكثر من غيرها، أهمها: الصبر على العطش لأيام طويلة، خمسة وعشرين يوماً في الشتاء وخمسة أيام في الصيف؛ لأنها تختزن الماء في جوفها وتعيش عليه كل تلك المدة، كما يشكل هذا المخزون احتياطاً للأعراب في أوقات انقطاع الماء عنهم واشتداد العطش، بالإضافة إلى قدرتها على السير في المناطق الرملية بسبب طبيعة تكوين أخفافها، وقدرتها أيضاً على نقل قدر من الأحمال تعجز عن نقلها الدواب الأخرى، فصار بإمكان البدوي والحضري التنقُّل مسافات بعيدة في الجزيرة العربية وخارجها وحمل أثقالهما معهما، كما استعملاه في حروبهما وفي أعمالهما الزراعية. وبفضل الجمل، اتصل عرب الجزيرة العربية بعضهم ببعض، وقامت مستوطنات نائية في بلاد العرب، وتكوَّنت فيها التجارة البرية. وانتفع العربي بلحم الإبل وحليبها وجلدها وروثها الذي جعل منه وقوداً، وبولها في تحضير أدوات التجميل والأدوية الشافية من الحمى وبعض الطفيليات، كما أنه يُقوي الشعر وينميه[١].

وكان أهل مكة يرعون إبلهم في الأودية والشعاب المجاورة التي ينبت فيها الكلأ وبعض شجيرات رعوية في مواسم معينة من السنة، كما كان بمكة سوق نشط للإبل وغيرها من المواشي، ويملك سكان يثرب ثروة كبيرة من الإبل يطعمونها من الشجيرات الرعوية ومن بعض الأشجار التي تنبت في أراضيهم.

والجمل هو الحيوان الوحيد الذي يتباهى به العربي ويفتخر، وقد جعله مقياس ثرائه وماله[٢].

ويأتي الغنم والخيل وسائر المواشي في المرتبة الثانية بعد الإبل. تُربَّى الأغنام في أنحاء الجزيرة العربية كافة، ويستفيد العربي من لحومها وصوفها وألبانها، وبفعل حاجتها الدائمة إلى الماء والعلف اختص بها أهل الحضر وأصحاب المراعي.

ويُربي الماعز في المناطق الجبلية وعلى التلال المنتشرة هناك ويستفيد العربي من لحومها وألبانها وجلودها وشعرها الذي تُصنع منه الخيام السوداء. وكانت أنواع من الماعز تعيش في البراري، وتقتات الأعشاب البرية وأوراق الأشجار[٣].

ومارس العرب تربية الأبقار في المناطق الزراعية والقريبة من مصادر المياه حيث كان المزارعون يستعملونها في حراثة الأرض، ورفع الماء من الآبار، وتشغيل المطاحن، وينتفعون بلحومها وحليبها.

---

(١) علي: جـ١ ص١٩٨. بلياييف، ي. أم: العرب والإسلام والخلافة العربية في القرون الوسطى: ص٨٥ ـ ٨٧.

(٢) علي: جـ٧ ص١١٣.

(٣) المرجع نفسه: ص١١٧.

وكثرت الخيول في بلاد العرب، وقد اشتهرت بأصالتها وجمالها، ويُعدُّ اقتناؤها من الأمور الكمالية التي يسعى إليها العربي لتحقيق أهدافه في الغزو واللهو وممارسة الألعاب الرياضية مثل السباق، لذلك كَثُر وجودها عند الأثرياء. غير أن الخيل لم تصبح أداة قتالية عند العرب إلّا في عصور متأخرة. ولم تكن الخيل كثيرة في الحجاز عند ظهور الإسلام بفعل ارتفاع ثمنها وتكاليفها، فيعسر على من لا يملك المال الكافي شراؤها والإنفاق عليها، ففي معركة بدر لم يكن مع المسلمين سوى فرسين، كما لم يكن مع قريش سوى مائة فرس(١).

الـزراعـة

التوجهات الزراعية

تميَّز التركيب السكاني في الجزيرة العربية خلال المرحلة السابقة لظهور الإسلام بارتفاع نسبة عدد البدو المتنقلين عن الحضر المستقرين والمرتبطين بالأرض، غير أن هذا التميُّز الإجمالي لا يستند إلى إحصاء له ما يؤدي إلى عدم إمكان الاعتماد عليه كمنطلق لوضع تحليل دقيق للبنية الاقتصادية ـ الاجتماعية التي كان عليها المجتمع الجاهلي آنذاك، غير أننا نجد أمامنا معطيات تاريخية كثيرة تشير إلى كثرة عدد الأماكن التي يعمل سكانها في الأرض وينتجون المحصولات الزراعية، التي تفيض عن حاجتهم أحياناً، وتجد طريقها إلى أسواق التبادل المحلية، وتتواجد هذه الظاهرة في الجنوب واليمن بشكل خاص، غير أن الحياة الزراعية كمورد اقتصادي أساسي لم يكن قاصراً على القسم الجنوبي من الجزيرة العربية بل شمال الجزيرة كلها.

ويلاحظ أن القرون السابقة لظهور الإسلام تتميز بخصوصيتها من حيث منحى التوجهات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية. ففي تلك المرحلة تطورت وسائل الإنتاج والقوى المنتجة، وتوسَّعت أعمال الري الاصطناعي، وازداد الإنتاج الزراعي، وحدث تقسيم جديد للعمل من واقع انفصال الحِرَف الصناعية اليدوية عن الزراعة، وارتبط الإنتاج الصناعي بسوق التبادل، ونمت المدن، وتحوَّل العديد من القرى إلى حواضر مدينية، واستُغلَّ الموقع الجغرافي للجزيرة العربية بعامة وبلاد الحجاز بخاصة، ونُظِّمت الأسواق الموسمية العامة، وعُقدت الاتفاقيات التجارية بين القبائل وبينها وبين العالم الخارجي، وارتبطت أعداد وفئات كثيرة من سكان المدن والبادية بالعملية التجارية ما أدَّى إلى قيام تحالفات سياسية قبلية على أساس

(١) الطبري: جـ٢ ص٤٧٧، ٤٧٨.

المصالح المشتركة والضرورات الدفاعية[1].

أنظمة الري

السدود: لم يقف سكان الجزيرة العربية مكتوفي الأيدي أمام التبعية لعوامل الطبيعة بل عملوا للحد منها. ففي اليمن وحضرموت وعُمان في الجنوب الشرقي، وفي اليمامة شرقاً، وفي الحجاز شمالاً، وفي تهامة غرباً بقسميها الشمالي والجنوبي، وفي الواحات الكثيرة الواقعة على أطراف الصحراء وداخل الصحراء حتى منطقة الحرَّات؛ كانت تجري أعمال زراعية يقوم بها مستقرون دائمون مع الأرض، ومن أنصاف مستقرين، مسخرين المياه الجوفية والمياه السطحية الموسمية بوسائل متقدمة، بالقياس إلى مرحلتهم، لإنتاج حاجاتهم المباشرة وحاجات التبادل في الأسواق الداخلية والأسواق الخارجية على صعيد الجزيرة العربية[2]، وإن كانت البيئة الطبيعية قد حدَّدت شكل الأسلوب المستخدم.

ففي الأمكنة التي تهطل فيها الأمطار بغزارة، كما في اليمن بنى العربي السدود وحفر الآبار، وحبس مياه السيول لاستعمالها في الري خلال أيام الجفاف، وحفر الآبار في الوديان والواحات وبعض السهول الساحلية لاستثمار موارد المياه الجوفية، ووسَّع أعمال الري الاصطناعي، وجرَّ المياه إلى الأراضي المزروعة، وأقام المدرجات على سفوح الجبال في اليمن لمنع انجراف التربة، واستغلَّ أرض يثرب ذات التربة البركانية الغنية، وحوَّلها إلى واحة لزراعة النخيل والشعير. أما في المناطق القليلة المطر أو تساقطها غير منتظم، كما هو الوضع في الحجاز ونجد واليمامة، فاعتمدت الزراعة على الري بصورة أساسية.

تنوَّعت أنظمة الري التي استخدمها العربي، إلّا أن أنظمة السدود والقنوات كانت أهمها.

لم تكن السدود على نسق واحد من حيث البناء والشكل، وهي على ثلاثة أنواع:

الأول: بسيط وبدائي، وهو مجرد حاجز من تراب أو صخور كُدِّست بعضها فوق بعض لحبس الماء في المنخفض ومنعه من الجريان وتحويله إلى المزارع والحقول، وأُقيم على الأودية الصغيرة الفرعية والشعاب. وتختلف أشكاله وطريقة بنائه من منطقة لأخرى، فمنها ما يُقام في وسط مجرى الوادي بحيث تقسم التيار المائي إلى اتجاهين، ومنها ما يُبنى على جانب واحد من حافة الوادي بحيث تحجز مجرى الوادي كله أو جزءاً منه. وقد تتعدَّد أشكال هذا النوع من السدود في الوادي

---

(١) معطي: ص٧٢، ٧٣.

(٢) مروة: جا ص١٩٤ ـ ١٩٦.

الواحد، وكثيراً ما تنجرف مع السيول ويعاد بناؤها في الموسم التالي[١].

الثاني: أُقيم على شكل حرف V لحجز التربة والطمي المنجرف مع مياه السهول.

الثالث: يتميز بالضخامة والصلابة والقوة ويحتاج بناؤه إلى أحجار صلبة ومواد بناء مختلفة ومتنوعة بالإضافة إلى أعداد كبيرة من العمال، لذلك لا يستطيع بناءه إلّا الحكومات المتمكنة مادياً، ولا يتوفر ذلك إلّا في اليمن.

كان الهدف من بناء هذا النوع مزدوجاً، رفع مستوى الماء في مجرى الوادي والتحكم به عبر قنوات إلى مسافات طويلة لري آلاف الهكتارات من الأراضي الزراعية من جهة، وحجز الماء في أحواض كبيرة لاستخدامه في وقت الجفاف لسقي الماشية وري النباتات في الحقول والبساتين[٢].

أُقيمت السدود في مناطق مختلفة من بلاد العرب، فقد بنى الأنباط عدداً منها في صحراء النقب في وادي خرنوب، ووادي رمليا، ووادي أبيض[٣].

وبنى التدمريون بعض السدود مثل سد حريقا في الوادي الكبير، ووُجدت في شمالي الحجاز آثار بعض السدود في: وادي المعتدل في العُلا، وخيبر والطائف وقرية ووادي رم في حسمى في بلاد الأنباط[٤]، وسدِّ قصر البنت في خيبر، وهو عبارة عن بركة كبيرة ليس لها منافذ لإخراج المياه المخزن، وقد بُني من حجر البازلت المتوفرة بكثرة في المنطقة، فكانت المياه تُنقل إلى الأراضي الزراعية المجاورة بواسطة قناة.

وبنيت سدود كثيرة في مناطق الجنوب والجنوب الغربي من الجزيرة العربية، نذكر منها: سد الجلاد عند انحدار وادي نجران، ويتصل به عدد من الأقنية لنقل المياه إلى الأراضي الزراعية المجاورة، وتكثر فيه مخارج المياه، وفي يحصب، من مخاليف اليمن، ثمانون سداً[٥].

ويُعدُّ سد مأرب من أهم السدود التي اكتسبت شهرة في تاريخ اليمن والجزيرة العربية. بدأ السبئيون في بنائه في القرن الثامن قبل الميلاد، واتخذ شكله النهائي من خلال الترميم الذي أجراه الملك شمر يهرعش الثالث في عام (٣٠٠م)، وهو يشكل

(١) النعيم، نورة عبد الله العلي: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثالث الميلادي: ص١٠٣، ١٠٤.

(٢) Bowen, Richard: Irrigation in Ancient Qataban pp69, 70, 87.

(٣) Evenari, M: The Challenge of The Desert p119.

(٤) نورة: ص١٠٥ ـ ١٠٧.

(٥) الهمداني: ص١٦٢ ـ ١٦٤ ـ ٢٠٠.

العمود الفقري لتنظيم الري الاصطناعي وتطور الزراعة الكثيفة في العربية الجنوبية، وقد بُني في وادي أذنة بين جبلي أبلق القبلي وأبلق الأوسط، على بُعد أكثر من ثلاثة أميال من مأرب، وتتجمَّع فيه روافد عدة من ذمرار وجهران وخولان وبلاد مراد وردمان وغيرها[1]. وللسد فتحات عدة تُفتح وتُغلق لمرور المياه منها حسب الحاجة، إلى الحقول والبساتين المجاورة، ويبدو أن السبئيين بنوه لهدفين:

الأول: حماية مدنهم وقراهم ومزارعهم من السيول الجارفة التي كانت تشهدها المنطقة بين حين وآخر، والتي كانت تزيد عن حاجة الناس. والمعروف أن السيل كان «ينحدر من أعالي الجبل هابطاً على رأسه حتى يهلك الزرع ويسوق من حملته البناء»[2].

الثاني: خزن المياه ورفعها وتوزيعها حسب الحاجة لري ما يجاور مدينتهم من الحقول والأراضي الخصبة التربة[3].

وزرع السبئيون الأراضي المحيطة بالسد والقريبة منه، فغدت جنان وغيضان عن اليمين وعن الشمال ملأى بأشجار الفاكهة والخضار المتنوعة والأزهار الملونة، فعاش الناس في رخاء وسعة في الرزق، وازداد العمران، وازدهرت مدينة مأرب نتيجة ذلك واتخذها السبئيون عاصمة لدولتهم بدل صرواح.

وأشار القرآن الكريم بشكل واضح إلى غنى سبأ وشعبها الذين عبدوا الله وعظَّموه وشكروه، فأثابهم بجنتين عن يمين سد مأرب وشماله فيهما من كل الثمرات رزقاً حلالاً طيباً، وقرية آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ . . .﴾ [سبأ/ ١٥].

وغدت سبأ مثلاً في العالمين، ومكث أهلها على ذلك قروناً وسنينَ في قوة ومنعة، فدانت لهم البلاد وأطاعهم العباد، ثم أُمروا بأن يستمتعوا برزق الله شاكرين ﴿. . . كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ/ ١٥]، فكانوا على ذلك ما شاء الله، ثم أعرضوا عما أُمروا به، فكفروا بأنعم الله وعدلوا عن عبادته وسجدوا للشمس من دونه ﷻ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۞ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۞ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل/ ٢٢ ـ ٢٤]، فسلبهم الله هذا الرخاء الجميل الذي يعيشون فيه وأرسل عليهم السيل الجارف

(١) الهمداني: ص١٥٣.
(٢) المسعودي: جـ٢ ص١٦٢.
(٣) زيدان، جرجي: العرب قبل الإسلام: ص١٧٠.

الذي يحمل العرم[1] في طريقه لشدَّة تدفُّقه، فحَطَّم السد وانساحت المياه، فطغت وانحرفت، ثم لم يعد الماء يخزن بعد ذلك، فجفَّت واحترقت، وتبدَّلت الجنتان بصحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشنة ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ/١٦]. وهذا أجود ما صار لهم، ولم يعولهم منه إلّا قليل[2].

والواقع أن السبئيين لم يعتبروا بما أصابهم من تهدُّم السد وما نتج عنه، وكان العمران الذي أقاموه ما يزال عامراً ومتصلاً بالقرى المباركة، مكة في الجزيرة العربية وبيت المقدس في الشام، والطريق بينهما مأمون ومسلوك: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ/١٨]. فكان المسافر يخرج من قرية فيدخل الأخرى قبل حلول الظلام، فكان السفر فيها محدود المسافات، مأموناً على المسافرين، كما كانت الراحة متوفرة لتقارب المنازل وتقارب المحطات في الطريق، فطلبوا من الله الأسفار البعيدة المدى التي لا تقع إلّا مرات متباعدة على مدار العام، متخلين عن تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل، وكان هذا من بطر القلب وظلم النفس ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا . . .﴾ [سبأ/١٠] أي: قلِّل من أسفارنا فقد تعبنا؛ والمعروف أن أسفارهم كانت للتجارة وكسب الرزق. ﴿وَظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ . . .﴾ [سبأ/١٩]، واستُجيبت دعوتهم ولكن كما ينبغي أن تستجاب دعوة البطر ﴿. . . فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ/١٩] فشُرِّدوا، ومُزِّقوا، وتفرقوا في أنحاء الجزيرة العربية والشام. ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: تفرَّقوا أيدي سبأ، وتفرّقوا شذر مذر[3].

والواقع أن الظروف كانت مهيأة لحصول هذا الحدث المفصلي في تاريخ اليمن لعلَّ أهمها:

ـ إعراض القوم عن شكر الله وعن العمل الصالح، بما أنعم عليهم من نعمة وفضل، وانحرافهم عن عبادته إلى عبادة عوامل الطبيعة كالشمس مثلاً، ودعوتهم له أن يباعد بين أسفارهم، بأن يسيروا في الصحاري والقفار أياماً عدة.

ـ اضطراب الأوضاع السياسية في العربية الجنوبية بفعل احتلال الأحباش لليمن، وقيام الحروب بينهم وبين الدولة الحِميرية.

---

(١) العرم: السيل الذي لا يطاق. والعرم أيضاً: الجرذ الذكر. والعرم هو السد، والعرم هو الحجارة.

(٢) الخمط: شجر الأراك أو كل شجر ذي شوك. والأثل: شجر يشبه الطرفاء. والسدر: النبق ذو الشوك الكثير والثمر القليل.

(٣) تفسير ابن كثير: جـ٣ ص٥٣٠ ـ ٥٣٤. قطب، سيد: في ظلال القرآن: جـ٦ ص٧١ ـ ٧٣.

ـ إهمال صيانة السد الذي أضعفته السنون وتدافع الماء حوله، بالإضافة إلى شبكات الري، وذلك بسبب هذه الاضطرابات، وانصراف الناس إلى حياة اللهو والترف.

ـ تكاثر الحشرات والحيوانات الصغيرة حوله مثل: الجرذان والفئران والمناجذ[1] وعدم مكافحتها حيث كانت تحفر التراب وتخلخل الأساس وتزيل الحصى وتُشقِّق البنيان الأمر الذي أدى إلى تصدُّع السدِّ.

ـ هطول أمطار غزيرة، وتدفُّق الماء في الوادي مكوِّناً السيل العرم الذي جرف جزءاً كبيراً من السدِّ وهدَّمه، فأغرق البلاد إلّا ذمار وحضرموت وعدن، واقتلع الأشجار، وخرَّب الزرع، وأفسد الحدائق والضياع والقصور حتى اضطر الناس إلى هجر مساكنهم والانتقال إلى أماكن أخرى[2].

واختلف الرواة والإخباريون في تاريخ حصول هذا الحدث، والراجح أن سدَّ مأرب بدأ بالتصدُّع عند ظهور دولة حمير (ملوك سبأ وذو ريدان) في أوائل القرن الأول قبل الميلاد، فرمَّمه السبئيون، ولكنهم ظلوا حذرين من تهدُّمه، لذلك عمَّروا مدينة ظِفار، وتراخت رغبتهم بالبقاء في مدينة مأرب، وأخذوا بالنزوح. وكلما تشقَّق السدُّ من ناحية رمَّموه. ففي عهد الملك شمر يهرعش الثالث في أوائل القرن الرابع الميلادي، تعرَّضت البلاد لأمطار غزيرة، ما دفعه إلى تدعيم السدِّ بالردم والجسور. وأُصيب السدُّ بالتصدع في عهد الملك تأرن بهنعم، فأصلحه ورمَّمه، وتصدَّع مرة أخرى في عهد الملك شرحبيل يعفر بن أبي كرب أسعد، في عام (٤٥١م)، فأصلحه هذا الملك.

ونتيجة لهذه التصدعات المتلاحقة التي تعرَّض لها السدُّ، لم يعد الترميم يؤدي إلى الغاية الإيجابية، فانتاب القوم الخوف ورحلوا عن مأرب إلى مواضع أخرى في الجزيرة العربية والشام، وكان ذلك قبيل الدعوة الإسلامية، ما أدى إلى إهمال ترميم السدِّ نهائياً، فانهدم، والراجح أن ذلك حصل في عام (٥٧٥م) وهو العام الذي انتهى فيه الاحتلال الحبشي لليمن[3].

القنوات: استخدم العرب، الجنوبيون بخاصة، الوسائل الصناعية الفنية للسيطرة

---

(١) المناجذ، جمع جَلِذ أو جُلْذ وهو الفأر الأعمى. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد: لسان العرب: جـ٣ ص٤٨١.

(٢) معطي: ص٩٠، ٩١.

(٣) انظر فيما يتعلق بتاريخ وعصر تهدم السد ما يلي: الأصفهاني، حمزة بن الحسن: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء: ص١٠٨. الحموي: جـ٥ ص٣٤، ٣٥. ابن خلدون: جـ٢ ص٥٠، ٥٧، ٥٨. زيدان: ص٢١٠.

Fakhry, Ahmad: An Archaeological Journey to Yemen. III p61.

على المياه والتحكُّم بها، فأنشأوا المجاري الصناعية ـ القنوات ـ لتجري فيها بقدر وحسب الحاجة، فلا تسيل وتذهب عبثاً، وهذا النظام هو على نوعين:

الأول: نظام القنوات السطحية، وهو عبارة عن شبكة من القنوات أو الجداول التي تُحفر على سطح الأرض لتصريف مياه السيول والينابيع والآبار، وتمتد أحياناً مسافات طويلة أو قصيرة وفقاً للحاجة مثل قنوات: عُمان ووادي بيحان ووادي حريضة في حضرموت، وقناة خيبر التي يبلغ طولها ثمانية عشر كيلومتراً. وتُزوَّد القناة الرئيسة بمنافذ توصلها بقنوات فرعية، تتفرع هي الأخرى إلى قنوات أصغر فأصغر حتى يتم إيصال المياه إلى جميع الحقول والبساتين(١).

تُشقُّ القنوات المرتبطة بالعيون والينابيع على هيئة مجاري واسعة تصل بين مصدر المياه والأراضي الزراعية. وتُبنى القنوات السطحية عادة بانحدار بسيط ومناسب وفقاً لطبيعة الأرض، وقد تُحوَّل إلى قنوات جوفية إذا ما اعترضها عائق طبيعي كواد مثلاً حيث يصبح تعرُّضها للخراب أمراً وارداً. فإذا كان هذا العائق وادياً ضيقاً أو شعاباً صغيرة، يُستخدم جذع نخلة مجوَّف كمجرى للمياه ويوضع من جانب إلى الجانب الآخر، وذلك نظراً لسهولة استبداله إذا جرفته السيول. أما إذا كان العائق وادياً كبيراً، فتُحمل القناة على جسر من القناطر تُبنى بالحجارة الصلبة لتقاوم قوة السيل أو تُحوَّل إلى قناة جوفية(٢).

الثاني: نظام القنوات الجوفية، وهو عبارة عن أنفاق تُحفر في باطن الأرض أو مجموعة من الآبار يتصل بعضها ببعض بواسطة نفق تحت الأرض، يُستعمل لجر المياه من مصادرها في باطن الأرض إلى أماكن استعمالها في القرى والمدن والحقول(٣).

ويبدو أن هذا النظام وُجد أولاً في عُمان في جنوب شرقي الجزيرة العربية، ثم عُمِّم على كافة أنحاء الجزيرة قبل أن ينتشر عالمياً على أيدي المسلمين إثر الفتوح الإسلامية(٤)، ويقوم على مبدأ جلب المياه من أماكن مرتفعة تتوفر فيها مياه جوفية، عن طريق حفر نفق ينحدر انحداراً بسيطاً من مصدر المياه ويجري حتى يظهر في النهاية على سطح الأرض، ويُحفر مع هذا النفق آبار أو أنفاق عمودية لتهويتها وصيانتها وتنظيفها، وتُعرف هذه الآبار بالنقب(٥).

ويختلف طول القنوات من منطقة إلى أخرى، إذ يمتد بعضها إلى مسافات بعيدة

---

(١) نورة: ص١١١، ١١٢. معطي: ص٩٤، ٩٥ .Bowen: p45

(٢) معطي: ص٩٥. (٣) المرجع نفسه: ص٩٦.

(٤) نورة ص١١٥. معطي: ص٩٦، ٩٧.

(٥) معطي: ص٩٧. نصيف، عبد الله آدم: القنوات والنظام الزراعي في المدينة المنورة ص٢٠٩.

قد يصل إلى مائة كيلومتر، وتتفرَّع إلى عدد من القنوات الجوفية الثانوية لتزيد من نسبة تدفق المياه[١]. وتعتمد القناة على المخزون الجوفي للمياه وطبيعة التربة، لذا تختلف كمية المياه فيها من منطقة إلى أخرى، وتزداد هذه الكمية في موسم الأمطار وتقلُّ في موسم الجفاف[٢].

تنتشر بقايا وآثار القنوات السطحية والجوفية في مختلف أنحاء الجزيرة العربية، ويعود بعضها إلى الألف الأول قبل الميلاد. وتعود بعض القنوات في المنطقة الممتدة من العُلا حتى المدينة المنوَّرة، إلى العصر اللحياني[٣].

وانتشرت القنوات في المنطقة الغربية من إيلات، وفي منطقة تيماء، وفي إقليم الساحل الشرقي وبخاصة في واحة البريمي وفي سفوح جبال هجر ـ واحة العين ـ وفي القطيف، وعين جاوان، وفي جبرين والبحرين عدد من القنوات الجوفية، تمتد من التلال الوسطى إلى الساحل الغربي. وتكثر هذه القنوات في عُمان، ووسط الجزيرة، وفي منطقة القصيم، وتقلُّ في الجنوب بسبب استخدام وسائل الري الأخرى التي تعتمد أساساً على السيول كالسدود وغيرها[٤].

تسبَّبت حقوق الري على مدار التاريخ بوقوع نزاعات بين أصحاب المزارع بسبب اشتراكهم في المياه، إذ كان يستأثر بعضهم بها وبخاصة أصحاب المزارع الذين تقع مزارعهم في أعالي منابع المياه، ولا يدع هؤلاء المياه تسيل إلى غيرهم إلّا بعد أن يروون زرعهم بشكل كامل وذلك من خلال حبسها عن المزارع والبساتين الأخرى، ونجد مثل هذه الخصومات في العربية الجنوبية وفي منطقة يثرب[٥].

المعاملات المتصلة بالزراعة

مارس الجاهليون بعض أنواع المعاملات المتصلة بالزراعة، وهي ذات تنظيم دقيق ومتقن، وتُبرز الزراعة في بلاد العرب كمورد اقتصادي أساسي من موارد الإنتاج، ومن بين هذه المعاملات على سبيل المثال:

المحاقلة: استئجار الأرض الزراعية لقاء مبلغ من المال، قد يكون عيناً، كثلث المحصول أو ربعه، وقد يكون نقداً، ذهباً أو فضة[٦].

المزارعة: الاتفاق على أن يزرع شخص أرض شخص آخر لقاء نسبة معينة من المحصول يدفعها المستأجر عند القطاف أو الحصاد، كالثلث أو الربع مثلاً، على

---

(١) نورة: ص١١٧.

(٢) معطي: ص٩٩.

(٣) نورة: ص١١٨.

(٤) المرجع نفسه. معطي: ص٩٩، ١٠٠.

(٥) علي: جـ٧ ص٢١٤، ٢١٥.

(٦) ابن منظور: جـ١١ ص١٦٠.

أن تكون البذور من مالك الأرض[1].

المخابرة: على نمط المزارعة ولكن تكون البذور على عاتق المستأجر أو المزارع، وتكون على النصف[2].

المساقاة: هي اتفاق بين صاحب الأرض أو ملتزم الأرض وبين صاحب الماء يتعهد فيه الأخير بتوصيل الماء إلى أرض الأول مقابل جزء من المحصول، الثلث أو الربع أو نحوه[3].

القصارة: الاتفاق على ما يبقى في السنابل من حب بعدما يداس، فأحياناً يكون من نصيب الذاري وأحياناً أخرى من نصيب صاحب الزرع[4].

المخاضرة: وهي أن يبيع المالك ثمار بستانه قبل أن تنضج، ربما للتخلص من معاملات جني الثمر أو حراسته أو حمله إلى الأسواق وبيعه وتخزينه، مع ما يحيط ذلك من مخاطر ومشقة وعناء. وسميت المخاضرة لأن المتبايعين تبايعا شيئاً أخضر بينهما، يدخل فيه بيع الرِّطاب والبقول وأشباهها[5].

أثارت المخاضرة على مدار التاريخ نزاعات بين الأطراف المتعاقدة ناتجة عما قد يصيب المحصول أو بعضه من تلف قبل نضجه، ما يُفقد الشاري لهذا المحصول ربحه أو جزء منه، فيطلب فسخ العقد واسترجاع ما دفعه من مال لصاحب الأرض[6].

وتضمَّنت بعض أنواع المعاملات أو العقود المتعلقة بالأرض المزروعة لمدة معينة شروطاً منها: أن يكون للمالك الحق في فسخ العقد وإبطال مفعوله إذا تبيَّن أن المستأجر تباطأ في استغلال الأرض أو أهملها أو قام بأعمال تُسيء إليها وتضرُّ بالإنتاج الذي يكون للمالك نصيب فيه[7].

ووُجدت في المجتمع الجاهلي، الجنوبي بشكل خاص، جمعيات زراعية تعاونية على شيء من التخصص، نذكر منها:

ـ جمعيات زراعية تضم عادة ثمانية أعضاء يرأسها أحدهم لمدة معينة، وتختلف هذه الجمعيات من مجتمع لآخر. ففي المجتمعات الزراعية الصغيرة، كالقرى

---

(١) العسقلاني، الحافظ شهاب الدين، المعروف بابن حجر: فتح الباري بشرح البخاري: جـ٧ ص٤٠٨، ٤٠٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن منظور: جـ١٤ ص٣٩٤.

(٤) المصدر نفسه: جـ٥ ص١٠١.

(٥) المصدر نفسه: جـ٤ ص٢٤٨.

(٦) أدَّى تواتر النزاعات إلى العصر الإسلامي أن نهى النبي ﷺ عن بيع المحصول قبل أن ينضج إلا بعد أن يتبين صلاحه، وعندئذ لا يحق للشاري أن يتذمر من شرائه.

(٧) علي: جـ٧ ص٢٢١. يحيى: ص٢٩٩.

والدساكر، كان عدد أعضائها قليلاً، وتميَّزت في المجتمعات المدينية الكبيرة بكثرة عدد أعضائها وانضمام كبار ملاك الأراضي إلى مجالسها. أما أهدافها فهي: الإشراف على العمل، إدارة أمور الأراضي الزراعية، تأمين البذار وما يحتاج إليه الزرع، حفظ حقوق المزارعين وما يترتب عليهم من واجبات، دفع حصص الحكومة والمعبد من الضرائب وبدلات الإيجارات، خزن وبيع وتصريف المحاصيل. وبشكل عام، فإن هؤلاء الأعضاء يمثلون مجلساً زراعياً لمشروع تعاوني يضم أهل تلك المقاطعة الزراعية، واجبهم إدارة أمور المؤسسة الزراعية والإشراف عليها، وتوزيع الأنصبة على الأعضاء(١).

- هيئة تهتم بالأراضي الزراعية، وتؤجرها لمن يزرعها لآجال محددة مقابل وديعة نقدية، ويخسر المستأجر وديعته عند مخالفته شروط المنحة أو يُفسد الأرض. ويبدو أن هذه الهيئة قد ساعدت في استصلاح الأراضي وإعمارها، وأتاحت للمزارعين العمل في الحقول لمدد زمنية وفق رغبتهم مِن دون التزامات مالية غير الوديعة والضرائب الحكومية المقررة بالإضافة إلى أنصبة رجال الدين(٢).

المحاصيل الزراعية وأماكن زراعتها

انتشرت في الجزيرة العربية أنواع عديدة من المحاصيل الزراعية وذلك تبعاً لتنوُّع المناخ والبيئة الطبيعية مثل: الفواكه والحبوب والخضراوات، ولكن تبرز من بين هذه المحاصيل والثمار ثلاثة أنواع هي: النخيل والأعناب والحبوب.

يحظى النخيل وما ينتجه من تمر بالأهمية الأولى في الجزيرة العربية، وتُعدُّ هذه الشجرة من أوسع النباتات انتشاراً في بلاد العرب، إذ لا تكاد منطقة تخلو منها وإن كانت تختلف في كثافة زراعتها وجودة تمرها من منطقة إلى أخرى.

وقد شكَّلت التمور الغذاء الرئيس لسكان الجزيرة، وهي غنية بعناصرها الغذائية والدوائية وتستعمل في صناعة الدبس والخمر. وقد صُوِّرت النخلة أو نحتت على بعض الصخور وعلى كثير من نصوص المسند(٣). ولعلَّ الفوائد الجمَّة لهذه الشجرة دفعت بعض الأعراب من أهل نجران إلى تقديسها(٤). وكان العربي يتناول التمر مع شيء من حليب النوق أو لحم الإبل، في المناسبات الهامة، ويصنع من نواها بعد دقِّها علفاً لإبله.

ويتجلَّى اهتمام العرب قبل الإسلام بالنخيل من خلال كثرة ترددها في أشعارهم

---

(١) علي: جـ٧ ص٢٢٣، ٢٢٤.
(٢) معطي: ص١٠٦.
(٣) علي: جـ٧ ص٦٧.
(٤) الحموي: جـ٥ ص٢٦٦.

على مستوى الطبقات الاجتماعية المختلفة، مثل: امرئ القيس[١]، ولبيد بن ربيعة[٢].

ومن بين الدلالات اللغوية أن لفظة نخل، وهي مصدر من فعل نَخَلَ، يفيد استخلاص الشيء الطيب من غيره من الشوائب واستقصاء أفضله، وعليه تكون هذه الشجرة خلاصة الشجر كله[٣].

وأشار القرآن الكريم في آياته إلى أوضاع الجزيرة العربية في المرحلة الأخيرة للعصر الجاهلي[٤]، فتبرز شجرة النخيل لتحتل مع الأعناب المكان الأول بين الأشجار التي يشير إليها وإلى أهميتها في المجتمع الجاهلي.

ونُسبت للنخلة مواضع عديدة في بلاد العرب مثل نخل[٥]، نخلة الشامية[٦]، نخلة اليمانية[٧]، ونخلة[٨].

ولشجر النخل فوائد عديدة منها: استعمال جذوعها أعمدة للمنازل وحمَّالات لسقوفها، وتُستعمل سعفها في سقوف المنازل أيضاً، وتُصنع من خوصها المكاتل والقفف، وتُقدم نواتها علفاً للإبل بعد دقِّه.

ويشكل النخيل في الاقتصاد الجاهلي ثروة ورأس مال، كالجمال تماماً، تدر على صاحبها ربحاً وفيراً، ويُعدُّ امتلاك النخل علامة الغنى والثراء، وتُكوِّن الصناعات المستندة على استغلالها دخلاً مريحاً لأصحابها يعتمدون عليه في معايشهم. وكان

---

(١) يقول امرؤ القيس:

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ... ولا أطماً إلا مشيداً بجندل

ويشبِّه في قصيدة أخرى ثياب الحسان الملونة، بلون التمر الذي لم يكتمل نضجه:

علون بأنطاكية فوق عقمة ... كجرمة نخل أو كجنة يثرب

(٢) يفخر لبيد في معلقته بفرسه ويشبهها، إذا رفعت رأسها، بنخلة طويلة:

أسهلت وانتصبت كجذع من منيفة ... جرداء يحصر دونها جرامها

(٣) ابن منظور: جـ١١ ص٦٥٢. Lammens: p85.

(٤) البقرة/ ٢٦٦. الأنعام/ ٩٩، ١٤١. الرعد/ ٤. النمل/ ١١، ٦٧. الإسراء/ ٩٠. مريم/ ٢٥. المؤمنون/ ١٩. الشعراء/ ١٤٨. يس/ ٣٤. ق/ ١٠. الرحمٰن/ ١١، ٦٨. عبس/ ٢٩.

(٥) نخل: منزل من منازل بني ثعلبة على مرحلتين من المدينة، وقيل موضع بنجد من أرض غطفان. الحموي: جـ٥ ص٢٧٦.

(٦) نخلة الشامية: واديان لهذيل على ليلتين من مكة يجتمعان ببطن مَرٍّ وسبوحة. المصدر نفسه: ص٢٧٧.

(٧) نخلة اليمانية: واد يصب فيه يَدَعان، عسكرت فيه هوازن يوم حنين.

(٨) نخلة: واد من الحجاز بينه وبين مكة مسيرة ليلتين. المصدر نفسه: ص٢٧٧، ٢٧٨.

الأعراب يأتون أهل الريف بما عندهم من وبر ومن محاصيل البوادي، ليبادلوه بالتمر والدقيق وبما يحتاجون إليه في حياتهم اليومية، فيكسب أصحاب النخيل أرباحاً طائلة من بيعهم للتمور. والمعروف أن أكثر العرب يعيش على التمر ويتأدمون به، يأكلونه بدلاً من اللحم[١].

والنخلة هي سيدة المزروعات في الجزيرة العربية، بل تكاد تكون النبات المنفرد بالزرع في أكثر الأمكنة، ولا ينافسها نبات آخر، ولا تخلو مدينة ولا قرية ولا واحة من زراعتها، واشتهرت هجر وخيبر ويثرب ونجران بزراعتها.

وانتشرت في بلاد العرب زراعة الأعناب، في الأماكن التي يتوفر فيها الماء والمناخ المناسب مثل اليمن والطائف، وكانت تُزرع على السفوح المدرجة في مخاليف اليمن ووادي الجنَّات. واشتهرت تربة أثافت أو أثافة، إحدى مدن نجران، بكثرة كرومها وخمورها المصنوعة من هذه الكروم.

وظهرت الأعناب بشكل واسع في زخارف سكان الجزيرة العربية وبخاصة في دولة الأنباط وفي بلاد اليمن، حيث أغصان العنب وعناقيده محفورة على الآثار اليمنية سواء في الأحجار أو على الخشب. وقد نالت الأعناب شهرة بفعل أنها فاكهة طيبة الطعم ومصدر لصناعة الخمور.

وتشير النصوص العربية الجنوبية إلى معاملات تتعلق بهذه الزراعة، وبتجفيف الأعناب زبيباً، من بينها نص يشير إلى توزيع أبرهة الحبشي حصصاً من الزبيب على العمال بمناسبة إسهامهم في ترميم سد مأرب[٢].

والعنب أنواع، منه الجُرَشي[٣] والكلافي[٤] والغربيب[٥] والحمنان[٦].

تأتي الحبوب ـ الحنطة والشعير ـ في الدرجة الثانية من حيث الأهمية، بعد التمور كمصدر أساسي للغذاء في جزيرة العرب في العصر السابق للإسلام، فهما عماد الخبز. ويحتل القمح ـ البرُّ ـ المرتبة الأولى بينها ويُزرع في بطون الأودية وواحاتها، ولكن على نحو ضيق بفعل عدم ملاءمة المناخ أو التربة، على مدار العام. فهو يزرع

---

(١) علي: جـ٧ ص٦٨.
(٢) المرجع نفسه: ص٧٣. يحيى: ص٣٠٣.
(٣) الجرشي: هو ذو لون أبيض مائل إلى الخضرة، يُنسب إلى جُرَش وهي مخلاف في اليمن. ابن منظور: جـ٦ ص٢٧٢.
(٤) الكلافي، هو عنب أبيض فيه خضرة وزبيبه أدهم أكلف، منسوب إلى الكلاف، بلد بشق اليمن. المصدر نفسه: جـ٩ ص٣٠٨.
(٥) الغربيب، نوع من العنب بالطائف شديد السواد وهو من أجود العنب وأرقه وأشده سواداً. المصدر نفسه: جـ١ ص٦٤٧.
(٦) الحمنان، عنب بالطائف أسود مائل إلى الحمرة صغير الحب. المصدر نفسه: جـ١٣ ص١٢٨.

شتاء في المناطق الشمالية والوسطى، وصيفاً في المناطق الجنوبية تبعاً لاختلاف تساقط الأمطار. ويُحصد المحصول في نهاية الموسم، ويُداس لفصل الحب عن القشر، ثم يُذرى باليد أو بالمذراة، ثم تُجمع الحبوب وتُخزَّن، ويُطحن قسم منها[(١)].

وتُزرع الذرة في الأراضي البعلية وفي الأراضي المروية وتُنتج أكثر من محصول في العام. ويتم جمع المحصول، فيُداس ويُذرى، ثم يُطحن ويصنع منه الخبز مثل القمح، وتقدم أوراق الذرة وأغصانها علفاً للماشية[(٢)].

ويأتي الشعير في المرتبة الثانية في قائمة الحبوب، ويُعد من أكثرها انتفاعاً به في الجزيرة العربية، وقد عُرف منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وكانت زراعته منتشرة في عُمان، وانتشرت زراعته منذ الألف الأول قبل الميلاد في جنوبي الجزيرة، وهو يُطحن، ويُصنع منه الخبز، عند أكثر الأعراب، ويُقدم القش والحب علفاً للحيوانات. والشعير أنواع، منه العربي وهو أبيض وحبُّه كبير، والحبشي وهو أسود الحب[(٣)].

وزرع بعض العرب الدخن، وهي حبوب تشبه الذرة إلّا أنها أصغر منها، ولا تحتاج زراعتها إلى عناية كبيرة، فيكتفي الفلاح بنثر بذورها في الأراضي البعلية وبخاصة في القيعان والسهول الرملية، فتنبت في غضون ثلاثة أشهر، فتُحصد وتُداس وتُذرى كالقمح، ويصنع من دقيقها الخبز الذي يُعدُّ مصدراً هاماً لغذاء البدو، كما تقدم الدخن علفاً للحيوانات.

ومن بين الحبوب التي تُزرع في الجزيرة العربية: الفول والحمص والعدس والكرسنة والشوفان والكمون. ومن بين النباتات والفواكه: السمسم وقصب السكر والرمان والموز والخوخ والسفرجل والإجاص والتفاح واللوز والجوز والزنجبيل[(٤)].

واشتهر اليمنيون بزراعة الورس الذي يدخل في صناعة الأصباغ، وقد زرعوه في مناطق متعددة وبخاصة في وادي الجنات، واختصت اليمن بزراعة أربعة أشياء هي: الورس والكُندار والخِطْر والعَصْب[(٥)].

ويُعد الزيتون أحد محاصيل الجزيرة العربية واشتهرت بلاد الأنباط والبحرين بزراعته، وهو مصدر رئيس للزيت، وتُعدُّ شجرته مع شجرة التين من الأشجار المباركة، إذ باركها الله وجعل زيتها صافياً لا يؤثر عليه حر ولا برد ويكاد يضيء ولو لم تمسسه نار[(٦)].

---

(١) معطي: ص١١٤.

(٢) الهمداني: ص٢١٤، ٣١٧، ٣١٨.

(٣) نورة: ص١٣٨. يحيى: ص٣٠٣. علي: جـ٧ ص٥٨.

(٤) الهمذاني: ص٣١٤ ـ ٣١٧.

(٥) المصدر نفسه: ص١٤٣، ١٤٤، ٣١٧.

(٦) معطي: ص١١٢.

والتين من الأشجار المعروفة في الحجاز وفي اليمن وفي أماكن أخرى من جزيرة العرب، ويُزرع في المرتفعات الغربية، والجبل الأخضر في عمان، وفي نجد والبحرين وشمالي الجزيرة العربية. ويؤكل التين طرياً كما يؤكل مجففاً يابساً[١]، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الشجرة مقرونة بشجرة الزيتون[٢]. والتين أنواع كثيرة، منه البري والريفي والسهلي والجبلي، وهو أخضر اللون أو أصفر أو أحمر، أو أسود، ويكثر في السراة.

وتتركز الزراعة في حضرموت في واحات الوادي الكبير والشعاب المتفرعة عنه التي تكثر في قيعانها آبار المياه، حيث يظهر الماء على أبعاد متفاوتة. اشتهرت حضرموت بزراعة النخيل والقمح والذرة، وأنتجت اللبان، البخور، وهو من المحاصيل الطبيعية، واستخدم الفلاحون الأدوات الحديدية والحيوانات، في الزراعة، والوسائل التي استعملها جيرانهم اليمنيون.

واشتهرت ظفار بإنتاج اللبان، وكان يُنقل من الجبال إلى الساحل على ظهور الجمال، ويُصدَّر مع اللبان المنتج في حضرموت وسبأ إلى مصر حيث يستعمل كالبخور في المعابد وفي تحنيط جثث الموتى[٣].

وبفعل أهمية مادة اللبان كمورد اقتصادي، توسَّع السبئيون بإنتاجها، وتصل مساحات الغابات التي تنمو فيها هذه الأشجار في منطقة سبأ نحو مائة ميل طولاً وخمسين ميلاً عرضاً، وتنتشر على التلال المرتفعة من قمتها إلى سفحها في منطقة تدعى سربية[٤]، ويعمل في إنتاجها ثلاثمائة أسرة يُدعى أفرادها بالمقدسين، ثم إن العمل الذي يقوم به هؤلاء الأفراد، وهو شق لحاء الأشجار لاستخراج العصارة الصمغية التي يتكوَّن منها اللبان، إنما يتم وسط مظاهر من الشعائر الدينية التي تشير إلى مدى الأهمية التي أعطاها أصحاب هذه الغابات لهذا المورد الاقتصادي الهام، ومنها طهارة الأشخاص الذين يقومون بهذا العمل من واقع عدم ملامسة النساء أو الاشتراك في الجنائز. وقد حرص ملوك سبأ على أن تلتزم القوافل التي تنقل هذه المادة من مكان استخراجها إلى العاصمة شبوة؛ الطريق العام الممتد بينها وبين الغابات. ويشكل الانحراف عن هذا الطريق جريمة يعاقب مرتكبها، ولعلَّ لذلك علاقة بحرص هؤلاء الملوك على عدم التلاعب بالمحصول أثناء نقله إلى المدينة[٥].

---

(١) الغنيم، عبد الله يوسف: جزيرة العرب، في كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري: ص١٢١.

(٢) سورة التين. (٣) الحموي: ج٤ ص٦٠.

(٤) سربية معناها السر الخفي.

(٥) يحيى: ص٣٠٥، ٣٠٦. Pliny, G: Natural History, vol 12 p51, 53.

واشتهرت ظفار أيضاً بإنتاج المر، وتُزرع شجرته في الجبال ولها بساتين على سواني[1].

وساعدت، وفرة المياه الجوفية، التي كثيراً ما تظهر على سطح الأرض في عُمان، على انتشار الواحات في سهل الباطنة الساحلي وفي السفوح وفي بعض الأودية الخصبة التي تخترق نجد وعُمان، وهي العامرة بحقول الفاكهة، وتعتمد الزراعة فيها على الري الاصطناعي، كما في اليمن.

وكانت اليمامة من المناطق الزراعية الهامة في العصر الجاهلي، وتميزت بخصوبة تربتها وبغزارة مياهها المتفجرة من الينابيع والآبار؛ فكثرت فيها القرى والمزارع، واشتهر العِرض أو وادي حنيفة، وهو أحد أوديتها الخصبة، بكثرة مياهه وخصوبته.

وأدَّت واحات الجزيرة العربية دوراً متمماً وهاماً في تنمية الاقتصاد الجاهلي لا يقل شأناً عن دور المناطق الزراعية الواسعة، وتتناثر في: عسير، والحجاز، وجبل طيء، وشمر، وأواسط نجد، ووادي الدواسر، والأحساء، وتنتشر في ربوعها قرى عامرة وأسواق تجارية، ومعابد لآلهة القبائل، وحصون، ومحطات للقوافل التجارية، وتسكنها قبائل متحضرة اعتمدت على الزراعة كمورد رئيس في حياتها، وتحوَّلت بعض الواحات إلى مدن ومراكز حضرية كبرى، مثل يثرب والطائف ودومة الجندل وغيرها[2].

استثمر أهل يثرب إمكانات مدينتهم الطبيعية، وجعلوها من أكبر المناطق الزراعية في الجزيرة العربية. فقد توافرت في يثرب وضواحيها مياه كثيرة سطحية وجوفية، وتربة خصبة تكوَّنت بفعل تفتت الصخور البركانية، ومناخ معتدل نسبياً، ما ساعد أهلها على الاشتغال بالزراعة واتخاذها مهنة رئيسة لكسب معايشهم.

قامت الزراعة في يثرب على الري الاصطناعي بصورة رئيسة، وذلك بفعل قلَّة الأمطار وعدم انتظام هطولها، وقد تهطل بغزارة فتفيض الأودية، فتروي الأرض وتحدث سيولاً، لذلك أقام أهلها شبكة ري واسعة لسقاية نخيلهم وزروعهم من المياه السطحية والجوفية، وقد أشار الجغرافي ياقوت الحموي إلى ذلك بقوله: «نخيل المدينة وزرعها تُسقى من الآبار وعليها العبيد»[3].

كانت أخصب أراضي يثرب بأيدي أثرياء القبائل ووجهائها من يهود وعرب، والمعروف أن الحبر اليهودي مخيريق، وهو أحد بني النضير، كان غنياً كثير الأموال

---

(١) أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل: تقويم البلدان ص٩٣.
والسواني هي المرتفعات. والسانية: الناقة التي يُستقى عليها. والسواني: ما يُسقى عليه الزرع والحيوان من بعير وغيره. ابن منظور: ج١٤ ص٤٠٣، ٤٠٤.

(٢) بلياييف: ص٩٦، ٩٧.

(٣) معجم البلدان: ج٥ ص٨٢.

من زراعة وإنتاج النخل، ويملك سبع حوائط؛ أي: بساتين[١]. وكانت المؤاجرة والمغارسة والمزارعة من أشكال الاستثمار التي استخدمها اليثربيون.

أما محاصيل يثرب وضواحيها فهي النخيل والحبوب كالحنطة، القمح والشعير، والعنب والرمان والموز والليمون والبطيخ والبقول والخضر، كالقرع واللوبياء والسلق والبصل والثوم والقثَّاء.

ويُعد النخيل من أهم المزروعات المشار إليها وعليه يعتمد أهل يثرب بالدرجة الأولى، وقد أطلق الشاعر عروة بن الورد على منطقة يثرب اسم «منبت النخل»[٢].

واكتسب مزارعو يثرب خبرة بفنون زراعة النخيل والمحافظة عليه، والتمييز بين أنواعه مثل: الصيحاني والعجوة والجنيب واللوز الأصفر، واستخدموا جذوعه أعمدة لبيوتهم وحمالات لسقوفهم، واستعملوا جريده في سقوف منازلهم[٣]، وصنعوا من خوصه مكاتل وقففاً، وقدَّموا نواه علفاً للحيوانات بعد دقِّه.

ويُعد الشعير المصدر الثاني لثروة يثرب، وكان هو والتمر طعام الناس فيها. وخصَّ الموسرون أنفسهم بتناول الدرمك[٤]. ويبدو أن يهود يثرب كانوا يمتلكون معظم مزارع النخيل، ويتاجرون بثمره مع حبوب الشعير ودقيقه في أسواقها ولا سيما سوق بني قينقاع[٥].

ويُعد وادي العقيق من أخصب وديان يثرب، وهو عبارة عن مجموعة أودية شقَّتها السيول، كثيرة الآبار والينابيع ومزارع النخيل والمنتزهات التي تحجبها الأشجار الخضراء[٦].

وتقع واحة خيبر على بُعد ثمانية بُرد إلى الشمال من المدينة على طريق القوافل

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، على متن الروض الأنف للسهيلي: جـ٢ ص٢٥٧. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب: كتاب البلدان: ص٣١٣. الشريف، أحمد إبراهيم: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول: ص٣٥٨.

(٢) يقول عروة بن الورد:

فإنكم لن تبلغوا كل همتي ... ولا أربي حتى تروا منبت النخل

ووصف حسان بن ثابت بيئة يثرب الخصبة، فقال:

غرسوا لينها بمجرى معين ... ثم حضُّوا الفسيل بالآطام

بيثرب قد شيدوا في النخيل ... حصوناً ودجن فيها النَّعم

وفيما اشتهوا من عصير القطاف ... وعيش رخي على غير همٍّ

(٣) الشريف: ص٣٥٧.

(٤) الدرمك: دقيق الحوارى. انظر: الحموي: جـ٤ ص١٠.

(٥) علي: جـ٧ ص٥٨.

(٦) الحموي: جـ٤ ص١٣٧، ١٣٨.

مع الشام، وقد اشتهرت بكثرة أوديتها وغزارة مياهها وخصب تربتها البركانية ووفرة مزارعها ونخيلها. واعتمد أهلها في زراعتهم على الري الاصطناعي لإرواء بساتينهم ومحاصيلهم من النخيل وحبوب القمح الوافر الإنتاج(١).

وكانت خيبر لا تزال عامرة بنخيلها وزرعها عند ظهور الإسلام بدليل أن النبي ﷺ لما صالح أهلها قالوا له: «إن لنا بالعمارة والقيام على النخل علماً؛ أي: خبرة، فأقرنا، فأقرهم وعاملهم على الشطر من التمر والحب»(٢).

وكانت واحة وادي القرى محطة على الطريق التجاري بين اليمن والشام، اشتهرت بمياهها الوافرة وبخصوبة أرضها، وسكنتها قبائل يهودية متحضرة مارست الزراعة المروية وأقامت مستوطنات وقرى عديدة حول مواضع المياه، واعتمدت في معايشها على النخيل والحبوب والبقول وغيرها، وعندما فتحها النبي ﷺ بعد فراغه من غزوة خيبر، ثم صالح أهلها على الجزية، ترك النخيل والأرض في أيدي اليهود وعاملهم على نحو ما عامل به أهل خيبر(٣).

والطائف من الواحات الهامة في الجزيرة العربية، وتقع جنوب شرقي مكة بينهما إثنا عشر فرسخاً، مياهها غزيرة وتربتها خصبة ومناخها لطيف لارتفاعها وتعرضها للرياح الشمالية، فهي «شامية الهواء، باردة الماء» ويسود البرد في فصل الشتاء إلى حد تتجمد معه المياه(٤)، لذلك عُدَّت قطعة من الشام، وهي مصيف أهل مكة، وقد ساعدت هذه العوامل على قيام نشاط زراعي فاعل بحيث تأتي في المرتبة الثانية في الحجاز بعد مكة في سلم الأهمية الاقتصادية، ويقترن اسمها عادة مع اسم مكة، وكانتا تُسميان «القريتين»، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف/ ٣١].

سكنت الطائف قبائل من ثقيف وحِمير وهوازن وهذيل والأوس والخزرج ومزينة وجهينة وقريش ويهود وروم، ومارست الزراعة كحرفة رئيسة بالإضافة إلى التجارة، وأنشأت القرى والمزارع، وأحاطت المدينة بسور لحماية السكان والممتلكات من الطامعين والغزاة.

والطائف محلتان على جانبي وادي وجٍّ الذي تجري فيه مياه المدابغ التي يدبغ بها الأديم(٥). وانتشرت مزارع الكروم والبساتين في أكنافهما وعلى سفوح جبل غزوان،

---

(١) الحموي: ج٢ ص٤٠٩. دائرة المعارف الإسلامية: ج٩ ص٥٤، ٥٥. دار المعرفة، بيروت.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان: ص٣٦. (٣) المصدر نفسه: ص٤٧.

(٤) الحموي: ج٤ ص٩.

(٥) المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: =

وتمتد إلى نحو ثلاثة إلى أربعة كيلومترات من مركز العمران، ويطوق هذا الجبل جانباً من هذه المزارع في حين ينفتح سهل الطائف تجاه مكة(١).

تُعدُّ الحنطة الإنتاج الزراعي الأول في الطائف، وتعتمد كل حواضر الحجاز عليها وبخاصة مكة. كذلك اشتهرت الطائف بفاكهتها المتنوعة، مثل: الرمان والموز والتين والخوخ والسفرجل والبطيخ، ويكثر فيها النخيل والأعناب(٢)، وأكثرها يُحمل إلى مكة.

يتمتع تمر الطائف بشهرة كبيرة، فهو تمر طري ممتلئ يوحل فيه الضرس(٣). واعتمدت ثروة الطائف الاقتصادية على العنب، فهو يُزرع بكثرة، وهو عنب عذب لا يوجد مثله في بلد من البلدان، وأما زبيبها فيضرب المثل بحسنه(٤).

تجاوز الإنتاج الزراعي في الطائف حاجة الاستهلاك الداخلي وتكوَّن فائض للتبادل، لذلك كانت الزراعة مربحة ما شجَّع تجار مكة على استثمار بعض أموالهم في ملكية الأراضي الزراعية(٥).

والواقع أن نمو الزراعة في الطائف، وتنظيم عملية الري، وبناء الأسوار والأبراج، وتطوير الصناعة وبخاصة صناعة الأسلحة، وتنشيط التجارة والأسواق الموسمية، وتنظيم حركة العمران؛ هي مؤشرات إيجابية في الحركة الاقتصادية من خلال توسيع الأسواق الموسمية والسير بالاقتصاد نحو التكامل والتعاضد بين مناطق الجزيرة العربية كافة(٦).

ويتناثر في شمالي الجزيرة العربية، على مقربة من حدود بادية الشام، عدد من الواحات تشبه في خصائصها المناخية والزراعية مدينة يثرب، نذكر منها دومة الجندل ووادي الرمة وجبل شمر والدواسر.

وأخيراً، نستنتج من استعراضنا لأشكال النشاط الزراعي في الجزيرة العربية، أن مستوى الإنتاج في مجتمع الجاهلية الأخيرة لم يكن على نسق واحد، وذلك بفعل اختلاف الظروف الطبيعية ومستوى تطور القوى المنتجة. فقد قامت في اليمن علاقات إنتاج متطورة، على أكتاف العرب الأحرار كقوى منتجة بعد انهيار النظام

= ص٨٠. الحموي: جـ٤ ص٩.

(١) الحموي: المصدر نفسه: ص٩ ـ ١١. سالم: ص٣٧٣.
Lammens: La Cité Arabe de Taif à La veille de L'Hégire p20.

(٢) البلاذري: ص٧٠. المقدسي: ص٨٠.

(٣) Lammens: p33.

(٤) الحموي: جـ٤ ص٩.

(٥) البلاذري: ص٦٨.

(٦) معطي: ص١٢٤، ١٢٥.

القائم على استخدام العبيد. وتتداخل في منطقتي يثرب والطائف علاقات الإنتاج القائمة على استخدام العبيد مع علاقات إنتاج جديدة أرقى نسبياً قائمة على العرب الأحرار، ويمكن أن تكون صورة علاقات الإنتاج هذه هي نفسها في المناطق الزراعية الأخرى أو قريبة منها، كما أن استخدام عنصر الرق لم يكن، في أي حال، أساسياً في تركيب القوى المنتجة بفعل نسبته العددية المتدنية بالمقارنة مع استخدام عنصر العرب الأحرار[١].

(١) مروة: جا ص٢٠١. دلو، يرهان الدين: جزيرة العرب قبل الإسلام: جا ص٨٢.

الفصل الثالث

الصناعة

العلاقة بين الصناعة والعمل الزراعي

شكَّلت الصناعة وما يتصل بها من معاملات مورداً آخر لسكان الجزيرة العربية في العصر السابق لظهور الإسلام. والواقع أن الصناعة، وهي حرفة الصانع، تطورت في هذه المرحلة، وظهرت صناعات جديدة إلى جانب ما كان قائماً منها، وأُدخلت بعض التقنيات على وسائلها وطرقها بهدف زيادة الإنتاج وتحسين نوعه، ومعنى ذلك أن الحرفة تجاوزت طور العمل الصناعي المنزلي لتلبية حاجات التبادل، وفي هذه الحالة، يكون انفصال الحرف اليدوية عن الزراعة ظاهرة متقدمة تُعبِّر عن مرحلة جديدة من مراحل تطور المجتمع، ويُعدُّ هذا الانفصال شكلاً من أشكال التخصص في العمل الإنتاجي.

والواقع أن ظاهرة استقلال الصناعة اليدوية عن الزراعة كانت قائمة في الجزيرة العربية في مرحلة الجاهلية الأخيرة بدليل:

ـ أن المصادر العربية تتحدث عن الصناعات بوصفها سلعاً موضوعة قيد التبادل، كما تتحدث عن أسواق لها أو أسواق خاصة ببعضها، نذكر على سبيل المثال:

أ ـ أن أدماً جيداً كان يرتفع من صعدة[١].

ب ـ أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق عكاظ في كل عام لطيمة[٢] فتباع له بسوق عكاظ ويُشترى له بثمنها العصْب والبرود والأدم وغيرها من طرائف اليمن[٣].

جـ ـ إن ورق الحلف يُحمل في اليمن بعد معالجته وتجفيفه، لاستعماله في الصباغة.

د ـ إن أم أبي جهل، أسماء بنت مخربة، وقيل مخرمة، كانت عطَّارة يأتيها العطر من اليمن وتبيعه في المدينة[٤].

---

(١) المقدسي: ص٨٦. وصعدة في اليمن. (٢) عير تحمل التجارة.

(٣) الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني: جـ٢٢ ص٧٥.

(٤) االمصدر نفسه: جـ١ ص٦٤، ٦٥.

هـ ـ إن في يثرب سوقاً خاصة للصاغة هو سوق بني قينقاع[١].

ـ نشوء صناعات مستقلة عن الزراعة على الرغم من تفاعلهما وتكاملهما، مثل صناعة الأسلحة والأدوات الزراعية، والأواني الفخارية، وقد قامت في مكة مرتبطة بسوق التبادل.

ـ ظهور التخصص الصناعي، مثل صناعة الأسلحة وصقل السيوف، صناعة الصياغة، الحلي والمجوهرات، والنجارة وغيرها[٢]. ونذكر من بين المتخصصين في الإنتاج الصناعي في مكة: الوليد بن المغيرة، والعاص بن هشام أخي أبي جهل، وكانا حدادين، وأمية بن خلف الجمحي، وكان يعمل في صناعة الفخار، وعتبة بن أبي وقاص، وكان نجاراً، وهؤلاء الأشخاص حاربوا المسلمين في بدر أو أُحد، وسعد بن أبي وقاص، وكان يبري النبال، وخباب بن الأرت، وكان من صانعي السيوف وصقلها، وهما من بين الشخصيات التي أسلمت مبكراً، هذا فضلاً عن صناعات اليمن ويثرب والطائف.

وتطورت الحرفة في الجزيرة العربية بفعل عوامل عدة أهمها[٣]:

ـ نمو القطاع الزراعي، والمعروف أن بين الصناعة والزراعة علاقة تبادلية ومتكاملة، فالزراعة تقدم الخامات اللازمة للقطاع الصناعي والتي لا غنى عنها للصناعة، ويقدم القطاع الصناعي، في المقابل، الأدوات والآلات التي تحتاجها الزراعة لنموها وتطورها وهذا ما حصل فعلاً في مجتمع الجزيرة العربية قبل الإسلام.

ـ توافر الخامات المحلية والمواد الأولية التي تتوزع في أراضي الجزيرة العربية كافة وبخاصة في اليمن والحجاز والساحل الشرقي، مثل خامات الحديد والذهب والفضة والنحاس والرصاص والزمرد والعقيق والملح والمواد الصلصالية والأحجار القابلة للنحت والتشكيل كالرخام والمرمر، فضلاً عن وجود ثروة حيوانية قامت على جلودها وأصوافها ووبرها وألبانها صناعات متنوعة وفقاً لظروف البيئة وحاجات السكان.

ـ زراعة بعض النباتات التي تُستخرج منها مواد تدخل في بعض الصناعات، كالدباغة والنسيج والعطور والزيوت والخمور.

ـ ظهور أيدي عاملة ذات خبرة، اكتسبت مهارات مهنية جيدة.

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف: جـ١ ص٣٧١.

(٢) مروة: جـ١ ص١٩٧. دلو: جـ١ ص٩٤، ٩٥.

(٣) دلو: جـ١ ص٩٥. معطي: ص١٤١، ١٤٢.

ـ بروز حركة تجارية نشطة عمادها الأسواق المحلية والموسمية العامة.
ـ استثمار جزء من رأس المال التجاري وتوظيف المهارات والخبرات المهنية المتراكمة المحلية أو المستوردة، فيها.
ـ استخدام مزيد من الرقيق للعمل في الأراضي الزراعية.

التعدين والصناعات المعدنية

التعدين

يُعدُّ التعدين من المهن الأساسية التي احترفها العرب الجاهليون، والمعروف أن الجزيرة العربية كانت مصدراً للعديد من المعادن وبخاصة معدني الذهب والفضة، ولدينا عدد من الشواهد تدل على معرفة سكان الجزيرة العربية بالمعادن والتعدين، منها:

ـ القرآن الكريم، وقد أشار مباشرة وبصراحة إلى معرفة بفوائد الحديد وإلى خبرة بصهر المعادن وصناعة الحلي والأدوات المعدنية(١).

ـ ما ذكره الجغرافيون العرب واللغويون من أسماء المعادن التي استخرجها الجاهليون من باطن الأرض، وأماكن استخراجها والأدوات والوسائل والطرق التي استخدموها في ميدان التعدين وتنقية المعدن من شوائبه(٢).

ـ الألفاظ العديدة التي استعملها كتَّاب العصر الإسلامي كأسماء للذهب، في حالاته المختلفة، مثل: التبر، وهو الذهب الخام، والعسجد، وهو اسم عام للذهب والجواهر كالدر والياقوت، والسحالة وهي تراب الذهب، والإبريز والعقيان وهو الذهب الخالص.

للفضة، مثل: اللجين والصريف في حالتها الخالصة، والرضراض في حالتها المتفوقة وتُعرف سبيكتها بالوذيلة.

للرصاص: وقد عرف سكان اليمن نوعين منه الأبيض، وكانوا يسمونه الأسرب أو الأبار، والأسود، وكانوا يسمونه الصرفان أو القلعي.

والواقع أن تعدد الأسماء التي كانت تُطلق على كل معدن في حالاته المختلفة، وكثرة عدد الأماكن التي كانت تُستخرج منها المعادن، يدلَّان على معرفة الجاهليين المفصلة بالمعادن والتعدين، وهو أمر لا يمكن أن يكون قد ظهر فجأة في العصر

---

(١) الرعد/ ١٧. الشعراء/ ١٢٩. الحديد/ ٢٥.

(٢) راجع عن أسماء بعض المعادن، ابن منظور: عن الذهب: جـ١ ص٣٩٤، جـ٣ ص٢٩٠، جـ١٥ ص٨١، جـ١١ ص٣٢٨، ٣٢٩. عن الفضة: جـ٩ ص١٩٠، جـ١٣ ص٣٧٩. عن الرصاص: جـ٧ ص٤١، جـ٨ ص٢٩٣.

الإسلامي وإنما كان موجوداً في العصر الجاهلي[١].

ـ الآثار التي خلَّفها الجاهليون والتي عُثر عليها في اليمن والحجاز، ونذكر في هذا المجال ما عثرت عليه شركة التعدين السعودية في منجم «مهد الذهب»، وهو المنجم الذي كان لبني سُليم شمالي المدينة، من أدوات ترجع إلى عصر ما قبل الإسلام، كانت تستخدم لاستخراج الذهب واستخلاصه من شوائبه، من بينها رحى وأدوات تنظيف ومدقات ومصابيح، بالإضافة إلى آثار تدل على قيام عمال بالحفر في هذا المنجم لاستخراج الذهب منه، كما عثر المنقبون على بقايا من الرصاص في الأماكن الأثرية في اليمن تشير إلى أن أهل المنطقة كانوا يصبُّون الرصاص المصهور في أسس الأعمدة لتثبيتها وبين مواضع اتصال الحجارة لتشدها إلى بعضها[٢].

وطوَّر العرب الجاهليون عملية التعدين التي كانت تبدأ بجمع المعادن من على سطح الأرض، ثم انتقلت إلى طور جديد من واقع إجراء عملية قشط الطبقة الخارجية الحاملة للمعدن، ومنها انتقلوا إلى حفر الأنفاق والممرات في جوف الأرض على طريقة المناجم المفتوحة.

كان تعدين المعدن الخام وطحنه يتمان بالقرب من المناجم عادة، كما أن المادة المطحونة تُحرق بعد ذلك في أفران لتخليص المعدن من المواد المختلطة به مثل الكبريت الذي يوجد ممزوجاً بالنحاس أو الذهب، يلي ذلك صهر المعدن الحاصل في الأفران وجمعه في أحواض خاصة لنقله أخيراً إلى مراكز التصنيع في المدن حيث يُحول إلى أدوات استعمال للإنسان[٣].

وتتم عملية فصل الذهب عن شوائبه بطريقتين:

الأولى: الغربلة، في حال كان المعدن ممزوجاً بالرمل والحصى.

الثانية: التصفية، في حال كان المعدن مختلطاً بالمرمر، فتكسَّر القطع الحجرية المستخرجة من المناجم والتي تحتوي على نسبة عالية من الذهب، إلى قطع صغيرة ثم تطحن وتوضع بالماء فيصفى التراب ويبقى الذهب.

وأحياناً كان يُستخرج الذهب، في أماكن من الجزيرة العربية، خالصاً نقياً لا يعالج بالنار لاستخلاصه من الشوائب الغريبة ولا يُصهر لتنقيته.

المعادن وأماكن وجودها

وُجدت المعادن في مواضع مختلفة من الجزيرة العربية.

---

(١) يحيى: ص٢٣٦، ٢٣٧.

(٢) علي: جـ٧ ص٥١٤، ٥١٦.

(٣) معطي: ص١٤٤.

فقد وُجد خام الذهب في كثير من أرجاء اليمن[١] مثل: بيش، وضنكان[٢]، ومأرب، وذمار[٣]، وأرض بني سابقة بالحد بين صعدة ونجران، وصعاد من ديار بني عقيل، وهو غزير، وقد ذكره النبي ﷺ في قوله: (مُطرت أرض عقيل ذهباً)، والقفَّاعة، ودُعي ذهب صعدة بمعدن النار، وهو خير المعادن، ويماثله في الجودة معدن المخلفة من أرض حجور في همدان شمالي اليمن[٤].

وليس أدل على وفرة الذهب في اليمن مما قاله سيف بن ذي يزن لكسرى عندما نثر الدراهم، التي أعطاه إياها عندما ذهب إليه يطلب مساعدته ضد الاحتلال الحبشي؛ على خدم القصر، وقال: «ما أصنع بهذا؟ ما جبال أرضي التي جئت منها إلّا ذهب وفضة»[٥].

واشتهرت ديار بني سُليم في الحجاز بوجود المعادن، وارتبط منجم الذهب فيها باسمها، فدُعي بمعدن بني سُليم. ووُجد معدن الذهب في اليمامة بغزارة، بناحية عماية، والضبيب، والثنية، والوسجة، وتياس[٦].

وكانت الفضة من جملة المعادن المعروفة في اليمن، وموضعها بالرضراض. ووُجد العقيق في اليمن إلى جانب الذهب والفضة، في مكان قريب من صنعاء، وفي ألهان، وهو ذو نوعية جيدة[٧]. ويُستخرج العقيق الأحمر والأصفر والجزع[٨]، من منطقة صنعاء. واشتهرت ظفار بجزعها الذي فيه سواد وبياض، تُشبَّه به العين[٩].

وعرف العرب معدن الحديد، ووُجد في مضارب بني سُليم وفي نقم وغمدان

---

(١) كان الناس يجمعون التبر ويستخلصون منه الذهب.

(٢) اشتهرت ضنكان بوفرة التبر.

(٣) سُميت بعض قراها بسام، والسام عرق الذهب.

(٤) الهمداني: صفة جزيرة العرب: ص١١٦، ٢٢٤، ٢٣٢، ٢٦٧. كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء: ص١٢٣، ١٢٤. الحموي: ج١ ص٥٢٨.

(٥) ابن هشام: ج١ ص٨٣.

(٦) الهمداني: صفة: ص٢٦٧.

(٧) المصدر نفسه: ص٣٢١.

(٨) الجزع: الخَرَز اليماني والصيني، وسُمي جزعاً لأنه مُجزع؛ أي: مقطع بألوان مختلفة.

(٩) يقول امرؤ القيس في ذلك:

كأن عيون الوحش حول خبائنا ... وأرحلنا الجزع الذي لم يُثقَّب

وفي حديث عائشة ﵁: «انقطع عقد لها من جزع ظفار». ابن منظور: ج٨ ص٤٨.

وعندما أرسل أهل مكة في فداء أسراهم بعد معركة بدر، أرسلت زينب بنت الرسول ﷺ بقلادة لها من جزع ظفار كانت أمها خديجة أدخلتها بها على أبي العاص بن ربيع بن عبد العزى حين بنى بها، والمعروف أنه كان من بين الأسرى. ابن هشام: ج٣ ص٥٨.

حول صنعاء وفي جبل الحديد بعدن. واشتهر بنو أسد بصناعة الحديد، وكان هالك بن عمرو بن أسد بن خزيمة أول من عمل الحديد من العرب، لذلك يقُال لهم: القيون؛ أي: الحدادون، وتوصلوا مع بني سُليم إلى صهر الحديد وتنقيته وتحويله إلى معدن نافع لصناعة بعض الأدوات الزراعية ووسائل الري وغيرها من الآلات الإنتاجية.

واستخدم أهل اليمن الرصاص في كثير من أعمالهم منها صبّه في أسس الأعمدة وبين مواضع اتصال الحجارة لترتبط بعضها ببعض. والرصاص نوعان، أسود وهو الأسرب والأبار، والأبيض وهو القلعي، وعُرف بالآنك وهو الرصاص الخالص، وكان العرب يُطلون الأواني به ويشربون بها[١].

والكبريت من المعادن الموجودة في اليمن ومركزه ذمار ومنها يُجلب إلى سائر أنحاء اليمن، وهو من الحجارة الموقد بها، وكان الجاهليون يستحمُّون في العيون التي يجري منها الماء مشوباً به، ولها رائحة الكبريت[٢].

والزاج مشهور في اليمن ويقال له الشب اليماني وهو من الأدوية، ومن أخلاط الجير[٣] والشب، حجارة يُتخذ منها الزاج، وأجوده ما جُلب من اليمن وهو شب أبيض له بصيص شديد، وقد استُعمل في دباغة الجلود[٤].

والملح من المواد التي تاجر بها الجاهليون، وتوجد معادنه في أماكن متعددة، ويستخرجه بعضهم من المياه المالحة وبعضهم الآخر من المناجم، وأشهر مواضع الملح في اليمن جبل الملح في مأرب الذي امتاز بصفائه. واستخرج الملح أيضاً من ممالح نجد وتهامة، وتكثر السبخات الملحية في شرقي الجزيرة العربية، وقد شكَّلت مصدراً هاماً لهذه المادة، كما تكثر في وادي السرحان التي عُرفت قراها بقرى سبخات الملح[٥].

الصناعات المعدنية

صنع العرب الجاهليون الأدوات والأواني المعدنية معتمدين في صناعتها على ما يستخرجونه من معادن من أرضهم، مثل التماثيل واللوحات البرونزية والأقداح والصواني والمرايا والمسارج والأسلحة والمسكوكات وأدوات البناء والنحت والزراعة.

انتشرت صناعة الحلي والمجوهرات في كثير من أنحاء الجزيرة العربية ونشطت

(١) ابن منظور: جـ١٠ ص٣٩٤.
(٢) المصدر نفسه: جـ٢ ص٧٦.
(٣) المصدر نفسه: جـ٢ ص٢٩٣.
(٤) علي: جـ٧ ص٥٢٠.
(٥) نورة: ص٢٤١ ـ ٢٤٢.

مع ازدياد الطلب على شراء المصوغات من جانب نساء وجهاء القبائل والتجار والأثرياء للتزيُّن بها. وتقوم هذه الصناعة على تحويل المعادن المتوفرة من ذهب وفضة ونحاس وبرونز إلى قطع من الحلي منها ما يُعلَّق على الرقبة أو يوضع على الرأس أو الزند، وأهمها القلائد والأساور والخلاخل والخواتم والتيجان والأقراط والسلاسل، وقد يضيف إليها الصائغ قطعاً من الجواهر الثمينة كالعقيق والياقوت والزمرد واللؤلؤ والزجاج. وقد عُثر على الكثير من قطع الحلي في مدن بلاد العرب كالفاو ومأرب والبحرين والبتراء وتدمر[١].

وتميزت يثرب عن غيرها من المدن الحجازية في هذه الصناعة، فقد كان في قرية زهرة[٢] ثلاثمائة صائغ يصوغون الأساور والدمالج والخلاخيل والأقراط والخواتم والعقود، من الذهب أو من الجواهر والزمرد أو من الجزع الظفاري[٣]. واحتكر بنو قينقاع هذه الصناعة واختصوا بها وكان لهم سوق خاص تُباع فيه الحلي والمجوهرات، هو سوق الصاغة، يقصده الناس لشراء ما يطلبون من مصاغ، وقد بلغت ثروة هؤلاء اليهود من الحلي، مبلغاً كبيراً، فعندما فتح النبي ﷺ حصونهم وأجلاهم عن المدينة، وجد في حصونهم سلاحاً كثيراً وآلة من آلات الصياغة، وكنزاً في جلد جمل يحتوي على حلي ذهبية متنوعة[٤].

واشتهرت تدمر بغزارة الحلي الظاهرة في المنحوتات التدمرية وتجمعت لسكانها ثروات طائلة بفعل التجارة ما مكّن النساء والفتيات من الاندفاع لاقتناء المصوغات[٥].

وفي روايات الإخباريين ما يشير إلى أن الذهب استخدم أيضاً في صنع الآنية الذهبية. فقد كان عبد الله بن جدعان، وهو أحد أثرياء مكة، لا يشرب ولا يأكل إلّا بآنية من ذهب وفضة، فعرف لذلك بماسي الذهب[٦].

ويبدو أن ما كان يستخرجه العرب من الذهب والفضة لم يكن بمقدار كبير لكنه يكفي الاستهلاك الداخلي، ولا يُصدَّر منه إلى الخارج. واستخدم الصاغة في صناعة الحلي والمجوهرات، أدوات منها: العسقلان[٧]، الغداف، الجبأة[٨]،

---

(١) الأنصاري، عبد الرحمٰن الطيب: أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو: ص٢٨.

(٢) زهرة: تقع بين حرة واقم والسافلة.

(٣) السمهودي، نور الدين علي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى: ج٢ ص٣١٩.

(٤) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع: ص١٥٤.

(٥) البنى، عدنان: تدمر والتدمريين: ص٢٩٢.

(٦) ابن منظور: ج١٤ ص١٧٧.

(٧) العسقلان: أصغر مطرقات الصائغ.

(٨) الجبأة: خشبة الحذاء التي يحذو عليها.

الحملاج[1]، الكير[2]، المثقب والكلبتان[3].

كانت الحدادة حرفة شائعة في مكة، امتهنها الأشراف والعبيد. فقد كان العاص بن هشام، أخو أبي جهل، والوليد بن المغيرة، وهما من أشراف مكة، حدادين. وكان خباب بن الأرت قيناً في الجاهلية يصنع السيوف كما ذكرنا، وكان أبو بكر بن مسروح مولى رسول الله ﷺ حدّاداً، وهو عبد رومي من رقيق الطائف واسمه نفيع[4]. وكان قيون مكة يصنعون الآلات الزراعية والأسلحة من سيوف ودروع ورماح ونبال وسكاكين.

وارتبطت الحدادة في يثرب بالأعمال الزراعية، فكان الحدادون يصنعون ما يحتاج إليه الفلاحون من محاريث ومساح وفؤوس لحراثة الأرض، ومناجل للحصاد وغير ذلك، واحترف هذه الصناعة، العرب واليهود والموالي والعبيد. ونشطت صناعة الأسلحة والدروع في يثرب أيضاً واحترفها جماعة من اليهود. فقد غنم النبي ﷺ في غزوة بني النضير كل ما كان لدى هؤلاء من سلاح الحلقة والدروع، كما غنم المسلمون عندما أجلوا بني قينقاع من المدينة كثيراً من الدروع والسيوف والأقواس، وكذلك غنموا من بني قريظة ألفاً وخمسمائة سيف وألفي درع وخمسمائة ترس وجحفة[5].

كان الحدادون يقومون باستخلاص المعادن من الشوائب وتركيبها بنسب متفاوتة لإنتاج معادن ذات خصائص جديدة كما هو الحال في الصناعات البرونزية، والمعروف أن عملية التعدين تتطلب جهداً جسدياً مضنياً، وقد أشار أمية بن خلف الهذلي إلى ذلك بقوله:

يمانياً يشد اليوم كيراً ... وينفخ دائباً لهب الشواظ[6]

هذا ولم تكن تتوافر للعاملين في القطاع الصناعي أي ضمانات أو حماية، لا من ظروف العمل ولا من الظروف الطبيعية، ونذكر أن برد صنعاء كان يفطر أطراف العمال والصناع ويشينها بالدم.

صناعة النقود المعدنية

عرف العرب في العصور القديمة صناعة النقود المعدنية وذلك بفعل الازدهار

---

(١) الحملاج: منفاخ الصائغ.

(٢) الكير: هو زق أو جلد غليظ ذو حافات، وهو الذي ينفخ فيه الحداد.

(٣) الكلبتان: التي تكون مع الحداد يأخذ بها الحديد المحمّى.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان: ص٦٧.

(٥) المصدر نفسه: ص٣١، ٣٤ ـ ٣٦.

(٦) الزبيدي، محب الدين أبو الفيض محمد: تاج العروس من جواهر القاموس: جـ٩ ص٣٧١.

التجاري الذي شهدته العربية الجنوبية وقد اصطلح على تسميتها بالمسكوكات[١]، وقد ضُرب على بعضها اسم الملك الذي سُكَّت في أيامه أو الحرف الأول من اسمه. ويبدو أن سبأ كانت أول دولة عربية جنوبية سكَّت نقوداً، وقد قلَّدت العملة الآتيكية[٢] ثم تأثَّرت بالعملة الرومانية، ونُقش عليها اسم مركز الضرب مثل نجران وحضور، وورثت الدولة الحِميرية العملة السبئية، فسكَّت نقوداً مماثلة في ظفار لكنها أضافت إليها رسوماً ونقوشاً عربية، ما جعل الطابع العربي غالباً على الطابع الأجنبي[٣].

وعثر الباحثون على نماذج نقود عربية جاهلية تعود إلى عهود مختلفة في مواضع متعددة من الجزيرة العربية وبخاصة في اليمن وحضرموت، قدَّمت لنا بعض المعلومات عنها وعن مصادرها. استعمل سكان العربية الجنوبية النقود في معاملاتهم وقد سُكَّت من ذهب وفضة ونحاس ومن معادن أخرى، كما تعاملوا بالنقود الأجنبية. ووردت في كتابات سبئية وقتبانية إشارات إلى نقود تعود لهاتين الدولتين كانت مستعملة في تلك الأيام.

وسكَّت الدولة المعينية نقوداً خاصة بها نُقش عليها كتابات عربية تميزت مع النقود النبطية بسعة انتشارهما وانتقالهما إلى خارج حدود الجزيرة العربية.

وسكَّت الدولة القتبانية النقود في المدة الواقعة بين الأعوام ٥٠ إلى ١٥٠ ميلادية في حاضرتها تمنع. واستمرت الدولة الحضرمية تسكُّ العملة حتى القرن الثالث الميلادي، وقد نقش على أحد وجهيها صورة وجه الملك وعلى الوجه الآخر صورة نسر إلى جانب صورة رأس ثور في بعض الأحيان ونُقش على بعضها اسم الإله سن[٤]. وتحمل بعض النقود إشارات ورموزاً لها صلة بديانة العرب الجنوبيين قبل الإسلام.

وتعامل الناس في دولة كندة بالعملات المحلية ذات الطابع العربي وقد نُقش على أحد وجهيها صورة إنسان، لعلها صورة الملك، ونُقش على وجهها الآخر نقوشاً تشير إلى الإله كهل[٥].

---

(١) السكة: حديدة منقوشة تُضرب عليها الدراهم، لذلك سُميت الدراهم المضروبة سكة.

(٢) نسبة إلى أتيكا في بلاد اليونان.

(٣) Hill, G. F: Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia and Persia. PPIV, XVI, XVII
معطي: ص١٥٣.

(٤) Walker, J: the Moon God on Coins of the Hadramaut, vol 14 pp623 - 626.

(٥) الأنصاري: ص١٢٤، ١٢٥.

وسكَّ الأنباط في شمالي الجزيرة العربية نقوداً خاصة بهم منذ عهد الملك الحارث الثالث (٨٧ ـ ٦٢ق.م)، وهو أول ملك نبطي ضرب النقود وذلك بعد استيلائه على دمشق متأثراً بالنقود اليونانية المستعملة آنذاك والتي ضربها الملك ديمتريوس الثالث. لكن النقود النبطية تطورت مع مرور الزمن وأخذت طابعها العربي في رسومها ونقوشها قبل أن تتأثر مرة أخرى بالنقود الرومانية، وبخاصة في عهد الملكين عبادة الثالث والحارث الرابع[١].

واشتهر في شرقي الجزيرة العربية مركزان لسكِّ العملة: الأول في الجرهاء، والثاني في مملكة هجر، وقد سُكَّت على النسق اليوناني في العهد السلوقي لكنها تحمل نقوشاً عربية باسم ملك البلاد. وسُكَّت في كل من مملكة تدمر ومملكة خاراكس نقود خاصة بها[٢].

لم يرد في روايات المصادر ما يشير إلى سكِّ النقود في العربية الغربية، وتعامل أهل الحجاز وبخاصة مكة بالنقود الرومية والساسانية وبنقود أهل اليمن والحبشة، وذلك بوصفهم تجاراً يتاجرون مع بلاد الشام والعراق والحبشة، ويُلزمهم العمل التجاري باستعمال نقود مختلفة.

تميزت النقود العربية بميزتين: الأولى: برموزها التي تشير إلى اسم المدينة التي ضُربت فيها وشعار الدولة، أو إلّهها الرسمي أو اسم الأسرة التي ضربتها، ما يدل على وجود أسر متخصصة بالضرب كما هو الحال في دولة الأنباط في الشمال وفي دولة سبأ في الجنوب[٣]. الثانية: بدقة أوزانها.

وتوقف العرب عن ضرب النقود في المدة قبيل ظهور الإسلام، ولم يعد لديهم سكة خاصة بهم ولا نقود تحمل اسمهم، واعتمدوا في تعاملهم على الدنانير البيزنطية والدراهم الفارسية بالإضافة إلى قطع فضية غير مضروبة ولا منقوشة، يمانية ومغربية[٤]، وكان أهل مكة يعبرون عن الذهب بالعين وعن الفضة بالوَرِق، ويتعاملون بها وزناً بوصفها تبراً مغبة أن تكون ناقصة من كثرة التداول بها، وكان المثقال عندهم معروف الوزن[٥]، ولعلَّ لذلك علاقة بمدى زوال سيادة الممالك العربية الجنوبية، بفعل الاحتلال الحبشي ثم الفارسي لليمن والصراع بين المحورين

---

(١) Hill: PXXI.
(٢) نورة: ص١٧٦.
(٣) معطي: ص١٥٥.
(٤) الكتاني، عبد الحي: نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية: ص٤١٤، ٤١٥.
(٥) البلاذري: فتوح البلدان: ص٤٥٢. زلوم، عبد الكريم: الأموال في دولة الخلافة: ص١٩٩، ٢٠٠.

البيزنطي ـ الحبشي والفارسي للسيطرة على البلاد والطرق التجارية التي تخترق الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال، هذا في الوقت الذي افتقر وسط الجزيرة العربية وشمالها إلى وجود دولة ذات سيادة تستطيع أن تقف في وجه الصراعات الدولية، والمعروف أن المكيين احترفوا آنذاك التجارة وابتعدوا عن العمل السياسي، وذلك بفعل طبيعة العمل التجاري الناجح.

الصناعة الحجرية

ساعد وجود أحجار متنوعة قابلة للقطع والنحت والتشكيل، في الجزيرة العربية، على قيام صناعة أدوات وأوعية حجرية قابلة للاستخدام. فقد صنع العربي من أحجار المرمر والرخام، أوعية لحفظ مواد الزينة كالعطور واللبان والدهان، وهي على هيئة جرار صغيرة أو صناديق لها أغطية، زُيِّنت من الخارج بالنقوش والصور المحفورة، كما صنع منها أطباقاً ومجامر وتماثيل بشرية وحيوانية دخلت في المعابد، مثل المذابح والإفريزات التي كانت تُبنى في مقدمة المعبد وتُزخرف بالنحت البارز[١]، وصنع من الحجر الصابوني، أواني المطبخ كالقدور[٢]، ومن أحجار الغرانيت والديورايت، دواليب الرحى والمساحق اللازمة لطحن الحبوب والصخور التي تحتوي على نسبة عالية من المعادن لاستخلاص المعدن منها، ومن حجر المسنّ مقابض للسكاكين، ومن حجر الشذب ألواحاً وصفائح وقوائم السيوف ونصل السكاكين، ومن الحجر الهيصمي[٣] الأنية، كما صنعها أيضاً من حجر الحرض[٤] الذي يحتفظ بالحرارة مدة طويلة[٥]. وصنع من بعض الأحجار آلات الحفر، وآلات بسيطة كانت تستخدم في قطع الأحجار والزجاج وذبح الحيوانات وأعمال الحلاقة، والطب كالعمليات الجراحية، وصناعة الجلود والمنسوجات، وبعض أنواع القداح الذي يُستعمل لإشعال النار[٦].

واكتشفت البعثات الأثرية المتعددة، أواني وآلات مختلفة في أماكن متفرقة من الجزيرة العربية. ويبدو أن أحجار العربية الجنوبية قد نالت شهرة عالمية بفعل جودتها وذلك من خلال تصديرها إلى الخارج، وقد امتدحها ديودورس الصقلي وقارن بينها وبين أحجار جزيرة باروس المعروفة بجودتها، فوجد أنها أكثر جودة[٧].

---

(١) معطي: ص١٥٦.
(٢) نورة: ص١٧٧.
(٣) الحجر الهيصمي: هو حجر يشبه الرخام إلا أنه أشد بياضاً.
(٤) الحرض: هو الجص.
(٥) الهمداني: ص٣٢١، ٣٢٢.
(٦) نورة: ص١٧٨.
(٧) Diodorus, S: Library of History Book2 p59.

ونشأت في الجزيرة العربية، إلى جانب الصناعات الحجرية، حرف عدة متعلقة بها نذكر منها، حرفة قطع الأحجار من المحاجر وتهذيبها ونقلها إلى الأماكن المعدة لها، وحرفة حفر الآبار وأساسات المباني، وأساسات حفر المقابر، وحرفة نحت التماثيل وزخرفة الجدران والإفريزات، وبناء القصور والمنازل والمعابد، وشق الطرق، وإقامة مشاريع الري وما يرافق هذه الحرفة من أعمال تابعة لها[١].

صناعة الغزل والنسيج

نشطت صناعة الغزل والنسيج في الجزيرة العربية، وانتشرت في معظم أرجائها تلبية للطلب المتزايد على منتجاتها، كالثياب والأقمشة والخيام والبسط والزرابي والستور وغيرها. وقد ساعد في توسع هذه الصناعة، توافر الخامات الأولية من صوف غنم ووبر جمل وشعر ماعز وخامات كتان وقطن وأصبغة وأيدي عاملة ذات خبرة، ونشاط الأسواق المحلية والموسمية العامة ورواج التجارة.

وتشير روايات المصادر إلى ملابس سكان الجزيرة العربية المطرزة والموشاة بالذهب، كما تشير إلى وجود القطن ضمن محاصيل الجزيرة العربية وبخاصة في البحرين، وإلى وجود بذور الكتان في العربية الجنوبية[٢].

واشتهرت اليمن ونجران بصنع الحلل والثياب الملونة والمزركشة مثل: الخال[٣] والبرود[٤] والبرود اليمانية هي من الأنواع المرتفعة الثمن التي لا يشتريها عادة إلا الأثرياء، والعصب[٥]، والممرجل[٦]، والمعاجر[٧]، والسَّحْل[٨]، والحَبَرة[٩]، والسيراء[١٠]، والمرحَّل[١١]، والوصائل[١٢].

---

(١) معطي: ص١٥٨، ١٥٩.
(٢) غنيم، يوسف: ص٣٨.
(٣) الخال: ثوب ناعم.
(٤) ثياب يمنية بيضاء أو حمراء أو مخططة بالأبيض والأحمر.
(٥) نوع من البرد اليمنية يُقصَّب غزلها ويدرج ثم يُصبغ ويُحاك.
(٦) الممرجل: ضرب من الثياب موشاة بصور المراجل.
(٧) المعجر: ثوب تعجر به المرأة، أصغر من الرداء وأكبر من المقنعة، وقيل ثوب يمني يُلتحف به ويُرتدى.
(٨) السَّحْل: ثوب أبيض رقيق أو من القطن المصنوع في بلدة سحول اليمنية.
(٩) الحَبَرة: من برد اليمن الموشاة والثوب الجديد الناعم.
(١٠) السيراء: برد مخططة بخيوط صفراء أو يخالطها حرير وذهب خالص، أو هي ثياب صفراء كالسيراء.
(١١) المرحَّل: ثياب صُوِّرت عليها صور الرحَّال.
(١٢) الوصائل: ثياب يمنية حمراء أو بيضاء.

وعندما صالح المسلمون أهل نجران وافق هؤلاء على دفع جزية سنوية منها ألفا حلَّة، ألف حلَّة في صفر وألف حلَّة في رجب[1]. وتروي المصادر أن كسوة الكعبة في الجاهلية كانت من الأنطاع والمعافر وأن تبان أسعد أبي كرب، أحد تبابعة اليمن، هو أول من كسا الكعبة بالوصائل اليمنية، وكساها الرسول ﷺ الثياب اليمنية أيضاً، واستمرت تُكسى من اليمن حتى عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان[2].

واحترفت جماعة من المكيين صناعة الغزل والنسيج تلبية للحاجات المتنامية والطلب المتزايد على منتجاتها، منها: الأثاث المنزلي والأرائك والنمارق والزرابي والفرش وبطائنها. ومن بين الذين احترفوا هذه المهنة: مجمع الزهَّاد وكان حائكاً، والعوام، أبو الزبير، وعثمان بن طلحة، وقيس بن مخرمة، وجميعهم كانوا خياطين[3].

وطوَّر اليمنيون صناعة الغزل والنسيج لجعل منتجاتهم أكثر جودة وذلك بإدخالهم عليها بعض التقنيات حيث يتجلَّى تمازج الألوان بشكل يثير الإعجاب والدهشة[4]. فاستعملوا الأصبغة النباتية لتلوين الثياب والأقشمة باللون الأحمر أو الأصفر أو الأخضر والحصول على صبغة أكثر ثباتاً ودقة وإتقاناً. وقد توفَّرت في اليمن خامات الصباغة مثل: الورس، والعصفر، وقِرف الأرطي، وقِرف السدر، والفوَّة، والعصب، والأيدع وغيرها.

وراجت الأقمشة والثياب اليمنية في الأسواق ولا سيما البرد، واشتهرت عدن بصناعتها، كما اشتهرت قطر بالثياب القطرية وبنوع من النجائب، وهي برود من غليظ القطن، وكذلك اشتهرت هجر بصنع الملابس الفاخرة التي تستحق الإهداء، واشتهرت صحار، قصبة عمان، بثياب عُرفت بها، وكانت تصدرها إلى الخارج.

ونسج العرب، إلى جانب الثياب الناعمة والفاخرة التي صُنعت لسادات القبائل والأثرياء وكبار الموظفين والتجار، الثياب والملبوسات البسيطة، الغليظة والخشنة نسبياً والقليلة الكلفة، لفقراء البدو والحضر والعبيد، ما يعكس تمايزاً طبقياً وتفاوتاً في الثراء بين الأغنياء والفقراء والمستعبدين[5].

وازدهرت في الجزيرة العربية صناعة البسط من الصوف وشعر الماعز، وهي أنواع عديدة تُنسب إلى مواضع صنعها، واشتهرت بعض أصناف البسط مثل: العبقري والعباقري وهي التي تحتوي على الأصباغ والنقوش[6]، وقد راجت في جميع أرجاء الجزيرة العربية، كما ازدهرت صناعة الخيام من الوبر، وشعر الماعز، والصوف

---

(١) البلاذري: ص٧٥. (٢) المصدر نفسه: ص٥٩، ٦٠.

(٣) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري: المعارف: ص٣١٩.

(٤) نورة: ص١٩٤. (٥) دلّو: جا ص١٠٤.

(٦) ابن منظور: ج٤ ص٥٣٥.

وجلود الأنعام. وهذه الأخيرة صالحة وملائمة للسكن في أثناء هطول الأمطار بخلاف الخيام المصنوعة من الوبر أو شعر الماعز أو الصوف، حيث أنها تتشبَّع بالمطر فينفذ منها الماء إلى ساكنيها، كما أنها لا تحميهم من البرد والرياح[١].

وعلى الرغم من الازدهار الذي بلغته صناعة الثياب والأقشمة في الجزيرة العربية، إلّا أن العرب الجاهليين استوردوا المنسوجات النفيسة من بلاد فارس والهند والصين والشام ومصر، من بينها: الديباج، والإستبرق، والسندس والأنسجة الحريرية والقطنية والصوفية، وصنَّعوها محلياً لتلائم أذواق السكان.

الصناعات الجلدية والدباغة

راجت الصناعات الجلدية وصناعة دبغ الجلود في الجزيرة العربية، وذلك لسدِّ حاجات ومتطلبات الزراعة ووسائل الري مثل: الدلاء والقِرب وغيرها بالإضافة إلى سدِّ حاجات الناس إلى النعال وغيرها. وقد شغلت هذه الصناعة مرتبة الطليعة بين صناعات الجزيرة العربية بفعل أنها كانت ذات شأن عند العرب الجاهليين.

كانت الطائف في الحجاز من المواضع الحضرية التي اشتهرت بدباغة الجلود، وهي بلد الدباغ يُدبغ بها الأهب[٢] الطائفية[٣] المعروكة، وفيها الأديم المليح والثقيل[٤]. وقد كثرت مدابغها بحيث أن رائحة مياه المدابغ التي يُدبغ بها الأديم كانت تصرع الطيور إذا مروا بها[٥].

وكانت صعدة في اليمن مركزاً لدباغة الجلود لوقوعها في بلاد القرظ، وتُصنع فيها الركاء الجيدة والأنطاع الحسنة، ومنها يرتفع أديم جيد[٦]. وكذلك كانت جرش ونجران من المراكز الشهيرة بدباغة الجلود. ويبدو أن مراكز الدباغة توزعت في جزر البحر الأحمر ومنطقة الحجاز ومدن جنوب الجزيرة العربية. والمعروف أن الجلود المعدة للدباغة هي جلود البقر والغنم والماعز والوحش، وتُدبغ بالقرظ والأرطي والسَلم والطيَّان وغيرها.

وتدخل الجلود بعد دبغها في مختلف الصناعات الجلدية التي يحتاج إليها الناس في حياتهم اليومية منها: الغروب[٧] والجفان[٨] والدلاء والقرب والنعال والأنطعة

---

(١) علي: جـ٧ ص٦١٧، ٦١٨. الأنصاري: ص٢٢.
(٢) الأهب: قطع الثوب.
(٣) الطائفية: نسبة إلى الطائف.
(٤) الهمداني: ص٩٩.
(٥) الحموي: جـ٤ ص٩.
(٦) المقدسي: ص٨٦. والركاء: جمع ركوة، وهي إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء. والأنطاع: جمع نطع وهي بساط من الأديم.
(٧) الغروب جمع غرب، وهو الدلو الكبير.
(٨) الجفان جمع جفن، وهي القصعة الكبيرة.

والسيور والخيام والأشلة[1] والبسط والأحزمة والمساند وأدوات الحرب، من دروع وخوذ وأجربة السكاكين والسيوف والخناجر، كما كانوا يستعملونها في بعض أنواع الأسلحة الهجومية مثل الدبابة لحماية من في جوفها من نبال وسهام العدو. ففي حصار الطائف نصب النبي ﷺ منجنيقاً على حصنها، وكانت مع المسلمين دبابة، وهي آلة تُستخدم في عملية الحصار كان المقاتلون يدخلون في جوفها المصنوع من جلد البقر ثم تُدفع في أصل الحصن، فينقبونه وهم في جوفها[2].

وصنع العرب ملابس جلدية من جلود الحيوانات البرية كالأسود والنمور، كما صنعوا السروج والفرش وأجلَّة[3] للخيل، وعمَّت شهرة الجلد اليمني في جميع أنحاء الجزيرة العربية بفعل جودته وحسن صنعه وبخاصة النعال المصنوعة من جلود البقر. وقد شبَّه طرفة بن العبد مشافر ناقته بجلد يمني لا يتجعَّد وذلك بقوله:

وخدٍّ كقرطاس الشآمي ومشفر   كسِبت[4] اليماني قدُّه لم يُجرَّد[5]

أما الآلات المستخدمة في صناعة الدباغة الجلدية فهي الإشفي[6]، والمِبقر[7]، والمِسرد[8]، والمِخصف[9]، والمِقراص[10]، والمِجوف[11]، والمنحاز[12] وغيرها.

صناعة الأصباغ والعطور

الصبغ ما يُلوَّن به، وعرف العرب في العصر الجاهلي الأصباغ واستخرجوها من بعض النباتات لتلوين الجلود والأقمشة، وكانت سلعة رائجة ومطلوبة، لأنها جيدة وثابتة، ما أدَّى إلى نشوء صناعة الصباغة. واشتهرت مواضع من جزيرة العرب برع أهلها في الصباغة. ونذكر من بين النباتات البرية والمزروعة التي استخرج العرب منها الألوان:

الورس: ويزرع في اليمن، ويبقى في الأرض مدة عشرين عاماً من دون أن يتلف، وهو نوعان حبشي وبادرة، يُستخرج من الأول صبغ أصفر، شديد الصفرة،

---

(١) الأشلة: جلد من صوف أو شعر مطرز يوضع على عجز البعير.

(٢) البلاذري: ص٦٧.

(٣) أجلة: جمع جلال، وهو الغطاء الذي يُلبس للدابة لتصان به.

(٤) السِبت: كل جلد مدبوغ وقيل المدبوغ بالقرظ خاصة، وخصَّ بعضهم به جلود البقر مدبوغة كانت أو غير مدبوغة. ونعال سبتية، لا نعل لها. وفي رواية لا يُقال للجلد المدبوغ سِبتاً حتى يصير حذاء. ابن منظور: جـ٢ ص٣٦، ٣٧.

(٥) ديوان طرفة بن العبد: ص٢٣.

(٦) الإشفي: المثقب.

(٧) المِبقر: ربما كان قدراً كبيراً واسعاً.

(٨) المِسرد: المثقب.

(٩) المِخصف: ما يخرز به.

(١٠) المقراص: حديدة عريضة للقطع.

(١١) المجوف: حديدة يخصف بها.

(١٢) المنحاز: الهاون والمدق.

ومن الثاني صبغة حمراء[1].

العصفر: صبغه أحمر وبزره القرطم الذي يُصبغ به منه، وهو نوعان: بري وريفي يزرع زرعاً، وكلاهما ينبتان في أرض العرب، وليس في البري منفعة. وللعصفر شبابان، أحدهما القلى والآخر حب الرمان، والشباب ما يوقد لونه، ويشده، فيشب كما تشب النار[2].

الزعفران: مادة تُستعمل في الصباغة، لون زهرها أصفر، ومصدرها بلاد العجم، وقد صرَّفتها العرب، فقالوا: ثوب مزعفر، وزعفر ثوبه يزعفره زعفرة[3].

قِرف الأرطى[4] **وقِرف السدر**: القِرف لحاء الشجر، ذات عروق حمراء لذلك قالت العرب: أحمر كالقِرف، وأتانا على جمل أحمر كأنه أرطاة، فإذا صبغ الثوب بقشور هذه العروق قيل صبغ ثوبه بقِرف[5].

الفوَّة: عروق يصبغ بها، وهي عروق حمر دقاق لها نبت يسمو في رأسه حب أحمر شديد الحمرة كثير الماء يُكتب بمائه ويُنقش، واستعملت الفوَّة دواء لمعالجة الجلد[6].

العندم: وهو البقَّم، شجر خشبه أحمر يُطبخ ويُلوَّن بمائه الأحمر، وهو دخيل معرَّب[7].

الصِرف: صبغ أحمر يصبغ به شرك النعال[8].

اللَّكّ: نبات صبغه أحمر يصبغ به الأدم، جلود البقر والماعز وغيرها، وهو شديد الحمرة وقيل: لا يسمى لُكاً إلّا إذا طبخ واستُخرج صِبغه[9].

الحناء: يختضب به الرجال والنساء وهو كثير في الجزيرة العربية، ويعظم شجره حتى يكون كالسدر، ويُشبب الحناء بالكتَم ليشد لونه ويقنئه، فالكتم للحناء شِباب، وقد يخلط الوسمة أيضاً بالحناء فيكون له شِباباً ومُسوِّداً، والوسمة العِظلم، ويُشب الحناء بالخطر فيسوَّد، ومما يقوي الحناء على التسويد، الصبيب[10].

الأرقان: شجر له صبغ أحمر[11].

---

(١) ابن منظور: جـ٦ ص٢٥٤.

(٢) المصدر نفسه: جـ٤ ص٥٨١.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٢٤.

(٤) الأرطى: شجر ينبت بالرمل شبيه بالغضا ينبت عصياً من أصل واحد يطول قدر قامة وله نور مثل نور الخلاف ورائحته طيبة، واحدته أرطاة. المصدر نفسه: جـ٧ ص٢٥٤.

(٥) المصدر نفسه: جـ٧ ص٢٥٤، ٢٥٥، جـ٩ ص٢٧٩.

(٦) المصدر نفسه: جـ١٣ ص٥٣٠.

(٧) المصدر نفسه: جـ١٢ ص٥٢.

(٨) المصدر نفسه: جـ٩ ص١٩٣.

(٩) المصدر نفسه: جـ١ ص٤٨٤.

(١٠) الدينوري: جـ٣ ص١٧٩. والصبيب: صبغ أحمر.

(١١) المصدر نفسه: ص١٧١.

الحلق: شجرة تنبت نبات الكرم ولها ورق حامض يطبخ ويُجعل ماؤها في العصفر، فيكون خيراً من حبّ الرمان، ويخلط بالوسمة للخضاب، ولوّن العرب بصبغه الشبان الحمراء[١].

واستعمل العرب ماء الشقائق في الخضاب الأسود لصبغ الشعر، وامتشطت النساء بورق العِشرق الذي يُسود الشعر وينبته، كما امتشطت بورق القان الذي يُجعِّد الشعر ويُسوده[٢].

كانت عملية استخراج الصباغ تتم إما بنقع هذه الخامات بالماء أو بطبخها على النار حتى تصبح مادة صالحة للتلوين، وعمد الصباغون إلى مزج الأصباغ إما لتركيزها أو للحصول على ألوان جديدة.

واشتهرت اليمن، على الصعيدين الداخلي والخارجي، بصباغة الجلود وتلوين الألبسة والحلل، وهناك ثلاثة أشياء لا تتوفر إلّا فيها: الورس واللبان والعصب[٣].

وامتهن العرب في العصر الجاهلي حرفة استخراج العطور والروائح العطرية من الأزهار والورود والنباتات، منها:

ماء الورد: الذي عُرف عند أهل المدينة بالجلاب[٤] كما ورد في كتب الحديث[٥].

الطِّيب: الذي اشتهرت به بلاد اليمن.

المسك: وكان يُحفظ في قوارير، وهو من الطِّيب الثمين.

العنبر: وأجوده المسك العماني، وهو مادة بحرية تُجمع في فصل الشتاء من السواحل الجنوبية للجزيرة العربية، وأشهره العنبر الشحري، ومن أنواعه الأبيض والأسود والدخني وهو أجوده.

اللبان: ومنه الرند والأدن والضرو والحذق والكندر والمر والصبر والعفص وغيرها، وتُستخرج كلها من نباتات تنمو في أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية وبخاصة في العربية الجنوبية.

الحَجْر: وهو دهن الزنبق.

تحتوي معظم هذه النباتات على مادة زيتية لها رائحة عطرة، استخدمها العرب الجاهليون في صناعة الطِّيب. وكان الحرفيون المختصون بهذه الصناعة يعصرون ثمارها وأزهارها لصناعة الدهن ثم يريبون الدهن[٦] بالظيان[٧] وغيره ليحوّلوه إلى

---

(١) ابن منظور: ج١٠ ص٦٦.
(٢) الدينوري: ج٣ ص١٨٢، ١٨٣.
(٣) الهمداني: ص٣١٩.
(٤) الجلاب: كلمة فارسية معناها ماء الورد.
(٥) صحيح البخاري بشرح الكرماني: ج٣ ص١٢٠.
(٦) يريبون الدهن: يُطيبونه.
(٧) الظيان: الياسمين.

عطر يُتطيَّب به[١]. ويدخل المر في تركيب العطور للمحافظة على رائحتها مدة طويلة، كما يدخل في تركيب الأدوية، ويضاف إلى الخمور لإكسابها رائحة زكية[٢].

اشتهرت عدن بصناعة الطِّيب، فكان يقصدها التجار من الهند والسند وفارس وبلاد الروم للحصول على طيوبها وأشهرها: دهن العنبر والزباد والمسك. وكانت عطور اليمن تُصدر إلى مكة وتُباع في محلاتها التجارية. وكانت أم أبي جهل عطارة تتاجر بالعطور التي تُستورد من اليمن[٣].

ويبدو أن العطارين اليمنيين لم يكتفوا بما كانوا يستخرجونه من دهون وعطور من النباتات المحلية، بل كانوا يستوردون، من الهند وغيرها، مواد أخرى يُصنِّعونها طيوباً فاخرة، ثم يُصدِّرونها إلى الخارج، وبخاصة إلى فارس وبلاد الروم[٤].

ومن المدن التي اشتهرت بصناعة العطور في العربية الشمالية: البتراء، عاصمة الأنباط، وقد عمل أهلها بتجارة الطيوب المُصنَّعة محلياً[٥].

الصناعات الخشبية والنجارة

كانت الصناعات الخشبية من بين اهتمامات العرب الجاهليين بهدف تلبية الحاجات المتنامية للأدوات المنزلية والزراعية ووسائل الري والصيد، وما يتطلبه بناء المنازل والحظائر وغيرها، وهي ضرورية للحضر والبدو، فيحتاج أهل المدن للسقوف في بيوتهم والأغلاق لأبوابهم، ولا بدَّ لسكان البوادي من العمد والأوتاد الخشبية لخيامهم والحدوج[٦] لنسائهم، والحضر والبدو معاً يحتاجان إلى صناعة أسلحتهم من الرماح والقسي والسهام، «وكل واحد من هذه الأمور، فالخشب مادة لها، ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلّا بالصناعة، والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هي النجارة على اختلاف رتبها...»[٧].

وساعد في قيام الصناعات الخشبية، نمو عدد كبير من الأشجار في مرتفعات الجزيرة العربية وبخاصة في جهتها الغربية، وفي جنوبها الشرقي، وفي بطون الأودية، بالإضافة إلى بعض الأخشاب المستوردة من أفريقيا والهند التي تمتاز بصلابتها مثل: الساج والآبنوس والصندل[٨].

(١) الدينوري: ج٣ ص٢١١.
(٢) نورة: ص١٩٠، ١٩١.
(٣) الأصفهاني: ج١ ص٦٤، ٦٥.
(٤) معطي: ص١٧٠.
(٥) المرجع نفسه.
(٦) الحدوج: من مراكب النساء يشبه المحفة. والحدوج: الإبل برحالها.
(٧) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون: ج١ ص٣٤٢، ٣٤٣.
(٨) معطي: ص١٧٠.

واستخدم النجارون بعض أصناف الشجر في صنع أبواب البيوت ونوافذها وسقوفها وإقامة حظائر الأنعام، مثل: أشجار الطلح والسمر والعرعر والجوز والسرو، واستعملوا شجر المَرْخ في إنشاء هياكل الخيام وتظليلها بالثُّمام[١]، وصنعوا من خشب الجوز والأثل والضرو: القصاع والجفان[٢] والآنية والمكاييل والصيعان والأقداح، ومن خشب الميس: الرحال حتى أصبح معنى الميس الرحل لغلبة استعماله، ومن جذوع الأشجار: السروج والهوادج. ودخلت الأخشاب في صناعة الأثاث المنزلي كالكراسي والسرر والصحون والأرائك والصناديق الخشبية.

واشتهرت صناعة النجارة في مدن عدة في الجزيرة العربية، ففي مكة مثلاً، كان عتبة بن أبي وقاص، أخو سعد بن أبي وقاص، نجاراً[٣].

واستعمل النجارون أدوات متنوعة في معالجة الخشب وقطعه ونشره وتسويته منها: الفأس، والحصين[٤]، والحدأة[٥]، والعاقور[٦]، والكرزن[٧]، والقدوم[٨]، والنخاسة، والمنشار، والمحفرة، والمسحل[٩]، والمثقب والكلبتان[١٠]، والعتلة وغيرها من الأدوات.

صناعة الفخار والأواني الفخارية

تمتد صناعة الفخار في المدى الزمني إلى عصور ما قبل التاريخ، وهي حرفة معروفة عند العرب الجاهليين بدليل ما عثر عليه علماء الآثار من أوانٍ فخارية وخزفية وكسرها في اليمن والعربية الجنوبية وفي قرية عاصمة دولة كندة، بالإضافة إلى أواني فخارية ملونة ومزينة بنقوش هندسية أو نباتية أو حيوانية، وقد وُجِدَت في شرقي الجزيرة العربية.

وتنوَّعت صناعة الفخار بين منطقة وأخرى، ففي وسط الجزيرة العربية وفي جنوبها، في حجر بن حميد وحريضة في حضرموت، وفي قرية الفاو وُجِدَ فخار سميك خشن ممزوج بالرمل، مادته مسامية، وزخرف بالخطوط المتموجة والتنقيط، يغلب عليه اللون الأحمر أو البني أو الأخضر. وعُثر في وادي بيحان، في وسط الجزيرة العربية، على فخار خشن ممزوج بالحجر الصابوني ذي لون أسود أو أحمر،

---

(١) الثُمام: نبت معروف في البادية.

(٢) الجفان: أعظم ما يكون من القصاع.

(٣) ابن قتيبة: ص٣١٩.

(٤) الحصين: فأس ذات خلف واحد.

(٥) الحدأة: فأس ذات رأس.

(٦) العاقور: الفأس العظيمة.

(٧) الكرزن: فأس ذات رأس واحد.

(٨) القدوم: الفأس الصغيرة.

(٩) المسحل: مبرد أخشن من مبرد الحديد يُسحل به الخشب؛ أي: يُنحت، والصغير منه: مسرد.

(١٠) الكلبتان: الكماشة، يجذب بها النجار المسمار من الخشب.

وَوُجِد مثله في منطقة مأرب، وفي حضرموت، وبفعل انتشاره في الحبشة، فقد عدَّه البعض حبشي الأصل[1]. وهناك فخار رقيق كثير الألوان ومزخرف بأشكال عديدة مثل الأزهار وأوراق الأشجار، ووُجِدَ فخار مزجَّج في تاج، بشرقي الجزيرة العربية وفي شمالها وفي قرية الفاو[2].

واشتهرت اليمن ومكة ويثرب بصناعة الأواني الفخارية كالقدور والجفان[3] والصحاف والأباريق والكيزان[4]، والأكواب وغيرها. وامتهن أمية بن خلف، وهو من أشراف مكة، حرفة الفخارة وكان يبيع البُرم[5]، كما احترفها الأنباط، وكانت الأواني الفخارية التي صنعوها، من الدقة والرقة بحيث فاقت جودة خزف بعض الشعوب الأخرى، ونافس الخزف الصيني.

وكان أهل يثرب يضعون الخمر في جرار يُطلقون عليها اسم الحنتمة؛ أي: الخزف الأخضر أو الجرار المدهونة باللون الأخضر، ثم اتسع مدلول الكلمة لتطلق على الخزف كله. واشتهرت قرية هجر القريبة من يثرب وكذلك الأحساء، بصناعة القلال؛ أي: الجرار الكبيرة[6].

واستعمل الجاهليون الجرار لخزن الطعام في المنازل كالحبوب والدقيق والزيت والدبس والتمور حيث تُرصُّ فيها، والأشياء النفيسة حيث تُسدُّ وتُدفن حتى لا يعثر عليها اللصوص، ولحفظ مياه الشرب.

وأدخل الفخارون بعض التحسينات التقنية إلى صناعتهم، فكانت جفانهم مثلاً تزدان بنقوش دقيقة تُدهن باللون الأسود. أما المواد المستعملة في هذه الصناعة فهي كثيرة نذكر منها:

الرمل: وتتميز الأواني الفخارية المصنوعة منه بثقل وزنها، ولونها الأحمر المائل للبني بعد حرق مادتها، وبسطحها الخشن.

الحجر الصابوني.

الصلصال: الذي يُعدُّ مادة الفخار الأولى، وكان يُصنع منه الطين الذي يُسوَّى بدوره أشكالاً فخارية توضع تحت أشعة الشمس لتجف ثم تُدخل إلى أتون النار

---

(١) نورة: ص١٨٢. (٢) الأنصاري: ص٣٠.

(٣) الجفان: جمع جفن وهو أعظم ما يكون من القصاع.

(٤) الكيزان أو الأكواز من الأواني، معروف.

(٥) ابن قتيبة: ص٣١٩. والبُرم جمع برمة وهي القِدْر المصنوعة من الحجر المعروف بالحجاز واليمن.

(٦) ابن منظور: جا١١ ص٥٦٥ وجا١٢ ص١٦١، ١٦٢.

لتحويلها إلى أوانٍ خزفية جاهزة للاستعمال[١].

القش: الذي يُعرف باسم التبن، وقد وُجِد ممزوجاً مع الفخار في المناطق الزراعية بخاصة.

أتون النار: وهو الجهاز الرئيس في معمل الفخار لشوي أشكال الطين المصنوعة وتحويلها إلى خزف وفخار.

واعتمد عامل الفخار على الأساليب اليدوية في الصناعة لعدم وجود آلات مخصَّصة لذلك.

وتميز فخار الجزيرة العربية بزخرفته وبألوانه الزاهية مثل: الزهر والأحمر المائل إلى البني، والبني الفاتح والغامق، والرصاصي، والأسود، ويبدو أن اللون الأحمر بنوعيه الفاتح والغامق كان أكثر الألوان انتشاراً[٢].

صناعة الأواني الزجاجية

عرف العرب في العصر الجاهلي صناعة الأواني الزجاجية بدليل ما عثر عليه علماء الآثار من مصنوعات زجاجية وكسرها في مواضع متفرقة من الجزيرة العربية. ففي قرية عاصمة دولة كندة، عثر المنقبون عن الآثار على بقايا قطع زجاجية صُنعت بطرق عدة، بالضغط أو بالقالب أو بالنفخ، وحُلِّيت بزخارف ملونة باللون الأصفر والأبيض والأزرق والبنفسجي والبني والأخضر[٣]، نذكر منها: الجرار والأطباق والأسرجة والقناديل والأقداح والقوارير وأدوات الزينة والحلي، كالأساور والخرز والفصوص والخواتم والمرايا، وقد صُنعت أيضاً من المعادن المصقولة كالنحاس، والكؤوس للشرب، والراووق الذي هو المصفاة، وقيل الناجود والباطية، وهي إناء واسع الأعلى ضيق الأسفل، وذكر بعض علماء اللغة أن الراووق هو الكاس[٤].

وعرف سكان العربية الجنوبية البلور بفعل وجوده في اليمن، وكانوا يستخرجونه من الحجارة ويصقلونه بعناية، ويغلب عليه اللون الأبيض[٥].

وتمتاز الصناعات الزجاجية بتعدد ألوانها وبطريقة مزج الألوان لإكسابها جمالاً، وقد زُخرفت معظم الأواني الزجاجية برسوم تنم عن ذوق رفيع وتطور في الصناعة. وكانت الكؤوس تُزيَّن بالنقوش والزخارف واللؤلؤ والحجارة الكريمة[٦].

---

(١) نورة: ص١٧٩.
(٢) المرجع نفسه: ص١٨٢.
(٣) الأنصاري: ص٢٩.
(٤) ابن منظور: جـ١٠ ص١٣٤.
(٥) علي: جـ٨ ص٦٤.
(٦) الأنصاري: ص٢٩. معطي: ص١٨٣.

صناعة السفن

عرف العرب الجاهليون وبخاصة في اليمن، صناعة السفن التي ترتبط عادة بوجود الأخشاب الملائمة. ولما كانت أخشاب غابات الجزيرة العربية لم تكن بالمتانة والصلابة اللازمتين لبناء السفن؛ فقد استورد العرب الأخشاب القوية الصالحة لبناء السفن، مثل خشب الساج، من الهند كما استوردوا الأخشاب من بلاد الشام وبعض مدن البحر المتوسط[١]، وكانت هذه الأخشاب تصل إلى ميناء عمانا، صحار، في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية[٢].

تصنع السفن الكبيرة من ألواح خشبية مستوردة تُشدُّ بعضها إلى بعض ثم تُسمَّر بالدسر، وهي خيوط من ليف تُشدُّ بها الألواح، ويُجعل في خللها القار، وتستخدم الشحوم وبعض الزيوت لسد الشقوق والخزوق وطلي الأخشاب لمنع تأثرها بالماء[٣]، وتُسقف بالألواح وتُثبَّت بالطائق[٤]، وتستعمل فيها الأشرعة المربعة لدفعها فتجري مع الريح، وكانت قادرة على الإبحار في المحيط الهندي مع الرياح الموسمية. وتُزوَّد السفينة بالأنجر وهو المرساة الذي يتم إنزاله في الماء ليستقر قاع السفينة، ويُصنع من الخشب الصلب الثقيل أو من الحديد أو يُتخذ من الحجارة الكبيرة، ويُشدُّ بالحبال[٥]. ويُثبَّت في السفينة القلع والشراع والدقل[٦] والقلس[٧] والجؤجؤ[٨] والكوثل[٩]، ومن الأدوات: المروى والقيلقان[١٠].

والقوارب أنواع، منها الصغيرة التي تُستخدم في رحلات الصيد، والغوص للبحث عن اللؤلؤ في السواحل القريبة، وهي بسيطة الصنع تتكوَّن من جذوع الأشجار والقِرب المنفوخة. واشتهر سكان السواحل بصنعها من جريد النخيل المخيَّط بحبال أليافها والمغطَّى هيكلها بلحائها.

وتتنوع السفن التي كانت تُصنع في الجزيرة العربية، مثل: الفلك، القرقور،

---

(١) Moreland, W. H: The Ships of the Arabian Sea about A.D 1500. p68.

(٢) The Periplus of the Erythean Sea. Chap. 36 p36. علي: جـ٧ ص٢٥٧، ٢٥٨.

(٣) ابن منظور: جـ١٤ ص٣٢١.

(٤) الطائق: ما بين كل خشبتين من السفينة. المصدر نفسه: جـ١٠ ص٢٣٢.

(٥) ابن منظور: جـ١٤ ص٣٢١.

(٦) الدقل: خشبة طويلة تُشدُّ في وسط السفينة يُمدُّ عليها الشراع. المصدر نفسه: جـ١١ ص٤٦.

(٧) القلس: حبل ضخم من ليف أو خوص من حبال السفن. المصدر نفسه: جـ٦ ص١٨٠.

(٨) الجؤجؤ: صدر السفينة. (٩) الكوثل: ذيل السفينة.

(١٠) القيلقان: الخشبة التي تُدفع بها السفينة، والمجذاف.

الجارية، الخلية، وهي السفن الكبيرة، وعدولي[1]، والخليج. ومن أنواع المراكب الصغيرة: الزورق، القارب، الركوة والبوص[2].

اشتهرت عُمان منذ القدم بصناعة السفن والقوارب وبتصديرها إلى المناطق العربية الأخرى، كما اشتهرت البحرين بهذه الصناعة. وكثرت الفرض، الموانئ، على شواطئ اليمن التي ترسو فيها السفن القادمة من الهند ووادي الفرات ووادي النيل، نذكر منها: عدن، حصن الغراب، ظفار، مسقط وعمانا (صحار)[3].

صناعة المواد الغذائية

اهتم العرب الجاهليون بتطوير صناعة المواد الغذائية وتوسيعها وتنويع منتجاتهم بهدف تحسين أطعمتهم، واستخدموا من أجل ذلك أدوات وآلات كثيرة منها: المطاحن الآلية التي تدور بقوة الماء، والرحى والجواريش لطحن الحبوب والسويق والجريش والبهارات، ومعاصر لعصر العنب واستخراج الزيوت من البذور، وتوجد هذه المعاصر في الحقول كما توجد في المنازل ومحلات الزيوت والخمور[4].

وصنع البدو السمن من لبن الماعز والغنم والبقر وهي من الصناعات الرائجة عند العرب في العصر الجاهلي، وكانوا يبيعون السمن في أسواق يثرب[5].

ويُعدُّ التمر مادة غذائية رئيسة عند العرب، يأكلونه رطباً ومجففاً، ويصنعون منه دبساً وشراباً وخمراً، ويستعملونه لمعالجة عدد من الأمراض.

واشتهرت بلاد اليمن والطائف بزراعة العنب، وتناوله العرب رطباً ومجففاً، زبيباً، ادَّخروه لأيام الشتاء، وصنعوا منه الخمور، كما صنعوها من العسل والحبوب كالذرة، والمعروف أن العرب الجاهليين كانوا يقبلون بنهم على شرب النبيذ والخمور.

وكان سكان الشواطئ يُجفِّفون السمك في الشمس، ليؤكل وقت الحاجة وقد يُقدم علفاً للحيوانات. وقد يُطحن السمك المجفَّف ويؤكل طحينه أو يُقدم علفاً للحيوانات، وقد يُحفظ السمك في ماء مملح أو في خلّ[6].

وعرف العرب الجاهليون صناعة الزيوت المستخدمة في الأكل وفي الإنارة وفي بعض الصناعات، ومن أشهر هذه الزيوت: زيت الزيتون، والزيوت المستخرجة من

---

(١) عدولي: هي السفن التي تُصنع في قرية عدولي في البحرين، فنُسبت إليها.
(٢) الألوسي: جـ٢ ص٣٩٧.
(٣) زيدان، جرجي: العرب قبل الإسلام: ص١٧٨.
(٤) علي: جـ٧ ص٥٣١، ٥٤٢. معطي: ص١٨٣.
(٥) السمهودي: جـ١ ص٥٤٤.
(٦) علي: جـ٧ ص١٢٠.

السمسم والكمون والكتّان. واستخدموا زيت القطران في الإنارة، وهو مستخرج من أشجار العرعر والإثرار. وتُعد اليمن في مقدمة الأمصار العربية في إنتاج الزيت، وكانت تُصدره إلى الحجاز وإلى مواضع أخرى من جزيرة العرب[1].

وكان العسل من بين موارد الثروة، واشتهرت به مواضع عدة في الجزيرة العربية مثل الطائف. والعسل كثير في اليمن، واشتهرت صنعاء بالشهد الحضوري الماذي الذي يُقطع بالسكاكين، وكان يُهدى إلى العراق ومكة وسائر البلدان. وكان لبني سُليم في الجاهلية نحل عظيم، واشتهرت جبالهم بتصدير العسل[2]. واتخذ العرب العسل غذاء ودواء لعدد من الأمراض.

واحترف بعض العرب الخبازة وبيع الحليب واللبن والزبدة والجبن والجزارة والطباخة[3].

يبقى في نهاية الحديث عن الصناعة النظر إلى مكانة الحرف الصناعية في تركيب المجتمع الجاهلي الاقتصادي ومدى استغلالها لزيادة دخل المجتمعات العربية. والحقيقة أن وضوح هذه الناحية مما يُحدد طابع المرحلة التاريخية في تطور المجتمع العربي في جاهليته الأخيرة، فإن الصناعات اليدوية القائمة في المجتمع لا تكفي لتحديد هذا الطابع، فالمصادر العربية حين تتحدث عن هذه الصناعات إنما تتحدث عنها كسلع موضوعة في التبادل أو كسلع متداولة بين السكان على سبيل البيع والشراء كما تتحدث عن أسواق لها أو عن أسواق خاصة ببعضها كسوق الصاغة في يثرب، غير أن الشواهد التي عُرضت تدل على:

- قدر غير قليل من الاهتمام بهذا المورد وباستغلاله، وقد وصل هذا الاستغلال في بعض الأحيان إلى تصدير بعض السلع داخلياً على الأقل من منطقة إلى أخرى، مثل السيوف اليمانية والنسيج اليماني.
- لم تكن الصناعة على المستوى نفسه في الأقسام المختلفة من الجزيرة العربية.
- تركَّز أغلب النشاط الصناعي في اليمن حيث توجد منطقة سبأ والمناطق الأخرى المجاورة لها، ويبدو أن لذلك علاقة بمدى استقرار هذه المناطق وخصوبة تربتها وتوفُّر الماء في ربوعها بالإضافة إلى تساقط الأمطار الموسمية المنتظمة.
- ثبات واستمرار استخراج المواد الخام المعدة للصناعة والتجارة في اليمن والعربية الجنوبية.

---

(١) علي: جـ٧ ص٥٣٢. (٢) الهمداني: ص٣١١، ٣١٦.

(٣) ابن المجاور، أبو الفتح جمال الدين بن يعقوب: صفة بلاد اليمن ومكة والحجاز المسماة بتاريخ المستبصر: ص١٤.

لكن على الرغم من ذلك، يبدو أن الحجم الحقيقي للمصنوعات لم يكن بالقدر الذي يؤمله الخبير الاقتصادي للوهلة الأولى. فعلى الرغم من أن اليمن صدَّرت السيوف وبعض المنسوجات أو غيرها من السلع الأخرى، إلى عدد من أقسام الجزيرة العربية، إلّا أن هذا التدبير ظل قاصراً على هذا الإطار المحلي، ولم يعرف طريقه إلى الخارج، كما أن عدداً من السلع من بينها الأقمشة والذهب كانت تُستورد من الخارج على شكل أثواب جاهزة وسبائك مصقولة، وربما يعود هذا التناقض إلى أن إنتاج واستيراد السلع نفسها، يكمن في نظرة العربي الازدرائية إلى حرفة الصناعة، وأنها أمر متدنٍّ في قيمتها كمهنة يحترفها لأن الصناعة من حرف العبيد والخدم والأعاجم[1].

---

(١) علي: جـ٧ ص٥٠٦. مروة: جـ١ ص١٩٦ ـ ١٩٨. يحيى: ص٣٣٨ ـ ٣٤٠.

الفصل الرابع

التجارة

تمهيد

تقع الجزيرة العربية في قلب العالم القديم حيث تمرُّ عبرها وعبر البحار المحيطة بها الطرق البرية والبحرية العالمية الرئيسة التي تربط الشرق بالغرب، ما جعل منها صلة وصل بين القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا.

والواقع أنه على الرغم من أن الخليج العربي يفصل الجزيرة العربية في الجنوب والشرق عن إيران وأفغانستان وجوف آسيا، فإنه كان قديماً صلة وصل بين الساحلين العربي والفارسي، وقد شكَّل معبراً تنتقل عبره الجماعات البشرية من كلا الجانبين خلال العصور، كما شكَّلت سهول دجلة والفرات أيضاً صلة وصل بين الجزيرة العربية وأواسط آسيا، وبناء عليه، تُعدُّ الجزيرة العربية امتداداً لقارة آسيا[١].

وتُعدُّ أراضي الجزيرة العربية من حيث الطبيعة الجغرافية امتداداً لصحاري أفريقيا الشمالية على الرغم من وجود فاصل البحر الأحمر بين سواحل الحجاز ومصر، وبين سواحل اليمن والحبشة والصومال عند مضيق باب المندب، بدليل أن طريق القوافل بين سواحل عُمان وبين تهامة غرباً، وبين سواحل عُمان والبحرين شرقاً، كانت من الصعوبة بحيث كان طريق المواصلات فيما بينها هو الطريق البحري. وشكَّل برزخ السويس البداية الكبيرة لعبور الهجرات السكانية من آسيا والجزيرة العربية إلى مصر والغرب، وعلى هذا الأساس يمكن عدُّ الجزيرة العربية من أفريقيا[٢].

والواضح أن سكان الجزيرة العربية لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام تبعيتهم للعوامل الجغرافية، بصورة مطلقة، ففي نهايات مرحلة الجاهلية الأخيرة، بدأت تظهر أشكال من ممارسة السيطرة على الإمكانات الكامنة في الموقع الجغرافي للجزيرة العربية وفي خصائصها المناخية وقواها الطبيعية، وتوظيفها في العمل التجاري، ويمكننا رصد هذه الأشكال في المظاهر الآتية:

- إن إطلال الجزيرة العربية على سواحل البحر الأحمر والخليج العربي وبحر

(١) معطي: ص١٨٦، ١٨٧.

(٢) المرجع نفسه: ص١٨٦.

العرب، أتاح لسكانها الاستفادة من الأهمية التي يتمتع بها هذا الموقع كطريق تجاري يصل أطراف العالم القديم آنذاك بعضها ببعض؛ للقيام بنشاط تجاري مرموق.

- تحوُّل هذه الاستفادة إلى موارد وخدمات متنوعة على طرق القوافل التجارية وإلى تبادلات تجارية.
- توفُّر الظروف لنمو العمل الإنتاجي وظهور الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج.
- استخدام موارد المياه وقابليات التربة حيث توجد هذه الموارد، للسقي الاصطناعي وتنويع المزروعات.
- ظهور صناعات يدوية، استهلاكية - إنتاجية، بمعالجة بعض المعادن والأتربة والجلود، وانفصالها عن الزراعة[١].

الطرق التجارية

قام العرب بالتجارة منذ أقدم العصور، واحتكروا تجارة الإقليم الموسمي في الشرق، منذ الألف الرابعة قبل الميلاد وحتى القرن الأول الميلادي عندما حوَّل الرومان تجارة الهند إلى البحر الأحمر، ولكنهم لم يلبثوا أن انسحبوا منه، وعاد العرب للقيام بدور الوسيط، ونمت تجارتهم واشتهرت خارجياً عبر جزيرتهم. واعتمدت تلك التجارة على قوافل الإبل التي ضربت أنحاء الجزيرة، فكانت الطرق البرية شرايين التجارة التي تمر عبرها إلى الجهات المختلفة وبخاصة شمالها المؤدي إلى الخارج. ومن الطبيعي أن يرتاد العرب مسالك معينة واضحة عبر الصحراء الواسعة. ولما كانت مناطق الجزيرة العربية بعامة واليمن والحجاز بخاصة ملتقى للطرق التجارية العالمية التي تربط الشرق بالغرب، وهما المنطقتان الاستراتيجيتان الأكثر أهمية في بلاد العرب؛ فقد عيَّنوا لهم طريقين رئيسين تسير القوافل عبرهما محملة ببضائعهم وتجارتهم وتجارهم:

الأول: الطريق البري الموازي للبحر الأحمر والذي تسلكه القوافل بين اليمن والشام عبر الطائف ومكة ويثرب، وتتفرَّع منه خطوط تتجه صوب الغرب والشرق والشمال الشرقي. وتتحدث روايات المصادر عن ازدهار هذا الطريق، المعروف قديماً باسم طريق العطور أو طريق البخور، خلال مراحل زمنية متقاربة أو متباعدة. يبدأ هذا الطريق من مناطق قتبان في الركن الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية[٢] وحضرموت الواقعة في شرقها وسبأ المتاخمة لهما من ناحية الشمال. ويبدو أن

---

(١) مروة: ج١ ص١٩٠.

(٢) قتبان: من نواحي عدن بجوار باب المندب.

تفاهماً كان قائماً بين الأطراف الثلاثة يقضي بتقاسم المنافع الناتجة عن التجارة[١] على أن تُجمَّع منتجات حضرموت ومستوردات الهند في تمنع عاصمة قتبان، هذا في عهد قوة الدولة القتبانية، قبل أن تحل صنعاء محلها كمركز للتبادل، ثم تبدأ الرحلة الطويلة نحو الشمال مخترقة الحدود الشمالية لمنطقة سبأ وأراضي المعينيين لتصل إلى مكة ومنها شمالاً إلى ديدان[٢] ثم مدين[٣] وأيلة[٤] فالبتراء عاصمة الأنباط. ويتفرع هذا الطريق بعد ذلك إلى فرعين، يتجه أحدهما إلى تدمر والآخر إلى غزة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ومنها إلى مصر. وقد زيد على هذين الفرعين، فرع ثالث في عهد الامبراطور الروماني تراجان (٩٨ ـ ١١٧م) على أثر ضمِّ الولاية العربية إلى الامبراطورية الرومانية في عامي (١٠٥ ـ ١٠٦م)، يصل أيلة بتدمر عبر البتراء، ويمر في آريوبوليس[٥] وفيلادلفيا[٦] وبصرى. وتقطع القوافل التجارية المسافة بين تمنع وأيلة بحوالي سبعين يوماً[٧].

ويتفرع من هذا الطريق طرقٌ تقطع الجزيرة العربية عرضاً، نذكر منها:

ـ الطريق الجنوبي الممتد من المناطق التي تنتج المر في الغرب، ويتجه شرقاً على طول الساحل المتعرج للجزيرة العربية حتى يصل إلى المنطقة المنتجة للقرفة على بُعد ستمائة ميل. ويبدو أن هذا الطريق لم يصل إلى المحيط الهندي أو الخليج العربي، والراجح أن قوافل القرفة كانت تستخدمه لإيصالها إلى تمنع، عند بداية خط القوافل المتوجهة شمالاً[٨].

ـ الطريق الذي ينطلق من جنوبي الجزيرة العربية باتجاه الشمال إلى جرهاء[٩]، ومنها إلى واد الرافدين إما براً وإما في قوارب تبحر في الخليج العربي حتى تصل إلى نهر الفرات، ومن هناك تستأنف البضائع رحلتها إلى أسواق المنطقة[١٠].

ـ الطريق الذي يخترق الجزيرة العربية عرضاً انطلاقاً من مكة إلى وادي الرافدين. ويتفرع هذا الطريق عند حائل إلى فرعين، أحدهما يصل إلى مصب نهر الفرات ماراً بعدد من الأماكن مثل السِّفن[١١] وفيد[١٢]، والمعروف أن هذا الطريق أضحى في

---

(١) Philby: p58.
(٢) ديدان: العلا الحالية.
(٣) مدين: مغاور شعيب حالياً.
(٤) أيلة: العقبة.
(٥) آريوبوليس: ربة عمون.
(٦) فيلادلفيا: عمَّان.
(٧) يحيى: ص٣١٤، ٣١٥. أوليري، دي لاسي: جزيرة العرب قبل الإسلام: ص١١٩، ١٢٠.
(٨) يحيى: ص٣١٦، ٣١٧.
(٩) جرهاء: شمال شرقي الهفوف حالياً.
(١٠) يحيى: ص٣١٧، ٣١٨.
(١١) السِّفن: تقع في سفح جبل أجأ غربي فيد إلى الشمال الشرقي من حائل.
(١٢) فيد: بليدة تقع في نصف طريق مكة من الكوفة. الحموي: ج٤ ص٢٨٢.

العصر الإسلامي طريقاً للحج والتجارة تحت اسم «درب زبيدة» بفعل أنه من أقصر الطرق المؤدية من الحيرة إلى المدينة[١].

ـ الطريق الذي يتفرع من الطريق الرئيس الجنوبي ـ الشمالي على مسافة من شمالي يثرب، ويتجه إلى الشمال الشرقي ماراً بعدد من الأماكن، أهمها تيماء ودومة الجندل، حتى يصل إلى وادي الرافدين عند بابل على نهر الفرات، وهو من الطرق القديمة الهامة[٢].

ـ الطريق البري الذي يمر في أقصى شمال الجزيرة العربية، ويشكل امتداداً صحراوياً لطريق تجاري يبدأ من الرمادي[٣] ويسير بمحاذاة النهر حتى مدينة ماري[٤] ومنها يتوجه غرباً إلى تدمر فحمص، ويتفرع منها إلى فروع عدة تصل حمص بدمشق والموانئ الواقعة على الشاطئ السوري للبحر الأبيض المتوسط[٥].

الثاني: طريق البحر الأحمر الذي يربط شرقي أفريقيا بالهند وسيلان والصين وجنوب شرقي آسيا بعامة. وكانت تجارة الهند التي تصل إلى عُمان تُنقل عبر البحر الأحمر إلى مصر، والمعروف أن العرب امتلكوا سفناً في هذا البحر وفي الخليج العربي، إلّا أن مصاعب النقل البحري[٦] حوَّلت هذه التجارة إلى طريق البر، من شبوة في حضرموت إلى مأرب عاصمة السبئيين ثم إلى مكة فالبتراء عاصمة النبطيين ومنها إلى غزة على البحر الأبيض المتوسط ثم إلى مصر.

يرجع ازدهار طريق العطور أو طريق البخور إلى عهد الدولتين المعينية والسبئية خلال الألف الأول قبل الميلاد، إذ كانت الدولتان تتنافسان للسيطرة على الحواضر التي يمر بها في الشمال الغربي من الجزيرة العربية، لكن هذا الطريق فَقَدَ أهميته التجارية بعد أن فَقَدت الدولتان سيطرتهما على البحر الأحمر وسواحل أفريقيا الشرقية بسبب انتقال التجارة البحرية إلى أيدي اليونان والرومان. وكانت سيطرة

---

(١) علي: جـ٧ ص٣٣٨. يحيى: ص٣١٨، ٣١٩.

(٢) يحيى: ص٣٢٠ ـ ٣٢٢. أوليري: ص١١٩، ١٢٠.

(٣) الرمادي: تقع شمال غربي بغداد على نهر الفرات.

(٤) ماري: تقع قرب أبو كمال على الجانب الشرقي لنهر الفرات من ناحية الصحراء.

(٥) يحيى: ص٣٢٣، ٣٢٤.

(٦) لعل أهم الصعوبات التي واجهتها التجارة البحرية العربية:
ـ تفوق سفن الدول الكبرى، بحيث تمكَّنت هذه الدول، بالتعاقب، من السيطرة على البحر الأحمر واحتكار التجارة الشرقية.
ـ كثرة لصوص البحر.
ـ وعورة الساحل العربي على البحر الأحمر وكثرة صخوره المؤذية للسفن.

الرومان على هذا البحر كافية للقضاء على الأهمية التجارية لطريق العطور أو طريق البخور، وإلحاق الضرر البالغ باقتصاد اليمن التجاري والزراعي معاً.

غير أن طريق العطور أو طريق البخور استعاد مكانته التجارية في وقت لاحق على أثر تحالف الامبراطورية البيزنطية مع الحبشة وغزو هذه الأخيرة لليمن، ما مكَّن الحليفتين من بسط نفوذهما على الطرق التجارية في البحر الأحمر والطرق البرية من جنوبي الجزيرة العربية إلى شمالها، وبالتالي تأمين التجارة البيزنطية مع الهند.

ومنذ الثلث الثاني للقرن السادس الميلادي استعاد طريق العطور أو طريق البخور مكانته التجارية العالمية بين الهند واليمن وفلسطين ومصر بالتوازي مع الطريق الآخر عبر البحر الأحمر، والذي كان ينقل البضائع الآتية من أفريقيا الشرقية مارة باليمامة إلى العراق[1].

وعلى هذا الشكل أضحت الجزيرة العربية ملتقى أهم طرق التجارة العالمية بين عالمي الشرق والغرب المعروفين آنذاك.

النشاط التجاري في العربية الجنوبية

أدَّى تطور القوى المنتجة المتنامي في العربية الجنوبية وما نتج عنه من تقسيم اجتماعي للعمل، ونمو الزراعة والحرفة؛ إلى قيام نشاط تجاري بري وبحري نجم عنه ثراء لافت، وازدهار المدن، وتوطيد حياة الاستقرار، ونشوء الملكية الخاصة، وقيام الدول، واستخدام الكتابة، وسكُّ العملة واستخدامها في المبادلات التجارية.

والواقع أن اليمنيين أدركوا أهمية موقع بلادهم الذي تتمتع به على طريق التجارة العالمي، فاستغلوه من خلال إنشاء صلات تجارية وحضارية مع بلدان وشعوب الشرق الأدنى والهند وجنوب شرقي آسيا المعاصر لهم، وأرسلوا القوافل التجارية عبر الحجاز إلى الشام وفلسطين شمالاً، وإلى منطقة الخليج العربي والعراق شرقاً، وإلى مصر غرباً، وبسطوا هيمنة على طرق الملاحة البحرية، فسيَّروا سفنهم الشراعية إلى الهند والحبشة وشرقي أفريقيا. وكانت بعض هذه السفن تبحر بجوار سواحل الجزيرة العربية انطلاقاً من الخليج العربي مروراً ببحر عُمان وبحر العرب والبحر الأحمر، قاصدة مصر ودول شرقي أفريقيا. وشيَّدوا على طريق القوافل محطات تجارية لهم بالقرب من الآبار والعيون والواحات استقرت فيها جاليات تجارية منهم، تساندها حاميات عسكرية، ومشرف يراقب سلوك زعماء القبائل[2]، ويقدم تقريراً

(١) مروة: جا ص١٩٢، ١٩٣.

(٢) موسل، لويس: شمال الحجاز: ص٨٧، ٨٨ .philby: p 42

دورياً عنها إلى السلطة المركزية، لتتصرف وفق السياسة التي تحافظ على مكتسباتها التجارية، كما تزود هذه المحطات القوافل بما تحتاج إليه من الماء والغذاء والحماية وغيرها من الخدمات التي كانت تحتاجها، وقد تحوَّلت مع مرور الزمن إلى مدن تجارية، نذكر منها: شبوة، تمنع، قرناو، مأرب، ظفار، ذات كهل (الفاو). وأنشأ اليمنيون، إلى جانب هذه المحطات التجارية البرية، مراكز تجارية بحرية، مرافئ، أهمها: موزا، أوكليس، عدن، قنا، رأس فرتك، موشا، مسقط، قلهات، عمانا (صحار)[١].

سيطرت الدولة المعينية على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب، وازدهرت في عهدها التجارة في بلاد اليمن وبخاصة بعد أن نما نفوذ المعينيين وامتد إلى شمالي الحجاز حيث دخلت معان وديدان تحت سيطرتهم[٢].

كانت القوافل المعينية غالباً ما تسلك الطريق الغربي في الجزيرة العربية، فتنطلق من اليمن مارة بمكة ويثرب ومدائن صالح حتى البتراء، وتتفرع منها إلى كل من فلسطين والشام والعراق وغزة فمصر، ويبدو أن مكة كانت آنذاك تحت نفوذ معين.

واقتبس المعينيون أبجدية الفينيقيين وعلومهم في المحاسبة لتدوين حسابات أعمالهم التجارية في البيع والشراء. وقد عُثِر في أور والوركاء في العراق، وفي الجيزة في مصر، وفي جزيرة ديلوس اليونانية، على كتابات تشير إلى الصلات التجارية التي كانت تربط العراق ومصر واليونان بالدولة المعينية، وتؤكد احتفاظ المعينيين بتقاليدهم التجارية وكيانهم الاجتماعي[٣].

وخلفت دولة سبأ دولة معين بعد أن قضت عليها، وورثت مكانتها التجارية، وأضحى السبئيون في القرون الأولى قبل الميلاد أعظم وسطاء التجارة في العالم القديم. ونمت دولة سبأ وازدهرت نتيجة احتراف الزراعة والعمل التجاري، ووصل نفوذها إلى نجد والحجاز في شمالي الجزيرة العربية، كما فرض السبئيون سيطرتهم على طريق التجارة الذي يربط جنوبي الجزيرة العربية بالشام ومصر، وأنشأوا خطوطاً برية جديدة تحاذي ساحل الجزيرة العربية الغربي وتؤدي إلى مكة والبتراء ثم تتشعَّب إلى فروع تصل إلى الشام ومصر عن طريق غزة، والعراق، وعيَّنوا مراكز لنزول القوافل والتجار لتحصيل المكوس ومراقبة الرجال المرافقين للقوافل، ووضعت فيها حاميات عسكرية للمحافظة عليها، وكانت ديدان المركز الرئيس الذي تمارس منه

---

(١) موسل: ص٨٧، ٨٨. حمور، عرفان محمد: أسواق العرب: ص٢٣.

(٢) المرجعان نفساهما.

(٣) علي: جـ٨ ص٢٦٣، ٢٦٤. العلي: ص٤٤. philpy: p 42.

نفوذها على شمالي الجزيرة[1].

وعلى الرغم من قوة الدولة السبئية واتساع نفوذها، إلّا أن قوافلها كانت تتعرَّض لتعديات البدو أثناء سيرها على الطرق التجارية، كما أنها لم تتحمل دائماً مشقات السفر البري ما دفعها إلى التحول إلى البحر الأكثر أماناً والأقصر مسافة، فكانت مستوردات الهند وأفريقيا تُخزَّن في مرافئ السبئيين مثل موزا وعدن ثم تُنقل بحراً إلى مرفأ أيلة ومنه براً إلى فلسطين والشام ومصر، أو تُنقل إلى مرفأ القصير على البحر الأحمر، ومنه إلى قُفط على النيل[2].

وعندما دبَّ الضعف في دولة سبأ، قامت مملكتا أوسان وحضرموت، وقد اقتسمتا نفوذ السبئيين وتجارتهم. ويبدو أنه كانت لقوافل حضرموت طرق خاصة، إذ كانت تنطلق من حضرموت أو عُمان وتسير شمالاً بحراسة عرب قيدار، فتقطع بادية الدهناء حتى تصل إلى ديدان ثم تتوجه غرباً إلى نجد والحجاز فيتسلمها حراس مديانيون وأدوميون أو أنباط، ويوصلونها إلى مكة أو ينبع أو يثرب ومنها إلى البتراء عن طريق مدائن صالح، ثم تسير إما إلى فلسطين والساحل الشامي فتدمر وإما غرباً إلى مصر. وكانت السلع التي تصل إلى شرقي الجزيرة العربية، تُنقل إلى العراق إما بالقوافل مباشرة وإما بالسفن بحراً عبر الخليج العربي ومنه تُنقل بالقوافل إلى تدمر[3].

وبرز الحِميريون على مسرح الحياة السياسية في العربية الجنوبية بدءاً من عام (١١٥ق.م)، وقد أسَّسوا دولة استوحت نظمها السياسية والاقتصادية من الشعوب التي سبقتهم. وتعرَّضت البلاد في عهدها إلى حملة قام بها إيليوس غالوس حاكم مصر الرومانية في عام (٢٥ق.م) للاستيلاء على اليمن واستغلال ثرواته، والسيطرة على الطرق التجارية وتطهير البحر الأحمر من القراصنة، لكن الحملة عجزت عن دخول مأرب بفعل مقاومة أهلها وبالتالي فشلت في تحقيق هدفها[4].

أما فيما يتعلق بالتجارة البحرية، فكانت السفن الآتية من الهند تسلك أحد طريقين: طريق الخليج العربي حيث تُفرغ بضائعها إما في ميناء الأبلة عند رأس الخليج، وإما في موانئ البحرين وبخاصة ميناء جرهاء حيث تُنقل براً إلى العراق

---

(١) حتي، فيليب وأدوارد جرجي وجبرائيل جبور: تاريخ العرب: ص٨١، ٨٢ .Philby: p 42

(٢) زيدان: ص١٨٠. (٣) المرجع نفسه.

(٤) philby: p101. pliny: Book 6 pp459, 460. Strabo: Book 16, chap 4 p23.

ويعزو سترابو فشل الحملة إلى خيانة الدليل سيلّاوس، صالح، سفير الأنباط وممثل ملكهم أبو داس (عبيدة).

فالشام، فالبحر الأبيض المتوسط، أو طريق البحر الأحمر حيث تُفرغ السفن حمولتها في الموانئ المصرية الواقعة على هذا البحر وإما في ميناء أيلة عند خليج العقبة ثم تُنقل براً إلى الشام وسواحل البحر الأبيض المتوسط وبخاصة ميناء غزة. وتجنباً للأخطار التي قد تتعرَّض لها السفن، كان التجار يُفضلون سلوك الطرق البرية[١].

كان عرب الجنوب ينقلون في قوافلهم منتجات بلادهم، وفي طليعتها البخور والطيوب واللبان والعطور التي احتكرت اليمن وحضرموت إنتاجها، وكانت لها أهمية كبيرة عند الشعوب القديمة الذين استعملوها في المعابد والطقوس والأعياد الدينية والتحنيط وحرق الموتى وتعطير البيوت والتبرج، وكان النساء يستعملن العطور بكثرة، كما كانوا يتاجرون بمنتجات شرقي أفريقيا كالتبر والعبيد وخشب الآبنوس وريش النعام والعاج والقرود، والهند مثل الأفاويه والسيوف والأنسجة، والصين مثل الحرير، والخليج العربي مثل اللؤلؤ[٢]. وقد تزايد الطلب على هذه السلع من قِبل الطبقات الغنية والحكّام وكبار القادة والموظفين، ما دفع التجار إلى رفع أثمانها، وعمدت الحكومات، التي تمر القوافل في أراضيها، إلى زيادة رسوم المرور والضرائب، فازدادت ثرواتها وأضحت مضرب الأمثال في الغنى والترف حتى بلغت مسامع الرومان وأثارت الامبراطور الروماني أغسطس ودفعته إلى إرسال حملة إيليوس غالوس المذكورة.

وكان الجنوبيون يستوردون، من جهة أخرى، مصنوعات صور، ومحصولات الشام بطريق المبادلة قبل سك النقود، أهمها: الحنطة والزيت والخمر ومصنوعات فينيقية، وما يُحمل من آسيا الشرقية، كالمنسوجات الكتانية والقطنية والأرجوان والميعة والزعفران والآنية من الحديد والصفر وسبائك الفضة.

أسهمت التجارة في تطور أوضاع اليمن وتقدمها، وإثراء الطبقة الأرستقراطية والتجارية الذين كان لهم حظ من رفاهية العيش. وتعاطى التجارة، إلى جانب التجار، الملوك ورؤساء المعابد، وأصحاب الأملاك ورؤساء العشائر.

غير أن الأوضاع الاقتصادية قد تغيَّرت منذ القرن السادس الميلادي بفعل اشتداد الصراع الدولي على اليمن، والذي أدَّى إلى تغيُّر طرق التجارة، واحتلال الحبشة لليمن، وانهيار سد مأرب، ونشوب اضطرابات سياسية، وتدهور الأوضاع الاقتصادية والسياسية لعرب الجنوب، ما أتاح ظروفاً مناسبة لنمو حركة التجارة في الحجاز بعامة ومكة بخاصة.

---

(١) العلي: ص٤٤، ٤٥.

(٢) زيدان: ص١٧٨، ١٧٩.

النشاط التجاري في الحجاز

سنرجئ بحث هذا الموضوع إلى الفصل الثامن عشر، عند الحديث عن مكة.

نشاط البتراء التجاري

نشأت البتراء، عاصمة دولة الأنباط، كمحطة تجارية على طريق القوافل الذي يربط الجنوب بالشمال في القرن السادس قبل الميلاد في شمالي الحجاز، في منطقة يغلب عليها الطبيعة الجبلية القاحلة، وما لبثت أن نمت وازدهرت وأضحت عاصمة دولة الأنباط. وانعكست بيئة هذه الدولة وموقعها على سلوك أهلها، فاحترفوا التجارة التي غدت، مع ما ارتبط بها من خدمة القوافل وما خلقته من أشكال العمل الإنتاجي، المهنة الرئيسة للأنباط، والأساس الذي قامت عليه دولتهم. ذلك أن البتراء، بالإضافة إلى كونها محطة تجارية، كانت مركزاً لعدد من الصناعات مثل العطور والأواني، وسوقاً تجارية يُباع فيه ما ينتجه النساجون والنجارون والحدادون والمزارعون، كأعلاف الحيوانات وسروجها وألجمتها وأكسيتها وخروجها، وأكياس البضائع، وأسلحة الحرب، وغذاء التجار، وتتدفق عليه السلع والبضائع من الأقاليم المجاورة، وتجري فيه أعمال البيع والشراء، وتُعقد فيه الصفقات التجارية، وتُمنح القروض، ويجري تبادل العملات، وتلتقي القوافل التي تعبر بادية الشام ما بين غزة وبصرى، وما بين دمشق وأيلة، وما بين اليمن وبلاد الشام والعراق والخليج العربي. ووصل نشاط الأنباط التجاري إلى موانئ سوريا الشمالية والإسكندرية وردوس وملتوس وديلوس وسلوقية، وأهم السلع التي كانوا يقومون بالتجارة فيها، العطور والطيوب اليمنية، والمنسوجات الحريرية من دمشق والصين، والحناء العسقلاني، واللآلئ من الخليج العربي، بالإضافة إلى بعض المنتجات المحلية كزيت السمسم والذهب والفضة[(١)].

وكان النبطيون يحملون الطيوب والمر والبخور والتوابل من اليمن وغيرها إلى مصر وشواطئ البحر الأبيض المتوسط، كما يحملون إلى مصر القار الذي يُستعمل في التحنيط. وفرضوا مكوساً على السلع الواردة إلى بلادهم أو الصادرة منها. وقدَّموا الحماية اللازمة للقوافل التجارية التي تمر في أراضيهم، ولذلك أنشأوا خانات ومحطات للتجار، وقلاعاً في وادي عربة لتكون مركزاً للحاميات العسكرية النبطية[(٢)].

واستخدم الأنباط في تجارتهم نقوداً خاصة بهم، وأول من ضرب النقود من ملوكهم الحارث الثالث (٨٧ ـ ٦٢ق.م) وقد اقتبسها عن النقود اليونانية أثناء حكمه

(١) لانكستر، هاردينغ: آثار الأردن: ص١١٧. العلي: ص٥٠. حتي، فيليب: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: جـ١ ص٤٢٥.

(٢) زيدان: ص٩٠. العلي: ص٤٨.

لدمشق، ونقشوا عليها صور ملوكهم وصور زوجاتهم منذ أيام الملك عبادة الثالث (٣٠ ـ ٩ق.م)[١].

بلغت البتراء ذروة ازدهارها التجاري والاقتصادي في القرن الأول قبل الميلاد، وقد ظلت مركزاً تجارياً مهماً بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب، حتى أعاد الرومان الطريق من القصير، على البحر الأحمر، إلى قفط على النيل في القرن الأول للميلاد، فاختفى الطريق من البتراء إلى غزة من خريطة القوافل التجارية ما أثَّر سلباً على وضع الأنباط الاقتصادي، فتحوَّلوا إلى الزراعة، وعلى الوضع السياسي من واقع فقدان سيطرتهم على القبائل العربية وتعرُّضهم لثوراتها وبخاصة الثموديين واللحيانيين، وفي عام (١٠٦م) جرَّد عليها الامبراطور الروماني تراجان، حملة عسكرية بقيادة الموفد القنصلي كورنيليوس بالما قضت على استقلالها، وأخذت منذ ذلك الوقت تتراجع تدريجياً وتفقد دورها التجاري حتى تخلَّت عنه نهائياً لتحل كل من بصرى وتدمر محلها[٢].

نشاط تدمر التجاري

تحوَّلت تجارة الشرق، بعد سقوط البتراء في أوائل القرن الثاني الميلادي، إلى تدمر الواقعة على مسافة نحو مائة وخمسين كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من دمشق في منتصف الطريق بينها وبين الفرات، وقد ورثت عن جدارة مكانة البتراء التجارية، فانتقلت إليها أسواق البيع والشراء، وتكدَّست فيها البضائع.

والواقع أن تدمر استفادت من موقعها الجغرافي على مفترق الطرق التجارية التي تربطها بسواحل بلاد الشام والبحر الأحمر والخليج العربي. فهناك طريق يربط تدمر بأيلة وغزة على البحر الأبيض المتوسط، وهناك طريق يربطها بالبتراء وعدن، وطريق ثالث يربطها بثغر جرهاء على الخليج العربي حيث كانت ترسو فيه السفن القادمة من الهند.

لم تتبوَّأ تدمر مركز القوة التجارية الأول بشكل مفاجئ، إذ إن تجارها كانوا منذ زمن بعيد قد خبروا طرق التجارة الشرقية عبر الصحراء السورية ونهر الفرات، وكانوا يتاجرون مع ميسان[٣] عند شاطئ الخليج العربي، وأقاموا شبكة تجارية منذ أيام السلوقيين، غير أن المدينة لم تزدهر إلا عندما أُدمجت بالنظام التجاري النبطي، وفَتْح الفرات الأسفل للملاحة بين الامبراطوريتين الفارسية والرومانية اللتين اتفقتا

(١) سالم: ص١٩٥.

(٢) زيدان: ص٨٦. علي: ج٣ ص٤٩، ٥٠.

(٣) ميسان: كرخا، عند شط العرب.

على ضرورة هذه الوساطة التجارية عبر الحدود[١]. وقد أبدت روما اهتماماً زائداً بالمدينة منذ النصف الأول للقرن الثاني الميلادي بعد أن أخذت البتراء تفقد مكانتها. وكانت تدمر تستقطب جزءاً كبيراً من تجارة الشرق لامتياز طريقها على الطرق الأخرى بالقصر وسرعة النقل.

وقد صادف ارتقاء تدمر التجاري على الجانب الآخر من نهر الفرات، ما حدث في عام (٢٢٦م) من انتقال الحكم في فارس من البارثيين الذين أصابهم الوهن إلى الساسانيين الذين انتهجوا سياسة توسعية وعدائية مع الرومان أدَّت في النهاية إلى تدمير القوة التدمرية على يد هؤلاء[٢].

ولم يقتصر عمل التدمريين على الوساطة، كنقل البضائع وتزويد القوافل المارة عبر أراضيهم، بل شاركوا في العمل التجاري، فتاجروا على حسابهم، وكوَّنوا لهم وكلاء وجاليات في بابل وفولو كاميا وكرخ ميسان وسوريا والمدن الفينيقية ومصر وروما حيث كان لهم معبد خاص يقدمون فيه الذبائح[٣].

كانت السفن القادمة من الهند تُفرغ حمولتها في جرهاء على الخليج العربي، ثم تنقلها القوافل التدمرية إلى مدينة أيروبوس، الصالحية، ومنها إلى دمشق فطرابلس فأنطاكية، وقد تصل عبر البر أو البحر إلى بلدان أوروبا.

وتنقل القوافل التدمرية إلى أسواق تدمر لدى عودتها ما يصل إلى ميناء أنطاكية من المنسوجات الحريرية والقطنية والتركواز واللازورد والتوابل والأصبغة والآبنوس، من الهند وهملايا والصين، والبخور والطيوب من العربية الجنوبية، واللؤلؤ من الخليج العربي، وصباغ الأرجوان والخمور الجيدة والأواني الزجاجية والفضة والذهب وغير ذلك من الشام وموانئ البحر الأبيض المتوسط[٤].

واستقرت جاليات تدمرية تجارية في مدينة قفط المصرية في القرنين الثاني والثالث الميلاديين، كانت على اتصال وثيق بالعربية الغربية وبأسواقها الغنية بأموال وسلع أفريقيا الشرقية[٥].

كانت السلع بين تدمر وموانئ الشام تحمل على الإبل أو على مركبات تسير على الطرق المرصوفة، وعليها محطات للراحة وقلاع للحماية، ولم يكن من جهة الفرات شيء من ذلك.

---

(١) Trimigham, J.S: Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times p31.

(٢) علي: جـ٣ ص٩٠. (٣) العلي: ص٥٧.

(٤) البنى، عدنان: تدمر والتدمريون: ص١١٧.

(٥) La Pierre, P.B: Précis de L'Histoire D'Egypte Tom I p398.

وحصلت تدمر على فائدة مضاعفة من تجارتها؛ لأن التدمريين كانوا يربحون من عملية البيع والشراء من جهة ويتقاضون ضرائب جمركية على مرور السلع بأراضيهم، فحققوا بذلك أرباحاً طائلة انعكست مظاهرها في الغنى وحياة النعيم والترف والبذخ وفي المباني الجميلة المنقوشة والتي تدل آثارها عليها، وتتمثل ببقايا الهياكل والأعمدة الضخمة، والقصور الفخمة، وأقواس النصر المرتفعة(١).

اقتضت الأعمال التجارية التي قام بها أهل تدمر، إنشاء علاقات سياسية واقتصادية مع الفرس والرومان والقبائل العربية في البادية من أجل سلامة مرور قوافلهم في أراضي هؤلاء، كما أرسلوا مع القافلة حراساً، وأقاموا مواضع للحماية والاستراحة في أماكن متعددة من البادية(٢).

النشاط التجاري في شرقي الجزيرة العربية

شهدت منطقة شرقي الجزيرة العربية نشاطاً تجارياً ملحوظاً من واقع إبحار سكانها بسفنهم الشراعية المحمَّلة بالبضائع والسلع غرباً عبر المحيط الهندي، إلى حضرموت واليمن وسواحل أفريقيا الشرقية، وشرقاً عبر الخليج العربي إلى شواطئ بلاد فارس، وأفغانستان وخليج البنغال.

كانت السفن تُفرغ حمولتها في مرافئ جنوبي العراق ثم تُنقل براً عبر الطرق التجارية التقليدية على طول مجرى نهري دجلة والفرات، إلى المناطق الشمالية الغربية، في الأناضول وبلاد الشام، وشواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية.

وكانت دلمون (البحرين) سوقاً رئيسة لمنتجات الشرق التي كانت تُنقل إلى الغرب، والعكس صحيح. وينقل تجارها منتجات بلادهم من التمور التي كانت لها شهرة خاصة آنذاك، إلى الشرق والغرب، بالإضافة إلى المواد الخام التي كانت تُستخرج من منطقة ماجان المجاورة مثل: الأخشاب، فلزات النحاس والأحجار الصالحة لصنع التماثيل والبناء؛ إلى بلاد العراق التي كان يفتقر إليها(٣).

وقام الدلمونيون، إلى جانب العمل التجاري، بدور الوسيط حيث كانوا يتاجرون بمنتجات البلدان المجاورة لهم وتتجمَّع في مستودعاتهم منتجات وادي السند من الأخشاب والأحجار الكريمة واللؤلؤ حيث تُنقل على سفن دلمونية إلى بلدان غربي آسيا وشرقي أفريقيا وغيرها.

وسلك تجار دلمون أيضاً الطرق البرية التي تتجه شرقاً عبر إيران إلى بامبور

---

(١) زيدان: ص١٠٨. علي: جـ٣ ص٨٤.

(٢) علي: جـ٣ ص٨٢.

(٣) معطي: ص٢٢٣.

وبلوخستان ومدن وادي السند، والتي تتجه غرباً عبر الجزيرة العربية[1].

وكانت مدينة جرهاء ملتقى للقوافل التجارية ومستودعاً للبضائع ومحطة لاستيداع العطور والتوابل من جنوبي الجزيرة العربية، وسلع أخرى من أفريقيا والهند. فتفرغ القوافل، القادمة من جنوبي الجزيرة العربية، سلع الطيب والمر والبخور الآتية بحراً، ثم تعيد تصديرها عبر طرق حائل وتيماء إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط ومصر، أو عبر الطريق البري الذي يصل بلاد الرافدين ببلاد الشام. وكانت قوافلها تحصل على منتجات بلاد الشام من البتراء أو بصرى أو غزة في فلسطين، كما كانت هذه القوافل تصل إلى حضرموت جنوباً وتعود محمَّلة بمنتجات أفريقيا والهند[2].

وكانت عُمان ترسل سفناً إلى بلاد فارس وبلاد الرافدين مُحمَّلة بالنحاس وبأخشاب الساسامينا والآبنوس والصندل وبالدعائم الخشبية الخاصة بالسقوف، وتصدر إلى أقاليم الجزيرة العربية الأخرى السفن، واللآلئ، والأقشمة، والأرجوان، والذهب، والرقيق، والنبيذ، والتمر.

ويوجد على الساحل الشرقي للجزيرة العربية عدد من الموانئ والجزر أدَّت دوراً ما في العملية التجارية، وكانت تتعامل تجارياً مع شمالي الخليج العربي، واليمن وحضرموت، منها: جزيرة تاروت، فيلكا في الكويت، وتاج التي تقع شمال غربي واحات القطيف، وازدهرت بفضل هذا الموقع حيث يمر بها ثلاثة طرق هي:

الطريق الأول هو الدرب الكنهوري، وهو طريق القوافل القديم الذي يمر بنجد.

ويعبر الطريق الثاني واحة البريمي جنوباً ومنها إلى سواحل عمان فجنوبي الجزيرة العربية.

وينطلق الطريق الثالث شمالاً نحو بلاد ما بين النهرين[3].

وكانت مدينتا القطيف والهفوف من المحطات التجارية المهمة في شرقي الجزيرة العربية بفعل وقوعهما على طرق التجارة البرية المتوجهة جنوباً نحو عمان وغرباً نحو وسط الجزيرة العربية، وشمالاً نحو تدمر. ويبدو أن ساحل القطيف ازدهر بفضل تجارة الرخام والحجر اللازوردي والنحاس، كمواد خام أو مُصنَّعة، في إطار العلاقات المحلية والخارجية بعيدة المدى[4].

---

(١) معطي: ص٢٢٣. (٢) المرجع نفسه: ص٢٢٣، ٢٢٤.

(٣) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي: ص١٣٣، ٢٩٢، ٢٩٥، ٢٩٦. نورة: ص٢٢٦. معطي: ص٢٢٥، ٢٢٦.

(٤) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي: ص٢٥٠.

الأسواق

تمهيد

قامت التجارة المحلية في الجزيرة العربية بفضل الأحلاف والأشهر الحرم وغيرها من المؤسسات السابقة للإيلاف، وقد حسَّنت الأوضاع الاقتصادية، وزادت القدرة الشرائية لدى القبائل، وأشاعت الأمن والسلام؛ فنشطت الأسواق، وأقبل الناس بكثرة على المواسم التجارية. وكانت تجارة المقايضة بين القبائل، تجري في مواسم الحج، وكانت تجمع مواقيت الأسواق ومواقيت الحج تسمية واحدة هي المواسم(١).

أقام العرب لهذه التجارة أسواقاً عديدة في مناطق الجزيرة العربية كافة، لعرض السلع وجميع المواد التجارية وبيعها، فصار لهم أسواق في كل مدينة وقرية، كما خصَّصوا لبعضها مناطق محددة لإقامتها. وتحوَّلت المدن التي تقع على طرق التجارة البرية والبحرية إلى محطات للقوافل والمسافرين، وإلى أسواق للبيع والشراء، لكن هذه الأسواق كانت تُقام فقط في أوقات وصول القوافل إلى تلك المحطات، فيقصدها الناس من تجار ومستهلكين، فيتبادلون عروض التجارة والصناعة والزراعة، ثم تنفضُّ بعد ذلك(٢). والواضح أن الاختلاف في أنواع المحصولات والغلات قد ساعد على نشأة هذه الأسواق وتوسعها.

والأسواق في الجزيرة العربية كثيرة ومتنوعة، منها ما هو دائم يستمر طوال العام ويقوم في المدن والقرى، ومنها ما هو موسمي يُقام في مواقع معلومة وأيام معلومة محددة، وهي على ضربين من حيث التوقيت، أحدها يقوم في الأشهر الحرم ولا يقوم في غيرها ما يجعل ارتيادها سهلاً وآمناً، والآخر لا يقوم في الأشهر الحرم ويقوم في غيرها، أما أمن الارتحال إليها فهو على نوعين:

الأول: وقوع السوق تحت حكم مملكة تفرض الأمن، وتلاحق المعتدين، وتمنعهم من التعدي، ففي هذه الحالة، لم يكن التجار بحاجة إلى حرّاس يرافقونهم ويمنعون الاعتداء عليهم.

الثاني: وقوع السوق في مناطق البادية حيث لا سلطة ولا حكومة، ففي هذه الحالة لا يصل إلى السوق أحد إلا بخفير، ولا يرجع إلا بخفير، لقاء جعل(٣).

---

(١) الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار: جا ص١٨٧، ١٨٨.

(٢) معطي: ص٢٣٥.

(٣) المرزوقي، أحمد بن محمد بن الحسن الأصفهاني: الأزمنة والأمكنة: ج٢ ص١٦١، ١٦٢.

الأسواق الدائمة في المدن

يُقام السوق الدائم عادة في وسط المدينة أو أمام معبدها أو في أي مكان عام تسهل رؤيته من مسافة بعيدة، أو عند ملتقى الطرق وفي أرض محايدة إن أمكن أو في ميدان واسع يؤدي إليه طريق يمتد من الباب الرئيس للمدينة، وتُقام الحوانيت على جانبيه، ويخضع لإشراف الدولة من حيث مراقبة حركة البيع والشراء، والأسعار، والغش، وتحصيل الضرائب من الباعة[١].

ومن الأسواق ما هو مُتخصِّص بسلعة واحدة أو شامل لسلع عدة، ومنها ما هو محلي أو عام، وقد يوجد في المدينة الواحدة أكثر من سوق، فالبتراء مثلاً كانت تحتوي على ثلاثة أسواق، وتخصَّصت أسواق أخرى ببيع سلعة معينة، فهناك سوق للماشية، وسوق للعطارة وسوق للفخار وغيرها.

ومن أقدم أسواق العرب في مدنهم: عدن ومكة والجند ونجران وهجر اليمامة، وهو لأهل البحرين، والجريب، وهو لأهل تهامة، وأسواق حاشد ومنها سوق هَمِل[٢]. وفي مكة أسواق كثيرة منها سوق الحزورة وهو سوق جاهلي زال حيث دخل في الحرم بعد توسعته. وفي يثرب أسواق كثيرة منها سوق لبيع إنتاج التمور، وسوق لبيع الحلي، وفي الطائف أسواق لبيع منتجاتها الزراعية من كروم وفواكه وخمور وعسل.

الأسواق الموسمية

أقام العرب أسواقاً موسمية مؤقتة تلبية لحاجاتهم الاجتماعية والاقتصادية والأدبية، وعقدوها في أماكن متعددة بحماية قبائل مختلفة، وضمن مواقيت متفاوتة، يؤمها التجار والأدباء والشعراء وغيرهم، فغدت مهرجانات موسمية. واختلف المؤرخون في عدد تلك الأسواق بين عشر[٣] واثني عشر[٤] وسبعة عشر[٥] وواحد وعشرين سوقاً[٦].

قامت تلك الأسواق وأمَّها العرب بعامة؛ لأنها مارست نشاطات مُتعلقة بالحياة الروحية والمادية، بالإضافة إلى أنها تميزت بخصائص وصفات عامة أهمها:

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية: ج١٢ ص٣٨٢.

(٢) الهمداني: صفة جزيرة العرب: ص٩٤، ٢٢٣، ٢٢٤.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ج١ ص٢٧٠.

(٤) ابن حبيب، محمد بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي: المحبَّر: ص٢٧٠ ـ ٢٧٢.

(٥) المرزوقي: ج٢ ص١٦١ ـ ١٦٥.

(٦) الأفغاني، سعيد: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام: ص٢٣٢. حمور: ص٥٢.

ـ الأمن.
ـ انتظام الموعد، حيث كانت أسواقاً حولية.
ـ تفاوت شهرتها استناداً إلى موقعها وفعاليتها، فالواقعة قرب السواحل أو على الطرق التجارية اشتهرت أكثر من غيرها.
ـ اتصفت بعض الأسواق بالعامة، يؤمها جميع الناس، مثل سوق عكاظ، واتصف بعضها الآخر بأنه خاص ومحدود مثل سوق هجر وسوق الشحر.
ـ استمرارية بعض هذه الأسواق حتى في الإسلام، مثل سوق حباشة الذي دام إلى عام (١٩٧هـ/ ٨١٢، ٨١٣م).
ـ تشابه عروض التجارة ونوعية البيوع، مثل بيع الملامسة والهمهمة ونحوهما.
ـ انتشار العادات المتشابهة فيها، الجيد والرديء، منها تجارة البغاء.
ـ كانت بمثابة مهرجانات واحتفالات عامة، عامرة بالفرح والحيوية والنشاط[١].

انفردت بعض الأسواق الموسمية بميزة أمنية خاصة بانعقادها في الأشهر الحرم ما يجعل ارتيادها سهلاً وآمناً كما أشرنا، نذكر منها: نطاة خيبر، حباشة، صحار، دَبا، حضرموت، عكاظ، مجنة، ذي المجاز[٢].

وهناك أسواق أخرى كانت تُقام في غير الأشهر الحرم، فلا يصل إليها الرواد إلا بحراسة ولا يعودون منها إلا بحراسة كما أشرنا، نذكر منها: دومة الجندل، هجر، عُمان، المشقَّر، الشحر، عدن، صنعاء وغيرها، لذلك قامت أكبر الأسواق، وأهمها في الأشهر الحرم، فكان سوق حباشة وسوق صحار في رجب، وسوق حضرموت في ذي القعدة، وسوق عكاظ والمجنة وذي المجاز، كلها، في ذي القعدة وذي الحجة[٣].

وتنقسم أسواق العرب الموسمية من حيث مواقعها كما يلي:
ـ أسواق العراق وهي أسواق الحيرة وسوق المربد[٤].
ـ أسواق بلاد الشام وهي: دير أيوب، بصرى، أذرعات[٥].
ـ أسواق الخليج العربي وهي: هجر البحرين، عُمان، المشقَّر، صحار، دبا، حجر اليمامة[٦].

---

(١) المرزوقي: جـ٢ ص١٦٢، ١٦٣. عبد الجبار، عبد الله، ومحمد عبد المنعم خفاجي: قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي: ص١٧٤.
(٢) الحموي: جـ٥ ص٥٨، ٥٩. الأفغاني: ص٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٧٦، ٣٥٧، ٣٥٩.
(٣) الأفغاني: ص٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤١، ٢٥١، ٢٥٦، ٢٦٧، ٢٦٩ ـ ٢٧٣.
(٤) حمور: ص٢٠١.
(٥) المرجع نفسه: ص١٩٣.
(٦) المرجع نفسه: ص١٧٣.

ـ أسواق الجنوب العربي، وهي: شحر مهرة، عدن، صنعاء، رابية، حضرموت[١].

ـ أسواق الحجاز ونجد وهي: عكاظ، المجنة، ذي المجاز، دومة الجندل، حباشة في تهامة، نطاة خيبر، بدر[٢].

يشكل سوق عكاظ مثالاً للأسواق الأخرى بفعل:

ـ أن شروط السوق قد تحقَّقت فيه، وهو أكثر وضوحاً من بقية الأسواق.

ـ أن المصادر العربية تزخر بأخباره بشكل يفوق أخبار أي سوق آخر.

ـ أن وفرة الأحداث والمرويات عن هذا السوق تتيح أفضل فرصة لدراسة أسواق العرب وأثرها في تطور الحياة المشتركة بين القبائل.

لذلك سأقصر بحثي عليه.

كان سوق عكاظ يُقام في سهل كبير يُعرف باسم الأثيدا، عرضه عشرة أميال إلى الجنوب الشرقي من مكة وعلى مسيرة ثلاثة أيام منها، ويوم واحد من الطائف، وكان تابعاً لها، وتجتمع فيه قبائل الشمال والجنوب للاتجار مع قبائل نجد، وتخرج منه الطرق الذاهبة إلى اليمن وبلاد الشام والخليج العربي وبابل، وهو أكثر صلاحية للتجارة الدولية من الأسواق الأخرى كافة. فكان عبارة عن قرية تخلو من السكان إلّا في وقت انعقاده، ويُعدُّ روّاده بالآلاف، وقد حضر أحد مواسمه تسعون ألفاً من قريش وأحلافها[٣]، وحضره في عام (٣٥) من عام الفيل من نزار واليمن ما لم يُعرف أحد أنه حضر مثله في سائر السنين، فباع الناس كل ما كان معهم من عروض تجارية[٤].

امتاز سوق عكاظ بقيامه في الأشهر الحرم[٥]، فهو يبدأ في الأول من شهر ذي القعدة ويستمر حتى العشرين منه، وهذا التاريخ قريب من موسم الحج مع ما يتضمن ذلك من أداء المناسك في مكة، ما يجعله عاماً للناس كافة، فيقصدونه بلا خفَّارة. وكان بدء قيامه سنة (٥٠٠م) تقريباً بدليل أن امرئ القيس المتوفى سنة (٥٤٠م) قد حضره وشارك بمعلقته التي فازت وتخلَّد ذكرها، وتوقف في عام (١٢٩هـ/ ٧٤٧م) عندما احتل الخوارج، بزعامة أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي، مدينة مكة. والراجح أنه توقف قبل ذلك بوقت طويل على أثر الفتوح الإسلامية التي دفعت

---

(١) حمور: ص١٨٠ ـ ١٨٣.

(٢) المرجع نفسه: ص١٦٩. العطار، محيي الدين: كتاب بلوغ الأرب في مآثر العرب: ص٧٤.

(٣) المرزوقي: ج٢ ص١٦٥. محمد بن حبيب: المنمق: ص١٧٦.

(٤) المرزوقي: ص١٦٨.

(٥) الأشهر الحرم أربعة، ثلاث متواليات هي: ذي القعدة وذي الحجة والمحرم، وشهر منفرد هو رجب.

المسلمين إلى بلاد بعيدة خارج نطاق الجزيرة العربية، فوجدوا فيها مراكز تجارية أكثر ملاءمة لهم من سوق عكاظ الذي أضحى وقتئذ بعيداً عليهم[١]، كما امتاز هذا السوق بخلوه من العشور والأتاوات، فليس هو بأرض مملكة ولا حاكم يُعشر تجاره ورواده، وبيعهم فيه متنوع[٢].

كان لكل قوم من نزلاء السوق منازل خاصة بهم، فإذا غادر الناس مضاربهم إلى المعارض والأندية، اختلطوا على اختلاف جنسياتهم، فيجنون من البيع والشراء، ويتبارون في الشعر، ويتبادلون الروايات فيما جرى منذ الموسم الفائت، ويتحاجون ويتفاخرون، ويتفادون أسراهم، ويرفع من له مشكلة قضيته إلى صاحب القضاء ليدلي بحكمه الفاصل فيها، ويضبط أشراف القبائل وقادتها أفرادهم، ويمارسون عرض سلعهم للبيع والشراء. وتضم بضاعة السوق من:

اليمن: البرود اليمانية المخططة والموشاة والمسيَّرة بخطوط حرير، الزعفران والأصبغة والعِلك والخضاب والبخور والعقيق والمر والتوابل والطيب.

عمان: اللؤلؤ من البحرين، والتمور من هجر.

الشام: الزيوت، الزبيب، القمح والدقيق، الأواني الزجاجية، أرجوان صيدا وصور، زيت السمسم، المصنوعات الذهبية والفضيةِ.

عسقلان: الحنَّاء.

بصرى وغزة: الخمور الجيدة.

ويبيع الأعراب الصوف والشعر والدهون والسمن والوبر والأنعام من إبل وغنم والجلود المدبوغة والأحذية والأوكية.

وفي السوق عطَّارون يحملون عطارتهم والأدوية والأعشاب والمسك والطيوب والعطور، وبياطرة يعالجون الدواب، ونجارون، وبزازون يبيعون الثياب والسلاح[٣].

كان عكاظ سوقاً حرة حيث بضائعه المجلوبة والمصدرة معفاة من العشور والمكوس، إضافة إلى أنه مشمول بحرمة الحرمتين، حرمة الحرم وحرمة الشهر، فأمن الناس واطمأنوا على أنفسهم وبضاعتهم، وتوافرت فيه الفرص لبيع السلع المحلية والأجنبية. واعتاد هذا السوق استقبال لطيمة النعمان بن المنذر ملك الحيرة، كل عام لبيع عطرها وطيبها فيه[٤].

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية: جـ١٢ ص٣٨٢، ٣٨٣.

(٢) المرزوقي: جـ٢ ص١٦٥. (٣) سحاب: ص٣٩٣، ٣٩٤.

(٤) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي... الشيباني: الكامل في التاريخ: جـ١ ص٥٢٨، ٥٢٩، ٥٧٠.

وللعرب في سوق عكاظ محكمة تجارية وأخرى قانونية، وخير مثال على هذه الأخيرة حلف الفضول بسلطانه القوي عليه، وضمانه حقوق المظلومين الضعفاء، والقضاء فيه لهوازن قبل حروب الفجار، وصار لكنانة بعدها. فقد تولى عامر بن الظرب العدواني من قيس عيلان، حكومة عكاظ وقضاءها وموسمها، ثم اجتمع القضاء والموسم في يد رجل واحد من تميم هو سعد بن زيد مناة، واستمر الأمر على ذلك، فتولاها ثمانية رجال من تميم على التوالي إلى قبيل مجيء الإسلام حيث مات سفيان مجاشع بن دارم من تميم فافترق الأمر، وعندما ظهر الإسلام كان الأقرع بن حابس يتولى القضاء، وآخر من أجاز الموسم كرب بن صفوان[١].

وتروي روايات المصادر ما قد يوحي أن في السوق كتَّاباً عدولاً كانوا يتولون كتابة العقود والمعاملات[٢]، بل إن عكاظ كان فيها وسائل الإعلان للتشهير بمنتهكي العهود أو بمرتكبي أعمال الغش والتدليس[٣]، ويدل ذلك على أن سوق عكاظ تحوَّل إلى مرفق مشترك لكل العرب في الجزيرة، يقصده كل من يرغب في نشر خبر، وفي ذلك نموذج لتحول الأسواق إلى مواقع عيش مشترك التقت فيها القبائل على الصُعُد الاقتصادية والدينية واللغوية، وتوحَّدت فيها قيمها ومعاييرها الأخلاقية والاجتماعية[٤].

واستعمل العرب في سوق عكاظ شهادة المنشأ، أي العلامة التجارية، وهي السمات التي يتخذونها على بضائعهم، ولكل تاجر منهم وسمة خاصة يميز بها بضائعه، كما استعملوا الصكوك التجارية أيضاً[٥]، وتباروا في ألوان الترف المختلفة، فغالوا بالثياب والبرود والطيب والسلاح، وتزعَّم أشرافهم ذلك كله، وأقاموا الحفلات الغنائية والسمر.

وكانت تُعقد في سوق عكاظ، إلى جانب ذلك، اجتماعات تبحث في قضايا سياسية واجتماعية، وتضع الاتفاقيات والمهادنات بين القبائل، وتنظم فيما بينها على أساس من السلام والأمن[٦].

واهتم العرب بالروح وما يتصل بها، في عكاظ وفي أغلب مواسمهم، لذلك

---

(١) محمد بن حبيب: المحبر: ص٢٠٣، ٢٠٤.

(٢) عندما أراد عمرو بن الشريد السلمي، أبو الخنساء، مكافأة معمر بن الحارث العذري بمنحه قطعة أرض، وهما في عكاظ، دعا بكاتب وصحيفة، فكتب ماهية المكافأة وختمها بعبارة «وكُتب لخمس وثلاثين عاماً خلت من عام الفيل».

(٣) المرزوقي: جـ٢ ص١٦٨، ١٦٩.

(٤) سحاب: ص٣٩٥.

(٥) حمور: ص١١١، ١١٢.

(٦) معطي: ص٢٤٣.

حرصوا على إقامة تلك المواسم السنوية التي هي عبارة عن أعياد واحتفالات دينية. والمعروف أن الأسواق العربية كانت في الأصل أماكن للعبادة حيث كانت تُعبد الأنصاب، وتُذبح القرابين، وتُقدَّس الأصنام، ويُطاف حولها. وأشهر صنم كان يُعبد في عكاظ هو صنم جِهار الذي كان لهوازن، وسدنته آل عوف النصريون. وفي الأثيداء، وهو مكان إقامة سوق عكاظ، توجد صخور كان العرب يطوفون حولها ويقدسونها[1]. وكان يغشى السوق بعض المبشرين يبثون أفكارهم الدينية ويدعون الناس إلى اعتناقها.

ومارس العرب في سوق عكاظ النشاط الثقافي، فكان هذا السوق ملتقى العرب لتبادل الأفكار والأشعار وتنقية اللغة وتصفيتها وتوحيدها، والمعروف أن لغة التعاطي اليومي كانت تختلف في لهجاتها بين القبائل العربية، وكان الشعراء في هذا السوق يخضعون لمعيار واحد هو معيار قريش في الفصاحة واللغة، فما قبلته قريش كان مقبولاً، وما ردَّته منها كان مردوداً. ويؤم السوق الشعراء والخطباء والحكماء، يعرضون شعرهم، فيؤثِّرون في أهل السوق حتى نراهم يتبعون رأي الشاعر في مدحه وفي هجائه. وكان الخطباء والحكماء يخطبون بالناس من مختلف القبائل، ويتساجلون فيما بينهم، وكان همهم أن يفهمهم الجميع، لذلك كان سوق عكاظ عامًّاً اعتملت فيه عوامل التوحيد الثقافي واللغوي اعتمالاً أكيداً[2].

وضُرِبت في عكاظ قبة حمراء من أدم مُخصَّصة للأدب والشعر حيث يجلس حكام الشعر واللغة فيها لانتخاب الأجود، فيُمنح الشاعر وسام عكاظ عند فوز قصيدته. وأجمعت مصادر الأدب على أن حكومة الشعر في عكاظ كانت للنابغة الذبياني في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي[3].

وكانت تُلقى في السوق خطب الوعظ والإرشاد، وساده نظام المنافرات التي تُمثل حياة الجاهليين بروحها وأسلوبها الذي يعتمد على الجدل والمفخرة القبلية، وتُشكل المنافرة وثيقة تاريخية لحياة العرب في الجاهلية. وتقوم الخطبة على الوعظ الديني، وتدعو الناس إلى الزهد في الدنيا وإلى التأمل والنظر في الكون، والإيمان بالله الواحد، وبدين إبراهيم الحنيف، ونذكر من بين الخطباء: قس بن ساعدة الإيادي، أكثم بن صيفي التميمي، أمية بن أبي الصلت الثقفي، عدي بن زيد التميمي، زيد بن عمرو بن نفيل العدوي القرشي، وورقة بن نوفل.

---

(١) محمد بن حبيب: المحبّر: ص٣٧٢. دائرة المعارف الإسلامية: ج١٢ ص٣٨٢.

(٢) الأفغاني: ص١٠، ١٧٧، ٢٩١. الشريف: ص٨٦، ٨٧.

(٣) الأصفهاني: ج١١ ص٦.

أنظمة الأسواق

تمتَّعت الأسواق الموسمية في الجزيرة العربية بنظام الأمن والحماية، إن من قِبَل الدولة التي يقع السوق في نطاق حدودها مقابل ضرائب محدودة تجبيها من التجار الذين يفدون إلى السوق، أو من قِبل خفراء، في حال إقامة السوق في البادية حيث لا حكومة ولا سلطان، يستأجرهم التجار مقابل مبالغ من المال يدفعونها لهم.

ويحدث أحياناً أن ينصِّب زعماء القبائل أنفسهم حكاماً على هذا النوع من الأسواق، فيجبون الضرائب والمكوس من التجار، كما كان يفعل الجلندى بن المستكبر في سوق صحار، وبنو تميم في سوق المشقَّر[1]. وتتولى في أحيان أخرى طائفة من الفرسان العرب، بزعامة أحد بني تميم ويدعى صلصل بن أوس، الدفاع عن أمن السوق، وفرض النظام، ومنع اللصوص والمجرمين المحلِّيين من الصعاليك وغيرهم، من التعدي والسرقة وسفك الدماء، وقد بلغ ذلك مبلغاً في سوق عكاظ، جعل العرب يأخذون معهم أموالهم ونساءهم وصبيانهم إليه.

واقتضت أصول المتاجرة في الأسواق بعامة، معرفة مصدر البضاعة ومنشئها وعلاماتها التجارية، والمعروف أن البضاعة المجهولة المصدر لم تلق قبولاً ولم يكن يشتريها أحد، كما كان يُمنع بيع السلع المسروقة ويعتقل عارضوها. وكان التجار على معرفة بعلامات القبائل التجارية وعلى علم بسندات التمليك والبيع والشراء، وبقيود المعاملات التجارية وحساباتها[2].

وشاع في الأسواق عدد من البيوع التي طغى عليها الطابع الشكلي بحيث يفقد كل من المشتري والبائع حريته وإرادته في الاختيار، نذكر منها:

بيع المنابذة: وهو متى نبذ البائع سلعته إلى المشتري وجب البيع.

بيع الملامسة: وهو أن يتساوم المتبايعان على لزوم البيع إذا لمس المشتري سلعة البائع وإن لم ينظر في البضاعة.

البيع بطريقة الرمي بالحصاة: وهو أن يُلقي المشتري حصاة على أثواب عدة مثلاً، فما أصابته كان مبيعاً بلا خيار للمشتري.

بيع السرار: اختص به سوق عكاظ، وهو نوع من البيوع كان يتعامل به العرب، فإذا وجب البيع وعند التاجر عدد ممن يريد الشراء أو عدمه، فله الشركة في الربح.

البيع بجس اليد.

---

(١) حمور: ص٥٧، ٥٨.

(٢) المرجع نفسه: ص١١٢، ١١٣. الألوسي: جـ٢ ص١٦٣. معطي: ص٢٤٨.

بيع الأجنة في بطون أمهاتها، من المواشي والأنعام.
بيع الملاقيح: وهو ما ستحمل به إناث الإبل.
بيع المضامين: وهو بيع ما سيتولَّد من فحول الإبل.
بيع ضربة القانص: أي ما سيقع في شبكة الصياد من صيد البر والبحر.
بيع ضربة الغائص: وهو ما سيخرجه الغواص من اللآلئ[١].

ومن أنظمة الأسواق نظام الرهن، حيث كان المشتري يرهن متاعه وولده لسداد دينه. ونظام المقايضة، ويقوم على عملية التبادل التجاري بالحصول على سلعة مقابل سلعة أخرى، وهو أساس التعامل بين المجتمعات الحضرية والبدوية، وكذلك أساس التعامل الخارجي[٢].

وكان العرب يمارسون مع نظام المقايضة، تبادل السلع بأوزان المعادن الثمينة كالذهب والفضة، وتقدير قيم البضائع في البيع والشراء بها، ويقبلونها في العادة بدل البضائع نفسها[٣].

وعلى الرغم من سيطرة نظام تبادل السلع بأوزان المعادن الثمينة على حركة البيع والشراء إلا أن نظام النقد قد أخذ يظهر شيئاً فشيئاً في بعض المناطق مثل اليمن في العهد السبئي والعهد الحِميري، وشمالي الجزيرة العربية في العهد النبطي[٤].

---

(١) محمد بن حبيب: ص٢٦٧. المرزوقي: جـ٢ ص١٦٤، ١٦٥. حمُّور: ص٦٠.
(٢) نورة: ص٢٦٨. معطي: ص٢٤٩.
(٣) ديورانت، ول: قصة الحضارة، مجلد ١ جـ٢ ص٢٥.
(٤) معطي: ص٢٤٩ ـ ٢٥٩.

البَـابُ الثّـَانى

أوضاع العرب الأدبية

الفصل الخامس

اللغة

العلاقة بين الثقافة والمجتمع

إن المعرفة هي انعكاس للعالم على وعي الإنسان، وأن العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي الفكري علاقة موضوعية شمولية لا تختلف بين بعض الشعوب أو المجتمعات وبين بعضها الآخر، وهي انعكاس الوجود الخارجي المادي (الطبيعة والمجتمع)، بمختلف مظاهره وأشكاله. ويعكس الوعي البشري، لأي شعب، واقع نشاطه الاجتماعي بخصائصه المميزة، وأن تجليات هذه العلاقة الموضوعية والحتمية في آن، هي ما ندعوه بالحياة الثقافية، وهي عبارة عن مجموعة معارف عن العالم المحيط بالشعب أو المجتمع، والذي يتأثر أفراده به، ويؤثرون فيه، ويعيشون في ظروفه وشروطه الخاصة.

ولكل لغة حياة معينة مرتبطة مباشرة بحياة الإنسان؛ أي بالنشاط الاجتماعي للإنسان، وتتمتع بطاقة النمو والتطور بقدر ما يكون للناس الذين يتفاهمون بها طاقة النمو والتطور والارتقاء في ميادين نشاطهم البشري. من هنا تصبح قراءة لغة شعب ما قراءة لمقياس حياته، وصور الأشياء الحسية التي يختارها أو يضعها كأدوات لنشاطه. وبناء على هذه القاعدة يمكن الكلام على اللغة كمَعْلَم ثقافي، أي من حيث هي مادة حية ضرورية لتشكيل أي بنية ثقافية[١].

انطلاقاً من هذه الرؤية إلى اللغة نبني رؤيتنا الواقعية، والتفصيلية المحدَّدة لأبرز معالم الحياة الثقافية للعرب الجاهليين. والواقع أن ثقافة العرب هي نتاج تاريخهم الطويل الذي يمتد بجذوره إلى مئات السنين قبل الميلاد. وتتألف هذه الثقافة العربية من معارف عملية اقتبسها العرب من:

- تجاربهم الحياتية، وممارساتهم لأوجه النشاط العملي الاجتماعي.
- خبرات الأقوام المجاورة لهم والتي سبقتهم في مضمار الحضارة.
- ممن سكن معهم وعايشهم من الأجانب.

---

(١) مروة: ج١ ص٢٤١ ـ ٢٤٤.

ـ من اللغة والشعر والأمثال والأساطير والمعتقدات الدينية.

وإذا كانت الثقافة العربية هي نتاج تاريخ العرب، فإن اللغة هي الأداة المعبرة عن هذه الثقافة ومَعْلَم من معالمها الرئيسة، وإحدى الوقائع الاجتماعية الفاعلة والمؤثرة في سياق الوجود الاجتماعي وديمومته. من هنا، لا نستطيع دراسة اللغة وقوانين تطورها إلا من خلال صلتها الوثيقة بتاريخ المجتمع، أي بتاريخ الشعب الذي تنتسب إليه اللغة موضوع الدراسة، والذي أبدعها، وتحيا على لسان أبنائه[1].

والواقع أن بحث الحياة الثقافية للعرب الجاهليين في المرحلة الأخيرة للعصر الجاهلي تستلزم رؤية الوضع اللغوي العربي من خلال علاقته الحيوية مع هذه الثقافة ومع تاريخ الجاهلية، معاً. ويقودنا ذلك البحث إلى المضي في طريقين أولهما مدخل إلى الثاني، هما: تكوين صورة تاريخية للغة العرب التي كان يؤدي بها أهل الجاهلية الأخيرة أفكارهم ومشاعرهم وصور حياتهم ونشاطهم بصيغ ثقافية معينة، وتكوين فكرة عن أبعاد الصلة بين حياة هذه اللغة، وحياة أهلها في المدة الزمنية نفسها[2].

تاريخ اللغة العربية

إن أول ما يستوقفنا من تاريخية اللغة العربية، قبل الإسلام، اكتشاف حلقة انتقالها من تاريخية غامضة النسب عند المؤرخين وعلماء اللغات، مرتبطة ببعض اللغات السامية أو ببعض لغات الشمال والجنوب حول الجزيرة العربية؛ إلى تاريخية عربية مستقلة عن غيرها لفظاً وكتابة، على نحو ما وُجدت عليه خلال القرن السادس الميلادي في لغة الشعر الجاهلي، وفي لغة القرآن الكريم خلال القرن السابع الميلادي، وكما دُوِّنت في النصوص الإسلامية، منذ القرن الأول الهجري. ويمكن تحديد المسألة هنا بأن اللغة المعنية هي لغة عرب الشمال؛ لأنها أساس اللغة التي أضحت لغة التراث الثقافي العربي ـ الإسلامي، والتي هي لغتنا العربية الآن.

والواقع أن البحوث الآثارية ـ اللغوية تبين أن هناك نقوشاً وُجدت في الجزيرة العربية وبلاد الشام كُتبت بالخطين، القلمين، المسند والنبطي.

أما الخط المسند فهو خط حِمير، وأقدم الخطوط التي عُرفت في الجزيرة العربية، وقد دُوِّنت به الكتابات المعينية والسبئية والقتبانية والحِميرية والأوسانية، وهي كتابات تمثل لغة متطورة ذات قواعد نحوية وصرفية.

لم يكن استعمال الخط المسند قاصراً على العربية الجنوبية، بل كان شائع الاستعمال في أنحاء الجزيرة العربية كافة. فقد عثر الباحثون في العربية الشرقية، في

---

(1) دلو: جا ص٢٠١.

(2) مروة: جا ص٢٤٦.

منطقة العروض، على كتابات تعود للعصر الجاهلي مدونة بالخط المسند، وقد ثبت أن أصحابها كانوا يتكلمون بلهجات غير بعيدة عن اللهجة العربية القرآنية[١]، كما عُثر في قرية الفاو في أواسط الجزيرة العربية، وفي خشم كمدة التي تبعد عنها مسافة مائة كيلو متر إلى الشمال، على كتابات بالخط المسند تُثبت انتشار هذا القلم في تلك المنطقة[٢].

وللخط المسند خصائص لغوية خاصة أهمها:

- إن حروفه منفصلة، وهي بشكل واحد لا يتغير بتغير مكان الحرف من الكلمة.
- تبدأ الكتابة بهذا الخط من أي جهة شاء الكاتب، فله أن يكتب من اليمين إلى اليسار، وله أن يكتب من اليسار إلى اليمين، وله أن يمزج بين الطريقتين، وله أن يكتب من أعلى إلى أسفل أو العكس، وهكذا.
- إن حروفه غير متشابهة.
- إنه غير مشكول وإنما يكتب بحروف صامتة.

غير أن الكتابة بهذا الخط هي أبطأ إلى حد ما من الكتابة بالخط العربي نظراً لضخامة حروفه بالنسبة إلى الحروف العربية المختزلة[٣].

وعثر المستشرقون في القرنين الماضيين على كتابات بخطوط أخرى، مثل الخط الثمودي والصفدي واللحياني، بالإضافة إلى كتابات عثر عليها في الجوف والحجر والعلا وجبل شيحان وكوكبان وشمَّر، متأخرة عن المسند ومتفرعة عنه، وتعود تواريخ بعضها إلى ما قبل الميلاد، والبعض الآخر إلى ما بعد الميلاد وربما تتأخر حتى القرن الخامس الميلادي، وهي نقوش قصيرة وشخصية لا تتعرَّض للشؤون العامة، وأنها مثل الخط المسند لا علامات لها، كما أن حروفها مُتعدِّدة الصور، وأداة التعريف الشائعة فيها هي (هـ) أو (ها) بدلاً من (أل)، على الرغم من وجود أسماء قليلة مُعرَّفة بأداة التعريف (أل)، وتتكلَّم هذه الأقوام لهجة عربية من لهجات عرب الشمال[٤].

كان الخط المسند، الخط الرئيس في جزيرة العرب قبل الإسلام، وقد تفرَّعت عنه خطوط لا تزال غير واضحة الأسباب، وقد يكون لأشكال الحروف التي تتطلب دقة في الرسم علاقة بذلك، فمال الكتّاب إلى ابتكار أشكال مرنة لا تحتاج إلى عناية في الرسم، فاستخدموها في الكتابة لسهولتها[٥].

---

(١) علي: جـ٨ ص٦٧٨.
(٢) المرجع نفسه: ص٢٠٦.
(٣) المرجع نفسه: ص٢١٠.
(٤) المرجع نفسه: ص٢١١، ٢١٢. دلو: جـ١ ص٢٠٣.
(٥) علي: جـ٨ ص٢١٣.

يبدو أن الخط المسند مشتق من الأبجديات السامية الشمالية، الأبجدية السينائية والخط الفينيقي، لكن من الصعب الجزم بذلك لأن صور الأبجديات القديمة التي وصلت إلينا لا تزال قليلة، ولا نجد بينها وبين صور المسند تشابهاً كبيراً لأن شكل حروف المسند لا يشبه شكل حروف الأبجديات القديمة بحيث يمكننا التثبت من أصله، على الرغم من تشابه حروف قليلة بينهما التي لا يمكن معها أن تكون سبباً للحكم باشتقاق خط من خط. والراجح أن الأبجدية العربية الجنوبية تمثل مجموعة خاصة تفرَّعت من أصل لا يزال مجهولاً[١].

وهناك خطوط تشبه حروفها حروف المسند، استعملها أقوام منذ القرن الرابع قبل الميلاد، عاشوا خارج الجزيرة العربية مثل الخط الحبشي القديم. ويمكن أن ندرك أثر المسند في الكتابة الحبشية المعاصرة وفي عدد من الخطوط منها الكوشية أو النوبية، والخط البربري القديم الذي يعود إلى عهد الامبراطورية الرومانية، والخط البراهمي الهندي حيث الشبه كبير بين حروفه وحروف المسند. والمعروف أن العلاقات بين العربية الجنوبية والهند قديمة جداً[٢].

كان عرب الجنوب يكتبون بطريقة الحفر بأداة حادة على الحجارة والصخر والخشب والمعادن، وهي مادة الكتابة عندهم، متجنبين على ما يبدو الكتابة بالحبر على القراطيس والجلود والرق وعظام الحيوانات بفعل قابلية تلك المواد للتلف وحاجتها الشديدة إلى العناية.

وأما الخط النبطي فهو مشتق من الخط الآرامي المتأخر، وحروفه منفصلة ومتصلة، وترتيب أبجديته (أبجد هوَّز)، وطُوِّر بحيث صار يُكتب بالحبر بسرعة، وهو سهل الحفر على الحجر أو المعدن أو الخشب، ويناسب طبقات المجتمع من التجار والكتَّاب والمفكرين، واشتُقَّ منه الخط العربي الأول بعد تطويره، وهو الخط الذي كتب به أهل الحجاز.

وكان الأنباط من العرب الشماليين يتكلمون العربية الشمالية، غير أنهم اتصلوا بالآراميين واختلطوا بهم وأخذوا عنهم أبجديتهم وخطهم، ودوَّنوا بها كتاباتهم، ما حرم الباحثين من الحصول على نصوص بلهجات عربية قديمة لما لها من فائدة في دراسة تطور اللهجات العربية بعامة واللهجة التي نزل بها القرآن الكريم بخاصة، والمراحل التي مرَّت بها، والمعروف أنه لا يوجد من تلك النصوص العربية المدونة باللهجات العربية الشمالية القريبة من عربية القرآن الكريم سوى بضعة نصوص[٣].

---

(١) علي: جـ٨ ص٢١٤، ٢١٥.
(٢) المرجع نفسه: ص٢١٢، ٢١٣.
(٣) المرجع نفسه: جـ٣ ص١٤. دلو: جـ١ ص٢٠٤.

ويستوقفنا في هذا المقام سؤال يتعلق بمكان نشأة هذه اللغة، كلغة تفاهم، ولغة أدب وثقافة، وتطورها، وكأبجدية لها نظامها الكتابي الخاص بها، وكينونتها في مرحلة الجاهلية الأخيرة(١).

الواقع أن ما يصح أن يكون مرجعاً سليماً للإجابة العلمية على هذا السؤال، هو الوثائق التاريخية المكتوبة أو المنقوشة في الزمن التاريخي المبحوث عنه. فهل لدينا من هذه الوثائق ما يكفي لاستنتاج حكم حاسم في المسألة؟ وما السبيل إلى معرفة الصورة الواقعية للغة التي كان يتفاهم بها العرب الشماليون في مرحلة الجاهلية الأخيرة، ويستخدمونها للتعبير عن أفكارهم وصور حياتهم ونشاطهم بصيغ ثقافية شعراً ونثراً والتي صيغ بها القرآن الكريم في القرن السابع الميلادي كقمة لبيان العربية الفصحى، وكما دُوِّنت في المصادر الإسلامية منذ القرن الأول الهجري(٢). من المؤكد أن هذه اللغة ليست لغة عرب الجنوب الذين كانوا يتكلمون بلهجات تختلف عن لهجة القرآن الكريم وعن عربية الشعر الجاهلي، وبقواعد تختلف عن قواعد هذه اللغة، كما لم يكن الخط العربي أصيلاً في الحجاز وإنما دخله من مدين بواسطة الأنباط أو من العراق.

أما فيما يتعلق بالأصل النبطي للخط العربي فإن البحوث الآثارية اللغوية تكاد تجمع على أن هناك نقوشاً وُجدت في بلاد الشام بالخط النبطي الذي اشتُق منه الخط العربي. ويستنتج الباحثون المختصون من هذه النقوش، أن عرب الشمال عرفوا كتابة الأبجدية في القرن الرابع الميلادي(٣)، ولا يشكُّون في أن لغة الأنباط لهجة عربية شمالية، بدليل أن كثيراً من الكلمات الواردة في النقوش النبطية المكتشفة عربية خالصة، مثل قبر، بل يلاحظون في بعض النقوش أن عبارات بأكملها تكاد تكون عربية(٤)، ومعظم النقوش هذه قد عُثر عليها في مدينة الحجر وفي البتراء وفي منطقة حوران وفي سيناء. ويُعزِّز أحد الباحثين هذا الرأي حين يذكر أن عرب الحجاز أخذوا القراءة والكتابة من التجار النبط الذين كانوا يتوافدون عليهم للاتجار، أو من اختلاطهم بالنبط أثناء ذهابهم إلى بلاد الشام، بدليل أن ترتيب الحروف على طريقة أبجد هوَّز في مقابل رقم حسابي، يردان في عربيتنا على نحو ما ورد عند النبط، ما يؤكد على أن الخط العربي أخذ من ذلك الخط، بالإضافة إلى تشابه رسم الحروف المنفصلة والمتصلة في الخطين، ثم نشر عرب الحجاز هذه

---

(١) مروة: جا ص٢٤٧.
(٢) دلو: جا ص٢٠٢.
(٣) بلياييف: ص١١٥.
(٤) Cooke, G.A: A Text book of North Semitic Inscriptions: p214.

الكتابة النبطية، بين نهاية القرن الثالث الميلادي وبداية القرن الرابع، في سائر أنحاء بلاد العرب، مستشهداً بالنصين المعروفين بنقش أم الجمال المؤرخ بعام (٢٧٠م) وبنقش العلا المؤرخ بعام (٣٠٦ ـ ٣٠٧م).

وقد تطورت هذه الكتابة في الحجاز بشكل سريع بفعل التطور المتنامي للحركتين التجارية والأدبية، وقد أكسبها هذا التطور الطابع العربي الصريح الذي برزت به منذ أوائل القرن الخامس الميلادي[١].

وفيما يتعلق بالأصل العراقي للخط العربي فيرجع الإخباريون نشأة الكتابة العربية في الحجاز إلى الحيرة أو الأنبار، وقد أوردوا أخباراً وحكايات كثيرة بهذا الشأن[٢]، والمعروف أن عرب العراق يكتبون، ولهم مدارس لتعليم الكتابة ملحقة بالأديرة والكنائس. واتصل أهل مكة تجارياً بعرب العراق ولا سيما الأنبار والحيرة، وكان تجار مكة خلال قدومهم إلى الحيرة، يقيمون بها، فلا يُستبعد إقدام بعضهم على تعلم الخط من أهلها ومن أهل الأنبار.

وكان للتبشير يد في نقل هذا الخط إلى الحجاز، والمعروف أن المبشرين من أهل العراق كانوا نشيطين في التبشير في جزيرة العرب، وهم يكتبون بخط نبطي أو بخط آرامي متأخر، وهو والد الخط العربي الذي نكتب به، فلا يُستبعد أن يكون من بينهم مبشرون حيريون نقلوا الكتابة إلى دومة الجندل والحجاز ومواضع أخرى من جزيرة العرب[٣].

والراجح أن أهل مكة أخذوا الكتابة عن النبطيين وعن الحيريين معاً، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا يتعلق بأي منهما كان أصل الكتابة التي استخدمها عرب الشمال قبل الإسلام ثم أضحت الخط العربي السائد بعد الإسلام؟ إن الوضع العلمي للمسألة لا يتقرر إلا استناداً إلى وثائق تاريخية قاطعة بكتابات جاهلية من كتابات النبط أو الحيرة أو الأنبار، ولم يصل إلينا منها سوى كتابات تُنسب إلى بلاد الشام، فهذه وحدها التي نملكها، ونستطيع القول أن أصحابها كانوا عرباً، وإن عربيتهم كانت قريبة من عربية القرآن الكريم، وإنهم كانوا يكتبون بغير الخط المسند، وإن خطهم مأخوذ من خط بني إرم، وإن ثقافة هؤلاء كانت متأثرة بثقافة النبط إلى حدٍّ كبير، وذلك نتيجة للحوار ولاتصالهم واختلاطهم ببني إرم[٤]. ورأى علماء الساميات، الذين اهتموا بدراسة تطور الخطوط السامية ومنشأ الخطوط العربية، أن

---

(١) نامي، خليل يحيى: أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام: مجلد ٣ جـ١ ص١٠٢ ـ ١٠٦.

(٢) **البلاذري**: فتوح البلدان: ص٤٥٦، ٤٥٧. تاريخ ابن خلدون: جـ١ ص٣٤٩.

(٣) علي: جـ٨ ص١٦٩، ١٧٠.

(٤) المرجع نفسه.

الخط العربي الذي دُوِّن به القرآن الكريم، أُخِذ من الخط النبطي المتأخر الذي كان يستعمله النبط، وهو خط تولَّد من الخط الآرامي المتفرع من الفينيقية، وقد استُعمل في تيماء وبين النبط الذين كانوا يقيمون في أعالي الحجاز وفي سيناء[١]، وعثروا على نقوش في شمالي الحجاز وعلى طول طريق القوافل إلى دمشق تثبت تطور الخط النبطي تطوراً سريعاً إلى الخط العربي، ولهذه النقوش، على قلَّة عددها وهي لا تزيد عن خمسة نصوص، أهمية كبيرة لما لها من خصائص ومميزات تفيد في دراسة تطور اللهجات العربية، وتطور الخط العربي.

النص الأول: هو نقش أم الجمال[٢]، يعود تاريخه إلى سنة (٢٧٠م)، فهو أقدم النصوص، وقد وُجد مكتوباً على قبر فهر بن سلي الذي كان مربياً لجذيمة ملك تنوخ، وخطه نبطي بحروف تشبه حروف الخط الكوفي القديمة وبلهجة نبطية، إلا أنه يمتاز بظهور روابط بين الحروف. ولهذا النص أهمية تاريخية إلى جانب أهميته اللغوية، وذلك لما يشير إليه من وجود صلة بين عرب العراق وعرب الشام، بالإضافة إلى أنه النص الجاهلي الوحيد الذي يرد فيه اسم الملك جذيمة ملك تنوخ، فأثبت وجوده، والظن الشائع عن هذا الملك أنه من الملوك الذين ابتدعتهم مخيلة أهل الأخبار[٣].

النص الثاني: هو نقش النمارة[٤] وقد كُتب شاهداً على قبر ملك من ملوك اللخميين يُسمى امرؤ القيس بن عمرو، بالخط النبطي وبلغة آرامية ولكن بتراكيب عربية، وجاء في خمسة أسطر على الشكل التالي:

- تى نفس مر القيس برعمرو ملك العرب كله ذو أسر التج.
- وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرَّب مذحجو عكدى وجا.
- بزَجَى في حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه.
- الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه.
- عكدى. هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولّده[٥].

يلاحظ من النص أعلاه، أن الكاتب بدأه في السطر الأول بكلمة الإشارة تى، وهي للمؤنث لأنها داخلة على نفس ولعلها هنا بمعنى جسد. وقد استخدم ذو بمعنى

---

(١) Encyclopedia Britannica: I p684.

(٢) أم الجمال: نسبة إلى القرية المسماة بهذا الاسم، تقع غربي حوران، من أعمال شرق الأردن.

(٣) علي: جـ٣ ص١٨٣، ١٨٤. جـ٨ ص١٧٥.

(٤) سُمي باسم المكان الذي اكتشف فيه النمارة، ويقع شرقي جبل العرب في بلاد الشام.

(٥) زيدان: ص٢٢٧. ديسو، رينيه: العرب في سوريا قبل الإسلام: ص٣٣.

الذي، وهي لغة معروفة بين بعض القبائل مثل طيء، كما استخدم كلمة أسر بمعنى عصب وعقد، وحذف الألف من كلمة التاج ولم يكونوا يثبتونها آنذاك. ولا يوجد في هذا السطر كلمة غريبة سوى كلمة بر واستخدمها الكاتب بمعنى ابن، وهي آرامية. وأضاف الكاتب في السطر الثاني واواً إلى نزرو ومذحجو، وذلك وفقاً لكتابة النبط التي تضيف واواً إلى الأعلام. أما عكدى فلعلها عكديا حُذِفَت منها الألف وهي بمعنى القوة، ويقصد بالأسدين قبيلتي أسد.

استخدم الكاتب في السطر الثالث كلمة بزجى وهي من فعل زجا بمعنى دفع. ومعنى كلمة حبج أشرف، وكأنها استُعملت في النص مصدراً بمعنى مشارف أو حدود، وشمر من الملوك الحميريين. واستخدم كلمة نزل بنيه الشعوب بمعنى جعلهم على الشعوب، ووكلهن، في السطر الرابع، بإضافة نون التوكيد إلى الفعل بعد الضمير، ومعنى العبارة ووكله الفرس والروم، وفي السطر الخامس بلسعد ذو ولده أي ليسعد الذي ولده[1].

الواضح أن النص يمثل أحد أطوار اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، فكلماته جمعياً عربية ما عدا كلمة بر الآرامية، واستُخدمت فيه أل أداة للتعريف، وإذا أردنا أن نكتبه بلغتنا اليوم كتبناه على الشكل التالي:

- هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي عقد التاج
- وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم وهزم مذحجاً بالقوة وجاء
- باندفاع (بانتصار) في مشارف نجران مدينة شمر وملك معداً وولى بنيه
- الشعوب، ووكَّلَه الفرس والروم، فلم يبلغ ملك مبلغه.
- في القوة. هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ من كسلول، ليسعد الذي ولده[2].

إن التاريخ الوارد في آخر النص، مبني على التقويم البصروي القديم الذي يؤرخ لبدء سيطرة الرومان على منطقة بصرى وجعلها ولاية رومانية عام (١٠٥م)، وبإضافة هذا التاريخ إلى الرقم (٢٢٣) الوارد في النص يكون تاريخ وفاة هذا الملك: السابع من كانون الأول سنة (٣٢٨م).

يُعد نص النمارة بالغ الأهمية من الناحيتين اللغوية والتاريخية:

ففيما يتعلق بالناحية اللغوية، فهو تام في عروبته سواء من حيث الأسماء والأفعال أو من حيث استخدام أداة التعريف العربية أل، ثم إن خطه المكتوب به مع اشتقاقه من الخط النبطي هو مقدمة للخط العربي، إذ يتضمن روابط بين الحروف، كما تتخذ

(١) ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي: ص٣٥، ٣٦.
(٢) المرجع نفسه: ص٣٦. زيدان: ص٢٢٧، ٢٢٨.

هذه شكلاً أكثر استدارة، ولا نبالغ إذا اتخذناه بدءاً لتكوين الفصحى[(١)].

وفيما يتعلق بالناحية التاريخية فإن النص يحدثنا عن ثاني ملوك الحيرة واتساع ملكه بفعل سيطرته على قبيلتي أسد وقبيلة نزار وقبيلة مذحج وانتصاره على جموع نجران، ولعل هذه أول غارة ثابتة تاريخياً لعرب الشمال ضد عرب الجنوب ومدينتهم نجران، وهو ملَكَ معداً وولَّى بنيه على الشعوب والقبائل الكبيرة، وعقد المعاهدات مع الفرس الروم، ولم يبلغ ملك مبلغه في القوة[(٢)]. والمعروف أن امرئ القيس هذا كان عاملاً للفرس على فرج العرب من ربيعة ومضر وسائر مَنْ ببادية العراق والحجاز والجزيرة في عهد كل من سابور بن أردشير وهرمز بن سابور وبهرام بن هرمز[(٣)]، بدليل أن ظهور كلمة التاج في النص، وهي كلمة معروفة عند الفرس، يُعدُّ مظهراً من مظاهر السلطان العربي الذي تأسس تحت الرعاية الفارسية[(٤)]، وعقد المعاهدات مع الفرس والروم.

ويبدو أن هذا الملك كان في بلاد الشام عندما توفي فدفن هناك، وكان من مؤيدي بهرام الثالث، فلما وقع الخلاف بين الفرس وانتصر نرسي (٢٩٣ ـ ٣٠٣م) غادر الحيرة إلى بلاد الشام وأقام هناك، ومال إلى الروم، فأيدوه وأقروه على عرب بلاد الشام، فيكون قد عمل للفرس والروم معاً[(٥)].

ودلالة هذا النص العميقة أن امرئ القيس هو أول ملك عربي حاول أن يُوحِّد عرب الشمال بعد أن دمَّر الرومان دولتيهم في البتراء وتدمر غير أن إمارة الحيرة نفسها لم تلبث أن خضعت للفرس، وفي المقابل، خضع الغساسنة في بلاد الشام للروم البيزنطيين، ونشطت البعثات النصرانية في الشمال ووقعت اليمن تحت الاحتلال الحبشي ثم الفارسي، ولعل ذلك ما دفع العرب إلى الالتفاف حول مكة، وقد نقلوا إليها من الشمال والجنوب أصنامهم، فكانت دار كعبتهم وعبادتهم الوثنية[(٦)].

النص الثالث، هو النقش المعروف باسم كتابة زبد[(٧)] وقد وُجد على باب أحد المعابد، ومؤرخ سنة (٥١٢م)، وكتب بثلاث لغات: اليونانية والسريانية والعربية، ودُوِّن النص العربي على هذه الصورة:

ـ . . م الاله سرحو بر أمت منفو وهنى برمر القيس

ـ وسرحو بر سعدو وسترو وشريحو بتميمي.

---

(١) ضيف: ص١١٨.

(٢) المرجع نفسه: ص٣٦، ٣٧.

(٣) الطبري: جـ٢ ص٥٣.

(٤) علي: جـ٣ ص١٩٢.

(٥) الطبري: جـ٢ ص٥٣. ديسو: ص٣٦، ٣٧.

(٦) ضيف: ص٣٧.

(٧) زبد: تقع جنوب شرقي حلب بين قنسرين ونهر الفرات.

ومعناه:

باسم الاله سرحو بن أمت منفو، وهيء بن امرئ القيس
وسرحو بن سعدو، وستر وشريح. أتموا[1]

ويبدو أن هذا النص وُضع لتخليد ذكرى الرجال الذين بنو الكنيسة، لذلك لا يتضمن سوى أسماء مثل مر القس (امرئ القيس)، سعدو (سعد)، إلا أنه يحتوي على بعض الخصائص اللغوية من حيث مادته التي وُضعت فيها الكتابة وهي النبطية، إذ إن الواو هي علامة الرفع عند النبطيين، ونرى الكتابة العربية الجاهلية تتكامل فيه، فهو قريب من أقدم خط إسلامي، ويحوي جميع مظاهر الكتابة العادية المتصلة بالحروف، لذلك فهو جدير بتسميته نصاً عربياً[2]. ومن المؤكد أنه حدثت تطورات مختلفة في الحقبة الممتدة بينه وبين نقش النمارة هيأت له هذه الصيغة الخطية النهائية.

النص الرابع، هو النقش المعروف باسم نقش حران. وقد عثر عليه المستشرقون في حران اللجا في المنطقة الشمالية من جبل العرب، وقد وُضع فوق باب كنيسة صاحبها شرحيل بن ظلمو (شرحيل بن ظالم)، ويعود تاريخ الكتابة إلى سنة (٤٦٣) بناء على التقويم النبطي السابق الموافق سنة (٥٦٨م) بعد إضافة مائة وخمس سنوات. وجاء النص على الشكل التالي:

ـ أنا شرحيل بر (بن) ظلمو بنيت ذا المرطول سنت ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعم (بعام)[3].

يتفرَّد هذا النقش بكونه مكتوباً بلغة عربية، تقترب كثيراً إلى عربية القرآن الكريم، كما أن خطه النبطي يقترب جداً من الخط الإسلامي القديم، فهو إذن أكثر دلالة، بلغته وكتابته معاً على بداية استقلال اللهجة العربية الفصحى وكتابتها عن اللهجة النبطية وكتابتها. ويبدو أن حدثاً تاريخياً على جانب كبير من الأهمية كان قد وقع ضد خيبر قبل هذا التاريخ بسنة حمل الناس على التأريخ به.

النص الخامس، هو النقش الذي عُثر عليه في موضع أم الجمال وكُني بأم الجمال الثاني، لأنه ثاني نقش عُثر عليه في المكان المذكور وتفريقاً له عن نقش أم الجمال الأول، ويُعد أحدث ما عُثر عليه من كتابات بهذا الخط الذي نتحدث عنه، وباللهجة النبطية المتأثرة بلهجة القرآن الكريم أو باللهجة العربية الشمالية القريبة من لهجة القرآن الكريم، وبالتالي فهو متحرر إلى حد كبير من اللغة النبطية. ويُرجح العلماء الذين درسوه ودقَّقوا فيه أنه يعود إلى القرن السادس الميلادي، وهو بلغته

(١) علي: جـ٨ ص١٧٦، ١٧٧.
(٢) ريغنس، بلاشير: تاريخ الأدب العربي: جـ١ ص٨٣.
(٣) ولفنسون، إسرائيل: تاريخ اليهود في بلاد العرب: ص١٩٢.

وكتابته يخطو خطوة جديدة باتجاه استقلالية اللهجة العربية الفصحى وكتابتها عن اللهجة النبطية وكتابتها، وقد جاء النص على الشكل التالي:

- الله غفر لاليه
- بن عبيدة كاتب
- الخليدا على بني
- عمري كتبه عنه من
- يقروه[١].

ويشكك أحد الباحثين[٢] بكون هذا النص من مدونات أواخر القرن السادس الميلادي، من واقع أن عبارته وأسلوب تدوين كتابته يُفصحان عن عبارة وأسلوب الكتابات الإسلامية القديمة التي دُوِّنت في عصر صدر الإسلام، ثم إن استعمال التاء القصيرة في «عبيدة»، الاسم الوارد في السطر الثاني من النص، لم يكن معروفاً في هذا العهد ولا في صدر الإسلام.

نستنتج مما تقدم أن النصوص الخمسة هي السند العلمي الوحيد حتى الآن الذي ينير هذه الحلقة من تاريخ الكتابة العربية، بما تشير إليه من أن الخط العربي الأول الذي كتب به أهل الحجاز قبل الإسلام مشتق من الخط النبطي المشتق بدوره من خط بني إرم في بلاد الشام، بما لهم من روابط تاريخية وتجارية وثيقة بهم، وبما تشير إليه، هذه النصوص أيضاً، من أن اللغة التي كُتبت بها النصوص النبطية، استناداً إلى تعاقب تواريخها، قد مرَّت بمراحل متدرجة في تطورها من لغة نبطية خالصة (نص ام الجمال الأول)، إلى لغة نبطية ـ عربية (نص النمارة)، فإلى لغة عربية متحررة إلى حد كبير عن النبطية (نص حران وأم الجمال الثاني)، ومع ذلك لا يمكن إلا أن نأخذ بالحسبان ما يقرره الباحثون والمؤرخون بشأن العلاقة بين العرب والنبط من واقع أن الأنباط عرب أو أن حضارتهم عربية في جوهرها، وأنها احتفظت بخصائصها القبلية ولسانها العربي على الرغم من ارتباطها برومة. غير أن المنطق العلمي لا يسمح باتخاذ موقف جازم بشأن الحقيقة النهائية عن أصل عربية الشمال لغة وكتابة، فلا تزال هناك احتمالات يمكن أن تؤدي إلى الكشف عن أساسها الواقعي[٣].

ومهما يكن من أمر، فنحن لا نصل إلى العصر الجاهلي الذي نتحدث عنه حتى نجد الفصحى قد تكاملت وتكامل معها خطها، وأخذت تؤثر في العربية الجنوبية، على أنه ينبغي أن نعترف بأن اليمنيين كانوا في نقوشهم يحافظون على لغتهم القديمة

---

(١) علي: جـ٨ ص٢٤٩.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) مروة: جـ١ ص٢٥١، ٢٥٢.

المرتبطة بدينهم وآلهتهم، أما في حياتهم اليومية، وبخاصة في الأطراف الشمالية، فإنهم كانوا يتحدثون بعربية الشمال الفصحى.

أبعاد الصلة بين حياة اللغة العربية وبين حياة أهلها

لا يمكن حسم الخلاف القائم منذ زمن لدى الباحثين العرب ولدى المستشرقين بشأن صحة أو عدم صحة انتساب النصوص الشعرية والنثرية الفنية المروية عن العصر الجاهلي، إلا من خلال اكتشاف كتابات جاهلية ببعض هذه النصوص مكتوبة خلال القرن السادس أو السابع الميلادي، تقدم لنا فكرة واضحة عن اللغة التي استخدمها عرب الشمال في صياغة الشعر والخطابة والحكم والأمثال والقصص، قبل الإسلام، في إطارها التاريخي الذي تستقل به عن النبطية، إذ إنه من غير المقنع أن صورة اللغة العربية، كما كُتبت في النصوص الخمسة، هي نفسها الصورة التي كان يستخدمها أهل مكة في أواخر القرن السادس الميلادي ومطلع القرن السابع في شعرهم ونثرهم، كما أنه من غير المقنع أيضاً عدم وجود مدونات عربية أخرى مماثلة للنصوص الخمسة منفصلة نهائياً عن الخط النبطي واللغة المتأثرة بلغة النبط، مع العلم أن العرب عرفوا الكتابة واستعملوا جميع أدواتها ووسائلها، لكن الواقع أن مثل هذه النصوص لا تزال غير متوفرة، إذ لم يُعثر عليها حتى الآن، وليس لدينا في هذه الحالة ما نعتمده في معرفة لغة عرب الشمال سوى لغة القرآن الكريم وما دوَّنه الإسلاميون من نصوص شعرية ونثرية منسوبة للجاهليين ومصاغة بلغتهم؛ لأنه لا يمكن لهذه النصوص أن تكون قد صيغت بغير لغتهم، كما أنه من المستبعد أن تكون قد وُلدت مع ظهور الإسلام أو مع عصر التدوين، ثم إن اللغة لكي تصبح في مستوى العربية الفصحى، كما تجلَّت في البيان القرآني وفي مدونات الإسلاميين، يجب أن تكون قد مرَّت بتطورات كثيرة عبر مئات الأجيال من المجتمع الذي اتخذها أفراده أداة تفاهم بينهم، وأداة تعبير عن مختلف شؤون حياتهم وعلاقاتهم بعضهم مع بعض ومع الكون والطبيعة[1].

ويرى أحد الباحثين[2] أن اللغة العربية، على ضوء النصوص والنقوش القديمة المكتشفة، مرَّت منذ نشأتها وتطورها بثلاث مراحل هي:

الأولى: المرحلة التي سبقت ظهور اللغة العربية، وكانت داخلة في مجموعة اللغات السامية، ولم تشكل بعد لغة مستقلة.

---

(١) مروة: جا ص٢٥٤.

(٢) عابدين، عبد المجيد: المدخل إلى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية: ص٣٣.

الثانية: مرحلة استقلالية اللغة العربية عندما أصبحت فيها مستقلة ومتميزة ومتهيئة لأن تكون لغة كتابة وشعر.

الثالثة: مرحلة قبل ظهور الإسلام، حيث تحوَّلت فيها إلى لغة أدبية تتمثل في لغة أدباء الجاهلية.

لكن اللغة العربية تضمَّنت، عبر نشأتها وتطورها في المدى الزمني، أثر هذه الأجيال في كلماتها المنتمية إلى أقدم اللهجات في الجزيرة العربية واللهجات اللاحقة، وقد طوَّرتها سلسلة جديدة من الأجيال العربية في شمالي الجزيرة العربية وما يتصل بها من بلاد الشام والعراق، بالإضافة إلى ما تشتمل عليه معاجم اللغة وكتب التفسير والحديث والقراءات والمغازي وأخبار أيام العرب وقصصهم، وكتب مختارات الشعر الجاهلي وشروحها، ثم ما تحويه كتب النحو من شواهد شعرية ولغوية؛ وقد شكَّل كل ذلك مادة مهمة لدراسة علمية موضوعية تكشف بعض جوانب الغموض في تاريخ اللغة العربية، وتُشكِّل أيضاً أساساً للاستنتاجات التالية:

توحيد اللهجات العربية

يدل ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي على أن القبائل العربية الشمالية اصطلحت فيما بينها على لهجة أدبية فصحى عمد الشعراء على مختلف قبائلهم إلى نظم شعرهم بها، فارتفعوا بذلك عن لهجة قبائلهم إلى هذه اللهجة الأدبية العامة، ومن ثَمَّ احتفظت الخصائص التي تميزت بها كل قبيلة في لهجتها فلم تدخل في شعر شعرائها إلا قليلاً جداً.

وهكذا فإن اللهجة العربية الفصحى، التي انتهت إلينا بلغة القرآن الكريم والحديث والشعر المأثور عن الجاهلية، وكل ما رُوي من النثر عن الجاهليين والإسلاميين الأوائل؛ هي الشكل اللغوي الذي انصهرت وتوحَّدت فيه لهجات عرب الشمال وبعض لهجات عرب الجنوب، وهي لهجة قريش، وإن الظروف التاريخية التي دفعت مكة للوصول إلى ما تمتَّعت به من مكانة خاصة وفاعلة في مجالات النشاط التجاري والاقتصادي والاجتماعي والديني، هي نفسها التي دفعت لهجة قريش لتتبوَّأ مكان الصدارة، وقد شكَّلت نقطة جذب تلاقت عندها سائر اللهجات العربية الشمالية بخاصة وانفعلت بها.

وكانت مكة مركز استقطاب قلوب العرب في الجاهلية، ولها عليهم نفوذ واسع بسبب أهميتها الدينية الروحية والاقتصادية المادية، إذ كان المكيون سدنة الكعبة، وهي بيت عبادتهم، وكانت قوافلهم تجوب أنحاء الجزيرة العربية، ويجتمع العرب إليهم في أعيادهم الدينية ومواسمهم الأدبية والتجارية، وتداخلت في هذا الوضع

الديني والاقتصادي المتميز، أسباب سياسية، ذلك أن القبائل العربية الضاربة على أطراف الجزيرة العربية كانت تتعرض لضغط الدول المجاورة من الفرس والروم والأحباش، بالإضافة إلى الغزو من قبل الديانتين اليهودية والنصرانية؛ ما جعل العرب يدركون أنهم بحاجة ملحة إلى التعاون والارتباط لدفع العدو والوقوف في وجه الديانتين اللتين تغزوان دينهم الوثني، فالتفوا حول مكة موطن كعبتهم وحجهم.

وبهذا كله استطاعت قريش أن تفرض لهجتها على العرب وأن تقضي على الخلل الذي يساور الألسنة، بحيث أصبحت اللغة الأدبية التي يصوغون بها أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم بكونها لغة التعبير الفني في الشعر والخطابة والحِكم، وبكونها أيضاً لغة التعامل المشترك بين مختلف القبائل أثناء انعقاد الأسواق الموسمية، بدليل أن سوق عكاظ كان سوقاً أدبية كما كان سوقاً تجارية، وكان الخطباء يرتجلون فيه خطبهم، وينشد الشعراء قصائدهم، ومما يدعم الدليل أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولاً، وما ردوه منها كان مردوداً[١].

عمَّت لهجة قريش وسادت في كل القبائل العربية شمالاً وغرباً وشرقاً في اليمامة والبحرين، وانتشرت في الجنوب على حساب لغة حِمير واليمن وبخاصة في أطرافها الشمالية حيت منازل الأزد وخثعم وهمدان وبني الحارث بن كعب في نجران.

ولعل من أقوى الدلائل على سيادة اللهجة القرشية وانتشارها الواسع تلك الوفود التي كانت تفد إلى الرسول ﷺ فتأخذ عنه وتتفاهم معه من دون صعوبة، وفي المقابل كان الرسول يُرسل إليهم الدعاة يعظونهم ويعلمونهم مبادئ الشريعة الإسلامية، مثل معاذ بن جبل.

وكانت الفصحى معروفة في الشمال واتخذها الشعراء لغة لشعرهم، بدليل سرعة استجابتهم للقرآن الكريم ودعوته، فإنهم كانوا يفهمونه بمجرد سماعه، فإذا عرفنا أنه نزل بلغة قريش تحتَّم أن تكون هي اللغة الأدبية التي كانت سائدة.

ولكن لم يكن لسيادة لهجة قريش ولا لتوحيد اللهجات العربية أن يلغي اللهجات المحلية في التخاطب اليومي؛ والمعروف أن العرب كانوا ينشدون بعضهم شعر بعض، وكلٌّ يتكلم بمقتضى سجيته التي فُطر عليها، ما كان سبباً في كثرة الروايات في الأبيات.

التوجه التوحيدي للغة: لم يكن التوجه التوحيدي للغة منفصلاً عن سياق التوجهات الاقتصادية والاجتماعية والدينية، بل كان يجري في منحاها للانتقال بالمجتمع من مرحلة التجزئة القبلية إلى مرحلة التوحد. من هنا، اتخذت ظاهرة

(١) الأصفهاني: ج٢١ ص١١٢.

الوحدة اللغوية لهجة قريش أساساً ومنطلقاً، بمعنى أن هذه اللهجة فرضت تأثيرها على مجرى عملية التوحد اللغوي بفعل تأثير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية للأرستقراطية القرشية على مجرى عملية التطور بسياقها العام، ما كان يستدعي تعامل أحياء عرب الشمال مع هذه الأرستقراطية عبر لهجتها، فاكتسبت لهجة قريش انتشاراً واسعاً أدَّى إلى تمكينها من احتواء بعض ما لدى اللهجات الأخرى من خصائص مفضَّلة، وذلك مما أغناها مادة ودلالة، ومنحها القدرة على الصمود والتوحد بعملية موضوعية مرتبطة بظروف عدة[١]، وتجلَّت بمظهرها الأعلى حين كان الشاعر من غير قريش يتحاشى خصائص لهجته ويتجنَّب صفاتها الخاصة في بناء الكلمة وإخراج الحروف وتركيب الجملة، ليتحدث إلى الناس بلغة ألفوها وتواضعوا عليها بعد أن أسهمت عوامل كثيرة في تهذيبها وصقلها[٢].

لهجة قريش في أساس توجه الدعوة الإسلامية: إن الظروف والعوامل التاريخية التي فرضت لهجة قريش كلهجة مشتركة من دون سائر اللهجات العربية؛ كانت في أساس توجه الدعوة الإسلامية قرآناً وحديثاً إلى العرب بلهجة ألفوها وتواضعوا عليها، إذ إن لهجة قريش أضحت لغة القرآن الكريم وبالتالي موضع عناية واهتمام الإسلاميين على النحو الذي عرفه تاريخ البحث اللغوي، ولا يُلغي ذلك، الوجه الآخر للمسألة، أي الوجه التاريخي الموضوعي. ولا شك في أن كون هذه اللهجة أضحت لغة القرآن والحديث، عزَّز فيها جانب الوحدة اللغوية بقدر ما وسَّع من دلالاتها اللفظية المباشرة والتعبيرية المجازية، وطوَّر من قدرتها على استيعاب الجديد من التصورات الكونية والمفاهيم الاجتماعية والتشريعية المرتبطة بالتغيرات الحادثة في العصر الإسلامي[٣].

(١) مروة: جـ١ ص٢٥٥، ٢٥٦.

(٢) الصالح، صبحي: دراسات في فقه اللغة: ص٦٠.

(٣) مروة: جـ١ ص٢٥٦، ٢٥٧.

الفصل السادس

الشعر

الشعر الجاهلي كمصدر تاريخي واجتماعي واقتصادي

الشعر هو أحد المعالم الرئيسة لثقافة العرب قبل الإسلام، ومرآة تعكس حقيقة الحياة العربية القبلية والبيئة التي نشأت فيها، ومصدر تاريخي موثوق لمعرفة أوضاع العرب الجاهليين الاجتماعية والثقافية؛ في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، ويُشكل اللون الأدبي الغالب، أو لعله اللون الوحيد الباقي بشكل واضح من ألوان الأدب العربي في المرحلة السابقة لظهور الإسلام.

وقد أدرك الإسلاميون العرب أهمية الشعر الجاهلي فقالوا: «الشعر ديوان العرب»[1]، ويقصدون بالشعر، الشعر الجاهلي، فقد كان هو وحده بين الشعر العربي كله، لا يحتاج عندهم إلى وصف مُحدَّد لزمنه التاريخي، وهو المستحق بنظرهم أن يكون ديوان العرب. ويريدون بالعرب، عرب الجاهلية جرياً على نسق: أيام العرب وأسواق العرب وكلام العرب، ويعنون بالديوان، السجل الجامع لتاريخ العرب[2].

يمثل الشعر الجاهلي، أو ما وصل إلينا منه مدوناً، قيمة متميزة بما يتضمن أُسلوبه ومضامينه من ملامح حَيَّة لأوضاع المجتمع الجاهلي، وقد توافرت فيه عناصر عدة تضافرت جميعها في تكوين تلك القيمة، منها: لغته وتركيبه الأسلوبي وعروضه وموضوعاته وصوره الوصفية والاجتماعية، وهو وثيقة تتمتَّع في نظر الباحث العلمي بمزايا العلم التاريخي الأكثر غنى وتنوعاً وشمولاً[3].

ويبرز دور الأدب كأحد المصادر الرئيسة لما تركه المجتمع الجاهلي بكل أفراده وطبقاته ليُعبِّر به عن الظروف والعلاقات والتعامل، إذ من خلاله يستطيع المرء الذي أوتي مقدرة التعبير الأدبي أن يرسم ملامح المجتمع الذي يحيط به، ويُعبِّر عن مواقفه، ويُبين معاناته، ويحدد آماله. ويُشكل الشعر الصورة البارزة التي اتخذها

---

(١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمٰن: المزهر في علوم اللغة: جـ٢ ص٤٧٠. الألوسي: جـ٣ ص٨٢.

(٢) دلو: جـ١ ص٢١٩.

(٣) مروة: جـ١ ص٢٥٧.

الأدب العربي في العصر الجاهلي. ولما كان الشاعر هو جزء من المجتمع بكل ظروفه وتفاعلاته، فإن تعبيره الشعري من خلال الانطباع الذاتي يتم في إطار التجربة التي يعيشها ويمارسها المجتمع الذي يوجد فيه، ولا يجوز النظر إلى هذا التعبير على أنه ذاتي فردي كما يتبادر للوهلة الأولى، كما لا ينبغي أن نأخذ الشعر كما هو على أنه حقائق تاريخية لأن الشاعر قد يبالغ وقد يتخيل، حتى إذا تحدث عن حقائق فهو يبرزها من خلال انفعاله الخاص بها، وعلى الرغم من ذلك، فهناك عدد من الحقائق الثابتة تتعلق بأوضاع المجتمع، نستطيع أن نستخلصها من الشعر إذا تجاوزنا المبالغات والتخيلات والانفعالات الخاصة.

ومن بين هذه الحقائق التي تبرز بوضوح في الشعر الجاهلي:

ـ التوجهات العامة التي تسود المجتمع مثل القيم التي تحكمه وطبيعة تصوره لها، كالشرف ورابطة العصبية وممارسة الثأر.

ـ العلاقات القبلية والأبعاد التي وصلت إليها.

ـ الارتحال المستمر لأهل البادية، بفعل ندرة المياه، وظروف الجفاف، من خلال وصف الأطلال، والبكاء عليها، والحنين إلى العلاقات التي تنشأ في ظلها والتي يجد البدوي نفسه مضطراً إلى التضحية بها بفعل الواقع الاقتصادي.

ـ ما يتعلق بتفاصيل حياة البدوي اليومية، مثل الحيوانات التي يعتمد عليها في تنقلاته من أجل الرعي أو التجارة أو الحرب، والملابس التي يلبسها، والخيام وطريقة إقامتها، والآلهة والمعتقدات والشعائر والطقوس، وأسماء الأماكن التي يقيم فيها أو يرتحل إليها، والطرق التي يسلكها، والأسواق، والموقع والأيام التي تركت أثراً في حياته، وغير ذلك من الأشياء[(١)].

غير أنه تعترض بحثنا مشكلتان ينبغي أن نجد حلاً لهما وإلا ستبقى استفادتنا من قيمة الشعر الجاهلي التاريخية استفادة محدودة، هما:

١ ـ الشك في صحة انتسابه إلى العصر الجاهلي الأمر الذي يمسه من الأساس، ويتعرَّض لقيمته كمصدر لمعرفة أوضاع العرب في العصر الجاهلي.

٢ ـ الجهل بمسار تطوره قبل أن يصل إلينا هكذا مكتملاً وجاهزاً.

إن هذا الواقع يُلقي ظلالاً قاتمة على المشكلتين، ويفقدنا القدرة على المقارنة بين مدونات هذا الشعر خلال العصر الإسلامي وبين النماذج السابقة منه التي تفترض وجودها خلال حركة التطور التي تغطي مائة وخمسين سنة قبل ظهور الإسلام على الأقل. ولو تهيأت لهذه المقارنة شروطها التاريخية لحُسم الجدل في صحة انتساب

---

(١) يحيى: ص٢٤٠ ـ ٢٤٢.

تلك المدونات إلى العصر الجاهلي، وهو في حركة نموه وتطوره وتكامل أدواته، ونضج الظروف الموضوعية لكل ذلك خلال تاريخه الذي نفترض أنه تاريخ طويل[1].

وما دمنا نفتقر حتى الآن إلى هذه الرؤية التاريخية، وبالتالي إلى المقياس السليم الذي يُحدد بدقة الفرق بين المدونات الشعرية الصحيحة النسب إلى الجاهلية وبين المدونات المنحولة أو المحمولة؛ لا بدَّ من أن ننتظر أمر الحسم إلى ما سوف يستجد من كشوف شعرية في الجزيرة العربية، لكن الطريق ليس مقطوعاً تماماً أمامنا للنظر في حل هذه المسألة، فلدينا من وسائل البحث المنهجي ما يضعنا على طريق حل آخر، وهو ما سنحاول الإلمام به.

الشك في صحة الشعر الجاهلي

أساس الشك

لم يُدون العرب شعرهم في الجاهلية، وأن ما يُذكر من أخبار عن كتابة بعض شعرائهم لمقطوعات لهم، إن صح، فإنه لا يدل على أنهم فكَّروا فعلاً في تدوين أشعارهم، إنما هي قطعٌ تكتب على رَحْل أو حجر أو جلد لأبناء القبيلة أو بعض أفرادها بحادث. وظل هذا الشعر يتداول حفظاً وسماعاً ولم يكن مكتوباً بعد حتى عهد تدوينه في القرنين الثالث والرابع الهجريين، ما جعله يتعرَّض لضياع الكثير منه بسبب:

- تشتُّته على الألسنة المشتَّتة بدورها في القبائل والأماكن المختلفة والمتباعدة.
- انقراض حفَّاظه جيلاً بعد جيل.
- تعرضه للتعديل والتحريف، في نصوصه، بالتناقل من لسان إلى لسان ومن مكان إلى مكان.
- موقف الإسلام المتحفظ مما كان يُروى من هذا الشعر حاملاً روح الوثنية أو النزعات العصبية القبلية.
- دفع عوامل دينية وسياسية واجتماعية خلال العصور الإسلامية قبل التدوين وبعده، بأصناف من علماء اللغة والتفسير والحديث ورواة الشعر وأنصار أهل الحكم والمذاهب؛ إلى وضع الشعر منسوباً إلى الجاهلية، تأييداً لرأي ديني أو مذهبي أو نصرة لموقف سياسي أو لعصبية قبلية.

وعندما بدأت حركة التدوين، كان من الطبيعي أن يعجز المدونون عن الحصول على الكثير من هذا الشعر، باستثناء قلة، نجت من الضياع أو من التعديل

---

(١) مروة: جا ص٢٥٧، ٢٥٨.

والتحريف، خلال قرنين بعد ظهور الإسلام، وقد أضاع ذلك من أيدينا مقياس التفريق بين الصحيح والمنحول من نصوصه المدونة، وأسَّس للشك والجدل حول صحة هذه النصوص المتداولة من حيث نسبتها إلى شعراء الجاهلية.

وللعلماء، من إسلاميين قدماء ومحدثين ومستشرقين، آراء في هذا الشعر تتراوح بين المبالغة في اليقين أو الشك وبين الموقف الوسطي.

الشك عند العرب القدماء

الواضح أن الشعر الجاهلي دخل فيه انتحال، وقد أشار الإسلاميون العرب القدماء من اللغويين والأدباء والمؤرخين إلى هذه المسألة، وحاولوا أن ينفوا ما وضعه الوضَّاعون، وبلغ من حرصهم أن أهمل ثقاتهم كل ما رُوي عن المتهمين من رواة الشعر[١]، ولعل ابن سلام هو أول من بحث هذه المسألة بحثاً منظماً مستفيضاً، وعزا أسباب النحل إلى عاملين[٢]:

الأول: عامل العصبية القبلية التي كانت تتزيد في شعرها لتتزيد في مناقبها.

الثاني: عامل الرواة الوضَّاعين، وهم طائفتان كانتا ترويان منتحلاً كثيراً وتنسبانه إلى الجاهليين، الأولى تجيد نظم الشعر وصوغه وتضيف ما تنظمه إلى الجاهليين، ويمثل هذه الطائفة حماد الراوية وخلف الأحمر. والثانية لا تحسن النظم ولكنها كانت تحمل كل غثاء منه وكل زيف، إنهم رواة الأخبار والسير والقصص؛ ويمثل هذه الطائفة ابن إسحاق، راوي السيرة النبوية، إذ كانت تُصنع له الأشعار، فيدخلها في سيرته من دون تحفظ[٣].

ورفض المنتقدون رواية الطائفتين، وعرَّضوا بالوضَّاعين، ونبَّهوا على الشعر المنحول إلا أن يأتيهم من مصادر موثوقة.

وهكذا، ففي الشعر الجاهلي منتحل لا سبيل إلى قبوله، وفيه موثوق به، وهو على درجات، منه ما أجمع عليه الرواة، ومنه ما رواه ثقات، مثل المفضل الضبي والأصمعي، وقد يغلب المنتحل، الموثوق به، ولكن ذلك لا يُعد مبرراً لرفض الشعر الجاهلي بعامة وإنما يدفعنا إلى تمحيصه على ضوء ما يقدم لنا الرواة الإثبات من أضواء تكشف الطريق[٤].

---

(١) المعروف أن الوضع والانتحال لم يكن موجوداً عند العرب في الجاهلية، وقصارى ما كان عندهم أن يدَّعي بعضهم لنفسه شعراً ليس له، وهو الذي يُسمى بالاجتلاب.

(٢) ابن سلام، محمد الجمحي: طبقات فحول الشعراء: ص٣٩، ٤٠.

(٣) ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي: ص١٦٥.

(٤) المرجع نفسه: ص١٦٦.

الشك عند العرب المحدثين

استرعت هذه المسألة اهتمام العلماء في العصر الحديث، وتناولها عدد منهم من خلال نهجين متناقضين، مثَّل أحدهما طه حسين، ومثَّل الآخر جمهرة من السلفيين ومؤرخي الأدب العربي وأساتذته في الجامعات، وكثير من الكتَّاب والأدباء في البلاد العربية، ووجه التناقض بين النهجين:

أن الأول يقوم على الشك المفرط في أن الكثرة المطلقة من الأدب الجاهلي ليست من الجاهلية في شيء وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام، وأن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جداً لا يُمثل شيئاً، ولا يدل على شيء، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي.

ويرجع أصحاب هذا النهج الدوافع التي دعت إلى الوضع والانتحال إلى عوامل عدة، منها:

الدافع السياسي: وأرادوا به العصبية القبلية التي دفعت كل قبيلة للعودة إلى جاهليتها، والاعتزاز بقديمها، ونشر مفاخرها، وزيادة أمجادها، وكانت بحاجة إلى الشعر تقدمه وقوداً لهذه العصبية المضطرمة، فاستكثرت من الشعر، وقالت منه القصائد الطوال ونحلتها شعراءها القدماء، وهذا ما حصل بين قريش والأنصار بفعل الخصومة بينهما في الجاهلية[1].

الدافع الديني: كان للدين أثر قوي في انتحال الشعر وإضافته إلى الجاهليين، إذ كان القُصَّاص يلجأون إليه لتفسير أخبار الأمم القديمة البائدة المذكورة في القرآن الكريم، مثل عاد وثمود، وكذلك أخبار الجن.

الدافع القصصي: كان القصَّاص المسلمون يتحدثون إلى الناس في مساجد الأمصار، فيذكون أيام العرب والعجم وما يتصل بالنبوَّات، ويمضون في تفسير القرآن الكريم والحديث، ويروون السير والمغازي والفتوح، من دون ضوابط علمية، وسرعان ما أدركو أن القصص بحاجة إلى شعر يزينه كي يستسيغه القراء والسامعون، فعمدوا إلى وضع الشعر من أجل ذلك.

أثار نهج طه حسين عاصفة فكرية مضادة، ورأى المنتقدون أنه هدم التراث العربي، والمألوف من المتوارث، لكن من الواضح أنه يُبقي على بقية صحيحة من الشعر الجاهلي، وإن كانت في رأيه قليلة ولا تعطينا الصورة الأدبية الوثيقة لهذا الشعر.

---

(١) حسين، طه: في الأدب الجاهلي: ص٦٥ ـ ٦٧، ١٣٨.

وردَّد الثاني ما سجله القدماء أنفسهم في مسألة الوضع، ولاحظ ما دخل هذا الشعر من بعض الوضع.

ولكن ظهر نهج ثالث وقف موقفاً وسطاً بين هذين النهجين المتناقضين، فوضع افتراضات عدة في تفسير ذلك، ثم ناقش كل افتراض على حدة من زاوية النقد التاريخي على ضوء الأسانيد والظروف التاريخية.

الشك عند المستشرقين

تناول عدد من المستشرقين موضوع النحل مستخدمين في أبحاثهم مناهج علمية وطرق النقد التاريخي، والمقارنة بأسلوب البحث العلمي عن الأصول الدينية والسياسية والثقافية للآثار والنصوص القديمة، وقد انقسموا إلى فريقين: فريق طعن بصحة كثير من مدونات الشعر الجاهلي، أمثال نولدكه وڤلهوزن ومرغليوث، وتبنَّى فريق آخر نظرية صحة الشعر الجاهلي إجمالاً، مع الاعتراف بدخول بعض التعديل أو وجود أثر للانتحال في بعض نصوصه المدونة، ويُعدَّ روم لاندو من هذا الفريق وكذلك أغناطيوس كراتشكوفسكي.

تعقيب على مسألة انتحال الشعر الجاهلي

الحقيقة أن الشعر الجاهلي موجود، وأن التحريف فيه موجود أيضاً، ولم يغب لذلك عن القدماء، فعرضوه على نقد شديد تناولوا رواته وصيغه وألفاظه، فأحاطوه لذلك بسياج محكم من التثبت، فكان ينبغي ألا يبالغ المحدثون في الشك الذي يُفضي إلى رفضه كلياً أو جزئياً في أكثره، وهو صحيح في مجمله ويُعبِّر عن البيئة الطبيعية وعن خصائص الحياة العربية القبلية، وعن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي نشأ فيها، وإن نظرة متأنية على ديوان العرب ترينا في أشعارهم صور الصحراء، بما فيها من جفاف وقحط ورمال وكثبان وشعاب ووديان وجبال وحرَّات وظاهرات جوية كالرياح والسحب والمطر والبرق والصواعق والنبات والحيوان، وغير ذلك مما ينسجم مع بيئتهم ويلتئم مع طبيعتهم، وفي كتاب الأصنام للكلبي أشعار كثيرة تصور الوثنية التي كانت شائعة فيهم.

فنون الشعر الجاهلي

تمهيد

يحمل الشعر الجاهلي مضامين مُعبِّرة في إطار اللغة الشعرية لتلك المرحلة عن الكثير من الخصائص التاريخية التي تميز عرب الجاهلية عن المجتمع الإسلامي، وهو يعكس واقعه الاجتماعي بلغة مباشرة وتفصيلية، ويمثل تطور الوعي العربي في مجال التعبير الفني وأبرزها الديني؛ لأن الأصول الأولى للشعر الجاهلي تطورت من أناشيد دينية كان الجاهليون يتوجهون بها إلى آلهتهم، ويستعينون بها على حياتهم، فتارة يطلبون منها القضاء على أعدائهم وتارة يطلبون منها نصرتهم ونصرة أبطالهم، ومن ثم نشأ هجاء أعدائهم ومدح فرسانهم وسادتهم، كما نشأ شعر الرثاء، وهو في أصله تعويذات للميت حتى يطمئن في قبره، وفي أثناء ذلك، كانوا يمجدون قوى الطبيعة المقدسة التي تكمن فيها آلهتهم والتي تبعث الخوف في نفوسهم، ومعنى ذلك أن فنون الشعر الجاهلي تطورت من أدعية وتعويذات وابتهالات للآلهة إلى فنون مستقلة(١).

وتتراءى لنا قصائد الشعر الجاهلي في نظام معين، إذ إن أصحابها يفتتحونها غالباً بوصف الأطلال وبكاء آثار الديار، ثم يصفون رحلاتهم في الصحراء وما يركبونه من إبل وخيل، وكثيراً ما يُشبِّهون الناقة في سرعتها ببعض الحيوانات الوحشية، ثم يخرجون إلى الغرض من قصيدتهم مديحاً أو هجاء، فخراً أو عتاباً أو اعتذاراً أو رثاء. وللقصيدة مهما طالت تقليد ثابت في أوزانها وقوافيها، فهي تتألف من وحدات موسيقية يسمونها الأبيات، وتتوحد جميع الأبيات في وزنها وقافيتها وما تنتهي إليه من رؤى. والمعروف أن الشعر الجاهلي شعر غنائي في منظومات قصيرة قلَّما تجاوزت مائة بيت، وهو شعر ذاتي يمثل صاحبه وأهواءه، ويجول في مشاعره وعواطفه، فيصوره فَرِحاً أو حزيناً(٢).

الهجاء

هناك صلة بين الشعر والكهانة والسحر، إذ كان الجاهليون يزعمون أن الشياطين تنزل على الشعراء كما تنزل على الكهَّان، فالأعشى كان له شيطان ينفث في روعه

---

(١) بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي: جـ١ ص٤٤ وما بعدها.

(٢) ضيف: ص١٨٣، ١٨٤.

الشعر يُسمى مِسحلاً، وإن شاعراً كان يهجوه يُسمى عمرو بن قطن كانت له تابعة من الجن اسمها جهنَّام، قال فيه الأعشى:

دعوت خليلي مِسحلاً وَدَعوْا له   جهنَّام جَدْعاً للهجين المذَمَّم(١)

يلبس الشاعر الجاهلي، إذا أراد الهجاء، حلَّة خاصة شبيهة بزي الكاهن، ويحلق رأسه، ويترك له ذؤابتين، ويدهن أحد شقي رأسه، وينتعل نعلاً واحدة، والمعروف أن حلق الرأس كان من سنن الجاهليين في الحج.

ويتخذ شاعر الهجاء الشعائر نفسها التي يُنفذها في حجه وأثناء دعائه لربه أو لأربابه، حتى تصيب لعنات هجائه أعداءه بكل ما يمكن من ألوان الأذى وضروب النحس المستمر، من هنا تسميته بالشاعر؛ أي: العالم، بمعنى أنه شاعر بقوة شعره السحرية. فالهجاء في الجاهلية كان لا يزال يُقرن بما كانت تُقرن به لعناتهم الدينية الأولى من شعائر، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يتطيرون منه ويتشاءمون، ويحاولون التخلص من أذاه، فإذا أغار المغيرون على إبل بينها إبل لشاعر، وتعرَّض لهم يتوعدهم بالهجاء سارعوا إلى ردها دفعاً لأذاه(٢).

يُروى أن الحارث بن ورقاء الأسدي أغار على بني عبد الله بن غطفان، فغنم، فاستاق إبل زهير وراعيه يساراً، فنظم زهير أبياتاً يتوعده بالهجاء المقذع يقول فيها:

ليأتينك مني منطق قذع   باقٍ كما دنَّس القبطية الوَدَك(٣)

ومن الهجاء ما هو عام، فيصب الشاعر هجاءه ولعناته على خصوم عشيرته من العشائر الأخرى بحيث لا يسلم أحد من أشرافهم منه. فقد هُجي حصن بن حذيفة وزُرارة بن عُدَس وعبد الله بن جُدعان وحاجب بن زرارة، وهؤلاء من أشراف قبيلتهم(٤).

وكان الهجاء سلاحاً فعَّالاً لا يقل عن أسلحة القتال، ففي السيرة النبوية أن الرسول ﷺ طلب إلى شعراء المدينة أن ينصروه بهجائهم في قريش، ويُروى أنه قال لحسان بن ثابت، وقد أخذ في هجاء القرشيين: (لهذا أشدُّ عليهم من وقع النبل)(٥)، وفي ذلك ما يُصور مدى أثر الهجاء في نفوس العرب.

وكان الشعراء ينتهزون تلاقيهم في الأسواق، وبخاصة سوق عكاظ، فينشدون

---

(١) ابن منظور: جـ١٢ ص١١٢.   (٢) ضيف: ص١٩٧.

(٣) الأصفهاني: جـ١٠ ص٣٠٧.

(٤) الجاحظ، عمرو بن بحر: الحيوان: جـ٢ ص٩٣.

(٥) الأصفهاني: جـ٤ ص١٣٧ ـ ١٤٣.

هجاءهم لينتشر ويُذاع، فيلحقوا بخصومهم كل ما يريدون من خزي وعار، وفي ذلك يقول راشد بن شهاب اليشكري لقيس بن مسعود الشيباني:

ولا توعدنِّي إنني إن تلاقني   معي مَشْرفيٌّ في مضاربه قَضَمْ
بذم يُغشِّي المرء خِزياً ورهطه   لدى السرحة العشَّاء في ظلها الأدَمْ[1]

وهو يشير إلى سرحة أو شجرة عظيمة كانت بعكاظ.

وتمحور هجاء الشعراء الجاهليين حول كل ما يناقض المثل الجاهلية التي تجمعها كلمة المروءة، وتعني عندهم الشجاعة والكرم وحماية الجار والوفاء والنجدة وطلب الثأر، كما يتعرَّضون لمخازي القبيلة في حروبها وأيامها التي ولَّت فيها منهزمة. وكانوا يقذفون في الأعراض ويطعنون في الأنساب متعرضين للأمهات، فهذا الجميح الأسدي هجا بني عامر وقد غدروا بأسدي منهم وقتلوه، فعيَّرهم بما غدروا متعرضاً لأمهم سلمى وادعى عليها البغاء.

سائلْ معداً من الفوارس لا   أوفوْا بجيرانهم ولا غنموا
فدى لسلمى ثوباي إذ دنس الـ   ـقوم وإذ يدسمون ما دسموا
أنتم بنو المرأة التي زعم الـ   ـناس عليها في الغي ما زعموا[2]

وقصة هجاء المتلمس وطرفة لعمرو بن هند مشهورة.

ولم يكن هجاء الجاهليين منفصلاً بالقصائد عن ما يسوقونه غالباً في تضاعيف حماستهم من التغني بأمجادهم وإشادتهم بانتصاراتهم العسكرية، والاستهانة بالصعب من الأمور، وذم الجبن والخور والفرار، حتى أضحت الحماسة تستنفد أشعارهم وقصائدهم، وهي ديوانهم الذي يُسطر تاريخهم ومناقبهم ومفاخرهم.

ويتحدث الشاعر دائماً عما تفخر به قبيلته من الشجاعة والإقدام والنجدة، وإغاثة الملهوف، وحماية الجار، والكرم، والصبر في الملمات، ويهجي في المقابل أعداءها بقسوة وكأنه يريد أن يقضي عليهم قضاءً تاماً. ومن روائع الحماسة والفخر معلقة عمرو بن كلثوم التي يشيد فيها بانتصارات قومه وأيامهم، من مثل قوله:

أبا هند فلا تعجل علينا   وانظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضاً   ونصدرهن حُمراً قد روينا

---

(١) الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد: ديوان المفضليات: ص٣١٦.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٨ ـ ٣٠.

وأيـــام لـــنـــا غـــر طـــوال | عـصـينـا الـملـك فـيـهـا أن نـديـنـا
مـتـى نـنـقـل إلـى قـوم رحـانـا | يـكـونـوا فـي الـلـقـاء لـهـا طـحـيـنـا
يـكـون ثـفـالـهـا شـرقـي نـجـد | ولـهـوتـهـا قـضـاعـة أجـمـعـيـنـا
نـطـاعـن مـا تـراخـى الـنـاس عـنـا | ونـضـرب بـالـسـيـوف إذا غـشـيـنـا[1]

وعلى هذا النوع من الصياح الشديد يرفع عمرو قبيلته تغلب على كل من حولها في نجد، شرقيها وغربيها، فكل من يقدم على قتالها يكون مصيره الهلاك والدمار، ويقول إن حياتهم سلسلة من الحروب، ويصف أسلحتهم التي يضربون بها أعداءهم ويذيقونهم كؤوس الموت المر.

والواقع أن هذا اللون من الشعر ليس شعر قوة وبطولة فحسب، فقد تدخل فيه الشيم والمثل العليا في حياة الجاهليين وسلوكهم والفضائل الحميدة، مثل ما نقرأ في ميمية ربيعة بن مقروم إذ يقول:

وإن تـســألـيـنـي فـإنـي امـرؤ | أهـيـن الـلـئـيـم وأحـبـو الـكـريـمـا
وأبـنـي الـمـعـالـيَ بـالـمـكـرمـات | وأُرضـي الـخـلـيـل وأُروي الـنـديـمـا
ويـحـمـد بـذلـي لـه مـعـتـف | إذا ذمَّ مـن يـعـتـفـيـه الـلـئـيـمـا[2]

الرثاء

يتصل الرثاء بالحماسة اتصالاً واضحاً. والرثاء هو بكاء الميت والتفجع عليه، وإظهار اللوعة لفراقه، والحزن لموته، وتعداد خلاله الكريمة، والإشادة بمناقبه وشمائله، وليس بين الرثاء والمدح من فارق إلا أن يُخلط الرثاء بشيء يدل على أن المقصود به ميت.

والرثاء على ثلاثة أنواع ألمَّ بها الشاعر الجاهلي كلها، وهي الندب والتأبين والعزاء.

أما الندب فهو الرثاء المنبعث عن عاطفة ملتاعة وقلب حزين موجع، فهو إذن يتميز بالقوة الدافقة، والحرارة الملتهبة، والشعور القائم، ويكون على لسان والد فَقَدَ ولده، أو أخ مات أخوه، وهكذا.

كان الشعراء يرثون أبطالهم في قصائد حماسية لإثارة قبائلهم حتى تأخذ بثأرهم، فيمجدون صفاتهم، ويصفون مناقبهم التي فقدتها القبيلة فيهم، فيدفعوها إلى حرب

---

(١) الزوزني، أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن الحسين: شرح المعلقات العشر: ص٢٠٨، ٢٠٩.
(٢) الضبي: ص١٧٦، ١٧٧.

من قتلوهم، وشارك النساءُ الرجالَ، فما زلن ينحن على القتيل حتى تثأر القبيلة له. فقد كانت الخنساء تخرج إلى سوق عكاظ، فتندب أباها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية وقد سوَّمت هودجها براية للفت الأنظار. واقتدت هند بنت عتبة، زوجة أبي سفيان بن حرب ووالدة معاوية، بها، فندبت أباها عتبة بن ربيعة وعمها شيبة بن ربيعة وأخاها الوليد الذين قتلوا في بدر، وعدَّت مصيبتها بهم أعظم من مصيبة الخنساء(١)، وفي هذا دليل على أن النساء كن يندبن موتاهن سنين عدة، وكن يحلقن شعورهن، ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود، أمام القبر وفي مجالس القبيلة والمواسم الكبرى. ولعل عادة حلق رؤوسهن ما يجمع بينهن وبين الهجائين، ويثبت أن هذا الرثاء تطور عن تعويذات كانت تُقال للميت على قبره حتى يطمئن في لحده، ثم تحوَّل بمرور الزمن إلى تصوير حزنهم العميق تجاه ما أصابهم به الزمن في فقيدهم، وأضحت تلك التعويذات وبخاصة عند النساء، بكاء ونواحاً وندباً حاراً(٢).

وأما التأبين فهو مدح الشخص بعد وفاته والثناء عليه وتعداد صفاته الحميدة. ومن روائع الندب، رثاء الخنساء أخيها صخر، فقالت:

قذى بعينك أم بالعين عُوَّار ... أم ذرَّفت أن خلت من أهلها الدار
كأن عيني لذكراه إذا خطرت ... فيض يسيل على الخدين مدرار
فالعين تبكي على صخر وحق لها ... ودونه من جديد الأرض أستار
تبكي خناس وما تنفك ما عمرت ... لها عليه رنين وهي مقتار
بكاء والهة ضلَّت أليفتها ... لها حنينان إصغار وإكبار
فإن صخراً لوالينا وسيدنا ... وإن صخراً إذا نشتو لنحّار
وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار
طلق اليدين بفعل الخير ذو فخر ... ضخم الدسيعة بالخيرات أمَّار(٣)

وينال من يموت في ميادين القتال تأبيناً كثيراً، وقد يُضمِّنون هذا التأبين هجاء لاذعاً لخصومهم وفخراً بعشيرتهم، على نحو ما نجد في مرثية المرقش الأكبر التي يقولها في ابن عم له:

هل بالديار أن تجيب صممْ ... لو كان رسم ناطِقاً كلَّمْ
بل هل شجتك الظُّعن باكرة ... كأنهن النخل من مَلهمْ(٤)

---

(١) الأصفهاني: جـ٤ ص٢١٠، ٢١١.
(٢) ضيف: ص٢٠٧.
(٣) الأصفهاني: جـ١٥ ص٨٠، ٨١.
(٤) المصدر نفسه: جـ٦ ص١٢٩. الضبي: ص٢٣٣، ٢٣٤.

فقد بدأها بالغزل ثم خرج منه إلى الرثاء فمديح بعض ملوك الغساسنة، ثم فخر بقومه وهجا أعداءهم. وقد يجعلون القصيدة خالصة للتأبين، كما فعل دريد بن الصمة في مرثية أخيه عبد الله الذي قُتل يوم اللوى:

أرثَّ جديد الحبل من أم معبد ... بعاقبة وأخلفتْ كل موعد[١]

وهي طويلة، بدأها بالغزل ثم مضى يرثي أخاه مصوراً مصرعه وولهه به وجزعه عليه ومتحدثاً عن خلاله الحميدة مثل الشجاعة والجود والمضاء والصبر والحزم[٢].

وقد يُؤبنوا أشرافهم وإن ماتوا حتف أنوفهم، اعتزازاً بمناقبهم، وفخراً بأعمالهم ومآثرهم، فهذا أوس بن حجر يمدح فضالة بن كلدة الأسدي في حياته ويرثيه بعد مماته بقصيدة يقول فيها:

أيتها النفس أجملي جزعاً ... إن الذي تكرهين قد وقعا
إن الذي جمَّع السماحة والنـ ... ـجدة والحزم والقُوى جُمعا[٣]

وأما العزاء فهو لون من الشعر تغلب فيه التعزية على البكاء والحزن، ولا بدَّ من أن يصحبها صفات الفقيد والتألم لفقده، والتأسي عنه بأنه حوض لا بدَّ من وروده، وقد سبقتهم إليه الأجيال الماضية من ملوك وغير ملوك، ولعل أحسن شعر قيل في الصبر على النوائب قول دريد بن الصمة:

تقول ألا تبكي أخاك وقد أرى ... مكان البكا لكن بُنيت على الصبر
فقلت أعبد الله أبكي أم الذي ... له الجدث الأعلى قتيل بني بكر
وعبد يغوث تحجل الطير حوله ... وعزَّ المصاب حثو قبر على قبر
يُغار علينا واترين فيشتفى ... بنا إن أُصبنا أو نغير على وتر
قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا ... فما ينقضي إلا ونحن على شطر[٤]

المدح

هو الثناء على إنسان بذكر فضائله وتعداد صفاته الكريمة وخصاله العظيمة، ويمتدح الشعراء من خلاله مناقب قبائلهم وسادتها، فيتحدثون عن عزتها وإبائها، وشجاعة أبنائها، وفتكهم بأعدائهم، وإكرامهم لضيوفهم، ورعايتهم لحقوق جيرانهم. وللقبيلة التي يجدون فيها كرم الجوار نصيب كبير من المدح، فكان الشعراء يمتدحون سادتها إحساساً منهم بفضيلة أو ثناء لمعروف قدَّموه أو إسداء لخدمة فعلوها كأن

(١) الأصفهاني: جـ١٠ ص٥ ـ ٩. (٢) ضيف: ص٢٠٩.
(٣) الأصفهاني: جـ١ ص٧٢ ـ ٧٤، والمعروف أن فضالة بن كلدة الأسدي قد صرعته ناقته.
(٤) المصدر نفسه: جـ١٠ ص٥.

يفتدوا أسيراً، على نحو ما صنع خالد بن أنمار بابن أخت المثقب العبدي، فكان جزاؤه منه بأن مدحه بقوله:

مُترع الجفنة رِبعي الندى ... حسن مجلسه غير لطمْ[1]

وكما قال امرؤ القيس يمدح رهط المعلّى بن تيم الجديلي عندما لجأ إليه هرباً من المنذر ملك الحيرة:

كأني إذ نزلت على المعلَّى ... نزلت على البواذخ من شَمام
فما ملك العراق على المعلَّى ... بمقتدر ولا ملك الشام
أقرَّ حشى امرئ القيس بن حُجر ... بنو تميم مصابيح الظلام[2]

لم يتخذ المديح في أول الجاهلية مظهراً خاصاً يجني من ورائه الشاعر مغنماً أو يستدر هبة، ولكن ما وافى أواخر العصر الجاهلي حتى اتخذ الشعراء المديح وسيلة للكسب، فأكثروا منه وبالغوا في التقرب إلى الحكام وسادة القبائل وملوك المناذرة والغساسنة، يمدحونهم وينالون جوائزهم وعطاياهم الجزيلة، وأخذوا، من أجل ذلك، يراجعون شعرهم، ويُجوِّدونه، ويُهذبونه للتأثير في ممدوحيهم حتى سموا بعبيد الشعر، واشتهر بذلك زهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني وحسان بن ثابت.

أما زهير فقد اختص بأشراف قومه، فقال يمدح سنان بن أبي حارثة وابنه هرم والحارث بن عوف، وهم من بني ذبيان، بسبب تحمُّل الأخِيرَيْن دية هرم بن ضمضم في مالهما بعد أن سعيا للصلح بين ذبيان وعبس:

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو ... وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل
وقد كنت من سلمى سنين ثمانياً ... على صبر أمر ما يمر وما يحلو
وفيهم مقامات حسان وجوهها ... وأندية ينتابها القول والفعل
وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم ... مجالس قد يشفي بأحلامها الجهل
فما كان من خير أتوه فإنما ... توارثه آباء آبائهم قبل
وهل يُنبت الخطي إلا وشيجة ... وتُغرس إلا في منابتها النخل[3]

وأما النابغة فخص النعمان بن المنذر بمدحه، وكان أثيراً عنده ومن ندمائه وأهل أُنْسِه، فرأى زوجته المتجردة يوماً فغشيها تشبيهاً بالفجاءة، فسقط نصيفها واستترت بيدها وذراعها، فكادت ذراعها تستر وجهها لعبالتها وغلظها، فقال قصيدته التي أولها:

أمِن آل مية رائح أو مغتدي ... عجلان ذا زاد وغير مُزوَّد

فلما سمعها النعمان امتلأ غضباً وتوعَّد النابغة وتهدَّده، فهرب منه فأتى قومه، ثم

(١) الضبي: ص٢٩٨.
(٢) الأصفهاني: جـ٩ ص٩٢ ـ ٩٤.
(٣) المصدر نفسه: جـ١٠ ص٣٠٢، ٣٠٣. فارس: ص١٥٠.

شخص إلى ملوك غسان بالشام فامتدحهم. ولعل أمدح بيت قالته العرب قوله في عمرو بن الحارث الأصغر الغساني:

ألـم تـر أن الله أعـطـاك سـورة ... تـرى كـل مـلـك دونـهـا يـتـذبـذب
كـأنـك شـمـس والـمـلـوك كـواكـب ... إذا طلعت لـم يبد منهن كوكب[1]

وأما حسان بن ثابت فاختص بمدح الغساسنة.

ويبدو أن المناذرة بخاصة كانوا يتخذون من المديح وسيلة للدعاية لهم في القبائل، لذلك كثر الشعراء في بلاطهم منذ عهد عمرو بن هند الذي قصده عدد منهم، أمثال المثقب العبدي والمتلمس والممزق العبدي وطرفة بن العبد والمسيب بن علس، ومن بديع ما نُظم فيه قول حجر بن خالد:

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجد ... كـفـعـل أبي قـابـوس حزماً ونـائـلا
يُسـاق الـغـمـام الـغـر من كـل بـلـدة ... إلـيـك فـأضـحـى حـول بـيـتـك نـازلا
فإن أنت تهلك يهلك الباع والندى ... وتُضحي قلوصُ الحمد جرباء حائلا
فـلا مـلـك مـا يـبـلـغـنـك سـعـيـه ... ولا سـوقـة مـا يـمـدحـنـك بـاطـلا[2]

وبلغ هذا الفن من المديح مع الأعشى فأضحى حرفة خالصة للتكسب، إذ لم يترك ملكاً ولا سيداً مشهوراً في أنحاء الجزيرة العربية، إلا قصده ومدحه وأعلى من شأنه معرضاً بالسؤال، فهو أول من سأل بشعره وانتجع به أقاصي البلاد[3].

الغزل

هو كل ما يتصل بالمرأة من حيث حسنها وجمالها وإبداء الفرح بقربها والألم والحزن على بُعدها، وتأثيرها على النفس، وهو أكثر أشعار العرب وأروعها، وأبرع آثار العرب. والمعروف أن المرأة العربية كانت ذات تأثير كبير وساحر على عقل الرجل وقلبه وعواطفه ومشاعره.

والغزل الجاهلي مادي حسي يتصل بالغريزة، يتعرَّض لمحاسن المرأة الظاهرة، من جبين وخد وعنق وصدر وعينين وفم وأنف وريق ومعصم وساق وثدي وشعر ونحو ذلك، كما يتعرض إلى زينتها وحليها وطيبها، وقلَّما يُعبِّر عن معنى روحي مثل الغزل العذري.

فقد لُقِّب المهلهل زير نساء، وغالى امرؤ القيس في غزله، فلم يتورع عن الوصف الفاحش والغزل الماجن كما في قصيدته التي يقول فيها:

---

(١) انظر: الأصفهاني: جـ١١ ص٨ ـ ٢٠. ابن منظور: جـ٤ ص٣٨٦.

(٢) الجاحظ، الحيوان: جـ٣ ص٥٨، ٥٩. ضيف: ص٢١١.

(٣) الأصفهاني: جـ٩ ص١٠٩.

سموت إليها بعد ما نام أهلها ... سمو حباب الماء حالاً على حال

وكذلك فعل النابغة الذبياني الذي أسرف في الفحش والنفاذ إلى أدق المواضع وأكثرها ستراً، كما في قصيدته في وصف المتجردة:

أمن آل مية رائح أو مغتدي ... عجلان ذا زاد وغير مُزوَّدِ
صفراء كالسيراء أكمل خلقُها ... كالغصن في غلوائه المتأودِ
والبطن ذو عكن لطيف طيُّه ... والأنبُ تنفخه بثدي مُقودِ
مخطوطة المتنين غير مفاضة ... ريا الروادف بضَّة المتجردِ
بالدر والياقوت زُيِّن نحرها ... ومُفصَّل من لؤلؤ وزبرجدِ
زعم الهمام بأن فاها بارد ... عذبٌ مُقبَّله شهي الموردِ[1]

وقد يتعرَّض الشاعر لبعض علاقاته مع المرأة، وهي مغامرات حوَّلها الرواة إلى قصص غرامية، على نحو ما قصوُّا عن حب المرقش الأكبر أسماء بنت عوف[2] والمرقش الأصفر لفاطمة بنت المنذر[3]، وعن حب المنخل اليشكري للمتجردة زوجة النعمان، وقد قال فيها قصيدة نذكر منها هذه الأبيات:

ولقد دخلت على الفتا ... ة الخِدرِ في اليوم المطيرِ
الكاعب الخنساء تر ... فل في الدمقس وفي الحرير
دافعتها فتدافعت ... مشي القطاة إلى الغدير
ولثمتها فتنفَّست ... كتنفس الظبي البهير
ورنت وقالت يا منخ ... ل هل بجسمك من فتور
ما مسَّ جسمي غير جد ... ك فاهدئي عني وسيري[4]

وصوَّر الشعراء حبهم للمرأة وما يذرفون من دموع، فقال بشر بن أبي خازم الأسدي:

فظللت من فرط الصبابة والهوى ... طرفاً فؤادُك مثل فعل الأيهم[5]

وأكثروا الحديث عن طيفها من خلال ذكراها وما يثيره في أنفسهم من لوعات الحب، كما في قول المرقش الأصغر:

صحا قلبه عنها، على أن ذِكرةٌ ... إذا خطرت دارت به الأرض قائماً[6]

لم تكن المرأة الحرة ممتهنة عند الجاهليين، وهي عندهم مصونة ومنيعة، يستلهمها الشاعر شعره ويضعها في صدر قصيدته، وكان أكثر ما يشجيهم أن تؤسر

---

(١) الأصفهاني: جـ١١ ص٨.
(٢) المصدر نفسه: جـ٦ ص١٢٩.
(٣) المصدر نفسه: ص١٣٦ ـ ١٣٩.
(٤) المصدر نفسه: جـ٢١ ص١. الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قُريب: الأصمعيات: ص٥٩.
(٥) الضبي: ص٣٥٨.
(٦) الأصفهاني: جـ٦ ص١٣٨.

وتُسبى، عندئذٍ لا يهدأ لهم بال حتى يعودوا بها مكرمة إلى ديارهم. فالطباع العربية، والصفات التي كانت تملك نفس البدوي وتملؤها عزة وأنفة هي التي تسيطر على المتغزلين، أمثال علقمة بن عبدة الذي قال في قصيدته:

طحا بك قلب في الحسان طروب ... بعيد الشباب عصر حان مشيب
يكلفني ليلي وقد شط وليها ... وعادت عواد بيننا وخطوب
ممنعة ما يستطاع كلامها ... على بابها من أن تزار رقيب
إذا غاب عنها البعل لم تفش سره ... وترضى غياب البعل حين يؤوب[1]

ويظهر تأثير البيئة في العصر الجاهلي واضحاً في الغزل وذلك من واقع:

- الإكثار من ذكر الأطلال والوقوف عند الآثار.
- الإكثار من ذكر البين والفراق، والحنين إلى الأحبة.
- المحافظة على أسماء الأماكن التي كانت تحلها المحبوبة.
- الصفات التي خلعها الشعراء على محبوباتهم مستمدة كلها من البيئة، كتشبيه النساء بالمها والغزلان[2].

الوصف

هو الكشف والإظهار، وقد وصف الشعراء الجاهليون كل شيء وقع عليه نظرهم، ويذكرون ذلك بعد غزلهم، فيخرجون إلى وصف رحلاتهم في الصحراء، وقطعهم المفاوز البعيدة فوق إبلهم، فيصفونها وصفاً مسهباً على نحو ما هو معروف عن طرفة في وصفه لناقته:

وإني لأمضي الهمَّ عند احتضاره ... بعوجاء مرقال تروح وتغتدي
أمون كألواح الأران نسأتها ... على لاحب كأنه ظهر برجد
جمالية وجناء تردى كأنها ... سفنجة تبري لأزعر أربد
لها فخذان أكمل النحض فيهما ... كأنهما بابا منيف ممرد[3]

ويُشبِّهونها بكثير من حيوانات الصحراء وبخاصة بقر الوحش، وحينئذٍ يستطردون إلى وصف هذه الحيوانات وما يكون من عراك بينها وبين كلاب الصيد، كما في معلقة لبيد بن ربيعة، كما أكثروا من وصف الماعز ووصف الخيل وقد شبَّهوها بضروب من السباع المنعوتة بالمخالب وطول الأظفار. ولامرئ القيس صورة بديعة في معلقته يصف بها فرسه الذي اتخذه للصيد حيث يقول:

---

(١) الأصفهاني: ج٢١ ص٢٠٠، ٢٠١.
(٢) فارس: ص١٥٩، ١٦٠.
(٣) ديوان طرفة: ص٢٠، ٢١.

لـه أيـطـلا ظـبـي وسـاقـا نـعـامـة وإرخـاء سـرحـان وتـقـريـب تـتـفـل

وأجادوا وصف الليل وأهواله. قال امرؤ القيس يصف البرق والمطر:

أصـاح تـرى بـرقـاً أريـك ومـيـضـه كـلـمـع الـيـديـن فـي حـبـي مـكـلَّـل
يـضـيء سـنـاه أو مـصـابـيـح راهـب أمـال الـسـلـيـط بـالـذبَّـال الـمـفـتَّـل
فـأضـحـى يـسـح الـمـاء حـول كـتـيـفـه يكبُّ على الأذقان دوح الكنهبل[1]

ووصفوا العراك وآلاته، وكل ما يُقرِّبهم من ظواهر الطبيعة، وأحداث الحياة. ويدخل الوصف في معظم الفنون الشعرية.

تلك هي الفنون الأساسية التي تُنظَّم في سلك القصيدة الجاهلية.

المعلقات

تعريفها: المعلقات قصائد شعرية اختيرت من الشعر الجاهلي، وتعد أثراً من تراث العرب الشعري، ومن أجود الشعر، وأدقه معنى، وأوسعه خيالاً وأبرعه أسلوباً، وأمده قافية، وأصدقه تصويراً للحياة[2]، وكُتبت بماء الذهب على القباطي، وعُلِّقت على جدران الكعبة إعجاباً بها وإشادة بذكرها، وقد ظل بعضها إلى يوم فتح مكة، واحترق بعضها الآخر بفعل ما أصاب الكعبة من حريق قبل الإسلام، وقد جمعها حماد الراوية، وهي سبع على المشهور[3]:

ـ قصيدة امرئ القيس، وهي اثنان وثمانون بيتاً على البحر الطويل، تتضمن بمعظمها وصفاً للأطلال والأحبة والليل والوادي والفرس والبرق والمطر والسيول وغيرها، وتبدأ بهذا البيت:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ـ قصيدة طرفة بن العبد، وهي مائة وأربعة أبيات على البحر الطويل، تناولت الأطلال وخولة، والناقة، والشاعر نفسه، والكرم، واللهو، والسكر، والنوق، وموقفه من عمه، وآراءه في الحياة والموت، ومطلعها:

لـخـولـة أطـلال بـبـرقـة ثـمـهـد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

ـ قصيدة زهير بن أبي سلمى، وهي ثلاثة وستون بيتاً على البحر الطويل، معظمها

(١) الزوزني: ص٦٩، ٧٤ ـ ٧٦. الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم: شرح المعلقات السبع الطوال الجاهليات: ص١٥.

(٢) فارس: ص١٦٩.

(٣) اختلف الرواة في عدد المعلقات بين ست وعشر، ولكنهم متفقون على خمس هي: معلقات امرئ القيس وطرفة وزهير ولبيد وعمرو بن كلثوم، واختلفوا في قصائد النابغة والأعشى وعنترة، ومنهم من أضاف قصيدة عبيد بن الأبرص إليها. انظر: علي: جـ٩ ص٥٠٩ ـ ٥١١.

في الغزل والأطلال، والرحيل، ومدح هرم بن سنان والحارث بن عوف، والتحذير من الحرب، ومطلعها:

أمـن أمِّ أوفـى دمـنـةٌ لـم تـكـلـم بِـحَـوْمـانـة الـدارج فـالـمـتـثـلـم

ـ قصيدة عنترة، وهي أربعة وثمانون بيتاً على البحر الكامل، تضمَّنت قضية حبه وسواد لونه، والوقوف على الأطلال، وعبلة، والناقة، وأعماله العسكرية، وتبدأ بهذا البيت:

هـل غـادر الـشـعـراء مـن مـتـردم أم هـل عـرفـت الـدار بـعـد تـوهـم

ـ قصيدة عمرو بن كلثوم، وهي مائة وستة أبيات على البحر الوافر، تناولت الدفاع عن بني تغلب، والفخر بأيامهم، والخمر، والحبيبة، وقد بدأها بقوله:

ألا هـبِّي بـصـحـنـك فـاصـبـحـيـنـا ولا تُـبـقـي خـمـور الأنـدريـنـا

ـ قصيدة لبيد بن ربيعة، وهي ثمانية وثمانون بيتاً على البحر الكامل، تناولت الأطلال والغزل وذكر محبوبته نوار، ووصف الناقة، واللهو والشرب، وسرعة الجواد، والكرم، ومدح قومه والافتخار بهم، ومطلعها:

عـفـت الـديـار كـلـهـا فـمـقـامـهـا بِـمِـنـيَّ تـأبـد غـولـهـا فـرجـامـهـا

ـ قصيدة الحارث بن حلزة، وهي أربعة وثمانون بيتاً على البحر الخفيف، تناولت الرد على عمرو بن كلثوم، وذكر مفاخر بني بكر، والغزل، والرحيل، والرد على بني تغلب، ومطلعها:

آذنـتـنـا بـبـيـنـهـا أسـمـاء رُب ثـاو يُـمـلُّ مـنـه الـثـواء[1]

تسميتها: يرى بعض الأدباء وأهل الأخبار أن العرب كلفت بقصائد خاصة من الشعر الجاهلي وفضَّلتها على غيرها، وعمدت إلى سبع قصائد، تخيَّرتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة، وعلَّقتها على أستار الكعبة، فمنه يقال: مذهَّبة أمرئ القيس، ومذهبة زهير، والمذهبات سبع، ويقال لها المعلقات[2].

وذكر ابن خلدون أن العرب كانوا يعلقون أشعارهم بأركان البيت، كما فعل أصحاب المعلقات السبع، وإنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر، على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات[3].

---

(١) التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب: شرح القصائد العشر: ص٤٥.

(٢) ابن عبد ربه: جـ٥ ص٢٦٩. ابن خلدون: جـ١ ص٥٠٩. السيوطي: جـ٢ ص٤٨٠. ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: جـ١ ص٩٦.

(٣) تاريخ ابن خلدون: جـ١ ص٥٠٩.

ويبدو من عبارته أن الذي عُلِّق هو أكثر من هذه السبع، ولعله يرى أن هذه السبع أنفس وأروع ما عُلِّق.

وسميت قصائد المعلقات باسم القصائد المشهورة بفعل أن حماداً الراوية حين رأى صدوف الناس عن الشعر وزهدهم فيه جمع لهم هذه القصائد السبع وقال: هذه هي المشهورات[١].

وسُمِّيَت المعلقات أيضاً بالسبع الطوال لأنها أطول قصائد الشعر العربي الجاهلي.

ومعنى المعلقات أيضاً المنتخبات، وإنما سُميت بهذا الاسم تشبيهاً لها بالقلائد التي تُعلق في النحور بفعل أن من أسمائها السموط، ومن معاني السموط القلائد، ومن السمط جاءت فكرة تعليق المعلقات.

ونعت الأدباء هذه القصائد بأن كل قصيدة منها وكأنها خيط من اللؤلؤ منظوم يتلو بعضه بعضاً، وأن العرب كانت تُسمي القصائد الطويلة الجيدة بالمعلقات والمسمطات، ويذكر علماء اللغة والشعر أن المسمط من الشعر أبيات تجمعها قافية واحدة مخالفة لقوافي الأبيات، ويُقال قصيدة مسمطة شُبِّهت أبياتها المقفاة بالسموط[٢].

---

(١) ابن سلام: ص٢٣.

(٢) ابن منظور: جـ٧ ص٣٢٢، ٣٢٣.

الفصل السابع

النثر

تمهيد

يراد بالنثر ذلك الفن الأدبي الجميل الذي يهدف به صاحبه إلى التأثير في نفوس السامعين، وهو من أجل ذلك يعتمد على حسن الصياغة، وجودة السبك، ونضارة الخيال، وجمال الأداء ما يخلب الألباب ويستهوي القلوب.

وهو أنواع: منه ما يكون قصصاً، ومنه ما يكون خطابة، ومنه ما يكون رسائل أدبية مكتوبة، ويُعبر عن هذا الأخير باسم النثر الفني.

لا يوجد بين أيدينا وثائق صحيحة تدل على أن الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها، إنما كان عندهم صحيفة، تحتوي على بعض الأمثال والحكم مما كانوا ينسبونه إلى لقمان[1]، غير أن ذلك لا يدل على أنهم استعملوا الكتابة في التعبير عن وجدانهم نثراً وشعراً، فقد كانت محدودة الانتشار بينهم، لكن وُجدت عندهم ألوان مختلفة من القصص والخطابة والأمثال وسجع الكهان، وقد شُغِفوا بالقصص، وكانوا يقومون بسردها خلال مسامراتهم في مضارب خيامهم.

والواقع أن القُصَّاص أضفوا على قصصهم نغمة من خيالهم وفنهم وأسلوبهم الأخَّاذ في السرد القصصي، فملكوا قلوب سامعيهم. وكانوا يستمدون مادتها من الأساطير والخرافات السائرة المتنقلة بين الأمم، ومن الأخبار والأحاديث الخرافية والتاريخية المأثورة عن العرب وعمن جاورهم، وعلى الرغم من أننا لا نملك شيئاً من أصول هذا القصص، غير أن اللغويين والرواة في العصر العباسي، دوَّنوا ما انتهى إليهم منه.

إن أكثر ما كان يتناقله العرب الجاهليون على ألسنتهم أيامهم وحروبهم، وانتصارات أبطالهم، وما مُنيت به بعض قبائلهم من هزائم بالإضافة إلى قصص عن ملوك المناذرة والغساسنة والحِميريين والزباء مما حفظته لنا كتب التاريخ والسيرة النبوية وكتاب الأغاني، وكان يخالف الواقع التاريخي أحياناً، على نحو ما هو

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: جـ٢ ص١٧٥.

معروف عن قصة الزباء، التي لا تتفق في شيء مع وثائق التاريخ الروماني، حتى إن اسمها وهو زنوبيا حُرِّف إلى الزباء[1].

وقصَّ العرب الجاهليون، كذلك، القصص عن ملوك الأمم المجاورة لهم أو التي عرفوها وتعاملوا معها مثل الفرس، وأحاديث رستم وإسفنديار[2]، مما تسرَّب إليهم. وتسرَّبت إلى قصص الحب عناصر من حكايات العشق الشائعة عند الأمم الأجنبية، مثل تعرُّف أحد العاشقين على الآخر عن طريق الخاتم، وما يماثل ذلك في بعض الخرافات عن الحيوانات التي يلتقون فيها بخرافات الأجانب، مثل خرافة الحية والفأس وهي من أمثال العرب المشهورة[3].

وقصَّ الجاهليون كثيراً عن الجن والعفاريت والشياطين، وزعموا أنها تتحول في أي صورة شاءت إلا الغول، فإنها دائماً تبدو في صورة امرأة عدا رجليها التي لا بد أن تكونا رجلي حمار.

لقد تباينت آراء الأدباء بشأن وجود النثر الجاهلي، فرأى فريق منهم أن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أولية لم تتطلب النثر الفني لأنه لغة العقل، وقد تسمح بالشعر لأنه لغة العاطفة[4]، ومن بين هؤلاء طه حسين الذي رأى أن هذا النثر وُضع في العصر الأموي وبداية العصر العباسي لأغراض سياسية ودينية وغيرها[5]. ورأى فريق آخر أنه كان للعرب نثر فني لكنه ضاع في غياهب الزمن واندثر، وحجتهم أن النثر كان موجوداً عند أكثر الأمم التي جاورتهم أو عرفوها، كالفرس والهنود والمصريين واليونان، ومن غير المعقول أن يكون لها نثر فني قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون ثم لا يكون للعرب نثر فني بعد الميلاد بخمسة قرون، وكأن العرب انفردوا في التاريخ القديم بالتخلف في ميادين العقل والمنطق والخيال[6].

الواقع أننا لا نستطيع تأييد وجود النثر الفني الجاهلي بالمطلق لأننا نفتقر إلى النص الصحيح، كما لا يمكننا أن ننفي وجوده بالكلية لأننا نظلم بذلك أمة عُرفت بالمنطق الصائب والحجة القوية بإجماع الثقات والمؤرخين، ولا بد من وجود بقية من آثار في

(١) ربما جاء هذا التحريف من أن أباها كان يُدعى زباي فنسبوها إليه وقالوا بت زباي، ومع مرور الزمن حذفوا كلمة بت وأبدلوا الياء بالهمزة وأدخلوا على الاسم أداة التعريف فأصبحت الزباء. انظر: الفصل السادس عشر.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ج٢ ص٣٨، ٣٩.

(٣) الضبي: أمثال العرب: ص١٠٦.

(٤) مبارك، زكي: النثر الفني في القرن الرابع: ص٣٣.

(٥) من حديث الشعر والنثر: ص٢٥.

(٦) مبارك: ص٣٤.

بعض ما نقله القدماء من خطب ومواعظ وأمثال ووصايا، وفي ما صنعته تلك الآثار من رجال فصحاء وخطباء مفوَّهين مما استدعته حياتهم واقتضتها طبيعتهم[١].

فنون النثر

الخطابة

هي الكلام النثري الذي يلقيه الخطيب في مجتمع من الناس ليقنعهم برأيه أو يوجههم إلى ما يرى، وتتجلَّى من خلال أنشطة الفكر والثقافة.

تتصف الخطابة بخصائص تتعلَّق بأسلوبها وبنيتها؛ أي باستخدام الوسائل اللغوية وبالعلاقة بين وسائل التفاهم اللغوية والرديفة، وهي على أنواع:

الخطابة السياسية، والخطابة الاجتماعية، والخطابة الدينية والخطابة العلمية، وعرف العرب منها النوعين الأولين بالإضافة إلى بعض العظات والتوجيهات[٢]، وهي تُمثل بدلالاتها التاريخية صورة صادقة مرتبطة بالواقع السياسي والاجتماعي العربي في مرحلته الجاهلية.

تُمثل الخطابة في العصر الجاهلي ظاهرة فكرية وفنية هي نفسها التي يُمثلها الشعر، كما تحمل الدلالات التاريخية نفسها. فوظيفة الخطيب كما وظيفة الشاعر الدفاع عن القبيلة وهو الناطق باسمها، غير أن فريقاً من خطباء الجاهلية في مرحلتها الأخيرة، مثل قس بن ساعدة الأيادي، اتخذ منحى مختلفاً عن النهج التقليدي للخطابة؛ أي توظيفها لخدمة علاقة القبيلة الواحدة الضيقة، إذ برز في تلك الخطب الجديدة منحىً مع القضايا الاجتماعية، وإثارة التأمل في المسائل السلوكية والكونية، وهي مسائل أوسع وأشمل من العلاقة القبلية، ما أحدث تغيراً في المعالم الثقافية تمثَّلَت في تقدم منزلة الخطيب على حساب منزلة الشاعر، قال أبو عمرو بن العلاء: «كان الشاعر في الجاهلية يُقدَّم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يُقيِّد عليهم مآثرهم، ويُفخِّم شأنهم، ويُهوِّل على عدوهم ومن غزاهم، ويُهيِّب من فرسانهم ويُخوِّف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم، فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة، ورحلوا إلى السوقة، وتسرَّعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر»[٣].

تتميز الخطابة بقصر الخطب وبعباراتها الموجزة الواضحة والمؤثرة في النفوس والتي كثيراً ما تتخذ طابع المثل، وغلبة السجع فيها، وأفكارها الواضحة المستوحاة

---

(١) فارس: ص٢٨٥، ٢٨٦.
(٢) المرجع نفسه: ص٢٨٦، ٢٨٧.
(٣) الجاحظ: البيان والتبيين: ص١٣٣، ١٣٤.

من التجربة مع بعض النظرات العميقة إلى الحياة والكون؛ ليسهل على الناس تناقلها، وشيوعها، ولكنها لا ترقى إلى مستوى التفكير الفلسفي والتجريد[1].

ولعل الأسباب الرئيسة التي دفعت العرب الجاهليين إلى الاهتمام بهذا اللون من الكلام وبالتالي إلى ازدهار الخطابة، تكمن في ما كانوا يواجهونه من أحداث النزاعات والخصومات، والدعوة إلى الحرب تارة وإلى السلم تارة أخرى، وإلى الصلح، والمفاخرات والإصلاح والمواعظ والإرشاد، فكانوا يتخذون من مجالسهم في مضارب خيامهم ومن أسواقهم ومن ساحات الأمراء ووفادتهم عليهم، ميادين لإظهار براعتهم وتفننهم في المقال والكلام، وساعدتهم ملكاتهم البيانية وما فُطروا عليه من بيان وفصاحة وحضور وبديهة وخلابة لسان. يقول الجاحظ في هذا الصدد: «وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام... عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً... وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر... من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب»[2].

قال أبو زبيد الطائي في معرض الحرب والقتال:

وخطيب إذا تمصَّرت الأو ... جه يوماً في مأقِط مشهور[3]

وقال عامر المحاربي في مديح قومه:

وهم يدعمون القول في كل موطن ... بكل خطيب يترك القوم كظَّما
يقوم فلا يعيا الكلام خطيبنا ... إذا الكرب أنسى الجبس أن يتكلما

وقال ربيعة بن مقروم الضبي في معرض الدعاء إلى الصلح وإصلاح ذات البين:

ومتى تقم عند اجتماع عشيرة ... خطباؤنا بين العشيرة يُفصل[4]

وكان العرب الجاهليون يوفدون الخطباء كسفراء إلى القبائل والملوك والأمراء للتهنئة أو للتعزية، أو لحل الخلافات، إذ يقف رئيس الوفد بين يدي الأمير، فيجيبه متحدثاً بلسان قومه. وفي السيرة النبوية وفي كتب الأدب والتاريخ ما يُصور جانباً من هذه الوفود. ففي عام الوفود أرسلت كثير من القبائل وفوداً إلى الرسول ﷺ لإعلان

(١) دلو: جا ص٢٦٦.
(٢) البيان والتبيين: ص٤٠٤، ٤٠٥.
(٣) تمصَّرت الأوجه: تغيرت واصفرَّت. المأقِط: موضع القتال.
(٤) الأصفهاني: ج١٩ ص٩٣.

إسلامها، فكان يقوم خطيب الوفد بين يديه متحدثاً، ويرد عليه خطيب الرسول ﷺ، وكان ذلك سُنَّة شائعة بينهم في الجاهلية حين يفدون على الأمراء أو من له رئاسة وسيادة. قال أوس بن حجر يرثي فضالة بن كلدة:

أبا دليجة من يكفي العشيرة إذ أمسوا من الخطب في نار وبلبال
أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا لدى الملوك ذوي أيْد وأفضال[(١)]

وقد ينبري الخطباء في الأسواق الموسمية الكبيرة ينصحون قومهم ويرشدونهم، على نحو ما هو معروف عن قس بن ساعدة الأيادي وخطبته في سوق عكاظ، وربما نصح الخطيب عشيرته وقومه الأقربين كبعض ما يُروى عن عامر بن الظرب وأكثم بن صيفي. وكان من عادة العرب في الزواج أن يتقدم عن الخاطب سيد من عشيرته، يخطب باسم الفتاة التي يريد الاقتران بها، كما في خطبة أبي طالب السيدة خديجة للرسول ﷺ[(٢)].

وقد تعارف خطباؤهم على بعض العادات والتقاليد أثناء خطبهم، فكانوا يخطبون على رواحلهم في الأسواق العظام والمجامع الكبار، وقد لاثوا العمائم على رؤوسهم علامة المكانة والمنزلة عند الجاهليين، ويمسكون بالعصي والمخاصر والقضبان والقنا والقسي راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض، وأشار لبيد إلى ذلك بقوله:

ما إن أهاب إذا السرادق عمَّه قرع القسي وأرعش الرعديد[(٣)]

وكان الجاهليون يؤثرون في الخطيب أن يكون جهير الصوت، شديد التأثير في نفوس سامعيه، فيجعلون منه لسانهم الناطق باسمهم، ويعيبون عليه التنحنح والارتعاش والحصر والتعثر في الكلام. يقول النمر بن تولب:

أعذني ربِّي من حصر وعيٍّ ومن نفس أعالجها علاجا[(٤)]

وذموا في الخطيب أن يُكثر من مسِّه لذقنه وشواربه ولحيته، وكأنما رأوا في ذلك ضرباً من الخرق في استخدام الجوارح. يقول معن بن أوس المزني في بعض هجائه:

إذا اجتمع القبائل جئت رِدفاً وراء الماسحين لك السِّبالا[(٥)]
فلا تُعطى عصا الخطباء فيهم وقد تُكفى المقادة والمقالا[(٦)]

ونحا فريق من خطباء العرب، ممن تأثر بالمؤثرات الثقافية التي كانت سائدة في

---

(١) ديوان أوس بن حجر: ص١٠٣.
(٢) السهيلي: الروض الأنف: جا ص٢١٣.
(٣) الجاحظ: ص١٩٤، ١٩٥.
(٤) المصدر نفسه: ص١٧.
(٥) السِّبالا: مقدم اللحية.
(٦) الجاحظ: ص١٩٥.

الجاهلية القريبة من ظهور الإسلام؛ منحى الكهان في استخدام الخطابة طريقة للوعظ والنصح والإرشاد والتفكر في أمور الكون والمجتمع والأخلاق والسلوك، وقد ساعدهم على ذلك معرفتهم القراءة والكتابة باللغات العربية والعبرية والسريانية، واطلاعهم على العهدين القديم والجديد، وتدارسهم فيهما، واتصالهم بالرهبان والمبشرين داخل الجزيرة العربية وخارجها، فدعوا قومهم إلى دين التوحيد ونبذ عبادة الأصنام وتعدد الآلهة، لذلك غلبت في خطب هذا الفريق من الخطباء الحنفاء العبارات القصار ذات الوقع السريع الإثارة بنبرتها البلاغية المشدودة إلى نهايات مسجعة متوازنة وبكثافتها التعبيرية ذات القدرة على التأثير في نفوس السامعين(١)، ولعل أفضل ما يمثل هذا النوع من الخطب ما يُنسب إلى قس بن ساعدة الأيادي(٢)، والمعروف أن قساً هذا هو من أشهر خطباء الجاهلية، عاش في المرحلة القريبة من ظهور الإسلام(٣)، وكان من حكام العرب، ويرى معظم الإخباريين أنه كان على دين الحنيفية التوحيدي(٤).

ويُعِدُّ أكثم بن صيفي حكيماً عند العرب وقاضياً، أدرك بعثة النبي ﷺ(٥) ودعا إلى الإيمان به، واشتهر بحكمته حتى ضُرب بها المثل. وتذكر كتب الأدب أسماء عدد من الخطباء، إلى جانب قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي، اشتهروا بقوة بيانهم وبسحر كلامهم وشدة تأثيرهم في نفوس السامعين، من بينهم كعب بن لؤي، الجد السابع للنبي ﷺ وهو من أقدم خطبائهم، وكان يخطب على العرب بعامة ويحض كنانة بخاصة على البر، ولما مات أكبروا موته، وأرَّخوا به إلى عام الفيل(٦). ومن الخطباء الذين اشتهروا في الجاهلية، قيس بن خارجة، خطيب داحس والغبراء، وخويلد بن عمر الغطفاني، خطيب يوم الفجار، وعامر بن الظرب العدواني، سيد بني عدوان وحكيم العرب في الجاهلية(٧)، وهانئ بن قبيصة الشيباني، خطيب يوم ذي قار وهو أحد زعماء بني بكر، وقد حثَّ قومه على قتال الفرس(٨).

الأمثال

المثل قول محكي سائر يُقصد منه تشبيه حال الذي حُكي فيه بحال الذي قيل

---

(١) دلو: جـ١ ص٢٧١.

(٢) انظر نص خطبته التي ألقاها في سوق عكاظ عند الأصفهاني: جـ١٥ ص٢٤٦، ٢٤٧. الجاحظ: ص١٦٣.

(٣) توفي عام (٢٣ق.هـ/ ٦٠٠م).

(٤) الألوسي: جـ٣ ص١٥٥.

(٥) توفي عام (٩هـ/ ٦٣٠م).

(٦) ابن الأثير: جـ١ ص٦٢٦.

(٧) المحبر: ص٢٠٣.

(٨) ابن عبد ربه: العقد الفريد: جـ٥ ص٢٦٣، ٢٦٤.

لأجله، وهو مقتضب من أصله أو مرسل بذاته، فيتسم بالقبول، ويشتهر بالتداول، فينقل عما ورد فيه إلى كل ما يصح قصده به من غير تغيير يلحقه في لفظه، وعما يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني، فلذلك يُضرب، وإن جهلت أسبابه التي خرج عليها، وهو نابع من البيئة، ومن صميم الحياة الإنسانية، والنشاط العملي والاختبارات الطويلة. والأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام وبها كانت تبلغ ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خصال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وقد ضربها النبي ﷺ وتمثل بها هو والسلف من بعده[(١)]. وقد تخيَّرتها العرب، ونُطق بها في كل زمان وعلى كل لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، ولا عمَّ عمومها، حتى قيل: أسْير من مثل[(٢)].

والواضح أن ثقافة كهذه لا تتجاوز درجة تطورها المرحلة المحكية والتعبير الشفهي، هي ثقافة تجد في الأمثال أبسط أشكالها وأيسر أدواتها. وتجمع الأمثال بين خصوصيتين:

الأولى: إنها تعبير مكثَّف عن حادثة منفردة أو حالة جزئية.

الثانية: إنها تحويل للعبارة الواقعية إلى رمز، وتحويل للحادثة والحالة من واقعهما المنفرد أو الجزئي إلى دائرة العام والكلي.

وتحمل الأمثال عبرهما علامات ودلالات تاريخية للكثير من التفاصيل عن نوعية الحياة الاجتماعية بمختلف مظاهرها، وعن نوعية الوعي الاجتماعي بكل أشكاله، وعن أنشطة العرب الاقتصادية والثقافية[(٣)].

إن أمثال الجاهلية العربية المتصلة بالإسلام تتضمَّن كل ذلك على الرغم من اختلافها باختلاف البيئة ونمط الحياة ومستوى الثقافة بين البدو والحضر، فهي تُعبِّر عن نظرة الجاهليين إلى شؤون حياتهم اليومية، وما يتخلَّلها من أحداث، كما تُعبِّر عن نظرتهم إلى القضايا والمشكلات البشرية، مثل الحياة والموت، والسلم والحرب، والسلوك الاجتماعي والأخلاقي، والتعامل بين الناس، والتحالف والولاء، والتخاصم، وأشكال التجارب مع واقع حياتهم وظروف عيشهم[(٤)]، وهي ذات دلالات معرفية ثقافية من حيث أنها تُعبِّر عن نوعية المعارف عن الطبيعة والمجتمع والفكر لدى الجاهليين، مثل قولهم:

«أبقى من النسرين»[(٥)]: هما نجمان ثابتان يُسمى أحدهما النسر الطائر والآخر

---

(١) ابن عبد ربه: جـ٣ ص٦٣.
(٢) السيوطي: المزهر: جـ١ ص٤٨٦، ٤٨٧.
(٣) مروة: جـ١ ص٢٨٠، ٢٨١.
(٤) المرجع نفسه: ص٢٨١.
(٥) الميداني، أبو الفضل النيسابوري: مجمع الأمثال: جـ١ ص١١٩.

النسر الواقع، يتخذون من ثباتهما مثلاً للبقاء والخلود، وهذا شكل من المعرفة المتعلقة بالظواهر الكونية.

«إياكم وخضراء الدمن»[١]: خضرة الدمنة ما ينبت من العشب في المزبلة. فخضراء الدمن جمال ظاهر يخفي قذارة المنبت. ويعني المثل التحذير من الانخداع بالظاهر الحسن عن الباطن السيء، وينم المثل عن المعرفة بالنبات، وتعميم هذه المعرفة على شكل قاعدة اجتماعية.

«بيتي يبخل لا أنا»[٢]: قالته امرأة سُئِلت شيئاً تعذَّر وجوده عندها، فقيل لها: بخلت، فقالت: بيتي يبخل لا أنا. وهذا يعني أن البخل لا يأتي من طبيعة المرء بل من ضيق ذات اليد، وهذه نظرة اجتماعية.

«الخلة تدعو إلى السلة»[٣]: الخلة: الفقر، والسلة: السرقة. يعني أن الفقر يدعو إلى دناءة الكسب، وهذه نظرة اجتماعية متقدمة.

«ما كل بيضاء شحمة ولا كل سوداء تمرة»[٤]: يُضرب في موضع التهمة، ويُعبِّر عن أن التشابه بين الأشياء في بعض ظواهرها لا يعني التوافق في سائر خصائصها، ولهذا المثل دلالة معرفية هامة.

وهناك صنف من الأمثال يحمل دلالات أرقى من تلك، في الحقل الثقافي، تُعبِّر عن مدلولاتها بطريقة المجاز الفني، مثال ذلك:

«لو ذات سوار لطمتني»[٥]: يُضرب للكريم يظلمه دنيء فلا يقدر على احتمال ظلمه.

«جاء بقَرْنَيِّ حمار»[٦]: تعبير عن ادعاء المستحيل؛ أي: إذا جاء بالكذب والباطل.

«صرَّح المحض عن الزُّبْد»[٧]: يُقال للأمر إذا انكشف وتبين، تعبيراً عن أن التجربة ميزت الصحيح من الزائف؛ أي: كشفت عن الحقيقة.

وتُخفي بعض الأمثال المعنى المراد منها، ولا يُفهم إلا بالعودة إلى كتب الأمثال، من ذلك قولهم: «بعين ما أرينَّك»[٨]، يُضرب في الحثِّ على ترك البطء، وهو معنى لا يتبادر إلى السامع من ظاهر اللفظ. ومن الأمثال لا تتغير مع المفرد والمثنى والجمع، المذكر والمؤنث، من ذلك «الصيف ضيَّعتِ اللبن» يُضرب هذا المثل لمن يطلب حاجته بعد فوات أوانها.

وتدخل طائفة كبيرة من الأمثال في الصياغة الجاهلية البليغة لما تشتمل عليه من

---

(١) الميداني: جا ص٣٢.
(٢) المصدر نفسه: ص٩٢.
(٣) المصدر نفسه: ص٢٤١.
(٤) المصدر نفسه: ج٢ ص٢٨١.
(٥) المصدر نفسه: ص١٧٤.
(٦) المصدر نفسه: جا ص١٦٦.
(٧) المصدر نفسه: ص٤٠٥.
(٨) المصدر نفسه: ص١٠٠.

حسن التشبيه وجودة الكناية، ويشعر القارئ بجمال الصياغة. فقد يعمد صاحب المثل إلى ضرب من التنغيم الموسيقي للفظه، فإذا هو يسجع فيه، ويُنظمه أحياناً شطراً من بيت شعر، وقد يعمد إلى شيء من الخيال ليُجسِّم المعنى ويزيده حدة وقوة، من ذلك:

«تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها»(١): أي: لا تكون ظئراً وإن آذاها الجوع.

«المرء بأصغريه»(٢): يعني بهما القلب واللسان.

«من استدعى الذئب ظلم»(٣): أي: ظلم الغنم، يُضرب لمن يولِّي غير الأمين.

«وقد يأتيك بالأخبار من لم تُزوِّد»(٤).

وتُثار هنا أيضاً إشكالية صحة نسبة الأمثال إلى الجاهليين. والراجح أن طائفة كبيرة مما روته كتب الأمثال يتحتم أن يكون جاهلياً على الرغم من أن الذين سطَّروا هذه الأمثال لم يُفردوا ما هو جاهلي منها عما هو إسلامي، ما أدَّى إلى اختلاطها في الوقت الذي نُسب الكثير منها إلى الجاهلية في مرحلة التدوين التي بدأت منذ أواسط القرن الأول الهجري، ومع ذلك قد يورد أصحاب كتب الأمثال مع ذكرها إشارات تدل على جاهليتها:

كأن يسوقوا مع المثل قصة جاهلية تُفسره، كتلك الأمثال التي نقرؤها في قصة الزباء، من ذلك: «لا يطاع لقصير أمره»(٥) و«لأمر ما جدع قصير أنفه»(٦).

أو أن يسوقوا المثل أثناء قصة جاهلية، كتلك التي حدثت مع النعمان الأول ابن امرئ القيس اللخمي عندما ابتنى قصراً له يُسمى الخورنق، بناه له رومي يُسمى سِنِمَّار، فلما أتمه قال للنعمان: إني أعرف موضع أجرة لو زالت لسقط القصر كله، فقال له النعمان: أيعرفها أحد غيرك؟ فقال: لا. فقال: لا جرم لأدعنها وما يعرفها أحد. ثم أمر به فرُمي من أعلى القصر إلى أسفله فتقطع، فضرب به الجاهليون المثل فقالوا: «جزاء سِنِمَّار»(٧).

أو أن ينسبوا المثل إلى الجاهليين، فحينئذ يتعين زمنه وتاريخه(٨).

واشتهر كثير من الجاهليين بالحكمة والأمثال السائرة، فمنهم من يُعرف في القدم مثل لقمان عاد، وهو غير لقمان المذكور في القرآن الكريم، وتذكر الأسطورة أنه عاش عمر سبعة نسور، وأن كل نسر منها عاش ثمانين سنة، وكان لُبَد آخرها، وبه

---

(١) الميداني: جـ١ ص١٢٢.
(٢) المصدر نفسه: جـ٢ ص٢٩٤.
(٣) المصدر نفسه: ٣٠٢.
(٤) شطر بيت لطرفة.
(٥) الميداني: جـ٢ ص٢٣٨.
(٦) المصدر نفسه: ص١٩٦.
(٧) المصدر نفسه: جـ١ ص١٥٩، ١٦٠. وقارن بما جاء في صفحة ٢٠١ من هذا الكتاب.
(٨) ضيف: ص٤٠٨، ٤٠٩.

ضربوا المثل في طول العمر فقالوا: «طال الأبد على لُبَد»[1]، ويُروى له مثل: «رب أخ لم تلده أمك»[2].

ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء: أكثم بن صيفي التميمي، وربيعة بن حُذار، وهرم بن قطبة، وعامر بن الظرب العدواني، ولبيد بن ربيعة، وتدور على ألسنتهم حكم وأمثال كثيرة، وتجري على لسان الأول أمثال منها: «رب عجلة تهب ريْثاً»[3]، «ادَّرِعوا الليل فإن الليل أخفى للويل»، «أسرع العقوبات عقوبة البغي».

وكان عامر بن الظرب العدواني حكيماً، تحتكم إليه العرب، وافتخر ذو الأصبع العدواني بذلك فقال:

ومنهم حكم يقضي فلا يُنقض ما يقضي[4]

وتُنسب إليه حكم ووصايا كثيرة لقومه.

إن أكثر أمثال وحكم العرب مجهولة المصدر لأنها تنبعث غالباً من أناس مجهولين من عامة القبائل ممن لا يحفل الناس بهم.

سجع الكهان

هذا معلم ثقافي لا يصح استبعاده عن ساحة البحث في الثقافة العربية الجاهلية، وهو متصل ومتداخل ومتفاعل مع سائر المعالم الثقافية الجاهلية. والكهانة بكل ما تعنيه من ادعاء الغيب إنما تُعبِّر عن مرحلة تاريخية للوعي في أولى مراحل تطوره ضمن السياق العام للتطور الاجتماعي والديني، ومن الطبيعي أن يكون لعرب الجاهلية هذا الشكل من أشكال الوعي بفعل انقطاع النبوة فيهم.

والكهان هم الطائفة المتعلمة والمستنيرة في المجتمع، يلجأ الناس إليهم في كل شؤونهم، وقد يتخذونهم حكاماً في خصوماتهم ومنافراتهم على نحو ما كان من منافرة هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس واحتكامهما إلى الكاهن الخزاعي، وقد نفَّر هاشماً على أمية[5]. وكانوا يستشيرونهم ويعملون بمشورتهم في كثير من شؤونهم، عند استبهام أمر أو افتقار ضالة من متاع أو مال، أو وفاء زوجة، أو قتل رجل، أو نحر ناقة، أو إعلان حرب، أو إحجام عن نصرة أحلاف، أو التنبوء بحدوث وقوع كارثة أو حدوث غزو، أو تعبير رؤى وأحلام.

كانت منزلة الكهنة في الجاهلية كبيرة ويخدم أكثرهم في بيوت الأصنام والأوثان[6]،

---

(١) الميداني: جا ص٤٢٩، ٤٣٠.
(٢) المصدر نفسه: ص٢٩١.
(٣) المصدر نفسه: ص٢٩٤.
(٤) الأصفهاني: ج٣ ص٩٠.
(٥) البلاذري: أنساب الأشراف: جا ص٦٨.
(٦) انظر فيما يتعلق بالفرق بين الصنم والوثن في الفصل الثاني عشر.

فتمتعوا بالقداسة الدينية، إذ كان الناس يعتقدون أنه يوحى إليهم، ما جعل نفوذهم يتجاوز قبائلهم إلى القبائل الأخرى المجاورة، ومن ثم كان الناس يقصدونهم من أماكن بعيدة.

من أشهر الكهان: سطيح بن ربيعة الذئبي، وشق بن مصعب الأنماري، وقد نسجت مخيَّلة القصّاص ورواة الأخبار حولهما صوراً طريفة أخرجتها من عالم الواقع إلى عالم الخيال(١). ومن كهانهم المشهورين المأمور الحارثي، كاهن بني الحارث بن كعب(٢)، وسواد بن قارب الدوسي وقد أدرك الإسلام ودخل فيه(٣)، وخنافر الحميري الذي زعم أنه أسلم بمشورة رئيه شِصار(٤)، وعُزَّى سَلِمة بن أبي حية(٥). ومن كاهناتهم: طريفة وكانت باليمن، وفاطمة الخثعمية وكانت بمكة، والشعثاء، وزبراء كاهنة بني رئام، وكاهنة ذي الخُلصة، والكاهنة السعدية، والزرقاء بنت زهير والغيطلة القرشية(٦).

اعتمد الكهان والكاهنات في الجاهلية. السجع في كلامهم، على غرار خطاباتهم وأمثالهم، وكانوا يعمدون إلى ألفاظ غامضة ومبهمة لكي يؤوِّلها السامعون حسب فهم كل منهم وظروفه، ومن ثم دخل الرمز في كثير من أقوالهم، إذ يومئون إلى ما يريدون إيماء، وقلَّما صرَّحوا أو وضَّحوا، والواقع أن تنبؤهم يقوم على الإبهام والوهم واختيار الألفاظ التي تخدع السامع بوجوه متعددة، ما يضفي على أسجاعهم عدم وضوح الدلالة والاختلاف والتأويل فيها(٧).

وتثار هنا أيضاً إشكالية صحة نسب سجع الكهان إلى الجاهليين نظراً لبُعد المسافة الزمنية بين العصر الجاهلي وعصر التدوين، إذ من الصعب أن يُروى بنصه وقد مضى عليه نحو قرنين من الزمان.

كان عُزَّى سَلِمة أكهن العرب وأسجعهم، ومن قوله: «والأرض والسماء، والعُقاب والصَّقعاء، واقعة ببقعاء، لقد نفَّر المجد بني العُشراء للمجد والسناء». ويُروى أن زبراء أنذرت قومها بني رئام بغارة عليهم فقالت: «واللوح الخافق والليل الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمُزن الوادق، إن شجر الوادي ليأدو خَتْلا، ويَحرُق أنياباً عُصْلاً، وإن صخر الطَّوْر ليُنذر ثُكْلاً، لا تجدون عنه مَعْلاً»(٨).

---

(١) القزويني، زكريا بن محمد بن محمود: آثار البلاد وأخبار العباد: جا ص١٧١.
(٢) ابن دريد: الاشتقاق: ص٢٦٩.
(٣) ابن هشام: جا ص٢٤٢، ٢٤٣.
(٤) القالي، أبو علي: الأمالي: جا ص١٣٤.
(٥) الجاحظ: ص١٨٩.
(٦) ابن هشام: جا ص٢٣٨ ـ ٢٤٠.
(٧) ضيف: ص٤٢٣.
(٨) القالي: جا ص١٢٦، ١٢٧.

وبفعل وجود السجع في العصر الجاهلي، فقد أُشكل الأمر على بعض قريش في أول نزول القرآن الكريم، فقرنوه بسجع كهنتهم[1]، وردَّ عليهم القرآن الكريم بقول الله ﷻ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة/٤٢]. وقال ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور/٢٩].

القصص

القصص مظهر بن مظاهر الفكر الجاهلي، وهو معلم من معالم الثقافة العربية في العصر الجاهلي على أساس أن العرب آنذاك كانت لهم قصص كغيرهم من الشعوب الأخرى، كما تؤكد ذلك نصوص عديدة رواها الإخباريون، وتتعلق بالعبرة والنوادر والنكات، ومن القصص، قصص الملوك والأبطال وسادات القبائل، والأيام، وقصص عن الأسفار ومشقات السفر، وقصص خيالية تحوَّلت إلى أساطير.

ويتعرَّض القاص للمقت لما يَعرض في قصصه من الزيادة والنقصان، ومنه الحديث: (إن بني إسرائيل لما قصُّوا هلكوا)، وفي رواية: (لما هلكوا قصُّوا)، أي: اتكلوا على القول وتركوا العمل فكان ذلك سبب هلاكهم، أو العكس: لما هلكوا بترك العمل أخلدوا إلى القصص[2]. ولما نزل القرآن الكريم: «قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا»، فنزلت ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[3] [يوسف/٣] وورد أنهم قالوا له: «يا رسول الله! حدثنا فوق الحديث ودون القرآن، يعنون القصص»، فأنزل الله الآية المذكورة[4]، وفي هذا الإلحاح على رسول الله ﷺ بأن يقص عليهم، دلالة على مدى تفشي هذا النوع من الثقافة في المجتمع الجاهلي ثم الإسلامي في عصر الرسالة، وشدة حب الجاهليين، وإعجابهم به.

تعدَّدت غايات العربي من الاستماع إلى القصص، نذكر منها:

العبرة: وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف/١١١]. ووُجِد في مكة وفي غيرها من المدن قصَّاصون يقصُّون على الناس ويعظونهم، واستمروا على ذلك عند ظهور الإسلام بهدف إثارة العقول إلى أنباء الماضين وأخبارهم، وإثارة تفكيرهم في الظواهر الطبيعية والخلق وشؤون الحياة. قال ﷻ: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ

---

(١) ابن هشام: جـ٢ ص١١، ٣٨. (٢) ابن منظور: جـ٧ ص٧٥.

(٣) ابن كثير، إسماعيل الحافظ عماد الدين أبو الفداء: تفسير القرآن العظيم: جـ٢ ص٤٦٧.

(٤) المصدر نفسه.

أَنبَآئِهَاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف/١٠١]، وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف/١٧٦].

الحكمة: إنه القصص التعليمي، ويشمل قصص الأقوام الماضية وما قاموا به من أعمال الشر فأصابهم الهلاك بسببها، كذلك القصص المروي على ألسنة الحيوانات على قِلَّتها، وقد نجد بقايا منها في كتب الأدب والأمثال، ولكنه من النوع القصير، ويبدو أنه منتزع من قصص قديم فَقَدَ طوله بسبب قِدمه، فبقيت منه هذه البقايا(١). نذكر من بين القصص المروي على ألسنة الحيوانات: قصة النعامة التي ذهبت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين، والقصص الموضوع عن الغراب والضفدع والهدهد والهديل، وغير ذلك مما يميل إليه العامة بفعل ما يتركه من أثر في نفوسهم(٢).

إثارة العصبية: كقصص الملوك والأبطال وسادات القبائل والأيام. ويتبوَّأ قصص الأيام المقام الأول بفعل تأثيره الشديد في العصبية، وهو من أحب القصص إلى نفوس العرب، ويدور حول المعارك العسكرية التي وقعت في الجاهلية بين القبائل العربية، كيوم داحس والغبراء، ويوم الفجار، ويوم الكلاب، أو بين العرب وأمم أخرى، كيوم ذي قار، وكان بين بني شيبان والفرس. وتولَّى القص، قصَّاصون يتمتعون بمواهب خاصة، وقابلية على التأثير في النفوس(٣).

كان هذا القصص موضوع العرب في سمرهم، في جاهليتهم وفي إسلامهم. قيل لبعض أصحاب رسول الله ﷺ: «ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم في مجالسكم؟ قالوا: كنا نتناشد الشعر ونتحدث بأخبار جاهليتنا»(٤).

أخبار المسافرين: يروي أهل الأخبار قصصاً عن الأسفار ومشقاتها، وعن الأهوال التي يتعرَّض لها المسافرون في ذلك العهد من الجن والسعالى والغيلان، وقد ضمَّنوها أبياتاً من الشعر وربما قصائد في وصف تلك المخلوقات المرعبة، وأحياناً يوردون شعراً لها وبلسانها بلغة عربية بيِّنة خلال محاورة الأشخاص الذين

---

(١) علي: جـ٨ ص٣٧٢.
(٢) أمين، أحمد: فجر الإسلام: ص٧٢.
(٣) علي: جـ٨ ص٣٧٣.
(٤) أمين: ص٧٣.

تعرضوا لها، قد تظهر رقة وأدباً فيه، مع ما عُرف عن هذه القوى من الميل إلى الأذى والشر.

ولبعض قصصهم أصل تاريخي لكنه لم يحافظ على نقاوته وأصله، وإنما غلب عليه الخيال والأسطورة، ومن هذا القبيل قصص طسم وجديس، وقصص الزباء، والتبابعة، والأقوام الغابرة[1].

الاستماع إلى النوادر والنكات: النوادر والنكات من القصص المعروف عند أهل الجاهلية، وقد اتخذ الملوك لهم ندماء أغرقوهم في قول النوادر والمُلح والأمور الغريبة المضحكة حتى اشتهر أمرهم بين الناس، فبالغوا في نسبة النوادر إليهم وحوَّلوا بعضهم إلى شخصيات أسطورية، ومنهم من سجلت كتب الأدب والأخبار أسماءهم، منهم سعد المعروف بسعد القرقرة، هازل النعمان بن المنذر ملك الحيرة[2]، ومنهم النعمان بن عمرو بن رفاعة بن الحرث من بني النجار من يثرب.

ولبعض القصص أصول أعجمية دخلت إلى المجتمع العربي من منابع خارجية، يونانية وفارسية ونصرانية، مثل قصة يومي البؤس والنعيم، وقصة شريك مع الملك المنذر اللخمي، وقصة سِنِمَّار، وهو قصص وإن اقترن بأسماء جاهلية إلا أن أصوله غير عربية، وهو من القصص الوارد عند شعوب أخرى[3].

واشتهر من قصَّاص الجاهلية: النضر بن الحارث بن علقمة، وكان من أذكياء قريش وممن آذوا الرسول ﷺ وتحدُّوه وخاصموه، وكان يُحدِّث قريشاً بأحاديث رستم وإسفنديار وما تعلم في بلاد فارس من أخبار، وزعم أن القرآن من صنع محمد وأن باستطاعته أن يأتي بمثله، وقد نزل فيه ثمان آيات من القرآن ومنها قول الله ﷻ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[4] [القلم/ ١٥]، وأسر يوم بدر، أسره المقداد، فأمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه، فضرب علي بن أبي طالب عنقه صبراً بالأُثيِّل، بين بدر ووادي الصفراء[5].

وأدخل تميم بن أوس بن خارجة الداري القصص الديني، وكان نصرانياً لقي النبي، فقصَّ عليه قصة الجسَّاسة والدجَّال، وذُكر أنه أسلم سنة تسع للهجرة. وكان قد قدم مع أخيه نعيم الداري في وفد الداريين على الرسول منصرفه من تبوك[6]،

---

(١) علي: جـ٨ ص٣٨٣. (٢) ابن منظور: جـ٥ ص٨٩.

(٣) علي: جـ٨ ص٣٧٦.

(٤) ابن هشام: جـ٢ ص٣٩. البلاذري: جـ١ ص١٥٨، ١٥٩.

(٥) البلاذري: المصدر نفسه: ص١٦٠. (٦) ابن سعد: جـ١ ص٧٥.

وكان مقامه في الشام، وربما وضع القصص على اسمه، فهو أول من قصَّ في الإسلام، فقد استأذن عمر بن الخطاب أو عثمان بن عفان في أن يُذكِّر الناس في يوم الجمعة، فأذن له، فكان يقص في مسجد الرسول، ويبدو أنه خلط في أحاديثه بين القصص النصراني وبين الأساطير العربية، بوصفه كان نصرانياً كما ذكرنا يسمع أقوال وعَّاظ الكنائس، فتعلم منهم، وطبَّق ما تعلمه في الإسلام(١).

---

(١) علي: جـ٨ ص٣٧٩.

البَابُ الثَالِث

أوضاع العرب الاجتماعية

الفصل الثامن

القبيلة وطبقات المجتمع

القبيلة

كان المجتمع العربي، باستثناء مجتمع اليمن، في مرحلة الجاهلية القريبة من ظهور الإسلام، مجتمعاً قبلياً بدائياً يتلاءم مع طبيعة البيئة، وقد قسَّم العرب إلى وحدات اجتماعية متعددة عرفت كل منها باسم القبيلة، وهي مستقلة لا تعترف بسلطة خارجية عليها، إنها المجتمع الأكبر لأهل البادية.

وينتمي أفراد القبيلة إلى أصل واحد مشترك وتربطهم رابطة العصبية للأهل والعشيرة، وهو شعور التماسك والتضامن بين من تربطهم رابطة الدم، وعلى هذا النحو تُعَدُّ العصبية مصدر القوة السياسية والعسكرية التي تربط أفراد القبيلة[(١)].

والعصبية عند العرب نوعان:

- عصبية الدم، وهي أساس القرابة في البيت الواحد، ومصدر الترابط الوثيق بين أفراد القبيلة كما لو كانوا أسرة واحدة.

- عصبية الانتماء إلى أب بعيد أو جد مشترك انحدرت القبيلة أو القبائل المنتمية إليه من نسله.

تقوم العصبية على النسب الذي يرجع إلى جد أعلى أو جدة، وهي لذلك تختلف باختلاف الالتحام بالأنساب[(٢)]. واستناداً إلى هذه الرابطة، كانت القبيلة تهبُّ بكل أفرادها لنصرة فرد منها ظالماً كان أو مظلوماً، وترفع عنه الأذى والضرر، وتثأر لقتيلها. وفي المقابل يتوجب على الفرد أن يتقيد بنظام القبيلة، ويُلبي نداءها إذا دعته إلى نصرتها أثناء الشدة، فينصرها ويساعد إخوانه ظالمين كانوا أو مظلومين، كما يقبل تحمُّل بعض مسؤوليات أعمال غيره، فيساعدهم في دفع الديات مثلاً. أما إذا خالف أعرافها أو ارتكب جريرة ترفض أن تتحمل نتائجها؛ يُطرد منها، ويُسمى الطريد، ويتم إعلان الخلع رسمياً على الناس في المواسم والأسواق العامة. فقد خلعت خزاعة قيس بن الحدادية بسوق عكاظ،

---

(١) حتي: ص٣٤. الشريف: ص٥٠. (٢) ابن خلدون: جا ص١٠٨.

وأشهدت على نفسها بخلعها إياه[1]. ويلجأ الخلعاء عادة إلى من يحميهم أو يلتحقون بالصعاليك الخلعاء، مثل تأبط شراً والسليك بن السلكة والشنفرى.

يتفرَّع من القبيلة فروع وأغصان هي دون القبيلة، من عشائر وبطون وأفخاذ وغير ذلك على اختلاف عددها[2]. وتتوقف منزلة القبيلة وقوتها بين القبائل على عدد أفرادها ومواردها، ويضمن المحافظة على بداوتها وقوتها واعتمادها على العصبية التغلب على غيرها، أما إذا اختلطت بمناطق متحضرة، فإن خشونتها لا تلبث أن تتلاشى وتزول[3]، ولعل السبب في ذلك يعود إلى عوامل عدة منها:

- الزواج من أعجميات.
- الانتقال من قبيلة إلى قبيلة أخرى.
- الاستلحاق؛ أي انتساب عبد من العبيد لقبيلة عن طريق زواجه بامرأة من نسائها.
- إلحاق أبناء أم ولد بنسب رجل عربي.
- دخول خليع في قبيلة أخرى طلباً للحماية فيصبح مولى لها، ويدخل نسبه، بمرور الزمن، في نسبها.
- الحلف، وهو تحالف قبيلتين مختلفتين وتعايشهما وانصهار إحداهما، وهي الضعيفة، في القبيلة الأخرى القوية[4].

يرأس القبيلة سيدها أو شيخها، يختاره مجلس شيوخها من بينهم، والمعروف أن العرب لم يكن يقبلون مبدأ الوراثة في الرئاسة، بل كانوا يأنفون من التسوُّد عن طريق الوراثة، وفي هذا المعنى قال عامر بن الطفيل، أحد سادات عامر وقد صار سيد قبيلته بعد وفاة والده، يفتخر ويُعدِّد سجاياه إلى جانب شرفه:

وإني وإن كنت ابن سيد عامر ... وفارسها المشهور في كل موكبِ
فما سودتني عامر من وراثة ... أبى اللّه أن أسمو بأم ولا أبِ
ولكنني أحمي حماها وأتقي ... أذاها وأرمي من رماها بمنكبِ[5]

ورؤساء القبائل هم سادتها والمتولون لأمورها، يشرفون على حركة الانتجاع، ويختارون مضارب القبيلة، ويقودونها في الحروب والغزو، ولا يُسوَّد إلا من تكاملت فيه ست خصال هي: الكرم، النجدة، الحلم، الصبر، التواضع والبيان، ويشترطون في اختياره أن يكون من أشرف رجال القبيلة، وأشدهم عصبية، وأكثرهم مالاً، وأكبرهم سناً، وأعظمهم نفوذاً، ولهذا السبب كانت القبيلة تعتز بكرامتها.

---

(١) الأصفهاني: جـ١٤ ص١٤٥.
(٢) علي: جـ١ ص٥١١.
(٣) ابن خلدون: جـ١ ص١٠٩، ١١٠.
(٤) فروخ: ص١٥٠.
(٥) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر: جـ٢ ص٢٩.

وفي هذه المعاني قيل عن زهير بن جناب الكلبي: «وكان سيداً مطاعاً شريفاً في قومه، وخطيبهم، وشاعرهم، ووافدهم إلى الملوك، وطبيبهم، والطب في ذلك الزمان شرف، وحازي قومه، والحزاة: الكهان، وكان فارس قومه، وله البيت والعدد منهم»[١].

كان على شيخ القبيلة أن يساعد الضعفاء، ويفتح بيته للضيوف، ويدفع الديات عن فقراء قبيلته. ومن امتيازاته: المرباع[٢] والصفايا[٣]، والحكم[٤]، والنشيطة[٥]، والفضول[٦].

وإذا كان من حق شيخ القبيلة أن يكون حكمه نافذاً على جميع أفراد قبيلته، إلا أنه لم يكن مطلق الصلاحية ومن النادر أن يستبد في حكمه وفي رئاسته للقبيلة، لأنه كان مضطراً أن يستشير غيره من الزعماء وأهل الرأي.

وعلى هذا الشكل كان مجتمع الأعراب مفتَّتاً من الناحية السياسية إلى وحدات متعددة قائمة بذاتها تمثلها القبائل المختلفة، إذ إن العصبية قضت على فكرة الترابط السياسي حتى في حال الانتساب إلى إحدى المجموعتين الكبيرتين العدنانية والقحطانية ما أدى إلى قيام صراع بين هاتين العصبيتين[٧].

وتشكل القبيلة في البادية دويلة تنطبق عليها مقومات الدولة من شعب وحكام، باستثناء الأرض الثابتة التي تحدد منطقة نفوذها، ولم يفهم العربي الدولة إلا على أنها دولة القبيلة.

وكان النظام القبلي دعامة سياسية في الممالك العربية والإمارات التي قامت في جنوبي الجزيرة العربية، وفي حواضر الحجاز وفي الإمارات العربية على تخوم العراق وبلاد الشام، فلم تنصهر القبائل التي نزلت في هذه المدن والحواضر في شعب واحد، وإنما ظلَّت تحتفظ بتنظيمها القبلي[٨] على الرغم من اختلاط أنسابها، وتداخل شعوبها، وبحكم اختلاطها بغير العرب ممن لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم[٩].

ومرَّت القبائل العربية البدوية بدور موغل في البدائية والعزلة هو دور الطوطم، وقوامه أن تتخذ القبيلة حيواناً أو نباتاً أو كوكباً أو نجماً، أو شيئاً آخر من الكائنات

---

(١) انظر: الأصفهاني: ج١٩ ص١٥، ٢١.
(٢) المرباع: ربع الغنيمة.
(٣) الصفايا: ما يصطفيه شيخ القبيلة من الغنائم قبل أن يجري اقتسامها.
(٤) الحكم: إمارة الجند.
(٥) النشيطة: ما أُصيب من المال قبل اللقاء.
(٦) الفضول: ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة.
(٧) سالم: ص٤١٢.
(٨) الشريف: ص٢٤.
(٩) ابن خلدون: ج١ ص١٠٩.

المحسوسة جداً لها، أو أباً تعتقد أنها متسلسلة منه، وتنتسب إليه، وتتسمى باسمه، مثل كلب، كلاب، كليب، نمر، أسد، ثور، عجل، جحش، عنزة، قريش، زهرة، وغير ذلك من أسماء حيوانات أو أشجار أو نباتات تختلف بحسب اختلاف البيئة التي يتواجد فيها عبدة الطوطم.

ويبدو أن العرب تسموا بهذه الأسماء التي وجدوها في بيئتهم نتيجة التأمل في الطبيعة بما تحويه من جماد ونبات وحيوان، على سبيل التيمن والتفاؤل، أو بمحض الصدفة والعفوية، كما يمكن أن تكون مثل هذه الأسماء قد أُعطيت لأصحابها كأسماء وشهرة، فالقوي يمكن أن يُسمى بالثور، والشجاع يمكن أن يُعرف بالأسد، والماكر بالثعلب، وهكذا.

ومن الأسماء ما هو للتفاؤل على الأعداء، مثل: غالب وظالم وفاتك.

ومنها ما هو تفاؤل للأبناء، مثل: نائل ووائل وسالم وسعد وسعيد.

ومنها ما فيه ترهيب للأعداء، مثل: أسد وليث وضرغام ونمر وفهد.

ومنها ما فيه تفاؤل بأسماء الشجر، مثل: طلحة وسمرة وسلمة وقتادة.

ومنها ما سُمي بالغليظ من الأرض، مثل: صخر، وحجر، وجندل[١].

وسُئِل بعض العرب: «لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح! فقالوا: إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا»[٢].

وتسمَّت القبائل والأشخاص بأسماء الآلهة التي عرفوها وعبدوها مثل: عبد مناة، وعبد اللات، وعبد العزى وغيرها.

عوامل الوحدة في المجتمع العربي

حفل المجتمع الجاهلي بظواهر اجتماعية معينة ساعدت على توحيد أفراده ضمن القبيلة الواحدة، ودفعت القبائل إلى نوع من التفكير باتجاه الوحدة على صعيد العلاقات القبلية. والحقيقة أن حركة الواقع الاجتماعي في الجاهلية الأخيرة، القريبة من ظهور الإسلام، كانت تتجه إلى تغيير في التعددية القبلية للدخول في إطار توحيدي، وقد ارتسمت علامات هذا التوجه في أفق الحياة الجاهلية بأشكال ومظاهر متعددة وعلى مستويات متنوعة ومتفاوتة، نذكر منها:

العصبية

أدى عامل العصبية في مناسبات كثيرة إلى الصراع العسكري بين القبائل فيما

(١) عبد الحميد، سعد زغلول: في تاريخ العرب قبل الإسلام: ص٣٠٦.

(٢) القلقشندي، أحمد بن علي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب: ص٢٢.

عُرف بأيام العرب، وقد يستمر عقوداً بأكملها بين توتر ومناوشات وغارات متبادلة، وقد حفظ لنا التراث العربي عدداً وافراً من وقائع تلك الأيام، مثل حرب البسوس وحرب داحس والغبراء وحروب الفِجار. ويُعدُّ عامل العصبية حيوياً للمحافظة على كيان القبيلة وتحديد علاقاتها مع القبائل الأخرى في ظل الظروف القاسية التي سادت مجتمع البادية في الجزيرة العربية. فالعصبية التي تستند على قرابة الدم كانت وسيلة التكتل الأساسية بين أفراد القبيلة في ظل غياب وسائل أخرى لتحقيق هذا التكتل، وهي عامل جمع بين هؤلاء الأفراد بغض النظر عن الاعتبارات الأخرى مثل الحق والباطل، الظلم والعدل، بحيث يصبح هذا التكتل القيمة الأولى في حياة القبيلة التي يدفعها السعي وراء الماء والكلأ إلى التنقل، وهو ظرف يؤدي إلى التشتت أو الصدام مع قبائل أخرى من أجل الحصول على هذا الماء والكلأ، ويبدو التكتل عاملاً حيوياً في ظل هذا الصراع[1].

الثأر

يُعد الثأر نتيجة طبيعية للعصبية وامتداداً لها ومُكمِّل مهمتها الهادفة إلى الحفاظ على كيان القبيلة عن طريق محاربة المعتدين عليها والرد على ما تتعرَّض له من اعتداءات، وقد أضحت إحدى واجبات رئيس القبيلة، كما يظهر من قول عامر بن الطفيل سيد بني عامر، الذي لا يستطيع أن يستريح قبل أن يثأر على الرغم مما يسببه له ذلك من حرج وألم في بعض الأحيان:

تقول ابنة العمري: ما لك بعدما ... أراك صحيحاً كالسليم المعذبِ
فقلت لها: همِّي الذي تعلمينه ... من الثأر في حيَّي زبيد وأرحبِ
إن أغز زبيداً أغز قوماً أعزة ... مركبهم في الحي خير مركبِ
وإن أغز حيّي خثعم فدماؤهم ... شقاء وخير الثأر للمتأدبِ

ثم يفخر بتأديته لواجبه في طلب الثأر:

سلاح امرئ قد يعلم الناس أنه ... طلوب لثارات الرجال مطلَّبِ

ويتحدث بعد ذلك عن اختيار قبيلته له سيداً عليها ويبين مغزى الثأر بالنسبة لها:

ولكنني أحمي حماها وأتقي ... أذاها وأرمي من رماها بمنكبِ[2]

---

(١) يحيى: ص٣٦٧ ـ ٣٦٩.

(٢) شيخو، الأب لويس: المجاني الحديثة، مختارات من مجاني الأدب في حدائق العرب: جـ١ ص٢٩٢، ٢٩٣.

المشاعية

لقد فرضت ظروف البادية على المجتمع العربي، من حيث هو ضرورة اقتصادية، الاشتراك في الماء والكلأ، وهي ذات قيمة حيوية للقبيلة، تدفع أفرادها إلى التكتل والتضامن والالتفاف حول بعضهم البعض.

ووُجد في المجتمع الحضري، في الجنوب الغربي للجزيرة العربية، عدد من الممارسات في الحياة اليومية تؤدي إلى التماسك بين شرائح كبيرة وكثيرة في جوانب معينة من الحياة الاجتماعية وبخاصة في نطاق الزراعة والانتفاع بغابات الطيوب أو الاتحاد في محصولها. ويبدو أن فكرة الملكية الجماعية كانت معروفة وشائعة في المنطقة بين أفراد الأسرة الواحدة وهي بإشراف الابن الأكبر.

التحالفات القبلية

ويرتبط بالقبيلة حاجة الأعراب إلى الأحلاف بفعل تفاوت قدرة القبائل على التصدي للغزو، وحماية النفس، وكبح جماح المعتدين. والحقيقة أن قيام الأحلاف بين القبائل هو مظهر من مظاهر يقظة العرب، وعامل توحُّد نتج عنه تغييرات في البنية الاجتماعية للمجتمع الجاهلي، أبرزها أن رابطة الدم والنسب فَقَدت تفردها في تكوين الوحدات الاجتماعية القبلية، وانضاف إليها نوعان جديدان من الروابط هما رابطة الولاء ورابطة التحالف.

أما رابطة الولاء، فهي أن يلحق فرد أو بطن أو فخذ أو قبيلة ضعيفة بقبيلة أخرى، فيكونون مواليهم، ويقطعون صلاتهم بقبيلتهم السابقة، وينال هؤلاء الحقوق كافة التي للقبيلة.

وأما رابطة التحالف فهي أن تتحالف قبيلتان أو أكثر تجمع بينهما مصالح مشتركة آنية أو مستقبلية أو ظروف متشابهة ألَّفت بينهما، فصارت نسباً بمرور الأيام، كالحلف الذي تشكَّل بين تميم وذبيان وأسد وعمرو بن الجون ومعاوية بن الجون، لمواجهة حلف بني عامر بن صعصعة وعبس[(١)]، وحلف تنوخ الذي تكوَّن من قبائل عدة، عدنانية وقحطانية، في البحرين، فتحالفوا وتعاقدوا على التناصر والتساعد، فصاروا يداً واحدة ضمَّهم اسم تنوخ[(٢)]، والحلف الذي عقده عبد المطلب بين قريش والأحابيش، وهم بنو الحارث بن عبد مناف بن كنانة، وبنو الهون بن خزيمة بن

(١) الأصفهاني: جـ١١ ص١٣١ ـ ١٣٨. وقد تقاتل الطرفان في يوم شعب جبلة. انظر: ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي... الشيباني: الكامل في التاريخ: جـ١ ص٥٢٢ ـ ٥٢٤.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص٣١١.

مدركة وبنو المصطلق بن خزاعة[1].

وكان هناك نوع من التحالف اتخذ شكل الإلحاق؛ أي إلحاق القبائل الضعيفة بالقبائل القوية، ويتسمى الحلف باسم الطرف الأقوى فيه. وعلى الرغم من أن عملية الإلحاق أدت إلى تنازل القبائل الضعيفة عن استقلالها، وهي حالة من حالات التفكك الجاري يومئذ في النظام القبلي البدائي، إلا أنها تدخل ضمن مفهوم التوحد القبلي.

وأطلق الإخباريون على هذا النوع كلمة «الإطفاء»، فذكروا أن ضبة طفئت لأنها حالفت الرباب، وأن الحارث طفئت لأنها حالفت مذحجاً، وأن عبساً طفئت أيضاً لانتقالها إلى بني عامر بن صعصعة يوم شعب جبلة[2].

انتشرت ظاهرة التحالفات القبلية في مرحلة الجاهلية الأخيرة انتشاراً واسعاً حتى شملت مختلف أرجاء جزيرة العرب، البادية منها والحاضرة، ولم تبق خارج نطاق الأحلاف إلا قبائل قليلة كانت تعتمد على قوتها الذاتية، ولذلك سُميت هذه القبائل «جمرات العرب»، والتجمير هو التجميع[3].

تكتسب القبيلة التي تدخل في حلف كل حقوق القبيلة التي تحالفت معها، فتنصرها إذا اعتُدي عليها. ويشترك المتحالفون في المواطن، وقد تنزل القبائل على حلفائها. فقد نزل بنو سلامان بن سعد بن زيد بن الحاف بن قضاعة في بني صرمة بن مرة وكانوا حلفاءهم، كما نزل بنو حميس بن عامر بن جهينة في حلفائهم بنو سهم بن مرة، وكانت الهيمنة في هذه التحالفات للقبائل القوية.

ويقترن قيام الأحلاف عادة بطقوس ومراسم خاصة، إذ كان المتحالفون يغمسون أيديهم في طيب، مثل حلف المطيبين[4] أو في دم، مثل حلف لعقة الدم، أو حلف الأحلاف[5]، أو بسوائل أخرى كالرُّب مثل حلف الرباب[6]، أو ماء زمزم مثل

---

(١) البلاذري: جـ١ ص٧٩.

(٢) ابن منظور: جـ٤ ص١٤٥.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) عُقد حلف المطيبين في مكة بين بني أسد بن عبد العزى وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرة وبني الحارث بن فَهر بن مالك وبين بني عبد مناف، بهدف المطالبة بإعادة توزيع المرافق الاقتصادية في مكة بين جميع عشائرها. وقد أتى بنو عبد مناف بوعاء فيه طيب ووضعوه عند الكعبة، فتحالفوا وتعاقدوا ثم غمسوا أيديهم في وعاء الطيب. ابن هشام: جـ١ ص١٥٣.

(٥) عُقد حلف لعقة الدم، أو حلف الأحلاف، في مكة بين طائفة من عشائر قريش، هي بنو عبد الدار وبنو مخزوم وبنو جمح وبنو سهم وبنو عدي، وجاءوا بوعاء مملوء دم بقرة وأدخلوا أيديهم فيه، فسموا لعقة الدم. اليعقوبي: جـ١ ص٣٣٨.

(٦) عُقد حلف الرباب بين قبائل تيم وعدي وثور وعُكْل وضبة، وإنما سموا بالرباب لأنهم غمسوا أيديهم في الرُّب حين تعاهدوا وتعاقدوا، ولعلهم اختاروا الرُّب لأنه أحمر كالدم.

حلف الفضول[١]، وربما أوقدوا ناراً عند تحالفهم ودعوا بالحرمان والمنع من خيرها ومنافعها على من ينقض العهد[٢]، وكانوا يقولون: «الدم الدم، والهدم الهدم[٣] لا يزيد العهد طلوع الشمس إلا شداً، وطول الليالي إلا مداً، ما بلَّ بحرصوفة، وهم إنما يريدون من ذلك التأكيد والإشهاد المادي على الوفاء والاستمرار. قال الحارث بن حلزة في معلقته:

واذكروا حلف ذي المجاز وما قُدم فيه العهود والكفلاءُ
حذر الجور والتعدي وهل تنـ قض ما في المهارق الأهواءُ[٤]

ويمكن أن نذكر في هذا السياق حادثين تاريخيين شهدتهما الجزيرة العربية في زمنين متقاربين سبقا ظهور الإسلام؛ ساعدا على التفكير في تغيير الواقع الاجتماعي نحو الوحدة:

أولهما: الصراع السياسي في اليمن الذين اتخذ، بعد حملة أبرهة الفاشلة على مكة، مضموناً تاريخياً حدَّد وجهته كصراع بين القوى صاحبة البلاد وقوى خارجية تحتل البلاد (الأحباش) أو تطمع في احتلالها (الفرس) وقد خلق هذا الصراع شعوراً عربياً مشتركاً، حيث يذكر المؤرخون أن عبد المطلب بن هاشم وَفَدَ في ركب من قريش على سيف بن ذي يزن الحِميري بعد انتصاره على الحبشة، للتهنئة بهذا النصر، كما أنشد الشعراء العرب، مثل أبو الصلت بن أبي ربيعة الثقفي، وفي رواية أمية بن أبي الصلت، وعدي بن زيد، شعراً بهذه المناسبة[٥].

ثانيهما: معركة ذي قار الشهيرة (٦٠٩م) بين بني بكر بن وائل والفرس، وكانت التعبير الناضج عن ذلك الشعور المشترك بالحاجة إلى نمط جديد في العلاقات بين مختلف القبائل في الجزيرة العربية، ولا سيما القبائل المتاخمة لمناطق الحدود مع الدولتين الفارسية والبيزنطية، وقد وصف النبي محمد ﷺ هذا اليوم بأنه أول يوم انتصف العرب فيه من العجم»[٦]. ويُضفي هذا التعبير، الذي شكَّل فيه كل من العرب

---

(١) عُقد حلف الفضول في مكة في دار عبد الله بن جدعان بين طائفة من عشائر قريش، هي بنو هاشم وبنو المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة، فتعاهدوا وتعاقدوا على ألا يجدوا في مكة مظلوماً، من أهلها أو من غيرهم ممن يفد إليها، إلا قاموا معه وكانوا على ظلمه حتى ترد منه مظلمته، ثم عمدوا إلى وضع ماء من زمزم فجعلوه في جفنة، ثم بعثوا به إلى البيت فغسلت به أركانه، ثم أتوا به فشربوه.

(٢) دلو: جـ٢ ص٤١٨.

(٣) يعني: أبايعك على أن دمي دمك وهدمي هدمك.

(٤) الجاحظ: كتاب الحيوان: جـ١ ص٦٩، ٧٠.

(٥) ابن هشام: جـ١ ص٨٣ـ٨٥، ١٦١، ١٦٢.

(٦) الطبري: جـ٢ ص١٩٣.

والعجم فريقاً في المعركة؛ على الحادث معناه التاريخي الذي استمده من طبيعة تلك المتغيرات على صعيد العلاقات الداخلية بين القبائل.

ظاهرة الحنفاء

سبقت بعض الظاهرات، أو رافقت، بروز ظاهرة الحنفاء على مستوى الوعي الديني لتصب في المجرى العام لحركة تاريخ الجاهلية نحو الوحدة، نذكر منها:

- اشتراك بعض القبائل في عبادة صنم واحد؛ نرى ذلك في اجتماع قبائل خثعم وبجيلة ودوس، ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة، على الصنم المعروف باسم «ذو الخلصة»، واجتماع قضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان على الصنم المعروف باسم «الأقيصر»[1].
- قيام تنظيم عملي لإدارة شؤون الحج في مكة بعد أن انحصرت وظائف الرفادة والحجابة والسقاية وغيرها من الوظائف في قريش، وتوزَّعت على الزعامات المكية ذات السيطرة الاقتصادية والدينية، وشمل ذلك التزام مختلف القبائل بموجبات أداء مراسم الحج بصورة جماعية وسلمية كالتزامهم الامتناع عن الحرب في الأشهر الحرم.
- انخراط تلك القبائل في عملية تتداخل فيها العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والأدبية والدينية تداخلاً يدفع نحو الوحدة، وكان الاجتماع الجماعي في الأسواق والحج المظهر الحركي الأكثر فاعلية في سياق هذه العملية المتداخلة.
- الواقع أن الحنيفية في خطوطها العامة لا تدعو إلى اختراق الأطر القبلية التعددية فحسب وإنما هي تدعو أيضاً إلى اجتثاث جذورها الوثنية، من واقع كونها وعياً تعددياً تقسيمياً من خلال إلغاء عبادة الأصنام والدعوة إلى التوحيد الإلهي[2].

والمعروف أن الحنيفية لم تستهدف إقامة دين جديد وإنما كانت مجرد حركة دينية وُصف أتباعها، الذين سمت نفوسهم عن عبادة الأوثان، بالحنفاء أتباع إبراهيم عليه السلام.

عوامل الانقسام في المجتمع الجاهلي

وُجدت في المجتمع العربي الجاهلي، بنوعيه البدوي والحضري، عوامل انقسام داخل التكتلات الاجتماعية.

ففي المجتمع القبلي:

- تفاوت حماس أفراد القبيلة للاستجابة لنداء العصبية وفقاً لمكانة الفرد، فإذا كان من الأعيان فإن القبيلة تهب في استجابة فورية لهذا النداء، من ذلك ما جرى

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص١٠٧.

(٢) مروة: جـ١ ص٣١٥، ٣١٦.

لعمرو بن كلثوم، سيد بني تغلب، حين شعر أن إهانة لحقت بأمه ليلى على يدي والدة الأمير اللخمي عمرو بن هند فقتله، ونادى قبيلته فاستجابت لندائه. فانتهب أفرادها مال عمرو بن هند وخيله وسبوا النساء ثم ساروا إلى الحيرة(١).

وفي المقابل فقد حدث أن نُهب عدد من إبل الشاعر قريط ابن أنيف، أحد بني العنبر، على أيدي أفراد من بني ذهل بن شيبان، فاستغاث بقومه، فلم يغيثوه، فندَّد بموقفهم هذا في أبيات منها:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذن لقام بنصري معشر خُشُن ... عند الحَفيظة إن ذو لوثة هانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا(٢)

ويبدو أن قريطاً هذا كان من طبقة العوام في قبيلته، ومن ثمَّ لم يكن ما أصابه من أذى دافعاً لاهتمام قومه ليهبوا لمساندته.

- كان العرف القبلي يضع حواجز بين بعض فئاته، فالعبيد الذين حُرِّروا لا يصبحون أبناء القبيلة مهما قدَّموا من خدمات، وإنما يتحوَّلون إلى موالي، أو أتباع، وكذلك الغريب الذي يلجأ إلى القبيلة لسبب أو لآخر لا يرقى إلى مرتبة أبنائها مهما تفانى في خدمة مصالحها، والدفاع عنها.

- كوَّن خلعاء القبيلة عنصراً من عناصر الانقسام، فقد تخلع القبيلة أحد أفرادها أو بعضهم بفعل تصرف لم ترض عنه، فتعلن على لسان رئيسها أنها غير مسؤولة عن تصرفاتهم، فتتشكَّل تدريجياً، نتيجة ذلك، مجموعة من المنبوذين عن مجتمع القبيلة يكوِّنون عنصراً من عناصر الانقسام(٣).

- وجود طبقة فقيرة أو معدمة داخل القبيلة نتيجة التفاوت والتمايز الاقتصادي - الاجتماعي، دفع بهم فقرهم إلى الانسلاخ عن قبائلهم، وتفردهم في الصحراء للحصول على رزقهم بطرق خارجة عن عُرف القبيلة كالغزو والسلب، وقد عبَّر هؤلاء من خلال ذلك عن واقعين:

الأول: خروجهم على الانتماء الذي يلزمهم الالتصاق بحياة القبيلة والانقياد لأعرافها مهما تعرضوا للعوز والاضطهاد.

الثاني: حاجتهم المادية التي لم يستطيعوا احتمالها في ظل القبيلة.

---

(١) الأصفهاني: جا١ ص٥٣، ٥٤. ابن الأثير: جا ص٤٩٢، ٤٩٣.
(٢) أبو تمام، حبيب بن أوس: ديوان الحماسة: ص٢٩، ٣٠.
(٣) يحيى: ص٣٧٤.

ودلالة ذلك أن التمايز الاجتماعي بلغ من تأثيره على الفئات المستضعفة حداً دفع بعضها إلى تفكيك علاقاتها بالقبيلة، وتشكل هذه الدلالة إشارة إلى الانقسام والانحلال الذي أخذ يتسرب إلى داخل النظام القبلي[١].

ـ نتيجة للانقسام الطبقي داخل القبيلة، إذ لم يكن كل أفرادها راضين عن معاملة القبيلة لهم، لشعور بعضهم بعدم المساواة، ففي حال الكلأ، الذي كان مشاعاً بين جميع أفراد القبيلة، كانت هناك أحماء يتمتع بها أفراد بعينهم إلى جانب تمتعهم بمميزات الكلأ العام، وهو نوع من التمييز لا بد أن يقسم القبيلة إلى طبقة من المتميزين، وطبقة ممن لا يحظون بهذا الموقع المتميز[٢].

وعرف المجتمع العربي في اليمن هذه الظاهرة من عدم المساواة، بفعل التفاوت في توزيع الثروة، فهناك الأثرياء، وأبناء الطبقة الحاكمة الذين شكَّلوا فئة متميزة احتكرت وظائف الدولة، كما كان هناك الفلاحون، والحرفيون، والعاملون في جمع الطيوب، وهذا التصنيف الطبقي ثابت لا يتغير، يتوارثه الأبناء عن الآباء، ولم يكن باستطاعة أحد الأفراد أن يُغير مهنته وينتقل من فئة إلى فئة أخرى. وقد زاد من حدة هذا الوضع الطبقي أن طبقة أصحاب الحرف، أو من كانوا يعملون بالأجر؛ كان يُنظر إليهم على أنهم يمارسون عملاً متدنياً[٣].

طبقات المجتمع

انقسم المجتمع العربي في الجاهلية إلى ثلاث طبقات نتيجة الوضع الاقتصادي والمكانة الاجتماعية، وهي:

الطبقة العليا: يدخل فيها أبناء القبيلة الأحرار الذين يرتبطون فيما بينهم برابطة الدم والنسب والجد المشترك، وهم عمادها وقوامها، وكانوا يهبُّون لتلبية نداء القبيلة والتضامن معها ظالمة أو مظلومة، وفي المقابل تعمد القبيلة إلى حمايتهم وتمنحهم حق التصرف في واحد من أهم مظاهر الشرف والرفعة في هذا المجتمع وهو الإجارة، فكان المجير يدخل في حماية من أجاره من أفراد القبيلة فيدافع عنه ويقاصص من يتعرَّض له بالأذى، ويلزم بذلك قبيلته، ما عرَّض القبائل لكثير من المشكلات، وفرض مسؤوليات وتضحيات عديدة عليها، وكان المجير يعلن الإجارة على الملأ صراحة بقوله: «قد لزمني ذمامك وأنا مانعك مما أمنع نفسي وأهلي وولدي منه ما بقي من عشيرتي الأدنين رجل»[٤].

---

(١) مروة: جـ١ ص٢٠٩.
(٢) يحيى: ص٣٧٥.
(٣) المرجع نفسه: ص٣٧٦.
(٤) الأصفهاني: جـ٢ ص١٢٦.

وتشكَّلت «الأرستقراطية» العربية من رؤساء القبائل وأعيانها وأقاربهم، فمنهم التجار وأصحاب الإقطاعات الكبيرة في الحواضر والمناطق الزراعية والرعوية، وتتركز الثروات في أيديهم، وتمايزوا عن فقراء القبيلة ومعدميها في مظاهر عدة أبرزها:

- تملكهم أعداداً كثيرة من أصناف الماشية لا سيما الإبل، فضلاً عن مساحات واسعة من مناطق الرعي. وقد أثَّر التغلغل المادي في نفوس أصحاب هذه الطبقة، وظهرت آثاره في الديات، ففي حين كانت دية الحر الشريف تصل إلى الألف من الإبل، كانت دية غيره من الأفراد الفقراء أو المعدمين لا تكاد تصل إلى النصف من هذه القيمة[(١)].

- تميز الأعيان بنصب خيامهم في الروابي المشرفة على سائر أبناء القبيلة وبأفضلية هذه الخيام.

- اقتنى أصحاب الطبقة «الأرستقراطية» السجاد النفيس والأواني المعدنية والزجاجية المرتفعة الثمن، وأجود أنواع الأسلحة، وأجمل أسرجة الخيل والإبل[(٢)].

- كان رئيس القبيلة وأعيانها يشترون أدواتهم وأثاث أخبيتهم من تجار متنقلين بقوافلهم في الجزيرة العربية قادمين إليها من البلدان المتحضرة المجاورة[(٣)].

- إن ارتفاع المستوى المادي لهذه الفئة مكَّنها من أن تحيا حياة رفاه وترف، فلبسوا الثياب الناعمة والملونة المصنوعة من الكتان والقطن والحرير، المستوردة من اليمن وبلاد الشام، وانتعلوا النعال الرقاق.

تصف الخنساء ثياب وجهاء قومها قائلة:

ونلبس في الحرب نسج الحديد ... ونسحب في السلم خزاً وقزا[(٤)]

وقال مطرود بن كعب الخزاعي:

ذكرني بالأُزُر الحمر والـ ... أردية الصفر القشيبات
أربعة كلهم سيد ... أبناء سادات لسادات[(٥)]

استتبع هذا التفاوت في الملكية وفي المعيشة تمايزاً اجتماعياً بين أفراد القبيلة الواحدة أدى إلى انقسام أبنائها الأحرار إلى أغنياء وفقراء، إضافة إلى الانقسام الذي كان قائماً بين الأحرار والعبيد.

---

(١) ابن عبد ربه: ج٥ ص١٤٨.
(٢) مروة: ج١ ص٢٠٩.
(٣) بلياييف: ص١٠٩، ١١٠.
(٤) ديوان الخنساء: ص٨٢.
(٥) ابن هشام: ج١ ص١٦٢. ورد هذين البيتين في قصيدة له يبكي المطلب وبني عبد مناف جميعاً حين أتاه نعي نوفل بن عبد مناف، وكان نوفل آخرهم هُلكاً.

وتُحظِّر القبيلة على أبنائها الأحرار الخروج على العرف والتقاليد، فإذا خرق الفرد منهم هذا الحظر بسلوك شائن يُسيء إلى سمعة القبيلة ويجلب العار عليها، يتعرَّض للنبذ والطرد من صفوف القبيلة.

الطبقة الوسطى: يشكل الموالي عماد هذه الطبقة، وينقسمون إلى ثلاث فئات اجتماعية هي:

١ ـ الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم وتبرأت منهم لجرائم ارتكبوها، فلجأوا إلى قبائل أخرى طالبين الحماية أو انتسبوا إليها على أساس الموالاة بالجوار، وكانوا يسمون أحياناً الحلفاء.

٢ ـ الصعاليك، هم فئة من الفقراء أفرزهم توزيع الثروة والتمايز الاجتماعي، فانسلخوا عن قبائلهم تعبيراً عن تململهم من الفقر والجوع والحرمان والشقاء والازدراء الذي كانوا يعانونه، واحترفوا اللصوصية ليغنموا عنوة ما حُرموه.

والصعاليك طوائف اجتماعية من بيئات تتفاوت في درجة تحضُّرها وتطور قواها المنتجة، ولكنها تتشابه من حيث الخلل والفساد الذي طبع حياتهم الاجتماعية ويمكن تصنيفهم في ثلاث:

أ ـ الخلعاء: هم الذين خلعتهم قبائلهم وتنكرت لهم وطردتهم من حماها وقطعت صلاتها بهم فلم تعد مسؤولة عن جرائرهم. من الصعاليك الخلعاء: قيس بن الحدادية[١]، وحاجز الأزدي[٢] وأبي الطمحان القيني[٣].

ب ـ الأغربة: هم السود الذين ورثوا سواد البشرة من أمهاتهم الإماء، فلم يعترف بهم آباؤهم العرب ولم ينسبوهم إليهم لأن دماءهم ليست عربية خالصة مثل: الشنفرى وتأبط شرّاً والسليك بن السلكة[٤].

جـ ـ الفقراء: هم الذين تصعلكوا نتيجة الظروف الاقتصادية ـ الاجتماعية التي كانت تسود المجتمع الجاهلي، وأبرزهم عروة بن الورد ومن التف حوله من فقراء العرب، والمجموعة الكبيرة من صعاليك هذيل[٥].

٣ ـ العتقاء، هم العبيد الذين أعتقهم سادتهم من نير العبودية، وظلوا مرتبطين بهم برابطة الولاء. والمعتق كان عبداً وأضحى حراً، فارتقى من الطبقة الدنيا إلى الطبقة المتوسطة، ولكنه لا يرتقي إلى الطبقة العليا لعدم توفر صلة النسب العربي الحر فيه،

---

(١) الأصفهاني: جـ١٤ ص١٤٤، ١٤٥. (٢) المصدر نفسه: جـ١٣ ص٢٠٩.
(٣) المصدر نفسه: ص٣.
(٤) السيوطي: المزهر في علوم اللغة: جـ٢ ص٤٣١.
(٥) دلو: جـ١ ص١٦٣.

لذلك يظل غالباً مرتبطاً بالمعتِق، وينتسب إليه فهو عتيقه، مثل زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ[١]، في حين أن المعتَق الذي ينتسب إلى القبيلة التي منحته حريته يُقال له مولى.

يتمتع الموالي، سواء كانوا حلفاء أو عتقاء، بالحقوق نفسها التي يتمتع بها أفراد القبيلة التي يوالونها، وعليهم الواجبات نفسها.

الطبقة الدنيا: تشكل هذه الطبقة شريحة كبيرة في المجتمع القبلي في العصر الجاهلي، وتضم العبيد السود والرقيق الأبيض والأسود.

أما العبيد السود فكانوا يُجلبون من سواحل أفريقيا الشرقية بعامة والحبشة بخاصة، وشكَّلوا إحدى السلع التجارية الرائجة، ويبدو أن أعدادهم كانت كثيرة في اليمن ومكة ويثرب وغيرها من مناطق الجزيرة العربية، وبفعل توسع التجارة القرشية وتشعبها، وتوظيف المكيين جزءاً من أموالهم في استثمار الأراضي الزراعية وتربية الماشية في الطائف وغيرها؛ فقد جلب تجار مكة أعداداً كبيرة من العبيد لاستغلالهم في أعمال الري الاصطناعي، والزراعة، والحرفة، ورعي الماشية، وحراسة القوافل التجارية، وتشغيلهم في الخدمة المنزلية، وهي إما أعمال صعبة ومرهقة تتطلب جهداً مضنياً أو أعمال مهينة يأنف العرب القيام بها. ولعل ما يدل على كثرتهم المفرطة أن هنداً بنت عبد المطلب أعتقت في يوم واحد أربعين عبداً من عبيدها، كما أعتق أبو أُحيحة سعيد بن العاص مائة عبد اشتراهم فأعتقهم، وكان بنو مخزوم من قريش يملكون عدداً كبيراً من العبيد السود يستخدمونهم في أعمال مختلفة وفي الحروب.

كانت الجزيرة العربية سوقاً نشطة لتجارة العبيد، ويمارس الرجال والنساء النخاسة، من ذلك أن عبد الله بن جدعان التيمي والمكي كان تاجراً ثرياً ونخاساً له جوار يساعين[٢] ويبيع أولادهن[٣].

سكن العبيد أكواخاً حقيرة وعاشوا بضنك، نتيجة الحرمان والجوع، وقد جُرِّدوا من جميع الحقوق، وفُرضت عليهم واجبات مرهقة سلبتهم إنسانيتهم وباعدت بينهم وبين الحد الأدنى من الحياة الكريمة، فليس للعبد أن يتزوج إلا بإذن سيده على أن يتزوج عبدة مثله.

استثمرت الأرستقراطية العربية أتعاب العبيد بطرق مختلفة، وساعد عمل هؤلاء الإنتاجي على زيادة ثروة هذه الطبقة في المال والماشية، لذلك كان من الطبيعي أن

---

(١) البلاذري: جـ٢ ص١٠٧ ـ ١١٨.

(٢) سعت الأمة: بغت. وساعاها: طلبها للبغاء. (٣) ابن قتيبة: المعارف ص٣١١.

تُوحِّد ظروف العبودية والاستغلال والشقاء المادي والمعنوي العبيد وسائر المعدمين والمضطهدين في النضال المشترك ضد أسيادهم، من أجل تحسين أوضاعهم أو تحررهم من الرق والظلم الاجتماعي الواقع عليهم، والمعروف أنه كان بإمكان العبد أن يُعتق إذا قام بعمل خارق أو أدى خدمة عظيمة لسيده تبرر عتقه وتحريره.

وأما الرقيق الأبيض، فكان مصدره السبي في الحروب والشراء. كان سبي الرجال والنساء أمراً شائعاً وأساسياً في العصر الجاهلي، خلال الغارات القبلية المتبادلة. ويحدث أحياناً أن يفاجأ كل نساء الحي، وهم خلوف، فيؤخذون سبايا. وتقوم القبيلة أحياناً ببيع أسراها. ففي الحرب التي دارت رحاها بين لحيان وخناعة، كانت الأولى تبيع كل من تأسره. وقد أسرت خناعة يوماً سيداً من سادات العرب فباعوه في مكة. وقتل بنو صاهلة من هذيل أناساً من بني سُليم بن منصور، وأخذوا العائذيْن، عائذاً ومعوذاً، سيديهم، فباعوا أحدهما بمكة وقتلوا الآخر[(١)].

وكان زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ من قضاعة، أصابه سباء في الجاهلية لأن أمه خرجت به تزور قومها بني معن، فأغارت عليهم خيل بني القين بن جسر، فأخذوا زيداً، فقدموا به سوق عكاظ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة، وفي رواية، اشتراه من سوق حباشة، فوهبته خديجة للنبي محمد ﷺ[(٢)].

والمعروف أن الأسرى العرب كانوا قلة بالمقارنة مع الأرقاء الأجانب، بفعل ما كان يجري من تحريرهم من الأسر بحرب مضادة تشنها القبيلة التي ينتمي إليها الأسرى على القبيلة التي أسرتهم أو بتقديم الفدية، ويبقى في الأسر من لم يتمكَّن من فداء نفسه أو يتيسر له أن يدفع فديته.

وأما الشراء، فمصدره بلاد فارس وبيزنطية. ففي الحروب التي كانت تدور بين الدولتين الفارسية والبيزنطية،كان الطرفان يصيبان أسرى، فيبيعان ما يفيض عن حاجتهما من أسرى الطرف المغلوب، في الأسواق، أو تُرسل هذه البضاعة البشرية على أيدي العملاء إلى أسواق الجزيرة العربية لبيعها هناك.

كان الأرقاء البيض، وهم من بلدان قطعت شوطاً في مضمار الحضارة، أكثر ثقافة وخبرة، لذا استخدمهم أسيادهم في إدارة المبيعات، والعمل بالحرف التي تحتاج إلى خبرة ومهارة وفن، مثل أعمال البناء والنجارة وغيرها من المهن.

---

(١) السكري، أبو سعيد الحسن بن الحسين: شرح أشعار الهذليين: جـ١ ص٣٧٣. جـ٢ ص٧٦٥.

(٢) البلاذري: جـ٢ ص١٠٧، ١٠٨.

الفصل التاسع

الأحوال الشخصية

تمهيد

أقصد بالأحوال الشخصية تلك الحقوق الخاصة بالشخص وبعلاقته بأسرته، مثل الزواج والطلاق والميراث، وحقوق الزوجة أو الزوج، وحقوق الوالد على ولده، وحقوق الولد، وأمثال ذلك مما يدخل في الفقه الإسلامي في باب المناكحات.

وأقرَّ الإسلام بعض أحكام الجاهليين في أحوالهم الشخصية، وجمع أهل الحديث والتفسير والأخبار، طائفة منها، وهي القريبة من ظهور الإسلام، وتخص غالباً أهل مكة ويثرب ومن جاورهما من أهل البادية والحضر. لذلك لا تشمل القضايا التي سنتعرَّض لها بالبحث في بعض جوانب أحكامها كل أنحاء الجزيرة العربية، وإنما هي خاصة بالجاهليين القريبين من ظهور الإسلام في الحجاز بشكل خاص، ولا تنطبق على قدماء الجاهليين الذين عاشوا قبل الميلاد، ولا أولئك الذين عاشوا في العربية الجنوبية أو في شرقيها.

الأسرة

تشكل الأسرة العربية وحدة اجتماعية هي أساس القبيلة، ومن الأُسر التي تشترك بروابط الدم والنسب، تنشأ العشيرة والقبيلة، وتتطور صعوداً من شكل أدنى إلى شكل أعلى بالتوازي مع تطور القبيلة.

وقد سبق الانتساب إلى الأب، الذي كان سائداً في المجتمع العربي الجاهلي القريب من ظهور الإسلام، الانتساب إلى الأم، وهو دور الطوطم حيث مرجع النسب إليها، وتكون القرابة فيه لصلة الرحم؛ أي إلى الأم، فهو الرباط المقدس المتين الذي يربط بين الأفراد، ويجمع شملهم، وهو نسبهم الذي ينتمون إليه، يوم كانت المرأة تتزوج من أزواج كثر غير معينين، حيث كان الرجل يجتمع بالمرأة فيتزوجها ثم يتركها ليجتمع بامرأة أخرى، وإذا كان الزوج الذي استولدها مجهولاً نُسب الولد إلى أمه وعُرف بها. يضاف إلى هذه الفوضوية الأسرية فوضوية الغزو حيث يعيث المنتصر فساداً، وينتهك الحرمات، ويستبيح الأعراض، فيتوالد نتيجة

ذلك أولاد لا تعرف أمهاتُهم آباءهم، ولا يبقى أمام الأم إلا أن تنسبهم إليها.

وكان نسب الجماعات في هذا الدور أيضاً يُنسب للأم، ومن القبائل التي تنتسب إلى أمها: بنو خندف، بنو مزينة، بنو بجيلة، بنو رقية وغيرها.

وفي المدة القريبة من ظهور الإسلام أخذ النظام الأبوي يحل محل نظام الأمومة، وذلك بفعل الدور الحاسم الذي كان يؤديه الرجل للجماعة القبلية في الحياة اليومية، ثم انتقل إلى الحياة الاجتماعية، ويتميز هذا النظام بسلطة الأب المطلقة على العائلة، واستقرت المرأة في المنزل لتقوم بالنصيب الأكبر من أعماله.

تسكن الأسرة في خيمة واحدة أو منزل واحد، يضم الزوج والزوجة أو الزوجات والأولاد والإماء إن وُجدوا، وعندما يكبر الابن ويتزوج يغادر منزل أبيه ويسكن في منزل مستقل إلى جانب منزل والده[١].

وضع المرأة

القاعدة العامة هي أن الرجال قوامون على النساء، بفعل سيادة النظام الأبوي. وتختص المرأة بأعمال المنزل، والرجل هو رب الأسرة والمسؤول عنها، وله الكلمة في شؤونها، وهو القيِّم الطبيعي المسؤول عن تربية أولاده، والزوجة تبع لزوجها وعليها إطاعة أوامره ما دامت لا تنافي الخلق المألوف، ومن تلده يكون للزوج، فهو في ولايته وتحت رعايته وعليه تربيته.

وعرف المجتمع الجاهلي نوعين من النساء، حرائر وإماء:

أدَّت المرأة الحرة دوراً هاماً في السلم والحرب، لذلك كانت موضع تقدير الرجل وإعزازه، وحظيت بمكانة كبيرة في المجتمع بحيث لم يجد بعض الملوك حرجاً في الانتساب إلى أمهاتهم مثل المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة، وماء السماء لقب أمه مارية بنت عوف، لُقِّبت به لجمالها[٢]، وعمرو بن المنذر المعروف بعمرو بن هند نسبة إلى أمه هند بنت عمرو بن حجر، وافتخر بعضهم بنسبتهم إلى أمهاتهم على نحو ما فعل القتال الكلابي الذي افتخر بأمه الحرة عمرة بنت حرقة فقال:

لقد ولدتني حرة ربعية	من اللاء لم يحضرن في القيظ دندنا

واعتز الشنفرى الصعلوك بأمه الحرة فقال:

أنا ابن خيار الحجر بيتاً ومنصباً	وأمي ابنة الأحرار لو تعرفينها[٣]

وكما كانت الزوجة محل إعزاز الزوج، فقد كان الزوج كل شيء في حياة

---

(١) دلو: جا ص١٧٥، ١٧٦.

(٢) الطبري: ج٢ ص١٠٤.

(٣) الأصفهاني: ج٢١ ص١٨٠.

الزوجة. فكانت ترعاه وتخاف عليه من القتل، فإذا قُتل أو مات ناحت عليه، وحزنت أكثر من حزنها على أقرب الناس إليها، على نحو ما فعلت حمنة بنت جحش على أثر هزيمة أُحد، فلما أُبلغت باستشهاد خالها حمزة عم النبي ﷺ قالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له ورحمه، هنيئاً له الشهادة»، ولما أخبرها الرسول بمقتل أخيها عبد الله قالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له ورحمه، هنيئاً له الشهادة»، فلما أبلغها الرسول بمقتل زوجها مصعب بن عمير، قالت: «واحزناه» وفي رواية أنها قالت: «واعقراه». فعلَّق الرسول ﷺ على ذلك بقوله: (إن للزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحد)(١).

وقد تزهد المرأة بالزواج مرة ثانية بعد قتل زوجها وتقضي بقية حياتها وفية لذكراه، وقد تترهب كما فعلت هند بنت النعمان بن المنذر لما قُتل زوجها عدي بن زيد، فحبست نفسها في ديرها المنسوب إليها ورفضت أن تتزوج من بعده(٢).

ويتوزع عمل المرأة في زمن السلم بين مساعدة زوجها في أعمال الزراعة إذا كانت الأسرة تعيش في مناطق زراعية، وبين الأعمال المنزلية كالطهي وإعداد الطعام وحلب الأغنام وغزل الصوف ونسجه، وتحترف أحياناً بعض الأعمال التي تُكسبها مالاً تعتمد عليه في حياتها؛ كالتجارة والرضاع والغناء والنسيج وتقويم الرماح ودبغ الجلود وغيرها من الأعمال الحرة.

ويصطحب المقاتلون زوجاتهم إلى الحرب، فكن يقفن حول القبة التي توضع بها الآلهة أو الأصنام ويرفرف فوقها لواء الحرب المقدس، ويقمن بتشجيع المقاتلين على القتال، ويشددن من عزائمهم بما ينشدن من أناشيد حماسية، كما حدث في ذي قار وفي أُحد، حتى إذا قُتل فارس ندبنه ندباً حاراً حاضَّات على الأخذ بثأره والانتقام من قتلته، كما كن يداوين الجرحى، ويسقين المقاتلين، ويشتركن أحياناً في القتال على نحو ما فعلت نسيبة أم عمارة بنت كعب المازنية التي دافعت عن الرسول ﷺ في يوم أُحد، والربيع بنت معوذ بن عقبة الأنصارية، وصفية بنت عبد المطلب، وخولة بنت الأزور، وكن يغضبن إذا رضيت العشيرة بأخذ الدية حقناً للدماء، قالت كبشة أخت عمرو بن معديكرب وقد قُتل أخ لها:

فإن أنتم لم تقبلوا واتديتم ... فمشُّوا بآذان النعام المصلَّم(٣)

وتقول أم عمرو بنت وقدان في أخ لها قُتل وقد مالت عشيرتها إلى قبول ديته:

إن أنتم لم تطلبوا بأخيكم ... فذروا السلاح ووحِّشوا بالأبرق

---

(١) ابن هشام: جـ٣ ص١٧٢. (٢) المسعودي: جـ٣ ص٢٤، ٢٥.

(٣) مشَّ أذنه مشّاً أي مسحها. والقتيل هو عبد الله، رئيس بني زبيد، قتله بنو مازن في شرب منهم. انظر الأصفهاني: جـ١٥ ص٢٢٦. والمصلَّم الشي المقطوع من أصله ويقال للنعام مصلَّم لأنها لا آذان ظاهرة لها، فإذا أطلق على الناس فإنما يراد به الذليل المهان. ابن منظور: جـ١٢ ص٣٤٠.

وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا نقب النساء فبئس رهط المرهق[١]

وعدَّ العرب المرأة الحرة جزءاً لا يتجزأ من عرضهم، ولم يكن يثيرهم شيء كسبي نسائهم وهم بعيدون عن الحي، فكانوا يلحقون بهن وينقذوهن غير مكترثين بما يصادفوا من أخطار، ويغسلون عار سبيهن عنهم، وهو عار كبير عندهم.

وَوُجِدت في المجتمع الجاهلي المرأة الحرة الشريفة وقد تبوأت منزلة رفيعة، فكانت تختار زوجها وتتركه إذا لم يحسن معاملتها. وبلغ من علو منزلة بعض شريفات الجاهليين أنهن كن يحمين من يستجير بهن، ويرددن إليه حريته إذا استشفع بهن، على نحو ما ردَّت فكيهة بنت قتادة بن شنوء إلى السُلَيْك بن السلكة حريته عندما وقع أسيراً في يد عشيرتها من بني عوار[٢].

والواقع أن المرأة الحرة في العصر الجاهلي كانت على شيء من المكانة ولم تكن مهملة، ولها قدرها ومنزلتها، وتتمتع بكثير من الحرية، فهي تمتلك المال وتتصرف فيه كما تشاء، وتُستشار في بعض الأمور، وتشارك الرجل في كثير من أعماله.

أما الإماء، فكن كثيرات، ومنهن عاهرات يتخذن الأخدان، وقينات يضربن على المزهر وغيره في حوانيت الخمارين، كما كان منهن جوار يخدمن الشريفات، وقد يرعين الإبل والأغنام، وكن في منزلة وضيعة. ولا ينسب العربي الذي يستولد الأمة أولادها إليه إلا إذا أظهروا بسالة تشرفه، على نحو ما هو معروف عن عنترة بن شداد، فإن أباه لم يلحقه بنسبه إلا بعد أن أثبت شجاعة فائقة ردَّت إليه اعتباره.

كان جمال المرأة يثير الرجل فينطق لسانه بوصف ما كانت تتزين به من طيب وحلي وثياب، على نحو ما تصور ذلك معلقة امرئ القيس إذ يقول:

وتُضحي فتيت المسك فوق فراشها نؤُّمُ الضحى لم تنطق عن تفضّلِ[٣]

ويقول المنخل اليشكري في فتاته:

الـكـاعـب الـحـسـنـاء تـر فل في الدمقس وفي الحرير[٤]

وفي كتب الأدب قصص وأشعار كثيرة تصور هيام بعضهم بهن. وكان الشعراء يفتتحون قصائدهم بذكرهن، وما كان لهم من ذكريات معهن في بعض المنازل، ويمزجون ذلك بالدموع، كما فعل امرؤ القيس حين قال:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل[٥]

---

(١) المرزوقي: جـ٣ ص١٥٤.
(٢) الأصفهاني: جـ٢٠ ص٣٨٣، ٣٨٤.
(٣) الزوزني: ص٥٤.
(٤) الأصفهاني: جـ٢١ ص٣.
(٥) الزوزني: ص٢٩.

الزواج

تطور الزواج كظاهرة اجتماعية في العصر الجاهلي، نستدل ذلك من نصوص القرآن الكريم وكتب الحديث والفقه والتفسير ومعاجم اللغة. وتشير هذه الكتب إلى أن العرب قبل الإسلام، عرفوا أنواعاً متعددة من الزواج، وقد جرى الانتقال من نظام الأمومة إلى نظام الأبوة نتيجة تطور ظروف الحياة التي أدَّت إلى التغيرات التاريخية في وضع الرجل والمرأة الاجتماعي المتبادل[١].

وكان الزواج السائد هو ذلك النوع الطبيعي الذي يتماشى مع الحاجات الاجتماعية الأساسية للإنسان والسلوك الفطري له، وقد أقرَّه الإسلام بعد أن هذَّبه، ووضع الضوابط التي تحكمه.

ويُعبَّر عن الزواج بالنكاح في الفقه الإسلامي، وأساسه عند الجاهليين هو العقد، ثم استعير للجماع. أما إذا كان الاتصال بين الرجل والمرأة اتصالاً جنسياً بغير عقد ولا خطبة، فهو زنا. ولا بد للزواج من أن يكون برضى الطرفين وموافقة الوالدين أو المتولي للأمر. وإذا كان أحد الطرفين أو كلاهما قاصراً، فلا بد من أخذ موافقة القيم على أمره. غير أن الرجل قد يأخذ البنت برضاها من دون علم والديها، أو غصباً ما يسيء إلى أهلها ويلحق بهم الأذى، إلا أن الطرفين قد يتفاهمان فيما بعد على الزواج. ولولي الأمر إجبار البنت على الزواج بمن يريده أو يوافق عليه لأن يكون زوجاً لها، وليس لها مخالفته، وقد يسمح لها بإبداء رأيها في الزوج وفي الزواج، ويكون ذلك في الأُسر التي تحترم نفسها، وعند أولياء الأمور الذين ليس لهم إلا بنت واحدة أو اثنتان، وعند وجود دالة للبنت على ولي أمرها[٢].

أنواع الزواج

كان الزواج في الجاهلية على أنواع، نذكر منها:

نكاح تعدد الأزواج للزوجة الواحدة: هو شكل من زواج جماعي، على ضربين:

دُعي **الأول** بزواج الرهط أو زواج المشاركة. إنه تعدد الأزواج بفعل وجود امرأة واحدة فيه وعدد من الرجال تختارهم المرأة التي تكون زوجة مشتركة بينهم. وعُرِّف بأنه زواج يجتمع فيه الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، وذلك برضاء منها وتواطؤ بينهم وبينها، فإذا حملت ووضعت، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي من أمركم، وقد ولدت. ثم تُسمي أحدهم وتقول: فهو ابنك يا فلان. تُسمي من أحبَّت

---

(١) دلو: جـ١ ص١٧٦.

(٢) علي: جـ٥ ص٥٢٧.

باسمه، فيلحق به ولدها، ولا يستطيع أن يمتنع الرجل. وقد يكون هذا في المولود الذكر وإلا فلا تفعل، لما عُرف عن كراهيتهم للبنت وخشية من قتلهم للمولودة[(١)].

وعُرِف **الثاني** بزواج صواحبات الرايات، وهو ضرب من النكاح يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة، لا تمنع من جاءها. إنهن البغايا، كن ينصبن رايات على أبوابهن تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها، جُمعوا لها، ودعوا لهم، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فاستلحق به، ودُعي ابنه لا يمتنع من ذلك[(٢)].

الواقع أن هؤلاء النكاحين ليسوا في الحقيقة أزواجاً بالعرف الشائع عند غالبية الجاهليين، كما أن هذين الضربين من النكاح ليس فيهما صداقاً ولا خطبة على عادة العرب، ومن كان يفعله من الرجال إنما يقصد به التسلية وتحقيق شهوة بثمن، إنهما أذن من أبواب الزنا والسفاح.

لكن هذا النوع من تعدد الأزواج للزوجة الواحدة، يُسبب مشكلة خطيرة تتعلق بتعيين أبوة الأولاد، إذ من الصعب في أكثر الحالات تعيين أو إثبات ذلك، ولهذا نُسبوا إلى الأمهات في الغالب، وهو ما يُعرف بالأمومة[(٣)].

والجدير بالذكر أن هذا النوع من الزواج كان نادراً في جزيرة العرب، وإنما أملته ظروف اجتماعية بفعل قلة عدد النساء، وبخاصة عند القبائل التي عندها وأد البنات.

نكاح الاستبضاع: يُعدُّ نكاح الاستبضاع نوعاً آخر من زواج المشاركة، حيث كان الرجل يقول لامرأته أو أمته، إذا طهرت من الطمث: أرسلي إلى فلان، أحد الأشراف أو الزعماء أو النجباء، فاستبضعي منه؛ أي اطلبي منه الجماع لتحملي منه، ويعتزلها، فلا يمسها حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي استبضعت منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك، إما رغبة في نجابة الولد أو الحصول على ذرية قوية تساعده في القيام بأعماله وخدمته في بيته أو للمبادلة والاتجار بهدف كسب الربح، وكان يمارس هذا النوع المتاجرون بالرقيق للربح والكسب المادي[(٤)].

وقد تُقدم المرأة على هذا العمل إذا كانت غير ذات زوج أو ترغب في الحصول على ولد نجيب ذي أهمية. تذكر روايات المصادر أن عبد الله بن عبد المطلب، والد الرسول ﷺ، مرَّ بامرأة من بني أسد، وعندما شاهدته ونظرت في وجهه رأت

---

(١) القسطلاني، أحمد بن محمد...: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: جـ١١ ص٤٢٧، ٤٢٨. الألوسي: جـ٢ ص٢ ـ ٥.

(٢) الألوسي: جـ٢ ص٢ ـ ٥.

(٣) علي: جـ٥ ص٥٤٢.

(٤) المرجع نفسه: ص٥٣٩.

فيه نوراً، فدعته إلى نفسها مقابل مائة من الإبل، فأبى[١].

نكاح البعولة أو الصداق: هو الزواج الشائع بين الجاهليين والقائم على الخطبة والمهر، والإيجاب والقبول، وهو زواج منظم رتَّب الحياة العائلية، وعيَّن واجبات الوالدين والبنوة، ويكون الرجل بموجبه بعلاً للمرأة، فهي في حمايته وتحت رعايته. وهذا النوع من الزواج على ضربين:

الأول: أن يكون للزوج زوجة واحدة، يحصل عليها بالتراضي مع أهلها، ويتم ذلك بخطبة ومهر بأن يخطب الرجل من الرجل ابنته، فيصدقها بصداق يحدد مقداره ثم يعقد عليها. ويتبع الأولاد، في هذا النوع من الزواج، الأب الذي له السيادة المطلقة في الأسرة مع الرغبة الصريحة في إنجاب أولاد تكون أبوتهم ثابتة، وهذا ضروري لأن الأولاد سيملكون أموال والدهم ذات يوم بوصفهم ورثته المباشرين. وتمتاز الزيجة الأحادية بمتانة عراها وديمومتها مع إعطاء الأب بصورة عامة حق فسخ العقد وطلاق زوجته، وعلى الزوجة أن تصون سمعة زوجها وتتقيد بواجب العفاف، كما أن حق الخيانة الزوجية لا يزال مضموناً للزوج، فإذا انتهكت هذا الحق فإنها تتعرَّض لعقاب قاسٍ. ارتكز زواج البعولة الآحادي على الشروط الاقتصادية الخاصة بصيانة الملكيَّة الفردية وتوريثها، وشكَّل انتصاراً على الملكية الجماعية البدائية ما يُعدُّ تقدماً تاريخياً كبيراً في مسار الشعوب الاجتماعي.

الثاني: أن يكون للزوج أكثر من زوجة، وهو ما يقابل نكاح تعدد الرجال للزوجة الواحدة. فقد يحدث أن يتزوج الرجل عدداً غير محدود من النساء؛ أي أكثر من زوجة واحدة في آن واحد، من الأحرار والأسيرات والإماء. وشاع هذا الضرب من الزواج في مرحلة الجاهلية القريبة من ظهور الإسلام في أوساط زعماء القبائل وأثرياء العرب؛ أي أنه كان امتيازاً للأغنياء والأعيان. رُوي أن غيلان الثقفي أسلم بعد فتح الطائف وكان تحته عشر نسوة في الجاهلية[٢]. وقد تفشَّى هذا الضرب من الزواج بفعل تفكك الروابط الاجتماعية القبلية، وظهور الملكية الخاصة، والانتقال من نظام الأمومة إلى نظام الأبوة[٣].

نكاح الضيزن: هو نكاح المقت أو الزواج بالميراث أو نكاح العضل، معروف لدى الجاهليين، وهو أن يتزوج الابن الأكبر زوجة أبيه بعد وفاته كجزء من ميراثه، وذلك للحفاظ على ثروة الأسرة والعشيرة ومن بينها الزوجة والأولاد، ذلك أن

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص١٧٨.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة: جـ٤ ص١٧٢.

(٣) دلو: جـ١ ص١٩١.

إحداهن إذا مات زوجها كان ابنه أو قريبه أولى بها من غيره، إن شاء نكحها وإن شاء عضلها فمنعها من أن تتزوج رجلاً غيره، ولم يزوجها حتى تموت فيرث ميراثها إلا أن تفتدي نفسها منه بفدية ترضيه، لذلك عُرَف هذا النكاح أيضاً بنكاح العضل.

كان هذا النوع من الزواج ممقوتاً من جانب أكثرية الجاهليين، لذلك لم ينتشر بشكل واسع، وأطلقوا على الرجل الذي يخلف امرأة أبيه، إذا طلقها أو مات عنها، الضيزن، ونعتوا الولد الذي يولد من هذا الزواج، مقتي ومقيت[1]. قال أوس بن حجر التميمي يُعيِّر ثلاثة من بني قيس بن ثعلبة تناوبوا على امرأة أبيهم:

والفارسية فيهم غير منكرة   فكلهم لأبيه ضيزن سَلِف[2]

كان إعلان دخول زوجة المتوفى في ملك الابن أو الوارث يتم بطرح ثوبه على الأرملة لإثبات حقه في أن يمتلكها ضمن الميراث[3]، ويقابل ذلك خلع النعل إذا تنازل الوارث عن حقه في نكاحها، فكان الخلع بمعنى التنازل ومنحها حريتها. ظل نكاح زوجات الآباء شائعاً إلى أن نزل وحي بتحريمه[4].

شاع نكاح زوجات الآباء بين العبرانيين، وكذلك عُرفت هذه العادة بين الرومان والسريان.

نكاح المتعة: هو زواج إلى أجل، فإذا انقضى وقع الفراق. كان هذا النوع من الزواج معروفاً في الجاهلية وعند ظهور الإسلام وواسع الانتشار، وقد أشار إليه القرآن الكريم[5].

وللفقهاء آراء في زواج المتعة، ولا يزال معروفاً في بعض المذاهب، وروى البخاري في صحيحه حديثاً بتحريمه[6].

من دوافع حدوث هذا الزواج، التنقل والأسفار والحروب، حيث يضطر المرء إلى الاقتران بامرأة لأجل على صداق معين، فإذا انتهى الأجل انفسخ العقد، وعلى المرأة أن تعتد كما في أنواع الزيجات الأخرى قبل أن يُسمح لها بالاقتران بزوج آخر.

ويُنسب أولاد المتعة إلى أمهاتهم في الغالب، وذلك بسبب اتصالهم المباشر بالأم، ولارتحال الأب عن الأم إلى أماكن أخرى قد تكون نائية، فتنقطع الصلات بينهما، ولهذا يأخذ الأولاد نسب أمهم ونسب عشيرتها، كما أن للأولاد حق الانتساب إلى آبائهم وحق الإرث.

---

(١) الألوسي: جـ٢ ص٥٣.
(٢) ابن منظور: جـ١٣ ص٢٥٤.
(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: جـ١ ص٤٦٤.
(٤) سورة النساء، الآية: ٢٢.
(٥) سورة النساء، الآية: ٢٤.
(٦) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: جـ١١ ص٧٠، ٧١.

الواضح أن عرى هذا الزواج ليست متينة، كما أن المرأة ما تزال تتمتع في ظله بشيء من حرية ممارسة علاقاتها الجنسية مع الآخرين عند انتهاء أجل القران ورفضها تجديده لتقترن بآخر بعقد جديد إلى أجل معين.

نكاح البدل: هو تبادل الزوجات، فيقول الرجل للرجل: إنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي، أو: بادلني بامرأتك أبادلك بامرأتي، إنه زواج بطريق المبادلة بغير مهر[١].

نكاح الشغار: هو شكل من نكاح البدل، فيزوِّج الرجل ابنته أو أخته أو من ولي أمرها لآخر، على أن يزوجه الآخر ابنته أو أخته أو من ولي أمرها، ليس بينهما مهر، وقد خصَّ بعضهم به القرائب. أنه نكاح شاع في الجاهلية وقد نهى الإسلام عنه[٢].

نكاح السبي: إذا سبى رجل امرأة فله أن يتزوجها إن شاء، وليس لها أن ترفض ذلك لأنها في سبيه، وتُعدُّ من أملاكه يتصرف بها كما يشاء، ويكون هذا الزواج بغير خطبة ولا مهر، ولا يُشترط رضا أهلها، إنه حق المحاربين المنتصرين في نساء المحاربين المغلوبين. ويتم الزواج إذا لم تُفتد المرأة بفداء أو يحررها قومها عنوة.

كان زواج السبي من أشهر أنواع الزواج المعروف عند العرب، ذلك أنه كان أحد الأهداف الأساسية من الحروب والغارات. وكانت المرأة المأخوذة بالسبي تُعرف بالنزيعة، لانتزاعها من أهلها وفصلها عنهم، ويُعرف ابنها بالنزيع، قال المرار:

عَقَلْت نساءهم فينا حديثاً ضنين المال والولد النزيعا[٣]

وكان فرسان العرب يفتخرون بخطف النساء وأسرهن، وقد كفاهم السيف المهر والثمن، قال حاتم الطائي:

وما أنكحونا طائعين بناتهم ولكنا خطبناها بأسيافنا قسرا
فما زادها فينا السبا مذلة ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدرا[٤]

نكاح الإماء: هو أن يتزوج الرجل من أمته التي يعدها من متاعه وملكه، فإذا استولدها لا يحق للأولاد أن يلحقوا بنسبه، ويظلوا عبيداً له وإماء، إلا إذا قدَّموا خدمة كبيرة للقبيلة، كما فعل عنترة بن شداد بفعل شجاعته الفائقة[٥]، وقد يعتق الرجل أمته وأولاده إذا رغب في ذلك.

كان الجاهليون يبغضون أن تلد إماؤهم منهم، ويُطلِقون على ابن الأمة هجيناً،

---

(١) الألوسي: ج٢ ص٥.
(٢) ابن منظور: ج٤ ص٤١٧. العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ج١١ ص٦٦.
(٣) ابن منظور: ج٨ ص٣٥٠، ٣٥١. (٤) ابن عبد ربه: ج٦ ص١٣٠.
(٥) الأصفهاني: ج٨ ص٢٣٧، ٢٣٩.

والهجين من كان أبوه عربياً ووالدته أمة[١]، والهجين عند العرب الذي أبوه شريف وأمه وضيعة، والأصل في ذلك أن تكون أمة.

وكان الهجناء، أولاد الإماء السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم، أوضع الهجناء منزلة، فهم سُبَّة يُعيَّر بهم آباؤهم، من هنا أطلقوا عليهم الأغربة، تشبيهاً بذلك الطائر المشؤوم في لونه الأسود، ونسبوهم في الغالب إلى أمهاتهم[٢].

نكاح الخدن: هو اتخاذ أخلَّاء في السر، كأن يتخذ الرجل صديقة له أو تتخذ المرأة صديقاً لها. ويتم نكاح الخدن بالتراضي واتفاق الطرفين. إنه شكل من أشكال الزنا الخاص السري، فلا تبذل المرأة نفسها لكل أحد، ولا يعد نكاحاً وإن أطلق عليه أهل الأخبار صفة النكاح لأنه لا يكون بعقد وخطبة، وإنما هو صداقة. وكان الجاهليون يحرمون ما ظهر من الزنا ويعدونه عيباً، ويستحلون ما خفي؛ لأنه وقع عن قبول ورضى، فهو عمل حلال[٣]. وكان الرجل في الجاهلية يتخذ خدناً لجواريه ليحدث الجارية ويصاحبها ويؤانسها حتى لا تستوحش، وقد يتصل بها جنسياً[٤].

نكاح المضامدة: وهو أن تتخذ المرأة ذات الزوج خليلاً واحداً أو أكثر غير زوجها. وتطلق المضامدة على معاشرة المرأة لغير زوجها. وكانت نساء القبائل الفقيرة تلجأ إلى هذا النوع من النكاح، أيام القحط والشدة، وتضطرها المسبغة إلى دفع نسائها إلى الأسواق العامة لمضامدة رجل ثري تنقطع إليه وتختص به، حتى إذا أيسرت بالمال والطعام عادت إلى زوجها الأول، وفي ذلك يقول مدرك:

لا يُخلصُ الدهرَ خليلٌ عَشرا
ذاتَ الضماد أو يزورَ القبرا
إني رأيتُ الضمد شيئاً نُكْرا[٥]

وقد يختار رئيس القبيلة أو أحد أعيانها امرأة لتضامده ويوقفها على نفسه، فلا يجرؤ أحد على دعوتها إليه لمعاشرتها بفعل منعة صاحبها، فهذا معاوية بن عمرو، أخو الخنساء، وقد وافى سوق عكاظ، فبينما هو يمشي لقي أسماء المرية وكانت جميلة وبغياً، فدعاها إلى نفسه فامتنعت عليه وقالت: «أما علمت أني عند سيد العرب هاشم بن حرملة؟ فقال: أما والله لأقارعنَّه عنكِ، قالت: شأنك وشأنه. . .»[٦].

---

(١) ابن منظور: ج١٣ ص٤٣١.
(٢) المصدر نفسه: ج١ ص٦٤٠، ٦٤٦.
(٣) تفسير ابن كثير: ج١ ص٤٧٥.
(٤) ابن منظور: ج١٣ ص١٣٩.
(٥) المصدر نفسه: ج٣ ص٢٦٦.
(٦) الأصفهاني: ج١٥ ص٨٨.

الصداق

الزواج المألوف عند غالبية الجاهليين هو الزواج اليوم، وهو أن يخطب الرجل إلى الرجل ابنته أو وليته، فيصدقها؛ أي يعين صداقها ويُسمي مقداره ثم يعقد عليها. وكانت قريش وكثير من قبائل العرب على هذا الضرب من النكاح، وما يُدفع يُسمى الصداق أو المهر، ويُعدُّ فريضة لصحة عقد الزواج، ويُشكل دلالة على شرعيته، ولا يقر الجاهليون زواجاً إلا إذا كان بمهر وإلا عُدَّ سفاحاً وزنى.

فالمهر إذن هو علامة شرف كون المرأة حرة محصنة لها كامل الحقوق. ولا يُشترط دفع المهر إذا كانت المرأة قد وقعت في الأسر، فيتزوجها آسرها بوصفها ملكه، وله حق الدخول عليها بغير مهر حتى وإن كانت في عصمة رجل آخر؛ لأن الأسر يُبطل عصمة الزواج[١].

وكانوا يخطبون المرأة إلى أبيها أو أخيها أو عمها أو بعض بني عمها، والقاعدة العامة مراعاة الوضع الاجتماعي، بحيث يخطب الكفي إلى الكفي، فإن كان أحدهما أشفَّ من الآخر في الحسب، أرغب له في المهر، وإن كان هجيناً خطب إلى هجين، فزوجته هجينة مثله.

يدفع المهر للمرأة بوصفه حقاً لها، غير أن ولي أمرها هو الذي يأخذه لينفق منه على تجهيزها، وقد يأخذ المهر لنفسه ولا يُعطي المرأة منه شيئاً لاعتقاده أن ذلك حق يعود إليه، لذلك نهى الإسلام عنه. وللمرأة حق استرداد مهرها إذا فسخ الزوج عقد الزواج أو إذا طلَّقها، إلا إذا كان ذلك بسبب الزنى فيسقط. وإذا كان المهر مؤجلاً كله أو بعضه، فيكون ديناً في عنق الزوج، وإذا توفي وجب دفعه لامرأته من تركته، وفي المقابل، يجوز للرجل استرداد مهره من تركة زوجته إن ماتت في حياته، وفي حال عدم وجود تركة لها، يحق له مطالبة أهلها برده[٢].

ذكر أهل الأخبار عن المهر أن الجاهليين لم يكونوا على عُرف واحد فيما يتعلَّق بحق الانتفاع من المهر، فمنهم من كان يعطيه كله للمرأة، ومنهم من كان يعطيه كله ويزيد عليه إكراماً لابنته أو ولي أمرها، ومنهم من كان يأكله كله أو بعضاً منه[٣].

الطلاق

وكما كان الزواج كان الطلاق، عند العرب الجاهليين، وهو يعني عندهم تنازل الرجل عن حقوقه التي كانت على زوجته ومفارقته لها، ومن مصطلحاته؛ أن يقول

(١) علي: جـ٥ ص٥٢٧.

(٢) المرجع نفسه: ص٥٣١.

(٣) المرجع نفسه.

الرجل لزوجته إذا طلَّقها: «حبلك على غاربك»، «أنت مخلَّى كهذا البعير»[١]، «الحقي بأهلك»، «اخترت الظباء على البقر»، «فارقتك»، «سرحتك»، وما شابه ذلك من عبارات. وورد أن الجاهليين كانوا يقولون: «أنت برية، أنت خلية»[٢]، فتطلق بها الزوجة.

والطلاق الذي شاع في المجتمع الجاهلي على أنواع، منه:

البائن: وهو طلاق المرأة ثلاثاً على التفرقة، والطلاق البائن هو الذي لا يملك الزوج فيه استرجاع المرأة.

إلا أنهم أوجدوا مخرجاً لتجاوز الطلاق البائن ورجوع الزوج إلى زوجته بعقد جديد، وهو أن تتزوج رجلاً غيره على أن يطلقها بعد اقترانه بها، ويُقال لهذا الرجل «المحلِّل» «التيس المستعار» «المُجحِّش»[٣].

الظهار: هو نوع آخر من الطلاق، وأصله من الظهر، وهو أن يقول الرجل لامرأته: «أنت علي كظهر أمي». وإنما خصوا به الظهر من دون البطن والفخذ والفرج، وهذه أولى بالتحريم؛ لأن الظهر موضع الركوب، والمرأة مركوبة إذا غُشيت، وقد أراد: ركوبك للنكاح عليَّ حرام كركوب أمي للنكاح، فأقام الظهرَ مقام الركوب لأنه مركوب[٤].

الإيلاء: هو هجر المرأة مدة لا يقترب خلالها منها، قد أشير إليه برواية تُنسب إلى ابن عباس[٥].

الخلع: الطلاق حق من حقوق الرجل في الغالب، بيده حله وعقده، أما الزوجة فليس لها ذلك، لكن لها العدة، إلا أنها تستطيع خلع نفسها من زوجها بالاتفاق معه على ترضية تقدمها إليه مقابل تخلية سبيلها، وافتداء نفسها بها، ويُقال لهذا النوع من الطلاق، الخلع. وكان بعض النسوة الشريفات يشترطن على أزواجهن أن يكون أمرهن بأيديهن.

العدَّة

ليس للمطلقة في الجاهلية عدة، وإنما العدة على التي توفي عنها زوجها، ومدتها حول كامل. وقد ذكر أن المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حِفْشاً، ولبست شرَّ ثيابها، ولم تمس طيباً حتى تمر بها سنة، ثم تؤتى بدابة حمار أو طائر فتفتض به،

(١) ابن منظور: جـ١ ص٦٤٤.
(٢) المصدر نفسه: جـ١٤ ص٢٤١.
(٣) ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: سنن ابن ماجه: جـ١ ص٦٢٢، ٦٢٣.
(٤) ابن منظور: جـ٤ ص٥٢٨. تفسير ابن كثير: جـ٤ ص٣٢٠.
(٥) العسقلاني: جـ١١ ص٣٤٦.

ثم تخرج فتعطى بعرة فتُرمى بها ثم تُراجع بعد ما شاءت من طيب أو غيره. وكانت المعتدة لا تمس ماء ولا تقلم ظفراً ولا تزيل شعراً، ولا تستعمل طيباً، ولا كحلاً، ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر[1].

النسب

يُنسب الولد في العرف الجاهلي إلى الأب، والحجة في ذلك أن الولد للفراش، وهو يرث والده، ولهذا أُلحق أولاد الزنى بآبائهم، فنسبوا إليهم، أما إذا كثر أزواج المرأة، فيلحق المولود بالوالد الذي تحدده المرأة أو حسب الشبه إن وقع فيه خلاف[2].

والاستلحاق معروف في الجاهلية، وهو أن يعترف رجل بأبوته لولد ويدَّعيه ابناً له، فيلحق هذا الابن به. وقضى رسول الله ﷺ أن كل مستلحق استلحق بعد أبيه الذي يُدعى له، فقد لحق بمن استلحقه، وذلك أنه كان للجاهليين إماء بغايا، وكان سادتهن يلمُّون بهن، فإذا ولدت إحداهن ولداً ربما ادَّعاه السيد والزاني، فألحقه النبي ﷺ بالسيد لأن الأمة فراش كالحرة، فإن مات السيد ولم يستلحقه ثم استلحقه ورثته بعده، لحق بأبيه، وفي ميراثه خلاف[3].

وإذا استلحق الرجل ولد أمته به صار ولده؛ لأن سادات الإماء كانوا يتصلون بإمائهم في الجاهلية من غير عقد زواج، بوصف الأمة مُلك مالكها وسيدها، فله حق إلحاق أبنائها به إن شاء[4].

التبني

شاعت في المجتمع الجاهلي ظاهرة التبنِّي، فيجوز لأي شخص أن يتبنَّى، ويكون للمتبنَّى الحقوق الموروثة المعترف بها للأبناء، ويُعدُّ المتبنَّى بذلك فرداً من أفراد الأسرة التي تبنَّته. ويتم التبنِّي بالاتفاق مع والد الطفل أو ولي أمره أو مالكه، ومتى تمَّ ذلك يُعلن المتبنِّي عن تبنيه للولد وإلحاقه به، ويشهد جماعة من الناس على ذلك تجنباً لحدوث نزاع في المستقبل[5].

الوأد

مفهومه: الوأد هو دفن البنات وهن أحياء. ويُقال وأد ابنته يئدها وأداً: دفنها في القبر وهي حية. والموؤودة اسم يقع على من كان بعض الناس من العرب يدفن

---

(١) الألوسي: ج٢ ص٥٠.
(٢) العسقلاني: ج١١ ص٣٦٤، ٣٦٦.
(٣) ابن منظور: ج٦ ص٣٢٧. ج١٠ ص٣٢٨.
(٤) علي: ج٥ ص٥٥٩.
(٥) المرجع نفسه.

البنت حية، وهو وائد، وهي وئيدة ووئيد وموؤودة. أنشد ابن الأعرابي:

ما لقي الموؤود من ظلم أمه كما لقيت ذهل جميعاً وعامر[1]

كان الوأد من المشكلات الاجتماعية البارزة في المجتمع الجاهلي، ويؤثر معظم العرب البنين على البنات، وهو أمر طبيعي في مجتمع قبلي يقوم على العصبية والنسب والصيد والغزو والحروب، وفي ظل سيادة نظام الأبوة.

كان عدد كبير من عرب الجاهلية يكرهون البنات، وقد صوَّر القرآن الكريم حال الجاهلي النفسية إذا بشَّروه بولادة بنت تصويراً رائعاً. قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل/٥٨، ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف/١٧]. فيحزن ويسودُّ وجهه من الحزن، ويختلي بنفسه، ويفكر في الاحتفاظ بهذه البنت مع احتمال المذلة والهوان في ذلك أو دفنها حية.

ويروي الإخباريون كثيراً من الأمثلة على شيوع كراهية العرب للبنت عند ولادتها، من ذلك أن رجلاً يُدعى أبو حمزة الضبي وضعت زوجته أنثى فهجرها وراح يبيت عند جيرانه، فمرَّ يوماً بخبائها فإذا هي تُرقصها وتُغني لها وتقول:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا تا اللّه ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أُعطينا ونحن كالأرض لزارعينا
تنبت ما قد زرعوه فينا

فأسف الرجل وثاب إلى رشده عند سماع ذلك، فدخل الخباء وأقبل على زوجته وصالحها بأن قبَّل رأسها كما قبَّل رأس ابنته وقال: «ظلمتكما ورب الكعبة»[2].

وقد دفع مبالغة بعض العرب في بغضهم للبنات عند ولادتهن إلى حدِّ الوأد مخافة العار والحاجة، فكان الرجل يحفر حفرة لابنته المولودة ثم يضعها فيها ويهيل عليها التراب، فيدفنها حية ويحرمها من حق الحياة من دون ذنب، وهي جريمة بشعة بطبيعة الحال أياً كانت مبررات الوأد. وقد عبَّر القرآن عن السخط، وسفَّه ممارسة الوائدين بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير/٨، ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ[3] خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء/٣١].

---

(١) ابن منظور: ج٣ ص٤٤٢.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين: ص١٠٨، ١٠٩.

(٣) المقصود بناتكم.

أسبابه: تعدَّدت أسباب الوأد، واختلف الباحثون في توضيحها، نذكر منها:

- شعور العربي الجاهلي بالغيرة والخوف من الفضيحة والعار الذي تجلبه بناته إذا كبرن وتعرَّضن للسبي على أيدي المغيرين والمغتصبين، وذُكر أن أول من وأد بناته في الجاهلية قيس بن عاصم المنقري من تميم. وكان قيس هذا من وجوه قومه وفرسانهم وشجعانهم وأغنيائهم، وسبب وأده لبناته أن المشمرج اليشكري أغار على بني سعد، فسبى منهم نساء، واستاق أموالاً، وكان في النساء امرأة، خالها قيس بن عاصم، وهي رميم بنت أحمر بن جندل السعدي، وأمها أخت عاصم، فرحل قيس إليهم يسألهم أن يهبوها له أو يَفْدُوها، فوجد عمرو بن المشمرج قد اصطفاها لنفسه، فسأله فيها، فقال: قد جعلت أمرها إليها، فإن اختارتك فخذها، فخُيِّرتْ، فاختارت عمرو بن المشمرج، فانصرف قيس فوأد كل بنت، وجعل ذلك سُنَّة في كل بنت تولد له، واقتدت به العرب في ذلك، فكان كل سيد يولد له بنت يئدها خوفاً من الفضيحة[1].

قد يبدو أنه من المستبعد أن يكون عاصم بن قيس هو أول من وأد بناته واقتدت به العرب في ذلك لأنه أدرك الإسلام وأسلم، ولا يمكن لظاهرة الوأد أن تنشأ وتنتشر بين القبائل قبل الإسلام بسنوات معدودة، ويبدو أنها نشأت أولاً في ربيعة، ذلك أنه لما أُغير عليهم سبيت بنت أمير لهم، فحاول استردادها بعد الصلح، فخُيِّرتْ بين أبيها ومن هي عنده، فاختارت من كانت عنده وآثرته على أبيها، فغضب وسنَّ لقومه الوأد، ففعلوه غيرة منهم وخشية أن يقع لهم بعد مثل الذي وقع، فشاع ذلك بين العرب، وتُرجع بعض الروايات الوأد إلى كندة[2].

- الخوف من الفقر عند الفقراء وتوقُّعه عند الأغنياء، والجوع في المستقبل بفعل الجدب والجفاف الكثير الحدوث في الجزيرة العربية نظراً لندرة الأمطار، وما ينتج عن ذلك من مجاعات، وما يقاسيه السكان من مرارتها، بالإضافة إلى سوء توزيع الثروة بين أفراد القبيلة، ويُعدُّ العامل الاقتصادي أقوى العوامل.

ورد في القرآن الكريم أن بعضهم كان يئد بناته خشية الفقر والإملاق، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء/ ٣١]، ويقول أيضاً: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ﴾ [الأنعام/ ١٥١].

إن تقديم رزق الآباء على الأبناء في هذه الآية يتضمن توقع الفقر والخوف منه، والمقصود بهؤلاء الآباء الأغنياء منهم. أما تقديم رزق الأبناء على الآباء في الآية

(١) الأصفهاني: ج١٤ ص٧١.

(٢) الألوسي: ج٣ ص٤٢، ٤٣.

الأولى، فيشير إلى حدوث فقر، والمقصود بأولئك الآباء الفقراء منهم بالفعل(١).

وظاهرة وأد البنات كانت شائعة عند العرب، لأن ولادة البنت مع الفقر أو توقعه يُعدُّ نكبة على الأب، أما الصبيان فكان يُرجى منهم النفع لأنهم أقدر على الكسب من البنات، لذلك لا حرج من الإبقاء عليهم مع الفقر والفاقة(٢). وعلى الرغم من ذلك فإن الوأد لم يكن قاصراً على الإناث، فقد وُجد أناس في الجاهلية من نذر قتل الابن العاشر من الذكور، كما فعل عبد المطلب عندما همَّ بقتل ابنه عبد الله، فحماه أخواله وافتُدي عبد الله بمائة من الإبل(٣).

- التشاؤم بسبب عاهة مرضية، مثل ولادة البنت وبها عاهة قبيحة، فكان منهم من يئد من البنات من كانت زرقاء شيماء أو برشاء أو كسحاء، وكان يفعل ذلك قليل منهم(٤).

- وفاء بنذر أو إرضاء الآلهة، كإظهار الشكر على نعمة، وهو أثر من آثار تقاليد وشعائر دينية كانت معروفة تقرباً إلى الآلهة.

- عوامل اجتماعية، منها ما له علاقة بصحة الطفلة، كما ذكرنا، بحيث تصبح عالة على أهلها، ومنها ما له علاقة بكثرة عدد البنات.

لم تكن ظاهرة الوأد عامة بين العرب وإنما شاعت في بعض القبائل مثل بني تميم وقيس وهذيل وكندة وبكر وقريش(٥). وحتى هذه القبائل كان الوأد فيها متفاوتاً، وإلا كيف نجا آلاف النسوة من الوأد وأدركن الإسلام؟ بدليل أن بعض سادات العرب من بني تميم كانوا يعيبون وأد البنات، وينقذونهن من جريمة الوأد القاسية، واشتهر بذلك صعصعة بن ناجية، جدُّ الفرزدق، حتى سمي «محيي الموؤودات»، وقد مرَّ يوماً برجل من قومه وهو يحفر بئراً وامرأته تبكي، «فقال لها صعصعة: ما يبكيك؟ قالت: يريد أن يئد ابنتي هذه. فقال له: ما حملك على هذا؟ قال: الفقر. قال: فإني أشتريها منك بناقتين يتبعهما أولادهما، تعيشون بألبانهما، ولا تئد الصبية. قال: قد فعلت. فأعطاه الناقتين وجملاً، كان تحته، فحلاً وقال في نفسه: إن هذه لمكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب. فجعل على نفسه ألا يسمع بموؤودة إلا فداها»، ففدى ثلاثمائة موؤودة وقيل أربعمائة، وفي رواية مائة موؤودة إلا أربعاً من دون أن يشاركه في ذلك أحد، حتى جاء الإسلام وأنزل الله تحريمه في القرآن، وقد فخر بذلك الفرزدق في قصائد عدة من شعره ومنها القصيدة التي أولها:

---

(١) تفسير ابن كثير: جـ٢ ص١٨٨. جـ٣ ص٣٨. الألوسي: جـ٣ ص٤٤، ٤٥.

(٢) سالم: ص٤٥١.

(٣) البلاذري: جـ١ ص٨٦، ٨٧.

(٤) الألوسي: جـ٣ ص٤٣، ٤٤.

(٥) سالم: ص٤٤٩.

على حينَ لا تُحيا البنات وإذ هُمُ ... عكوفٌ على الأصنام حول المُدَوَّرِ
أنا ابن الذي ردَّ المنية فضله ... فما حسبٌ دافعتُ عنه بمُعْورِ[1]
أبي أحد الغيثين صعصعة الذي ... متى تُخلف الجوزاءُ والدلو يُمطرِ
أجار بنات الوائدين ومَنْ يُجِرْ ... على الفقر يعلمْ أنه غيرُ مُخفَرِ

وقال أيضاً:

وجدِّي الذي منع الوائدات ... وأحيا الوئيد فلم يُوأد

وقد وفد صعصعة بن ناجية على الرسول ﷺ في وفد بني تميم، فقال له الرسول ﷺ: «ما شيء بلغني عنك فعلته؟ قال: يا رسول الله رأيت الناس يموجون على غير وجه، ولم أدرِ أين الوجه، غير أني علمت أنهم ليسوا عليه، ورأيتهم يئدون بناتهم، فعلمت أن ربَّهم لم يأمرهم بذلك، فلم أتركهم يئدون، وفديت من قدرت عليه»[2].

صفات العرب وقيمهم

الكرم: هو رد فعل إيجابي على قساوة الحياة وشظف عيشها، وكان صراع في الجاهلية بين الحاجة والواقع، فالجاهلي مُلزم، استناداً إلى ظروفه الذاتية والموضوعية، أن يكون كريماً، حيث الطبيعة الصحراوية وشدة الجدب، والكرم ليس بدعاً من القيم الجاهلية الأخرى، بحيث أضحت وفرة الفضائل وتنوع المآثر من سمات التميز التي اصطبغت بها فطرته، فكان يتباهى بكثرة الضيوف، وذبح الإبل وإطعامها للمحتاجين. والكريم في الجاهلية هو من أعطى فحرم نفسه وبذل من نصاب حاجاته الضرورية وهو الكثير الخير، والجواد المعطي الذي لا ينفد عطاؤه، الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل، والكرم أحد مظاهر السيادة قال حاتم الطائي:

يقولون لي أهلكت مالك فاقتصد ... وما كنت لولا ما تقولون سيدا[3]

وكان لعب الميسر أحياناً منبعثاً عن السخاء والكرم، ذلك أن أثرياءهم كانوا في شدة البرد وكلب الزمان ييسرون بالقداح؛ أي: يلعبون بالقداح، على جزور يجزؤونها، فإذا قمر أحدهم؛ أي: غلب، جعل أجزاء الجزور لذوي الحاجة والفقراء، وكان الشعراء يمدحون من يأخذ القداح، ويعيبون من لا ييسر ويسمونه البرم[4]، وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة بن مالك:

---

(١) ديوان الفرزدق: جـ١ ص٣٧٩.
(٢) الأصفهاني: جـ٢١ ص٢٧٦ ـ ٢٨١.
(٣) الحوفي، أحمد محمد: الحياة العربية من الشعر الجاهلي: ص٢٣٦.
(٤) ابن منظور: جـ١٢ ص٤٣.

وجزور أيسار دعوت لحتفها ... بمغالق متشابه أجسامها
أدعو بهن لعاقر أو مطفل ... بذلت لجيران الجميع لحامها
فالضيف والجار الجنيب كأنما ... هبطا تبالة مخصباً أهضامها[(١)]

فالشاعر يشير إلى جزور مما يذبح أصحاب الميسر، داعياً ندماءه لنحرها بسهام الميسر، حتى يبذل لحمها للجيران، فيشبعون كأنهم نزلوا بوادي تبالة ذي السهول الخصيبة[(٢)]. ويتجلّى كرمهم في إكرام الأرامل واليتامى والسائلين إذا ما اشتد البرد، وشحَّ المطر، ولم يجد الناس طعاماً، وفي ذلك تقول الخنساء:

وإن صخراً لكافينا وسيدنا ... وإن صخراً إذا نشتو لنحَّار[(٣)]

وكذلك في إكرام الضيف والترحيب به، يقول مضرس بن ربعي:

أبيت أعشية السديف وإنني ... بما نال حتى يترك الحي حامده[(٤)]

ومن مظاهر كرمهم إيقاد النيران ليلاً وبخاصة في الليالي الباردة لتمكين الغرباء من الاهتداء إلى الأماكن التي يقطنونها، وكانت توقد على المرتفعات. قال مضرس بن ربعي:

وإني لأدعو الضيف بالضوء بعدما ... كسى الأرض نضاح الجليد وجامده[(٥)]

وقال شريح بن الأحوص:

ومستنبح يبغي المبيت ودونه ... من الليل سجفاً ظلمة وستورها
رفعت له ناري فلما اهتدى بها ... زجرت كلابي أن يهر عقورها[(٦)]

وكان حاتم الطائي يأمر غلامه يساراً، إذا اشتد البرد وكَلِب الشتاء؛ أن يوقد ناراً في يفاع[(٧)] من الأرض لينظر إليها من أضلَّ الطريق ليلاً فيصمد نحوه، فقال في ذلك:

أوقد فإن الليل ليل قَرُّ ... والريح يا موقد ريح صرُّ
عسى يرى نارك من يمرُّ ... إن جلبت ضيفاً فأنت حرُّ[(٨)]

وكانوا يجتذبون الغرباء إلى أماكنهم بنباح الكلاب، وكانت عادة معروفة، فينبح الشخص الذي ضلَّ طريقه، فتنبح الكلاب على نباحه فيهتدي إلى مكان الضيف، وفي ذلك يقول النابغة الجعدي:

عوى في سواد الليل بعد اعتسافه ... لينبح كلب أو ليفزع قوم

---

(١) ابن منظور: ج١٢ ص٦١٦. الألوسي: ج١ ص٧١. أهضامها: قراها.
(٢) الحوفي: ص٢٣٦.
(٣) الأصفهاني: ج١٥ ص٨١.
(٤) الألوسي: ج١ ص٦٣. السديف شحم السنام، وكان تقديم السديف من مفاخر العرب.
(٥) المرجع نفسه.
(٦) المرجع نفسه: ص٦٦.
(٧) اليفاع: التل.
(٨) ابن عبد ربه: ج١ ص٢٨٧.

فجاوبه متسمع الصوت للقِرى   له عند إتيان الملمين مطعم
يكاد إذا ما أبصر الضيف للقِرى   يكلمه من حبه وهو أعجم[(١)]

ومن أسباب الهجاء عند الشعراء في الجاهلية إطفاء النار عندما تستنبح الأضياف الكلاب، ويُعبِّر عن ذلك الأخطل في هجائه لجرير بقوله:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم   قالوا لأمهم بولي على النار[(٢)]

ورُئي حاتم يوماً يضرب ولده لما رآه يضرب كلبة كانت تدل عليه أضيافه وهو يقول:

أقول لابني وقد سُطْتُ يديه   بكلبة لا يزال يجلدها
أوصيك خيراً بها فإنَّ لها   عندي يداً لا أزال أحمدها
تدل ضيفي عليَّ في غلس الـ   ـليل إذا النار نام موقدها[(٣)]

وأجواد الجاهلية الذين انتهى إليهم الجود ثلاثة نفر: حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي، وهَرِم بن سنان المري، وكعب بن مامة الإيادي، ولكن المضروب به المثل حاتم وحده[(٤)]، وكان يعتز بأنه عبد الضيف، فيقول في ذلك:

وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً   وما فيَّ إلا تلك من شيمة العبد[(٥)]

واقترن اسم كعب بن مامة الإيادي باسم حاتم الطائي:

كعب وحاتم اللذان تقسما   خطط العلا من طارف وتليد[(٦)]

الشجاعة: اتصف العرب الجاهليون بالشجاعة والبأس وعدم المبالاة بالموت، إما دفاعاً عن القبيلة التي ينتسبون إليها أو عن النساء، وصوناً لهن من المهانة وذل السبي، وتدرَّج هذا النمط السلوكي إلى الوفاء والإيثار، والعفو عند المقدرة، وإغاثة الملهوف، والاعتراف بشجاعة الخصم. وترتبط الشجاعة بالفروسية، وهما من المثل العليا عند العرب. وعرب البادية أكثر شجاعة من أهل المدن، ذلك أن الحياة الرعوية البسيطة، وقسوة الصحراء، فرضت عليهم السمو الخلقي، فصاروا يستهينون بالموت إلا تحت ظلال السيوف. يقول السموأل بن عادياء:

ما مات منا سيد حتف أنفه   ولا طُلَّ منا حيث كان قتيل
تسيل على حدِّ الظبات نفوسنا   وليس على غير السيوف تسيل[(٧)]

---

(١) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم: جـ٤ ص١٤.
(٢) محمد، حسين: الهجاء والهجاؤون في الجاهلية: ص٤٠.
(٣) ابن عبد ربه: جـ١ ص٢٨٩.
(٤) المصدر نفسه: ص٢٨٧.
(٥) الألوسي: جـ١ ص٧٥.
(٦) المرجع نفسه: ص٤٤٣.
(٧) ابن عبد ربه: جـ١ ص١٠١.

ولعل شعر سلامة بن جندل نموذج يُجسِّد أخلاق الفروسية، فهو يقول:

كـنـا إذا مـا أتـانـا صـارخ فـزع | كان الصراخ له قرع الظنابيب[1]
وشـد كَـوْرٍ عـلـى وجـنـاء نـاجـيـة | وشد سَرج على جرداء سرحوب[2]

ويقول أيضاً:

ألا هـل أتـت أبـنـاؤنـا أهـل مـأرب | كما قد أتت أهل الدنا والخورنق
بـأنـا مـنـعـنـا بـالـفـروق نـسـاءنـا | ونـحـن قـتـلـنـا مـن أتـانـا بـمُـلـزق[3]

نذكر من بين أشهر فرسان العرب الجاهليين: ربيعة بن مكدَّم من بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة، وكان يُعقر على قبره في الجاهلية، ولم يُعقر على قبر أحد غيره، وعنترة الفوارس، وعتبة بن الحارث بن شهاب، وأبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة، وزيد الخيل، وبسطام بن قيس، والاحيمر السعدي، وعامر بن الطفيل، وعمرو بن عبد ودٍّ، وعمرو بن معديكرب[4].

قال عمرو بن معديكرب يصف صبره وجلده في الحرب:

أعـاذل عُـدَّنـي بَـزيٍّ ورمـحـي | وكـل مـقـلِّـص سـلـس الـقـيـاد
أعـاذل إنـمـا أفـنـى شـبـابـي | إجابتي الصَّريخ إلى المنادي
مـع الأبـطـال حـتـى سـلَّ جـسـمـي | وأقـرح عـاتـقـي حـمـل الـنـجـاد[5]

وقد وصف الأعشى شجاعة قيس بن معديكرب بالبسالة والجرأة في ميادين الحرب حيث كان يقاتل من دون ترس، وذلك أنه كان متيقناً أن الإنسان سيموت حتماً، فلكل امرئ أجل محتوم، فقال:

كـنـتَ الـمـقـدم غـيـر لابـس جُـنـة | بـالـسـيـف تـضـرب مُـعـلـمـاً أبـطـالـهـا
وعـلـمـت أن الـنـفـس تـلـقـى حـتـفـهـا | ما كان خالقها المليك قضى لها[6]

العفة: يُعدُّ التسامي عن الدنايا والنقائص من صفات العربي الجاهلي، وإذا وُجد في المجتمع الجاهلي من انغمس في الملذات، وتغزَّل في النساء غزلاً بعيداً عن البراءة؛ فقد كان من العرب الجاهليين من اتصف بالعفة وافتخر بها، وغضِّ النظر عن نساء غيره.

كانت عفة العربي هي شرفه، وهي من شروط السيادة كالشجاعة والكرم، وقد عُرف الرجل الذي يتأثر بالنساء في مسيرهن، ويجعل همه ابتغاء المهينات منهن، جبان، ساقط الهمة، مغمور العرض؛ لأن مغالبة النفس، وقمع الهوى أدل على

---

(١) الظنابيب: عظم الساق، وعنى بذلك سرعة الإجابة.
(٢) ديوان سلامة بن جندل: ص١٢٣ ـ ١٢٧. الكور: رحل الناقة؛ أي: ما يُحمل على ظهرها. الوجناء الناجية: الناقة الغليظة السريعة. الجرداء السرحوب: الفرس الطويلة القصيرة الشعر.
(٣) المصدر نفسه: ص١٨٦.
(٤) ابن عبد ربه: جـ١ ص١١٦، ١١٧.
(٥) المصدر نفسه: ص١٢٠، ١٢١. الأصفهاني: جـ١٥ ص٢٢٦، ٢٢٧.
(٦) ضيف: ص٣٤٩.

الشجاعة، وكانوا يقولون: «ليس سيداً من غلبته شهوته». قال عنترة بن شداد:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها
إني امرؤ سمح الخليقة ماجد لا أتبع النفس اللجوج هواها[(١)]

ورثت الخنساء أخاها صخراً، فنوَّهت بعفته وغضِّه الطرف عن النساء، فقالت:

لم تره جارة يمشي بساحتها لريبة حين يختلي بيته الجار[(٢)]

الوفاء: كان الوفاء بالعهود وكراهية النكث والغدر من بين أعظم صفات العربي في العصر الجاهلي، ويتعرَّض من يغدر للتشهير في الاجتماعات العامة والأسواق الكبرى حتى يلحق العار به، وضربوا المثل في الوفاء بالسموأل بن عادياء الذي رفض أن يُسلم الحارث بن أبي شمر الغساني دروع امرئ القيس التي أودعها عنده أمانة، وتحصَّن في قصره بتيماء، فهدَّده الحارث بقتل ابن له، فلم يزده ذلك إلا إصراراً، عندئذ ضرب الحارث وسط الغلام بالسيف، فقال السموأل في ذلك:

وفيت بذمة الكندي إني إذا ما خان أقوام وفيت
وأوصى عاديا يوماً بأن لا تهدم يا سموأل ما بنيت
بنى لي عاديا حصناً حصيناً وبئراً كلما شئت استقيت[(٣)]

وقصة وفاء هانئ بن مسعود الشيباني لودائع النعمان بن المنذر وتضمَّن ماله وأهله وولده وألف شكة ويقال أربعة آلاف، وقد أدى وفاؤه، من واقع عدم تسليم الأمانة إلى كسرى عندما طالبه بذلك؛ إلى قيام الحرب بين العرب والفرس في ذي قار[(٤)]. كذلك ضُرب بوفاء حنظلة بن عفراء الطائي، إذ حكم عليه المنذر بن امرئ القيس، المعروف بابن ماء السماء؛ بالموت لأنه مرَّ بالحيرة في بعض أيام بؤسه، فطلب تأجيل الحكم مدة سنة ليرجع إلى أهله فيحكم فيهم بما يريد ثم يعود إليه فينفذ فيه أمره. وتكفل به شريك بن عمرو إذا لم يعد بعدها قُتل مكانه. وعندما انتهى الأجل جلس المنذر في مجلسه في يوم بؤسه ينتظر حنظلة، فأبطأ عليهم، فقدِّم شريك ليُقتل، فلم يشعر إلا وراكب قد طلع، فإذا هو حنظلة وقد تحنَّط ومعه نادبته تندبه، فتعجب المنذر من وفائه، فأطلق سراحه وعفا عنه، فقال حنظلة في ذلك:

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي فعددت قولهمو من الأضلال
إني امرؤ مني الوفاء سجية وفعال كل مهذب مفضال[(٥)]

---

(١) الصباح، محمد علي: عنترة بن شداد، حياته وشعره ص١٧٩.
(٢) الأصفهاني: ج١٥ ص٨١.
(٣) المصدر نفسه: ج٢٢ ص١١٩.
(٤) المصدر نفسه: ج٢٤ ص٥٩، ٦٠.
(٥) انظر القصة عند: الحموي: ج٤ ص١٩٩. الإبشيهي، شهاب الدين محمد: المستطرف في كل فن مستظرف: ج١ ص٤٢٩، ٤٣٠.

الفصل العاشر

الثقافات العلمية والعملية

الإنشاءات المعمارية

تمهيد

تعترض الباحث، في موضوع الثقافات العلمية والعملية عند العرب الجاهليين، صعوبات عدة بسبب قلة المادة الخاصة بها والتي يمكن الاعتماد عليها في رسم صورة أقرب إلى الواقع من المآثر التي حقَّقها هؤلاء في هذا المجال الثقافي، لكن يمكن الاستنتاج مما تبقَّى من آثار هذا التراث الفني، بالإضافة إلى ما دوَّنه الإخباريون والجغرافيون، وكذلك الشعر الجاهلي؛ أن هؤلاء اكتسبوا خبرات علمية وعملية متقدمة نسبياً بالمقارنة مع ما كان سائداً في أوساط جيرانهم. والواقع أنهم كانوا يختزنون هذه المعارف من تجاربهم الحية، ولكنها كانت متناثرة لأنها نتاج التجربة اليومية المباشرة العفوية وغير المقصودة لذاتها كتجربة من أجل المعرفة، وإنما هي استجابة لحاجات حيوية آنية متكررة تلقائياً في مجرى حياتهم اليومية العادية. وإذا كانت هذه المعارف قد اتخذت في أذهانهم بعد حصولها شكل المنطلقات القياسية، فإن ذلك لم يبلغ مستوى المعرفة العلمية لافتقارها إلى الاستقراء المنهجي، واستخلاص النتائج وربط بعضها ببعض في نسق من النظام العلمي، لكن ذلك لا يعني فقدان المقومات لنشوء ثقافة جاهلية متميزة بخصائص معينة، ذلك أن العرب في العصر الجاهلي لم يكونوا في سذاجة الجماعات الإنسانية الأولى من الناحية الفكرية[1]. وتشير الدراسات التي قام بها الباحثون على بعض المكتشفات الأثرية إلى تأثير الثقافة العربية الجاهلية بمؤثرات سورية، يونانية، هللينية، وعراقية ـ فارسية، وذلك بحكم الصلات التجارية والحضارية بين عرب الجزيرة ومن جاورهم من الأمم. وتشمل الثقافات العلمية والعملية التي سنبحثها الإنشاءات المعمارية والطب وعلم الفلك وعلم الأنواء، وهي تنحصر بأهل الحضر.

---

(١) مروة: جا ص٢٩٦، ٢٩٧.

السدود

يمكن الاستنتاج من آثار الأبنية والمنشآت المعمارية الأخرى؛ أن العرب الجاهليين اكتسبوا خبرات فنية وهندسية تجلَّت في إقامة السدود والحياض والآبار، والقصور، والمعابد، والأسوار الحصينة وبناء المدن، في اليمن والعربية الجنوبية والحجاز والعربية الشمالية.

ففي اليمن، أنشأ المهندسون والخبراء الفنيون السدود، ويُعدُّ سد مأرب أرقاها من الناحية الهندسية، ففيه ما ينم عن مجتمع عريق في الحضارة وفي الأعمال الفنية الرائعة، وسنقصر البحث في هذا المقام على دراسة إنشاء هذا السد من الناحية الفنية، بعد أن عالجنا تأثير إنشائه على الزراعة والحياة الاجتماعية[١].

الواقع أن المهندسين قاموا، قبل إنشاء هذا السد، بمعاينة طبيعة الأرض ثم بنوا عليها المخطط الهندسي للسد الذي هو عبارة عن حائط حجري ضخم أقيم في مربط الدم عند مخرج السيل من الوادي، وبُني على زاوية منفرجة، ممتداً من الجنوب إلى الشمال مسافة ستمائة وخمسين متراً، وله فتحات وأبواب تُفتح وتُغلق حسب الحاجة لمرور الماء منها إلى المسايل المتصلة بها لإرواء الحقول والبساتين والمزارع.

استُخدمت في بناء السد والحواجز حجارة بركانية كبيرة اقتطعت من صخور الجبال القريبة من مكان إقامته بلغ طول بعضها مترين وربع، نُحتت نحتاً متقناً ورُصفت فوق بعضها بشكل دقيق، وَوُصلت بعضها ببعض بقضبان من الرصاص والنحاس، ووُضعت بين الحجر والآخر مادة الملاط فمسكت تلك الأحجار حتى صارت كالإسمنت، ونُحتت بعض هذه الأحجار بحيث تتداخل بعضها في بعض، فتتماسك وترتبط ارتباطاً وثيقاً لتتحمل ضغط الماء عليها[٢].

قال الشاعر أبو الطمحان في سد مأرب:

أما ترى مأرباً ما كان أحصنه ... وما هو إليه من سور وبنيان[٣]

وتحكَّم المهندسون في الماء وسيطروا عليه، من خلال استخدامهم مخارج لضبطه في الدخول والخروج، وأنشأوا فتحات لتقسيم المياه وتوزيعها على المجاري والسواقي، تُفتح وتُغلق حسب الحاجة، وأبواباً لتصريف المياه الزائدة لتخفيف الضغط الشديد على السد والمخارج[٤].

---

(١) انظر: الفصل الثاني.

(٢) العظم، نزيه مؤيد: رحلة في بلاد العرب السعيدة: جـ٢ ص٩٢.

(٣) الهمداني: الإكليل: جـ٨ ص٤٥.

(٤) دلو: جـ١ ص٢٩٣.

وعمد اليمنيون إلى إنشاء حواجز وحوائط منخفضة، في الأماكن المرتفعة مثل الهضاب والجبال؛ لمنع مياه الأمطار من الانحدار، فتحصرها هذه الحواجز، فتسيل إلى المزارع لتسقيها. وقد تُعمل مجار في هذه الحواجز، ليسيل الفائض إلى أسفل فلا يُغرق الزرع، وقد تُوجَّه المياه إلى كهوف وآبار محفورة كخزانات لتمتلئ بالماء، للاستفادة منها في مواسم انحباس المطر. وتوجد في المعابد فوهات تدفع مياه الأمطار حين سقوطها إلى مجاري بُنيت تحت الأرض، تؤدي إلى صهاريج تخزن فيها، وخزن المياه على هذه الطريقة هو أسلوب متبع في الأماكن ذات الأرض الحجرية الصلبة[١].

وكان مهندسو الآبار يقومون بدراسة اختبارية في مكان حفر البئر، فإذا قربوا من الماء حفروا بئراً صغيرة في وسطه بقدر ما يحصلون على كمية كافية لمذاقه والوقوف على مدى عذوبته أو ملوحته، وتتوقف عملية استئناف الحفر عليها، ويُقال لذلك الاعتقام. قال العجاج يصف ثوراً:

بسلهبَيْن فوق أنفٍ أذلفا إذا انتحى مُعتَقِماً أو لجَّفا[٢]

وقد تخصَّص أناس باستنباط المياه وتقدير حفر الآبار، كما تخصَّص آخرون بالسيطرة على المياه وحصرها بالسدود. وسمى علماء اللغة المقدِّر لمجاري المياه القُناقن، وهو مثل المهندس في هذا الفن. والقُناقن: البصير بجر المياه واستخراجها قال الطرماح:

يخافتن بعض المضغ من خشية الردى ويُنصتن للسمع انتصات القناقن[٣]

ولا بد للمهندس من معرفة طبيعة الأرض، وفطنة بوجود الماء فيها أو عدمه ومدى عمقه، ولا بد من تخصُّص أناس بهندسة الآبار ليقوموا بهذا العمل الذي لا يمكن القيام به ما لم يسنده علم وفهم[٤].

وَوُجد في ثقيف بالطائف خبراء بعلم استنباط الماء من باطن الأرض، واشتهر أناس آخرون من قبائل أخرى بهذا العلم، كذلك، كانوا يتفرسون ويحدسون بوجود الماء من خلال نظرهم إلى لون التربة أو شمها أو شم رائحة بعض النباتات فيها أو مراقبة حركات الحيوان، بالإضافة إلى علامات أخرى عرفوها وأدركوها بالتجربة العملية[٥]. وعُرفت فراسة استنباط الماء من جوف الأرض بالإمارات الدالة على وجوده باسم الريافة[٦]. تُعدُّ الآبار من مصادر الحضارة في الجزيرة العربية.

---

(١) علي: جـ٨ ص٤٢٠.
(٢) ابن منظور: جـ١٢ ص٤١٤.
(٣) المصدر نفسه: جـ١٣ ص٣٥٠.
(٤) علي: جـ٨ ص٤٢٠.
(٥) المرجع نفسه: ص٤١٩.
(٦) الألوسي: جـ٣ ص٣٤٣.

الأحواض

أنشأ الجاهليون حياضاً في أماكن كثيرة من اليمن والعربية الجنوبية بهدف تخزين مياه الأمطار والإفادة منها عند الحاجة، وقت الجفاف، وقد أُحيطت بجدران متينة من الصخور صُنعت ورُتِّبت على هيئة مدرجات، حتى إذا انخفض مستوى الماء أمكن لمن يريد الاستقاء منها أن ينزل على هذه الدرجات حتى يبلغ الماء[١].

ولمنع تسرب الماء من الحوض، يُسدُّ ما بين الحجارة من منافذ بالمدرة المعجونة، وتُطلى أوجه الجدران بمادة تُغطيها لمنع تسرب المياه إلى الخارج، كما يُبلَّط قاع الحوض، وتوضع حجارة تُنصب حوله ويُسدُّ ما بينها بالمدرة، ويُقال لذلك النصيبة[٢]. ويوضع التراب حول الحوض لدعمه وتقويته، وقد تُرفع جدر الحوض فوق الأرض وتعمل فيه صنابير لخروج الماء منها أو تنشأ حنفيات لأخذ الماء تُصنع من المعدن أو الحجارة[٣].

وزُيِّنت القصور بأحواض ماء في أفنائها تحتوي على نافورات، وتتطلَّب إيصال الماء إليها لتشغيلها خبرة هندسية وتقنية خاصة، وهي إحدى مفاخر الجاهليين. وكان الماء يأتي من أماكن مرتفعة مُلئَت بالماء لينساب منها إلى النافورة، أو من عيون ونهيرات جارية، مرتفعة، تُعمل منها سواقي تحمل الماء إلى النافورة أو إلى الحوض[٤].

القصور

كانت بلاد اليمن في الجاهلية أكثر بلاد العرب تحضراً، كثيرة الحصون والمسالح والقصور، المحافد. ويُعدُّ بناء القصور ظاهرة معمارية مميزة، وهي بحد ذاتها من مفاخر فن العمارة الجاهلي، وتعكس الانقسام الطبقي، والتفاوت الاجتماعي في توزيع الثروة، وعدم المساواة، في المجتمعات العربية التي أُقيمت فيها مثل هذه الصروح، إذ من بين مهامها حماية مصالح الطبقة الحاكمة والغنية، ولهذا شيَّد الأقيال والأذواء والملوك والحكام وكبار التجار، قصوراً فخمة، في بلاد اليمن، والعربية الجنوبية، وفي منطقة الحيرة بالعراق، وأرض الغساسنة في جنوبي بلاد الشام، أما الحجاز فقد اشتهر ببناء الآطام[٥]. وتشير الآثار المتبقية والوصف الذي ورد في الشعر الجاهلي، وكتب الأدب والتاريخ والجغرافيا، إلى المستوى المتقدم للأعمال الهندسية والفنية التي وُظِّفت في تشييدها[٦].

---

(١) علي: جـ٧ ص١٧١، ١٧٢.
(٢) ابن منظور: جـ١ ص٧٥٩.
(٣) علي: جـ٧ ص١٧٢.
(٤) دلو: جـ٢ ص١٤.
(٥) الآطام: القصور والحصون.
(٦) دلو: جـ١ ص٢٠٠.

استخدم المعماريون الغرانيت والكلس والبرونز والرخام واللبن في بناء القصور، واهتموا بهندسة الحجارة وصقلها وتزيينها، واستعملوا الحجارة الملونة في بناء بعضها، وكسوا أوجه الجدران بالرخام، وزيَّنوها بألواح رقيقة مزخرفة بالصور والنقوش لتُعبِّر عن مباهج الحياة، كما فرشوا أرض الغرف والمعابد بالرخام ليكسبها رونقاً، ووضعوا شرائح مرققة شفافة في النوافذ، وكسوا السقوف والأبواب والأعمدة وبعض الجدران بصفائح من الذهب والفضة والحجارة الكريمة وعاج الفيل والأخشاب النفيسة[1].

ودعيت بلاد اليمن ببلاد القصور بفعل كثرة ما بُني فيها، نذكر منها: غمدان، ناعط، صرواح، سلحين، ظفار، ضهر، شبام، غيمان، بينون، ريام، براقش. ويُعدُّ قصر غمدان في صنعاء أعظم هذه القصور وأضخمها، وهو يتألف من عشرين سقفاً بين كل سقفين عشرة أذرع، سبعة أمتار، ما يسمح بالتهوية الطبيعية والحياة الصحية. وبُني في أعلاه مجلس شُيِّد من الرخام الملون، وسقفه قطعة واحدة من الرخام الشفاف بحيث يمكن للرائي من خلالها إذا مرَّ به الطير أن يعرف الغراب[2] من الحدأة[3]، وهو تحت الرخام. ومن ميزاته أنه لا يحجب الضوء عن الغرفة المسكونة تحته. وللمجلس أربعة أبواب تقابل الاتجاهات الأربعة حتى يُستقبل منها مختلف الرياح من الصبا الشرقية، والدبور، الغربية، والشمال والجنوب. وكان فيها مقيل من الساج والأبنوس يقضي فيه صاحب القصر القيلولة، ويوقد فيها القناديل[4].

وللقصر أربعة أوجه مختلفة الألوان، إمعاناً في التفنن والتزويق، وفي كل ركن من أركانه أسد من نحاس رجلاه في الدار ورأسه وصدره خارج القصر، وما بين فيه إلى مؤخرته حركات مدبرة، فإذا هبَّت الريح في أجوافها زأرت[5].

وكان بعض قصور اليمن عبارة عن مدن حكومية تشتمل على دار الأمير، وهي مركز الحكومة، وشُيِّد المعبد في مقابلها، مثل رئام وأتوه[6].

وشيَّد المناذرة اللخميون في منطقة الحيرة وفي بادية العراق قصوراً عديدة أشبه بالحصون، مثل الخورنق والسدير والزوراء، كانوا يحتمون بها عند دنو خطر عليهم،

---

(١) دلو: جـ٢ ص١٦٢. (٢) الغراب: طائر أسود اللون.

(٣) الحدأة: طائر يصيد الجرذان، وهو من أصيد الجوارح.

(٤) الهمداني: جـ٨ ص١٥، ٢٢.

(٥) انظر وصف الهمداني للقصر في كتاب الإكليل: جـ٨ ص١٦، ١٧، ٢٤، ٢٥.

(٦) المصدر نفسه: ص٨٢، ١١٥.

كما اتخذوها بيوتاً لهم وملجأ لأتباعهم، وقد ضُربت الأمثال في عظمتها.

واشتهر قصر الخورنق من بينها ببنائه العجيب الذي لم تر العرب مثله، وقام ببنائه مهندس معماري رومي يدعى سِنِمَّار على مقربة من الحيرة بتكليف من النعمان الأول ابن امرئ القيس، واستعمل في بنائه القرميد والرصاص، فكان قصراً كبيراً يطل على الفرات الذي يدور من حوله، وقد أُعدَّ للسكن، وهو يهيمن على مشارف البادية[(1)].

استغرق بناء الخورنق مدة عشرين عاماً، ولما أُنجز تعجَّب النعمان من حسنه وإتقان بنائه، وبدلاً من أن يوفي سِنِمَّار حقه أمر به فأُلقي من أعلاه فخرَّ ميتاً، وإنما فعل ذلك لئلا يبني مثله لغيره. وفي رواية أنه هو الذي بنى أطم أُحيحة بن الجلاح، فلما فرغ منه قال له أُحيحة: «لقد أحكمته. قال: إني لأعرف فيه حجراً لو نُزع لتقوَّض من عند آخره. فسأله عن الحجر فأراه موضعه، فدفعه أُحيحة من الأطم فخرَّ ميتاً»[(2)].

واستخدم معماريو الحيرة الآجر والرخام في بناء البيوت والقصور، كما استعملوا أحياناً المعادن كالرصاص. وتأثَّروا بفن العمارة الساسانية طرازاً وزخرفة، فالبناء يتألف من رواق في الوسط الذي يشكل مجلس الملك، وهو الصدر، وجناحين يُكوِّنان طرفي الرواق ميمنة وميسرة، ولكنهم طوَّروا الطراز الحيري حتى أضحى طرازاً قائماً بذاته.

وأنشأ الغساسنة قصوراً عدة في دمشق والبادية، منها: صرح الغدير، والقصر الأبيض، والقلعة الزرقاء، وقصر المشتى، وقصر الصفاء، وقصر النمارة وغيرها[(3)].

وشيَّد أشراف الحجاز وأثرياؤهم كثيراً من الآطام، بخاصة في يثرب وشمالي الحجاز، استخدموها كبيوت ومخازن في أيام السلم وقلاع وحصون في أيام الحرب، وقد بنوها من الحجارة والآجر واللبن، وجعلوا جدرانها عريضة لتصمد أمام المهاجمين، وأقاموا في أعلاها مواضع يقف عليها المدافعون لرمي المحاصِرين بالسهام والحجارة وصب الماء الحار والنار عليهم[(4)].

واتخذ أهل يثرب الآطام كحصون يلجأون إليها كلما داهمهم خطر خارجي،

---

(١) علي: جـ٣ ص٢٠٢. (٢) الميداني: جـ١ ص١٥٩، ١٦٠.

(٣) يستبعد المستشرق تيودور نولدكه قيام الغساسنة بكل هذه المنشآت العمرانية، ولكنه يُرجِّح ما ينسب إليهم من بناء الأديرة أو إعادة بناء قناطر الماء التي هدمها أحد أمراء اللخميين، وهي القناطر التي كانت تجر المياه إلى مدينة سرجيوس (الرصافة). ويرى السيد عبد العزيز سالم أن هناك احتمالاً في أن يكون الأمراء الغساسنة قد قاموا بترميم هذه المباني باعتبار أنها مقامة في أزمنة سابقة وتعرَّضت للغزوات المتبادلة بينهم وبين اللخميين وآل بعضها إلى السقوط. انظر: أمراء غسان: ص٥٦. دراسات في تاريخ العرب: جـ١ عصر ما قبل الإسلام: ص٢٩٩.

(٤) علي: جـ٨ ص٩.

فتأوي إليها النساء والشيوخ والأطفال، في حين يخرج الرجال للقتال، كما استعملوها كمخازن للغلال والثمار والسلاح والأموال والحلي. وتتكون الآطام من طابقين أو ثلاثة وتضم عادة البئر لتأمين مياه الشرب والمطبخ والتنور والكنيف(١) والمخازن والغرف للسكن.

واشتملت آطام اليهود على المعابد والمدراس، وهو البيت الذي يدرسون فيه ويجتمع فيه الزعماء للبحث والمشاورة، ويقسمون بالكتب المقدسة، حين يهمُّون بإبرام العقود والاتفاقيات.

ترافق نشوء المدن والقرى مع عملية الاستقرار والتحضُّر، وتركَّزت في الواحات وجبال العربية الجنوبية وعلى مقربة من الأنهار والأودية، وعند طرق التجارة البرية والبحرية، وفي المواقع ذات الأهمية العسكرية، ويبدو أن المهندسين كانوا يضعون مخططاً للمدينة، يُحدِّدون فيه أماكن المنشآت والمرافق العامة.

وتختلف المدن في العصر الجاهلي من حيث شكل مخططاتها، فمدينة معين كانت مستطيلة واستطالتها من الغرب إلى الشرق، ولها مدخلان أو مدخل ومخرج، أحدهما في جانبها الغربي والآخر في جهتها الشرقية. وكانت مأرب ذات شكل مربع مع بعض النتوءات في أماكن متعددة، وكذلك كانت نجران(٢). وكان مخطط مكة على شكل هلال مع ميل إلى الاستطالة، ويأخذ مخطط قرية عاصمة كندة شكلاً مستطيلاً يحيط بها جبل طويق من الشرق، وتشتمل على بوابات في الجهات الشمالية والجنوبية والغربية، يليها سور بسماكة ستة أمتار، مؤلف من ثلاثة أدوار لحماية السوق وقصر الملك والمعبد والوحدات السكنية(٣).

وتضم المدينة في العصر الجاهلي، غالباً، المعبد والبئر ودار الندوة وقصر الملك أو الأمير وأحياء سكن العامة والسوق والمقابر، وغير ذلك من المنشآت والمرافق الخدماتية، يلي ذلك الضواحي المحيطة بها، ويحيط بها جميعاً سور وأبراج لحمايتها من المعتدين وتمكين المدافعين من صدِّ هجماتهم(٤).

اتصفت أسوار المدن بالمتانة وقوة التحصين، وهي على جانب كبير من الرقي الهندسي. فقد قاوم سور الطائف مثلاً حصار المسلمين في عام (٨هـ/ ٦٢٩م) مدة خمسة عشر يوماً، ولم يتأثر بقذائف المنجنيق، ولا بدبابات المسلمين، وذلك بفعل

---

(١) الكنيف: حظيرة من خشب أو شجر تتخذ للإبل والغنم.

(٢) علي: جـ٢ ص١١٦، جـ٣ ص٥٣٧.

(٣) الأنصاري، عبد الرحمٰن الطيب: قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام: ص١٧، ١٨.

(٤) دلو: جـ١ ص٣٠٥، ٣٠٦.

سماكة جدرانه ومناعة أبراجه واستحكاماته ومقاومة المدافعين عنه، ما اضطر الرسول ﷺ إلى رفع الحصار[١].

وكان لمدينة معين سور يحيط بها قُدِّر ارتفاعه بخمسة عشر متراً، واحتوت بعض أقسامه على فتحات استعملت للمراقبة ورمي السهام، وكذلك كان لمدينة ميفعة، عاصمة حضرموت القديمة، أسوار عالية ومحكمة أُقيمت فوقها أبراج لصدِّ المهاجمين[٢].

ويظهر من آثار الحصون والقلاع الباقية في حضرموت أن هذه المملكة كانت قد حصَّنت حدودها وجهزتها بحاميات عسكرية لصدِّ المهاجمين، وأُقيمت هذه الحصون في مواقع ذات أهمية عسكرية، على التلال، وقمم الجبال، والمرتفعات المشرفة على السهول، ومضائق الأودية حيث يكون باستطاعة الجنود مواجهة العدو وتكبيده بالخسائر.

الطب

الطب علاج الجسم والنفس وهو من المعارف المطلوبة في المجتمعات الإنسانية كافة على مختلف مستوياتها بفعل ما له من صلة بصحة الإنسان وحياته. وكان العرب الجاهليون عاجزين عن تفسير أسباب المرض تفسيراً علمياً، لذا اعتقدوا أنها تعود إلى غضب الآلهة على الناس، وإلى أرواح شريرة تصيب الجسم، فكانوا يستطبون بالسحر والرقى والتعاويذ لما بين الطب والسحر من صلة وصلت إلى عدِّ الطب ضرباً من السحر[٣]، لكنهم مع مرور الزمن، وبفعل الملاحظة وتجارب الحياة، حصَّلوا بعض المعارف الطبية التي اقتربت بهم من صحة تعليل المرض والشفاء؛ فاستعملوا العقاقير، وهي الأدوية، استخرجوها من النباتات والأشجار ومنتجات الحيوان، وهذا ما جعل الأطباء عندهم ثلاث فئات[٤]:

الأولى: تعتمد في الوقاية والشفاء على السحر والأدعية والتبرك بالهياكل والتوسل إلى الأصنام، بتلاوة العزائم والرقى لطرد الجن والشياطين من الجسد ودفع الأذى والشر وجلب النعيم والخير.

الثانية: تعالج الأمراض بالنصح والإرشاد.

الثالثة: تداوي الأمراض بالأدوية.

كان للطبيب منزلة كبيرة عند الجاهليين على نحو ما كان لزهير بن جناب الكلبي التغلبي، فقد كان «سيد قومه وشريفهم وخطيبهم وشاعرهم وأوفدهم إلى الملوك

(١) ابن هشام: ج٤ ص١٤٨ ـ ١٥٠.
(٢) علي: ج٢ ص١١٦، ١٥٨، ١٥٩.
(٣) ابن منظور: ج١ ص٥٥٤.
(٤) دلو: ج١ ص٣٠٩.

وطبيبهم، والطب في ذلك الزمان شرف، وحازي قومه، والخزاة الكهان»[١].

وظهر مع مرور الزمن وازدياد الحاجة إلى أشخاص يتمتعون بمؤهلات طبية أرقى، عدد من الأطباء أمثال الحارث بن كلدة الثقفي، والنضر بن الحارث، وضماد بن ثعلبة، من الرجال، ورفيدة وزينب وغيرهما من النساء، وقد أدركوا النبي ﷺ، وبفضل هذه المعاصرة ذُكرت أسماؤهم في كتب الحديث والسير والأخبار.

عُرف الحارث بن كَلدة بطبيب العرب، فقد تعلَّم الطب في بلاد فارس بمدرسة جنديسابور[٢] وتمرَّن هناك، ومارس الطب، وشهد من عالجهم وبرؤوا، بعلمه[٣]، واشتهر طبه بين العرب، وكان النبي ﷺ يوصي بالتطبيب عنده[٤].

وللحارث محاورة في الطب مع كسرى أنو شروان، وله كلام مستحسن في الطب وغيره[٥]. وعندما حضره الموت اجتمع الناس حوله وقالوا له: «مرنا بأمر ننتهي إليه من بعدك. فقال: لا تتزوجوا من النساء إلا شابة، ولا تأكلوا الفاكهة إلا في أوان نضجها، ولا يتعالجن أحد منكم ما احتمل بدنه الداء، وعليكم بالنورة[٦] في كل شهر فإنها مذيبة للبلغم، مهلكة للمرة، منبتة للحم، وإذا تغدَّى أحدكم فلينم على أثر غدائه، وإذا تعشَّى فليخط أربعين خطوة». ومن كلامه أيضاً: «دافع بالدواء ما

---

(١) المرتضي، علي بن الحسين الموسوي العلوي: أمالي المرتضي: ص٢٣٨.
وفد زهير مع أخيه حارثة على بعض ملوك غسان، فلما دخلا عليه حدَّثاه وأنشداه، فأُعجب بهما ونادمهما. فقال يوماً لهما: إن أمي عليلة شديدة العلة، وقد أعياني دواؤها، فهل تعرفان لها دواء؟ فقال حارثة: كميرة حارَّة، وكانت فيه لوثة، فقال الملك: أي شيء قلت؟ فقال له زهير: كميئة حارَّة تطعمها، فوثب الملك، وقد فهم الأولى والآخرة، يريهما أنه أمر بإصلاح الكمأة لها، وحَلم عن مقالة حارثة.
وقال حارثة لزهير: اقلب ما شئت ينقلب، فأرسلها مثلاً. الأصفهاني: جـ١٩ ص٢٠.

(٢) جنديسابور: مدينة بخوزستان بناها الملك سابور بن أردشير فنُسِبت إليه. الحموي: جـ٢ ص١٧٠.

(٣) القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف: تاريخ الحكماء: ص١٦١.

(٤) مرض سعد بن أبي وقاص بمكة يوماً، فعاده رسول الله ﷺ، فقال له: (ادع الحارث بن كلدة فإنه رجل يتطبَّب). فلما عاده الحارث، نظر إليه وقال: «ليس عليه بأس، اتخذوا له فريقة بشيء من عجوة وحُلبة يطبخان». فتحساهما فبرئ. ابن أبي أُصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: جـ١ ص١٠٩، ١١٠. والفريقة: قطعة من الغنم تتفرَّق عن جماعتها.

(٥) ابن أبي أُصيبعة: جـ١ ص١٠٩ ـ ١١١.

(٦) النورة: السمة أو العلامة أو الأثر، وكل وسم بمكْوي فهو نار، والعرب تقول: ما نار هذه الناقة؛ أي: ما سمتها.

وجدت مدفعاً، ولا تشربه إلا من ضرورة، فإنه لا يصلح شيئاً إلا أفسد مثله»[1].

وكان الحارث، إلى جانب كونه طبيباً، شاعراً ذا حكمة في شعره، صاحب حس مرهف، موسيقياً، يضرب بالعود[2].

وتعلَّم النضر بن الحارث بن كَلدة بن عبد مناف، وهو من أشراف قريش[3]، بعض علوم الطب. فقد طاف في البلدان واجتمع مع العلماء والحكماء بمكة وغيرها، وصاحَبَ الأحبار والكهنة، وحصَّل الكثير من العلوم القديمة، واطلع على علوم الفلسفة والحكمة، ووُصف بأنه صاحب أحاديث عن الفرس[4]، وعليه لم يكن في عداد الأطباء وإنما كان في عداد العارفين بأساطير الفرس ولغتهم، لكن لا يُستبعد عنه مزاولة الطب على نطاق ضيق، والمعروف أن المثقفين في ذلك الوقت كانوا يدرسون مختلف أنواع العلوم والمعرفة بما فيها الطب.

وكان ابن أبي رمثة التميمي طبيباً جراحاً في عهد رسول الله ﷺ[5]. ومن الأطباء المعروفين: ابن حذيم، من تيم الرباب، وهو أطب العرب، وبارع في الكي، نال شهرة واسعة في المجتمع الجاهلي، وضُرب بطبه المثل فقيل: «أطب من حذيم»، وقد ورد اسمه في شعر لأوس بن حجر:

فهل لكم فيها إليَّ فإنني ... طبيب بما أعيا النطاسي حذيما[6]

واشتهر ضماد بن ثعلبة الأزدي، من أزد شنوءة، بممارسة الطب ومداواة المرضى، ويداوي من الريح، وكان صديق رسول الله ﷺ في الجاهلية، وآمن برسالته بعد البعثة[7].

وهناك أطباء آخرون زاولوا التطبيب في أيام رسول الله ﷺ، فقد أُشير إلى أطباء من أنمار، ورُوي أن أُبيَّ بن كعب اشتكى، فبعث إليه النبي ﷺ طبيباً فقطع له عرقاً وكواه عليه[8].

ومارست بعض النساء التطبيب، فقد تميزت رفيدة، وهي من أسلم، بالجراحة،

---

(١) ابن أبي أصيبعة: جـ١ ص١١٢، ١١٣. (٢) المصدر نفسه: جـ١ ص١١٣.

(٣) ابن هشام: جـ٢ ص١٠٥.

(٤) كان النضر إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً، فدعا فيه إلى الله تعالى، وتلا فيه القرآن، وحذَّر قريشاً ما أصاب الأمم الخالية؛ خلفه في مجلسه إذا قام فحدثهم عن رستم الشديد، وعن إسفنديار وملوك فارس. المصدر نفسه.

(٥) ابن أبي أُصيبعة: جـ١ ص١١٦. (٦) الألوسي: جـ٣ ص٣٣٧.

(٧) النويري: جـ١٨ ص٧، ٨.

(٨) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: زاد المعاد في هدي خير العباد: جـ٣ ص١٧٦.

داوت جرحى المسلمين يوم ذهابهم إلى بني قريظة[١]، وكانت لها خيمة في مسجد الرسول ﷺ بيثرب تعالج فيها الجرحى، وعندما أصيب سعد بن معاذ في كاحله يوم الخندق قال رسول الله ﷺ: (اجعلوه في خيمة رفيدة التي في المسجد حتى أعوده من قريب)[٢]. واشتهرت زينب بالطب، وهي من بني عواد، عالجت الأبدان والعيون وداوت الجروح[٣]. ومارست الشفاء بنت عبد الله الطب أيضاً واشتهرت بمعالجة النملة[٤] بالرقى في الجاهلية، واشتهرت أم عطية الأنصاري بالجراحة.

عالج الأطباء الجروح بوضع الخرق بعضها فوق بعض على الجرح؛ أي بتضميده بها، ويُقال لذلك الغميل. والضماد: العصابة أو الخرقة تُشدُّ فوق الجرح أو الرأس، وكانوا يضمدون الرأس لتخفيف الصداع، والعين بوضع الدواء فيها أو على الخرقة ومن ثمَّ تضميدها بها، ورُوي أن طلحة ضمَّد عينيه بالصبر، كذلك كانوا يضعون الأدهان على الضماد لتضميد الجروح أو الأورام أو موضع الألم[٥].

هذا كان وضع الطب في المدن والمراكز الحضارية، واختلف في البادية، إذ اعتمد على العرف والعادة، فهو طب بدائي تقليدي موروث عن الآباء والأجداد، وهو مبني على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثة عن مشايخ الحي وعجائزه، ربما يصح منه البعض، لكنه لا يستند على قانون طبيعي ولا على موافقة المزاج[٦]، ويقوم على المداواة بالأعشاب والرماد والألبان وبول الإبل، وهي عقاقير مأخوذة من البيئة البدوية. واستخدم الأعراب بول البعير لمعالجة الطفيليات في أجسام الأطفال وتطهير الشعر وتحضير بعض أدوات التجميل.

وليس هناك اتصال بين طب الأعراب وطب العالم الخارجي إلا ما كان من طب القبائل الضاربة على أطراف الحواضر ولها اتصال مباشر بهذا العالم. ولا يثق الطب البدوي إلا بنفسه، ولا يرى الشفاء إلا من أطبائه وبأدويته المتعارفة عنده، لكنه كان يلجأ إلى أطباء الحضر لمعالجة الأمراض الصعبة والعسيرة، والحالات المهمة جداً في نظر بعض الناس كالعقم[٧].

ويكون الشفاء عند العرب في ثلاثة: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار.

---

(١) النويري: جـ١٧ ص١٣٦، ١٣٧.
(٢) ابن سعد: جـ٣ ص٤٢٧، ٤٢٨.
(٣) زيدان، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية: جـ١ ص٤٠.
(٤) النملة: مرض جلدي، وهو عبارة عن قروح تخرج من الجنبين، وقد سُمي نملة لأن صاحبه يحسُّ في مكانه كأن نملة تدب عليه وتعضُّه. ابن منظور: جـ١١ ص٦٨٠.
(٥) المصدر نفسه: ص٥٠٦.
(٦) ابن خلدون: جـ١ ص٣٤٨، ٤١٢.
(٧) علي: جـ٨ ص٣٨٩، ٣٩٠.

وجاء في الحديث: (إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شربة عسل أو شرطة محجم أو لذعة نار. وما أحب أن أكتوي)[١]. وقوله: (ما أحب أن أكتوي) إشارة إلى تأخير العلاج حتى تدفع الضرورة إليه ولا يعجل التداوي به[٢].

استُخدم العسل في مداواة الإسهال المفرط وسوء الهضم لإخراج الفضلات المجتمعة في المعدة والأمعاء، كما استخدم ممزوجاً بمواد أخرى لصنع عجائن ولصقات[٣].

واستُعملت الحجامة[٤] في معالجة الرأس والشقيقة والصداع[٥].

واستخدم الأطباء الكي في معالجة أمراض المفاصل والجروح والقروح ووجع الرأس أيضاً، وذلك بكي الجزء المريض بحديدة محمامة أو بحجر محمّى، وكثيراً ما كانوا يعالجون بالبتر.

واستعمل العرب الأعشاب والنباتات لمعالجة الأمراض، كما استخدموا السواك لتنظيف الأسنان، والتجبير في كسور العظام، ووضع المناقيع فوق العضو المصاب عظمه بالكسر.

كانت الأمراض والأوبئة تفتك بسكان الجزيرة العربية فتكاً ذريعاً، فكان الأغنياء يفرون من الأماكن الموبوءة ويلجأون إلى البوادي ابتعاداً عن المصابين بها. وتجتاح الأوبئة عادة المناطق الواقعة عند سفوح الجبال، والحارة الرطبة ولا سيما التهائم، وأشهرها الحمى والطاعون والجذام والجدري والحصبة.

البيطرة

تخصَّص نفر من العرب الجاهليين بمعالجة الحيوان لما له من أهمية في حياة العربي واقتصاده، وهم البياطرة، يعالجون أمراضه بالأدوية، وقد أُشير إليهم في الشعر الجاهلي. قال الطرماح[٦] بن حكيم من طيء:

يساقطها تترى بكل خميلة ... كطعن البيطر الثقف رهص الكوادن[٧]

وقال النابغة الذبياني:

شك الفريصة بالمدرى فأنفذها ... طعن المبيطر إذ يشفي من العضد[٨]

---

(١) فتح الباري: جـ١٢ ص٢٦٠.

(٢) ابن قيم الجوزية: جـ٣ ص١٦٧.

(٣) فتح الباري: جـ١٢ ص٢٤٥ ـ ٢٤٧.

(٤) الحجامة: استخراج مقدار من الدم بكأس يُسحب هواؤها بالمص، فيخرج الدم من الشروط التي عُملت في ظهر الرقبة.

(٥) فتح الباري: جـ١٢ ص٢٥٦ ـ ٢٦٠.

(٦) الطرماح: معناها الطويل القامة.

(٧) ديوان الطرماح: ص٥٠٩.

(٨) ابن منظور: جـ٤ ص٦٩. المدرى هنا قرن الثور، يريد أنه ضرب بقرنه فريصة الكلب، وهي =

ومِمن مارس البيطرة في الجاهلية العاص بن وائل، وكان يعالج الخيل والإبل[١].

حذق البياطرة بتطبيب الخيل والإبل بخاصة لأنها أغلى الحيوانات الأهلية عند الجاهليين، واستخدموا في علاجهم الكي والقطران والنفط والتنظيف. ومن الأمراض التي تعيب الإبل العُر، وهو الجرب، وفي ذلك يقول علقمة بن عبدة:

قد أدبر العُرُّ عنها وهي شاملها   من ناصع القطران الصِّرف تدسيم[٢]

وكان العرب إذا أصاب العُرُّ إبلهم، اعترضوا بعيراً صحيحاً من تلك الإبل، فكووا مشفره وعضده وفخذه، يرون أنهم إذا فعلوا ذلك ذهب العُرُّ عن إبلهم ويقولون: «تؤمن معه العدوى»؛ أي أنهم يفعلون ذلك كوسيلة لوقاية الإبل السليمة، قال النابغة الذبياني:

فحملتني ذنب امرئ وتركته   كذي العُرِّ يُكوى غيره وهو راتع[٣]

ويداوى العُرُّ بطلي الحيوان بالقطران[٤]، ويُقال للجمل المطلي: المقطور، وللناقة المطلية: المقطورة. يقول لبيد بن ربيعة:

بكرت به جُرشية مقطورة   تُروى المحاجر بازل عُلكوم[٥]

وعالج العرب بعض أمراض الإبل بالنفط، ويُقال لذلك الكحيل[٦].

ومن الأمراض المهلكة التي كانت تصيب الإبل: السواف، والجارود، وهو مرض مُعدٍ، والدبرة، ويظهر في السنام فلا يزال يأكله حتى يُقطع، ويُقال للحيوان الذي يُقطع سنامه: الأجب[٧].

ومن الأمراض التي تصيب الخيل: الانتشار[٨]، والدخس[٩]، والنفخ، والنفخة، والشقاق، والجرد، والسرطان، والنملة، والملح، والخمال، والقفاص، والخال.

ومن الأمراض التي تصيب الشاة: العقال[١٠] والحلمة[١١].

= اللحمة التي تحت الكتف، والعضد داء يأخذ بالعضد.

(١) ابن قتيبة: المعارف: ص٣١٩.

(٢) أبو طالب، المفضل بن سلمة: الفاخر: ص٨٤.

(٣) ابن منظور: ج٤ ص٥٥٥.

(٤) انظر بيت علقمة بن عبدة، أعلاه.

(٥) ابن منظور: ج٥ ص١٠٥.

(٦) المصدر نفسه: ج١١ ص٥٦٨.

(٧) المصدر نفسه: ج١ ص٢٤٩.

(٨) الانتشار: انتفاخ في العصب نتيجة التعب.

(٩) الدخس: ورم يكون في أطرة الحافر.

(١٠) العقال: الظلع يعتري رجل الدابة إذا مشت ظلعت؛ أي: عرجت.

(١١) الحلمة: دودة تقع في جلد الشاة فتأكله.

الفلك

تمهيد

الفلك علم يبحث في الأجرام السماوية[١] وأحوالها مثل منازل القمر، والبروج، والخسوف والكسوف، والشهب، والنيازك، والتوقيت، والفصول الأربعة وغيرها. وكان العرب بأمس الحاجة إلى معرفة الظاهرات الفلكية وتحولاتها لارتباطها بطبيعة حياتهم في الصحراء، كالحاجة إلى الغيث، والاهتداء بنور الأجرام السماوية[٢]، واعتقادهم بأنها سبب المطر والريح والبرد والأوبئة، لذلك اهتموا بمراقبتها والوقوف على تحركاتها ومواقع طلوعها وغروبها[٣]، وربطوا بينها وبين الحوادث الطبيعية وجعلوها مواقيت لها.

منازل القمر

نظَّم العرب الجاهليون حركة القمر في السماء إلى منازل يجري القمر بينها في نظام محدد[٤]، ونسبوا لطلوعها وغروبها ظاهرات الجو من مطر وريح وبرد وحر، وعرفوا عدداً وافراً منها الثابتة، مثل الثريا والشعرى وسهيل والدبران والعيوق والفرقدين والسماكين، وميَّزوها عن الكواكب السيارة.

كان العرب الجاهليون يتعاقبون، إذا سروا، بطلوع النجوم وغروبها، فكلما غرب نجم ركب واحد، ونزل آخر، ولذلك قالوا: «وندلج الليل على قياس»؛ أي نجعل مقادير ركوبنا ومسيرنا بسقوط النجوم[٥].

وأشار الشعر الجاهلي إلى اهتداء الناس في مسيرهم بالنجوم، فقد قال ابن مقبل:

فأصبحن لم يتركن من ليلة السرى ... لذي الشوق إلا عقبة الدبران[٦]

وقال آخر في الاهتداء بمنازل القمر:

---

(١) الأجرام السماوية هي النجوم والكواكب، فالأولى ثابتة لا تُغيِّر مواقعها والثانية سيَّارة.

(٢) لا بد أن تكون الكواكب والنجوم مرشدة هادية تهديهم إلى السبل والاتجاهات، والاهتداء بالنجوم يكون بمعرفة آفاق السماء الأربعة، الشمال والجنوب والشرق والغرب.

(٣) الجاحظ: كتاب الحيوان: جـ٦ ص٣٠، ٣١. ابن قتيبة: كتاب الأنواء: ص٣.

(٤) تُسمَّى هذه المنازل نجوم الأخذ، لأن القمر يأخذ كل ليلة في منزل منها حتى يصير هلالاً وهي: الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والقليب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية والفرع المقدم، أو الأول، والفرع المؤخر، أو الثاني، والحوت وقد يُسمى الرشا.

ابن ناقيا البغدادي، أبو القاسم عبد الله بن محمد: الجمان في تشبيهات القرآن: ص٢١١ ـ ٢١٣.

(٥) ابن قتيبة: ص١٨٦.

(٦) المصدر نفسه: ص١٨٧.

إنـي عـلـى أونَـى وانـجـراري أؤم بـالـمـنـزل والـدراري[1]

وسلك العرب الجاهليون نهج غيرهم من الأمم القديمة في تقسيم السماء إلى اثني عشر برجاً[2]، ونظمها بعضهم على الترتيب المعتبر عندهم، فقال:

حـمـل الـثـور جـوزة الـسـرطـان ورعـى الـلـيـث سـنـبـل الـمـيـزان
وزنـوا عـقـربـاً وقـوسـاً بـجـدي ومـن الـدلـو مـشـرب الـحـيـتـان[3]

البروج

وردت كلمة البروج في القرآن الكريم[4]، وهي إما أن تكون أجرام النجوم الهائلة وكأنها بروج في السماء الواسعة؛ أي قصورها المبنية، وإما أن تكون المنازل التي تنتقل فيها تلك الأجرام في أثناء دورانها، وهي مجالاتها التي لا تتعداها في جريانها في السماء.

الخسوف والكسوف[5]

ظاهرتان فلكيتان معروفتان عند العرب الجاهليين، واعتقدوا أن في حدوثهما إشارة إلى وقوع أحداث جسيمة. فقد ورد أن الشمس كسفت في أيام الرسول ﷺ في المدينة، ووافق ذلك موت ابنه إبراهيم، فقال الناس: إنما كُسفت الشمس لأجله، فقال النبي ﷺ: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى يُخوِّف بهما عباده، وأنهما لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك، فادعوا الله وكبِّروا وصلُّوا حتى يُكشف ما بكم)[6].

الشهب والنيازك

عرف العرب الجاهليون الشهب والنيازك، واعتقدوا في تساقط النجوم ما يشير إلى وقوع أحداث جسام، مثل نشوب حرب وحصول كارثة طبيعية أو اقتصادية، أو

---

(١) ابن قتيبة: ص١٨٧. ويعني بالمنزل، منزل القمر، أما الدراري فهي الكواكب الكبار الوهَّاجة، واحدها دريّ.

(٢) الواضح أن لفظة برج مشتقة إما من كلمة بركس اليونانية واللاتينية مباشرة، وإما من السريانية بالواسطة وذلك قبل الإسلام بأمد، فتعرَّبت وصارت من الألفاظ العربية الأعجمية الأصل. علي: جـ٨ ص٤٢٧.

(٣) الألوسي: جـ٣ ص٢٤١.

(٤) سورة البروج، الآية: ١.

(٥) الخسوف: احتجاب ضوء القمر، والكسوف: احتجاب ضوء الشمس، وذلك نتيجة مرور القمر في ظل الأرض ومرور الأرض في ظل القمر.

(٦) النويري: جـ١ ص٤١، ٤٢.

ولادة أو وفاة رجل عظيم. فقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال لجماعة من الأنصار: «(ما كنتم تقولون في النجم الذي يُرمى به؟) قالوا: يا رسول الله كنا نقول إذا رأيناها يُرمى بها: مات ملك، وُلد مولود. فقال رسول الله ﷺ: (ليس ذلك كذلك، ولكن الله تعالى كان إذا قضى في خلقه أمراً سمعه الملائكة فيسبِّحون، فيسبح مَنْ تحتهم لتسبيحهم، فيسبِّح مَنْ تحت أولئك حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبِّحون، ثم يقولون: ألا تسألون مَنْ فوقكم مما يُسبِّحون؟ فيقولون: قضى الله في خلقه كذا وكذا، للأمر الذي كان؛ فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيتحدثون به، فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاف، ثم يأتون به الكهان، فيصيبون بعضاً، ويُخطئون بعضاً، ثم إن الله تعالى حجب الشياطين بهذه النجوم التي يُقذفون بها، فانقطعت الكهانة، فلا كهانة اليوم)»[(١)].

وكان العرب الجاهليون يلجؤون إلى المتفرسين في دراسة الأجرام السماوية لمعرفة الأمور الغيبية، من ماض وحاضر ومستقبل، وذلك بالاستدلال عليها من ظواهر الكواكب والنجوم، ويختص الكهان بالأمور المستقبلية والعرافة بالأمور الماضية، والمراد بهما التنبؤ واستطلاع الغيب.

التوقيت

اهتم العرب الجاهليون بالتوقيت؛ أي تعيين الأوقات وضبط الأزمنة، وقد استدعت ذلك حاجتهم إلى تحديد أوقات الزراعة والمواسم وتسيير القوافل التجارية ومناسك الحج والأعياد. فالزراعة خاضعة لتقلبات الجو وتبدل المواسم، وللأعياد والشعائر الدينية وأمور العبادة علاقة بالتوقيت، كما أن تسيير القوافل التجارية والسير في سبل البر والبحر تتطلب معرفة بالأنواء، ولذلك عنوا بتتبع سير الكواكب ودراسة ملامح السماء، وملاحظة الظواهر الطبيعية التي لها علاقة بالرياح والأمطار والحرارة والبرودة، للاستفادة منها في حياتهم العملية. يقول الجاحظ في هذا الصدد: «ومن هذه الجهة؛ أي جهة الحاجة، عرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء لأن كل مَنْ كان بالصحاصح الأماليس، حيث لا أمارة ولا هادي مع حاجته إلى بُعد الشقة، مضطر إلى التماس ما ينجيه ويؤديه، ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجدب وضنِّه بالحياة، اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ولأنه في كل حال يرى السماء وما يجري فيها من كوكب، ويرى التعاقب بينها، والنجوم الثوابت فيها، وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فارداً، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً»[(٢)].

---

(١) النويري: جـ١ ص٨١، ٨٢.

(٢) كتاب الحيوان: جـ٦ ص٣٠، ٣١.

كان الكهنة وسدنة الكعبات ومن لهم علاقة بالأصنام، يقومون بضبط الوقت وتثبيت الأعياد وأوقات العبادة[١].

ويُقاس الوقت بالسنين وتتألف السنة عند العرب من اثني عشر شهراً، وأيامها ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً، تنقص عن السرياني أحد عشر يوماً وربع اليوم، لأن أيام السنة عند السريان ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وربع اليوم. ولما كان حجهم يصادف وقت إدراك سلعهم من الأدم والجلد والثمار وغير ذلك، وأرادوا أن يثبت ذلك على حال واحد، وفي أطيب الأزمنة وأخصبها؛ كبسوا كل ثلاث سنين شهراً وسموه النسيء، وهو التأخير[٢]، وقد أخذوه عن اليهود في يثرب قبل البعثة بحوالي مائتي عام، ويتولى القلامس من بني كنانة ذلك، يقومون بعد انقضاء الحج في الموسم وينسئون الشهر[٣].

وكان النسيء الأول للمحرم، فسمي صفر به، وشهر ربيع الأول باسم صفر ثم والوا بين أسماء الشهور. وكان النسيء الثاني لصفر، فسُمي الذي كان يتلوه بصفر أيضاً، وكذلك حتى دار النسيء في الشهور الاثني عشر وعاد إلى المحرم، فأعادوا بها فعلهم الأول.

الفصول الأربعة

قسَّم العرب الجاهليون السنة إلى أربعة فصول، والفصل إلى أشهر، والشهر إلى أسابيع، والأسبوع إلى أيام، واليوم إلى ساعات، واستعملوا التقويم الشمسي أو القمري أو التقويمين معاً. والفصول عندهم هي: الشتاء والربيع والصيف والخريف، وهذا تقسيم شمسي، إذ ذهبوا «في تحديد أوقات أزمنتها إلى ما تُعرف في أوطانها من إقبال الحر والبرد وإدبارها، وطلوع النبات واكتهاله، وهيج الكلأ ويبسه»[٤].

تبدأ السنة عند العرب بفصل الخريف لأنه أول الربيع، وهو المطر الذي يأتي في آخر القيظ، وأوله ثلاثة أيام تخلو من شهر أيلول، وأول الشتاء ثلاثة أيام تخلو من شهر كانون الأول، وأول الصيف، وهو الربيع الثاني، خمسة أيام تخلو من شهر آذار، وأول القيظ أربعة أيام تخلو من شهر حزيران[٥].

وقسَّم بعض العرب السنة إلى نصفين، شتاء وصيف، ثم قسَّموهما بدورهما إلى

---

(١) علي: جـ٨ ص٤٣٥.
(٢) المسعودي: جـ٢ ص١٨٨.
(٣) البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد: الآثار الباقية عن القرون الخالية: ص١٤، ١٥. والقلامس، جمع قلمس: السيد، وقيل هو رجل من كنانة كان يتولى النسأ.
(٤) ابن قتيبة: ص١٠٤.
(٥) المصدر نفسه.

قسمين، منتصف كل واحد منهما استواء الليل والنهار، ويُعدُّ الصيف أوضح فصول السنة بفعل طوله وامتداد حره، ثم الشتاء، ولعل هذا هو الذي دفعهم إلى هذا التقسيم النصفي.

ولأسماء بعض الأشهر عند العرب الجنوبيين علاقة بالجو والزراعة والحياة الدينية مثل: ذو قبض[١] وذو مذران[٢]، وذو ثبتن[٣] وذو عشتر[٤].

وتختلف أسماء الأشهر عند الإخباريين فهي:

ناتق، ثقيل، طليق، ناجر، سماح، أمنح، أحلك، كسع، زاهر، برط، حرف ونعس[٥] أو المؤتمر، ناجر، خوَّان، بصان، حنتم، زباء، الأصم، عادل، نافق، وغل، هواع وبراك[٦].

أو: مؤتمر، ناجر، هَوَّان، صوان أو بصان، رُنَّى، أيدة، الأصم، عادل، ناطل، واغل، ورنة، وبُرَك[٧].

أما أسماء الأشهر المستعملة عند العرب وقت ظهور الإسلام فهي:

المحرم[٨]، صفر[٩]، ربيع الأول[١٠] ربيع الآخر، جماد الأولى[١١]، جمادى الآخرة، رجب[١٢]، شعبان[١٣]، رمضان[١٤]، شوَّال[١٥]، ذو القعدة[١٦] وذو الحجة[١٧].

---

(١) ذو قبض: هو من أشهر القيظ والموسم الذي تنضج فيه ثمار الصيف.

(٢) ذو مذران: معناه شهر البذر.

(٣) ذو ثبتن: يعني الشهر الذي تهطل فيه الأمطار.

(٤) ذو عشتر: منسوب إلى الآلهة عشتار إلهة الحب والجمال.

(٥) المسعودي: جـ٢ ص١٩١. (٦) البيروني: ص٦٩.

(٧) النويري: جـ١ ص١٤٨.

(٨) سُمِّي بذلك لأنهم كانوا يُحرِّمون فيه القتال.

(٩) سُمِّي بذلك لأنهم كانوا يغيرون فيه على بلاد يُقال لها الصفرية.

(١٠) سُمِّي بذلك لأنهم كانوا يُحصِّلون فيه ما أصابوه في صفر، والربيع في اللغة الخصب، وقيل لارتياعهم فيه.

(١١) سُمِّي بذلك لجمود الماء فيه، لأن الوقت الذي سُمِّي فيه بذلك كان الماء جامداً لشدة البرد.

(١٢) سُمِّي بذلك لتعظيمهم له أخذاً من الترحيب وهو التعظيم.

(١٣) سُمِّي بذلك لتشعُّبهم فيه لكثرة الغارات عقب رجب، وقيل لتشعب العود في الوقت الذي سُمِّي فيه، وقيل لأنه شعَّب بين شهري رجب ورمضان.

(١٤) سُمِّي بذلك من الرمضاء لأنه وافق وقت تسمية زمن الحر.

(١٥) سُمِّي بذلك أخذاً من شالت الإبل بأذيالها إذا حملت، لكونه أول أشهر الحج.

(١٦) سُمِّي بذلك لأنهم كانوا يقعدون فيه عن القتال لكونه من الأشهر الحرم.

(١٧) سُمِّي بذلك لأن الحج فيه.

والملاحظ أن أسماء هذه الأشهر العربية لا تشبه أسماء الأشهر البابلية(١) ولا السريانية ولا العبرانية، كما أنها لا تشبه أسماء الأشهر الواردة في المسند(٢).

ويبدو من خلال تفسير أسماء بعض تلك الأشهر أن لتسمياتها علاقة بالمواسم، وتمثل ظاهرات طبيعية في الأصل، وهي ثابتة وإلا فلا يعقل تأويلها بغير هذا التأويل، لكن إبطال الإسلام للنسيء أدى إلى هذا الدوران والدخول في كل المواسم، وعدم التقيد بالوقت الذي خُصِّصت له(٣).

والأسماء القديمة لأيام الأسبوع هي: أوَّل، أهون، جُبار، دبار، مؤنس، عروبة وشيار، ثم استبدلها العرب بأسماء أخرى هي: الأحد، الاثنان، الثلاثاء، الأربعاء، الخميس، الجمعة والسبت، وجُمعت هذه الأيام في البيتين التاليين:

أؤمل أن أعيش وإن يومي ... بأول أو بأهون أو جُبار
أو التالي دبار فإن أَفُتْه ... فمؤنس أو عروبة أو شيار(٤)

والمعروف أن أسماء أيام الأسبوع المتداولة حالياً ظهرت في العهد الإسلامي، والراجح أن المسلمين أخذوها إما عن يهود يثرب أو عن النصارى بيثرب ومكة، بفعل أنها كانت متداولة بينهم، وهي مبنية على قصة الخلق الواردة في العهد القديم(٥).

الأنواء

يُقصد بالأنواء، عند العرب الجاهليين، ما يتعلق بعلم الظاهرات الجوية من سحب وأمطار وحر وبرد، لكنهم ينسبونها إلى طلوع الكواكب وغروبها. والنوء عندهم هو سقوط النجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه، وهو نجم آخر يقابله من ساعته في المشرق، في كل ليلة إلى ثلاثة عشر يوماً باستثناء الجبهة فإن بها أربعة عشر يوماً، فتنقضي جميعها بانقضاء السنة التي تُكمل ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً.

وقد سُمِّي النوء كذلك لأنه إذا سقط الغارب ناء الطالع(٦)، وذلك الطلوع هو النوء فسُمِّي النجم به، ويجعل بعضهم النوء السقوط. وكانت العرب تنسب سقوط الأمطار وهبوب الرياح والبرد والحر إلى الطالع أو إلى الساقط فتقول: «مُطِرنا بنوء كذا»(٧)، وكأن المطر في اعتقادهم من فعل الكواكب، ولا بد لكل كوكب من مطر وريح أو برد أو حر، فينسبون ذلك إلى النجم، قال الشاعر:

---

(١) ورد عند العرب الشماليين اسم شهر كسلول ـ كانون الأول ـ وهو شهر بابلي. علي: جـ٨ ص٤٥٤.

(٢) علي: جـ٨ ص٤٥٩.

(٣) المرجع نفسه: ص٤٦٢.

(٤) البيروني: ص٦٤.

(٥) علي: جـ٨ ص٤٦٧.

(٦) ناء ينوء نوءاً؛ أي نهض وطلع.

(٧) ابن منظور: جـ١ ص١٧٥ ـ ١٧٧.

ينعى امرءاً لا تغيب الحي جفنته إذا الكواكب أخطا نوءها المطر[١]

وهكذا نسبت العرب نشوء السحاب وهطول الأمطار إلى غروب المنازل في الفجر والرياح إلى طلوعها، وبسبب ما اعتقدوا من إضافة الأمطار إلى الأنواء، نشأ استعمال لفظ النوء بمعنى الغيث أو المطر الشديد.

ونظراً لأهمية المطر وحاجة العرب إلى الغيث لارتباط حياتهم وأرزاقهم به، اهتموا بمراقبة مظاهر الأنواء وملاحظة الظاهرات الجوية من سحب ورعد وبرق وأمطار وغيرها[٢].

فإذا كان السحاب أصهب إلى البياض، فذلك دليل على أنه لا ماء فيه، وعلامة على الجدب[٣]، قال النابغة الذبياني:

صهباً ظماء أتين التين عن عرض يزجين غيماً قليلاً ماؤه شبما[٤]

وإذا كان السحاب أسود فذلك من علامات الغيث[٥]، ومن أقوالهم السحابة البيضاء جفل، والحمراء عارض، والسوداء هطلة[٦].

واستدلوا على المطر بالبرق والرعد، فإذا لمع البرق سبعين برقة انتقلوا ولم يبعثوا رائداً، لثقتهم بهطول المطر، وإذا كان البرق وليفاً[٧] وثقوا بنزول المطر. قال أبو بكر الهذلي:

لشمَّاء بعد شتات النوى وقد بتُّ أخيَلْتُ برقاً وليفا[٨]

وإذا كان حفواً فهو دليل على الغيث[٩].

والبرق عند العرب يكون يمانياً ولا يجعله أحد شامياً لأن الشامي أكثره خلب[١٠] عندهم، ويدل ذلك على أن المطر للجنوب لأنها يمانية. قال عمرو بن معديكرب:

ألم تأرق لذا البرق اليماني يلوح كأنه مصباح باني[١١]

وإذا أرزم[١٢] الرعد استدلوا به على المطر، وإذا تهزم[١٣] استدلوا به على قرب المطر، وإذا رجس[١٤] علموا أن المطر يكون بشدة[١٥].

---

(١) البغدادي، عبد القادر بن عمر: خزانة الأدب: جـ١ ص٩٣.

(٢) الجاحظ: الحيوان: جـ٦ ص٣٠.

(٣) ابن قتيبة: ص١٦٤، ١٧٥.

(٤) المصدر نفسه: ص١٧٥.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) الألوسي: جـ٣ ص٣٦٢.

(٧) البرق الوليف: الذي يلمع لمعتين.

(٨) ابن قتيبة: ص١٧٨.

(٩) المصدر نفسه: ص١٧٥.

(١٠) البرق الخلب: الذي يومض حتى ترجو المطر ثم يعدل عنك، أُخذ من الخلابة وهي الخداع. ابن سيده: جـ٩ ص١٠٨، ١٠٩.

(١١) ابن قتيبة: ص١٧٩.

(١٢) أرزم الرعد أي صوَّت صوتاً شديداً.

(١٣) تهزَّم الرعد أي صوَّت أشد صوت.

(١٤) رجس الرعد أي كان صوته شديداً.

(١٥) الألوسي: جـ٣ ص٣٦٣.

وللمطر علامات إذا ظهرت دلَّت على حدوثه منها الهالة، التي تتكوَّن حول القمر، فإذا كانت كثيفة ومظلمة كانت من دلائل المطر ولا سيما إن كانت مضاعفة.

الندأة، وهي الحمرة التي تتكوَّن عند مغرب الشمس أيام الغيوث.

المبشرات، وهي علامات تتوالى تدل عندهم على القمر في الغيم، منها أن ترى القمر والكواكب في الصحو يحيط بها لون يخالف لون السماء، وكذلك إن كان القمر في الغيم، وإن كان قزعاً كأنه تحيط به خطوط كخطوط قوس المزن وهي القسطانية، وكانوا يستدلون المطر أيضاً بألوان الغيوم وأشكالها وسرعتها[1] وبالبرق والرعد كما ذكرنا.

(١) ابن سيده: جـ٩ ص١٠٢ ـ ١٠٤.

البَابُ الرَّابع

أوضاع العرب الدينية

الفصل الحادي عشر: الجذور التاريخية للتفكير الديني عند العرب الجاهليين

الفصل الثاني عشر: الوثنية في بلاد العرب

الفصل الثالث عشر: الفكر التوحيدي في بلاد العرب

الفصل الحادي عشر

الجذور التاريخية للتفكير الديني عند العرب الجاهليين

تمهيد

الدين هو الإيمان بوجود كائنات روحية وقوى خارقة، آلهة، أرواح، تكون فوق الطبيعة والبشر فتسيرهما وتؤثر في حياة الكون. وعلى الرغم من أن الإنسان القديم حقَّق انتصارات عدة على قوى الطبيعة إلا أنه مع ذلك كان ضعيفاً وعاجزاً أمامها، وأن معلوماته وتجاربه عنها لم تكن كافية لتكوين تصور صحيح عن واقعه المحيط به. وأمام ما كان يتعرض له من الشدة في أوقات الكوارث، افترض وجود قوى خيالية لا يعرف كنهها تقوم بإدارة الظاهرات الطبيعية[(١)].

ويرتبط ظهور الدين بمستوى تطور العقل البشري الذي ظهرت فيه بذور التفكير النظري وإمكان الفصل بين الفكر والواقع. وهناك حقيقة موضوعية تقول بأن الدين في مختلف الأزمنة لا يأتي الناس فجأة وبصورة منعزلة ومنقطعة عن واقعهم الحياتي على الأرض، ولا منفصلاً عن حركة تطورهم التاريخي اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وفكرياً، وأن الدين لا يأتي الناس كذلك وفقاً لرغبات ذاتية، بل الواقع أن للدين بمختلف أشكاله وعقائده وتعاليمه، جذوره الاجتماعية الخاصة، فالنبوة في الإسلام ظاهرة اجتماعية، إذ إن الأمم تحتاج بين عصر وعصر إلى من يهديها ويدلها على الصراط المستقيم. وانسياقاً مع هذه المقولة فإن كل دين ظهر في التاريخ كانت، في المواطن التي ظهر فيها، جذوره المعرفية المتصلة بالواقع البشري.

وقد أدَّى تباين الظروف الطبيعية بين مناطق بلاد العرب واختلاف مستوى التطور الاجتماعي والاقتصادي فيها تبعاً لذلك، إلى ظهور عقائد دينية متباينة في مستوى تطورها، ولم يشمل هذا التطور كل أنحاء بلاد العرب في وقت واحد متنقلاً بها كلها من مرحلة إلى مرحلة، وإنما ظهرت هذه المراحل بشكل متفرق في الأقسام المختلفة منها، وكانت في بعض الأحيان تتجاور أو تتداخل وفقاً لظروف كل قسم من هذه الأقسام، بفعل أن العرب قبل الإسلام لم يكن لهم عقائد دينية موحدة في

---

(١) دلو: جـ٢ ص١٣٩.

نظام ديني شامل وإنما هناك بقايا من ديانات بدائية قائمة على عبادة الأسلاف والفيتشية والطوطمية والأرواحية، ارتقت نتيجة الاحتكاك الحضاري والتجاري مع البلدان المجاورة الأكثر تحضراً، إلى الوثنية المادية المتمثلة بعبادة الأصنام ثم إلى التوحيد عبر اليهودية والنصرانية والحنيفية. وسوف استعرض أوضاع العرب الدينية عبر مراحلها الثلاث المذكورة.

عبادة الأسلاف

عُرِفت عبادة الأسلاف عند الساميين، وتقوم على تقدير وتمجيد الأبطال والرؤساء الأموات على أمل الاستمرار في دفاعهم عن جماعتهم وردِّ أذى الأعداء عنها وحمايتهم لها، كما كانوا يفعلون في حياتهم، والخوف منهم؛ لأن الناس كانوا عاجزين عن تفسير الموت، فأخذوا يخافون الأموات خوفاً خرافياً لا سيما الأبطال المحاربين والزعماء البارزين الذين كانوا يرعبونهم في حياتهم ويدافعون عن القبيلة، وهذا الذي دفع الناس إلى عبادة الأسلاف. وأساس هذا الاعتقاد هو الإيمان ببقاء روح الميت وقدرتها على حماية الأحياء أو إلحاق الأذى بهم[١].

إن معلوماتنا عن عبادة الأسلاف عند الجاهليين قليلة، ويمكن أن نستنتج من تشدُّد النبي ﷺ في مسألة تسوية القبور مع الأرض ونهيه عن اتخاذها مساجد ومواضع للصلاة[٢]، ويُحذِّر مما صنع اليهود والنصارى من اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد[٣]؛ وفي ذلك دلالة على أنَّ المشركين كانوا يقدسون قبور أسلافهم ويتخذونها مزارات، ويعبدون أرواح أصحابها، ويتقربون إليهم، ويحتمون بهم، ولهذا حاربها الرسول ﷺ وأمر بتسوية القبور. ولعل في عبارة «قبر ونفس» الواردة في بعض النصوص الجاهلية ما يؤيد هذا الرأي، فإن النفس هي الروح[٤]. وقد أشار الإخباريون إلى قبور اتخذت مزارات كانت لرجال دين وسادات قبائل، يقسم بها الناس، ويلوذون بصاحب القبر ويحتمون به، على نحو ما كان من أمر ضريح تميم بن مرة، وكالذي ذكروه من أمر اللات من أنه كان رجلاً في الأصل اتُّخِذ قبره معبداً ثم تحوَّل الرجل إلى صنم.

---

(١) علي: جـ٦ ص٤٧.

(٢) جاء في الحديث: (اجعلوا في بيوتكم من صلاتكم ولا تتخذوها قبوراً). فتح الباري: جـ٢ ص٧٥.

(٣) جاء في الحديث: (. . . لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد). المصدر نفسه: ص٧٨.

(٤) علي: جـ٦ ص٤٨.

الفيتشية

الفيتشية هي القوة المؤثرة الخفية، والغالب أنها تقديس أو عبادة الأشياء المادية الجامدة التي لا حياة فيها كالأحجار والأشجار، وهي أشياء حسية يرى العربي وبخاصة البدوي أنها تفيده في حياته اليومية، فاعتقد بوجود قوة سحرية غير منظورة تلازمها، هي الروح، فالروح هي المعبود لا الحجر أو الشجر الذي هو المنزل الذي تحل فيه.

شاعت الفيتشية في الجزيرة العربية قبل الإسلام، فالأحجار وبخاصة ما كان منها يختلف لونه عن اللون الرملي المعتاد في الصحراء، مثل الحجر الأسود والحجر الناصع البياض، أو إذا كانت بارزة في مظهرها؛ شكَّلت من خلال مكان وجودها إشارة يستدل بها البدوي على طريقه في مناطق قد تتشابه فيها الرمال في كل الاتجاهات، ومن ثَمَّ يصبح البدوي مُعرَّضاً لأن يضل طريقه أثناء تنقله من مكان إلى آخر[1]. قال ابن إسحاق: «ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل، أنه كان لا يُظعن من مكة ظاعن منهم، حين ضاقت عليهم، والتمسوا الفسح في البلاد، إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه، فطافوا به كطوافهم بالكعبة، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم»[2].

وكان إذا سافر الرجل منهم فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً وجعل الثلاثة الباقية أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر، فعل مثل ذلك، وكان ينحر ويذبح عندها كلها ويتقرب إليها[3].

وكان من الجاهليين من يختار الحجر الحسن، فإذا رأى حجراً أحسن منه ترك الحجر القديم وأخذ الحجر الجديد، يؤيد ذلك ما جاء في تفسير الآية الكريمة: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان/٤٣] أن الرجل من المشركين كان يعبد الحجر، فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ الآخر يعبده، فكان معبوده وإلهه ما يتخذه لنفسه[4].

يدل كلام الكلبي وتفسير ابن كثير للآية القرآنية على مدى انتشار عبادة الأحجار بين الجاهليين، الأمر الذي دفع المؤرخين الإغريق آنذاك إلى الاعتقاد بأن العرب

---

(١) يحيى: ص٣٧٩، ٣٨٠. (٢) سيرة ابن هشام: جـ١ ص١٠١.

(٣) الكلبي، هشام بن محمد بن السائب: كتاب الأصنام: ص٤٨.

(٤) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء: تفسير القرآن العظيم: جـ٣ ص٣٢٠.

القدماء كانوا من عبدة الأحجار[١].

وقد ظلَّت بقايا هذا الاعتقاد حية لدى بعض العرب الجاهليين حتى ظهور الإسلام، بدليل عبادة صخرة اللات وصخرة العزى وغيرهما بفعل وجود شيطان فيها أو روح ميت دخلت فيها. والمعروف أن أصل بعض الأحجار المقدسة إما شهب أو نيازك كبيرة هوت إلى الأرض، وإما حجارة بركانية.

وتشكل الأشجار، وبخاصة شجرة النخيل، عنصراً حيوياً في حياة البدوي من خلال اعتماده على تمرها كغذاء رئيس له وعلى أجزاء أخرى منها لتغطية حاجاته اليومية، وعليه تصبح الشجرة أكثر أهمية وقداسة بالنسبة له في مناطق يقل فيها وجود الشجر، وبالتالي تصبح شيئاً يعتمد عليه البدوي ويلتصق به بدرجة أكبر[٢].

ومن الأشجار التي عبدها العرب الجاهليون شجرة ذات أنواط القريبة من مكة[٣].

الطوطمية

الطوطم كائن كانت تحترمه بعض القبائل الموغلة في البدائية، ويعتقد أفرادها بوجود صلة نسب بينه وبينهم ويسمونه طوطمهم. وقد يكون الطوطم حيواناً أو نباتاً. فإذا كان حيواناً لا يُقدم أفرادها على قتله، وإذا كان نباتاً لا يتجرأون على قطعه أو أكله إلا في أوقات الشدة.

كانت معتقدات الطوطمية أقل انتشاراً بين العرب الجاهليين على الرغم من بقاء آثارها في أسماء بعض القبائل وفي عبادة بعض النباتات، وتتمثل من حيث وجهتها الدينية في كثير من مظاهر حياة هؤلاء، نذكر منها:

- كان العرب يتسمون بأسماء حيوانات مثل: بنو أسد، بنو فهد، بنو يربوع، بنو كلب، بنو ضبيعة، ومثل: ثور، قرد، عنز، نمر، ثعلب، ذئب، قنفذ، ظبيان وغير ذلك، أو بأسماء طيور مثل: نسر، عقاب، حمامة، غراب، أو بأسماء أجزاء من الأرض مثل: فهر، صخر، أو بأسماء حشرات مثل: حية، حنش، أو أسماء نباتات مثل: حنظلة، نبت[٤]. إن هذه التسميات وإن كانت من قبيل التفاؤل فإنها تشير إلى تقديس العرب للحيوانات والنباتات.

- قدَّس العرب الحيوان وعبدوه كما يقدسه ويعبده أهل الطوطم ولكن بهدف تحصيل البركة وليس إجلال الآباء[٥].

---

(١) بلياييف: ص١١٦.

(٢) يحيى: ص٣٨٠.

(٣) ابن هشام: جـ٤ ص١٢٣.

(٤) القلقشندي: جـ١ ص٤٦٣، ٤٦٤.

(٥) خان، محمد عبد المعين: الأساطير عند العرب: ص٩٢.

ـ اعتقد العرب أن الطوطم يحمي أهله عند حدوث خطر، فكانوا يحملونه معهم في المعارك، كما فعل أبو سفيان بن حرب عندما حمل معه اللات والعزى يوم أُحد، وذكروا أن يغوث دافع عن قبيلته في ساحة القتال، كما قال الشاعر:

وسار بنا يغوث إلى مراد ... فناجزناهم قبل الصباح[(١)]

ـ حرَّم العرب لمس الطوطم والتلفظ باسمه، فيكنُّون عن الملدوغ بالسليم، ويسمون النعامة بالمجلم، ويُلقبون الأسد بأبي الحارث، والثعلب بابن آوى، والضبع بأم عامر[(٢)].

ـ تحتفل القبيلة بموت طوطمها، فإذا كان حيواناً تدفنه وتحزن عليه، يؤيد ذلك أن بني الحارث كانوا إذا وجدوا غزالاً ميتاً يُغطونه ويُكفنونه ويدفنونه، وتحزن عليه القبيلة ستة أيام[(٣)].

وكانوا إذا قتلوا الثعبان خافوا من الجن أن يأخذوا بثأره، فيأخذون روثه ويفتونها على رأسه ويقولون: «روثة راث ثائرك»، وفي ذلك يقول الشاعر:

طرحنا عليه الروث والزجر صادق ... فراث علينا ثاره والطوائل[(٤)]

ـ يتجنَّب العربي أذية طوطمه أو قتله أو أكله إلا عند الضرورة اعتقاداً منه أنه لو قتله عوقب لقتله، كما كان يمتنع عن قطع النبات وأكله إلا عند الشدَّة على نحو ما فعل بنو حنيفة عندما عبدوا إلهاً من حيس[(٥)] ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه، فقال رجل من بني تميم:

أكلت ربَّها حنيفةُ من جو ... ع قديم بها ومن إعواز

وقال آخر:

أكلت حنيفةُ ربَّها ... زمن التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم ... سوء العواقب والتباعة[(٦)]

وقد يكون سبب أكل الطوطم ما كان شائعاً من اعتقاد بأن ما يتمتع به من قوة ينتقل إلى آكليه عبر التهامهم إياه في وليمة مشتركة[(٧)].

ومن العرب من كان يؤمن بعقيدة الطوطم حتى المدة المتصلة بظهور الإسلام، بدليل ما رواه ابن إسحاق «وكان رئام بيتاً يعظمونه[(٨)] وينحرون عنده، ويُكلَّمون فيه

---

(١) الكلبي: ص٢٦، ٢٧. الطبري: جـ٢ ص٥٠٨.
(٢) خان: ص٨٧.
(٣) المرجع نفسه.
(٤) الألوسي: جـ٢ ص٣٥٨.
(٥) الحيس: تمر يُخلط بسمن وطحين ويُعجن.
(٦) ابن قتيبة: المعارف: ص٣٣٩.
(٧) بلياييف: ص١١٦.
(٨) المقصود هنا قبيلة حِمْيَر.

إذ كانوا على شركهم، فقال الحبران[١] لتبَّع[٢] إنما هو شيطان يفتنهم بذلك، فخلِّ بيننا وبينه. قال: فشأنكما به، فاستخرجا منه، فيما يزعم أهل اليمن، كلباً أسود فذبحاه ثم هدما ذلك البيت»[٣].

وَوُجِد في جزيرة العرب بيوت أخرى غير بيت رئام منها: دارة الذئب بنجد في بلاد بني كلاب، ودارة الذؤيب لبني الأضبط، ودارة الكبشات للضباب وبني جعفر[٤].

وكان كفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يُقال لها «ذات أنواط»، فكانوا يُعظمونها، فيزورونها كل سنة ويذبحون لها، ويعلقون عليها أسلحتهم وأرديتهم، ويعكفون عندها يوماً[٥]. وكان لطيء جمل أسود يعبدونه من دون الله[٦]. ورُوي أن عمرو بن حبيب، الموصوف بالكيود، أغار على بني بكر فأصاب سقياً[٧] كانوا يعبدونه من دون الله، فأراد إغاظنهم فنحره وأكله[٨].

الأرواحية[٩]

هي إحدى أشكال الديانات البدائية، إنها الاعتقاد بوجود أرواح تؤثر في الطبيعة. ولعالم الأرواح أثر كبير في عقائد الجاهليين، ويشغل حيزاً كبيراً من فناء الدين عندهم، فمنهم من دان بعبادة الأرواح على اختلاف تصورهم لها، ومنهم من اعتقد بأن الروح هي الدم أو الهواء أو شكل طير. والحقيقة أن العرب الجاهليين كغيرهم من الشعوب البدائية اختلفوا في ذلك، فمنهم من زعم أن النفس هي الدم وأنها نسيم الهواء، وكذلك نسيم كل شيء، وإنها الروح الذي في باطن الجسم الذي منه، لذلك سمُّوا المرأة نفساء[١٠].

والنفس طائر ينبسط في الجسم، فإذا مات الإنسان أو قُتل لم يزل يطيف به متوحشاً يصدح على قبره، وفي ذلك يقول بعض الشعراء وقد ذكر أصحاب الفيل:

سُلِّط الطير والمنون عليهم فلهم في صدى المقابر هام[١١]

---

(١) الحبران اللذان اصطحبهما تُبّع معه من يثرب عندما غزاها.

(٢) هو تبان أسعد أبي كرب ملك اليمن، وهو تُبع الآخر.

(٣) ابن هشام: جـ١ ص٤٢.

(٤) الحموي: جـ٢ ص٤٢٧، ٤٢٩.

(٥) ابن هشام: جـ٤ ص١٢٣.

(٦) السهيلي: جـ٤ ص٢٢٧.

(٧) السقي: ولد الناقة.

(٨) الجارم، محمد نعمان: أديان العرب في الجاهلية: ص١٢٤.

(٩) الأرواحية: مذهب حيوية المادة.

(١٠) المسعودي: جـ٢ ص١٣٢. ابن منظور: جـ٦ ص٢٣٤، ٢٣٨.

(١١) المسعودي: المصدر نفسه: ص١٣٢، ١٣٣.

وزعم بعض العرب أن هذا الطائر يكون صغيراً ثم يكبر حتى يكون كالبوم، وهو مستوحش يعيش في الخرائب والجبانات، وأن النفس لم تزل عند ولد الميت ومخلفه لتعلم ما يكون بعده فتخبره[١]، كما زعموا أن «روح القتيل الذي لم يدرك بثأره تصير هامة، فتزقو عند قبره، تقول: اسقوني اسقوني، فإذا أدرك بثأره طارت. يقول جرير في هذا المعنى:

ومنا الذي أبكى صُدَيَّ بن مالك ... ونفَّر طيراً عن جعادة وُقَّعا[٢]
فإن تك هامة بهراة تزقو ... فقد أزقيت بالمرويْن هاما[٣]

ومنه قول ذي الأصبع:

يا عمرو إن لا تَدَعْ شتمي ومنقصتي ... أضربك حتى تقول الهامة اسقوني[٤]

وللهامة صلة بالصدى[٥]، فالصدى طائر يخرج من رأس الميت إذا بلي، ويُدعى الهامة، وكانت العرب تقول: «الصدى في الهامة والسمع في الدماغ» وإن عظام الموتى تصير هامة فتطير[٦].

الجن

شاع الاعتقاد بالجن في جميع أرجاء الجزيرة العربية. والجن كائنات غير ظاهرة لها أحاسيسها ومشاعرها وعواطفها، تمثَّلها الجاهليون على صورة تشبه بهائم مشعرة أو على صورة تشبه بعض الحيوانات كالنعامة والحية، وصوَّروها أحياناً بأشكال إنسانية، واختُلف في أصل الكلمة، فمنهم من يرى أنها اسم صنم من أسماء العرب القديمة، ومنهم من يذهب إلى أنها من أصل أعجمي ولها صلة بالحبشية[٧]. ورأى علماء اللغة أن معنى الكلمة الأصلي الاستتار وأنها من الاجتنان عن الأبصار، ولعدم إمكان رؤية ذلك العالم أُطلقت عليه كلمة الجن[٨].

يبدو أن فكرة الجن خارجية أدخلها إلى الجزيرة العربية جيرانها الشماليون بدليل شيوع قصص بناء جن سليمان مدينة تدمر، بين الجاهليين، وهو قصص ورد في العهد القديم، في قصة بناء سليمان لتامار، وقد فسَّر العبرانيون تامار بتدمر[٩]، كما أن فكرة الجن هي نوع من الأرواحية كانت منتشرة بين العبرانيين في عهودهم

---

(١) الألوسي: جـ٢ ص٣١١. (٢) يقول: قُتل قاتله فنفرت الطير عن قبره.
(٣) المسعودي: جـ٢ ص١٣٢، ١٣٣. أُزقيت هامة فلان إذا قتلته.
(٤) ابن منظور: جـ١٤ ص٤٥٤. (٥) الصدى: الذَّكَر من البوم.
(٦) ابن منظور: جـ١٤ ص٤٥٤.
(٧) Encyclopaedia of Religion and Ethics: I p669. (٨) ابن منظور: جـ١٣ ص٩٥.
(٩) الجاحظ: جـ٦ ص١٨٦. Ency. of Religion and Ethic: I p670.

القديمة، كما عرفها المجتمع البابلي، وشاعت في المجتمعات الشرقية القديمة.

وقد زوَّد القصص الإسرائيلي أهل الجاهلية بشيء مما ينقصهم من أساطير الجن، وتوسَّع هذا القصص في الإسلام حتى تولَّد هذا الذي نجده مدوناً عن أخبار الجن في المؤلفات الإسلامية[١]، والراجح أن تصوُّر الجن عند العرب كان نتيجة تطور عقائدهم في الطوطمية والأرواحية.

إن إيمان بعض الجاهليين بالجن أدَّى دوراً فاق الدور الذي أدَّته الآلهة في مخيلتهم، فنسبوا إليهم أعمالاً لم ينسبوها إلى الأرباب، وتقرَّبوا منهم لاسترضائهم أكثر من تقربهم إلى الآلهة، إنهم عناصر مخيفة ومرعبة تؤذي من يؤذيها وتلحق به الضرر والأمراض، ولذلك كان استرضاؤها لازماً لتجنب تلك الآفات. وقد جعلت هذه العقيدة للجن سلطة ونفوذاً أكبر من سلطان الآلهة[٢]، فقد اعتقدوا بأنهم يقومون بالاعتداء على الناس، وخطف الأطفال والنساء والرجال. وللإخباريين قصص يروونه في ذلك.

لا شك أن للبادية الموحشة أثراً كبيراً في خلق هذه التصورات لدى الجاهليين التي رسمها القصَّاص للجن والغول والسعلاة وأمثالها، والمعروف أن الجن يتواجدون في الأماكن الموحشة والمقفرة والمظلمة والمهجورة والمقابر، التي لا تُلائم الصحة، وسبب ذلك أن الإنسان يخشى هذه الأماكن ويتجنَّب الدخول إليها، ما أوحى إليه بأنها مسكونة، وأن سكانها هم الجن، وأنهم قد يتعرَّضون له بسوء.

وليست الأرواح الخبيثة التي تُسبِّب الأذى للناس إلا نوعاً من الجن، لذلك كانوا إذا خافوا على الرجل الجنون أو التعرض للأرواح الخبيثة، حاولوا التغلب على تلك الأرواح وطردها باستعمال أشياء تُنفِّر منها فتهرب، مثل عظام الموتى أو خرق الحيض[٣]، أو تعليق بعض الأشياء على صدر الطفل حتى لا يتعرَّض للخطف، مثل سن ثعلب أو هرة؛ لأن تلك الأشياء تُنفِّر الجن وتُهرِّبهم، وإذا خُطَّ شيء منه على وجه الصبي، لا تجرؤ الجنية على الدنو منه، فإذا قال لها صواحباتها في ذلك قالت:

كانت عليه نفرة ثعالب وهررة
والحيض حيض السَّمُرة[٤]

وقد يكون تعليق أجزاء من الحيوان على الطفل من مخلفات العقيدة الطوطمية، لاعتقاد القوم أن هذه الأجزاء ستخيف الجن وتذكرهم بذلك الحيوان الذي يحتمي به.

واستعاذ العرب بالجن لحمايتهم من أذاهم، فكان الرجل منهم إذا نزل منازلهم

---

(١) علي: جـ٦ ص٧٠٨، ٧٠٩.
(٢) المرجع نفسه: ص٧٠٩.
(٣) الألوسي: جـ٢ ص٣١٩.
(٤) علي: جـ٦ ص٧٤٥، ٧٤٦.

وخاف على نفسه يقول: «أعوذ بأعز هذا المكان» أو «إني أعوذ بكبير هذا الوادي» أو «عموا ظلاماً»، يقولها خوفاً ورهبة من الجن واستجلاباً لعطفهم فلا يمسونه بسوء وتصير لهم بذلك خفارة[١]. وإذا ركب مفازة وخاف على نفسه من طوارق الليل، عمد إلى واد ذي شجر، فأناخ راحلته في قراراته[٢] وعقلها، وخط عليها خطاً ثم قال: «أعوذ بصاحب هذا الوادي» أو «عظيم هذا الوادي»[٣]، ومن هذا الخوف الوهمي ظهر عندهم القصص المروي عن مواطن الجن.

واعتقد الجاهليون بترضية الجن والتقرب إليهم لاتقاء أذاهم، فكان أحدهم إذا اشترى داراً أو استخرج عيناً أو بنى بنياناً ذبح ذبيحة من أجل ذلك، وقد عُرفت هذه الذبيحة عندهم بـ«ذبائح الجن»[٤].

ونجد في الشعر الجاهلي إشارات إلى الجن على نحو ما ورد عند من كان لهم اتصال بأهل الكتاب وبكتبهم أمثال: أمية بن أبي الصلت والأعشى، وقد ربطوا بين الجن وبين سليمان، يقول الأعشى وهو يقصد سليمان:

وسخَّر من جن الملائك تسعة ... قياماً لديه يعملون بلا أجر[٥]

وقال النابغة:

إلا سليمان إذ قال الإله له ... قم في البرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن إني قد أذنت لهم ... يبنون تدمر بالصفاح والعمد[٦]

وتصوَّر الجاهليون أن للجن قوة فريدة على الظهور والاختفاء وتغيير أشكالهم وظهورهم أحياناً على شكل إنسان[٧]، وزعموا أنهم ينقلون أخبار السماء، ومن أجل ذلك علم الناس بوفاة الملوك وأصحاب النباهة والجاه وأمثال ذلك من الأمور الخطيرة[٧]. وإذا ألف الجني إنساناً وأخبره ببعض الأخبار قالوا: «مع فلان رئي من الجن يخبره بما وقع ويقع من الأسرار»[٨]. وزعم الكهان أنهم يتلقون علمهم من الجن، ولكل كاهن وعراف رئي يخبر صاحبه بما يسأل عنه[٩].

وللجن علاقة بالموسيقى، فقد زعم الموسيقيون في الجاهلية بأن الجن يوحون إليهم بألحانهم، ويعزفون ليلاً في المفاوز والسباسب[١٠]، ورُوي عن ابن عباس

---

(١) علي: جـ٦ ص٧٤٥، ٧٤٦.
(٢) الجاحظ: جـ٦ ص٢١٧.
(٣) الألوسي: جـ٢ ص٣٢٥.
(٤) ابن منظور: جـ٢ ص٤٣٧. جـ١٣ ص٢١٣.
(٥) المصدر نفسه: جـ١٣ ص٩٧.
(٦) الجاحظ: جـ٦ ص٢٢٣. والتخييس: التذليل.
(٧) الألوسي: جـ٢ ص٣٥٤.
(٨) الجاحظ: جـ٦ ص٢٠٣.
(٩) ابن منظور: جـ١٣ ص٩٧.
(١٠) العزف: صوت الجن، وهو جرس يُسمع بالمفاوز ليلاً كالطبل.

قوله: «كانت الجن تعزف بالليل كله بين الصفا والمروة». وكان العرَّافون والسحرة يخاطبون الجن ويستدعون الثعابين من أوكارها ويُرقصونها على نغمات الموسيقى.

واشتهر موضع العزاف بأنه المكان الذي يُسمع منه عزيف الجن[١] ومن شعر الجاهليين في عزف الجن قول الأعشى:

وبـهـمـاء تـعـزف جـنَّـانـهـا ... مـنـاهـلـهـا آجـنـات سُـدُمْ

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة ... للجن بالليل في حافاتها زجل[٢]

وللجن حوار مع الإنس وكلام منثور أو منظوم، على نحو ما نُسب إلى جذع بن سنان من اجتماعه بالجن ومحاورته إياهم ودعوتهم إلى الطعام وامتناعهم عن الأكل[٣].

وقد يتزاوج الإنسان مع الجن، وتشير القصص العربية في العصر الجاهلي إلى أن الجن كانوا يغادرون مواطنهم ويؤمون مضارب القبائل ليتزوج ذكورهم من النساء وبناتهم من الرجال، فينتج عن ذلك نسل قوي البنية ذكي الفؤاد. فقد ذكرت هذه القصص، أن عمرو بن يربوع بن حنظلة التميمي كانت له زوجة من الجن، فكانت تقول له «إذا لاح البرق من جهة بلادي فاستره عني، فإن لم تستره عني تركت ولدك عليك وطرت عائدة إلى قومي»، فكان عمرو بن يربوع يغطي وجهها بردائه كلما برق البرق فلا تبصره. ففي ليلة غفل عمرو عنها وقد لمع البرق من شق بلاد السعالى فلم يستر وجهها، فطارت وقيل إنها ركبت بعيراً وأسرعت فلم يدركها، وفي ذلك قال شاعرهم:

رأى بـرقـاً فـأوضـع فـوق بـكـر ... فـلا بِـكِ مـا أسَـال ومـا أغـامـا[٤]

ويقول علباء بن أرقم في ذلك:

يـا قـاتـل الله بـنـي الـسـعـلاة ... عـمـرو بـن يـربـوع شـرار الـنـات[٥]

وقد تعرَّض الجاحظ لموضوع زواج الإنس من الجن والعكس، وقد أطلق عليه «الزواج المركب» وأشار إلى قول علباء أعلاه على أنه دليل أن السعلاة تلد الناس[٦].

ونُسبت بعض العشائر، مثل بني مالك وبني شيصبان وبني يربوع، إلى قبائل الجن[٧].

ويُفهم من القرآن الكريم أن من العرب من عبد الجن على نحو ما فعل بنو مليح من خزاعة رهط طلحة الطلحات[٨]، يقول ﷻ: ﴿قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ/ ٤١].

---

(١) ابن منظور: جـ٩ ص٢٤٤.
(٢) الأعشى، ميمون بن قيس: ديوان الأعشى الكبير: ص٣٧ ـ ٥٩.
(٣) الألوسي: جـ٢ ص٣٥٠.
(٤) الجاحظ: جـ٦ ص١٩٧.
(٥) المصدر نفسه: ص١٦١.
(٦) المصدر نفسه: ص١٩٧.
(٧) خان: ص٨٤.
(٨) الكلبي: ص٤٩.

وزعم الجاهليون أن الجن يتألفون من قبائل وعشائر تربط بينها رابطة القربى وصلة الرحم، وهم كقبائل وعشائر جزيرة العرب يتقاتلون فيما بينهم، ويغزون بعضهم بعضاً، ولهم أسماء كما أن لهم ملوكاً وحكاماً وسادات قبائل، فهم في حياتهم يحيون على شكل نظام حياة الجاهليين، وإذا اعتدى معتد على الجن انتقمت قبيلته من المعتدي. وبين قبائل الجن عصبية شديدة كعصبية القبيلة عند الجاهليين، وهي تراعي حرمة الجوار، وتحفظ الذمم والعقود، وتعقد الأحلاف[١]، ومن قبائل الجن بنو غزوان وبنو عزوان[٢].

الغول

الغيلان كائنات وهمية خفية، غير ظاهرة، اختلقتها مخيلة الأعراب في ظروف حياتهم البدائية وتنقلاتهم في الفيافي والسباسب الموحشة، وأضفوا عليها خصائص حسية. ويرى علماء اللغة[٣] أن من معاني الغول، التلون والظهور بصور مختلفة والاغتيال، وبفعل هذه الخاصية سموا الغول حيتموراً، وهو كل شيء لا يدوم على حال واحدة ويضمحل كالسراب[٤]، وذكروا أن الغول اسم لكل شيء من الجن يعرض للسفَّار ويتلوَّن في ضروب الصور والثياب، ذكراً كان أو أنثى، إلا أن الأكثر على أنه أنثى.

قال أبو المطراب عبيد بن أيوب العنبري في صفة الغول:

وغولاً قفرة ذكر وأنثى ... كأن عليهما قِطَع البجاد

فجعل في الغيلان الذكر والأنثى.

وقال كعب بن زهير، الشاعر الصحابي، في وصف تلوُّن الغول:

فما تدوم على حال تكون بها ... كما تلوَّنُ في أثوابها الغول

وقال عباس بن مرداس السُلمي، في تلوُّن الغول:

أصابت العام رِعلاً غول قومهم ... وَسْطَ البيوت ولون الغول ألوان[٥]

فالغول تتحوَّل في أي صورة شاءت، وتتمثَّل في صور مختلفة إلا رجلاها فلا بدَّ أن تكونا رجلي حمار[٦] أو رجلي عنز، وكان الجاهليون إذا اعترضتهم الغول، في الفيافي، يرتجزون ويقولون:

---

(١) علي: جـ٦ ص٧١١.
(٢) ابن منظور: جـ٥ ص٨٩. جـ١٥ ص٥٤.
(٣) االمصدر نفسه: جـ١١ ص٥٠٧.
(٤) الدميري، كمال الدين: حياة الحيوان الكبرى: جـ٢ ص١٩٥. الألوسي: جـ٢ ص٣٤٧.
(٥) الجاحظ: جـ٦ ص١٥٨، ١٥٩، ١٦١.
(٦) المصدر نفسه: جـ٦ ص٢١٤، ٢٢٠.

يا رجل عنز أنهقي نهيقا   لن نترك السبسب والطريقا[1]

ذلك أنها كانت تتراءى لهم في الليالي وأوقات الخلوات، فيتوهمون أنها إنسان، فيتبعونها، فتزيلهم عن الطريق التي هم عليها وتتيههم[2].

وتُعدُّ قصص الغول والسعلاة من أشهر القصص الجاهلي، وأكثرها منسوب إلى الشاعر تأبط شراً[3]، وإلى عبيد بن أيوب شاعر العنبر الذي كان يخبر في شعره أنه يرافق الغول والسعلاة ويبايت الذئاب والأفاعي، ويؤاكل الظباء والوحش، وقد أورد الإخباريون بعض شره في ذلك[4]. ويروون أنه من الممكن قتل الغول بضربة سيف أما إذا ضُربت مرة ثانية فإنها تعيش ولا تموت بعدها. أنشد أبو الغول الطهوي[5]:

فقالت زد فقلت رويد إني   على أمثالها ثبت الجنان[6]

السعلاة

السعلاة والغول مترادفان، وزعم الجاهليون أن السعالى سحرة الجن وقيل إن الغيلان جنس منها، وأن الغيلان إناث الشياطين، وأن السعالى أخبث الغيلان وأكثرها وجوداً في الغياض، وأنها إذا ظفرت بإنسان تُرقِّصه وتلعب به وأن الذئب يأكل السعلاة[7]. والسعلاة اسم الواحدة من نساء الجن إذا لم تتغوَّل لتفتن السفَّار. ويقول العرب عن المرأة سعلاة، إذا كانت حديدة الطرف والذهن، سريعة الحركة، ممشوقة ممحَّصة[8]. قال الأعشى:

ورجال قتلى بجنبي أريك   ونساء كأنهن السعالى[9]

وتتراءى السعلاة للناس في النهار، ويتراءى لهم الغول في الليل.

الشيطان

الشيطان كائن وهمي غير منظور، وصفه العرب الجاهليون بالخبث والقبح وعمل الشر وإثارة الفتنة بين الناس، وضربوا به المثل في ذلك، وهو في تصورهم روح خبيثة متمردة مسكنها النار. والشيطان في كلام العرب كل متمرد من الجن والإنس

---

(١) المسعودي: جـ٢ ص١٣٥.
(٢) القزويني، زكريا بن محمد: عجائب المخلوقات: جـ٢ ص١٩٣.
(٣) الأصفهاني: جـ٢١ ص١٢٧، ١٢٨.
(٤) الجاحظ: جـ٦ ص١٥٩، ١٦٠، ١٦٥، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٥١، ٢٥٩.
(٥) ويكنى أبو البلاد.   (٦) الجاحظ: جـ٦ ص٢٣٤، ٢٣٥.
(٧) القزويني: جـ٢ ص٣٧٠، ٣٧١. الألوسي: جـ ص٣٤٦.
(٨) الممحَّصة: الشديدة الخلق، البريئة من الترهل.   (٩) الجاحظ: جـ٦ ص١٦٠، ١٦١.

والدواب من كل شيء، وإنما سُمي المتمرد من كل شيء شيطاناً لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاق وأفعال سائر جنسه، وبُعده عن الخير[١].

يُرجع علماء اللغة كلمة الشيطان إلى أصل شطن، ويقولون إن من معاني هذه الكلمة الخبث، ولما كان الشيطان خبيثاً قيل له شيطان، ومعنى ذلك أن فكرة خبث الشيطان كانت معروفة لصاحبها قبل التسمية. والشيطان الحيَّة أو نوع من الحيَّات له عرق قبيح المنظر، وأن الشيء إذا استُقبح شُبِّه بالشياطين فيقال: «كأنه وجه شيطان»، و«كأنه رأس شيطان». وإذا أُريد تعنيف شخص وتقبيحه قيل له: «يا وجه الشيطان»، و«ما هو إلا شيطان». والشيطان لا يُرى ولكنه يُستشعر أنه أقبح ما يكون من الأشياء، ولو رؤي لرؤي في أقبح صورة[٢].

لم ترد لفظة الشيطان في شعر الجاهليين باستثناء شعر أمية بن أبي الصلت وعدي بن زيد العبادي. فالأول شاعر يُستنتج من شعره أنه على علم بشيء من اليهودية والنصرانية، والثاني كان نصرانياً؛ وبناء عليه يرجع علمهما بالشيطان إلى ما جاء في العهدين القديم والجديد عنه، وبالتالي فإن هذه اللفظة دخلت إلى معارف العرب عن طريق أهل الكتاب[٣].

ويبدو أن ما ورد عن الشيطان في القصص الجاهلي يختلف عما جاء عنه في الكتب اليهودية والنصرانية، وأن الشيطان عند الجاهليين هو غير الشيطان المعروف عند اليهود والنصارى الذي دخل إلى العرب قبل الإسلام وفي الإسلام، ما يدل على أنه دخل الجزيرة العربية من مصدر آخر[٤]، إلا أنهم استمدوا قصصهم عن ذكاء الشيطان وحيله وتلاعبه بالناس، من الأدبين العبراني والنصراني، فهو في العهد القديم ذو طبع شرير، وكبير العصاة لأوامر الله، يضل الناس ويسلك بهم سبل الخطيئة، كما استمد علماء اللغة ما ذكروه من أن كلمة الشيطان تعني الحيَّة، وذلك بفعل ظهوره على صورة حيَّة خدعت آدم وحواء في الجنة[٥].

وأضفى الجاهليون على الشيطان طبيعة حسية، فهم لكي يُعبِّروا مثلاً عن معنى الإلهام الشعري أو عن معنى القبح أو الخبث، صوَّروه على هيئة كائن حي سموه شيطاناً، صحيح أنه كائن وهمي غير موجود حسياً، إلا أنه كان يتمتع في تصوراتهم بخصائص حيوانية[٦]، فقالوا: إن مع كل فحل من الشعراء شيطاناً يلهمه الشعر،

---

(١) الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن، المعروف بتفسير الطبري: جـ١ ص٣٧، ٣٨.
(٢) ابن منظور: جـ١٣ ص٢٣٨.
(٣) علي: جـ٦ ص٧٣١.
(٤) المرجع نفسه.
(٥) ابن منظور: جـ١٣ ص٢٣٨.
(٦) دلو: جـ٢ ص١٥٩.

وعيَّنوا لهم أسماء شياطينهم، من ذلك أن اسم شيطان الأعشى مسحل، وله أشعار فيه يمدحه ويُثني عليه لأنه يساعده على نظم الشعر فيلقيه عليه إلقاء، فقال:

دعوت خليلي مسحلاً ودعوْا له   جهنام جدعاً للهجين المذمم
حياني أخي الجني نفسي فداؤه   بأفيح جياش العشيات مرجم(١)

وأن اسم شيطان امرئ القيس لاحظ، وشيطان عبيد بن الأبرص هبيد، وشيطان النابغة هاذر.

وكان الكهان يستعينون بالشياطين في الإخبار عن الغيبيات، ويذكرون أنهم كانوا يسترقون السمع ويلقونه إلى الكهنة، قال الشاعر عمرو بن كلثوم في ذلك:

ونفوا عن حريمها كل عِفر   يسرق السمع كل ليلة بدر(٢)

كما كان لكل كاهن شيطانه يحضر إليه ويخبره ما يريده. فللكاهن صاف بن صياد مثلاً شيطانه يُلقي إليه ما خفي من أخبار الأرض. وذُكر أن النجوم تقذف الشياطين، وأن الجاهليين كانوا يرون ذلك، وهو موجود في أشعارهم نذكر منهم: عوف بن الجزع وأوس بن حجر وبشر بن أبي خازم، وقد وصفوا الرمي بالنجوم(٣).

ويُكنى عن الشيطان بالشيخ النجدي، وقد أُشير إليه مراراً في كتب السير والأخبار، فعندما أعادت قريش بناء الكعبة، واختلفت عشائرها فيمن يرفع الحجر الأسود ويضعه في مكانه من الركن، حكَّموا رسول الله ﷺ، فحضر الشيطان في زي شيخ نجدي وصاح: «يا معشر قريش أرضيتم أن يضع هذا الركن، وهو شرفكم، غلام يتيم دون ذوي أسنانكم؟»(٤)، وعندما اجتمعت قريش في دار الندوة للتآمر على الرسول ﷺ حضر الشيخ النجدي وأيَّد قرارهم في قتله(٥).

ويبدو أن الشيطان عُرف بالشيخ النجدي لأنه تمثل نجدياً، وقيل لأن نجداً يطلع منها قرن الشيطان، وأن الفتن تخرج من المشرق، والمشرق نجد بالنسبة لأهل الحجاز(٦).

إبليس

تسربت كلمة إبليس إلى العرب الجاهليين عن طريق أهل الكتاب، فهي مُعربة، واستُعملت في مقابل شيطان(٧). واتخذ إبليس منذ هبوطه إلى الأرض عرشه على الماء، وراح يرسل منه سراياه الشياطين ليفتنوا الناس، فأعظمهم منزلة عنده أشدهم

---

(١) الجاحظ: جـ٦ ص٢٢٦.
(٢) المصدر نفسه: ص٢٣٠.
(٣) السهيلي: جـ١ ص٢٣٨، ٢٣٩.
(٤) المصدر نفسه: ص٢٢٨.
(٥) ابن هشام: جـ٢ ص٥٢٢.
(٦) السهيلي: جـ١ ص٢٢٩.
(٧) ابن منظور: جـ٦ ص٢٩، ٣٠.

فتنة، ويبدو أن التفريق بين المرء وزوجه شيء مستحب عنده[1].

الواضح أن صورة إبليس في تصورات بعض العرب الجاهليين كانت تمثل معاني المصيبة والوقيعة والبغضاء والفتنة بين الناس، فهم لكي يُعبِّروا عن معنى من هذه المعاني صوَّروه بصورة كائن حي سموه إبليساً[2].

السحر

السحر هو الإيمان بقدرة الإنسان على إثارة قوى خيالية والتأثير على الأرواح كي تقوم بإداء ما يُطلب منها، وقد جعله قدماء البشر جزءاً مهماً من الدين، وهو كذلك في كل مجتمع بدائي، لذلك كان من اختصاص رجال الدين أن يمارسوه في المعابد مع الشعائر والطقوس.

يُطلق السحر على معان عدة أهمها:

- ما لطف ودق مثل: سحرت الصبي: خادعته واستملته، وإطلاق الشعراء يسحرون العيون لاستمالة النفوس، وقول الأدباء الطبيعة ساحرة.
- ما يقع بخداع وتخيلات لا حقيقة لها، على نحو ما يفعله المشعوذون من صرف الأبصار عما يتعاطونه بخفة يدهم.
- ما يحصل بمساعدة الشياطين بضرب من التقرب إليهم.
- ما يحصل بمخاطبة الكواكب واستنزال روحانيتها بزعمهم[3].

لا يمكن صنع سحر ما لم يقترن بعمل، ويصحب هذا العمل كلام مفهوم أو غير مفهوم وإشارات يدَّعي الساحر أنه إنما يقوم بها لتسخير الأرواح، وأن ما يفعله مفهوم عند جنوده، وهم الجن والشياطين.

انتشرت ظاهرة السحر في المجتمعات البدائية ومنها المجتمع العربي الجاهلي، وكان له تأثير كبير على مختلف نواحي الحياة في الجزيرة العربية، ونستدل من ورود كلمات: السحر وسحر وساحر والساحرون والسحرة ومسحور ومسحورون، في مواضع عديدة من القرآن الكريم على مدى أثر السحر في عقلية الجاهليين، وقد اتهم أهل مكة الرسول ﷺ بأنه ساحر عندما أخبرهم بنزول الوحي عليه[4]، كما وردت إشارات في بعض روايات الإخباريين تحمل على الاعتقاد بانتشار السحر بين

---

(١) الشبلي، بدر الدين أبو عبد الله: أكام المرجان في أحكام الجان: ص١٧٥.

(٢) دلو: جـ٢ ص١٦١.

(٣) الفيومي، محمد إبراهيم: تاريخ الفكر الديني الجاهلي: ص٥٢٨.

(٤) ابن هشام: جـ٢ ص١٢.

الجاهليين منذ القدم، على نحو ما ذكر ابن هشام أنه كان في قرية من قرى نجران ساحر يُعلِّم أهل نجران السحر(١)، وأن ممارسيه كانوا أعراباً ويهود، وأغلبهم يهود، وقد استمدوا أصوله من بابل، وأخذه العرب عنهم.

استُخدم السحر لأغراض ضارة في غالب الأحيان، فمن الناس من لا يريد تسخير القوى الخفية لخيره وصالحه بل إلحاق الأذى بأعدائه ومبغضيه، لذلك كان للسحر وللسحرة تأثير كبير في مجرى التاريخ، إذ إن ما يقوم به هؤلاء من أعمال، وما لشخصياتهم من تأثير نفسي كبير، يجعل من الصعب على بعض الأشخاص أن لا يصدقوا أقوالهم وأفعالهم، لذلك يتأثرون بهم، ويفعلون بما يقولونه لهم، وتكون للساحر مكانة كبيرة في نفس هؤلاء الأشخاص(٢).

ونشأت عن الإيمان بالقوة السحرية الخارقة التي تستطيع التأثير في حياة الناس؛ مختلف الرقى والحجب، مثل سحر الحب، والسحر الطبي، وإخراج الجن من المجانين، إذ إن الجنون هو من عمل الجن.

ويداوي السحر أمراضاً عديدة، وما المرض في نظر القدماء إلا أرواح شريرة حلَّت في الأجساد فألحقت بها الأمراض، ولا يُشفى الجسد منه إلا بطرد تلك الأرواح، وطرد الأرواح من أعمال السحر. والساحر هو سلف الأطباء، وكلمة طبيب هي من هذا الأصل، فالطب في اللغة هو السحر، والمطبوب هو المسحور، والطاب هو الساحر، يستخدم طبه في الشفاء(٣).

ومن طرق السحر عند الجاهليين النفث في العقد، وقد دلَّت عليه الآية الكريمة: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق/ ٤] ويكون ذلك بعقد عقد والنفث عليها(٤).

ويستعين الساحر بمواد عديدة لعمل السحر منها: أوراق بعض النباتات، الملح، البخور، الدماء، العظام، قرون الحيوانات يدفنها أو يحرقها أو يذيبها. ولا بدَّ أن يُقرن سحره بطقوس وحركات خاصة وبتمتمة تُلقي في الروع أنه يقول شيئاً ويخاطب أشخاصاً هم الجن، والتمتمة في الغالب كلام مبهم غير مفهوم عند الناس، ولكنه كلام واضح عند الساحر وجنوده من الجن والشياطين(٥).

وتبدو الجذور التاريخية للتفكير الديني عند العرب الجاهليين، والملحوظة في الأساطير والخرافات الجاهلية، أن لها أساسها الواقعي المرتبط بالمستوى التاريخي

---

(١) ابن هشام: جـ٢ ص٤٧. (٢) علي: جـ٦ ص٧٤١.

(٣) ابن منظور: جـ٢ ص٤٢.

(٤) العسقلاني: فتح الباري: جـ١٢ باب السحر ص٣٣٢ ـ ٣٤٣.

(٥) علي: جـ٦ ص٧٤٤، ٧٤٥.

لتطور الوعي، إذ إن وعي الجماعة القبلية البدائية لم يكن في مستوى من التطور الذي يرتفع به إلى درجة تصوُّر المعاني والأفكار تصوراً مجرداً عن علاقاتها المادية بالواقع المحسوس، لكن هذه السمة ذات تاريخ يرتبط بتاريخ الوثنية في الجزيرة العربية حيث تضع الأصنام والأوثان في موقع جديد من وعي العرب الجاهليين، وتمثل استمرارية تاريخية لظاهرة قديمة[1].

(١) مروة: ج١ ص٢٨٩.

الوثنية[1] في بلاد العرب

تمهيد

أدّى تطور القوى المنتجة وقيام صلات حضارية بين العرب وبين العالم الخارجي، إلى تطور في مستوى الوعي الديني عند هؤلاء تمثَّل في تراجع الظاهرات الدينية البدائية من دون زوالها نهائياً، وظهور الوثنية التي غدت أكثر الأشكال الدينية انتشاراً، وأقواها جذوراً في المجتمع العربي الجاهلي قبل ظهور الإسلام[2].

وإذا كنا نفتقر حتى الآن إلى الوثائق التي تحدد بدقة اعتماد هذه الظاهرة، فإنه باستطاعتنا اعتماد المرحلة التاريخية التي ظهرت فيها دولة سبأ في اليمن، وهي المرحلة التي ترقى إلى القرن الثامن قبل الميلاد كما تؤكد المكتشفات الأثرية لأنقاض معبد ألمقة، إله القمر، ومعبد عثتر، الزهرة، التي تعود إلى الألف الأولى قبل الميلاد.

والواقع أن نشأة الوثنية في العربية الجنوبية المتحضرة نسبياً جرت على خلفية أوضاع اليمنيين الاجتماعية وشروطها المادية. والمعروف أن هؤلاء كانوا يحترفون الزراعة ويمارسون التجارة المرتبطة أساساً بمعرفة الفلك وتنظيم أوقات الزراعة والري، والرياح، والليالي الصافية.

إن المصادر المتعلقة بالدين قاصرة على أسماء آلهة فقط، لذلك نفتقر إلى:

- تعاليم دينية كان يجب على الأفراد معرفتها والعمل بها.
- وصف منظم للاعتقاد بالله.
- وصف موجز لفكرة الآلهة التي قدَّسها العربي وخلق من أجلها القصص والأساطير.
- آداب دينية أو صلوات أو أغاني أو وصايا، كما في بابل وأشور، متعلقة بالوثنية[3].

---

(١) الوثنية: مذهب عبدة الأوثان والأصنام، وقد اتخذوها كرموز للألوهة ثم عبدوها.

(٢) دلو: جـ٢ ص١٦٥.

(٣) نيلسن، ديتليف: الديانة العربية القديمة، مقال في كتاب التاريخ العربي القديم: ص١٨٢.

لذلك نعتمد، عندما نتعرَّض للدين، على ما ورد عرضاً في كتب التاريخ والشعر الجاهلي والنقوش.

الواقع أن الصفات الحقيقية للإله الوثني مهملة إهمالاً يكاد يكون تاماً، فالإله يُذكر ومعه وطنه ووصف لنصبه وسدنته وأعوانه، ثم الشخص المسلم الذي حطَّمه، وقد تذكر بعض القصص المتعلقة بعبادة ذلك الصنم، وشرح لغوي لمعنى اسمه، لكننا لا نجد وصفاً حقيقياً للوثنية البائدة، ومن ثَمَّ فإن الآلهة في الجزيرة العربية هي عادة آلهة عصر الاضمحلال والتدهور الذي سبق الإسلام، أما فيما يتعلق بعصرها الذهبي فالمصادر العربية الإسلامية تجهلها جهلاً تاماً، بدليل أنها لا تذكر شيئاً عن الإله السبئي الكبير ألمقة، بل إنها لا تعرف اسمه، وهو الذي ظل نحو ألف عام أكبر آلهة العرب الجنوبيين، وورد اسمه كثيراً في النقوش الدينية، وكانت معابده أكبر معابد عرفتها بلاد العرب الجنوبية، وكذلك الإله عثتر الذي ورد ذكره كثيراً، واقتصرت هذه المصادر على ذكر أسماء الآلهة التي انتشرت عبادتها في العربية الشمالية لاتصال ذلك بالرسالة الإسلامية وما ورد في القرآن الكريم[1].

عبادة الكواكب

القمر

إن نظرة متعمقة إلى آلهة العرب الجنوبيين تطلعنا على صورة مختلفة الألوان، إذ نجد شخصيات مختلفة تربط بينها صلة يمكن إدراكها من خلال أسمائها، ولعل السبب في ذلك تقدير مدى الجهد الذي بذله الإنسان من أجل خلق هذا الاسم وإطلاقه على هذا المعبود أو ذاك، فالإنسان قبل أن يوجد الاسم، يتوجب عليه أن يكوِّن لنفسه فكرة عن المعبود، وعن الصورة التي يتصوره بها.

وبرزت عبادة النجوم والكواكب في العربية الجنوبية متأثرة بوثنية بلاد الرافدين، ومصدرها الصابئة وبقايا الكلدانيين، ولكنها شكَّلت انعكاساً لأوضاع العرب الاقتصادية، الزراعية والتجارية، وقوام هذه العبادة الثالوث الذي يمثله القمر والشمس والزهرة. وتدل عبادة هذا الثالوث الكوكبي على أن عبادة العرب الجنوبيين بعامة هي عبادة كواكب. ووُجد هذا الثالوت في عبارات النداء وفي سائر أسماء الآلهة في العربية الشمالية، وهذه المجموعة معروفة منذ زمن بعيد عند البابليين والأشوريين، وتُعدُّ ظاهرةساميَّة عامة. والحقيقة أن هذا التثليث الفلكي هو النواة الأصلية عند الساميين لنشأة القصص والأساطير، وهو أيضاً العامل الذي نجده شائعاً

---

(١) نيلسن: ص١٧٧، ١٧٨.

في سائر أساطير الشعوب البدائية، لذلك كان ذكر القمر والشمس والزهرة كأكبر مصابيح سماوية عند الساميين القدماء، وهي سيدات نجوم السماء. فالزهرة، وإن كانت نجماً عادياً إلا أنها ملك عظيم كالفلكين الآخرين، كما أن مرورها بالقمر والشمس سبَّب نشأة كثير من الأساطير، ولهذا السبب، يؤدي هذا الثالوث دوراً هاماً عند الشعوب الساميَّة الشمالية ومنهم العرب بعامة. ولم يترك العربي القديم فرصة إلا وانتهزها ليُعبِّر عن هذه العقيدة، والملفت أنه لم يُصورها في صورة أشكال آدمية لأن صور الآلهة أو تماثيلها لم تكن معروفة آنذاك في مجتمعه، وإذا وُجدت في العربية الشمالية فمن الثابت أنها ضئيلة جاء بها العرب الشماليون من شعوب ساميَّة شمالية ذات حضارة رفيعة(١). وما زال أثر التثليث، الذي انتشر في بلاد العرب في العصر الجاهلي، قائماً في عقائد بعض الديانات وعاداتها وبخاصة النصرانية.

يُعدُّ القمر الأول بين أركان هذا الثالوث الذي عرفه السبئيون باسم ألمقة، والمعنيون باسم ودّ، والحضرميون باسم سين، والقتبانيون باسم عم أو عمم، وعُرف أيضاً عند السبئيين وغيرهم باسم ورخ، وسين، على تسمية البابليين نفسها، وهوبس، وشهر، وكهل، وأبم، وذلك بوصفه أكبر الآلهة سناً والمقدَّم عليها جميعاً. وقد أُطلق على أسماء القمر جميعها لفظ مشترك هو إيل؛ أي الله أو الإله، ويقابله هُبل عند العرب الشماليين، وبعل عند الساميين الشماليين، وقدَّمه أهل اليمن على نحو ما فعل البابليون والكلدانيون(٢).

واتُخذ الثور رمزاً للقمر في النصوص اللحيانية والثمودية، ولعل لذلك علاقة بقرنيه اللذين يشبهان الهلال، ومن ذلك عُدَّ من الحيوانات المقدسة التي ترمز إلى الآلهة، وجسَّده عُبَّاده صنماً كانوا يسجدون له ويصومون من أجله أياماً معلومة في كل شهر، ثم يأتون إليه ومعهم طعامهم وشرابهم فيقيمون عنده بفرح وسرور، فإذا فرغوا من طعامهم أخذوا في الرقص والغناء على وقع أصوات المعازف(٣).

ويتفرد القمر في بلاد العرب بالكثرة المطلقة من الأسماء والألقاب في الأساطير، والحياة اليومية، والطقوس الدينية، والتقويم وفي أسماء الأعلام، وهيمن على سائر نواحي الحياة السياسية والدينية بالمقارنة مع الدور الذي تؤديه الشمس في الديانات السامية الشمالية حيث أنها الإله الأكبر، ولعل السبب في ذلك يعود إلى العوامل الجغرافية والمناخية، فالشمس شديدة الحرارة محرقة ومتعبة، في حين أن القمر هادٍ

(١) نيلسن: ص١٩٤ ـ ١٩٦.
(٢) خان: ص١١٠.
(٣) الألوسي: جـ٢ ص٢١٦.

للناس في البر والبحر، وسمير لرجال القوافل من التجار وأصحاب الأعمال في الليالي المقمرة، ولذلك لُقِّب بالحكيم والقدوس والصادق والعادل والمبارك والمعين والحامي[1].

والقمر هو الأب السماوي وزوج الشمس، وقد تركت إحدى وظائفه عند الساميين القدماء أثراً عميقاً جداً ما جعلها جديرة بالعناية والاهتمام، فالمعروف أن الساميين ينظرون إلى القبيلة وشعبها كعائلة واحدة ترجع إلى أب واحد، هو إله القبيلة أو إله الشعب، وهو القمر[2].

وتعبَّد الجاهليون للقمر، ود، في مواضع عدة من جزيرة العرب، فقد عبدته كلب في دومة الجندل، وصنعوا له تمثالاً على هيئة رجل ذبرت عليه حلتان متزراً بأحدهما ومرتدياً الأخرى، متنكباً قوساً وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبل[3]. وقد بقي ود قائماً في موضعه إلى أن أرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد من غزوة تبوك فهدمه وكسره[4]. وذُكر أن قريشاً كانت تتعبَّد لصنم اسمه ود، ويسمونه أد[5].

وأشار القرآن الكريم إلى عبادة الجاهليين للقمر والشمس: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت/ ٣٧].

ورمز العرب إلى القمر بهلال نُحت أو نُقش على الأحجار والأخشاب والمعادن. ويشير الهلال إلى مطلع القمر في أول الشهر القمري، كما أُشير إليه برأس ثور ذي قرنين.

الشمس

لفتت الشمس أنظار البشر منذ أقدم العصور بفعل تأثيرها في الإنسان وفي الزرع والنماء، وهي مصدر النور والحرارة، العنصرين الضروريين لنمو الحياة واستمرارها. ودفع هذا التأثير البارز البشر إلى الاعتقاد أن في الشمس قدرة خارقة، وقوة غير منظورة، كامنة فيها، فعبدوها وألَّهوها، وبنوا لها المعابد، وقدَّموا لها القرابين.

وتشير هذه العبادة إلى مجتمع مستقر يقوم أساساً على الزراعة، وتنم عن تطور كبير ورُقي في التفكير، إذا قيست بالعبادات البدائية التي كان يؤديها الإنسان للأحجار والنباتات والأرواح، ونجد ذلك في مملكة الأنباط وفي تدمر، على الرغم

---

(١) نيلسن: ص٢٠٨، ٢٠٩.
(٢) المرجع نفسه: ص٢١٠.
(٣) الكلبي: ص٦٧.
(٤) المصدر نفسه: ص٥٥.
(٥) الحموي: جـ٥ ص٣٦٧.

من أن هاتين المنطقتين لم تكونا تُمثِّلان مجتمعاً زراعياً صرفاً. فالمعروف أن مملكة الأنباط شبه واحة توجد فيها الزراعة في وادي موسى حول مدينة البتراء عاصمة المملكة، ولكن توجد فيها أيضاً مناطق صحراوية لا تصلح إلا للرعي. وكانت تدمر واحة غنية بنخيلها ولكن المناطق المحيطة بها، والتي كانت تُعدُّ امتداداً لها، كانت مناطق صحراوية بدوية. وقد أدَّى عدد من العوامل إلى انتصار عبادة الشمس على الرغم من هذا التداخل الرعوي ـ الزراعي، لعل أهمها:

ـ وقوع هاتين المنطقتين الواقعتين في القسم الشمالي للجزيرة العربية، بالقرب من حضارتين زراعيتين مستقرتين ومتصلتين بهما، مع ما ينتج عن ذلك من تأثيرات عن طريق التبادل التجاري، وهما حضارة مصر في الغرب، حيث الإلّه رع إلّه الشمس هو الإلّه الأول، وحضارة وادي الرافدين في الشرق، حيث كان شمش، إلّه الشمس، أحد الآلهة الرئيسة في مجمع الآلهة.

ـ تتميز المنطقتان باعتدال درجة الحرارة بالمقارنة مع ما هو ملحوظ في وسط وجنوبي الجزيرة العربية ومن ثم لا تصبح الشمس عدواً يحرق الكلأ، وتصبح الحياة اليومية حافلة بالنشاط التجاري في وضح النهار، وتصبح الشمس صديقاً للتاجر وليست عدواً له(١).

إن الظاهرة الملفتة في الديانة العربية الجنوبية هي اعتبار إلّهة الشمس أُماً، فهي زوجة القمر وأم عثتر، يجتمعان مرة في كل شهر عند اتجاه الكوكبين نحو الأرض، ويتصل بهذه الأسطورة الرأي القائل بأن القمر مذكر والشمس أنثى، ولعل مصدر هذه الفكرة أسطورة الأسرة، فإلّهة الشمس العربية تقابل عند الساميين الشماليين الإلّهة أم الزهرة المسماة عثتر وزوجة القمر. والواضح أن حركات القمر، كقربه من الشمس أو بُعده عنها واختفائه ثلاث ليال شهرياً، حمل العربي الجاهلي على الاعتقاد بأن ذلك زواج سماوي. وهي لذلك إلّهة البركة والخصب والحمل(٢)، بدليل ما جاء في نص سبئي عُثر عليه في مدينة صرواح أن صاحبته قدمت إلى الإلّهة أُم عثتر؛ أي الشمس، أربعة تماثيل من ذهب؛ لأنها وهبتها أربعة أطفال، ولد وثلاث بنات، كلهم أحياء يُرزقون، راجية أن تستمر في الإنعام عليها وعلى ابنها وبناتها بالصحة والعافية، وكانت العرب تسمي الشمس الإلّهة، تعظيماً لها، يؤيد ذلك هذا الشعر:

تروَّحنا من اللعباء قسراً ... فأعجلنا الإلاهة أن تؤوبا
على مثل ابن ميَّة فانعياه ... تشق نواعم البشر الجيوبا(٣)

---

(١) يحيى: ص٣٨٣، ٣٨٤.
(٢) نيلسن: ص٢٢٠.
(٣) يُنسب هذا الشعر لميَّة بنت أم عتبة بن الحارث، وقيل لبنت عبد الحارث اليربوعي، وقيل =

كانت الشمس تُسمى، في النصوص العربية الشمالية، باسم إلات، وربة إلات، وتعني سيدة اللمعان، وتُرسم أحياناً كقطعة من الشمس، وتُصوَّر أحياناً أخرى على شكل إنسان يمثل حسناء عارية، وتشبه الصورة تمثال عثتر، ولكن وجود الشمس بجوار الرأس يجعلنا نعتقد بأنها صورة إلَهة الشمس(١).

تبدأ أسماء الشمس غالباً بلفظ ذات، وسُميت في النصوص المعينية باسم نكرح وهو اسم غريب غامض، وعند السبئيين ذات حميم وذات بعدن وذات غضرن وذات برن وذات ظهرن، وفي النصوص القتبانية ذات صنتم وذات صهرن وذات رحبن، وتدل هذه الأسماء كلها على السخونة الشديدة والحرارة المتقدة، وتشير إلى إلَهة الشمس كجسم سماوي، وكان الاسم ذات حميم يُطلق قديماً على مكان إلَهي مقدس، أو يدل على الحارسة أو الحامية أو الحافظة. ونجد اسماً آخر لإلَهة الشمس في النصوص القتبانية ألا وهو «أ ث ر ت»؛ أي لمعان قوي، وهو اللفظ العبري «أشرت»، ويشير هذا اللفظ القتباني عادة إلى إلَهة الشمس وإلى زوج ود(٢).

وعُرفت الشمس بذكاء عند الجاهليين، وقد تصوَّروا الصبح ابناً للشمس وحاجباً لها، فيُقال للصبح ابن ذكاء لأنه من ضوئها، كما قيل حاجب الشمس(٣). وكانوا يستقبلون الشمس ضحى، وذُكر أن الأسقع الليثي خرج إلى والده، فوجده جالساً مستقبل الشمس ضحى(٤). وقد رمزوا إليها بقرص أو دائرة أو كتلة أو هالة. والقرص صورة طبيعية لقرص الشمس التي تظهر في السماء قرصاً وهَّاجاً يبعث الحرارة والنور.

ونجد من بين رموز الحيوانات عند العرب القدماء، وكذلك عند الساميين بعامة، الحصان على أنه حيوان الشمس المقدس، وهو ينوب عن إلَهة الشمس في بلاد العربية الجنوبية والمسماة ذات بعدن(٥).

والشمس من الأصنام التي تسمَّى بها عدد من الأشخاص، فعُرفوا بـ«عبد شمس». وأول من تسمى به سبأ الأكبر ابن يشجب؛ لأنه أول من عبد الشمس فدُعي بـ «عبد شمس»(٦). وتعبَّدت له بنو تميم، وكان له بيت، وعبدته بنو أدّ كلها: ضبة وتميم وعدي وعُطْل وثور، وكان سدنته من بني أوس بن مخاشن من تميم. وعبد شمس

= لنائحة عتيبة بن الحارث، وقيل لأم البنين بنت عتيبة بن الحارث. انظر: الزبيدي: جـ٩ ص٣٧٤، ٥١٠.

(١) نيلسن: ص٢١٩، ٢٢٠.

(٢) المرجع نفسه: ص٢١٧، ٢١٨.

(٣) ابن منظور: جـ١٤ ص٢٨٧.

(٤) العسقلاني: الإصابة: جـ١ ص٥١.

(٥) نيلسن: ص٢٢٠.

(٦) ابن منظور: جـ٦ ص١١٤.

بطن من بطون قريش، قيل سُمُّوا بذلك الصنم[1]، فهل كان بعض قريش يتعبَّد للشمس أم كانوا يتسمون بصنمها فقط؟

وعبد السبئيون الشمس، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل/ ٢٤].

ووردت إشارات عديدة في القرآن الكريم إلى عبادة الجاهليين للأجرام السماوية[2].

الزهرة

يلي القمر والشمس في الثالوت الكوكبي، الزهرة، عثتر، وهو ابن القمر والشمس. وقد ورد هذا الاسم في أساطير وخرافات العربية الجنوبية، في النصوص المعينية والسبئية والحضرمية والقتبانية[3]. وعثتر إله مذكر في العربية الجنوبية ومؤنث في العربية الشمالية، وهي العزى، والزهرة هو النجم الثاقب الذي ورد في القرآن الكريم[4]، وهو أكثر نجوم السماء تألقاً ولمعاناً.

تعدَّدت أسماء هذا الإلّه في النقوش العربية نذكر منها:

أوس عثت؛ أي عطية عثت، هوب عثت، لحى عثت، ولفظة عثت مختصرة من عثتر، وعثتر شرقن، ويشير ذلك إلى أن الزهرة هو نجم الصباح الذي يسبق الشمس قبل شروقها، وهو في العربية الشمالية الشارق، أو شارقا بمعنى المضيئ أو الساطع. وورد أيضاً الاسم عزيز، نجم الصباح، ويوصف بذي الخلصة؛ أي الطاهر أو النقي، وهي صفة لا يمكن إدراكها إلا إذا علمنا أن الزهرة طفل. وورد في المصادر العربية اسم ذو أخلص أو الأخلص وكان يُعبد في تبالة على طريق القوافل بين صنعاء ومكة[5].

وأطلقت النقوش العربية الجنوبية أسماء مختلفة للآلهة الثلاثة الخاصة بالقمر الشمس والزهرة، فقد جاء في نص قتباني أسماء: ود، عثيرت، ملك، والمعروف أن ود اسم إله القمر، وعثيرت امرأة ود، وهي آلهة الشمس، ولا بدَّ أن يكون اسم ملك هو اسم إله الزهرة، ويرمز له بالتاج، كما الإله ذو الخلصة الذي كان مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج[6].

ونظر العرب إلى الزهرة كإلّهين من خلال طبيعته المزدوجة كنجم للصباح

---

(١) ابن منظور: جـ٧ ص٤٢٠.

(٢) سورة فصلت: الآية ٣٧.

(٣) علي: جـ٦ ص٣٠٢.

(٤) سورة الطارق، الآية: ٣.

(٥) نيلسن: ص٢٢٣، ٢٢٤.

(٦) الكلبي: ص٤٩، ٥٠.

والمساء، وصوَّروه على هيئة طفل عار، فكانوا يقدمون القرابين على هيئته؛ أي من الأطفال الذين هم على جانب عظيم من الجمال، وهذا ما كان سائداً في حران. وعلى ضوء هذه العبادة العربية القديمة للملك، فقد نشأ طبيعياً على الأرض ثم حُمل بعد ذلك وأُطلق على كائن سماوي وكان يُعبد كإلّه، وربما كممثل أرضي للإلّه عثتر تجسد ليمثل الزهرة، وأن الإلّه الزهرة نزل من السماء إلى الأرض فحلَّ فيه وتقمص شخصيته[1].

وهكذا يكون الملك العربي قد وُلد من سلالة إلّهية ولم يولد ولادة عادية كسائر البشر، وأن الثالوث الإلّهي كان يُنظر إليه كعائلة، حيث القمر هو الوالد والشمس هي الأم والزهرة هو الابن، ويتبع هذه الأسرة الإلّهية الملك، الذي يُنظر إليه كالزهرة حيث يُذكر في النقوش كابن للقمر.

ورمز العرب الزهرة بصورة نجمة، في النقوش العربية الجنوبية، وهي ذكر وولد عند العرب الجنوبيين[2].

كواكب أخرى

لم يكن الثالوث الكوكبي وحده معبود العرب، فقد عبد الجاهليون أجراماً سماوية أخرى، كالدبران والعيوق والثريا والشعرى والمرزم وعطارد وسهيل.

فقد عبدت كنانة وقريش وطائفة من تميم الدبران، وهو كوكب مشؤوم عندهم، عبدوه رهبة لا رغبة، وذكره الشعراء بالنحوسة، على نحو ما قال عبيد بن الأبرص حين تعرَّض للملك المنذر ابن ماء السماء في يوم بؤسه، يريد حياة، فقتله:

غداة توخى الملك يلتمس الحيا فصادف نحساً كان كالدبران[3]

وعبدت طيء الثريا والمرزم وسهيل. والثريا كواكب عدة مجتمعة ومتقاربة يصل عددها إلى عشرين نجماً جعلها العرب بمنزلة كوكب واحد سموها النجم[4]. وذهب بعض المفسرين إلى أن النجم المذكور في القرآن الكريم ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم/ ١]، هو الثريا وذهب آخرون إلى أنه الزهرة، لأن قوماً من العرب كانوا يعبدونها[5]. وعبدت بعض قبائل ربيعة المرزم، وعبدت بعض قبائل لخم وخزاعة وقيس وقريش الشعرى، العبور، وهي الشعرى اليمانية، وكانت تلبية مذحج: «لبيك رب الشعرى

---

(١) نيلسن: ص٢٢٤. (٢) علي: جـ٦ ص١٧٦.
(٣) ابن قتيبة: الأنواء: ص٣٧، ٣٨.
(٤) المصدر نفسه: ص٢٣. الألوسي: جـ٢ ص٢٢٩.
(٥) تفسير ابن كثير: جـ٤ ص٢٤٦.

وربّ اللات والعزى»[1]. وأول من سنَّ للعرب عبادة الشعرى، العبور، وأدخلها إليهم هو أبو كبشة جزء بن غالب الخزاعي من بني غبشان، وهو جد وهب بن عبد مناف، أبو آمنة أم الرسول ﷺ، وقد خالف قريشاً في عبادة الأصنام، وهي التي أشير إليها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ [النجم/٤٩]. وكان مَنْ لا يعبد الشعرى من العرب يُعظمها ويعتقد بتأثيرها في العالم. وعبد بنو أسد عطارد، وبعض قريش كوكب الأسد، وطسم الدبران، وبعض أهل مكة زحل، وبنو لخم وجرهم المشتري، وأكثر العرب القمر والشمس والزهرة[2].

كهنة المعابد

وشيَّد اليمنيون في المدن الكبرى معابد لآلهتهم كانت على شيء من البذخ يصل إلى مستوى ما يُبذل في بناء القصور، لعل أشهرها معبد ألمقة الكبير بمأرب المعروف بمعبد «ألمقة بعل أدم» «ألمقة رب أدام». وكان لألمقة معبد آخر في مدينة صرواح، ولكل معبد كهنة يقيمون الطقوس، ويقبضون العوائد، ويتصرفون في الأوقاف وما يُحبس على المعبد من مشروعات، ويشير ذلك إلى مدى القوة التي كان يتمتع بها رجال الدين في العربية الجنوبية والقائمة على ثلاثة عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية.

ففيما يتعلق بالعامل الاجتماعي، كان أكثر رجال الدين من الطبقة «الأرستقراطية» وكبار الأغنياء، وشكَّلوا في معظم الممالك العربية الجنوبية سنداً اجتماعياً وعقائدياً للطبقة الحاكمة.

وفيما يتعلق بالعامل الاقتصادي، فقد كان لرجال الدين العُشر من محصول اللبان وهي الحصة المخصَّصة للإلّه، كما كان لرجال الدين العُشر أيضاً من منتجات الأرض والأرباح التي تُجبى من التجارة، لذلك كان مقدار الثروة التي يحصل عليها هؤلاء كبيراً بالمقارنة مع مستوى البذخ الذي كانت عليه المعابد والأثمان الباهظة التي تُباع بها الطيوب.

ومن حيث العامل السياسي، فإن القوة الاقتصادية التي تمتع بها رجال الدين انعكست في إحدى الممالك العربية، وهي مملكة سبأ، التي انتزع فيها هؤلاء الصلاحيات الدينية من يد الملوك بعد أقل من قرن ونصف من قيام هذه المملكة

---

(١) عُرفت بالشعرى العبور، لأنها تعبر السماء عرضاً ولا يعبرها غيرها. إنها النجم الوقَّاد الذي يتبع الجوزاء، ويُقال له المرزم. وفي أساطير العرب أن سهيلاً والشعرى كانا زوجين فانحدر سهيل فصار يمانياً فاتبعته الشعرى الغيور فعبرت المجرة فسميت العبور. ابن منظور: جـ٤ ص٤١٦. اليعقوبي: جـ١ ص٣٠٩. الألوسي: جـ٢ ص٢٣٩. علي: جـ٦ ص٥٩.

(٢) علي: جـ٦ ص٦٠.

ليتفردوا بها منذ حوالي عام (٦١٠ق.م) ولمدة خمسة قرون كاملة.

عبادة الأصنام

انتشرت الوثنية بين العرب قبل الإسلام انتشاراً واسعاً، واشتهر هؤلاء بعبادة الأصنام والأوثان[١]، وقد اتُخذت آلهة من دون الله، وكانت الأصنام على أشكال مختلفة منها:

- صورة إنسان ذكر وأنثى، فقد كان ود تمثال رجل والعزى صنماً لامرأة وكذلك كان سواع.
- صورة حيوان، فقد كان يغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر من الطير.
- جماداً لا صورة له، فقد كانت اللات صخرة مربعة أو صخرة بيضاء منقوشة.

ويضع العربي الأصنام في معابد الآلهة تقرباً إليها لاستجابة دعاء أو وفاء لنذر، في حين كانت الأوثان ترمز إلى الآلهة، فتُذبح الذبائح وتُقدَّم القرابين إليها، ويُستسقم عندها بالأزلام.

أما الأنصاب فهي أحجار نصبها الجاهلي وذبح عليها ذبائحه، إنها المذبح أو المنحر ويسميه العرب الغبغب. وقد يكون النصب حجراً للعبادة أو منحراً تحوَّل بمرور الزمن إلى صنم يعبدونه ويقدسونه ويطوفون به ويذبحون عنده، ويسمون الطواف به الدوار، يقول عامر بن الطفيل في ذلك:

ألا يا ليت أخوالي غنياً عليهم كلما أمسوْا دوارُ[٢]

واتخذ العرب الجاهليون بيوتاً لآلهتهم من وبر، ثابتة أو متنقلة بفعل الترحال والغزو المستمرين، والمعروف أن القبيلة كانت تحمل أصنامها معها في حروبها

---

(١) استعمل العرب اصطلاحين للدلالة على التماثيل التي كانوا يعبدونها في الجاهلية هما أصنام وأوثان. فالصنم تمثال مصنوع من خشب أو ذهب أو فضة على مثال صورة إنسان، وإذا كان من الحجارة فهو وثن، أو أن الصنم ما كان له صورة جُعلت تمثالاً، والوثن ما لا صورة له، أو أن الوثن ما كان له جثة من خشب أو حجر أو فضة يُنحت ويُعبد، والصنم صورة بلا جثة، أو أن الصنم ما كان على صورة خلقة البشر، والوثن ما كان على غيرها، أو أن الصنم له جسم أو صورة، والوثن لا جسم له ولا صورة، أو أن الصنم من حجارة، والوثن ما كان له صورة مجسمة. ويبدو أن هذا الاختلاف مرده استعمال القبائل للكلمتين، فلما جمع علماء اللغة معانيهما حصل هذا التباين.
الكلبي: ص٦٥. ابن منظور: ج١٢ ص٣٤٩. ج١٣ ص٤٤٢، ٤٤٣.

(٢) الكلبي: ص٥٧.

لتدافع عنها وتحميها وتجلب لها النصر، وفي ذلك يقول الشاعر:

وسار بنا يغوث إلى مراد ... فناجزناهم قبل الصباح[1]

وقد حملت قريش معها اللات والعزى عندما خرجت إلى أُحُد لحمايتها وبث الحماس في نفوس مقاتليها[2].

ولهذه البيوت سدنة وحجاب، وكانوا يحجون إليها للتبرك ويطوفون حولها ويُقدمون لها القرابين والنذور والعطايا لنيل رضاها ودفع أذاها.

وبفعل انتشار الوثنية الواسع في المجتمع الجاهلي اتخذ أهل كل دار صنماً في دارهم يعبدونه، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجَّه إلى سفره، وإذا قدم من سفره، تمسَّح به، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل دخوله على أهله[3].

وقد تشترك قبائل عدة في عبادة إله مُعيَّن، على نحو ما كان من تعظيم قريش وكنانة للعزى مع خزاعة وجميع مضر، وكان سدنتها بنو شيبان، من بني سُليم حلفاء بني هاشم[4]. وقد تعبد آلهة بعضها البعض، فقد عبدت قريش صاحب بني كنانة، وعبدت كنانة صاحب قريش[5]، وتمكَّنت قريش بفضل هذه السياسية الدينية من جمع أصنام العرب وضمها في الكعبة ما جعل القبائل تُعظم هذا المجمع الإلّهي وتحج إليه سنوياً[6].

وتوجد روايتان عن مصدر عبادة الأصنام وانتشار الوثنية في الجزيرة العربية:

الأولى: تذهب إلى أنها نشأت نشأة محلية نتيجة تطور العلاقات القبلية في المجتمع الجاهلي التعددي، وارتبطت مع حركة هذا التطور داخلياً، اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وفكرياً، وخارجياً من واقع العلاقات مع الدول المجاورة. وفي رواية للكلبي «إن نسل إسماعيل بن إبراهيم لما تكاثر بمكة حتى ضاقت بهم، وقعت بينهم الحروب والعداوات، فأخرج بعضهم بعضاً، فتفسحوا في البلاد التماساً للعيش، وكان كلما ظعن من مكة ظاعن حمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة. فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمُّناً منهم بها وصبابة بالحرم وحُباً له، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل، ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا

(١) الكلبي: ص٢٧.
(٢) الطبري: جـ٢ ص٥٠٨.
(٣) ابن هشام: جـ١ ص١٠٦.
(٤) الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار: جـ١ ص١٢٦.
(٥) ابن حبيب، محمد: المحبر: ص٣١٤، ٣١٥.
(٦) دلو: جـ٢ ص١٧٧، ١٧٨.

ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه... فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم، وانتجثوا[١] ما كان يعبد قوم نوح منها على إرث ما بقي فيهم من ذكرها، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسّكون بها، من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة، وإهداء البُدْن والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم ما ليس منه»[٢].

الثانية: تشير إلى أنها وافدة على يد عمرو بن لحي الخزاعي، وكان كاهناً قد غلب على مكة وأخرج منها جرهماً وتولى سدانتها. وقد تحدث الرسول ﷺ عن ذلك فقال لأكثم بن الجون الخزاعي: (يا أكثم، رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه[٣] في النار... إنه كان أول من بحر البحيرة[٤] وسيَّب السائبة[٥] ووصل الوصيلة[٦] وحمى الحامي)[٧]. وهي هدايا كانت تُقدم للآلهة.

وتجمع المصادر الإسلامية على أن عمرو بن لحي جلب الأصنام من الشام، وكان على رأسها هبل[٨]، فقدم به إلى مكة وأمر الناس بعبادته وتعظيمه، فضلُّوا، لكن بقيت فيهم بقايا من عهد إبراهيم، يعظمون البيت ويطوفون به ويحجون[٩].

واستناداً إلى هذه الرواية يكون عمرو بن لحي أول من أدخل عبادة الأصنام والأوثان إلى الجزيرة العربية بعامة ومكة والحجاز بخاصة، ونشرها بين الناس.

يبدو من تنوع الروايات أن الإخباريين جمعوا ما تردَّد على ألسنة الناس في محاولة

---

(١) انتجثوا: أخرجوا.

(٢) الكلبي: ص٢٤، ٢٥.

(٣) قصبه: أمعاءه.

(٤) البحيرة: هي الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن نحروا الخامس إذا كان ذكراً، أما إذا كان أنثى، فإنهم يشقُّون أذنها ويستحييونها، فلا يشربون لبنها، ولا يجزُّون وبرها، ولا يركبون ظهرها، وهي بمنزلة أمها السائبة. ابن هشام: جا ص١١٢.

(٥) السائبة: هي الناقة إذا ولدت عشرة أبطن على التوالي كلهن إناث، سُيِّبت، فلم يُركب ظهرها، ولم يُجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شُقَّت أذنها ثم خُلِّي سبيلها مع أمها، ويُفعل بها كما فعل بأمها. المصدر نفسه.

(٦) الوصيلة: هي الشاة إذا أتأمت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر، جُعلت وصيلة، قالوا: قد وصلت، فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم من دون إناثهم، إلا أن يموت منها شيء فيشتركوا في أكله، ذكورهم وإناثهم. وأضاف ابن هشام على رواية ابن إسحاق: فكان ما ولدت بعد ذلك لذكور بنيهم من دون بناتهم. المصدر نفسه.

(٧) الحامي: هو الفحل من الإبل إذا أنتج عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر، حمى ظهره، فلم يُركب ولم يُجز وبره، وخُلِّي في إبله يضرب فيها، فلا يُنتفع منه بغير ذلك. المصدر نفسه.

(٨) وفي رواية أن عمرو بن لحي جاء بهبل من هيت من أرض الجزيرة الفراتية.

(٩) الكلبي: ص٢٤، ٢٥. ابن هشام: جا ص١٠١. اليعقوبي: جا ص١٠٢.

لاستكمال قصة عمرو بن لحي من دون أن يستندوا إلى سند تاريخي مقنع، لكن بعض التفاصيل تبقى مع ذلك جديرة بالملاحظة، إذ تُجمع هذه الروايات على أن مكة كانت محجة ومقاماً قبل خزاعة وعصر عمرو بن لحي، وكان الناس فيها يتعبَّدون على دين إبراهيم، وأن عمرو بن لحي أحضر صنمه هُبل من الشام، والمعروف أن هذا الصنم كان يُعبد في تلك البلاد، وقد جاء ذكره في الكتابات النبطية التي عُثر عليها في الحجر[1]. لكن ما الذي دفع عمرو بن لحي للذهاب إلى الشام؟ الراجح أن تنظيم أمور التجارة كان هدف الرحلة على الرغم مما تذكره بعض روايات المصادر من أنه ذهب إلى البلقاء ليستحم بحمة كانت هناك ليبرأ من مرض شديد ألَمَّ به[2]، وقد اقتدى به رجلان مكيان فيما بعد، هما قصي بن كلاب وهاشم بن عبد مناف، بدليل:

- أن عمرو بن لحي أدرك أهمية مكة الديني والتجاري، فأراد أن يغري العرب بالحج إليها، فجلب إليها أصنام القبائل ووضعها في البيت الحرام، ومن جهتها وقفت القبائل على أهمية المدينة هذه فرضيت بأن تضع أصنامها فيها، والجدير بالذكر أن التجارة كانت آنذاك مرهونة بالمواسم الدينية.

- يروي الإخباريون[3] أن عمرو بن لحي كان يطعم الحاج ويقيم موائد الطعام في المواسم ويذبح أيام الحج عشرة آلاف بُدنة، ويكسي عشرة آلاف حلَّة في كل سنة، ويطعم العرب، ويحيس لهم الحيس[4]، ويلت لهم السويق[5]، ما يدل على أنه كان ثرياً إلى جانب زعامته، والمعروف أن التجارة المكية هي سبب الثراء. يقول ابن هشام في رواية دخول عمرو بن لحي إلى مكة وإخراجه جرهماً منها: «ثم إن جرهماً بغوا بمكة واستحلُّوا خلالاً من الحرمة، فظلموا من دخلها من غير أهلها وأكلوا مال الكعبة الذي يُهدى إليها»[6].

ويحملنا هذا القول على الاعتقاد أن من يقوم على خدمة البيت الحرام كان مُنتظراً منه أن يُنفق لا أن يرتزق من الحرم، ولا بدَّ أن التجارة هي المورد الذي كان ينفق منه.

- ما ابتدعه عمرو بن لحي من نُظُم اتخذت صفة دينية وتجارية معاً، اتخذها العرب من بعده شرعة، مثل الفرعة[7] والعتيرة[8] والبحيرة والسائبة والوصيلة

---

(١) الكلبي: ص٢٤، ٢٥.

(٢) ابن هشام: جـ١ ص١٠٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الحيس: طعام من لبن وتمر وسمن.

(٥) السويق: طعام يُصنع من الحنطة والشعير المدقوق.

(٦) السيرة النبوية: جـ١ ص١٣٦.

(٧) الفُرعة: أول نتاج الإبل والغنم، كانوا يذبحونه لأصنامهم.

(٨) العتيرة: ذبائح الغنم بعامة، كانوا يذبحونها في المذابح، ويسمون المذبح: العتر.

والحامي، من واقع حمايته النوق والجمال التي تكثر من إنسال الإناث، لاهتمامهم ولا شك بإنماء قطعانهم وبخاصة الإبل التي كانت رأس مال التاجر في القوافل، وقد فضل العربي الأنثى على الذكر؛ لأن ذكراً واحداً يستطيع إخصاب عدد من الإناث، فكانوا يذبحون الذكور ويحتفظون بالإناث[1].

ذكرنا، استناداً لروايات المصادر، أن عمرو بن لحي أول من أدخل عبادة الأصنام والأوثان إلى الجزيرة العربية، لكن الواقع أن عرب الجاهلية كانوا يدينون بالوثنية منذ زمن بعيد وقبل ظهور عمرو بن لحي على مسرح الأحداث، بدليل:

- أن عرب الجنوب عبدوا الثالوث الكوكبي، القمر والشمس والزهرة، في الألف الأولى قبل الميلاد؛ أي قبل عهد عمرو بن لحي بمئات السنين، والراجح أنهم عملوا أصناماً ترمز إلى هذه الآلهة.

- عبد أهل حضرموت وكندة صنم الجلسد وهو كجثة الرجل العظيم، صخرة بيضاء لها رأس كرأس الأسد، وإذا تأمله الناظر رأى فيه كصورة وجه الإنسان، وكان سدنته بنو شكامة من السكون وهم من كندة، والذي يسدنه منهم، الأخزر بن ثابت، وللصنم حمى ترعاه سوامه وغنمه، وإذا رعت هوافي[2] الغنم حِماه حُرِّمت على أربابها، وكانوا يقربون إليه القرابين[3].

- عبد العرب في جاهليتهم الأولى، وفي دورهم الطوطمي، قبل عصر عمرو بن لحي، الأصنام الخمسة، ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وصوَّروهم على أشكال الإنسان والحيوان: ود على صورة رجل، سواع على صورة امرأة، يغوث على صورة أسد، يعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر من الطير، والمعروف أن عبادة الحيوان (الطوطم) من أشكال الديانات البدائية لدى العرب القدماء، وقد ظلت بقايا معتقدات الطوطمية لدى العرب حتى ظهور الإسلام.

- جاء في النصوص الآشورية أن سنحاريب ملك أشور (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق.م) وابنه سرجون (٦٨١ ـ ٦٦٩ق.م) انتصرا في الحرب على أعراب شمالي الجزيرة العربية وأخذا منهم غنائم وأسرى كان من بينها الملكة إسكلاتو، كاهنة الآلهة دليات، وأصناماً كان العرب قد حملوها معهم، تبركاً وتيمناً بها وتفاؤلاً بوجودها بالنصر، وكانت في خيمتها المتخذة معبداً لها، كان من بينها:

عتر سمين، إله السماء، وعتر قرمية، ودية وأيا ونوهيا، نهيا أو نهى، وحملها الأشوريون معهم إلى عاصمتهم نينوى، وبقيت في الأسر مدة حتى أعلن الأعراب

---

(١) سحاب، فكتور: إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف: ص٣٥٩ ـ ٣٦٢.

(٢) هوافي، جمع هافية ومعناها الضالة. (٣) الحموي: جـ٢ ص١٥١، ١٥٢.

خضوعهم للدولة الأشورية، فأعيدت إلى أصحابها، ما يُعدُّ إذلالاً لعبَّادها وإهانة لهم وازدراء بها، بفعل عجزها عن مساعدة عبَّادها في القتال وتجنُّب الوقوع في الأسر، ثم تخليص نفسها منه(١).

- تشير القصص العربية القديمة إلى الوثنية، في معرض حديثها عن الأقوام البائدة، من ذلك أن قوم عاد كانوا يعبدون الحجارة والأخشاب(٢) وقد أُصيبوا بقحط، وعندما أضرَّ بهم الجفاف أرسلوا وفداً إلى مكة يستسقون آلهة الكعبة(٣).

- كان لقبيلة جرهم التي سكنت مكة قبل خزاعة مجسَّمات مؤلهة سبقت ما أحضره عمرو بن لحي الخزاعي، منهم إساف ونائلة، وكان لهما أيضاً تمثال لغزالين من ذهب(٤).

أشهر أصنام العرب

تعبَّدت قبائل العرب لعدد كبير من الأصنام والأوثان أقامت بعضها في الكعبة وبعضها الآخر في مواضع قريبة، وأحياناً بعيدة عن مضارب أصحابها، نذكر منها:

ود: صنم دفعه عمرو بن لحي إلى عوف بن عذرة، فحمله إلى وادي القرى ونصبه في دومة الجندل، وسمَّى ابنه عبد ود وهو أول من تسمَّى بهذا الاسم، ومنهم من سمَّاه أد، ومنه سُمي أد بن طابخة، وأدد جد معد بن عدنان، ثم سمَّت به العرب بعد ذلك، وعبدتهَ وبرة من قضاعة، وكان سدنته بنو الفرافصة بن الأحوص من كلب.

وود تمثال كأعظم ما يكون من الرجال قد دبر، عليه حلتان، متزر بحلة، ومرتدٍ أخرى، وقد تقلد سيفاً وتنكَّب قوساً وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبل(٥). ويبدو من هذا الوصف أن ود يمثل إله الحرب، ويجسد الدور الهام للغزو في الحياة الاقتصادية العامة.

سواع: صنم على صورة امرأة، دفعه عمرو بن لحي إلى الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل المضري فنصبه في رهاط(٦) من بطن نخلة، يعبده من يليه من مضر،

---

(١) علي: جا ص٥٩٢، ٥٩٣، ٦٠٠. جـ٦ ص٦٢، ٦٣، ٢٩٠، ٢٩١.

(٢) زيدان: ص٧٦. (٣) الطبري: جا ص٢١٧.

(٤) الكلبي: ص٤٤. الأزرقي: جا ص١١٩، ١٢٠.

(٥) الكلبي: ص٦٧، ٦٨. ابن هشام: جا ص١٠٢.

(٦) رهاط: موضع على ثلاث ليال من مكة. وقال قوم: رهاط في بلاد هذيل وبقرب وادي رهاط الحديبية، وبطن نخلة قرية قريبة من المدينة على طريق البصرة. الحموي: جا ص٤٤٩. جـ٣ ص١٠٧.

وفي رواية أخرى أن سواعاً كان صنماً برهاط من أرض ينبع، وينبع عرض من أعراض المدينة، وكان سدنته بنو لحيان[1]. وذكر محمد بن حبيب أن سواعاً كان بنعمان، عبدته بنو كنانة وهذيل ومزينة وعمرو بن قيس بن غيلان، وسدنته بنو صاهلة من هذيل[2].

يغوث: صنم على صورة أسد نقله، عمرو بن لحي إلى أنعم بن عمرو المرادي، فوضعه بأكمة مذحج في اليمن، فعبدته مذحج ومن والاها وأهل جُرش[3]. ويبدو أنه نقله من الشعيبة، على ساحل البحر، إلى مكة، وإذا كان مجلوباً من الخارج فلا بدَّ أن يكون من الحبشة أو مصر؛ لأن الشعيبة محطة المسافر من إحداهما إلى مكة والحجاز، والمعروف أنه كان من بين آلهة المصريين صنم على صورة أسد أو لبوة يسمونه تغنوت، ولما كان العرب يكتبون بدون تنقيط فإن التقارب الصوري واضح بين اللفظتين يغوث وتغنوت[4]. وقد تسمَّى عدد من الجاهليين بعبد يغوث، منهم من كان في مذحج ومنهم من كان في هوازن وتغلب، ما يدل على انتشار عبادته بين قبائل أخرى غير مذحج[5].

يعوق: من الأصنام التي فرَّقها عمرو بن لحي على القبائل، لقد سلَّمه إلى مالك بن مرثد بن جشم الهمداني، فوضعه في موضع خَيْوان[6] وهو على صورة فرس، عبدته همدان ومن والاها من أهل اليمن[7].

نسر: صنم على صورة نسر من الطير كان من نصيب حِمْيَر، أعطاه عمرو بن لحي إلى قيل ذي رعين المسمى معديكرب فوضعه في موضع بلخع من أرض سبأ، فتعبدت له حِمْيَر إلى أيام ذي نواس، فتهودت معه وتركت عبادة نسر[8]. وفي رواية أنه كان لحِمْيَر وهمدان منصوباً بصنعاء[9]. وورد اسم نسر عند السبئيين واللحيانيين وكذلك في النصوص العبرانية والسريانية على أنه اسم إله عربي، وهو من الآلهة المعبودة عند كثير من الساميين، وعُبد في الجزيرة العربية بخاصة[10].

وقد ورد ذكر هذه الأصنام في القرآن الكريم ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ

---

(١) الكلبي: ص٦٨. ابن هشام: جـ١ ص١٠٢. (٢) المحبَّر: ص٣١٣.

(٣) الكلبي: ص٦٨. ابن هشام: جـ١ ص١٠٢.

(٤) الحوت، محمد سليم: في طريق الميثولوجيا عند العرب: ص٥٨.

(٥) علي: جـ٦ ص٢٦٢.

(٦) خَيْوان: قرية من صنعاء على ليلتين مما يلي مكة. الحموي: جـ٢ ص٤١٥.

(٧) المصدر نفسه. الكلبي: ص٦٨.

(٨) الكلبي: ص٦٨، ٦٩. ابن هشام: جـ١ ص١٠٤.

(٩) اليعقوبي: جـ١ ص٣٠٨. (١٠) علي: جـ٦ ص٢٦٤.

يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۞ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ۞ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح/ ٢١ ـ ٢٣].

نستنتج من هذه الآيات أن عبادة الأصنام الخمسة تعود إلى عهد قديم في المدى الزمني، أقدم كثيراً من عهد عمرو بن لحي، وتدل عبادتها على مزيج من أشكال الديانات البدائية الفيتشية والطوطمية والوثنية لدى العرب القدماء. وتجري الرواية الإسلامية أن وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين ماتوا في شهر، فجزع عليهم أقاربهم، فانبرى رجل من بني قابيل وعرض على القوم أن يصورهم على شكل أصنام، فنحتها ونصبها لهم «فكان الرجل يأتي أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله حتى ذهب ذلك القرن الأول، ثم جاء قرن آخر فعظموهم أكثر من تعظيم القرن الأول، ثم جاء من بعدهم القرن الثالث، فقالوا: ما عظَّم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله. فعبدوهم وعظم أمرهم واشتد كفرهم. . .»[١].

اللات: من الأصنام القديمة المشهورة عند العرب الشماليين وعرب الحجاز، وهي الآلهة الأنثى، على شكل صخرة مربعة[٢] أو على شكل صخرة بيضاء منقوشة[٣]، عبدتها ثقيف بالطائف وخصَّتها كخاصة قريش العزى، وبنت عليها بيتاً، وكان الثقفيون «يسيرون إلى ذلك البيت ويضاهئون به الكعبة، وله حجبة وكسوة، وكانوا يُحرِّمون واديه»[٤]، وقد عُرف هذا البيت بـ«بيت الربة» ويقصدون بالربة اللات[٥]، وكانت سدانته لآل أبي العاص بن أبي يسار بن مالك، أو لبني عتَّاب بن مالك من ثقيف[٦]، وهما أسرتان ثريتان من أسر الطائف، يقومون بخدمته وتنظيفه على نحو ما كان في مكة وفي بيوت الآلهة الأخرى، وكانت قريش وجميع العرب تُعظم اللات وبيتها. فقد ذُكر أن قريشاً تعبدت للصنم اللات بموضع نخلة عند سوق عكاظ، وقيل إنه كان بالكعبة، حتى أن الثقفيين كانوا إذا ما قدموا من سفر، توجَّهوا إلى بيت اللات أولاً للتقرب إليه وشكره على السلامة، ثم يذهبون بعد ذلك إلى منازلهم[٧]. وكان فناء بيت اللات حرماً معظماً عند أهل الطائف، تعظيم قريش لحرم الكعبة، وحُرِّم على الناس قطع شجره، وصيد حيوانه، ومن دخله صار آمناً[٨].

وتمثل اللات في تصورات بعض العرب فصل الصيف، وهي إلَهة الصيف عند

---

(١) الكلبي: ص٦٣، ٦٤.
(٢) المصدر نفسه: ص٣١.
(٣) تفسير ابن كثير: جـ٤ ص٢٥٣.
(٤) الحموي: جـ٥ ص٤.
(٥) الكلبي: ص٣١.
(٦) محمد بن حبيب: ص٣١٣. الحموي: جـ٥ ص٤.
(٧) الكلبي: ص٣١.
(٨) ديسو: ص١١١، ١١٢.

البابليين، اللاتو، وكانت أيضاً من آلهة تدمر والنبط والصفويين، وعدَّها النبطيون إلّهة الشمس وأماً للآلهة، ونسب العرب إليها فصل الصيف فقالوا: «ربكم يتصيف باللات لبرد الطايف...»[1].

قد تكون عبادة اللات من بقايا الوثنية البدائية التي تُعبد فيها الأحجار، وتدخل في هذه الحالة في المذهب الفيتشي بدليل أن ياقوت الحموي أشار إلى أنه كان في صخرة اللات والعزى شيطانان يكلمان الناس، كما أن عمرو بن لحي كان لا يبتدع للعرب بدعة إلا اتخذوها شريعة. وكان اللات رجل من ثقيف يلت له السويق للحج على صخرة تسمى صخرة اللات، فلما مات اللات أشاع عمرو بن لحي أنه لم يمت وإنما دخل في الصخرة، ثم أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بنياناً يسمى اللات[2]. وهذا الاعتقاد بوجود شيطان أو روح حلت فيها شرح لعقيدة عبادة الروح في الأشياء، أي الفيتشية.

وتسمَّى بعض العرب باللات مثل: تيم اللات بن رفيدة بن ثور، زيد اللات بن رفيدة بن ثور، تيم اللات بن النمر بن قاسط، تيم اللات بن ثعلبة، تيم اللات بن كلب، أسد اللات، سعد اللات، سكن اللات، شكم اللات ووهب اللات. ومن القبائل التي تسمت باللات: عذرة بن زيد اللات، العبيد بن زيد اللات، بنو زيد اللات، بنو تيم اللات وغيرها[3].

العزى: من أعظم الأصنام عند قريش وإلّهة المكيين المفضلة، وهي صنم أنثى أحدث من اللات ومناة بدليل أن العرب تسمت بهما قبلها[4]. وفي رواية أن العزى شجرة أو سمرة بنخلة الشامية إلى الشرق من مكة بينها وبين الطائف، عندها وثن تعبده غطفان وسدنتها من بني صرمة بن مرة[5]. وفي رواية ثالثة أن العزى شيطانة تأتي ثلاث شجرات أو سمرات ببطن نخلة، كان سدنتها وحجابها بنو شيبان من بني سُليم حلفاء بني الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، وآخر من سدنها منهم دُبَيَّة بن حرمى السُلمي[6].

الواقع أن العزى كانت صنماً على شكل إمرأة بدليل أن الرسول ﷺ بعث خالد بن الوليد في السنة الثامنة للهجرة إلى شعب سقام ليكسر العزى، فقال سادنها: «يا خالد أنا أحذركها، إن لها شدة لا يقوم إليها شيء. فمشى إليها خالد

---

(١) الأزرقي: جـ١ ص١٢٦.
(٢) معجم البلدان: جـ٥ ص٤.
(٣) ابن دريد: الاشتقاق: ص٥٣٨، ٦٢٣.
(٤) الكلبي: ص٣٣.
(٥) الحموي: جـ٤ ص١١٦.
(٦) المصدر نفسه: ص١١٧. ابن هشام: جـ٤ ص١١٣.

بالفأس فهشَّم أنفها[1]. أما الشجرة أو الشجرات الثلاث فقد اكتسبت قدسيتها من وجودها في حرم العزى».

وحمت قريش للعزى شُعباً بوادي حراض يُقال له سقام يضاهون به حرم الكعبة[2]، فأضحى موضعاً آمناً لا يُعتدى على أحد فيه، ولا تُقطع شجره، ولا يُقام بعمل يخل بحرمته، فكانت قريش تزورها وتهدي لها وتتقرَّب عندها بالذبائح، ويقال لمنحرها الغبغب[3].

وكانت قريش كلما خرجت إلى حرب، تحمل معها آلهتها، أصنامها، لتحميها ولتستمد منها العون. ففي معركة أُحد حملت قريش معها بعض آلهتها، ومنها اللات والعزى، وقال أبو سفيان عقب انتصار قريش: «أعل هبل» فقال المسلمون: «الله أعلى وأجل»، فقال أبو سفيان: «لنا العزى ولا عزى لكم، فقال المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم»[4].

وعُبدت العزى في كثير من القبائل العربية غير قريش، مثل غنى وباهلة وخزاعة وجميع مضر وبنو كنانة وغطفان، وعُبدت كذلك في الحيرة أيام المناذرة، وكان ملوكها يقدمون لها القرابين البشرية في بعض الأحيان، فقد ضحَّى المنذر الرابع بابن عدوه الحارث ملك غسان وكان أسيراً عنده[5]، وكانت معبودة لدى اليمنيين والأنباط والصفويين.

وتسمَّى العرب بالعزى، فقالوا: عبد العزى، نذكر منهم عبد العزى بن قصي، وعبد العزى بن عبد مناف، وعبد العزى بن عبد المطلب[6].

والعزى هي عشتار البابلية ابنة الإله سين، وهي كوكب الزهرة، نجمة الصباح، المعروف عند العرب بعثتر، وتمثل فصل الشتاء في أسطورة تموز البابلية، ثم مثَّلت الخصب والحب والجمال، أفردويت، وأضحت ابنة الإله، والزهرة عند الإغريق. وكانت رمزاً للشتاء عند العرب الجاهليين «إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطايف ويشتو بالعزى لحر تهامة»[7].

مناة: من أصنام العرب القديمة، بل أقدمها، كان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة على سبعة أميال من المدينة[8]. ويدل هذا

---

(١) تفسير الطبري: جـ٢٤ ص٦.
(٢) الكلبي: ص٣٩. الحموي: جـ٣ ص٢٢٦.
(٣) المصدران نفساهما: ص٣٩. جـ٤ ص١١٦.
(٤) الطبري: جـ٢ ص٥٢٦، ٥٢٧.
(٥) شيخو، الأب لويس: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية: ص١٠.
(٦) الكلبي: ص٣٤.
(٧) الأزرقي: جـ١ ص١٢٦.
(٨) ابن هشام: جـ١ ص١٠٧.

الموضع على أن لهذا الصنم صلة بالبحر والماء ونشر السحاب وإرسال الرياح التي تأتي بالأمطار فتغيث الناس، إنه إله السحب والرياح المطيرة، لذلك تمثَّله الجاهلي إلهاً كريماً يُسعد عباده ويساعدهم في المكاره والملمات، ويعطيهم ما يحتاجون إليه، وأقام معبده على ساحل البحر.

كان العرب جميعاً يُعظمون الصنم مناة، فيذبحون حوله ويهدون له، وبخاصة الذين في الحجاز: الأزد، غسان، الأوس والخزرج، قريش، خزاعة وهذيل. وكان الأوس والخزرج أشد إعظاماً له، فكانوا يحجون إليه ولا يحلقون رؤوسهم إلا عنده، ويهلُّون منه للحج إلى الكعبة(١).

واختلف الإخباريون في صورة مناة بين من يقول إنه صنم على هيئة ومثال، وقد نُحت من حجارة، وبين من يذهب أن مناة صخرة سميت بذلك لأن دماء النسائك كانت تُمنى عندها، أي تراق(٢). فالصخرة بهذا الوصف مذبح تراق عنده الذبائح التي كانت تُقدَّم للآلهة. وقد تكون الصخرة مذبحاً أقيم عند الصنم فسمي باسمه، ولما كانت الصخرة مؤنثة أنَّث العرب مناة، فهي أنثى(٣).

كان سدنة مناة، وهم الغطاريف من الأزد، يجنون من سدانتهم له أموالاً كبيرة من الهدايا والعطايا والنذور التي كان يقدمها له المتعبدون إلى معبده باسمه، وقد بقي هؤلاء السدنة يرتزقون باسم هذا الصنم إلى عام الفتح (٨هـ) حيث هدمه المسلمون.

وتسمَّت طائفة من القبائل المختلفة وعدد كبير من الأشخاص باسم الصنم مناة مثل: عبد مناة، عبدة مناة، زيد مناة، عوذ مناة، سعد مناة وأوس مناة. وتدل هذه الكلمات المتقدمة على كلمة مناة على وصف الصورة التي كانت في مخيلة عبدة مناة عنه، إذ تمثله إلهاً كريماً يساعد عباده، كما ذكرنا.

ومن جهة أخرى، فإن اشتقاق لفظة مناة من المنا والمنية، جمع منايا، وتمثل الموت أو القدر، ومنها منى بمكة، وهو المكان الذي كان يُمنى فيه؛ أي يراق الدم فيه؛ يحملنا على الاعتقاد بأن مناة تمثل آلهة الموت والقدر عند الشعوب القديمة ومنهم العرب. فقد عُرفت عند البابليين باسم مامناتو وجمعها مانوت أو منوت، كما عُرفت عند الآراميين باسم منوتن أو منوت، وعند العبرانيين باسم مناة، جمعها مانوت أو منوت، كذلك كانت من الأصنام المعروفة عند النبط إلا أنها لا تمثل القدر عند العرب، لأن القدر في تصورهم رجل لا امرأة، وقد يُفسِّر هذا استقسام العرب عند هبل وذي الخلصة، بالأزلام، وحلفهم فقط أمام مناة، يؤكد ذلك وجود

(١) الحموي: جـ٥ ص٢٠٥. (٢) المصدر نفسه: ص٢٠٤.

(٣) المصدر نفسه. علي: جـ٦ ص٢٤٧.

سيفين عند مناة كان الحارث بن أبي شمر الغساني، ملك غسان، قد أهداهما لها، والمعروف أن السيف رمز العدالة والإنصاف عند أهل البادية[1].

ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئاً من الأصنام إعظامهم اللات والعزى ومناة. فأما اللات فكانت ثقيف تخصها، دون غيرها بالزيارة والهدية، وكانت قريش تخص العزى كخاصة ثقيف للات، وكانت الأوس والخزرج تخص مناة كخاصة هؤلاء للآخرين، وكلهم كان معظماً للعزى، وكانوا إذا فرغوا من حجهم وطوافهم بالكعبة لم يحلوا حتى يأتوا العزى فيطوفون بها ويحلون عندها ويعكفون عندها يوماً[2]، وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول: «واللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى»[3]، وذكر الله ﷻ هذه الآلهة الثلاثة في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۞ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۞ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم/١٩ ـ ٢٣]، والأصنام الثلاثة المذكورة في القرآن الكريم إناث عند عرب الجاهلية.

هبل: أعظم آلهة قريش على الإطلاق وكبيرها وأول صنم وُضع بمكة[4]، نصبه خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر في جوف الكعبة، فكان يُقال له هبل خزيمة[5]. وفي رواية أن عمرو بن لحي جاء به من هيت من أرض الجزيرة الفراتية أو من أرض البلقاء، فنصبه على بئر الأخشف، الأخسف، في بطن الكعبة وأمر الناس بعبادته، فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت، وحلق رأسه عنده[6]. وكان حجاج قريش يطوفون حوله ويحلقون رؤوسهم ويلبون عنده، وكانت تلبية نسك هبل: «لبيك اللهم لبيك، إننا لقاح حرمتنا على أسنة الرماح، يحسدنا الناس على النجاح»[7].

وأشركت قريش هبل في مشكلاتها الداخلية، كالزواج والولادة والرحلة والعمل، فكانوا يستسقمون عنده بالقداح، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه، وقد ضرب عبد المطلب بن هاشم، جد الرسول، بالقداح عنده على ابنه عبد الله[8].

عبدت قريش هبل مع طائفة أخرى من قبائل الحجاز منها بنو: كنانة، بكر، مالك، ملكان، كما تعبَّدت له كلب، فكانت قريش تلوذ به وتتوسل إليه ليمنَّ عليها

---

(١) خان: ص١٢٩.
(٢) الكلبي: ص٤٢، ٤٣.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٤، ٣٥.
(٤) اليعقوبي: جا ص٣٠٧.
(٥) الكلبي: ص٤٣.
(٦) الأزرقي: جا ص١١٧.
(٧) ابن حبيب: ص٣١٢.
(٨) ابن هشام: جا ص١٧٦ ـ ١٧٨.

بالخير واليُمن، ويدفع عنها الأذى والخبائث. ومن شدة تعظيم قريش له أنها وضعته في بطن الكعبة، وأنه كان الصنم الأكبر فيها[١]، وكان له مقام رفيع لدى القرشيين. فعندما انتصرت قريش على المسلمين في معركة أُحد، نادى أبو سفيان مبتهجاً: «أعل هبل؛ أي علا دينك»[٢] أو «أعل هبل؛ أي أظهر دينك»[٣]. وظلَّ هبل بمقامه العظيم لدى القرشيين مكرماً معززاً حتى فتح مكة حيث أمر النبي ﷺ بكسر الأصنام وطمس التماثيل ومحو الصور[٤].

كان هبل مصنوعاً من عقيق أحمر مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش فجعلت له يداً من ذهب، ويبدو أن ذلك تمَّ في المدة التي أثرت فيها قريش من التجارة والحج والربا. فهل يُفسر المقام العظيم لهبل على غيره من الآلهة والأصنام، التي كانت تعبدها قريش في الكعبة وما حولها، بثروته التي رُمز لها باليد الذهبية للتمثال[٥]؟

إن هبل هو مردوك، كبير آلهة بابل، وهو الإله بعل عند العبرانيين، وأصبح إله الخصب والزراعة، ويبدو أنه كان إله الخصب عند العرب، وتدل إقامته على بئر إلى وجود صلة بينه وبين إله الخصب، وعدَّه العرب لذلك سيد الآلهة، وهو الذي عناه عمرو بن لحي عندما قال: «إن ربكم يتصيَّف باللات لبرد الطائف، ويشتو بالعزى لحر تهامة»[٦].

ويرمز هبل إلى الإله القمر، وهو إله الكعبة، والله عند الجاهليين، وهبلو عند الأنباط، وورد اسمه في الكتابات النبطية التي عثر عليها في الحجر مع الصنمين دوشرا، ذي الشرى، ومنوتو، مناة، وقد تسمَّى به أشخاص من قبيلة كلب مثل: هبل بن عبد الله بن كنانة الكلبي، جد زهير بن جناب، ما يدل على أن هذه القبيلة كانت تتعبَّد له، وأنه كان من معبودات العرب الشماليين[٧].

إساف ونائلة[٨]: كانا لقريش، وتدور حولهما أسطورة بأنهما عاشقان دنَّسا بحبهما قدسية الكعبة فمسخا حجرين، ونُصبا على الصفا والمروة ليكونا عبرة وموعظة، فنقلهما عمرو بن لحي إلى الكعبة ونصبهما على زمزم، فطاف الناس بالكعبة وبهما حتى عُبدا من دون الله، وكان الطائف إذا طاف بدأ بإساف فقبَّله وختم به، وكانت

---

(١) الحموي: ج٥ ص٣٩١.
(٢) الكلبي: ص٤٤.
(٣) ابن هشام: ج٣ ص١٧٠.
(٤) المصدر نفسه: ج٤ ص١٠٤.
(٥) دلو: ج٢ ص٢٠٣.
(٦) خان: ص١١٧.
(٧) علي: ج٦ ص٢٥٢.
(٨) إساف بن بُنى: تمثال لرجل من جرهم، ونائلة بنت ديك: تمثال لامرأة من جرهم. ابن هشام: ج١ ص١٠٥.

قريش تنحر وتذبح عندهما وتسعى بينهما وتحلف عندهما[١].

قد يكون إساف ونائلة صنمين جلبهما عمرو بن لحي من بلاد الشام فنُصبا في مكة، وتولَّد من كونها صنمين لرجل وامرأة هذا القصص المذكور، أو لعلهما من صنع القبائل المعادية لقريش التي لم تكن ترى حرمة للصنمين[٢].

رضى: صنم أنثى، كان لبني ربيعة بن سعد التميمي، وكان له بيت، فعبدته تميم وطيء، وبه سَمُّوا عبد رضى مثل: عبد رضى بن خذيمة بن طيء، وعبد رضى بن جبيل في بني كنانة[٣]. ورضى من الأصنام المعروفة عند الثموديين، وانتشرت عبادته بين عرب الشمال، فورد في نصوص تدمر وفي الكتابات الصفوية «رضو»، ويبدو أنه يرمز إلى كوكب[٤].

ذو الخلصة: صنم أنثى، كان مروة بيضاء منقوشة كهيئة التاج، نُصب بتبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة[٥]. وفي رواية أن عمرو بن لحي نصبه بأسفل مكة، فكانوا يُلبسونه القلائد ويهدون إليه الشعير والحنطة، ويصبون عليه اللبن ويذبحون له ويعلقون عليه بيض النعام[٦].

مناف: من أكبر أصنام مكة، عبدته قريش وهذيل، وتسمى به كثير من العرب الجاهليين منهم عبد مناف، أحد أجداد النبي ﷺ. واتخذ عرب الشام هذا الإله معبوداً لهم وبخاصة في حوران[٧].

سعد: كان صنماً بساحل جدة لبني مالك وملكان بن كنانة، وهو صخرة طويلة يراق عليها الدم، وعبدته عك ومن يليها وكذلك هذيل[٨]. يبدو أن سعداً كان صنماً ومذبحاً في الوقت نفسه، يحج إليه المتعبدون له ويذبحون ذبائحهم عند الصخرة التي يتقربون بها إلى هذا الإله، ويريقون الدماء عليه وفاء لنذر أو تبركاً، أو أملاً في أن يحن عليهم بالسعد والخير والبركة، وورد هذا الاسم في كتابات النبط فدعي بـ«سعدو»، كما ورد في كتابات الصفويين، ويبدو أنه يرمز إلى كوكب[٩].

ذو الكفين: صنم لدوس ثم لبني مُنهب[١٠]، وفي رواية أنه كان صنماً لعمرو بن

---

(١) الكلبي: ص٤٤. اليعقوبي: جـ١ ص٣٠٧.
(٢) علي: جـ٦ ص٢٦٧.
(٣) الكلبي: ص٤٥. ابن هشام: جـ١ ص١٠٨.
(٤) علي: جـ٦ ص٢٩٦.
(٥) الكلبي: ص٥٠.
(٦) الأزرقي: جـ١ ص١٢٤.
(٧) الطبري: تاريخ: جـ٢ ص٢٥٤. الكلبي: ص٤٨. علي: جـ٦ ص٢٧٠.
(٨) الكلبي: ص٥١، ٥٢. ابن دريد: ص٥٦.
(٩) علي: جـ٦ ص٢٧٤. دلو: جـ٢ ص٢١٠.
(١٠) الكلبي: ص٥٢.

حُممة الدوسي، أحد حكام العرب[١].

الأقيصر: صنم كان لقضاعة ولخم وجُذام وعاملة وغطفان في مشارف الشام، فكانوا يحجون إليه ويحلقون رؤوسهم عنده، ويلقون مع الشعر قرَّة، قبضة، من دقيق[٢].

الفَلْس: صنم لطيء ومن يليها بجبلي طيء، أجأ وسلمى[٣]، آنف أحمر في وسط جبلهم الذي يقال له أجأ، أسود، كأنه تمثال إنسان. كانوا يعبدونه، ويهدون إليه، ويقرون، يذبحون، عنده عتائرهم، ولا يأتيه خائف إلا أمن عنده، ولا يَطرد طريدة فيلجأ بها إليه إلا تُركت له ولم تُخفر حويَّته؛ أي ما صار في حوزته وحرمه يترك له، وكان سدنته بنو بولان. وكان لطيء أصنام أخرى منها اليعبوب، صنم لجديلة طيء، وكان لهم صنم أخذته منهم بنو أسد فتبدلوا اليعبوب بعده[٤].

ذو الشرى: صنم لبني يشكر من الأزد[٥]، وقيل كان لدوس بالسراة[٦]. وانتشرت عبادته بين عرب أعالي الحجاز وشمالي الجزيرة العربية في البتراء وبُصرى، حيث كان له معبد فخم في البتراء يمثله حجر أسود تُقدم إليه القرابين، وكان الناس يقصدونه من أمكان نائية للاحتفال به.

سُعَيْر: صنم لعنزة، وكان عبَّاده يحجون إليه ويطوفون حوله، ويذبحون له الذبائح[٧].

نهم: صنم لمزينة، عبدته هوازن وبجيلة وخزاعة، كانوا يُقدمون له الذبائح، ويحلفون به، ويتسمون باسمه[٨].

عميانس: صنم لخولان، كان بطن منهم يقال لهم الأديم يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسماً بينه وبين الله بزعمهم، فما دخل في حق عميانس من حق الله تعالى الذي سموه له، تركوه له، وما دخل في حق الله تعالى من حق عميانس ردوه عليه[٩].

المحرِّق: صنم لبكر بن وائل وبقية ربيعة في موضع سلمان، وكان سدنته آل الأسود العِجليون[١٠].

شمس: صنم لبني تميم كان له بيت، سدنته من بني أوس بن مخاشن من تميم، عبدته بنو أد كلها[١١] وقوم من عذرة[١٢]، وتسمى به عدد من الجاهليين، منهم عبد شمس ابن عبد مناف.

---

(١) الحموي: جـ٤ ص٤٧١.

(٢) المصدر نفسه: جـ١ ص٢٣٨. الكلبي: ص٥٢.

(٣) ابن هشام: جـ١ ص١٠٧.

(٤) الكلبي: ص٧٠، ٧١.

(٥) المصدر نفسه: ص٥٢، ٥٣.

(٦) الزبيدي: جـ١٠ ص٩١٧.

(٧) الكلبي: ص٥٥.

(٨) المصدر نفسه: ص٥٤.

(٩) ابن هشام: جـ١ ص١٠٤.

(١٠) الحموي: جـ٥ ص٦١.

(١١) ابن حبيب: ص٣١٦.

(١٢) اليعقوبي: جـ١ ص٣٠٨.

جهار: من أصنام هوازن، موضعه بعكاظ، سدنته آل عوف النصريون[1].
عَوْض: من أصنام بكر بن وائل[2].
المنطبق: صنم للسلف وعك والأشعريين[3].

الدهرية

ظهر في مرحلة الجاهلية الأخيرة اتجاه فكري متميز أسماه الإسلاميون الدهرية، وأشير إليه في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية/ ٢٤].

والدهريون هم الذين يقولون بإسناد الحوادث إلى الدهر، فنسبوا كل شيء إلى فعل القوانين الطبيعية؛ أي الأبدية، مع التأثير في حياة الإنسان وفي العالم. والدهر بمفهومهم غير مخلوق ولا نهائي؛ أي القول بقدم الدهر وعدم فناء المادة، وهو حركات الفلك، وذهبوا إلى أن العالم يُدار بمقتضى تأثير هذه الحركات. ونسبوا الإماتة إلى الدهر، فقالوا: «وما يهلكنا إلا الدهر»؛ أي وما يميتنا إلا الأيام والليالي، أو مرور الزمان وطول العمر، ورأوا في الزمان السبب الأول للوجود، والزمان هذا غير مخلوق ولانهائي أيضاً.

ونسب العرب الجاهليون النوازل التي تنزل بهم من موت أو هرم إلى الدهر، فقالوا: أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه، وأبادهم الدهر، فجعلوا الدهر الذي يفعل ذلك، فيذمونه ويسبونه[4].

وعرَّف الإسلاميون الدهر أنه مدة زمان الدنيا، وأنه أمد مفعولات الله في الدنيا أو فعله لما قبل الموت، وزعم بعضهم أن الدهر من أسماء الله، وهو غلط. وأطلقه العرب على الملحدين الذي ينكرون الله وتأثيره[5].

وجعل الشهرستاني الدهرية من المعطلة ورفض آراءهم بشكل حازم، وصنَّفهم في ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى: أنكروا الخالق والبعث والإعادة، وقالوا: بالطبع المحيي والدهر المفني.

المجموعة الثانية: أقروا بالخالق والخلق الأول، وأنكروا البعث والإعادة.

المجموعة الثالثة: أقروا بالخالق والخلق الأول، وأنكروا الرسل[6].

---

(١) ابن حبيب: ص٣١٢، ٣١٥.
(٢) الكلبي: ص٧٦.
(٣) الحموي: جـ٥ ص٢١٢.
(٤) ابن منظور: جـ٤ ص٢٩٢، ٢٩٣.
(٥) علي: جـ٦ ص١٤٩، ١٥٠.
(٦) الملل والنحل: جـ٣ ص٧٩، ٨٠.

يتبين من تصنيف الشهرستاني أن فريقاً واحداً، على الأقل من الدهريين، رفض الاعتراف بوجود إله، غير أنه لم يُسمِّ لنا أي ممثل لذلك الاتجاه الدهري. وذكر البلاذري أن من نُسب إليهم القول بالدهر، الحارث بن قيس السهمي، وهو ابن الغيطلة وأحد المستهزئين المؤذين لرسول الله ﷺ، وهو الذي نزلت فيه ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية/٢٣] وكان يقول: «لقد غرَّ محمد نفسه وأصحابه أن وعدهم أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث»(١).

لقد أسهمت عوامل عدة في نشر الدهرية بين العرب، نذكر منها:

- تأثر الدهريين العرب بالدهريين الفرس.
- المناقشات التي كانت تجري بين التوجهات الدينية والفكرية المختلفة المتواجدة في الجزيرة العربية وخارجها، وذلك عن طريق اللقاءات في المواسم التجارية والدينية والأدبية، والصلات التجارية مع البلدان المجاورة.
- تطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في القرن السادس الميلادي، لا سيما ما خلفته المتغيرات في وعي المثقفين المتنورين المعارضين للوثنية.

لكن الدهرية لم تقو بشكل تستطيع معه الوقوف في خط معارض للوثنية السائدة والديانتين اليهودية والنصرانية والتصور حول إلٰه واحد الذي كان متمثلاً بتيار الحنفاء(٢)، ومن أجل ذلك، كان انتشارها محدوداً.

المجوسية

عرف بعض العرب عبادة النار أو المجوسية(٣)، وقد تسربت إليهم عن طريق الاتصال بالفرس في الحيرة واليمن وحضرموت والعربية الشرقية. وقد أشير إلى وجود المجوس في أخبار الفتوح(٤). وكانت المجوسية في بني تميم، وأن أسعد بن زرارة بن عدس وابنه حاجب، وهما من سادات تميم، كانا قد اعتنقا المجوسية، كما اعتنقها الأقرع بن حابس وأبو الأسود، جد وكيع بن حسان(٥).

---

(١) أنساب الأشراف: جـ١ ص١٤٩، ١٥٠.

(٢) دلو: جـ٢ ص٢٣٥.

(٣) المجوسية: كلمة فارسية الأصل تُطلق على أتباع الديانة الزرادشتية، والمجوس هم عبدة النار من الفرس.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان: ص٩١.

(٥) الألوسي: جـ٢ ص٢٣٣.

الفصل الثالث عشر

الفكر التوحيدي في بلاد العرب

اليهودية

برزت في المرحلة القريبة من ظهور الإسلام الوجهة التوحيدية بمفهومها اليهودي والنصراني الوافدة على المجتمع العربي في عصر الجاهلية، فانتشرت اليهودية في اليمن في ظل حكم المملكة الحِميرية وفي وادي القرى وخيبر وتيماء وفدك ويثرب. وتُرجع بعض الروايات تاريخ دخول اليهود إلى الحجاز إلى عصور قديمة تعود إلى أيام موسى وغزوه للعماليق(١)، ويرى البعض الآخر أن اليهود نزحوا إلى الحجاز من فلسطين في أعقاب حملة الرومان الأخيرة على اليهودية في فلسطين وتدمير بيت المقدس وهيكلها اليهودي على يد القائد الروماني تيطوس في عام ٧٠م(٢)، فهاجرت جموع غفيرة من اليهود إلى البلدان المجاورة ومنها الحجاز في الجزيرة العربية بفعل امتدادها الطبيعي مع فلسطين وبُعدها عن طرق الحملات العسكرية الرومانية حيث تعزلها أقاليم رملية، كما قدمت جاليات يهودية إلى العربية الغربية على مرِّ العهود للتجارة والإقامة، لا سيَّما عند مواضع المياه وفي الأراضي الخصبة، وعلى هذا الأساس، فإن يهود الجزيرة العربية هم من بقايا اليهود الذين هاجروا من فلسطين في تلك المرحلة. وكان اليهود يُروِّجون مثل هذا القصص بين العرب بهدف الإشاعة بأنهم والعرب ينحدرون من أصل واحد، وأن الاتصال بينهما قديم ما يُشجعهم على اعتناق اليهودية. لكننا مع ذلك لا نستطيع أن نتحدث عن هجرة اليهود إلى جزيرة العرب حديثاً علمياً معززاً بالوثائق والتواريخ؛ لأن يهود جزيرة العرب لم يتركوا أثراً مكتوباً يتحدث عن ماضيهم فيها، وما عُثر عليه في اليمن من كتابات يهودية لا يروي غليل الباحث، وليس لنا من تاريخ اليهود في جزيرة العرب سوى ما جاء في القرآن الكريم وكتب الحديث والتفسير والأخبار والسير، لذا فإن معلوماتنا عن تاريخ اليهود في الجزيرة العربية لا ترقى إلى عهد بعيد عن ظهور الإسلام.

---

(١) الأصفهاني: ج٢٢ ص١٠٦ ـ ١٠٨.

(٢) إيمار، أندريه وجانين أوبوايه: روما وامبراطوريتها، الجزء الثاني من موسوعة تاريخ الحضارات العام: ص٤١٩.

استقرّ اليهود الوافدون من فلسطين في واحات الحجاز: يثرب، وادي القرى، خيبر، فدك وتيماء، وتوطّنت أعداد منهم في مكة والطائف، وانتقلت جماعات منهم إلى اليمن واليمامة والعروض، وأشير إلى وجودهم في البحرين[١]، ووفّر لهم العرب الملجأ الآمن والعمل، فمارسوا الزراعة والتجارة والصناعة في الواحات واشتهروا بصناعة الحلي والحديد والأسلحة، وتركّز نشاطهم، في الموانئ والمراكز التجارية، على التجارة وإقراض المال بربا فاحش.

ويبدو أن هؤلاء اليهود لم يحافظوا على يهوديتهم وخصائصهم العرقية، فاختلطوا بالسكان العرب، فلبسوا لباسهم، وتكلموا لغتهم، ومارسوا عاداتهم وتقاليدهم، وتصاهروا معهم، فتزوج اليهود من عربيات، وتزوج العرب من يهوديات؛ فنشأ مع مرور الزمن جيل جديد يحمل الطابع العربي والفكر العربي، وأسماء عربية، وتوافقت حياته السياسية والاجتماعية مع حياة العرب، فهو في أكثر أُموره كالعرب فيما سوى الدين، ولعل لذلك علاقة بتأثير العرب المتهودة على أفراده وكثرتهم بالمقارنة مع من كان من أصل يهودي، والمعروف أن الدين اليهودي لم يقتصر في الماضي على قوم موسى بل انتشر بين الأمم المختلفة عن طريق التبشير بفعل شموليته، واستمر إلى العصور الوسطى حيث أُغلق باب التبشير في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، وظلت الأقوام التي اعتنقته في ديارها وأوطانها تتكلم بلغتها وتمارس عاداتها وتقاليدها التي نشأت في بيئاتها.

دفعت هذه التغييرات في الوضع الاجتماعي والسكاني لليهود بعض المؤرخين العرب إلى القول بأن يهود الجزيرة العربية هم عرب متهودون لا يهود مهاجرون، اعتنقوا اليهودية عن طريق التبشير بدليل أن أصل بني النضير، وهم طائفة من اليهود في يثرب، فخذ من جذام تهوّدوا ونزلوا بجبل يقال له النضير فنسبوا إليه[٢]. وفي رواية أن قريظة، وهم طائفة من اليهود في يثرب أيضاً وكذلك النضير، هم من القبائل العربية في الجزيرة وقد اعتنقوا اليهودية وكان لهم ملوك حتى أخرجهم الأوس والخزرج من المدينة، وأن اليهود في جهات خيبر لا يعدُّون أنفسهم يهوداً حقاً، إذ لم يحافظوا على الديانة الإلٰهية الموسوية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعاً تاماً[٣].

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان: ص٨٩. (٢) اليعقوبي: جـ١ ص٣٦٧.

(٣) ولفنسون، إسرائيل: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام: ص١٣.

ودخلت اليهودية إلى اليمن وانتشرت بين سكانها عبر رافدين حتى أضحت هذه البلاد أحد المراكز اليهودية المهمة في جزيرة العرب.

الأول: التهوُّد: ففي القرآن الكريم إشارة صريحة إلى هذا في قصة سبأ، وقد جاء في ختامها على لسان ملكتهم ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل/ ٤٤].

ويرجع انتشار اليهودية في اليمن في العصور التالية إلى أحد ملوك حِمير المدعو تبان أسعد أبو كرب (٣٨٥ ـ ٤٢٠م). فأثناء مروره بيثرب، في طريق عودته إلى اليمن من غزوة قام بها في الشمال، اجتمع بحبرين يهوديين من بني قريظة فأُعجب بما وصفا له عن دينهما فاعتنقه، واصطحبهما معه إلى اليمن ودعا قومه إلى الدخول فيه فأجابوه. ومنذ ذلك الحين، أخذت اليهودية تنتشر في اليمن وتتوطد حتى بلغت ذروتها في عهد الملك الحِميري ذي نواس في أوائل القرن السادس الميلادي(١).

الثاني: التجارة والهجرة بفعل اتصال اليمن منذ عهد قديم بطرق القوافل التجارية البحرية والبرية ببلاد الشام، وهجرة جماعات من اليهود إليها عن طريق الحجاز، وقد جذبهم هذا البلد المتحضر وازدهار التجارة في ربوعه.

وأنشأ المهاجرون اليهود مستوطنات لهم في نجران، المدينة ذات الموقع التجاري المهم، والمنطقة الزراعية الخصبة، عاشوا فيها مع العرب الوثنيين والمتنصِّرين.

وتسرَّبت إلى الجزيرة العربية الأفكار التوحيدية والتعاليم اليهودية وما تضمَّنته من خلق السمٰوات والأرض، والبعث والحساب، والجنة والنار، ومصطلحات مثل: جهنم والشيطان وإبليس.

ونلاحظ أن الدعوة اليهودية التبشيرية كانت خامدة عند ظهور الإسلام، وذلك بفعل فشل محاولات اليهود في نشرها بين العرب، ويرجع ذلك إلى أسباب، منها:

ـ عدم اهتمامهم الجدي بالتبشير بدينهم اعتقاداً منهم بأنهم شعب الله المختار وأن الشعوب الأخرى غير جديرة بذلك.

ـ احتقار العرب لهم بوصفهم عملاء للفرس.

ـ لما عُرفوا به من صفات ذميمة، كالتهافت على جمع المال ونقض العهود والغدر.

ـ تنفير العرب من شعائرهم المعقَّدة(٢).

---

(١) ابن هشام: جا ص٣٣ ـ ٣٨، ٤١، ٤٢.

(٢) الخربوطلي، علي حسني: العرب واليهود في العصر الإسلامي: ص٢٤، ٢٥.

النصرانية

تمهيد

ظهرت النصرانية في فلسطين في القرن الأول الميلادي[١]، وانتقلت بواسطة المبشرين إلى اليونان وإيطاليا. وتطور الفكر النصراني ضمن المناخ اليهودي والهلّيني حيث نشأ على أسس اليهودية ومبادئها، ولكنه كان أوسع أفقاً وتفكيراً عندما جعل النصرانية ديانة عالمية جاءت لجميع البشر. وقام رجال الدين النصارى منذ بداية نشأتها بالتبشير بها ونشرها بين الشعوب، وبذلك تميزت عن اليهودية التي جمدت واقتصرت على بني إسرائيل، ولم تمنعه الصراعات والأزمات التي رافقته من أن يُحقق ثقافة مبتكرة في القرون الأولى من تاريخه بلقائه الحضارات القديمة في الشرق الأدنى، وهي ثقافة عالم البحر الأبيض المتوسط والعالم الروماني.

من الطبيعي أن تكون النصرانية قد انتشرت في بادئ الأمر في فلسطين والمناطق المجاورة بين الوثنيين واليهود، إلّا أنها تأصّلت بعمق في القرنين الثاني والثالث الميلاديين، في القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية، وكانت هذه الامبراطورية متسامحة إجمالاً في موضوع الدين. فقد انتشرت في ربوعها أديان شرقية عديدة إلى جانب الدين الرسمي، في حين كانت النصرانية في المقابل عرضة لملاحقات واضطهادات شتى استمرت بصورة متقطعة حتى أواسط القرن الثالث الميلادي، إذ سرعان ما ظهر التعارض حاداً بين التعاليم النصرانية وعقائدها القائمة على التسامح ورفض الاعتراف بآلهة الدين التقليدي والاشتراك في الاحتفالات المتنوعة وتقديم واجب العبادة للآلهة الذين بفضلهم ازدهرت الامبراطورية، وبين النظم والقواعد الامبراطورية التي قامت عليها الدولة، هذا إلى أن فكرة قيام منظمة دينية أو كنسية منفصلة عن الدولة، كانت غريبة عن العقلية الرومانية والفكر الروماني معاً. فقد رفض النصارى تأليه الامبراطور وعبادته، وقد هال الدولة الرومانية الاجتماعات السرية التي كان يعقدها النصارى، وقد بدت في صورة ثورة اجتماعية خطيرة بما انضم إليها من المحرومين والفقراء. وبدأت الدولة الرومانية تَعدُّ اعتناق النصرانية جرماً في حق الدولة، لكن النصرانية خرجت منتصرة في صراعها مع وثنية الامبراطورية الرومانية لا سيَّما بعد أن أخذ الامبراطور قسطنطين (٣٠٦ ـ ٣٣٧م) بسياسة الأمر الواقع، فأصدر مرسوم ميلان الشهير في حزيران (٣١٣م) معترفاً بوضع الديانة

---

(١) وُلد المسيح عيسى ابن مريم أثناء عهد الامبراطور أوغسطس (ت١٤م) في بيت لحم بفلسطين.

النصرانية كإحدى الشرائع المسموح باعتناقها داخل الامبراطورية[١].

تسرب النصرانية إلى الجزيرة العربية

لا نعرف على وجه اليقين متى تسربت النصرانية إلى الجزيرة العربية، لكن من الراجح أنه خلال القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد لم تكن النصرانية قد انتشرت إلّا في المناطق التي عاش فيها العرب جنباً إلى جنب مع عناصر يونانية أو رومانية. ويعود سبب انتشار النصرانية في جزيرة العرب إلى التأثير الذي مارسته ثلاثة مراكز نصرانية مجاورة هي سوريا في الشمال الغربي، والعراق في الشمال الشرقي، والحبشة في الغرب عن طريق البحر الأحمر، والجنوب عن طريق اليمن[٢].

وتسربت النصرانية إلى الجزيرة العربية عبر ثلاثة روافد هي: التبشير والتجارة والرقيق الأبيض.

ففيما يتعلق بالتبشير، فقد دخل بعض النساك والرهبان إلى الجزيرة العربية للعيش فيها بعيداً عن ملذات الحياة، وبفضل ما كان لهم من علم ومعرفة بالطب والمنطق ووسائل الإقناع وكيفية التأثير في النفوس؛ تمكّنوا من استقطاب بعض سادات القبائل، فأدخلوهم في دينهم أو حصلوا منهم على المساعدة لحمايتهم، فنُسِب دخول بعض سادات القبائل ممن تنصَّر إلى مداواة الرهبان لهم ومعالجتهم حتى تمكّنوا من شفائهم مما كانوا يشكون منه من أمراض، وقد نسبوا ذلك إلى فعل المعجزات والبركات الإلٓهية، كما حصل مع النعمان ملك الحيرة على يد الراهب مار أيشو عزخا الذي أخرج الشيطان من جسده، كما شفوا النساء العقيمات من مرض العقم، ومن سادات القبائل من توسل إلى الله أن يهب له ولداً ذكراً فاستجيبت دعوته، كما حدث لضجعم سيد الضجاعمة، فدخل بسبب ذلك في دين النصرانية وتعمَّد هو وأفراد قبيلته[٣].

وتوغل المبشرون في عمق أراضي الجزيرة العربية غير عابئين بالمصاعب والمشقات، ومنهم من رافق الأعراب وعاش في كنفهم في الخيام، فعُرفوا بأساقفة الخيام، وأساقفة أهل الوبر، وأساقفة عرب البادية وغيرها. وكان مطران بصرى يشرف على نحو عشرين أسقفاً انتشروا بين عرب حوران وعرب غسان، وكانوا يعيشون مع القبائل في البادية، فنُعتوا بالنعوت أعلاه[٤].

---

(١) Meyendor, J: Unité de L'Empire et Divisions des Chrétiens p19.

(٢) سالم: ص٤٨١، ٤٨٢.

(٣) شيخو، لويس: النصرانية وآدابها: جا ص٣٥. بيروت ١٩١٢م.

(٤) المرجع نفسه: جا ص٣٧.

ويرتبط بالتبشير ما أدَّته الأديرة من دور هام في نشر النصرانية، وتشير جغرافية توزعها على انتشارها حتى في عمق البوادي، وكانت الأديرة تتلقى المساعدات من كنائس العراق والشام والروم. وتجدر الإشارة إلى أنه كان للرومان، ومن ثَمَّ للبيزنطيين، أطماع توسعية في غربي آسيا وصولاً إلى إيران وجنوب شرقي آسيا، للسيطرة على طريق التجارة واحتكار تجارة التوابل والحرير والتحكم بتوزيعها في الأسواق العالمية، ولهذا وجدوا في نشر النصرانية وإرسال المبشرين ومدِّهم بالمساعدات لإنشاء الأديرة وتشييد الكنائس، وسيلة لتحقيق أهدافهم السياسية والاقتصادية، وتمكَّن المبشرون بفضل هذه المساعدات من إقامة ثلاث كنائس في ظفار وعدن وهرمز[١].

واهتم رؤساء الكنائس بنشر النصرانية في بلاد الشام والجزيرة العربية بهدف تنمية موارد الكنيسة مما يتدفق على خزائنها من هبات وتبرعات، وزيادة نفوذها.

وفيما يتعلق بالتجارة، فقد تعامل بعض العرب مع تجار من النصارى، فتأثروا بهم. ورُوي أن رجلاً من الأنصار يُدعى أبو الحصين كان له ابنان، فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلما باعوا وأرادوا العودة أتاهم ابنا الحصين، فدعوهما إلى النصرانية، فتنصَّرا ورجعا معهم إلى الشام[٢].

وفيما يتعلق بالرقيق المستورد، فقد دخلت النصرانية إلى الجزيرة العربية مع الرقيق الأبيض المجلوب من فارس وبيزنطية، ووُجد في مكة والطائف ويثرب ومواضع أخرى من جزيرة العرب، رقيق نصراني كان يقرأ ويُفسِّر العهدين القديم والجديد ويقصُّ على العرب قصصاً نصرانياً، ويتحدث إليهم عن النصرانية، وتمكَّن بعضهم من إقناع بعض العرب الدخول في الدين النصراني، ومنهم من أثَّر على بعضهم فأبعدهم عن الوثنية لكنه لم يُفلح في إدخالهم في دينه فبقوا في شك من أمر الديانتين، يرون أن الحق في توحيد الله واجتناب الأوثان[٣].

تنصُّر القبائل

في الحيرة

كان البيزنطيون يحكمون بلاد الشام وهم على النصرانية، فراحوا يعملون على نشر الدين النصراني بين الشعوب الخاضعة لهم، ثم بين الشعوب الذين يتطلعون إلى

---

(١) شيخو: جـ١ ص٥٦.

(٢) تفسير القرطبي: جـ٣ ص٢٨٠، ٢٨١.

(٣) شيخو: جـ١ ص٣٣.

إخضاعهم، فاعتنقها قوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى منهم: عثمان بن الحويرث، وورقة بن نوفل، وطائفة من بني تميم، منهم: بنو امرؤ القيس بن زيد بن مناة، وجماعة من ربيعة منهم بنو تغلب، وبعض قضاعة، وطيء ومذحج وبهراء وسليح وتنوخ وغسان ولخم(١).

واعتنق قسم كبير من عرب الحيرة النصرانية على المذهب النسطوري(٢)، وقد اختاروا هذا المذهب لأسباب سياسية، ذلك أن الدخول في النصرانية كان يعني، في نظر ملوك الفرس، الانحياز إلى البيزنطيين، ولما كان المذهب النسطوري محرماً في بيزنطية فقد اختاروا المذهب المذكور(٣).

اعتنق بعض أفراد الأسرة المالكة في الحيرة النصرانية قبل أن يتنصَّر ملوكها، مثل: هند بنت الحارث زوجة المنذر الثالث، وقد بَنَت ديراً وكنيسة(٤). واعتنق هانئ بن قبيصة الشيباني النصرانية، وهو من سادات بني شيبان ومات عليها، ونذكر من متنصِّرة العراق بنو عجل بن لُجيم، من قبائل بكر بن وائل، وكان رئيسهم آنذاك حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي(٥).

وأخذ النساطرة في الحيرة بدءاً من عام (٤٠٠م)، وبعد أن اطمأنوا على وضعهم بالتبشير، بالمذهب نفسه، ويبدو أن إبراهيم الكبير (٤٩١ ـ ٥٨٦م) كان واحداً من أبرز العاملين في حقل التبشير، تعليماً وتنظيماً وتأليفاً(٦).

---

(١) اليعقوبي: جـ١ ص٣١١. ابن قتيبة: المعارف: ص٣٣٩.

(٢) النسطورية: نسبة إلى أحد الآباء اللاهوتيين، ويدعى نسطوريوس، تولى بطريركية القسطنطينية ٤٢٨ ـ ٤٣١م، ويعتقد النساطرة أن للمسيح طبيعتين متميزتين، الطبيعة اللاهوتية والطبيعة الناسوتية، وللأخيرة إرادة وفعل يختلف كل الاختلاف عن الطبيعة الأولى، وأن اتحاد اللاهوت بالناسوت كاتحاد الماء يُلقى بالزيت، فكل واحد منهما باق بحسبه. والنسطوريون هم السوريون الشرقيون.

(٣) احتدم الجدل اللاهوتي، خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين، حول طبيعة المسيح، وفي المجمع المسكوني الذي عُقد في خلقدونية بآسيا الصغرى في عام ٤٥١م، بناء على دعوة الامبراطور البيزنطي مرقيان، أنكر المجمع نحلة النسطوريين والمونوفيزتيين القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح وهي الطبيعة الإلهية. والمونوفيزتيون هم في غالبيتهم من سكان الأجزاء الشرقية من سوريا.

(٤) هو دير هند الكبرى على طرف النجف، وسُمي كذلك تفريقاً له عن دير هند الصغرى بنت النعمان بن المنذر، وهو بالحيرة أيضاً. الحموي: جـ٢ ص٥٤١، ٥٤٢.

(٥) شيخو: جـ١ ص١٣٥.

(٦) زيادة، نقولا: المسيحية والعرب: ص١٦٢.

في الشام

اعتنق عرب الشام النصرانية على المذهب المونوفيزتي، وتُعدُّ الكنيسة السورية أهم دعائم النصرانية، ومن مراكزها، في بيت المقدس ودمشق وأنطاكية، تشعَّبت تأثيراتها إلى صحراء العرب، وأصبحنا نسمع قبل نهاية القرن الثالث الميلادي عن أساقفة في بصرى وتدمر، كما أضحت النصرانية، أثناء القرنين الخامس والسادس الميلاديين، الديانة السائدة في الشام البيزنطية، وانتشرت بين العرب المقيمين في الشام في ظل حماية بيزنطية، ونعني بهم الغساسنة. والواقع أن هؤلاء اعتنقوا النصرانية على المذهب المونوفيزتي عن اقتناع وليس لغايات سياسية. وبفعل الصراع المذهبي، عمدت الدولة البيزنطية إلى اضطهاد مخالفيها في المذهب[١]، ومن بينهم المونوفيزتيين، غير أنه تبين للامبراطور جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) في عام (٥٣٠م) خطأ هذه السياسة التي من شأنها أن تضعف النفوذ البيزنطي في الشرق، ما دفعه إلى تنصيب أسقفين مونوفيزتيين مستقلين، للمناطق الواقعة على الحدود العربية، هما يعقوب البرادعي وتيودور. وطبع الأول الكنيسة المونوفيزتية المستقلة بطابعه إلى حدٍّ أنها أصبحت تسمى بالكنيسة اليعقوبية، وساعد الحارث بن جبلة ملك الغساسنة في تثبيت دعائم المذهب اليعقوبي في جنوبي بلاد الشام، ومن بلاطه في الجابية، من أرض الجولان، انتشرت النصرانية على المذهب المذكور في أنحاء بعيدة بين العرب في شمالي الجزيرة العربية[٢].

في الجزيرة العربية

في الشمال: قد يكون الحديث عن انتشار النصرانية في العراق وبلاد الشام، فيه شيء من الدقة على الرغم مما يشوبه دائماً من اختلاف لاهوتي يُشوِّه الخبر بسبب التشدُّد في المواقف، لكننا لا نملك، فيما يتعلق بانتشار النصرانية في الجزيرة العربية، سوى بعض المعلومات القليلة المغلفة بكثير من القصص والتفسير الذي أدخله الكتَّاب العرب فيما بعد.

تسرَّبت النصرانية إلى الجزيرة العربية من بلاد الشام والعراق والحبشة بواسطة

---

(١) تبنَّت الدولة البيزنطية العقيدة الملكانية التي اتخذت صورتها وشكلها كما قررتها المجامع المسكونية، لا سيما مجمع نيقية في عام ٣٢٥م ومجمع خلقدونية في عام ٤٥١م، وخلاصتها أن المسيح إله كامل وإنسان كامل وأن الابن من جوهر الأب، وأن كلاً من الطبيعتين الإلهية والناسوتية كاملة، مستقلة، غير قابلة للانقسام، وكل منهما مستقلة عن الأخرى.

(٢) Bell, Richard: The Origin of Islam in its Christian Environment p24.

المبشرين والتجار، وبفعل اتصالها بطرق القوافل التجارية البرية والبحرية في البلدان التي انتشرت فيها النصرانية.

ويبدو أن النسّاك أضحوا فئة ذات وجود منذ أواسط القرن الرابع الميلادي في شبه جزيرة سيناء، وبخاصة في المثلث الذي تتكوَّن أضلاعه من فلسطين ومصر ومدائن صالح أو الحجر، والمعروف أن هذه المنطقة تقع إلى الشرق من خليج العقبة ويجتازها الطريق التجاري بين مصر وبلاد الشام من جهة، وبينها وبين الحجاز من جهة أخرى عبر البتراء ومعان. وتركَّز هؤلاء النسّاك حول جبل سربال، وقد جذبتهم الأودية العميقة الخصبة خلف مدينة الطور وفي وادي فاران، وهي محطة للقوافل التجارية، وسكنوا في المغاور والكهوف[١].

واهتم البيزنطيون بهذه المنطقة الهامة تجارياً، فبنى الامبراطور جستنيان قلعة في الجهة الشمالية من جبل موسى[٢] لحماية الطرق التجارية والكنيسة والرهبان أتباع المذهب الخلقيدوني، أي القائلين بالطبيعتين، وقد نتج عن ذلك أن انتقل هؤلاء الرهبان المتواجدون في المنطقة إلى هذه القلعة، واستمر وجود الرهبان العرب أتباع المذهب المونوفيزتي، أي القائلين بالطبيعة الواحدة، في فاران وأوديتها[٣].

في الوسط: ووُجدت النصرانية في أواسط الجزيرة العربية، في:

دومة الجندل: وكان صاحبها أكيدر بن عبد الملك السكوني الكندي نصرانياً عند ظهور الإسلام، وكان أغلب أهلها من السكون وبني كلب يدينون بالنصرانية[٤].

وادي القرى: وقد نزلته قضاعة وهي من أثبت القبائل في النصرانية[٥]، وكان يسكنه نفر من الرهبان ذكرهم جعفر بن سراقة أحد بني قرَّة بقوله:

فريقان رهبان بأسفل ذي القرى ... وبالشام عرَّافون فيمن تنصَّر[٦]

مكة: لعلَّ النصارى الذين تواجدوا في مكة كانوا من التجار من غير المكيين، والمعروف أن بني غسان النصارى حلفاء بني أسد القرشيين النصارى أيضاً كان لهم موطئ قدم على مقربة من الكعبة، وكان رجالهم يقومون بالأعمال التي تتطلبها منهم المواسم الاقتصادية والاجتماعية، كما أن بعض الرقيق المكي كانوا نصارى، وكان باقوم، وهو نصراني، من الذين بنوا الكعبة عندما أُعيد بناؤها عام (٦٠٨م)، وكان نجاراً[٧]. وكان في مكة جالية كثيرة العدد من العبيد الأحابيش بينهم عدد

---

(١) زيادة: ص١٦٥، ١٦٦.

(٢) أصبحت فيما بعد دير القديسة كاترين.

(٣) زيادة: ص١٦٦.

(٤) الحموي: جـ٢ ص٤٨٧.

(٥) المصدر نفسه: جـ٤ ص٣٣٨. جـ٥ ص٣٤٥. شيخو: جـ١ ص١٠٩.

(٦) الأصفهاني: جـ٨ ص١٣٨.

(٧) الأزرقي: جـ١ ص١٥٧، ١٥٨.

وافر من النصارى استورد للخدمة والقيام بالأعمال الخاصة بأثرياء مكة.

الطائف: وكان في الطائف نفر من الموالي على دين النصرانية(١).

نجد: اعتنق النصرانية قوم من طيء وكندة، وأُقيمت أديرة للرهبان النصارى في جبال طيء(٢).

اليمامة: تسربت النصرانية إلى اليمامة، وكان معظم أهلها قبل الإسلام من بني حنيفة الذين اعتنق بعضهم النصرانية، وكان حاكمها هوذة بن علي الحنفي نصرانياً عند ظهور الإسلام(٣).

لم ينتج عن انتشار النصرانية في أواسط الجزيرة العربية مؤسسات على نحو ما كان عند بني تغلب النصارى في الشمال.

في الشرق: اتخذ النساطرة من الحيرة مركزاً لانطلاق حركتهم التبشيرية، فاتبعوا طرق التجارة الداخلية والساحلية ونشروا النصرانية في شرق الجزيرة العربية، وعلى هذا، فقد دخلت النصرانية إلى هذه المنطقة العربية من العراق. وأول إشارة إلى مبشِّر في الساحل الشرقي للجزيرة العربية، جاءت بمناسبة ذكر عبد يسوع، وهو عربي درس اللاهوت في المدرسة اللاهوتية في فوني على الضفة الغربية لنهر دجلة، لكنه فشل في مهمته، فعاد إلى الحيرة وأنشأ فيها أول مجموعة نسطورية من الرهبان، وذلك في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي(٤)، لكن أضحى للنصرانية النسطورية، مع مرور الزمن، أتباع في البحرين وهجر وقطر وعمان وبعض جزر الخليج.

كان أهل البحرين في الجاهلية من بني عبد القيس يدينون بالنصرانية، وللنساطرة فيها أساقفة وبخاصة في قطر، ولهجر، قصبة البحرين، أسقف يدعى إسحاق ذكر في مجمع النساطرة سنة (٥٧٦م)(٥).

ووُجدت في عُمان منذ القرن الخامس الميلادي أديرة للنصارى وأساقفة، وكان من بين الكتب التي بعثها الرسول ﷺ إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام، كتاب إلى ملك عُمان جيفر بن الجلندى وأخيه عبّاد من أزد عمان، وكانا نصرانيين(٦)، وقد أشير إلى وجود النصارى في العربية الشرقية في أخبار الفتوح(٧).

في الجنوب: تسرَّبت النصرانية إلى العربية الجنوبية عبر رافدين بري وبحري، فقد

---

(١) البلاذري: ص٦٧.
(٢) اليعقوبي: جا ص٣١١. شيخو: جا ص١٢١، ١٣٢، ١٣٣.
(٣) شيخو: جا ص٧٢.
(٤) زيادة: ص١٦٨.
(٥) شيخو: جا ص٧٠، ٧١.
(٦) ابن هشام: ج٤ ص٢٣٢.
(٧) البلاذري: ص٨٥، ٨٦.

دخلتها براً من بلاد الشام عبر الحجاز فاليمن، ومن العراق مع القوافل التجارية المستمرة بين البلدين، ودخلتها بحراً بواسطة السفن اليونانية، كما دخلتها مع الأحباش الذين كانوا على اتصال دائم باليمن وببقية العربية الجنوبية.

وكانت هذه المنطقة تشهد، منذ منتصف القرن الرابع الميلادي، صراعاً حاداً على النفوذ بين البيزنطيين وحلفائهم الأحباش وبين الفرس، وكان لحكّام الحبشة أطماعهم الخاصة في احتلال اليمن لاستغلال مواردها الاقتصادية، وقد نجحوا في ذلك في عام (٣٤٠) للميلاد، لكنهم اضطروا إلى الانسحاب من اليمن في عام (٣٧٨) للميلاد تحت تأثير المقاومة الوطنية وتعرُّضهم لثورات داخلية، غير أنهم ظلوا يمارسون الضغط على اليمن والتدخُّل في شؤونها الداخلية.

وأرسل الامبراطور البيزنطي قنسطنطيوس (٣٣٧ ـ ٣٦١م) في عام (٣٥٤) للميلاد بعثة نصرانية إلى اليمن برئاسة ثيوفيلوس آندس، لتوطيد النفوذ البيزنطي السياسي والديني، ونجح في إنشاء كنيسة في عدن وأخرى في ظفار وثالثة في هرمز، وعيَّن للمتنصرين رئيساً ثم رحل[١]، وأضحت ظفار في عام (٣٥٦) للميلاد مقراً لرئيس أساقفة يُشرف على شؤون نصارى نجران وهرمز وسقطرى[٢].

غير أن النصرانية في اليمن كانت مدعاة لعدم الاهتمام لأنها اعتمدت على دولة الحبشة التي أخذت بالتداعي، والدولة البيزنطية المنهمكة بقتال الفرس، باستثناء نجران التي انتشرت فيها النصرانية بشكل لافت، ولعلها كانت الموطن الوحيد الذي توطدت فيه، وذلك بحكم اتصالها التجاري مع العراق عبر وادي الدواسر واليمامة والبحرين، كما كانت على اتصال وثيق بالحضارة والثقافة العربية ـ السورية، وتعزَّزت في ظل الاحتلال الحبشي الثاني لليمن (٥٢٥ ـ ٥٧٥م)، وأنشأ الأحباش فيها كنيسة عُرفت بكنيسة نجران وببيعة نجران وبكعبة نجران، وكانت بمثابة مزار يقصده العرب النصارى من كل صوب[٣].

تعقيب على انتشار النصرانية في بلاد العرب

إن نظرة عامة على انتشار النصرانية في بلاد العرب تطلعنا على الملاحظات التالية:

ـ يبدو أن النصرانية بما أثارته من قضايا لاهوتية لم تصل إلى أعماق الحياة العربية، ومن هنا كان الإنجيل من حيث أنه كتاب النصرانية ظل في الهامش بالنسبة للتفكير العربي الديني.

ـ كانت الحياة العربية تتمتع بقوة خارقة لمقاومة التبدُّل والتغيير، لذلك لم يكن

---

(١) شيخو: جـ١ ص٥٦.

(٢) علي: جـ٦ ص٦١٢.

(٣) الحموي: جـ٥ ص٢٦٨. شيخو: جـ١ ص٦٤.

الإنجيل ليتحدى العرب ويثيرهم، فالشعور العربي كان يحتوي على عناصر الترابط اجتماعياً وخلقياً ومثالياً لم يكن من اليسير اختراقه، وبخاصة أن الآراء الدينية التي حملتها النصرانية إلى العرب كانت بعيدة عن تصوراتهم الدينية.

ـ قد يكون العرب ربطوا بين النصرانية والدولة البيزنطية، وعدوا من ثَمَّ أن قبول النصرانية معناه الولاء للدولة البيزنطية، وهو أمر رفضوه.

ـ اختلفت مبادئ الديانة النصرانية عما ألفه العرب الوثنيون.

التوحيد العربي

اسم الجلالة، الله: كان العرب قبل الإسلام على دين واحد هو دين إبراهيم، دين الحنيفية ودين التوحيد الذي تجسَّد بالإسلام، إنما ضلوا الطريق، فعبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأصنام والأوثان، وابتعدوا عن دين آبائهم وأجدادهم حتى أعادهم الإسلام إليه، فتفشَّى فيهم الشرك بأشكال متعددة بفعل تطور واقعهم الاجتماعي(١).

ويمدنا القرآن الكريم على أن العرب قبل الإسلام كانوا يؤمنون بالتوحيد(٢). والواقع أن المشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق، على الرغم من عبادتهم الأصنام، وتؤكد الآيات القرآنية أن التوحيد كان أصل الدين في مكة بخاصة، إلّا أن عبدة الأصنام ابتدعوا الدين الوثني وتعدد الآلهة، وعليه، فإن العرب في العصر الجاهلي موحدون بطبعهم، وأن جوهر ديانتهم هو التوحيد.

فقد ذُكر اسم الله في النقوش الثمودية، ويبدو أن الثموديين أخذوا عقيدة التوحيد عن اللحيانيين على الجانب الغربي من شمالي الجزيرة العربية، أو جاءتهم من بلاد الشام، واقتبسها الأنباط عنهم عندما دخلوا بلادهم. ويؤيد القرآن الكريم هذه المعلومات الأثرية في أن عبادة الله عُرفت باكراً في منطقتي العُلا ومدائن صالح، حين بُعث النبي صالح إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله الواحد(٣).

---

(١) الشرك في صحيحه هو الاعتراف لغير الله بإحدى خصائص الألوهية، وقد مارسه العرب في الجاهلية بأشكال مختلفة منها:
ـ عبادة غير الله.
ـ التقدم لغير الله بالشعائر التعبدية والنذور وما إليها.
ـ اتخاذ الشفعاء وساطة للتقرب إلى الله.

(٢) العنكبوت/ ٦١. لقمان/ ٢٥. الزمر/ ٣٨. الزخرف/ ٩، ٨٧.

(٣) الأعراف/ ٧٣، ٧٥، ٧٧، ١٨٩، ١٩٠. هود/ ٦١، ٦٢. النمل/ ٤٥.

ويبدو أن إطلاق الثموديين على الله صفة الأبتر، قد يكون دليلاً على إيمانهم بالوحدانية(١)، لأن التسمية قد تكون نقضاً للعقيدة النصرانية القائلة بأن لله ابناً، وبالتالي رفضاً لأي نوع من تعدد الآلهة(٢).

وأقام التدمريون منذ القرن الثالث الميلادي هياكل «لمن تبارك اسمه إلى الأبد» من دون ذكر اسم الإلٰه المعبود. والواضح أن عبدة الأوثان لا يعبدون آلهة من دون تسميتها، وإذا لم يُسمَّ المعبود فلأنه فريد وحيد، وقد يعني ذلك أنهم يؤمنون بإلٰه واحد أو بإلٰه أكبر، والملاحظ أن العصر في بلاد الشام، كان يتجه آنذاك نحو الإيمان بالوحدانية(٣).

واتبع السبئيون هذا الأسلوب التوحيدي من خلال تجريد فكرة الله، فسمَّوا معبودهم «ذسموي» أي إلٰه السماء، إنه الإلٰه الأسمى والأعلى، وهو لا يحمل اسماً خاصاً به، ومن غير المؤكد ما إذا كان السبئيون قد اعتنقوا عقيدته متأثرين باليهودية أو النصرانية، إنما يمكن عدُّه تجسيداً لفكرة وحدانية الله.

الرحمٰن: وظهرت في الجزيرة العربية بعد الميلاد عبادة أخرى هي عبادة الرحمٰن، متأثرة باليهودية والنصرانية، لكنها كانت غامضة المعالم ومشوشة الملامح. ظهرت هذه التسمية في نقش الملك الحِميري شرحبيل بن يعفر، اليهودي الاعتقاد، على جدار سد مأرب في أواسط القرن الخامس الميلادي، كما ظهرت في نقش الملك عبد كلال بن مثوب النصراني العقيدة على جدار السد أيضاً، ذُكر فيها الرحمٰن. والواضح أن استخدام اليهود والنصارى معاً هذه التسمية داخل الجزيرة العربية، يعني أنهم استخدموا تسمية أو صفة لله كانت شائعة بين العرب(٤). وقد ذُكر شعر للشنفرى قال فيه:

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ألا قضب الرحمٰن ربي يمينها(٥)

يبدو من هذا البيت أن الشاعر يدين بعبادة الرحمٰن.

وفي شعر لسلامة بن جندب الطهوي:

عجلتم علينا إذ عجلنا عليكم وما يشأ الرحمٰن يعقد ويطلق(٦)

ونُسب إلى حاتم الطائي أيضاً شعر يقول فيه:

كلوا اليوم من رزق الإلٰه وأيسروا وإن على الرحمٰن رزقكم غدا(٧)

وكان أهل مكة على علم بالرحمٰن بفعل اتصالهم باليمن واليهود، ولعلهم

---

(١) علي: جـ٦ ص١٧٨.

(٢) سحاب: ص٣٧٢.

(٣) سحاب: ص٣٧٣.

(٤) المرجع نفسه: ص٣٧٣، ٣٧٤.

(٥) تفسير الطبري: جـ١ ص٤٤.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه: جـ١ ص٤٤. جـ٥ ص١٢١.

استخدموا الكلمة في معنى الله، هذا على الرغم من إنكار سهيل بن عمرو، في صلح الحديبية، أنه يعرف الرحمٰن الرحيم، وعرض أن تبدأ وثيقة الصلح بعبارة «باسمك اللهم» بدلاً من «بسم الله الرحمٰن الرحيم» التي أمر الرسول علياً بن أبي طالب بكتابتها، وكان لسهيل ما أراد[1]. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان/ ٦٠]. والراجح إن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنُّت في كفرهم، فإنه وُجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله بالرحمٰن كما ذكرنا.

وكانت تلبية قيس عيلان على النحو التالي: «لبيك اللهم لبيك، لبيك أنت الرحمٰن، أتتك قيس عيلان راجلها والركبان»[2]. وتلبية عك والأشعريين «نحج للرحمٰن بيتاً عجباً، مستتراً، مضبَّباً، محجَّباً»[3].

نستنتج من هذه الأدلة أن القوم كانوا يعتقدون بإلّه واحد هو الرحمٰن.

الحنيفية[4]: نزعة دينية توحيدية عربية جاءت تعبيراً عن التوجهات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية نحو الوحدة، ويُعدُّ ظهورها بداية الثورة على الوثنية المتداعية وبداية الإرهاص الفعلي لظهور الإسلام[5]، قامت بها جماعة مستنيرة عُرفت باسم الحكماء والحنفاء، تميزت بمعارضتها لعبادة الأصنام ودعوتها إلى عبادة الإلّه الواحد كما ذكرنا، وتعدُّ هذه النزعة من أهم ما نتج على الصعيد الفكري من حركة المواصلات الدينية التي حرَّكتها التجارة.

وقد سمَّت روايات المصادر هذه الجماعة بأسمائهم[6]، والمعروف أن معظمهم عاش في الأيام الأخيرة من الجاهلية، وأن بعضهم أدرك الإسلام، وبعضهم الآخر تنصَّر مثل: عدي بن زيد العبادي وأرباب بن رئاب. وتحدثت المصادر عن عقيدة كل واحد منهم بما يدل على أنهم لم يكونوا جميعاً متماثلين رأياً واعتقاداً، كما لم يكونوا على صلة تنسيقية فيما بينهم، ويعني ذلك أن الجامع بينهم هو مبدأ عام يلتقون عفوياً على الأخذ به هو مبدأ رفض عبادة الأصنام وتعدد الآلهة والإيمان بوجود إلّه واحد، إضافة إلى جانب سلوكي أخلاقي ينسجم مع التزامهم الديني، فقد

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف: جا ص٤٣٩.

(٢) اليعقوبي: جا ص٣٠٨.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٠٩.

(٤) لفظة حنيف، في الأصل، بمعنى صابئ؛ أي الرافض لعبادة قومه والخارج على الأصنام والوثنية. ابن منظور: ج٩ ص٥٧.

(٥) دلو: ج٢ ص٢٣٧.

(٦) المسعودي: جا ص٧٨ ـ ٩٠. ابن هشام: جا ص٢٥٣. الألوسي: ج٢ ص٢٤٤، ٢٤٥.

تجنَّبوا الناس، وطافوا في الأرض بحثاً عن دين إبراهيم الحنيف، وأن منهم من قرأ التوراة والإنجيل وفهمهما، وأنهم كانوا يتأملون في هذا الكون، وقد تجنَّبوا الخمر والأعمال المنكرة، ونصحوا الناس بالابتعاد عن عبادة الأصنام والتقرُّب إلى الله.

ويبدو أن الحنفاء الأربعة المشهورين في مكة هم: ورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، وعبيد الله بن جحش، وزيد بن عمرو بن نفيل، بدأوا خروجهم على عبادة الأصنام بعد رحلة إلى الشام.

أما وصفهم بالحنفاء، فإنه وصف عرفه العرب قبل الإسلام وأطلقه القرآن الكريم على إبراهيم عليه السلام، فقال ﷻ: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة/ ١٣٥]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران/ ٦٧]. وورد في آيات قرآنية كثيرة بصورة تشير إلى وجود الحنفاء في الجاهلية[(١)]، كما تشير إلى مضمون هذا الوصف الذي ينطبق على الموقف الاعتقادي أو المبدأ العام لهذه الجماعة وهو رفض الموقف الوثني بشكل مطلق ومخالفة الثوابت الاعتقادية اليهودية والنصرانية[(٢)].

أما النظرة التاريخية في مسألة الحنفاء، فهي مسألة ظهور هذه النزعة في تلك المرحلة التاريخية المعيَّنة قبل الإسلام. والواضح أن هذا الظهور مرتبط بثلاثة عوامل هي:

١ ـ تغيُّر العلاقات الاقتصادية ـ الاجتماعية في مجتمع الجاهلية في القرن السادس الميلادي.

٢ ـ التفاعل الطويل الأمد بين الموقف الوثني والموقف اليهودي ـ النصراني من العالم على صعيد الوعي الديني.

٣ ـ انصهار اللهجات العربية وتوحيدها.

ففيما يتعلق بالعامل الأول، نلاحظ على الصعيد الاقتصادي تطور وسائل الإنتاج، وتوسع أعمال الري الاصطناعي، وازدياد الإنتاج الزراعي، وارتباط الإنتاج الصناعي بسوق التبادل، ونمو المدن، واستغلال موقع الجزيرة العربية وبخاصة الحجاز بحيث يصبح مورداً لخدمات متنوعة، وتبادلات تجارية، مع ما ينتج عن ذلك من خلق

---

(١) البقرة/ ١٢٥. آل عمران/ ٦٧، ٦٨. النساء/ ١٢٥. الأنعام/ ٧٩، ١٦١. النحل/ ١٢٠، ١٢٣. يونس/ ١٠٥. الروم/ ٣٠. الحج/ ٣١. البينة/ ٥.

(٢) البقرة/ ١٣٥. آل عمران/ ٦٧.

العمل الإنتاجي، وتنظيم الأسواق العامة وترتيب أوقاتها مع الأشهر الحرم، وعقد الاتفاقيات التجارية مع الأمراء العرب والعالم الخارجي، وتنشيط التجارة الداخلية والخارجية، وقد أفضى ذلك إلى ازدياد التقارب العربي، وارتباط أعداد وفئات كثيرة من سكان المدن والبادية بالعملية التجارية، ونشر التعامل النقدي؛ ما سرَّع في تفكُّك المجتمع القبلي[١].

كما نلاحظ على الصعيد الاجتماعي أن التغيرات الناشئة عن تبدُّل أسلوب كسب المعيشة من صفته الجماعية البدائية إلى صفته الفردية، بسبب تبدُّل أشكال ملكية وسائل الإنتاج؛ قد أحدثت تبدُّلات في البنية الاجتماعية للمجتمع القبلي الجاهلي، أبرزها ما حدث من تغيُّر في نوعية الروابط الداخلية المكونة للأحداث القبلية والتي أفضت إلى تفكك رابطة الدم والنسب بين أبناء القبيلة الواحدة والدخول في إطار توحيدي، نتج عنه تشكيل تحالفات سياسية قبلية كبرى على أساس المصالح المشتركة والضرورات الدفاعية بين مجموعات من القبائل بدلاً من التجمعات الصغيرة[٢].

وحصلت في مرحلة الجاهلية الأخيرة بعض الأحداث السياسية والعسكرية التي ساعدت على التفكير في تغيير الواقع الاجتماعي نحو الوحدة، ونذكر في هذا السياق حادثين تاريخيين شهدتهما الجزيرة العربية في زمنين متقاربين سبقا ظهور الإسلام:

أولهما: الصراع السياسي في اليمن الذي اتخذ، بعد حملة أبرهة الفاشلة على مكة، مضموناً تاريخياً حدَّد وجهته كصراع بين القوى صاحبة البلاد، وقوى خارجية تحتل البلاد (الأحباش) أو تطمع في احتلالها (الفرس). وقد خلق هذا الصراع شعوراً عربياً مشتركاً، حيث يذكر المؤرخون أن عبد المطلب بن هاشم وَفَدَ في ركب من قريش على سيف بن ذي يزن الحِميري بعد انتصاره على الحبشة، للتهنئة بهذا النصر، كما أنشد الشعراء العرب، مثل أبو الصلت بن أبي ربيعة الثقفي، وفي رواية أمية بن أبي الصلت، وعدي بن زيد، شعراً بهذه المناسبة[٣].

ثانيهما: معركة ذي قار الشهيرة (٦٠٩م)، وكانت التعبير الناضج عن ذلك الشعور المشترك بالحاجة إلى نمط جديد في العلاقات بين مختلف القبائل في الجزيرة العربية، ولا سيما القبائل المتاخمة لمناطق الحدود مع الدولتين البيزنطية والفارسية. وقد وصف النبي محمد ﷺ هذا اليوم بأنه (أول يوم انتصف العرب من العجم...)[٤]. ويُضفي هذا التعبير، الذي شكَّل فيه كل من العرب والعجم فريقاً

---

(١) دلو: جـ٢ ص٢٣٧.

(٢) مروة: جـ١ ص٣١٣.

(٣) ابن هشام: جـ١ ص٨٣ ـ ٨٥، ١٦١، ١٦٢. (٤) الطبري: جـ٢ ص١٩٣.

في المعركة؛ على هذا الحادث معناه التاريخي الذي استمده من طبيعة تلك المتغيرات على صعيد العلاقات الداخلية بين القبائل[1].

وفيما يتعلق بالعامل الثاني، فإن انتشار اليهودية والنصرانية في الجزيرة العربية، كان عاملاً مساعداً في تغيير الوعي الديني عند فئة مستنيرة من الحكماء، متجاوزاً النظرة الوثنية الحسية بموقف ليس بوثني ولا يهودي ولا نصراني، بل متفرد باتجاه الرؤية التأملية كعلامة على ولادة أمر جديد ظهر في المدة الأخيرة من عصر الجاهلية، ومتميز بمعارضته عبادة الأصنام وتعدد الآلهة، وبدعوته إلى عبادة الإلّه الواحد، ولكن بشكل مغاير لطريقة التفكير الديني اليهودي أو النصراني[2].

وأما فيما يتعلق بالعامل الثالث، نلاحظ على الصعيد الثقافي ما جرى من انصهار اللهجات العربية وتوحيدها في لهجة مشتركة هي لهجة قريش التي أضحت لغة التعبير الفني والتعامل المشترك بين مختلف القبائل، أثناء انعقاد المواسم العامة التجارية والأدبية والدينية وتوظيف الشعر كأداة إعلامية في خدمه التوجه الوحدوي.

ويمكن رصد الظاهرات التالية في المجرى العام لحركة تاريخ الجاهلية نحو الوحدة والتغييرات المتصلة بالحركة الدينية ذاتها:

- اشتراك بعض القبائل في عبادة صنم واحد، نرى ذلك في اجتماع قبائل خثعم وبجيلة ودوس، ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة، على الصنم المعروف باسم ذي الخلصة[3].

اجتماع قبائل قضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان، على الصنم المعروف باسم الأقيصر[4].

اجتماع قريش وبنو كنانة وخزاعة ومضر على تعظيم العزى[5].

- قيام تنظيم عملي لإدارة موسم الحج في مكة بعد أن انحصرت وظائف الرفادة والحجابة والسقاية وغيرها من الوظائف التنظيمية لشؤون الحج في قريش، ووُزِّعت بين الزعامات المكية، وشمل ذلك التزام مختلف القبائل بموجبات أداء مراسم الحج بصورة سلمية، والامتناع عن الحرب في الأشهر الحرم.

- انخراط تلك القبائل في عملية تتداخل فيها العلاقات الاقتصادية والاجتماعية

---

(١) مروة: جا ص٣١٤.
(٢) الألوسي: ج٢ ص١٩٦. مروة: جا ص٣٠٩، ٣١٠.
(٣) ابن هشام: جا ص١٠٧.
(٤) الكلبي: ص٥٣. الحموي: جا ص٢٣٨.
(٥) الأزرقي: جا ص١٢٦.

والأدبية والدينية تداخلاً تفاعلياً كان يتجه نحو الوحدة، نتيجة الاجتماع الجماعي في الأسواق والحج.

ـ أراد عربي، كان أبوه قد قُتل، الطلب بثأره، فأتى ذا الخلصة، واستسقم عنده بالأزلام، فخرج السهم ينهاه عن ذلك، فسبَّ الصنم وكسر القداح وضرب به وجهه وقال:

لو كنتَ يا ذا الخلص الموتورا مثلي وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

ومن الناس من ينحلها لامرئ القيس بن حجر الكندي الشاعر الجاهلي المعروف[(١)].

ـ أقبل رجل من كنانة بإبل له إلى صنم سعد ليقفها عليه التماس بركته، فلما أدناها منه، نفرت منه وتفرَّقت عليه، فغضب الرجل، فأخذ حجراً ورماه به وقال: «لا بارك الله فيك إلَهاً، أنفرت عليَّ إبلي»، ثم خرج حتى جمعها، ولما انصرف عنه قال:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلّا صخرة بتنوفة من الأرض لا تدعو لغي ولا رشد[(٢)]

الواضح أن الظاهرات المذكورة مرتبطة موضوعياً بظاهرات الواقع الاجتماعي والتي هي نتاج عملية تاريخية، كانت تجري حينذاك باتجاه اختراق الأطر القبلية التعددية البدائية على طريق صيرورة المجتمع الجاهلي الكمي مجتمعاً عربياً بالمعنى الكيفي. تلك هي العملية التاريخية نفسها التي كانت ظاهرة الحنفاء نتاجها التاريخي الفعلي[(٣)].

نشأت الحنيفية في اليمامة، وانتشرت في غربي الجزيرة العربية حيث وقع كثير من سكانها تحت تأثير التوحيد والزهد بفعل احتكاكهم واتصالهم باليهود والنصارى، كما اعتنق بعضهم إحدى الديانتين اليهودية والنصرانية[(٤)].

لم تنتشر الحنيفية في مكة بشكل واسع، ولعلَّ لذلك علاقة بالأسباب التالية:

ـ كانت مكة محجة العرب بعامة ومجمع آلهتهم، وعمد المكيون إلى تنظيم الشعائر الدينية، وكرَّموا الكعبة وقدَّسوها، ما جعل أفئدة العرب تهوي إليها.

ـ كانت الوثنية جزءاً عضوياً من النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي في مكة، لذا جهدت الزعامة المكية للإبقاء على الشرك والمحافظة على التقاليد الوثنية المتعلقة بالكعبة.

ـ كان الشرك متأصلاً في نفوس المكيين، ومنظماً بشكل يفوق الحنيفية.

ـ الدور الهام الذي أدته عبادة الأصنام في تنشيط التجارة المكية.

ـ لم تضع الحنيفية حلولاً للمشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي كان يعاني منها

---

(١) ابن هشام: جا ص١٠٧.
(٢) المصدر نفسه: جا ص١٠٤.
(٣) مروة: جا ص٣١٦.
(٤) بلياييف: ص١٤١.

عامة الناس في مكة كي تستطيع أن تستقطب إليها المظلومين والمعدمين.

- لقد صوَّرت الحنيفية الحياة الدنيا، للناس، بأنها فانية، وأن هناك حياة أخرى بعد الموت أفضل منها، وكأنها أرجأت بذلك مشكلاتهم إلى الحياة الأخرى، في الوقت الذي بدأ فيه الشك يتسرب إلى عقول كثير منهم بالحياة الأخرى، وقد عبَّروا عن ذلك بأشعارهم، فقال بعضهم:

حياة ثم موت ثم نشر   حديث خرافة يا أم عمرو[1]

- كان العرب بعامة والمكيون بخاصة، يعملون من أجل مصالحهم الدنيوية فقط ولم يعيروا التفاتة إلى الآخرة، ولم يطلبوها، إذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها.

لكن الحنيفية ما لبثت أن تطورت مع تطور المجتمع المكي وواكبت حاجاته، فكان الحنفاء البشير الذي عبَّر بعمق عن حاجات مجتمعهم الدينية والاجتماعية والسياسية، وهي الحاجات التي كُتب للإسلام أن يسدَّها جميعاً[2].

(١) الشهرستاني، أبو الفتح محمد عبد الكريم: الملل والنحل: ج٣ ص٨٠.

(٢) بلياييف: ص١٤٣.

البَابُ الخَامِسُ

أوضاع العرب السياسية

الفصل الرابع عشر

اليمن

التكوينات السياسية في العربية الجنوبية

كان القسم الجنوبي من الجزيرة العربية، وبخاصة اليمن، أكثر بلاد العرب تحضُّراً في العصر الجاهلي، فقامت فيه دول وممالك كانت على مستوى متقدم من الرقي والتمدن، وذلك على ثلاثة أسس: زراعية وتجارية وتوسعية[1].

الأساس الزراعي: فقد وُجدت في العربية الجنوبية مساحات واسعة من الأراضي الخصبة، وقدراً كافياً ومنتظماً من الأمطار الموسمية، ولم يكتف السكان بزراعة الأراضي السهلية، فزرعوا المدرجات التي مهَّدوها على جوانب الجبال، كما وُجِدت أيضاً مساحات شاسعة من الغابات الطبيعية، والنباتات التي تنتج الطيوب والتوابل، وهي سلعة لا غناء عنها للعالم القديم، الأمر الذي زاد من استقرار المورد الاقتصادي.

الأساس التجاري: كانت العربية الجنوبية بعامة واليمن بخاصة مركزاً تجارياً توسط التجارة العالمية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، ولم تكن التجارة في تلك المنطقة مجرد تجارة عبور تعتمد على بقاء الخطوط التجارية، وتهتز إذا أصاب هذه الخطوط أي تغيير أو تعديل في مسارها، وإنما هي تجارة ذات مقومات محلية موجودة أصلاً، كما أن موقعها في جنوبي الجزيرة العربية وعند ملتقى البحر الأحمر والمحيط الهندي يضعها بالضرورة على نقطة الانطلاق من بداية أي طريق بري نحو الشمال، ويعطيها ميزة مضاعفة في مجال الخطوط التجارية. فالخطان البري والبحري موجودان، وإذا قوي أحدهما على حساب الآخر، فلا يؤثر ذلك سلباً على وضع البلاد، وإنما تستمر المنفعة التجارية في كل الأحوال، وكانت نتيجة ذلك أن عمرت هذه الممالك مدة طويلة.

ويرتبط بهذا الأساس ما تميزت به الممالك الجنوبية من التوافق، أو ما يشبه

---

(١) يحيى: ص٣٥٤ ـ ٣٥٨.

التوافق الذي يقترب بها من وضعية التداخل بقدر ما يبعدها عن الصراعات التي نجدها عند بعض إمارات الشمال كالمناذرة والغساسنة، على الرغم من تعددها، ولعل مردَّ ذلك يعود إلى التكامل الاقتصادي فيما بينها، فبعض المناطق تُنتج نوعاً من الطيوب والتوابل، وبعضها يُنتج نوعاً آخر وتصب كلها عند بداية خط القوافل البري الذي يمر في مناطق حدَّدتها التضاريس الطبيعية. وهكذا كان لا بد من قدر من الاتفاق بين هذه الممالك جميعها، لا يمكن الاستغناء عنه، فكل منطقة تعتمد على الأخرى من حيث الإنتاج والتسويق ومرور القوافل في أراضيها، وأحياناً تجمع بين موردي الإنتاج والنقل، ومن ثم كانت السيادة السياسية بين هذه الممالك تتأرجح بين الندِّية وتفوق مملكة على مملكة أخرى، وسيطرة مملكة على الممالك الأخرى فيما يشبه الوحدة السياسية، ولنا في قيام الدولة المعينية والسبئية والحِميرية ومساراتها السياسية خير دليل على ذلك كما سيمر معنا.

الأساس التوسعي: ويتمثل ذلك بإقامة نقاط توسُّع خارج الحدود عن طريق المستوطنات. فقد ورد في أحد النقوش الأشورية أن الملك تغلث فلاسر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ق.م) سيطر على عدد من القبائل والمدن، ومن بينها سبأ، وأن هذه الأماكن تقع إلى أقصى الغرب بالنسبة لأشور، وتضع سبأ في ترتيبها بعد تيماء، ما يوحي بأن المقصود هو مستوطنات سبئية تقع في الشمال، كما ورد في عدد من النقوش المعينية، في العُلا في شمالي الجزيرة العربية وفي الجوف في القسم الشمالي منها، ما يشير إلى قيام عدد من المستوطنات المعينية في هاتين المنطقتين. والراجح أن هذه المستوطنات ابتدأت كمحطات تجارية لتجار العربية الجنوبية ثم نمت واستقرت بعد ذلك لتتحول إلى مدن لها كيانها الخاص، ولكن تبقى لها صلة مع الأماكن التي انبثقت منها وبخاصة التجارية.

قد يكون قيام هذه الممالك والدول مرحلة متطورة من النظام المشيخي أو القبلي، الذي يرأسه شيخ القبيلة، إلى نظام الدولة الذي يرأسه الملك أو الرئيس، واتصف النظام السياسي فيها بالفردية المطلقة، إذ جمع الملك بين يديه السلطتين الزمنية والدينية، فهو الملك والكاهن الأعلى أو المكرِّب، المقرَّب، إلى الآلهة، وتميز بأنه وراثي. غير أن صلاحيات الملك الدينية بخاصة، بدأت منذ عام (١١٥) قبل الميلاد بالتراجع، وأخذت تتركَّز في أيدي رجال الدين، وتحوَّل الملك إلى أداة بأيدي الطبقة الغنية التي كانت تختاره من بين صفوفها ليحافظ على مصالحها تجاه أية ظروف معاكسة، فتحول الملك بهذا المعنى إلى ما يمكن أن نسميه الأول بين الأقران، وقُضي على النظام الوراثي للحكم، وبذلك تكون ركيزة الوراثة قد انتُزعت

أيضاً من صلاحيات الملك ونظامه[1].

وكان ملوك اليمن يستشيرون رؤساء القبائل والكهنة في المشكلات التي تتعرَّض لها الدولة، وبخاصة في قضايا السلم والحرب، وشكَّل هؤلاء مجلساً سُمِّي بمزود أو مسود، كان الملك يعين أعضاءه، إنه مجلس يُمثل في الواقع مصالح كبار الملَّاك وأثرياء التجار والكهنة، أي الطبقة الأرستقراطية السائدة[2].

ونذكر من رموز النظام السياسي في اليمن:

الأقيان: وهم أمراء أو موظفون كبار أو كهنة، يمثلون الملك في المدن، ويتولون فيها الشؤون الإدارية والاقتصادية، وجاء ذكرهم في الكتابات القتبانية والسبئية والمعينية، ومن أشهرهم: تبع كرب الذي كان كاهناً وقيناً.

الأقيال: كانوا من رؤساء القبائل، وتفوق منزلتهم منزلة أعضاء المزود.

الجيش: إنه إحدى المؤسسات المهمة في حماية الدولة ومؤسساتها، وحفظ مصالح الطبقة الأرستقراطية.

---

(١) يحيى: ص٣٦٥، ٣٦٦.

(٢) سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ الدولة العربية: ص٥٠.

الدولة المعينية

١٣٠٠ ـ ٦٥٠ق.م

نشأت أقدم الدول العربية في اليمن بفعل موقعها الجغرافي ووفرة مواردها الاقتصادية والظروف السياسية التي أحاطت بها، وتعد الدولة المعينية أقدمها، وقد بلغتنا أخبارها عبر الكتابات المدونة بالمسند والكتب الكلاسيكية اليونانية والرومانية، ولم يرد ذكر لها في المصادر العربية، ثم إن ما ذكرته المصادر المشار إليها عن بلدتي معين وبراقش لا يتجاوز كونهما موضعين في الجوف بين نجران وحضرموت، أو محفدين من بين محافد اليمن وقصورها القديمة[١].

ورد اسم معين في المصادر اليونانية والرومانية، وعاصمتها مدينة قرنا وهي معين[٢]. وظلَّت حضارة المعينيين مجهولة حتى كشف أحد العلماء، وهو جوزيف هالفي، عن آثارها[٣]. والواقع أنه على الرغم من كثرة النقوش التي وُجدت عن هذه الدولة، فإن معظمها لا يحوي أكثر من أسماء ملوك وأشخاص، وتسجيل بعض الأحداث الشخصية أو الخاصة، ما ترتَّب عليه اختلاف الباحثين في تحديد تاريخ بداية هذه الدولة وتاريخ انتهائها، والتواريخ المقترحة تتراوح بين القرن الخامس عشر قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي[٤]، وحدَّد بعضهم تاريخ الدولة المعينية بين سنتي (١٣٠٠ و٦٥٠) قبل الميلاد[٥].

قامت الدولة المعينية في الجوف شرقي صنعاء بين نجران وحضرموت، وهي أرض خصبة ذات مياه كثيرة، اشتغل أهلها بالزراعة والتجارة. كان نظام الحكم

---

(١) الحموي: جـ٥ ص١٦٠. Philby: The Background of Islam: p141

(٢) زيدان: ص١٣٠.

(٣) المرجع نفسه. نيلسن: بلاد العرب الجنوبية، فصل في كتاب التاريخ العربي القديم: ص١٢ ـ ١٧.

(٤) عبد الحميد، سعد زغلول: في تاريخ العرب قبل الإسلام: ص١٨٢.
Albright, W.F: the Chronology of the Minaen Kings of Arabia pp22 - 24.

(٥) هومل، فرتز: الفصل الثاني من كتاب تاريخ العرب القديم: ص٦٥، ٧٤. علي: جـ٢ ص٧٣.

في هذه الدولة ملكياً وراثياً من الأب إلى الابن، وقد يشترك الاثنان معاً في الحكم، كما قد يشترك أكثر من ملك في اسم واحد، لكن يتميز بعضهم عن بعض بالألقاب مثل: المنقذ أو المخلص والصديق أو الصادق والعادل والفخور والسامي[1]. ولُقِّب الملوك في بداية عهد الدولة بلقب مزواد، ولعل هذا اللقب يتضمن معنى الكهانة فضلاً عن الحكومة، فيكون المراد بقولهم مزواد معين، حاكم معين وكاهنها[2].

وعرفت مدن هذه الدولة ما يمكن أن يُسمَّى بنظام الحكم المحلي، فكانت لهم مجالس تدير شؤونهم في السلم والحرب تُسمَّى مزود، على النحو الذي كانت عليه دار الندوة في مكة، وكأنها حكومات محلية، ما يحملنا على الاعتقاد بأن حكومة معين هي حكومات مدن[3].

وتنوَّعت الضرائب في معين، فهي على ثلاثة أنواع:

- ضرائب تعود جبايتها إلى خزانة الملك.
- ضرائب تؤول جبايتها إلى المعابد.
- ضرائب تذهب إلى خزائن المشايخ والحكام[4].

ويُعبَّر عن النذور والهبات التي تقدم إلى المعابد بلفظتي كبودت وأكرب، أقرب؛ أي ما يُتقرب به إلى الآلهة[5].

ومن الضرائب: كتابات العقود ووفاء الضرائب والديون، وضريبة دعيت بفرعم، أي فرع، وأخرى عُرفت بعشرم؛ أي عشر، تؤخذ من الحاصل[6].

وكان لكل مدينة معبدها الخاص الذي يحوي إلّهاً أو أكثر، وقد تتعدَّد المعابد في المدينة الواحدة، ويُعرف معبد العاصمة برصاف. ويشرف رجال الدين على إدارة المعابد، ويقومون بالشعائر الدينية، ويُعرف الكاهن بـ«شوع»[7].

امتد نفوذ المعينيين إبان قوة دولتهم إلى شواطئ البحر الأحمر والخليج العربي وبحر العرب؛ أي أنه شمل معظم أجزاء الجزيرة العربية، ومع ذلك لا يبدو أن الدولة المعينية كانت دولة عسكرية بقدر ما كانت دولة تجارية. وامتد هذا النفوذ السياسي إلى شمالي الحجاز فشمل معان وديدان، العُلا، ومدين[8] واتخذوها

---

(١) هومل: ص٦٥. زيدان: ص١٣١. علي: جـ٢ ص١٠٤.
(٢) زيدان: ص١٣٢.
(٣) علي: جـ٢ ص١٠٩.
(٤) المرجع نفسه: ص١١٠.
(٥) المرجع نفسه.
(٦) المرجع نفسه.
(٧) المرجع نفسه: ص١١٣، ١١٤.
(٨) موسل: ص١، ٢. علي: جـ٢ ص١٢٠، ١٢١.

مستوطنات لهم وزوّدوها بحاميات عسكرية وجاليات جنوبية من الأوساط التجارية[1]، والمعروف أن الطريق التجاري البري الذي يربط اليمن والشام ومصر ويمر بغربي تيماء، كان تحت سيطرة المعينيين خلال مراحل قوتهم.

أدى توسع المعينيين باتجاه الشمال إلى احتكاكهم بأشور وفينيقية ومصر، وكان حكام آشور في سوريا يتعاملون مع المقيمين في الواحات. وتحتم على المعينيين من واقع اشتغالهم بالتجارة أن يتعلموا القراءة والكتابة لتدوين الحسابات التجارية، فاقتبسوا الأبجدية الفينيقية التي كانت شائعة آنذاك ودوَّنوا لغتهم بها، وقد عُثر على كتابات معينية في الجيزة بمصر وجزيرة ديلوس اليونانية، ترجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد وكذلك في أور والوركاء في بلاد ما بين النهرين، وتشير هذه الكتابات إلى أن المعينيين، حتى بعد سقوط دولتهم، ظلوا يحتفظون بكيانهم الاجتماعي وتقاليدهم التجارية[2].

قضى السبئيون على الدولة المعينية، وكانوا قد بدأوا حياتهم السياسية كإمارة صغيرة، أخذت تتسع شيئاً فشيئاً حتى سيطرت على كامل اليمن، إلا أن المعينيين ظلوا يتمتعون بحكم بلادهم الداخلي ويمارسون نشاطهم التجاري.

---

(١) موسل: ص٨٧، ٨٨.

(٢) علي: جـ٢ ص١٢٠. Philby: p42

مملكة حضرموت

١٠٢٠ق.م ـ ٢٩٠م

قامت مملكة حضرموت في جنوبي الجزيرة العربية إلى الشرق من اليمن على ساحل بحر العرب، في منطقة واسعة تحيط بها رمال كثيفة تُعرف بالأحقاف، واشتهرت بوجود مدينتي تريم وشبوة حيث أُقيمت حولهما قرى وقلاع عدة. ويرجع اسم حضرموت إما إلى اسم شخص هو حضرموت بن قحطان، الذي نزل في هذا المكان فسُمي باسمه، أو أنه لُقِّب بهذا الاسم لأنه كان إذا حضر حرباً أكثر فيها من القتل، وإما إلى معناها اللغوي «دار الموت» أو «وادي الموت» المأخوذ من اللغة العبرية[١].

عاصرت هذه المملكة ممالك معين وسبأ وقتبان، ومن ملوكها صوفي إيل، وهو أول من حكمها مع معين في آن واحد عام (١٠٢٠) قبل الميلاد تقريباً، وابنه شهرم علام، وحفيده معديكرب بن أليفع يثع ملك معين، وقد تولى الحكم عام (٩٨٠) قبل الميلاد تقريباً، والمكرب يرعسن بن أبشِع. ويبدو أن المملكة اندمجت، بعد وفاة معديكرب، بمملكة معين وظلت تابعة لها إلى عام (٦٥٠) قبل الميلاد تقريباً[٢]. ويُفهم من هذه الأسماء أن ملوك حضرموت كانت لهم صفة دينية مميزة، وكانوا يقدمون الذبائح للآلهة عند تنصيبهم في حصن أنود، وهو من الأماكن المقدسة.

ودخلت مملكة حضرموت، عندما ضعفت، تحت حكم الدولة الحِميرية الثانية التي تلقَّب ملوكها، منذ عام (١١٥) قبل الميلاد، بملوك سبأ وريدان وحضرموت ويمنات، وأول من تلقَّب بهذا اللقب الملك شمر يهرعش[٣].

كانت عاصمة حضرموت القديمة ميفعة ثم انتقلت إلى شبوة التي تأسست في

---

(١) الحموي: جـ٢ ص٢٧٠. الهمداني: صفة جزيرة العرب: ص١٦٥، ١٦٦.
Philby: p77. العهد القديم: سفر التكوين: الإصحاح العاشر/ الآية ٢٦. أخبار الأيام الأول: الإصحاح الأول/ الآية ٢٠. قاموس الكتاب المقدس: ص٣١٠.

(٢) Philby: p77.

(٣) علي: جـ٢ ص١٤٩. Ibid: p81.

القرن الثاني قبل الميلاد[1]. وأقامت هذه المملكة علاقات ودية مع مملكة سبأ في حين كانت علاقاتها بجيرانها الحِميريين متوترة، فأرسل ملك سبأ ثار بن يعب يهنعم رجلين من الأشراف للمشاركة في الاحتفال الخاص بتتويج الملك الحضرمي الفريلط الثاني، ابن عم ذخر أو الملك يدع إيل بين، الذي قام بتعمير مدينة شبوة، وأقام بها معبداً من الحجارة بعد الخراب الذي حلَّ بها، وقد أمر الملك الفريلط بتقديم القرابين في حصن أنود شكراً للآلهة[2].

تدل الآثار المكتشفة في مدينة شبوة على ازدهار الحياة الزراعية في حضرموت، فقد وُجدت بقايا السدود التي كانت مقامة في وادي شبوة لحجز مياه الأمطار والإفادة منها في ري المناطق الزراعية، كما اكتُشفت هناك بقايا سدود وقنوات كانت تحمل المياه إلى المناطق الزراعية البعيدة.

كانت مدينة قنا، الواقعة إلى الشرق من عدن، الميناء التجاري الرئيس لمملكة حضرموت حيث يتم تصدير اللبان والبخور والمر منها براً وبحراً، ويمرُّ طريق تجارة البخور عبر قنا وظفار في قهزة، وشبوة في حضرموت وتمنع في قتبان، ومأرب في سبأ ثم إلى الجوف في معين، لذلك اهتم ملوك حضرموت بقنا اهتماماً كبيراً، فأقاموا فيها حصناً كبيراً وبنوا حوله سوراً من الحجارة والصخر والخشب، وهو المعروف باسم حصن الغراب[3].

خضعت مملكة حضرموت للسبئيين، وقضى الحِميريون عليها في منتصف القرن الرابع الميلادي على يد الملك الحِميري شمر يهرعش الذي تلقب بلقب ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات، وقد ألحقت الحروب التي نشبت بين سبأ وحضرموت، ثم بين حِمير وحضرموت خراباً في كثير في القرى والمدن، وقُتل كثير من أهلها، وجفَّت مزارعهم، وتحوَّلت منازلهم إلى خرائب، فهجرها أهلها ولم يعودوا إليها[4].

---

(١) حسنين، فؤاد: استكمال لكتاب التاريخ العربي القديم: ص٢٧٥.

(٢) ذكر بعض الباحثين أن خراب شبوة حصل إما باستيلاء أحد ملوك سبأ وذي ريدان عليها أو أن الملك الحضرمي استولى على الحكم إثر ثورة قام بها ضد السبئيين والحميريين أو ضد الأسرة الحاكمة ومقاومته لها ما أدى إلى تعرض المدينة للدمار. علي: جـ٢ ص١٤٢، ١٤٨، ١٤٩.

(٣) علي: جـ٢ ص١٦٢.

(٤) المرجع نفسه: ص١٥٤.

مملكة قتبان

١٠٠٠ ـ ٢٥ق.م

قامت مملكة قتبان في الأقسام الجنوبية الغربية من الجزيرة العربية، في النواحي الغربية من اليمن، إلى الجنوب من بلاد السبئيين، وعلى تخوم حضرموت، وامتدت أراضيها حتى بلغت باب المندب، وحجبتها عن البحر مملكة أوسان الصغيرة، عاصمتها مدينة تمنع، تمنا، وهي كحلان الحالية في وادي بيحان، التي اشتهرت قديماً بخصوبتها وكثرة مياهها وبساتينها، ولا تزال آثار الري القديمة ظاهرة فيها إلى اليوم[١].

لم تصل إلينا، عبر المصادر العربية، أخبار ذات قيمة عن مملكة قتبان، وكل ما تضمنته لا يخرج عن ذكر موضع بهذا الاسم بالقرب من عدن، وأن قتبان بطن من رعين من حِمير[٢]، وفي ذلك خلط في النسب بين قتبان وحِمير، ويبدو أن مرد ذلك يعود إلى ضعف مملكة قتبان في أيامها الأخيرة واندماجها في دولة سبأ وذي ريدان، المعروفة بالدولة الحِميرية، ولأن حِمير كانت القبيلة الرئيسة في اليمن عند ظهور الإسلام، ثم إن الحضارة الحِميرية كانت علماً على كل شيء في العربية الجنوبية قبل الإسلام بحيث تلاشت حضارات الممالك الصغرى التي ظهرت في اليمن في العصر الجاهلي[٣]. ويعود الفضل إلى ما وصل إلينا من أخبار عن هذه المملكة إلى النقوش والكتابات القتبانية المكتشفة، وهي تتضمن عبارات ونصوصاً عن حضارة هذه المملكة التي عاصرت كلّاً من الدولتين السبئية والحِميرية، وشهدت سقوط الدولة المعينية، بالإضافة إلى أسماء عدد من ملوكها.

إن التاريخ القتباني، الذي يستطيع الباحث الأخذ به والاعتماد عليه، يعود إلى القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد، استناداً إلى أقدم نص قتباني، ويُعدُّ مرحلة انتقال في تاريخ قتبان، إذ يبدأ بعده عصر المكربين الذين حكموا قتبان قروناً عدة من خلال حكم الأسر.

---

(١) علي: جـ٢ ص٢٢٢، ٢٢٣.

(٢) ابن منظور: جـ١٣ ص١٨٣.

(٣) فخري، أحمد: اليمن، ماضيها وحاضرها: ص٥٣.

حكمت الأسرة الأولى بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد، ومن أشهر ملوكها: يدع أب ذبيان، الذي وسَّع المملكة ومدَّ حدودها حتى بلغت حدود سبأ، واستولى على إقليم مراد، وهذا يُفسِّر اهتمامه بشق الطرق ليربط أطراف مملكته، ولعل أشهر طريق شيَّده هو المعروف باسم مبلقة ويصل تمنع بأطراف المملكة، كما وضع أصول التشريعات القانونية. وكان مجلس المملكة المعروف باسم المزود، والذي يتألف من رؤساء المدن والقبائل، يقوم بوضع القوانين ثم يعرضها على الملك لإقرارها وإعطاء الأمر بتنفيذها. ومن بين أهم النصوص التي عُثر عليها مكتوبة في مدينة تمنع، تلك التي ذكرت اسم الملك شهر هلال بن ذرأ كرب، وهو من ملوك قتبان المتأخرين، وذلك بمناسبة إصداره قانوناً لشعبه، نظَّم من خلاله علاقة الملك بالشعب، ووضع قواعد استغلال الأراضي وتعيين العمال عليها، فضلاً عن الإشارة إلى العقوبات التي تقع على المخالفين، وانتهى بوفاته حكم الأسرة الأولى[(١)].

وحكمت الأسرة الثانية بين عامي (٣٥٠ ـ ٢٥٠) قبل الميلاد، وأول ملوكها هو أبشيبم وابنه شهر غيلان الذي ترك كثيراً من النقوش وُجد بعضها في المدخل الثاني لمدينة تمنع. ولعل أشهر ملك أنجبته هذه الأسرة هو: شهر يجيل، الذي اعتلى العرش في عام (٣٠٠) قبل الميلاد، وهو الذي بنى معبداً للإله عم في وادي لبخ وفي مدينة ذو غيل وقوَّض عرش معين، وخلفه بعد وفاته أخوه شهر هلال بوهنعم، وهو الذي أقام المسلة التي عُثر عليها في مدينة تمنع، وانتهى بوفاته حكم الأسرة الثانية[(٢)].

وتناوب على عرش قتبان بعد ذلك، عدد من الملوك كان آخرهم يدع أب غيلان، الذي اشتهر ببناء قصر بيت يغش، وزخرفه بأسد من البرونز، وهو أقرب للفن اليوناني الذي كان سائداً في مصر وبخاصة في الإسكندرية، في عصر لم يتجاوز منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، وقد جاء في أسفل هذا الأسد نص يبين أسماء صانعيه، وينسب نص آخر هذا العمل إلى الملك شهر يجيل يوهر جب[(٣)].

استولت على عرش قتبان، بعد ذلك، أسرة ملكية ثالثة حكمت خمسة وسبعين عاماً تقريباً (١٠٠ ـ ٢٥ق.م) وأول ملوكها هوف عم بوهنعم، ثم ابنه شهر يجيل يوهر جب، وهو الذي أعاد بناء برج المدخل الجنوبي لبيت يغش، ثم ابنه ورو إل غيلان بوهنعم، ويرجح أنه أول من سك نقوداً ذهبية قتبانية، وخلفه أخوه فرع كرب يوهودع، وهو آخر ملوك هذه الأسرة[(٤)].

---

(١) حسنين: ص٢٨٦، ٢٨٧. علي: جـ٢ ص١٨٩، ١٩٣.

(٢) حسنين: ص٢٨٧.

(٣) المرجع نفسه: ص٢٨٥، ٢٨٧.

(٤) المرجع نفسه: ص٢٨٧. Philby: pp62, 63

يُعدُّ عصر الأسرتين الثانية والثالثة أزهى عصور القتبانيين، وقد خلَّفتا أهم مجموعة من النقوش نستنتج منها أن قتبان كانت في هذه المرحلة التاريخية أهم دول العربية الجنوبية، وأخضعت لسلطانها كلّاً من معين وسبأ.

استغل القتبانيون موقع بلادهم الجغرافي، بجوار باب المندب، ومجاورتهم لحضرموت التي كانت تنتج أفضل أنواع الطيب والبخور، فاشتغلوا بالتجارة وجنوا أرباحاً طائلة، وأضحت لهم قوة عظيمة كان لها شأن في القضاء على نفوذ المعينيين، كما عمل القتبانيون بالزراعة، لكن حدث، قبل الميلاد بقليل، أن تعرَّضت تمنع عاصمة قتبان لغزو شعب غير معروف فأحرقها.

مملكة أوسان

٢٣٠ ـ ١١٥ق.م

أمدتنا الكتابات القتبانية باسم شعب عاش في الركن الجنوبي من الجزيرة العربية يقال له أوسان أو أوسن، وقد أسَّس مملكة اقتطعت من مملكة قتبان بعد أن ضعفت وتراجع نشاطها السياسي، فثار الأوسانيون على القتبانيين وانفصلوا عنهم ووطَّدوا أقدامهم في جنوب غربي الجزيرة العربية، وأخذوا ينافسون سبأ من ناحية وحضرموت من ناحية أخرى، وانضمت إليهم بعض القبائل وتحالفت معهم، وسيطرت على عدد كبير من الموانئ مثل عدن وأوكليس وقنا، ما ساعدها على أداء دور مهم في حركة التجارة العالمية، حتى أن الساحل الإفريقي الشرقي عُرف لمدة باسم الساحل الأوساني[١].

إن أول ما ظهرت الملكية في أوسان كان حوالي عام (٢٣٠) قبل الميلاد، واستمرت هذه المملكة حتى عام (١١٥) قبل الميلاد، ويُرجَّح أنها كانت تتمتع باستقلال وسيادة أيام حكم السبئيين، وأن علاقات عداء كانت تقوم بين الدولتين، وعندما زالت دولة سبأ اقتسمت مملكة أوسان أراضيها مع جيرانها، ولعل أشهر من جلس على عرشها هو «يصدق إيل فرعم شرح عت». ويبدو أن الأوسانيين مارسوا فن النحت، فقد عثر على تماثيل رخامية لبعض ملوكهم، وقد كُتب على قاعدة كل واحد منها اسم الملك الذي يمثله، وهي أول تماثيل تصل إلينا من تماثيل الملوك العرب وأنْفَسَها. وقد تأثر النحاتون العرب بالفن الإغريقي المستورد عبر غزة، واستُدل على ذلك من طراز التمثال الذي نُحت ليمثل الملك، وشكل اللباس الملكي، وهو على الطراز اليوناني، في التماثيل اليونانية المنحوتة.

---

(١) Philby: p82. Periplus of the Erythean Sea p27.

مملكة سبأ

٨٠٠ ـ ٣٠ق.م

أصل السبئيين

تنتسب مملكة سبأ إلى مؤسسها عبد شمس بن يشجب الذي يرتقي بِنَسَبِهِ إلى قحطان، أحد أجداد العرب، ولُقِّب بسبأ نظراً لكثرة حروبه وغزواته، وهو أول من سبى من العرب، وغلب الاسم على المملكة والشعب(١).

بدأت المرحلة المبكرة من تاريخ سبأ في الجوف(٢)، في الشمال، ويطلق على هذا الإقليم عادة، في النقوش الأشورية، «بلاد عريبي»، وكان وطناً لكثير من الملكات في العهد الأشوري.

وورد لفظ سبأ في نقش معيني يشير إلى أن قبيلة بدوية كانت تسطو على الطريق التجاري الممتد بين بلاد العرب الجنوبية ومعان الواقعة في شمالها، وتهاجم القوافل المعينية القادمة من مصر، ونجد الحالة نفسها، في العهد القديم، لصوصاً سبئيين يسطون على رعاة أيوب ويقتلونهم(٣). وجاء ذكر السبئيين في النقوش الأشورية التي ترجع إلى أيام الملوك تغلث فلاسر الثالث وسنحاريب (٧٠٤ ـ ٦٨٨ق.م)، وأسر حدون (٦٨١ ـ ٦٦٩ق.م)، بما يشير إلى أن هؤلاء فرضوا الجزية على ملكي سبأ يثعمر وكرب إيلو(٤). ويبدو أن المقصود بحكام سبأ هم أولئك المقيمون في ديدان ومعان وتيماء.

---

(١) وهب بن منبه: كتاب التيجان في ملوك حِمير: ص٤٨.

(٢) الجوف: المطمئن من الأرض، ويُطلق على أمكنة عدة. فدرب الجوف بالبصرة، والجوف أيضاً أرض لبني سعد، وجوف بهدا باليمامة. والجوف: اسم واد في أرض عاد فيه ماء وشجر. الحموي: جـ٢ ص١٨٧، ١٨٨.

(٣) العهد القديم: سفر أيوب: الإصحاح الأول/ الآية ١٥.

(٤) هومل: ص٧٦. أوليري: ص١٠٤.

حظيت سبأ باهتمام الكتَّاب الإغريق والرومان بوصفها إحدى دول جنوبي الجزيرة العربية المصدرة للطيوب والعطور، وأنها تُنتج اللبان والمر والقرفة، وتنمو شجرة البلسم على شواطئها[1].

ومن الإشارات القديمة المكتوبة التي تحدثت عن سبأ أيضاً، تلك التي وردت في العهد القديم، وذكرت أن بني سبأ كانوا يُزوِّدون الشام ومصر بالطيب وبخاصة اللبان، ويُصدِّرون إليهما الذهب والأحجار الكريمة، وأن ملكة سبأ زارت سليمان في القدس، وحملت إليه الطيب والذهب الكثير والأحجار الكريمة[2].

والراجح أن السبئيين كانوا شعباً بدوياً يتنقَّل بين شمالي الجزيرة العربية وبين جنوبها قبل أن يستقروا في بلاد اليمن حوالي عام (٨٠٠ق.م) نتيجة لضغط الأشوريين عليهم من الشمال[3]، فاستغلوا ضعف المعينيين وتوسعوا على حسابهم، ولما قوي أمرهم، قضوا على الدولة المعينية، وأقاموا دولة لهم على أنقاضها، وورثوا لغتها وديانتها، وتقاليد شعبها، وخلفوهم في الاشتغال بنقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق، حتى أضحوا في القرون الأولى قبل الميلاد أعظم وسطاء التجارة العالمية.

ويبدو أن السبئيين سلكوا طريقين رئيسين في ارتحالهم نحو الجنوب:

الأول: الطريق الذي تسلكه القبائل البدوية عادة والذي يمتد في الأراضي الزراعية على طول الشاطئ الغربي للجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب.

الثاني: الطريق الذي يمتد على طول الساحل الغربي للخليج العربي حتى عُمان وحضرموت؛ أي باتجاه طريق اللبان الشرقي.

ومن الطبيعي أن يكون بنو سبأ أو أجدادهم قد لزموا المناطق الغربية ومناطق الساحل، بفعل أنها أنسب المناطق للاستقرار نظراً لجودة تربتها ووفرة مياهها.

مراحل الدولة السبئية

تدرَّج بنو سبأ في الحكم من الإمارة والكهانة إلى الملك الواسع الذي يسعى للتجارة وتجميع الثروة، وبسط الهيمنة السياسية، فأنشأوا، في بداية حياتهم

---

(١) Theophrastus: Enquiry into plants. Bk9 pp235 - 237. Strabo: Geography Bk16 p314.

(٢) سفر الملوك الأول: الإصحاح ١٠/ الآية ١٠، ١١. سفر حزقيال: الإصحاح ٢٧/ الآية ٣٣، ٣٤.

(٣) هومل: ص٧٦. سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ العرب في عصر الجاهلية: ص١٣٤.

السياسية، إمارة صغيرة ما لبثت أن أضحت مملكة تتمتع بنفوذ قوي على ما جاورها من ممالك، ولا يعود ذلك إلى قوتها العسكرية بقدر ما كان لها من سيطرة تجارية وأراضٍ زراعية حقَّقت لها ازدهاراً وثراء[١]. فقد سيطرت سبأ على الطريق التجاري الذي يربط الجنوب بالشمال، وأضحى لها نفوذ واسع يمتد من اليمن جنوباً إلى نجد وشمالي الحجاز، كما سيطرت على طريق التجارة العالمية الذي يربط جنوبي الجزيرة العربية ببلاد الشام ومصر. وكانت حكومة سبأ ترسل حكاماً يقيمون في الواحات الشمالية التي تقع على هذا الطريق إلى جانب حاميات عسكرية، لتضمن بقاء هذه المحطات التجارية.

مرَّت الدولة السبئية، استناداً إلى النقوش السبئية المكتشفة، بمرحلتين تاريخيتين متتاليتين تتميز كلٌّ منهما بألقاب ملوكها:

الأولى: مرحلة المكربين، وهي مرحلة تلقب فيها حكامها بلقب مكرب سبأ[٢] واتخذوا مدينة صرواح الواقعة غربي مأرب عاصمة لهم، وتمتد بين عامي (٨٠٠ ـ ٦٥٠ق.م).

الثانية: مرحلة الملوك، وهي مرحلة تلقب فيها حكامها بلقب ملك سبأ، واتخذوا مدينة مأرب عاصمة لهم، وتمتد بين عامي (٦٥٠ ـ ٣٠ق.م).

مرحلة المكربين: ورث السبئيون المعينيين وأضحوا سادة البلاد العربية الجنوبية، وكان حاكم البلاد يُسمى مكرب ويقوم بدور الملك والكاهن معاً، ويدل ذلك على مدى القداسة التي اعتمد عليها الحكام السبئيون في حكم دولتهم. ويتراوح قيام الدولة بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد[٣]، وما ورد في القرآن الكريم من ذكر ملكة سبأ وعلاقتها بالنبي سليمان، أي في القرن العاشر قبل الميلاد، فالراجح أنه يعني السبئيين الذين كانوا يسكنون آنذاك في شمالي الجزيرة العربية.

تمكَّن العلماء من جمع أسماء زهاء سبعة عشر مكرباً وردت في النقوش العربية الجنوبية، أولهم «سمه علي» (٨٠٠ ـ ٧٨٠ق.م) مؤسس الدولة، وقد قاد قبيلته من الفيافي والقفار إلى الأرض السعيدة التي تفيض لبناً وعسلاً، واتخذ مدينة صرواح عاصمة لدولته، وكان هذا الكرب يُقدم البخور باسمه ونيابة عن قبيلته للإلٰه ألمقة، إلٰه القمر[٤]، وخلفه ابنه «يدع إيل ذريح» (٧٨٠ ـ ٧٦٠ق.م) وقد بنى معبداً للإلٰه

---

(١) يشير القرآن الكريم إلى ثراء سبأ الذي حقَّقته عن طريق الزراعة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ/ ١٥].

(٢) مكرب أي المقرب من الآلهة والناس، أو الوسيط الذي يُقرب بين الآلهة والناس.

(٣) Philby: p32.

(٤) Ibid: p35.

ألمقة في مدينة صرواح، كما شيَّد معبداً آخر لهذا الإلّه في مأرب، وقدَّم القرابين إلى الإلّه عثتر[1].

وتوالى على حكم سبأ عدد من المكربين قاموا بأعمال إنشائية وعمرانية مثل بناء السدود. فقد بنى «سمه علي ينف بن ذمر» الذي حكم عام (٦٦٠ق.م) سد رحاب، وهو جزء من المشروع المعروف بسد مأرب الذي وسَّع الأراضي الزراعية في مأرب، وزاد من ثروة أهلها، ومع ذلك، لم يفِ بجميع حاجات الأراضي المزروعة، ولذلك عمد «يثعمر أمر بين بن سمه علي ينف» إلى زيادة سد رحاب طولاً وعرضاً وارتفاعاً، وأقام سداً أكبر منه يُعرف بسدِّ حبابض[2]، وأضحت مدينة مأرب نتيجة ذلك مقراً لكبار الملاك والفئات الغنية والمتنفذة، ما هيأ لنقل العاصمة لاحقاً من صرواح إليها.

ويُنسب إلى «يثع أمر بن يدع إيل ذريح» بناء معبد الإلّه ألمقة في بلدة دابر، الواقعة بين مأرب ومعين في الجوف، ونستدل من الموضع الذي أُقيم فيه هذا المعبد، أن السبئيين اصطدموا بالمعينيين، وانتصروا على قبائل في نجران، وقتلوا عدداً من أفرادها مثل: المحامر وعامر وأوهاب[3].

كان كرب إيل وتر آخر الحكام المكربين، وقد دُوِّنت أعماله في كتابة صرواح، الوثيقة التاريخية التي تقص أخبار سبأ وتتضمَّن ما قام به من حروب التوسع التي قضى فيها على استقلال ممالك وإمارات في العربية الجنوبية أو أخضعها لحكم سبأ. والواقع أن هذا المكرب خالف سياسة أسلافه القائمة على البناء والزراعة، واتبع سياسة عسكرية قائمة على قاعدتين:

الأولى: التوسع على حساب جيرانه.

الثانية: السيطرة على طرق التجارة الدولية.

وساعدته الظروف السياسية السائدة آنذاك على تحقيق طموحه، ذلك أن مصر كانت لا تزال تحت تأثير غزو الأشوريين لها في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، وكانت أشور من جهتها منهمكة في الحروب مع البابليين والكاشيين، كما أن بابل كانت تواجه ثورات اليهود في فلسطين، ما منع هذه الدول الكبرى من التدخل في الشؤون العربية.

ففيما يتعلق بالقاعدة الأولى، فقد تحالف كرب إيل وتر مع ملكي حضرموت وقتبان ضد خصومه المعينيين والأوسانيين، ثم هاجم دولة معين وغزا نشان والمناطق

---

(١) فخري، أحمد: الاكتشافات الأثرية في اليمن: ص٢٥٥ ـ ٢٦٦.

(٢) Philby: p39.

(٣) Ibid: pp40, 41.

المجاورة لها والمتحالفة معها في الشمال، وقضى عليهم جميعاً، ثم توجَّه إلى أوسان في الطرف الجنوبي الغربي من اليمن، وكانت تسيطر على الطرق التجارية في المنطقة، فهاجمها وانتصر عليها وعلى القبائل المتحالفة معها[١].

وطَّدت حروب التوسع سلطة الزعيم السبئي في العربية الجنوبية، وعزَّزت نفوذه على القبائل المعارضة، ما دفعه إلى طرح لقب مكرب وتلقب بلقب ملك، ويعني ذلك أنه استأثر بالسلطة واستبدَّ بها. وألحقت حروبه أضراراً بالغة في اقتصاد المناطق التي أخضعها، ما أدى إلى تدهور أوضاعها واندثار كثير منها بسبب إحراق المدن والقرى أو تخريبها وتدميرها ومقتل أهلها أو هلاكهم. وتشير كتابة صرواح إلى حجم الأراضي وعدد المواشي والأموال النفيسة وإلى عشرات الآلاف من الأسرى وغير ذلك من الغنائم التي سجلها باسمه، أو باسم أفراد أسرته وأقربائه ومقربيه أو باسم الحكومة أو باسم ألمقة وعثتر[٢].

وفيما يتعلق بالقاعدة الثانية، فإنه نتيجة لهذا التوسع على الأرض، وبفعل وقوع سبأ في الركن الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية، المطلة على سواحل البحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندي، سيطر الملك السبئي على طرق تجارة البخور والتوابل الآتية من الشرق والشمال، وظهرت سبأ بين القرنين السابع والرابع قبل الميلاد كأكبر قوة تجارية في العالم القديم، فقد كان أسطولها التجاري الكبير يُزوِّد معابد مصر بالبخور والطيوب من اليمن، والحرير والتوابل من الهند.

كان المكربون يمارسون إلى جانب السلطة الزمنية، سلطة دينية بوصفهم كهاناً، ويبدو أن كرب إيل وتر أراد التفرغ لممارسة السلطة السياسية، لذلك، وبعد أن سيطر على كامل بلاد اليمن، غيَّر لقبه ولقَّب نفسه بلقب ملك سبأ، واقتدى به من أتى بعده من الحكام، وحملوا إلى جانب أسمائهم ألقاباً تدل على الفخامة مثل: وتر، وتعني العظيم، وبيين، وتعني الممتاز، وذرح، وتعني الشريف، ويهنعم، وتعني المحسن، وينف، وتعني السامي[٣].

مرحلة الملوك: اتخذ ملوك سبأ في هذه المرحلة مدينة مأرب عاصمة لهم كما ذكرنا، وجعلوا من قصر سلحن، سلحين، مقاماً ومستقراً يديرون منه شؤون البلاد. وازدهرت الزراعة في هذه المرحلة نتيجة التوسع في أعمال الري الاصطناعي، ونمت الحِرَف، وتوسَّعت الحركة التجارية، فكان لسبأ أسطولها التجاري الكبير، وتفوُّقها في الملاحة، ما انعكس إيجاباً على الوضع السياسي من واقع استمرار

---

(١) علي: جـ٢ ص٢٨٧ ـ ٣٠٣. Philby: pp40, 41.

(٢) المرجع نفسه. (٣) زيدان: ص١٣٩.

السبئيين في التوسع على حساب جيرانهم، وتوحيد الممالك العربية الجنوبية، وضمِّ الإمارات المستقلة، ودمجها في مملكة سبأ.

وعمد السبئيون إلى مصادرة أراضي القبائل المعارضة ومنحها لأفراد أسرهم، الأمر الذي أدّى إلى انتقال الحكم تدريجياً إلى أيدي الأسر النافذة، الأوفر ثراء، والأوسع أملاكاً، والأكثر قوة، وأضحى المال نتيجة ذلك عاملاً أساسياً للوصول إلى السلطة، كما صارت السلطة في نظر هؤلاء وسيلة لتكديس الثروات. ومنذ عام (٥٠٠ق.م) بدأت تظهر أسر قوية أدَّت دوراً فاعلاً في سياسة البلاد، نذكر من بينها: بنو فيشان، وبنو مرثد، وبنو بثع من همدان، وتمكَّنت إحداها من اغتصاب العرش من ملوك سبأ، كما ظهرت آلهة جديدة، مثل: ذو السماء أو ذو سماوي أو رب سماوي، وهي أسماء تعكس تطوراً خطيراً في حكومة سبأ وتغيُّراً هاماً في السياسة والدين والنظم الاجتماعية(١).

وبدأ مركز سبأ التجاري يهتز، منذ القرن الرابع قبل الميلاد بفعل عاملين خارجي وداخلي:

فيما يتعلق بالعامل الخارجي، فقد ظهرت في مصر قوة البطالسة التي احتكرت التجارة الشرقية ما أثر سلباً على مركز سبأ التي فقدت الكثير من مكانتها التجارية في البحرين الأحمر والأبيض المتوسط، قبل أن تفقدها نهائياً لصالح اليونانيين والرومان(٢).

وفيما يتعلق بالعامل الداخلي، فقد واجهت سبأ ثورات داخلية عاتية بسبب سياسة ضمِّ الإمارات المستقلة، وتوحيد القبائل تحت سيادتها، ذلك أن هذه السياسة اصطدمت بالمصالح الشخصية للزعامات المحلية التي عزَّ عليها أن تتنازل عن استقلالها، وقد نتج عن ذلك اضطرابات عنيفة وثورات داخلية أثَّرت سلباً على الوضعين السياسي والاقتصادي للدولة، وأتاحت للدول الأجنبية التدخل في شؤونها، غير أن صحوة عابرة انتابت القيِّمين على الدولة في القرن الأول قبل الميلاد، فظهر في مأرب ملوك كان لهم شأن كبير مثل: علهان نهفان وابنه شعرا وتر، وقد خاضوا حروباً واسعة ضد الحبشة المتوثبة للسيطرة على السواحل اليمنية تمهيداً للتمدد نحو الداخل، وحِمير وحضرموت ومملكة كندة، التي حاولت استعادة حريتها واستقلالها عن الدولة السبئية، وتوسعوا شمالاً على حساب المدن المعينية التي كانت تمارس حياتها السياسية كدول مدينية مستقلة(٣).

ويبدو أن خلفاء شعرا وتر كانوا ملوكاً ضعافاً، فشلوا في المحافظة على

---

(١) سالم: ص١٣٩. (٢) المرجع نفسه.

(٣) النعيم، نورة: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية: ص٣٨، ٣٩.

المنجزات المكتسبة، وإعادة الوحدة إلى المملكة، ومنع القبائل المتصارعة على العرش من الاقتتال. وتُسجل الأيام الأخيرة من حياة الدولة السبئية قيام نزاع خطير حول العرش السبئي كان له أثر سيئ فيما أصاب البلاد من خراب ودمار وتحوُّل كثير من الأراضي الزراعية إلى أراضي جرداء قاحلة. وفي غمرة هذا الصراع حاول الريدانيون[1] والحِميريون استغلاله لصالحهم، وتمكَّنوا في النهاية من انتزاع العرش السبئي في عام (٣٠) قبل الميلاد، وأسسوا أسرة جديدة تلقَّب ملوكها بلقب «ملوك سبأ وذي ريدان».

(١) الريدانيون: قبيلة عربية جنوبية كانت تسكن قرب الساحل الجنوبي للجزيرة العربية إلى الشمال من حضرموت، في حين كان الحِميريون، وهم قبائل عربية جنوبية أيضاً، يسكنون إلى الغرب من حضرموت. سالم: ص١٣٩ هامش رقم ٢.

المملكة السبئية ـ الحِميرية: ملوك سبأ وذي ريدان

٣٠ق.م ـ ٣٠٠م

شهد اليمن عهداً جديداً، بدءاً من عام (٣٠ق.م)، تمثَّل بخلع ملوك سبأ لقبهم القديم، واستبدلوا به لقباً آخر هو «ملك سبأ وذي ريدان»، إشارة إلى ضمِّ ريدان إلى مُلك سبأ، وأول من تلقَّب بهذا اللقب «اليشرح يحضب» مؤسس الدولة السبئية ـ الحِميرية، لكن تاريخ هذه المرحلة يبقى مضطرباً نظراً لما تخلَّله من صراع عنيف على السلطة بين سادات القبائل المختلفة، كما وُجد أكثر من شخص، من سبأ وحِمير، حمل اللقب المشار إليه في الوقت نفسه. وقد أضعفت هذه الحروب البلاد ومزَّقتها، وأتاحت للرومان والأحباش التدخُّل في شؤونها. وفعلاً تعرَّضت بلاد العرب لحملة رومانية بهدف السيطرة على طرق التجارة الشرقية وانتزاع بعض الموانئ العربية الجنوبية، ذلك أن الامبراطور الروماني أوغسطس قيصر لم يكن أقل طموحاً إلى السيطرة على الطرق التجارية من معظم خلفائه، ولذا لم يكن أقل شكوى من ثراء التجار العرب، ورأى أنه بدلاً من أن ينتظر التاجر اليوناني أو الروماني أن تأتيه البضائع الثمينة من أسواق مصر أو بلاد الشام، محملة على سفن عربية أو على ظهور جمال القوافل، وهي بأسعار عالية، يُبحر هو بنفسه إلى المحيط الهندي عبر البحر الأحمر حتى سواحل أفريقيا أو جنوبي الجزيرة العربية أو الهند، ويتولى مهمة الشراء مباشرة من المصدر بأسعار زهيدة، لذلك قرَّر في عام (٢٥ق.م) أن يرسل حملة إلى داخل الجزيرة العربية لتستولي على التجارة البرية والموانئ اليمنية، وكلَّف عامله على مصر إيليوس غالوس بقيادتها ووضع تحت تصرفه ألف جندي(١).

انطلقت الحملة من ميناء لويكي كوما، المدينة البيضاء، العقبة، الذي يقع في أقصى شمال الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر، وقدَّم الملك النبطي عبادة الثاني المساعدة للحملة، وعيَّن وزيره صالح دليلاً لها في أرض العرب.

---

(١) Philby: pp100, 101.

سلكت الحملة طريق القوافل البري عبر الحجاز إلى وادي حريد الذي تتوافر فيه المياه باستمرار، ثم تقدمت نحو الجنوب واحتلت بعض المدن والقرى ونهبتها مثل: نجران ونشق ويثيل، ووصلت إلى مأرب بعد ستة أشهر من دون أن تلقى مقاومة تذكر. والمعروف أن حكومة «سبأ وذي ريدان» لم تكن قوية، ولا كانت تملك جيوشاً منظمة ومدربة تدريباً جيداً، لذلك لم يجر التحام بين الطرفين، لكن الجنود الرومان تعرَّضوا لمتاعب كثيرة مثل: شدة الحرارة، ووعورة الطريق، وقلة المياه، ما أهلك أكثرهم وأجبر الباقين على العودة أدراجهم[١].

والواقع أن الجنود الرومان تعرَّضوا لكارثة أُلقيت تبعيتها على عاتق صالح النبطي، الذي اتُهم بالخيانة وسوء المشورة والسعي عمداً إلى إهلاك الجنود الرومان[٢]. وتُعد هذه الحملة أول وأخطر اتصال مباشر بين روما الأوروبية وممالك العربية الجنوبية.

ويبدو أن سياسة روما بعد هذا الفشل التام قد تبدَّلت من دون أن يتغيَّر الطموح إلى بلوغ المحيط الهندي، فلم يعد أوغسطس قيصر يفكر في غزو الجزيرة العربية غزواً برياً مباشراً، بل انكفأ إلى تقوية أسطوله في البحر الأحمر وتحسين علاقاته بسادة القبائل العربية، للمحافظة على مصالح روما الاقتصادية وقدرتها على بلوغ المحيط الهندي. وتثبيتاً لهذه النظرة السياسية الجديدة عقد تحالفاً مع ملك ظفار، واتفاقات صداقة مع مملكة أكسوم الحبشية[٣]، لزعزعة كيان مملكة سبأ التي كانت تسعى إلى إبقاء التجارة البرية في يدها ويد حلفائها، ولم يكن الحِميريون وحدهم في وضع مناسب لتحقيق هذا الهدف، بل كانت نجران أيضاً الثائرة على مُلك السبئيين بتحريض من الحبشة[٤].

كانت الدولة السبئية ـ الحِميرية أقرب إلى الدول الفاتحة من دولتي معين وسبأ، ولكن الإخباريين العرب بالغوا في وصف فتوحها التي بلغت الشرق والغرب، إلى ما يتعدَّى التصديق، إلّا أن هذا الوصف يعطينا صورة واضحة عن مدى الاتساع الذي بلغته هذه الدولة، وبخاصة في عهد الملك ناشر النعم، ويُعد عهدها مرحلة تمهيدية لانتقال السلطة إلى أيدي الحِميريين وتفردهم بها.

---

(١) Philby: pp100, 101. Strabo: Geography Bk16 p23. سحاب: ص٥٢، ٥٣. علي: جـ٢ ص٣٨٦.

(٢) Philby: Ibid. Strabo: Ibid.

(٣) علي: جـ٢ ص٥٩، ٦٠. Periplus: p30.

(٤) المرجع نفسه: ص٤٣٨ ـ ٤٤١.

المملكة الحِميرية

٣٠٠ ـ ٥٢٥م

أصل الحِميريين

ينتسب الحِميريون إلى حِمير بن عبد شمس، سبأ، بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وزعم النسابون أنه كان ملكاً، تولى الملك بعد هلاك أبيه سبأ بن يشجب، وهو أول من وضع على رأسه تاجاً من ذهب، من ملوك اليمن، وقد حكم خمسين عاماً وخلف ستة أولاد تفرَّعت منهم قبائل حِمير(١).

كان الحِميريون، وهم من القبائل العربية المعروفة في العربية الجنوبية، عند الميلاد، أتباعاً للقتبانيين، يؤدون لهم الجزية، ويعترفون بسيادة ملوكهم عليهم، ولم يبرز اسمهم إلّا بعد أن تحالفوا مع قبائل أخرى مثل: ذياب، فأضحوا قوة وأصبح لهم نفوذ، وشرعوا في توسيع أراضيهم مستغلين فرصة ضعف حكومة السبئيين(٢)، فسيطروا، في النصف الأول من القرن الأول الميلادي، على القسم الجنوبي الغربي من العربية الجنوبية، ولا سيما مدينة ظفار وحصنها الشهير المعروف بريدان أو ذي ريدان الذي يرمز إلى ملك حِمير، ويحمي العاصمة من غارات الأعداء، وهو بيت الملوك وقصرهم أيضاً(٣).

تطلع الحِميريون، بعد أن أضحوا ذي بأس، إلى التوسع على حساب جيرانهم فهاجموا حضرموت، وضايقوا تجارها لا سيما على طريق شبوة ـ قنا المؤدي إلى المدن الجنوبية والساحل، كما لم تكن علاقتهم بسبأ طيبة، وهي بمعظمها نزاع وخصومة، واستطاعوا الاستيلاء على مأرب أكثر من مرة، وتلقب ملوكهم بلقب «ملك سبأ وذي ريدان» واحتفظوا بهذه اللقب الجديد حتى بعد أن أُخرجوا من سبأ. وهكذا وُجد حاكمان يحملان هذا اللقب في الوقت نفسه، كما ذكرنا، أحدهما سبئي والآخر حِميري، وهذا يعني أن عرش المملكة شهد تناوب ملوك سبئيين

---

(١) ابن قتيبة: ص٣٤٥. اليعقوبي: جـ١ ص٢٣٩. ابن خلدون: جـ٢ ص٤٧.

(٢) علي: جـ٢ ص٥١٢.

(٣) المرجع نفسه: ص٥١٦.

وحِميريين إلى أن سيطر هؤلاء على البلاد في عام (٣٠٠م)[١].

عُرف ملوك حِمير بالتبابعة، واحدهم تبع[٢]، وورد خبر تبع في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان/٣٧]. قد يكون المراد بقوم تبع قبيلة عربية حلَّت بها نكبة طبيعية في عهد لا يبعد كثيراً عن ظهور الإسلام، أو أتباع تبع الأكبر شمر يهرعش، يرعش، الذين أهلكهم الغزو الحبشي لليمن في عام (٣٤٠م)، مع العلم بأن كلمة تبع لم ترد في نصوص المسند، وقد نُعت ملوك حِمير فيها بلفظ ملك.

وجاء ذكر قبيلة حِمير في مؤلفات مؤرخي اليونان والرومان، وذكروا أن مساكنها تقع بين سبأ والبحر، وهناك ما يشير إلى أن الحِميريين كانوا قبائل يسكنون في المنطقة الواقعة حول لحج، بناحية ظفار ورداع، وناحية الشرق في سرو حِمير ونجد حِمير، في المرتفعات والمناطق الساحلية للبحر الأحمر والمحيط الهندي، وتمتد بين أبين شرقاً ووادي بنا شمالاً في ولاية يفع الحالية[٣]، واتخذوا ظفار عاصمة لهم، وكان المقر الملكي فيها يُدعى ريدان، أو أن ظفار هي ريدان، ولذا لُقِّبوا ببني ريدان، ولم يُعرفوا ببني حِمير إلّا في وقت متأخر يرجع إلى عام (٢٠ق.م)[٤]، وظلَّت ظفار أهم بلاد اليمن حتى الاحتلال الحبشي في عام (٥٢٥م).

قيام الدولة الحِميرية

أسَّس الملك شمر يهرعش بن ناشر النعم (٢٧٠ ـ ٣١٠م) الدولة الحِميرية، وقد سار على خطى والده في التوسع والفتوح، ونجح في ضم مناطق جديدة إلى مملكته، منها حضرموت وتهامة ويمنات والجبال التي تحيط ببلاد اليمن، واتخذ عن جدارة لقب «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وعربهم في الجبال وفي التهامة»، وينسب إليه الإخباريون فتوحاً كبيرة خارج نطاق الجزيرة العربية، لا أساس لها من الصحة، إلّا أنها تُنبئ عن بعض الأعمال العسكرية الناجحة التي قام بها لفرض نفوذ الحِميريين على شواطئ أفريقيا الشرقية بعامة وساحل أزانيا بخاصة، ثم

(١) دلو: ج٢ ص٣١٧، ٣١٨.

(٢) ذكر أهل الأخبار أنهم سموا تبعاً وتابعة لأنهم يتبعون بعضهم بعضاً، كلما هلك واحد قام مقامه آخر تابع له على مثل سيرته، أو لأن التبع ملك يتبعه قومه ويسيرون خلفه تبعاً له، أو لكثرة أتباعه، أو من التتابع، وذلك لتتابع بعضهم بعضاً. ابن منظور: ج٨ ص٣١.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: ج٨ ص١١٤.

(٤) زيدان: ص١٤١. سوسة، أحمد: العرب واليهود في التاريخ: ص٣٠٢. النعيم: ص٣٩
Philby: p104.

إن النفوذ التجاري، الذي بلغته الدولة في عهده، كان كبيراً بحيث أن قوافلها التجارية كانت تجوب الصحراء شمالاً حتى أعالي الرافدين، وشرقاً حتى حدود الصين، وغرباً إلى مصر، كما أن أسطولها البحري التجاري كان يتنقَّل بين موانئ العالم القديم منافساً أساطيل اليونان والرومان والأحباش، ومتفوقاً عليها جميعاً[(١)].

وترك هذا الملك مآثر عميقة في أذهان الأجيال التي تعاقبت على اليمن حتى ظهور الإسلام، ذلك أنه «لم يقم للعرب قائم قط أحفظ لهم منه، فكان العرب جميعاً، بنو قحطان وبنو عدنان، شاكرين لأيامه، وكان أعقل من رأوه من الملوك وأعلاهم همة وأبصرهم غوراً وأشدهم مكراً لمن حارب، فضربت به العرب الأمثال»[(٢)].

وكان هذا الملك نشيطاً في المجال التشريعي الذي يُلقي الضوء على بعض المشكلات الاجتماعية. فقد سنَّ لأهل سبأ، مأرب، تشريعاً حدَّد فيه نظام بيع المواشي والرقيق، والمدة اللازمة التي يجوز فيها إرجاع المبيع إلى البائع قبل أن يصبح البيع نهائياً، وهي مدة شهر، كما حدَّد مدة التراجع بين البائع والمشتري بين عشرة أيام وعشرين يوماً، وأكَّد على أن مدة الضمان للحيوان المباع سبعة أيام، فإذا هلك بعدها وجب على المشتري دفع ثمنه كاملاً[(٣)].

الاحتلال الحبشي الأول لليمن

قيام مملكة أكسوم (الحبشة)

يتحكم اليمن باثنين من الطرق التجارية العالمية الثلاث الآتية من الهند هما: طريق البحر الأحمر إلى جنوبي فلسطين ومصر، وطريق القوافل البرية، لذا كانت السيطرة على اليمن تحقق مصلحة تجارية وأخرى سياسية. وكما ارتبط تاريخ اليمن بتاريخ بلاد الشام ارتباطاً وثيقاً، لوقوعهما على الطرفين الجنوبي والشمالي للجزيرة العربية، ارتبط تاريخ اليمن أيضاً بتاريخ بلاد الحبشة بفعل وقوعهما على ضفتي المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، وازدادت العلاقة بين الشعبين وثوقاً بفعل هجرات جماعات عربية يمنية باتجاه الغرب، عبر العصور، كانت تعيش على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية، شرقي حضرموت، وقد عبرت مضيق باب المندب واستوطنت المناطق المقابلة لليمن على ساحل البحر الأحمر من القارة الأفريقية. وتمكَّن هؤلاء العرب الجنوبيون من تأسيس مستعمرة تجارية على الشاطئ الأريتري لم يلبث أن امتد نفوذها إلى هضبة الحبشة على حساب الشعوب الكوشية التي كانت

(١) زيدان: ص١٤٤.

(٢) وهب بن منبه: ص٢٢٢.

(٣) Philby: p110.

تعيش في هذه البلاد، وقد حملوا معهم ثقافتهم وحضارتهم الساميَّة، وامتزجوا بالقبائل الكوشية، وتوحدوا معها، لكنهم ظلوا على ما يبدو يتطلعون إلى موطنهم الأصلي، وكانت المصالح التجارية والسياسية دافعاً قوياً لاستثمار ذلك كلما سنحت الفرصة، ونجحت هذه الجماعات في تأسيس مملكة أكسوم[١].

وتطلعت روما، منذ القرن الأول للميلاد على الأقل، صوب سبأ ومدنها التجارية، فتحالفت مع الأحباش لتحقيق مصالحها في اليمن بعد أن اعترض اليمنيون السفن الرومانية، واستولت على بعض الأماكن في اليمن في عهد الامبراطور كلاوديوس (٤١ ـ ٥٤م).

وازدهرت مملكة الحبشة في القرن الثالث الميلادي، وأخذت في النمو والتوسع على حساب المناطق المجاورة في الشمال والجنوب والشرق. وما جرى من دخول النصرانية في هذه المرحلة إلى المملكة واعتناق ملكها عيزانا (٣٢٠ ـ ٣٤٢م) هذه الديانة؛ أن أضحت الدين الرسمي للبلاد[٢].

ولم يمض عشرة أعوام على انتشار النصرانية في الحبشة حتى أقيم في أكسوم أول أسقف ويدعى فرومنتيوس، وكان المبشرون السوريون النصارى في الوقت نفسه يقومون بنشر النصرانية في اليمن[٣].

دخول الأحباش إلى اليمن وخروجهم منها

يلف الغموض المدة الزمنية بين وفاة شمر يهرعش والاحتلال الحبشي الأول لليمن وريدان، بل إن خبر هذا الاحتلال لم يُعرف إلّا من كتابات عُثر عليها في أكسوم عاصمة مملكة الحبشة، وقد تلقَّب ملكها أفيلاس، في هذه الكتابات، بلقب «ملك أكسوم وحِمير وذي ريدان والحبشة وسبأ وسلحين وتهامة والبجاء وكسو»[٤].

والواقع أن القرن الرابع الميلادي بدأ في اليمن باجتياح حبشي في عهد النجاشي «العلي إسكندي» بفعل دافعين، إذا استثنينا الدافع الديني الذي لم يكن له أي دور في ذلك، هما الدافع الاقتصادي والدافع التأديبي.

ففيما يتعلق بالدافع الأول، فقد نهضت الحبشة للدفاع عن مصالحها الاقتصادية في وجه الوثبة الحِميرية للسيطرة على طرق التجارة الشرقية، ومهاجمة الحِميريين التجارة الحبشية.

---

(١) سالم: ص١٤٦، ١٤٧. سحاب: ص١١٩.

(٢) Moscuti, Sabatino: Histoire et Civilization des Peuples Sémitiques. p216.

(٣) Philby: p112.

(٤) زيدان: ص١٤٧. تُعرف هذه الكتابات بنقش أدوليس، إحدى مدن مملكة أكسوم الحبشية.

وجاء الدافع الثاني رد فعل على سيطرة الحِميريين على ساحل أزانيا في القرن الأول الميلادي، فأراد الأحباش تأديب هؤلاء ومنعهم من تكرار ذلك. واكتملت السيطرة الحبشية على البلاد في عام (٣٤٥م) في عهد الملك الحبشي «العلي عميدة» (٣٤٠ ـ ٣٤٨م) وتلقَّب هذا الملك باللقب المذكور، وقد حدث ذلك في عهد الملك الحِميري «يريم يرحب بن شمر يهرعش»[١] الذي فرَّ مع أولاده إلى يثرب[٢].

ويبدو أن الأحباش قد تلقوا تشجيعاً ومساندة من الامبراطور البيزنطي قسطنطيوس (٣٣٧ ـ ٣٦١م) الذي كان يهدف إلى نشر الدين النصراني في بلاد العرب، والمعروف أن الحبشة كانت آنذاك عل صلات حسنة مع البيزنطيين من الناحيتين السياسية والتجارية، واستغل الامبراطور البيزنطي ذلك لنشر النصرانية بين الأحباش أيضاً وقد نجح في ذلك. فقد تنصَّر ملك الحبشة عيزانا، كما ذكرنا، على يد المبشر فرومنتيوس[٣] الذي أوفده الامبراطور البيزنطي المذكور، ويُعد أول ملك حبشي اعتنق النصرانية، وفرض هذه الديانة على الأحباش وأعلنها ديناً رسمياً للدولة. وأوعز الامبراطور البيزنطي إلى امرئ القيس[٤] أن يهب لنصرة النفوذ الحبشي والبيزنطي في اليمن. ونجح الأحباش في دخول هذا البلد والسيطرة عليه محققين بذلك أهدافهم.

استمر الاحتلال الحبشي لليمن أقل من أربعين عاماً، إذ أخذت قبضة الأحباش على البلاد تهن وتتراجع بسبب ثورة نشبت في جنوبي الحبشة، وقد حاول الامبراطور البيزنطي أن يُدعم الاحتلال الحبشي والنفوذ البيزنطي في اليمن، فأرسل، في عام (٣٥٤م) تقريباً، تيوفيلوس الهندي من جزيرة سقطرى للتفاوض مع الحِميريين في مهمة ظاهرها ضمان حرية العبادة للنصارى الروم القاطنين في اليمن، وحقيقتها ضمان حسن معاملة اليمنيين للتجار البيزنطيين واتخاذ موقف محايد بين بيزنطية والفرس، غير أن المهمة فشلت لأن الأمراء الحِميريين كانوا يرون أن بيزنطية تساند الحبشة، عدو حِمير التقليدي.

انتهز الملك الحِميري ملكي كرب يهأمن، الثورة المشار إليها وانهماك الأحباش بإخمادها، فثار على الاحتلال الحبشي، في عهد آخر والي حبشي على اليمن ويدعى

---

(١) يرجح أن لقبه أبو مالك. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر: جا ص١١٣.

(٢) Philby: pp112, 113.

(٣) Ibid: p112.

(٤) كان امرؤ القيس أميراً على الحيرة وحليفاً للفرس، وهو من أنصار الامبراطور الفارسي بهرام الثالث، فلما وقع الخلاف بين الفرس على العرش وانتصر نرسي، خرج من العراق قاصداً بلاد الشام، ومال إلى الروم، فأقروه على عرب بلاد الشام.

سازانا، وتمكّن من طرد الأحباش واسترداد البلاد في عام (٣٧٨م)[١].

بين الاحتلالين

خلف الملك ملكي كرب، بعد وفاته، ابنه أبو كرب أسعد، وهو تبان أسعد (٤٠٠ - ٤١٥م)[٢]. ويبدو أن تطورات سياسية داخلية مهمة قد حصلت، حملته على إلحاق إضافة جديدة إلى لقب الملوك الحِميريين، فقد أضاف هذا الملك إلى لقب «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات» الذي ورثه عن والده، إضافة جديدة ألحقها في آخره هي «وأعرابها في الجبال وفي التهائم»، فصار بذلك أول ملك يحمل هذا اللقب[٣].

ولا بد أن يكون لهذه الإضافة معنى سياسي قد يتمثل ببروز قوة الأعراب، لا سيما أعراب الهضاب، وأعراب جنوبي نجد من قبائل معد وتهامة، ويبدو أنهم بدأوا يؤدون دوراً مؤثراً في سياسة العربية الجنوبية بحيث أضحى باستطاعتهم إحداث تغيير كبير في الوضع السياسي، كما كانوا يتعرَّضون للقوافل التجارية التي تسلك طريق اليمن ونجد والذي يربط شرقي الجزيرة باليمن، فتصدَّى لهم تبان أسعد وأخضعهم، وبنى حصناً في وادي مأسل وضع فيه حاميات عسكرية لحماية هذا الطريق[٤].

واستطاع تبان أسعد، بما أوتي من قوة مادية وعسكرية، أن يوسع رقعة أراضيه، فبلغ البحر الأحمر والمحيط الهندي والأقسام الجنوبية من نجد وربما استولى على قسم من الحجاز، ووطئ بجيوشه الأنبار، وأسكن قومه فيها وفي الحيرة، ثم عاد إلى اليمن، وفي ذلك يقول كعب بن جعيل بن عجرة:

وغـزا تـبـع فـي حِـمـيـر حـتـى نـزل الـحـيـرة مـن أهـل عـدن[٥]

وتبالغ روايات المصادر، فتذكر أنه غزا الترك والتيبت والصين[٦]، وهو أول من كسا الكعبة الملاء، أثناء عودته من يثرب، وجعل لبابها مفتاحاً، وأوصى ولاة البيت من جرهم بتطهيره[٧].

استمر في عهد تبان أسعد التنازع الديني في اليمن بين المعتقدات المنتشرة في ربوعه، فقد ورد اسم هذا الملك مع اسم والده ملكي كرب واسم أخيه ورو أمر أيمن

---

(١) زيدان: ص١٤٧. Philby: p114.

(٢) على الرغم من الاضطراب الشديد في معرفة سنوات حكم الملوك، وسنوات غزواتهم، فإننا نتناول سرد الأحداث بكثير من التحفظ.

(٣) علي: جـ٢ ص٥٧١.

(٤) Philby: In the Geographical Journal, Vol cxvi. no 4 - 6. 1950 p214.

(٥) الطبري: جـ١ ص٥٦٦، ٥٦٧، ٦١٢.

(٦) المصدر نفسه: ص٥٦٦، ٥٦٧.

(٧) القلقشندي: جـ٢ ص٨٩.

في نقش يرجع تاريخه إلى عام (٣٧٨م) جاء فيه أن هؤلاء جميعاً أقاموا معبداً للإلّه «ذي سموي» أي إلّه السماء، وهذا يعني ابتعاد الحِميريين عن الديانة النصرانية التي فرضها الأحباش عليهم، ومتأثرين على ما يبدو بالديانة اليهودية التي جلبها تبان أسعد معه من يثرب، على الرغم من أن هذا التعبير لا يتفق تماماً مع الديانتين اليهودية والنصرانية، ويُعد هذا الاعتقاد بوجود إلّه واحد قاهر هو رب السماء والأرض خطوة نحو التوحيد، لكن اليهودية انتشرت على أي حال في اليمن في عهد تبان أسعد، فقد دعا هذا الملك اليمنيين إلى اعتناقها ففعلوا، وهدموا بيتهم الذي كانوا يعبدونه(١).

خلف تبان أسعد بعد وفاته أخوه ورو أمر أيمن (٤١٥ ـ ٤٢٥م)(٢) وكان قد شارك أباه وأخاه في الحكم ثم انفرد به بعد وفاته(٣). وفي رواية أنه خلفه ربيعة بن نصر بن الحارث اللخمي، ولما هلك اجتمع الناس ونصَّبوا حسان بن أبي كرب تبان أسعد ملكاً عليهم (٤٢٠ ـ ٤٢٥م)، ولُقِّب مثل والده «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابها في الجبال وفي التهائم»(٤).

أراد حسان السير على خطى أجداده من التبابعة، فسار باليمنيين ليطأ بهم أرض العرب والعجم، فأغار على طسم وجديس في اليمامة، وحارب جذيمة ملك الحيرة، ويبدو أن هؤلاء كرهوا ذلك، فأغروا أخاه عمراً بقتله، فقتله وعاد بالجيش إلى اليمن، وجلس على العرش مكانه(٥). ويبدو أن عمراً قد ندم على قتل أخيه، وحزن حزناً شديداً حتى حُرِم من النوم، وتوالت عليه الأسقام، فكان لا يمضي إلى حاجة من حوائجه إلّا محمولاً على أعواد من خشب، فعُرف بذي الأعواد(٦).

وحكم الحِميريين بعد ذلك شرحبيل يعفر بن تبان أسعد، أخو حسان (٤٢٥ ـ ٤٥٥م)(٧)، وقد سجَّل هذا الملك أعماله في نقش طويل هو عبارة عن وثيقة تتعلق بتصدع سد مأرب في أيامه مرتين في عامي (٤٤٩ و٤٥١م) وترميمه، وتجديد أقسام منه، وإضافة أقسام أخرى، واستعان بحِمير وبقبائل حضرموت في عملية الترميم، فتجمَّع لديه زهاء عشرين ألف عامل، عملوا بقطع الحجارة من الجبال، وحفر الأسس، وتنظيف الأودية، وإنشاء الخزانات لخزن المياه، وعمل أبواب ومنافذ

---

(١) ابن سعيد الأندلسي: نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب: ص١٤٩.
(٢) Philby: p143. (٣) Ibid: p116.
(٤) الطبري: جـ٢ ص٨٩. القلقشندي: جـ٥ ص٢٢. زيدان: ص١٤٣.
(٥) الطبري: المصدر نفسه. القلقشندي: المصدر نفسه. الأصفهاني، حمزة: ص١٠٣.
(٦) الطبري: جـ٢ ص٨٩، ١١٦. الأصفهاني: ص١٠٣.
(٧) زيدان: ص١٤٣. وعند الأصفهاني أن عبيد كلال بن مثوب خلف عمرو بن تبع: ص١٠٤. Philby: p143.

لمرور الماء والسيطرة عليه، وذكر مقدار ما أنفقه عليهم وما قدَّمه لهم من طعام، وما ذبحه من بقر وأغنام، وما صرفه من دبس وخمر وغير ذلك[1]، ويُعد هذا النص أول وثيقة ترد إلينا عن تصدع سد مأرب وتهدم أجزاء منه.

ويبدو أن هذا التصدُّع المتكرر قلَّل من شأن مأرب، فرحل الناس عنها إلى أماكن أخرى أكثر استقراراً، مثل صنعاء التي بدأ نجمها يسطع في سماء اليمن وبخاصة بعد أن أضحت مقراً للهيئة الحاكمة، كما هجر المزارعون قراهم وأراضيهم التي أصابها التلف والجفاف، إلى الجبال والهضاب.

وتضمَّن النص جملة تشير إلى انتشار عقيدة التوحيد بين اليمنيين والابتعاد عن آلهة اليمن القديمة والاعتقاد النصراني، على الرغم من أن الملك شرحبيل يعفر لم يُبد تبديلاً لسياسة والده الذي اعتنق اليهودية، وهذه الجملة هي: «إلهن ذلهو سمين وأرض»، أي «بنصر وبعون الإلّه رب السماوات والأرض»[2].

انتقل الحكم بعد شرحبيل يعفر إلى عبد كلال بن مثوِّب أو بن ينف (٤٥٥ ـ ٤٦٠)[3]، ويبدو أنه كان كاهناً وسيد قبيلة ثار على مليكه إما طمعاً في الحكم أو إخماداً للثورة الدينية التي أشعل الملك شرحبيل يعفر نارها، فانتصر عليه، وربما تلقَّى مساعدة من الحبشة، والمعروف أن هذا الملك كان نصرانياً وأسرَّ ذلك عن قومه، وكان الذي دعاه إلى النصرانية رجل من غسان قدم عليه من الشام، فوثبت حِمير بالغساني فقتلته[4] وهي إشارة إلى حدوث ثورة ضد النصرانية، لكن عبد كلال لم ينعم طويلاً في الحكم إذ لم يتعدَّ عهده خمس سنوات[5].

جاء بعد عبد كلال، شرحبيل ينف (٤٦٠ ـ ٤٧٠م)[6]، وهو ملك لا نعرف اسم أبيه ولا علاقته بالأسرة الحاكمة، واتخذ لقب «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابها في الأطواد وفي التهامة»، وعلى الرغم من هذا اللقب الطويل، الذي يشير إلى تملكه العربية الجنوبية الغربية؛ فقد ظل الأحباش يتمركزون في بقعة ضيقة ينطلقون منها لمحاربة حكومة حِمير[7].

وورد اسم شرحبيل ينف في نص تضمَّن جملة «رحمنن وبنهو كرشتش غلبن» أي «الرحمٰن وابنه المسيح الغالب» ما يدل على أن هذا الملك كان نصرانياً. ويبدو أن نصارى اليمن أخذوا العقيدة النصرانية من المبشرين، وعرَّبوا المصطلح المذكور على

---

(١) علي: جـ٢ ص٥٨٠ ـ ٥٨٢.

(٢) المرجع نفسه: ص٥٨٢.

(٣) وهب بن منبه: ص٢٩٩.

(٤) Philby: p143.

(٥) الطبري: جـ٢ ص٨٩.

(٦) Philby: p143.

(٧) علي: جـ٢ ص٥٨٦، ٥٨٧. Philby: pp118, 143.

هذه الصورة العربية[١].

تولى الملك بعد شرحبيل ينف ولداه لهيعة ينف (٤٨٠ ـ ٥٠٠م) ومعديكرب (٤٩٠ ـ ٥١٠م)[٢] وقد حملا اللقب السابق نفسه. وذكر الإخباريون العرب أنه بعد وفاة عبد كلال عاد الملك إلى أبناء حسان تبع، واعتلى العرش ابنه البكر المدعو تبع الأصغر، ذو المغازي والآثار البعيدة، فهابته حِمير والعرب هيبة شديدة، وقد ولّى ابن أخته الحارث بن عمرو بن حجر الكندي على بلاد معد، وملّكه الحيرة مكان نصر بن ربيعة[٣].

والراجح أن حملة تبع بن حسان التي أرسلها إلى الحيرة مع ابن أخته إنما كانت من ضمن الصراع المتنامي بين اليمن والحيرة، الأولى بالوكالة عن الحبشة ومعها بيزنطية، والثانية بالوكالة عن الفرس، بدليل قول الطبري أن بهرام الخامس، ملك الفرس (٤٢٠ ـ ٤٣٨م)، بعد فراغه من أمر خاقان الترك وأمْر ملك الروم، مضى إلى بلاد السودان من ناحية اليمن، فأوقع بهم، فقتل مقتلة عظيمة وسبى منهم خلقاً ثم انصرف إلى مملكته[٤].

تعاقب على عرش اليمن، بعد تبع الأصغر، ملوك لا إنجازات مهمة لهم نذكر منهم: مرثد بن عبد كلال وابنه لهيعة، وأبرهة الصبَّاح الذي كان من أحكم ملوك اليمن وأغلظهم، وصهبان بن محرث، وحسان بن عمرو بن تبع بن ملكي كرب ثم لخنيعة ذو شناتر[٥]، وقد مروا بوتيرة متسارعة، وكان الأخير من أخبث ملوك حِمير وأردأها، فقد غلب على أهل اليمن، فقتل خيارهم، وعبث برجال بيوت المملكة، وكان امرءاً فاسقاً يعمل عمل قوم لوط، فإذا سمع بالغلام من أبناء الملوك بعث إليه، حتى إذا كان آخر أبناء هؤلاء، المدعو زرعة ذو نواس بن تبان أسعد أبي كرب، بعث إليه ليفعل به كما كان يفعل بأبناء الملوك من قبله، فلما خلا به وثب عليه ذو نواس بالسكين فطعنه به حتى قتله، ثم احتزَّ رأسه، فخرجت حِمير والأحراس في إثره حتى أدركوه، ثم ملَّكوه عليهم، وكان آخر ملوك حِمير المستقلين (٥١٠ ـ ٥٢٥م)[٦]، حيث احتل الأحباش البلاد ونصَّبوا ذي جدن بن ذي نواس ملكاً على حِمير وكان ضعيفاً وتابعاً لهم، لا يملك من الأمر شيئاً، وكان آخر ملوك حِمير.

لا تذكر روايات المصادر أي إنجازات مهمة لذي نواس الذي دان باليهودية

(١) علي: جـ٢ ص٥٨٥.
(٢) Philby: p143.
(٣) الطبري: جـ٢ ص٨٩. الأصفهاني: ص١٠٤.
(٤) تاريخ الرسل والملوك: جـ٢ ص٨٠.
(٥) الأصفهاني: ص١٠٤، ١٠٥.
(٦) الطبري: جـ٢ ص١١٧ ـ ١١٩. Philby: p143.

واتخذ اسم يوسف أسأر، باستثناء الحادثة الشهيرة التي تعرَّض فيها لنصارى نجران بالتعذيب والإحراق. والواقع أنه كان متحاملاً على النصارى والنصرانية حتى أنه حثَّ ملك الحيرة على اضطهاد النصارى في مملكته، ولعله فكَّر في إقامة تحالف سياسي مع ملوك الحيرة بمباركة الفرس، بهدف مقاومة الأحباش الذين نزلوا على ساحل اليمن وأقاموا لهم قواعد فيها، وعقدوا معاهدات مع الأمراء المناهضين لملوك حِمير، وأخذوا يحرضونهم عليهم ليتمكَّنوا بذلك من السيطرة على كامل اليمن والتوسع نحو الحجاز للاتصال بحلفائهم البيزنطيين، والسيطرة بذلك على أهم جزء من الجزيرة العربية والهيمنة على البحر الأحمر والمحيط الهندي، وتوجيه ضربة قاسية للنفوذ الفارسي.

الاحتلال الحبشي الثاني لليمن ـ سقوط المملكة الحِميرية

دوافع الحملة الحبشية على اليمن

اتُّخذ الدين في الصراع على اليمن غطاء لمطامع سياسية وتجارية، وهو أمر بدا بوضوح خاص في القرن السادس الميلادي في الصراع الثنائي بين البيزنطيين والفرس على السيطرة على القسم الجنوبي من الجزيرة العربية. ودخلت الحبشة في الصراع كقوة من الدرجة الثانية تساند سياسة الحكومة البيزنطية وتُنفذها، وإن كانت الأمور لا تثبت دائماً على هذا الوضع، فتتخذ هذه الدولة مواقف تبدو فيها وكأنها بدأت تعمل لحسابها[١].

كانت اليمن، في بداية القرن السادس الميلادي، أرضاً خصبة لامتداد النفوذ البيزنطي ـ الفارسي إليها. ففي الوقت الذي كانت فيه بيزنطية تُعزِّز تحالفها مع الحبشة بعد تحوُّل ملوكها إلى النصرانية، وتساند نفوذ النصارى في اليمن، كان الفرس يتطلعون إلى التعامل مع اليهود والمذاهب النصرانية المناهضة للبيزنطيين مثل النسطورية. واستطاع اليهود أن يحكموا اليمن طيلة القرن الخامس الميلادي، وتوغَّلوا في أجهزة الدولة الحِميرية وبخاصة المالية، وسيطروا على المراكز المهمة، وكان جميع ملوك حِمير، منذ تبان أسعد أبي كرب وحتى عهد مرثد إلن (٤٩٥م)، متهودين باستثناء عبد كلال بن مثوب، ويتصلون اتصالاً وثيقاً بيثرب، مركز اليهود الأقوى في الجزيرة العربية. ولكن النفوذ اليهودي أخذ ينحسر أمام تعاظم النفوذ النصراني بدعم من الأحباش حتى أضحى النصارى هم الحكام الحقيقيون في عهد الملك معديكرب ينعم، الذي أوصله نصارى نجران إلى العرش في أوائل القرن

(١) يحيى: ص٤٣٨، ٤٣٩.

السادس الميلادي، وانتشرت الكنائس، لا سيما في نجران وظفار ومأرب وحضرموت وهجر، ولم تكن الخلافات الأسرية سوى عامل من عوامل تشجيع القوى الخارجية لاستغلال الصراع الديني لأغراض سياسية وتجارية[١].

وشكَّلت نجران محور هذا الصراع لأسباب منها تجاري ومنها ديني:

ففيما يتعلق بالسبب التجاري: تقع نجران على ملتقى الطريقين التجاريين إلى الشمال، الطريق الممتد من صنعاء ومأرب ومعين إلى الشام عبر الحجاز، والطريق إلى وادي الدواسر واليمامة والبحرين والحيرة[٢].

وفيما يتعلق بالسبب الديني، فقد كان في نجران جاليات دينية مختلفة يمكن أن توفر ذريعة لأي تدخل خارجي، ففيها أكبر تجمع نصراني في اليمن حول بيت العبادة المسمى كعبة نجران، وكان بنو عبد المدان بن الديان الحارثي قد أقاموها لمنافسة الكعبة في مكة[٣]. وكان لعبدة الأوثان صنم في نجران هو يغوث، تعبده مذحج كلها[٤]، بل إن نجران كانت كذلك من المستوطنات التي نزل بها اليهود في اليمن.

اعتنق ذو نواس، ملك حِمير، اليهودية كي يحارب بها النصرانية السياسية التي كانت تتمثل بالحبشة وخلفها الدولة البيزنطية. فقد حارب النصرانية حرباً قاسية، فأزال جماعات نصرانية بأكملها من العاصمة ظفار ومن السواحل، ثم توجه نحو نجران ليقوم باضطهاد منظم، ولعله شعر بأن هجوماً حبشياً على بلاده كان على وشك الوقوع، فأراد استباق هذا الحدث بضربة وقائية، وقد خيَّر أهلها بين ترك النصرانية والدخول في الدين اليهودي، وبين حرقهم في النار، وقد فضَّل معظمهم الموت في سبيل إيمانهم، فحفر أخاديد في الأرض وأحرقهم فيها، وأحرق كتابهم الإنجيل[٥]. وعلى الرغم من قسوة ذي نواس على النصارى، فلا يُروى عنه أنه اضطهد الوثنيين اليمنيين، وظلت الوثنية قائمة في اليمن حتى ظهور الإسلام، ما يدل على أن اضطهاده القاسي للنصارى لم يكن بدافع الإيمان بالدين اليهودي بل بدوافع وطنية لمنع ازدياد نفوذ البيزنطيين والأحباش في بلاد حِمير التي كانت تعارض قيام المبشرين النصارى الذين أرسلهم الامبراطور البيزنطي قسطنطيوس للتبشير في اليمن. وتشير بعض روايات المصادر إلى أن ذا نواس كان مشركاً بالله. ونستنتج مما جاء في آيات القرآن الكريم الخاصة بأصحاب الأخدود أنه دعا أهل نجران النصارى إلى

---

(١) سحاب: ص١٢٧، ١٢٨.

(٢) Trimingham, J.S: Christianity Among the Arabs in Pre-Islamic Times p294.

(٣) علي: جـ٢ ص٤١٧.   (٤) ابن هشام: جـ١ ص١٠٢.

(٥) ابن هشام: جـ١ ص٥١. اليعقوبي: جـ١ ص٢٤٥. الطبري: جـ٢ ص١٢٢، ١٢٣.

الرجوع إلى الوثنية لا إلى اليهودية؛ لأن اليهودية والنصرانية المعاصرتين لنزول القرآن كانتا ديانتين سماويتين، ما يدل على أنه كان مشركاً، ولم ينقم على أهل نجران إلّا لأنهم كانوا يؤمنون بالله. قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج/ ٤ ـ ٩](١).

والواضح أن اعتناق الملك الحِميري معديكرب الديانة النصرانية في بلاد كانت الأسرة الحاكمة قد نشرت اليهودية فيها؛ أدَّى إلى تفجير الموقف، فاستغلت بيزنطية هذا التحول الديني للتدخل، فأرسل الامبراطور أنستاسيوس الأول (٤٩١ ـ ٥١٨م) في عام (٥١٣م) أسقفاً لنجران، هو سيلفان، في محاولة أخرى لتنصير البلاد، وصادف ذلك مع نشوب الحرب بين بيزنطية وفارس ما عطَّل الطريق التجاري المار عبر العراق والخليج العربي، فاشتدت حاجة بيزنطية إلى طريق البحر الأحمر وطريق القوافل البرية عبر الحجاز لتأمين تجارتها، ومنع طرق التجارة الشرقية من السقوط في أيدي الأعداء. وتروي المأثورات النصرانية أن دوافع الحملة الحبشية على اليمن هي قتل ذي نواس أهل نجران(٢)، وتشاركها في ذلك بعض روايات المصادر العربية(٣)، وفي المقابل تذكر روايات أخرى أن سبب الصراع أو شرارته الأولى كان قتل نصارى نجران جماعة من اليهود هم أبناء رجل يهودي من المدينة يُدعى دوس ذو ثعلبان، فقدم على ذي نواس وشكا إليه ما أصيب به فاستنصره، فخرج إلى أهل نجران وحاصرهم ثم عاهدهم، فلما تمكَّن منهم أوقع بهم وهم مغترُّون، فلم ينج منهم إلا الشريد، فلحق بعضهم بالنجاشي ومعهم الإنجيل قد أُحرق أكثره، فلما رآه ساءه، فكتب إلى الامبراطور البيزنطي بذلك، فأرسل إليه السفن لتحمل الجنود الأحباش إلى سواحل اليمن(٤).

وجاء في رواية أخرى أن اضطهاد النصارى في حِمير أثار حفيظة بيزنطية، فأوعزت إلى حليفتها الحبشة بالهجوم على اليمن. ذلك أن أحد الناجين من نصارى نجران، ويدعى دوس بن ثعلبان، قد التجأ إلى بلاد الروم وأخبر القيصر بما جرى لأهل دينه واستنصره على ذي نواس وجنوده(٥).

لم يبادر الامبراطور البيزنطي إلى إرسال جيش إلى العربية الجنوبية لمساندة

---

(١) تفسير ابن كثير: جـ٤ ص٤٩٥، ٤٩٦.

(٢) Devreesse: p279. Rodinson, M: Mohammed p31.

(٣) الطبري: جـ٢ ص١٢١، ١٢٣.

(٤) المصدر نفسه: ص١٢٣، ١٢٤. العسكري، أبو هلال: الأوائل: جـ١ ص٢٨، ٢٩.

(٥) المصدر نفسه: ص١٢٤ ـ ١٢٧.

نصارى نجران مباشرة، وذلك خشية من تعرض جيشه للهلاك، كما حصل مع حملة إيليوس غالوس، واكتفى بتوجيه رسالة إلى ملك الحبشة يأمره فيها بمساعدة نصارى نجران والثأر ممن اضطهدهم، فجهَّز حملة عسكرية وأرسلها إلى سواحل اليمن[١].

ومهما يكن من أمر، فإن إرسال حملة حبشية إلى اليمن كان حتمياً في ظل الصراع الدولي المتنامي على مناطق النفوذ في العربية الجنوبية والسيطرة على طرق التجارة الشرقية.

الحملة الحبشية الأولى

تكاد روايات المصادر تُجمع على أن الحبشة قامت بحملتين عسكريتين على اليمن في الربع الأول من القرن السادس الميلادي، في عهد الملك الحبشي «إلا أصبحة»، وأن نصارى نجران اضطُهدوا مرتين. أُرسلت الحملة الأولى في عام (٥١٨م)، وأمكن حصر الاضطهاد الثاني، وهو الأكبر، في عام (٥٢٠م) والذي سُمي بوقعة الأخدود، تلتها الحملة الثانية في عام (٥٢٥م) التي نتج عنها احتلال الأحباش للبلاد وإنهاء الحكم الحِميري[٢].

واجه ذو نواس الحملة الأولى بمرونة ظاهرة بفعل أنه كان عاجزاً عن جمع حِمير لمساعدته، لذلك آثر المراوغة، فلما دنا منه الجيش الحبشي استسلم له ووضع نفسه بتصرفه، وأرسل إلى قائده مفاتيح خزائن اليمن في إشارة إلى منحه المال والأرض مقابل الأمان للرجال والذرية، فكتب القائد إلى النجاشي بذلك، فأمره بالموافقة، فدخل مدينة صنعاء في جو الانتصار، وتربع على دست الحكم كنائب للملك، وأرسل جنوده إلى المخاليف ومعهم المفاتيح لقبض الأموال، وانسحب ذو نواس إلى الجبال تجنباً للقتال.

ونظم النجاشي أوضاع اليمن، فبنى الكنائس، وشجَّع النصارى على إقامة الشعائر الدينية، وفرض الجزية على العباد، ووضع حاميات عسكرية لإحكام قبضته على البلاد. وبعد أن اطمأن على سلامة وضعه، سحب معظم أفراد جيشه، حتى إذا لحظ ذو نواس ذلك نزل من الجبال وهاجم الحاميات الحبشية في الأشاعر وحضرموت وظفار التي أحرق كنيستها الكبرى، وداهم قائده ذو يزأن مرفأ مخا، ثم توجه ذو نواس إلى نجران معقل النصارى الأكبر في اليمن ومركز قوة حلفاء الحبشة وبيزنطية، حيث ارتكب مقتلته الكبرى التي اشتهرت في التاريخ باسم وقعة الأخدود[٣]، وكتب

---

(١) الطبري: جـ٢ ص١٢٤ ـ ١٢٧.

(٢) Philby: p121.

(٣) Devreesse: pp279, 280. Rodinson: p31.

في الوقت نفسه إلى الأقيال في كل ناحية «أن اذبحوا كل ثور أسود في بلدكم، فقُتلت الحبشة، فلم يبق منهم إلا الشريد»[1].

غضب النجاشي عندما علم بالتطورات السلبية في اليمن، فجهَّز جيشاً لإرساله إلى هناك والانتقام من ذي نواس، لكن شتاء عام (٥٢٢ ـ ٥٢٣م) كان قاسياً ما حمله على تأجيل الحملة، فاضطر نائبه على اليمن إلى طلب المساعدة من المنذر ملك الحيرة، غير أنه توفي ما أتاح لذي نواس استعادة سيطرته على البلاد[2].

الحملة الحبشية الثانية

تمهيد

قامت بيزنطية بالإعداد للحملة على الحبشة إعداداً عسكرياً وسياسياً:

فمن الناحية العسكرية، أرسلت إلى الحبشة السفن اللازمة لنقل الجنود إلى ساحل اليمن، وجهَّزت الحبشة من جانبها جيشاً بلغ تعداده سبعين ألف مقاتل تقريباً.

ومن الناحية السياسية، فقد كان الإعداد للحملة يتطلب تبريد جبهات الصراع مع الفرس وبخاصة في بادية الشام، وعزل ذي نواس عن حلفائه الفرس وملوك الحيرة، وقد حقَّق مؤتمر الرملة[3]، الذي انعقد في عام (٥٢٤م)، الرغبة البيزنطية.

ففي عام (٥٢٣م) أرسل الامبراطور البيزنطي جستين الأول (٥١٨ ـ ٥٢٧م) سفيره إبراهيم بن أفراسيوس، وهو خبير في الشؤون العربية، إلى الحيرة لإجراء مفاوضات مع الملك المنذر بشأن عقد صلح بين بيزنطية وفارس، وقد حضر المؤتمر ممثل عن الامبراطور الفارسي قباذ، وتطرَّق المؤتمر إلى علاقة الأطراف الثلاثة بنصارى نجران. وصادف أثناء انعقاد المؤتمر وصول مندوب حِميري جاء يطلب من المنذر القضاء على نصارى الحيرة. ويبدو أن ذي نواس رأى أن استقرار حكمه يتوقف على القضاء على هؤلاء الذين كانوا يُصِدِّرون النصارى إلى نجران، وقد حقَّقت بيزنطية هاتين الرغبتين، فعقدت فارس صلحاً مع بيزنطية، وتخلَّى قباذ والمنذر عن حليفهما الحِميري[4].

الواقع أن نتائج المؤتمر أثَّرت سلباً على قوة ذي نواس الذي كان يأمل بتلقي مساعدات عاجلة من حلفائه الفرس والحيريين، وتعرَّض وضعه الداخلي للاهتزاز عندما أرسل المنذر النصارى النساطرة واليعاقبة إلى نجران لتقوية الجبهة النصرانية وفقاً

(١) الطبري: ج٢ ص١٢٧. العسكري: ص٢٨، ٢٩.

(٢) Devreesse: p280.

(٣) الرملة: محلة تقع في جنوب شرقي الحيرة.

(٤) Shahid, Irfan: The Conference of Remla 524 A.D, pp115, 119, 120, 125, 127, 130.

لمقررات مؤتمر الرملة، كما أن الولاء الديني الجديد الذي أنشأه لم يكن مضموناً.

ولنا أن نتساءل: هل كان الفرس بحاجة إلى سلام مع بيزنطية في هذه المرحلة من الصراع المستمر بينهما، أم أن قباذ والمنذر كانا غافلين عن خطة بيزنطية لغزو اليمن بهذه السرعة؟ وهل كان التفسير الديني مقبولاً لتبرير التحالف بين مملكة الحبشة، التي تعتنق المذهب اليعقوبي، والامبراطورية البيزنطية التي تعتنق المذهب الخلقيدوني المعادي لليعاقبة؟

الراجح أن الساسة في بيزنطية كانوا يفضلون وجود اليعاقبة في اليمن على وجود اليهود أو النساطرة المتصلين بالفرس[١].

ومهما يكن من أمر، فقد استقرت الأوضاع الدولية والداخلية في اليمن، على هذا الشكل قبيل تنفيذ الغزو الحبشي الكبير لليمن.

دخول الأحباش إلى اليمن وسقوط المملكة الحِميرية

ساهم الحليفان البيزنطي والحبشي في الحملة الكبرى على اليمن، فلا بيزنطية كانت قادرة على إرسال جيش إلى الحبشة، ولا الحبشة كانت تملك السفن كوسيلة لنقل الجنود إلى الشاطئ اليمني، لذلك استخدم أسطول بيزنطي في نقل الجنود الأحباش إلى بر اليمن.

أمَّر النجاشي على الجيش قائداً يُدعى أرياط بن أصحمة يساعده أبرهة، وأوصاه بأن ينتقم من ذي نواس وجنده انتقاماً شديداً، وعهد إليه بقتل ثلث رجال حِمير، وتخريب ثلث بلادهم، وسبي ثلث نسائهم وأولادهم، وأمره بألا يقبل صلحاً، وفي ذلك إشارة إلى الصلح الذي خُدع به الأحباش في حملتهم الأولى[٢].

أبحرت الحملة من بلاد ناصع وزيلع في ساحل الحبشة، ونزل أفرادها على ساحل زبيد من أرض اليمن. وعندما علم ذو نواس بنزول الأحباش على ساحل اليمن، دعا إليه حِمير ومن أطاعه من قبائل اليمن، فاجتمعوا إليه «على اختلاف وتفرق، لانقطاع المدة وحلول البلاء والنقمة»[٣]، لذلك لم يصمد في القتال الذي جرى مع القوات الحبشية. والواقع أن المواجهة لم تكن غير مناوشات خفيفة انهزم خلالها ذو نواس وتفرَّق جيشه، ودخل أرياط إلى اليمن بجموعه، فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجَّه فرسه إلى البحر، ثم ضربه فدخل فيه فخاض به ضحضاح[٤] البحر، حتى أفضى

---

(١) Watt. Montgomery: Muhammad at Mecca p12.

(٢) الطبري: جـ٢ ص١٢٥.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الضحضاح من الماء: الذي يظهر منه القعر.

به إلى غمرة، فأقحمه فيه، فكان آخر العهد به[١].

يتضح مما رواه الطبري أمران:

الأول: أن الحِميريين كانوا على خلاف فيما بينهم وتفرُّق، فلم يخوضوا الحرب مع ذي نواس مجتمعين ما أثَّر على نتيجة المواجهة.

الثاني: أن القتال لم يكن شديداً، وأن أرياط انتصر بسهولة على الحِميريين.

الواقع أن ذا نواس شعر بالخذلان مرتين، مرة حين طلب المساعدة من الفرس والحيرة فلم ينجدوه، ومرة حين فشل في جمع كلمة حِمير لقتال الأحباش، كما رأى ضياع جهوده التي بذلها على مدى سنوات لمقاومة الأطماع الحبشية، فداخله اليأس، وهذا ما يفسر حادثة الانتحار غرقاً[٢].

ونفَّذ أرياط عهد مليكه، عندما وطئ بجيشه أرض اليمن، وتغلَّب على المقاومة الحِميرية، فقتل ثلث الرجال، وخرَّب ثلث العمران، وبعث إليه بثلث السبايا، ثم أخضع البلاد لحكمه وذلَّ أهلها. وقد عبَّر ذو جدن الحِميري عما أصاب حِمير من الذل بعد العز الذي كانوا فيه، وما أصاب حصون سلحين وبينون وغمدان من الخراب بعد العمران، في البيتين التاليين:

هونك ليس يردُّ الدمع ما فاتا ... لا تهلكي أسفاً في ذكر من ماتا
أبعد بينون لا عين ولا أثر ... وبعد سلحين يبني الناس أبياتا[٣]

وبمقتل ذي نواس، وباحتلال الأحباش لليمن، تنتهي دولة حِمير، ويبدأ عهد جديد في العربية الجنوبية هو عهد الاحتلال الحبشي الذي امتد حتى عام (٥٧٥م).

---

(١) الطبري: جـ٢ ص١٢٥.
(٢) سحاب: ص١٣٨.
(٣) الطبري: جـ٢ ص١٢٥.

الفصل الخامس عشر

كندة ـ ميسان ـ الحضر ـ الرها

مملكة كندة

ظروف نشأة المملكة

تنتسب قبيلة كندة القحطانية إلى ثور بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة، الذي يرتفع نسبه إلى كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وكندة لقب ثور، وتُعرف كندة بكندة الملوك لأن ملوكها حكموا بادية الحجاز من بني عدنان(١).

تقع مساكن كندة، في المرحلة الأولى من تاريخها، في جبال اليمن الشرقية، في المنطقة الواقعة إلى الغرب من حضرموت في بلاد مهرة، وحاضرتهم مدينة دمّون التي ذكرها امرؤ القيس في شعره حيث قال:

كأني لم أله بدمّون مرة ولم أشهد الغارات يوماً بعندل

وقال أيضاً:

تطاول الليل علينا دمّون دمّون إنا معشرٌ يمانون
وإنا لأهلنا محبون(٢)

ثم نزح الكنديون من العربية الجنوبية إلى وسط الجزيرة العربية حيث سطَّروا تاريخه الفعلي. وتتعدَّد روايات الإخباريين حول سبب هذا النزوح، وأشهرها اثنتان:

الأولى: تُرجع النزوح إلى سبب سياسي، ذلك أن كندة أنقسمت في بداية حياتها السياسية بين زعيمين، أحدهما سعيد بن عمرو بن النعمان بن وهب، زعيم بني الحارث بن معاوية بن زيد، والآخر شرحبيل بن الحارث، زعيم السكون. ويبدو أن حرباً قامت بين كندة وبين مملكة حِمير بسبب السيطرة على الطرق التجارية استمرت سنين عديدة، اضطرت كندة بسببها إلى التوحد والالتفاف حول

(١) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد: جمهرة أنساب العرب: ص٤٢٥. النويري: جـ٢ ص٣١٩.

(٢) الحموي: جـ٢ ص٤٧٢.

زعيم واحد، ومع ذلك فقد تعرَّضت للهزيمة. وعندما اضطربت أوضاع اليمن، في منتصف القرن الثالث الميلادي، بسبب تحول الطريق التجاري أو تصدع سد مأرب ووقوع الجفاف فيها، تشتَّتت قبائل اليمن ومن بينها قبيلة كندة، فنزحت عن حضرموت وأقامت في أرض معد[١].

الثانية: تُرجع النزوح إلى سبب أُسري، من واقع ربط تاريخ كندة بتاريخ حِمير بفعل علاقة القرابة التي ربطت بين حسان بن تبع وبين حُجر بن عمرو، المشهور بآكل المرار[٢]، سيد كندة[٣] وكان حسان يسيطر آنذاك على نجد والحجاز وغيرها من بلاد العرب فأراد أن يكافئ حُجراً لمساعدته له في حروبه، فولّاه على قبائل معد كلها[٤].

والحقيقة أن الرواية الأولى تمثل بدايات قيام مملكة كندة في العربية الجنوبية وسبب هجرتها إلى وسط الجزيرة العربية، وتمثل الرواية الثانية مرحلة استقرار الكنديين في أرضهم الجديدة، وكيفية تكوين إمارة لهم في ربوعها، وتُعبِّر عن التاريخ الحقيقي لكندة.

ويبدو أن القبيلة كانت تعيش في جو من الفوضى لافتقارها إلى ملك يُنظمها ويدير شؤونها[٥]، فاختارت أول ملك من رجالها، بعد هجرتها إلى بلاد معد، هو مرتع بن معاوية بن ثور[٦].

وبفعل نسب القرابة، أقامت مملكة كندة علاقات طيبة مع مملكة حِمير، فقد ساعدت الملك الحِميري شمر يهرعش في حملاته على شرقي الجزيرة العربية، كما ساعد عمرو بنُ حجر الملك حسان بن تبع في بعض أعماله[٧].

وهناك من يروي أن عقلاء بني بكر بن وائل اجتمعوا، بعد أن انتشر الفساد بين قومهم وغلب سفهاؤهم على عقلائهم، وأكل القوي الضعيف، وحاولوا أن يُملكوا عليهم ملكاً يأخذ للضعيف من القوي، فنهاهم العرب، وعلموا أن هذا لا يستقيم

---

(١) اليعقوبي: جـ١ ص٢٦٣.

(٢) سُمي بآكل المرار تشبيهاً بالجمل الذي يزبد فمه بعد أكل نبات المرار، والمرار عشب إذا أكلته الإبل قلَّصت مشافرها فبدت أسنانها. وفي رواية أنه سمي بآكل المرار لأنه لما أتاه الخبر بأن الحارث بن جبلة كان نائماً في حِجر امرأته هند جعل يأكل المرار من الغيظ وهو لا يدري. ويقال، بل قالت هند للحارث وقد سألها: ما ترين حُجراً فاعلاً؟ قالت: كأنك به قد أدركك في الخيل وهو كأنه بعير قد أكل المرار. الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني: جـ٩ ص٧٨.

(٣) كان حسان أخاً لحجر من أمه.

(٤) الطبري: جـ٢ ص٨٩.

(٥) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل الأيوبي: تاريخ أبي الفداء: جـ١ ص١٢١.

(٦) اليعقوبي: جـ١ ص٢٦٤.

(٧) ابن خلدون: جـ٢ ص٢٧٣.

بأن يكون الملك منهم خشية انقسامهم، فيطيعه قوم ويخالفه آخرون، فقرَّروا عندئذٍ أن يسيروا إلى تابعة اليمن، وكانوا للعرب بمنزلة الخلفاء للمسلمين، ويطلبوا من الملك تبع أن يُملِّك عليهم ملكاً، فملَّك عليهم حُجر بن عمرو، آكل المرار، فقدم عليهم ونزل ببطن عاقل(١) فانتزع ما كان بيد اللخميين من أرض بكر، وبقي كذلك إلى أن مات فدفن ببطن عاقل(٢).

واستناداً إلى المعطيات أعلاه، تكون مملكة كندة قد قامت في الربع الأول من القرن الخامس الميلادي.

الأوضاع السياسية

في عهد عمرو المقصور

توفي حُجر بن عمرو، آكل المرار، في عام (٤٥٠م) تقريباً، بعد أن انتزع أراضي بكر التابعة لكندة، ووسَّع المملكة فشملت طحية(٣) وحِمى ضريَّة(٤) ودارة جلجل(٥) والعقيق(٦) وبطن نخلة الشمالية(٧) وخزنة واللقط(٨) وأفيح(٩) وعماية(١٠) وعمايتين(١١) وبطن الجريب(١٢) وملحوب(١٣)، وخلفه ابنه عمرو المقصور ـ المبتور(١٤) ـ.

---

(١) عاقل: واد لبني إبان بن دارم من دون بطن الرمة، وهو يناوح مَنعِجاً من قدامه وعن يمينه، أي يحاذيه. وعاقل: جبل كان يسكنه الحارث بن آكل المرار، جد امرئ القيس بن حجر. وعاقل: واد بنجد. الحموي: جـ٤ ص٦٨، ٦٩.

(٢) ابن الأثير: جـ١ ص٤٦١، ٤٦٢.

(٣) طحية: هضبة بنجد.

(٤) حِمى ضريَّة: قرية عامرة قديمة في طريق مكة من البصرة من نجد، سميت ضرية بضرية بنت ربيعة بنت نزار القضاعي. الحموي: جـ٣ ص٤٥٧.

(٥) دارة جلجل: دارة جلجل بالحِمى، ويقال بغمر ذي كندة، وهي من منازل حجر الكندي بنجد. المصدر نفسه: جـ٢ ص٤٢٦.

(٦) العقيق: هو عقيق القنا، تجري فيه سيول قلل نجد وجباله. المصدر نفسه: جـ٤ ص١٤٠.

(٧) بطن نخلة: قرية قريبة من المدينة على طريق البصرة. المصدر نفسه: جـ١ ص٤٤٩.

(٨) اللقط: اسم ماء بين جبلي طيء. المصدر نفسه: جـ٥ ص٢١.

(٩) أفيح: موضع بنجد. المصدر نفسه: جـ١ ص٢٣٣.

(١٠) عماية: جبل بنجد. المصدر نفسه: جـ٤ ص١٥٢.

(١١) عمايتان: جبلان بالعالية. المصدر نفسه.

(١٢) بطن الجريب: اسم واد عظيم يصب في بطن الرمة من أرض نجد. المصدر نفسه: جـ٢ ص١٣١.

(١٣) ملحوب: اسم موضع، اسم ماء لبني أسد بن خزيمة. المصدر نفسه: جـ٥ ص١٩١.

(١٤) عُرف بالمقصور لأنه قصر على ملك أبيه، وقيل لأن ربيعة قصرته على ملك أبيه، وفي رواية أنه كان لعمرو أخ يدعى معاوية، ويُعرف بالجون لسمرته، تولى حكم اليمامة، فخرجت من أملاك عمرو التي اقتصرت على منطقة نجد، ومن أجل ذلك سمي بالمقصور.

انتهج عمرو سياسة سلمية قائمة على المرتكزات التالية:

- توطيد العلاقة مع الحِميريين من واقع تقديم الخدمات للملك الحِميري حسان بن تبع(١) الذي ولّاه بعض شؤون مملكته عندما سار لقتال قوم جديس. وعندما تسلَّم عمرو بن تبع عرش حِمير قرَّب عمراً وزاد في تكريمه، إذ زوَّجه من ابنة أخيه حسان، مخالفاً بذلك تقاليد العائلة التي كانت تحصر زواج نسائها برجال حِمير فقط، فأنجب عمرو منها ابنه الحارث الذي تولى شؤون كندة بعد وفاة أبيه(٢).

- التقرب من المناذرة في الحيرة وتوطيد علاقته معهم من خلال الارتباط بهم برباط المصاهرة، فقد زوَّج ابنته هنداً إلى المنذر بن ماء السماء الذي أنجب منها ولدين هما عمرو بن هند وقابوس(٣).

- الحفاظ على الدولة التي أسَّسها أبوه والاحتفاظ بحدودها والمحافظة على مكتسباتها، وعدم القيام بأعمال توسعية، لذلك لقَّبه العرب بالمقصور، كما ذكرنا، لأنه اقتصر على ملك أبيه(٤).

غير أن عمراً خرج في أواخر أيامه عن سياسته السلمية، فغزا بلاد الشام مع بني ربيعة، واشتبك مع الحارث بن أبي شُمَّر الغساني، وقُتل في المعركة. والراجح أن هذه الغزاة جاءت من ضمن علاقته الحسنة مع المناذرة، وعلاقة هؤلاء العدائية مع الغساسنة(٥).

في عهد الحارث بن عمرو

خلف عمرو المقصور ابنه الحارث، ويُعدُّ أقوى ملوك كندة وأشدهم بأساً وأكثرهم طموحاً، فقد سيطر على قبائل معد بعد أن فرقتها حرب البسوس، ولم تعترف هذه القبائل برئاسته عليها إلا بعد أن شعرت بقوته من خلال استعماله العنف مع عدد من القبائل، فرضيت به ملكاً عليها.

ونجح الحارث في مد نفوذ كندة حتى الحيرة في المدة الواقعة بين (٥٢٤ إلى ٥٢٨م)، أوصل المملكة خلالها إلى ذروة قوتها ومجدها، فاتسع ملكه، فشمل، إلى جانب اليمامة وأرض بكر بن وائل، مملكة الحيرة نفسها، ولعل لاستيلائه على الحيرة علاقة بمدى تدهور العلاقات بين المناذرة والساسانيين بسبب ما جرى من محاولة الامبراطور الفارسي قباذ بن فيروز (٤٨٨ - ٥٣١م) تحويل ملك الحيرة

---

(١) الراجح أن هذا التعاون حصل قبل أن يتولى عمرو بن حجر مقاليد الأمور في كندة، لأن حسان بن تبع قُتل على يد أخيه عمرو بن تبع في عام ٤٢٥م.

(٢) الطبري: جـ٢ ص٨٩.

(٣) زيدان: ص٢٣٤، ٢٣٥.

(٤) أبو الفدا: جـ١ ص١٢٢.

(٥) اليعقوبي: جـ١ ص٢٦٤.

المنذر بن ماء السماء إلى المزدكية[1] التي ظهرت آنذاك في بلاد فارس، ولما رفض الملك المنذر ذلك، أبعده قباذ عن الحكم وطرده مع والدته ماء السماء، فدخل الحارث الحيرة واستولى على الحكم بتأييد الملك الفارسي، وأبدى استعداده لاعتناق المزدكية[2].

وفي رواية أن العرب في العراق، الذين عانوا من ظلم المنذر الأصغر بن المنذر بن ماء السماء، استدعوا الحارث بن عمرو وملَّكوه على بكر بن وائل، وحشدوا له الحشود، وقاتلوا إلى جانبه المنذر وأعوانه من العرب، وعندما شعر ملك الحيرة بالهزيمة، وأن الملك الفارسي خذله، إذ لم يساعده، كتب إلى الحارث بن عمرو يُعلن ولاءه له والانضواء تحت سلطانه، فوافق الحارث على سياسة المنذر هذه فقرَّبه، وزوَّجه ابنته هنداً[3].

وفي رواية أخرى أن النعمان بن المنذر بن امرئ القيس لقي مصرعه في المعركة التي دارت بينه وبين الحارث بن عمرو الكندي، وأن المنذر بن امرئ القيس وأمه ماء السماء أفلتا، وملك الحارث أملاكهم وطمع في مدِّ نفوذه نحو العراق على حساب الفرس، بعد ما رأى ضعف قباذ، ويبدو أن الامبراطور الفارسي استدعاه إلى المدائن فاجتمع به، واتفقا على ما يلي[4]:

ـ أن يكون مجرى نهر الفرات الحد الفاصل بين أملاك الفرس وأملاك العرب من آل آكل المرار.

ـ أن يمنع الحارث بن عمرو العرب من اجتياز نهر الفرات والإغارة على أرض السواد.

والواقع أن الحارث الكندي لم يلتزم بهذا الاتفاق، إذ رفض احتلال الفرس لأجزاء من العراق، فأمر أصحابه باجتياز النهر والإغارة على السواد، وعندما علم قباذ بذلك استدعاه واحتج أمامه متهماً أصحابه بالقيام بهذه الأحداث، فردَّ الحارث: «ما علمت، ولا أستطيع ضبط العرب إلا بالمال والجنود. ثم أشار على قباذ أن يتنازل

---

(1) المزدكية، نسبة إلى مزدك: هي حركة دينية فارسية نادت بمشاعية الجنس والمال، وعُدَّت من العقائد الثنوية التي تقول بصراع النور والظلمة. وقد تبنى قباذ بن فيروز العقيدة المزدكية في محاولة منه للحد من هيمنة رجال الدين والنبلاء، الأمر الذي دفعهم إلى الثورة عليه وعزله عن العرش، لكنه تمكن من الفرار من سجنه واستعاد حكمه ثانية، وقد ظل على ولائه للمزدكية قبل أن ينقلب عليها إثر مناقشة جرت بين أحد رجاله ومزدك عام ٥٢٩م، لكن قبض عليه كسرى أنوشروان وأعدمه وأعاد الزرادشتية. انظر: الشاهنامة، للفردوسي: جـ٢ ص١١٨ ـ ١٢١. أبو الفداء: جـ١ ص٨٦، ٨٧.

(2) الأصفهاني: جـ٩ ص٧٩. أبو الفداء: جـ١ ص١٢٢.

(3) ابن خلدون: جـ٢ ص٢٧٣، ٢٧٤.

(4) الطبري: جـ٢ ص٩٦.

للعرب عن أجزاء من هذه الأراضي، فقبل وأعطى الحارث ست طساسيج[١]».

ازدادت قوة الحارث بن عمرو بعد هذه الأحداث، فجلس في عاصمته يستقبل الوفود المهنئة على هذا النجاح، كان فيهم أشراف من معد، طلبوا منه أن يصلح بين القبائل المتنازعة، ويولي عليهم أبناءه أو غيرهم ممن يجمعهم، ويُوحد صفوفهم، ويسوس أمورهم، ويحميهم من أعدائهم. فانتهز هذه الفرصة ليقوي موقف أسرته، ففرَّق أبناءه على القبائل بغض النظر عن الاختلاف في الروايات بالنسبة لترتيب الولاة أو القبائل[٢].

فملَّك ابنه حجراً على قبائل أسد بن خزيمة وكنانة وغطفان، وتسكن هذه القبائل في الأراضي الواقعة بين شُمَّر وخيبر.

وولّى ابنه شرحبيل على قبائل بكر بن وائل بأسرها وحلفائهم من بني حنظلة والرباب وتميم وغنم وطيء، وكانت تقيم في شرقي نجد بين الفرات والبحرين.

وعيَّن ابنه معديكرب على قيس عيلان وطوائف أخرى، كانوا يقطنون في تِهامة وأطراف الحجاز.

ونصَّب ابنه سلمة الغلفار[٣] على تغلب والنمر بن قاسط وبني سعد بن زيد مناة من تميم، وكانت مساكنهم في بادية الشام.

والواقع أنه كان لهذه التعيينات أثر كبير في العلاقات بين قبائل الحجاز ووسط وشرقي الجزيرة العربية، إذ توقَّفت الصراعات الثأرية، والتسابق على السلطة والنفوذ وبخاصة بين قبيلتي بكر وتغلب اللتين أصلح الحارث بينهما منهياً بذلك حرب البسوس التي دامت أربعين عاماً، ما يدل على مدى اتساع سلطة الحارث وامتداد حكمه إلى نجد وأطراف الحجاز والبحرين واليمامة[٤].

كانت الأراضي التي تولَّاها كل من حجر ومعديكرب متاخمة للأراضي الخاضعة للنفوذ البيزنطي في بلاد الشام، فكان من الطبيعي أن يحصل احتكاك بين الطرفين، والمعروف أن غارات البدو على مراكز الحضارة هو أمر مألوف، وهذا ما حصل فعلاً، فقد قام رومانوس، حاكم فلسطين في عهد الامبراطور أنستاسيوس (٤٩١ ـ ٥١٨م)، بغزو بلاد كندة، وانتصر على العرب، ويبدو أن لهذه الغزوة علاقة بمدى تعرُّض مناطق الحدود البيزنطية في بلاد الشام لغارات البدو. وجاء رد الفعل العربي بعد أربع سنوات حين قام حجر ومعديكرب بهجوم انتقامي ضد البيزنطيين في شمالي

(١) طساسيج: نواحي. الطبري: ج٢ ص٩٥، ٩٦.
(٢) اليعقوبي: ج١ ص٢٦٤. وقارن بالأصفهاني: ج٩ ص٨١، ٨٢. وابن خلدون: ج٢ ص٢٧٤.
(٣) سُمي كذلك لأنه كان يُغلف رأسه بالطيب. (٤) معطي: ص٢٤٦.

الجزيرة العربية. ويبدو أن الحملة كانت شديدة الوطأة على البيزنطيين من واقع تعرض قواتهم لهجوم مدمر ما دفع أنستاسيوس على أن يعقد صلحاً مع الحارث بن عمرو للتأمين على قواته في بلاد الشام[1].

كانت نهاية الحارث محزنة، ذلك أن كسرى أنوشروان، الذي خلف أباه قباذ، أعاد الاعتبار إلى المنذر بن ماء السماء وعيَّنه على الحيرة واضطهد المزدكية فقتل كل شخص من أتباع مزدك. ولما وصلت هذه الأخبار إلى مسامع الحارث وكان بالأنبار، خشي على نفسه، فخرج هارباً بأمواله وأولاده ورجاله، فمرَّ بالثوية[2]، فتبعه المنذر بالخيل من تغلب وإياد وبهراء، وظفر بأمواله وهجائنه، وقبض على ثمانية وأربعين شخصاً من بني آكل المرار وقتلهم بجفر الآمال[3] في ديار بني مرين العباديين بين دير هند والكوفة، ونجا الحارث بنفسه والتجأ إلى ديار بني كلب، وبقي هناك حتى قُتل، واختلفت الروايات في سبب مقتله وفي طريقة القتل[4]. ففي رواية أن الحارث نجا هارباً، فوقع عليه بنو كلب بمسحلان فقتلوه[5]. وهناك رواية أخرى تشير إلى أن الحارث خرج يتصيد وهو بمسحلان، فرأى عانة، وهي حمر الوحش، فشدَّ عليها، فانفرد منها حمار، فأقسم إلا يأكل شيئاً قبل كبده، فطارده ثلاثة أيام حتى أدركه، وكان الحارث قد أخذ منه الجوع مأخذاً كبيراً، فشوى الحمار على النار وأُطعم من كبده وهي حارة فمات، وكانت وفاته عام (٥٤٠م) تقريباً[6].

في عهد خلفاء الحارث بن عمرو

ورث أولاد الحارث بن عمرو ملك أبيهم بعد مقتله، كما ورثوا عداوته للمنذر بن ماء السماء. وكان هذا قد استغل وفاة الحارث وهاجم أراضيهم، فتصدوا له، وحالوا بينه وبين السيطرة على ما تحت أيديهم، فمال عندئذٍ إلى الحيلة للإيقاع بينهم والانتقام لنفسه منهم. وبدأ بالأخوين شرحبيل وسلمة، فأرسل الهدايا إلى الثاني،

---

(١) علي: جـ٣ ص٣٤٩، ٣٥٠.

(٢) الثوية: موضع قريب من الكوفة، وقيل بالكوفة وقيل خريبة إلى جانب الحيرة على ساعة منها، كانت سجناً للنعمان بن المنذر، يحبس بها من أراد قتله، فكان يُقال لمن حُبس بها ثوى أي: أقام، فسميت الثوية بذلك. الحموي: جـ٢ ص٨٧.

(٣) وفي رواية جفر الأملاك، وهو موضع دير بني مرينا. الحموي: جـ٢ ص٥٠١.

(٤) ابن الأثير: جـ١ ص٣٩٦. أبو الفداء: جـ١ ص١٢٢.

(٥) الأصفهاني، حمزة بن الحسن: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء: ص١١١، ١١٢. ومسحلان: ملتقى النخلتين اليمانية والشامية، وقيل بطن نخلة بناحية مكة على مرحلة بينها وبين مُغيثة الماوان.

(٦) ابن الأثير: جـ١ ص٤٩٤. زيدان: ص٢٤٧.

وأخبر الأول بأنها تأتيه من المنذر بناء لاتفاق أخيه معه بهدف الإيقاع به والاستيلاء على أملاكه. وما زال المنذر يُغري الأخوين على محاربة بعضهما حتى نشبت الحرب بينهما. فزحف شرحبيل فيمن معه من الجيوش لمحاربة أخيه ونزل الكلاب[١]، وأقبل سلمة فيمن معه من تغلب والنمر بن قاسط، وانضم إليه الصنائع، وهم قوم من شذاذ العرب المرتزقة. واشتبك الأخوان في رحى معركة ضارية، ولما اشتد القتال انسحب بنو حنظلة وعمرو بن تميم والرباب من جيش شرحبيل ما أضعف جبهته القتالية، فانهزم وفر من أرض المعركة، ثم قُتل على يد أبي حنش، فاحتز رأسه وأرسله إلى أخيه سلمة[٢]. وفي رواية أن شرحبيل قُتل على يد عصيم بن النعمان التغلبي[٣].

تأثَّر سلمة لمقتل أخيه وأدرك نوايا المنذر بالتفريق بين الإخوة وضربهم بعضهم ببعض، وأضحى لا يأمن على نفسه، فغادر بلاد تغلب والتجأ إلى قبيلة بكر بن وائل التي أذعنت له ما أثار حفيظة المنذر فدعاهم إلى الدخول في طاعته فأبوا وتمسكوا بزعامة سلمة، فما كان منه إلا أن سار إليهم وحاربهم في أوارة[٤]، وهزمهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأحرق نساءهم، ويُعرف هذا اليوم في تاريخ العرب بيوم أوارة الأول[٥]، وما لبث سلمة أن توفي بعلة الفالج[٦].

حجر بن الحارث

هو أكثر أولاد الحارث بن عمرو ذكراً وشهرة لأنه كان والد الشاعر امرئ القيس. كان حجر يقيم بتهامة بعيداً عن منازل بني أسد الذين كانوا يكرهونه ويسعون للتخلص منه بسبب سوء سيرته فيهم، ويبعث بجباته إليهم لتحصيل الأتاوة السنوية، وظل على ذلك مدة حتى مات أبوه وأخواه شرحبيل وسلمة، فانتهز بنو أسد بقيادة علباء بن الحارث أحد بني ثعلبة هذه الفرصة وقرَّروا التخلص منه، فرفضوا دفع الأتاوة المقررة عليهم وضربوا الجباة، فسار إليهم حجر بجند من ربيعة ومن قيس وكنانة، فاستباحهم وجعل يقتلهم بالعصا وسيَّرهم إلى تهامة، وحبس جماعة من أشرافهم من بينهم الشاعر عبيد بن الأبرص الذي ألقى قصيدة بين يديه استعطفه بها، فرقَّ لهم وعفا عنهم وأطلق سراحهم. لكن هؤلاء عادوا بعد مسيرة يوم، بتحريض من كاهنهم عوف بن ربيعة بن عامر الأسدي، إلى معسكر حجر، فهجموا عليه في

(١) الكلاب: موضع بين البصرة والكوفة على سبع مراحل من اليمامة. الحموي: جـ٤ ص٤٧٢.
(٢) ابن الأثير: جـ١ ص٤٩٤، ٤٩٥.
(٣) ابن خلدون: جـ٢ ص٢٧٤.
(٤) أوارة: اسم ماء أو جبل لبني تميم، قيل بناحية البحرين. الحموي: جـ١ ص٢٧٣.
(٥) ابن الأثير: جـ١ ص٤٩٧.
(٦) ابن خلدون: جـ٢ ص٢٧٤.

قبته وقتلوه، قتله علباء، وكان حجر قد قتل والده، ولفُّوه في ريطة بيضاء وألقوه في الطريق، ونهبوا معسكره، وأجار عمرو بن مسعود عياله[١].

وقيل إن حجراً لما رأى اجتماع بني أسد عليه خافهم واستجار عويمر بن شجنة، أحد بني عطارد بن كعب بن زيد مناة بن تميم، لابنته هند وعياله، وارتحل عن بلادهم وأقام في قومه مدة، ثم جمع جمعاً منهم وأقبل على بني أسد لقتالهم، فتصدَّى له هؤلاء بزعامة علباء بن الحارث وقاتلوه قتالاً شديداً حتى هزموه وقومه وأسروا من أهل بيته، وأخذوا جواريه ونساءه وغنموا أمواله، ووقع حجر في الأسر، فوُضع في قبة قبل أن يقتله علباء. وفي رواية أن ابن أخته قتله بحديدة كانت في يده[٢]، وكان ذلك في عام (٥٥٠م)[٣].

ذيول مقتل حجر بن الحارث

وصلت أخبار مقتل حجر بن الحارث إلى مسامع أولاده، ويبدو أنهم تلكَّأوا في طلب الثأر باستثناء امرئ القيس، وهو الابن الأصغر، الذي كان طريد والده بفعل سلوكه السيء، فقد كان يقول الشعر ويشرب الخمر الذي كان عادة مذمومة في بعض المجتمعات العربية، ويتحرَّش بزوجات والده.

كان امرؤ القيس آنذاك في دمّون بحضرموت يشرب الخمر ويلعب بالنرد مع نديم له، وإذ أتاه نعي والده، ودُفع إليه كتابه الذي خطَّه قبل أن يموت يُبيِّن فيه قصته ومَنْ قتله؛ قال: «ضيعني أبي صغيراً وحمَّلني دمه كبيراً، لا صحو اليوم ولا سكر غداً، اليوم خمر وغداً أمر»، «الخمر والنساء عليَّ حرام حتى أقتل من بني أسد مائة وأطلق مائة»[٤].

واستنصر الأمير الكندي قبائل العرب ضد بني أسد وبخاصة قبيلتي بكر وتغلب، واصطدم بهم في معارك متفرقة، وأكثر القتل فيهم حتى اضطروا إلى الفرار. واعتقد بنو بكر وبنو تغلب بأنه أدرك ثأره وبرَّ بيمينه، فانصرفوا عنه، وتفرَّق من حوله من كان معه من حِمير وغيرهم، ورفضت قبائل أزد شنوءة مساعدته وقالوا له: «إخواننا وجيراننا»، وأعلنت قبائل معد الحرب عليه.

ويبدو أن بني أسد احتموا بالمنذر بن ماء السماء ملك الحيرة فاستغل هذا الفرصة للثأر منه، فهدر دمه، ووجَّه الجيوش من إياد وبهراء وتنوخ لمطاردته، ولما لم يكن له بهم طاقة نجا في جماعة من أهله، وطاف عبثاً في أحياء العرب يطلب النصرة

---

(١) اليعقوبي: جا ص٢٦٥. ابن الأثير: جا ص٤٦٣، ٤٦٤.

(٢) ابن الأثير: جا ص٤٦٤، ٤٦٥. (٣) زيدان: ص٢٤٧.

(٤) ابن الأثير: جا ص٤٦٥.

حتى حلَّ به المطاف أخيراً عند السموأل بن عادياء، صاحب الحصن الأبلق في شمالي الحجاز، فرَّحب به. وأقام امرؤ القيس عنده مدة، وكان قد قرَّر الاستعانة بقوى خارجية بعد أن خذلته القوى المحلية، فطلب من السموأل أن يتوسط له لدى الحارث بن أبي شمر الغساني حليف البيزنطيين ليوصله إلى الامبراطور البيزنطي، لطلب الدعم العسكري، ففعل، ويبدو أنه أراد أن يلعب على وتر العداء بين هذا الامبراطور والامبراطور الفارسي الذي كانت إمارة الحيرة تابعة له.

وذهب امرؤ القيس إلى القسطنطينية واجتمع بالامبراطور جستنيان الأول (٥٢٧ ـ ٥٦٥م)، ويبدو أن العاهل البيزنطي اقتنع بعدالة قضيته، فزوَّده بحوالي تسعمائة من أبناء البطارقة. ولما علم بنو أسد بذلك نهضوا لإفشال المشروع، فأرسلوا رجلاً إلى القسطنطينية يُدعى الطماح شرح للامبراطور البيزنطي سوء سيرة امرئ القيس وأخلاقه، وذكر له أنه يشتمه في شعره، ويراسل ابنته وينظم فيها شعراً اشتهر بين العرب، ويذكر الإخباريون أنه كان لامرئ القيس مراسلات عاطفية مع ابنة الامبراطور.

وصدَّق الامبراطور البيزنطي ما قاله مبعوث بني أسد، فعدل عن مساعدة امرئ القيس، ثم أرسل من قتله بالسم بواسطة حلة مسمومة، فما إن لبسها حتى سرى السم في جسده، وسقط جلده، ولذلك سُمي بذي القروح، كما أُطلق عليه الملك الضليل لكثرة ما عاناه من تشريد بين القبائل، وكان قد وصل آنذاك إلى أنقرة في طريق عودته، فدفن فيها في سفح جبل عسيب، وكان ذلك في عام (٥٦٠م) تقريباً[1]. ويذهب البعض إلى أن امرأ القيس كان مصاباً بداء قديم، وقد عاوده في ديار البيزنطيين وهو عائد إلى بلاده، فلما وصل إلى أنقرة، اشتد عليه المرض، فمات هناك.

الراجح أن هذه الرواية مبالغ فيها، إذ لا يعقل أن يغامر الامبراطور البيزنطي بإرسال جيش مع عربي ليس له من سند في مجتمعه، وأن يخوض حرباً في بلاد بعيدة، وعرة المسالك وغير مضمونة النتائج، في الوقت الذي كان الغساسنة في بلاد الشام حلفاء طبيعيين له يقومون ببسط نفوذه على القبائل العربية ويعينونه في حروبه ضد الفرس وغيرهم. وقد يكون الامبراطور البيزنطي قد أرسل امرأ القيس إلى الملك الغساني لمساعدته، ثم إن هذه الأخبار عن امرئ القيس، بعد مقتل أبيه ومصيره، رُويت في جملتها عن الكلبي المتهم فيما يرويه، والتلفيق واضح فيها، ويمكن أن يكون لها أصل تشهد به الأحداث، وهو أن يكون امرؤ القيس حاول عبثاً استرداد مُلك آبائه ولكنه مات من دون أن يُحقق ذلك. ومن الممكن أيضاً أن يكون قد حاول اللجوء إلى الحارث بن أبي شمر الغساني وأنه أوصله إلى القسطنطينية،

---

(١) الحموي: جـ١ ص٢٧١. جـ٤ ص١٢٤، ١٢٥. ابن الأثير: جـ١ ص٤٦٧ ـ ٤٦٩. زيدان: ص٢٤٧.

غير أنه مات في الطريق، ثم إن قصة ثأر جستنيان الأول لشرفه منه، قصة منتحلة نسجها القصاصون حين وجدوه يفخر بمغامراته الغرامية في شعره.

والحقيقة أن القصص أدّى دوراً واسعاً في حياة امرئ القيس بحيث طُمست معالمها سواء قبل مقتل أبيه أو بعده، ثم إننا لم نجد عند المؤرخين البيزنطيين أي إشارة إلى امرئ القيس بن حجر الكندي وزيارته لبيزنطية وطلبه النصرة منها ضد المنذر بن ماء السماء[1].

ومن الثابت أن امرأ القيس، بعد أن يئس من نصرة العرب له، قرَّر طلب المساعدة من البيزنطيين، فسار نحو الشمال حتى بلغ شيزر، ثم لا نعلم من أمره شيئاً بعد ذلك، وبخاصة كيفية وصوله إلى القسطنطينية، إنما روت المصادر نتائج اجتماعه بالامبراطور، ما يثير الشك حول هذه الرحلة في الأساس.

ومهما يكن من أمر، فقد كانت لعبة الدول الكبرى أوسع من طموحه، فلم يحصل على المساعدة المنشودة، وباءت محاولته بالفشل، وقُتل قبل أن يقتصَّ من أعدائه، وقد نتج عن ذلك تضعضع دولة كندة، وهجرة العشائر والبطون الكندية إلى أوطانها الأصلية في الجنوب حيث كوَّنوا إمارات صغيرة لهم، أشهرها: دومة الجندل، والبحرين، ونجران، وغمر ذي كندة، واستمرت هذه الفروع حتى قيام الدولة الإسلامية[2].

وفي رواية أن المُلك انتقل بعد امرئ القيس إلى بني جبلة بن عدي بن ربيعة بن معاوية، واشتهر منهم قيس بن معديكرب وابنه الأشعث. وذهب بعض الباحثين إلى أن كندة تعرَّضت لغزو من الشمال على يد المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة، الذي قضى على استقلالها، ونزح الكنديون تباعاً إلى أوطانهم الأصلية في الجنوب حيث استقروا في قشم، أرض أوسان القديمة، ودخل أعداد منهم في جيش حِمير، وقد عُرفت المنطقة التي استقروا فيها باسم سروج مذحج[3].

حضارة كندة

لم يكن لكندة حضارة على مستوى حضارات ممالك الجنوب والشمال، إذ إنهم احتفظوا بعاداتهم ونظمهم القبلية، كما لم تكن لهم حواضر ثابتة وإنما كانوا في تنقل دائم بين الجنوب والشمال، غير أنهم أسسوا خلال استقرارهم مراكز عمرانية مثل دومة الجندل، شيَّدوا فيها القصور مثل قصر مارد[4]، وكانوا ينعمون فيها متأثرين

---

(١) ضيف: ص٢٤٠، ٢٤١.

(٢) زيدان: ص٢٤٧.

(٣) نورة: ص٥٢.

(٤) يُقال بأنه كان مُلكاً للسموأل، صاحب حصن الأبلق. الألوسي: جا ص١١.

بالبيزنطيين والساسانيين، كما عاشوا في قباب من النسيج أو فساطيط على عادة أهل البدو، ومن الكنديين من كان يقضي وقته بالصيد البري.

اتصف الكنديون بالبراعة في القتال، إذ إنهم محاربون أشداء، وتعتمد قوتهم على مدى ما يستنفرونه من القبائل المنضوية تحت نفوذهم بالإضافة إلى المرتزقة. وظهر من بينهم شعراء كبار أمثال أمرئ القيس بن حجر ومعديكرب بن الحارث. وللأول فضل كبير على تطور الشعر العربي بما أدخل فيه من الفنون الجديدة كانت مثالاً احتذاه الشعراء، فقد وقف على الأطلال واستوقف، وبكى وأبكى من معه، وذكر الحبيب والمنزل، وشبَّه بدقة[١].

كان الكنديون على الوثنية يعبدون الأصنام، ومن أصنامهم ذو الخلصة بتبالة بين مكة واليمن، وكلما هموا القيام بعمل استسقموا عنده بالأزلام، فكانت له ثلاثة أقداح، الآمر والناهي والمتربص، وعندما همَّ امرؤ القيس بالغارة على بني أسد مرَّ بذي الخلصة فاستسقم عنده ثلاث مرات، فخرج الناهي، فكسر القداح وضرب به وجه الصنم، ثم غزا بني أسد وظفر بهم، ولم يُستسقم عنده بشيء بعد ذلك، فكان امرؤ القيس أول من أخفره[٢]. وكان حجر بن عمرو آكل المرار زنديقاً[٣].

ويبدو أن ابنه عمرو المقصور كان يتزندق، يتجلّى ذلك من قوله في وجود الخير والشر، وهما أساس الثنوية:

إن تجهلوا دهركم فالدهر يومان　　　خير وشر هما شيئان اثنان[٤]

وانتشرت اليهودية في كنانة وكندة[٥]، ويبدو أنها سرت إليهم نتيجة مجاورة اليهود لبني كنانة في يثرب وخيبر، ومن اتصال كندة بالتبابعة في المرحلة الأخيرة من تاريخهم وتبعيتهم لهم، كما انتشرت النصرانية في كندة، وقد انتقلت إليهم عن طريق الغساسنة وعبَّاد الحيرة والأحباش في اليمن. والراجح أن أول من تنصَّر من ملوك كندة هو معديكرب الملقب بذي التاج الأوضح، ويسود الاعتقاد أن ولديه الأسود وقيس كانا نصرانيين[٦].

---

(١) ضيف: ص٢٤٩.　　(٢) أخفره: أبطله.

(٣) اليعقوبي: جـ١ ص٣١١.

(٤) الأصمعي، عبد الملك بن قريب: تاريخ العرب قبل الإسلام: ص١١٩.

(٥) ابن قتيبة: ص٣٣٩.

(٦) الأصمعي: ص١٢٤.

مملكة ميسان[1]

تمهيد

تمتد منطقة شمال شرقي الجزيرة العربية من شط العرب جنوباً حتى الجزيرة الفراتية شمالاً، وتضم أقاليم: شط العرب، والأراضي التي تقع بين نهري دجلة والفرات وما يجاورهما، والجزيرة الفراتية، وقد سكنتها قبائل عربية قدمت من الجزيرة العربية مدفوعة بالجفاف والجوع في أزمان متعاقبة، ونصَّب ساداتها أنفسهم عمالاً عليها منذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد. وتدل أسماء أولئك العمال على أن أصحابها كانوا من أصل عربي، وأن الأسر التي كوَّنوها هي أسر عربية، نستدل ذلك من أسماء ملوكها الأوائل، والمعروف أن الملوك المتأخرين يتأثرون عادة بتيارات عصرهم الاجتماعية وبرسومه وعاداته، فيتخذون ألقاباً وأسماء يونانية أو سريانية أو فارسية تُظهرهم وكأنهم من أصل يوناني أو سرياني أو فارسي، في حين أنهم من أصل عربي، ولهذا كانت لأسماء مؤسسي الأسر أهمية كبيرة في إثبات أصل الأسرة[2].

واستغل هؤلاء الأعراب أهمية الطرق التجارية البرية التي تمر بالبوادي فتحكَّموا في مسالكها، يجبون الضرائب من التجار أثناء مرورهم بمناطق نفوذهم، كما استغلوا أهمية الماء بالنسبة للقوافل والجيوش التابعة للمعسكرين الشرقي، الفرس، والغربي، الروم، لانتزاع أفضل الشروط مقابل تقديم الخدمات لهم.

والواقع أن أرض الجزيرة ومنطقة الفرات كانت في المدة المشار إليها تحت حكم سادات القبائل يحكمون أراضي صغيرة وكأنهم عمال، وقد شكَّلوا ممالك أو إمارات صغيرة، يعمل أتباعهم بالرعي أو بالزراعة أو بالتجارة، وتكاد منازلهم تكون ثابتة، ولهم نظام حكومة قائم على حكم مشايخ القبائل. وكان قسم منهم أعراباً يتنقلون في البادية، ومنهم أشباه أعراب، وقد أطلق اليونانيون على أكثرهم اسم ساكني الخيام،

---

(١) ميسان: اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط قصبتها ميسان. الحموي: جـ٥ ص٢٤٢.

(٢) علي: جـ٢ ص٦٠٤، ٦٠٥.

وتمتد منازلهم من أعالي الفرات حتى تبلغ ملتقاه بدجلة في الجنوب، وأذكر من هذه الممالك: ميسان والحضر والأباجرة والرها والحيرة.

أوضاع مملكة ميسان

شغلت مملكة ميسان الأراضي الواقعة جنوبي بلاد الرافدين والتي يخترقها نهر دجلة وشط العرب ونهر الكرخة ونهر كارون في أطرافها الجنوبية وتتخللها بعض المجاري المائية التي تتفرع عن هذه الأنهار، وكانت قاعدتها كرخ ميسان التي تقع في الطرف الجنوبي الشرقي من القرنة الحالية، ولذلك أُطلق عليها اسم دولة الكرخ.

ظهرت مملكة ميسان على المسرح السياسي في القرن الثاني قبل الميلاد واستمرت حوالي ثلاثة قرون، توسَّعت خلالها فوصلت شرقاً إلى حدود الهضبة الإيرانية التي تفصل بينها وبين جبال زاغروس، وامتدت جنوباً إلى الخليج العربي، وأطلَّت في جهاتها الشمالية والغربية على بلاد الرافدين وأراضي الجزيرة العربية، ووصلت خلال ضعف البارثيين الفرس إلى مدينة بابل(١).

وعُرفت مدينة كرخ ميسان في المصادر الأوروبية القديمة باسم خاراكس(٢)، أسَّسها الإسكندر المقدوني على تقاطع نهري كارون ودجلة بهدف اتخاذها مركزاً تجارياً ينافس الجرهاء الواقعة على الساحل الغربي للخليج العربي والمركز الرئيس لتجارة العرب مع الهند، والسيطرة على التجارة القادمة من الخليج العربي، ودُعيت الإسكندرية نسبة إلى اسمه، وأسكنها أتباعه وجنوده، وقد أضفوا عليها الطابع الإغريقي(٣).

ويبدو أن المدينة تعرَّضت للدمار بفعل الفيضانات، وظلت مهملة حتى جاء أنطيوخوس الرابع (١٧٥ ـ ١٦٣ق.م) السلوقي، فأعاد عمارتها ودعاها باسمه(٤). وعندما تعرضت الدولة السلوقية للضعف بعد وفاة أنطيوخوس الرابع، اهتم ملوك ميسان بحاضرتهم وبخاصة الملك سباسينوس الذي أعاد بناءها، وحصَّنها ضد الفيضانات بواسطة سور، وأعطاها اسمه، فأضحت تُعرف باسم خاراكس سباسينو، وقد وردت في المصادر الرومانية بهذا الاسم(٥).

اشتهر الملك سباسينوس بحسن السياسة، فاستفاد من الظروف التي نجمت عن تعرض سلوقية لغزو البارثيين الفرس الذين زحفوا نحو العراق عن طريق همذان وتغلبوا على السلوقيين؛ فهاجم عيلام وتغلب على أهلها، وغزا بابل ودخلها في عام

---

(١) Nodelman, S.A: Preliminary History of Characene, Berytus the Museum of Archology of the American University of Beirut. vol 13 prt 2 p87.

(٢) Pliny: Bk6 p445.

(٣) علي: جـ٢ ص١٢.

(٤) Nodelman: pp85, 86.

(٥) Pliny: Bk6 p443.

(١٢٩ق.م)، وبدت سيطرته على بلاد الرافدين واضحة، واتخذ لنفسه لقب ملك العرب، وسك النقود باسمه[١].

وسلك خلفاء سباسينوس نهجه في الحكم، فسكوا النقود، ووطّدوا حكم ميسان، وسيطرو على طريق التجارة البرية والبحرية، وأقاموا علاقات تجارية مع الأنباط في شمال غربي الجزيرة العربية ومع التدمريين في سوريا، لتأمين تجارتهم، واستقرت في خاراكس جالية تدمرية كان لها رئيس ومعبد خاص[٢].

وقام هؤلاء الملوك بعدد من المشروعات العمرانية، فبنوا المدن، مثل مدينة الفرات ومدينة الأبلة التي أضحت ميناء تجارياً لميسان، واعتنوا بتحسين الطرق وتسهيل سبل التجارة، فوضعوا المنارات على الطرق التجارية، لإرشاد القوافل، وحاميات عسكرية[٣].

تأثرت النظم الاجتماعية والدينية لمملكة ميسان بالنظم الأغريقية، فسك الميسانيون النقود على الطراز اليوناني القديم، وقد ظهرت على أحد وجهيها صور رؤوس ملوك ميسان بأزيائهم العربية، وعلى الوجه الآخر صور ترمز إلى آلهة الإغريق، وتدل على الرخاء الذي بلغته هذه المملكة، وفي المقابل لم يتأثر الميسانيون بالبارثيين الفرس الذين سيطرو على أواسط العراق، ولم يأخذوا منهم أي مظهر من مظاهر حضارتهم، بل ظلوا متمسكين بثقافتهم وعاداتهم المحلية وبالكتابة المسمارية حتى القرن الأول الميلادي حيث حلّ الخط الآرامي مكانها[٤].

تعرَّضت مملكة ميسان في أواخر أيامها لضغط جيرانها الفرس والرومان إلا أنها بقيت تتمتع بقدر من الاستقلال والازدهار حتى مجيء الساسانيين، فغزاها الملك أردشير الثاني واستولى عليها وقتل ملكها منهياً بذلك حكم الدولة الميسانية، غير أن موانئ هذه الدولة، مثل الفرات والأبلة، ظلت مراكز تجارية للسلع الهندية في العهد الساساني وبخاصة بعد أن سيطر هؤلاء على تجارة المحيط الهندي في القرن السادس الميلادي[٥].

بقي أن نذكر أهم ملوك الدولة الميسانية، استناداً لما نُقش على نقودهم: هسبانوس (١٢٥ ـ ١٢١ق.م)، أبو داكوس (١١٠ق.م)، تيرايوس الأول (٩٥ ـ ٨٨ق.م)، تيرايوس الثاني (٧٨ ـ ٤٧ق.م)، أرطبان (٤٨ق.م)، أتمبيلوس الأول (٤٧ ـ ٢٧ق.م)، بنوانسوس (٧٠ق.م)، ابن أرجيكس (١٠ق.م)، أعتلد (١٠ق.م ـ ١٣م)، أسبزد (١٠م)، أتام بلد (١٠م)، متردات (١٤٢م)، ابن أرحول الثاني (٢١٠ ـ ٢٢٤م)، فاجا[٦].

---

(١) Nodelman: p87.
(٢) نورة: ص٥٢. Ibid: p93.
(٣) The Periplus of The Erythean Sea. Chap 35 p36.
(٤) معطي: ص٢٧٨.
(٥) نورة: ص٥٣. Nodelman: p120.
(٦) العلي، صالح أحمد: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية: ص٦٥، ٦٦.

مملكة الحضر

تمهيد

لم تنقطع هجرة القبائل العربية من الجزيرة العربية باتجاه الشمال على مر الزمن، وعلى أثر سقوط نينوى عاصمة الأشوريين في أيدي الكلدانيين عام (٦١٢ق.م)[١]، تدفَّقت القبائل العربية من أقاليم غربي وجنوب غربي الجزيرة العربية إلى جنوبي بادية العراق الشمالية المعروفة باسم الجزيرة الفراتية، ووصلت في تقدمها إلى نينوى وديار بكر شمالاً، وإلى أراضي منطقة البتراء غرباً، وإلى مدينة الرها وسهل أنطاكية، وقد أعطوا المنطقة اسمهم حتى أضحت أقاليم بلاد ما بين النهرين الشمالية، والتي تقع مدينة الحضر ضمن مداها الجغرافي، تُعرف بعد سقوط نينوى بنحو قرن باسم عربايا؛ أي بلاد العرب، وورد ذكرها بهذا الاسم في نقش بهستون الذي يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد، وذلك من بين الأقاليم التابعة للامبراطور الأخميني دارا الكبير (٥٢٢ ـ ٤٨٥ق.م).

النطاق الجغرافي

إن اسم مملكة الحضر مشتق من اسم الحاضرة، وهي الحضر الواقعة اليوم بين دجلة والفرات في البرية قرب وادي الثرثار على الجانب الغربي منه، على بعد سبعين كيلومتراً إلى الجنوب الغربي من الموصل[٢]، وهي مدينة هترا القديمة. يحدها نهر دجلة من الشرق، ونهر الفرات من الغرب، وجبال سنجار من الشمال، ومشارف المدائن من الجنوب، وكانت في العهد الأشوري حصناً مبنياً بالرخام يسكنه ملوك الضيازن أو قرية صغيرة تقوم على أرض غنية بالينابيع والآبار والمياه الجوفية التي تتجمع من مياه الأمطار المتدفقة من سلسلة جبال سنجار، إلا أن نفوذها امتد في الشمال إلى ما وراء سنجار فوصل إلى الخابور ونصيبين[٣].

---

(١) عثمان، عبد العزيز: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: جـ١ ص٣٥٩.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: جـ٧ ص٤٥٨.

(٣) سوسة، أحمد: العرب واليهود في التاريخ: ص٢٥١.

الأوضاع السياسية

تطورت مدينة الحضر مع الوقت واتسعت فأضحت مدينة كبيرة ومركزاً للقبائل العربية المهاجرة إلى بادية الجزيرة الفراتية، وأضحت قوة عسكرية أساسية في الصراعات المحلية والدولية، وشكَّلت إحدى الإمارات العديدة التي كانت تابعة للدولة البارثية الفارسية (٢٥٠ق.م ـ ٢٢٦م) بموجب اتفاقيات عسكرية، إلا أنها تمتعت باستقلال ذاتي، يتولى إدارتها حكام محليون لهم نظمهم القومية والدينية، وحق ضرب النقود وجمع الضرائب(١).

واستغل سكان الحضر تراجع قوة البارثيين الفرس بفعل حروبهم مع الرومان، فوطَّدوا سلطتهم، وعزَّزوا استقلالهم، وحصَّنوا مدينتهم، وبنوا البيوت بالحجارة المنهدمة، وجعلوا فيها ستين برجاً كباراً بين البرج والبرج تسعة أبراج صغيرة وبإزاء كل برج قصر وإلى جانبه حمام(٢)، وحموا قوافل التجارة المارة بأراضيهم، وتلقب حكامهم بلقب السيد، برز منهم السيد نشريهب وابنه ورود، وتمكَّنوا في عام (١١٧م) من التصدي لحملة الامبراطور الروماني تراجان على العراق، وكان رئيس الحضر آنذاك نصرومريا(٣).

بلغت دولة الحضر في عهد ملكها نصرومريا وابنه معنو، درجة متقدمة من النمو والازدهار أتاحت للملك ولجش (١٥٥ ـ ١٦٥م) الذي خلفهما أن يتخذ لنفسه لقب ملك العرب(٤)، ووسَّع أراضيه، ونمَّى تجارة بلاده.

ومن أبرز ملوك هذه المرحلة فيطرون الأول أو الساطرون الذي استغل انهماك الدول الكبرى في صراعاتها، فعزَّز مكانة بلاده، فنمَّى تجارتها وشيَّد سور المدينة الشمالي والأروقة المجاورة، وبنى المعبد الرابع، وأقام التماثيل للآلهة، ونقش على كل منها لقبه، وهو ملك العرب، وضرب نقوداً نقش على أحد وجهيها صورة النسر وعلى الوجه الآخر إله الشمس بهيئة ثياب وحول رأسه هالة مشعة(٥).

وكان عبدسميا أو برسميا، الذي ورد اسمه في النقوش المكتشفة في الحضر، ملكاً حاكماً في عام (١٩٢م) وقد خلفه ابنه سنطرون الثاني أو الساطرون، وتسميه العرب الضيزن بن جلهمة أحد الأحلاف، وكان من الجرامقة(٦)، ويُعدَّ أشهر ملوك

---

(١) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي: ص٤٢٤، ٤٢٥.

(٢) الحموي: ج٢ ص٢٦٨.

(٣) العلي: ص٧٠.

(٤) سوسة: ص٢٥٢.

(٥) الدليل الأثري والحضاري: ص٤٢٥.

(٦) الحموي: ج٢ ص٢٦٨.

الحضر حيث امتدت مملكته بعيداً إلى الخابور وعبْر الفرات، فشملت كامل الجزيرة الفراتية وبعض أجزاء من بلاد الشام، وقد دفعه ذلك إلى أن يلقب نفسه بالمظفر ملك البلاد العربية. وانتهز فرصة نشوب النزاع بين الأمراء البارثيين على السلطة لزيادة نفوذه وتمتعه بالاستقلال التام في تصرفاته واتصالاته، فتحالف مع الرومان وسمح لهم بإقامة حامية عسكرية في شمالي بلاد الرافدين، وقاتل الساسانيين الفرس إلى جانبهم، وهم الذين خلفوا البارثيين، وأغار على السواد وبلاد فارس في منطقة شهرزور فأسر ماه، أخت سابور الأول (٢٤٠ ـ ٢٧١م) الذي كان بخراسان وذلك في عام (٢٣٢م) ما أثار هذا الامبراطور الفارسي، فجهَّز حملة عسكرية وسار على رأسها إلى بلاد العرب. فتقدم نحو العراق واجتاح بلاد الرافدين وحاصر مدينة الحضر مدة أربع سنوات وقيل سنتين، فاستعصت عليه، ولم يدخلها أخيراً إلا بمساعدة النضيرة، ابنة الضيزن ملك الحضر، فقتل الساطرون وأتباعه وضمَّ مملكة الحضر إلى ملك الساسانيين في عام (٢٤١م) وحكمها حتى عام (٢٧٩م)، ثم قتل الأميرة بفعل عقوقها لأبيها وخيانتها لبلادها[(١)] ودُمِّرت مدينة الحضر قبل عام (٣١٠م)، إذ عندما اعتلى الامبراطور سابور الثاني العرش الساساني (٣١٠ ـ ٣٧٩م) كانت المدينة خراباً[(٢)].

الأوضاع الدينية

مما لا شك فيه أن سكان الحضر كانوا عرباً لكنهم تأثروا بالبيئة التي عاشوا فيها فتثقَّفوا بالثقافة الآرامية، وتكلموا لغة عربية ـ آرامية، أما لهجتهم فهي فرع من المجموعة الشرقية للهجات الآرامية التي تشمل اللهجة السريانية، والرهاوية، ولغة التلمود البابلي واللهجة المانديّة[(٣)]، والمعروف أن اللغة الآرامية كانت آنذاك لغة التدوين والمراسلات عند معظم شعوب الشرق الأدنى القديم.

وتبوأت الحضر مكانة دينية متميزة عن ديانات شعوب بلاد الرافدين القديمة كالسومريين والبابليين والأشوريين والفرس، بالإضافة إلى الأقوام الطارئة كالإغريق والرومان، فكانت ديانتها مزيجاً من ديانات الشعوب العربية وغير العربية التي مرَّت على بلاد الرافدين وتركت بصماتها في تاريخها، وقوامها عبادة الظواهر الطبيعية مع الميل إلى التبسيط في المعتقد والعبادة.

وخصَّ الحضريون الشمس بالأولوية في العبادة، وهي عندهم مذكر يعرف باسم شمش، وعدُّوه كبير آلهتهم، والإله العظيم الذي يبعث الحياة في الأشياء، ويخلق

---

(١) الطبري: ج٢ ص٤٧، ٤٨.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: ج٧ ص٤٥٩. (٣) سوسة: ص٢٥٣.

الكائنات، ويمنح الخير والفوز والعدل والنظام للبشر، وأطلقوا عليه اسم مرن، ورسموه على منحوتاتهم بأشكال مختلفة إنسانية وعلى هيئة نسر[١]، زينوا بها المعابد ووضعوها في الساحات العامة وعلى أبواب المدينة، وشيَّدوا في وسط المدينة معبداً كبيراً أطلق عليه اسم «بيت إلها»، فكان مركزاً للنشاط الديني والاجتماعي، يحج إليه الناس من أماكن بعيدة، ويقدمون فيه نذورهم، ويدفنون بجواره موتاهم. ويرمز ضرب صورة إله الشمس على المسكوكات الحضرية توثيقاً للصلة بين الحضر وبين القبائل العربية المتنقلة في بادية الجزيرة الفراتية أو الساكنة في أريافها والتي كانت تعبد الشمس.

وشيَّد الحضريون إلى جانب المعبد الكبير أحد عشر معبداً صغيراً، وخصَّصوا كل واحد منها لصنم من آلهتهم الوثنية وقسَّموه إلى مصلى يُفضي إلى غرفة الإله الذي بني له، وأمامه فناء مربع الشكل على جوانبه صف من الحجرات لسكن الكهنة وإقامة الزائرين، وفي داخل كل بيت مجموعة من التماثيل الصغيرة مع صنم إله المعبد وكذلك تماثيل لرجال المدينة ومشاهيرها. ويوجد في كل معبد صندوق لجمع النقود من المتبرعين للمعبد، ويوضع عند مدخل الخلوة وبإزائها حوض للماء المقدس وبجوارها كأس للقرابين، وفي كل معبد محارق للبخور ومواقد للنار ومساند للتماثيل وأدوات مصنوعة من نحاس ومن معادن ثمينة[٢].

وكان للآلهة والمعابد رجال دين يخدمونها ويشرفون عليها، وشكَّلوا طبقة متميزة، أعلاها الأفكل، وهو رئيس السدنة، ويليه كمرا، وهو الكاهن، وكمرتا، وهي الكاهنة، وتشيشا، وهو القسيس، والسفرا، وهو الكاتب المسؤول عن الكتب الدينية يستنسخها ويحفظها ويحافظ عليها من الضياع والتزوير، ورب بيتا المسؤول عن المعبد وهو رب المعبد أو سيده. ومن موظفي المعبد الزمار، ويُعرف باسم استرا، والمدير العام المشرف على أملاك المعبد ويُعرف باسم عبد إلها، ومنهم محاسب المعبد ويُعرف باسم عقبة بن عقب، ونُعت رئيس معبد الحضر الكبير بسادن العرب على غرار تلقُّب ملوك الحضر بملوك العرب[٣].

وشاعت عقيدة التثليث في المجتمع الحضري، وهي عقيدة انتشرت بشكل واسع في بلاد ما بين النهرين. فقد اشتهر الثالوث: الإله الأب مرن، والإلهة الأم مرتن،

---

(١) للنسر منزلة سامية عند القدماء، فهو يمثل إله الشمس ويرمز إلى سيادته وهيمنته، والنسر يُحلِّق عالياً في كبد السماء كما تفعل الشمس في مدارها، فيراقب من علو ما يحدث على سطح الأرض.

(٢) الدليل الأثري والحضاري: ص٤٢٦.

(٣) المرجع نفسه. سفر، فؤاد: مجلة سومر، مجلد ٨، ١٩٥٢م، ص٣٧ ـ ٥٢. مجلد ٢١، ١٩٦٥م، ص٢٢.

والإله الابن برمرين. ونقش الحضريون صورة الإلهة مرتن «السيدة» على منحوتاتهم على هيئة امرأة ترتدي ثوباً شفافاً ويخرج جسمها من وسط ورقة الأكانثوس بشكل هلال وكأس، أما الإله الابن، فرُسِم في بعض النقوش شاباً قوي البنية حول رأسه هالة مشعة ووراءه هلال، ويخرج جسمه من هلال ثانٍ[1].

ومن آلهة الحضريين أثرعتا، زوجة الإله شمس، وقد نقشوها على منحوتاتهم على هيئة سيدة تجلس على كرسي، وعلى جانبيها أسدان يلتفتان إليها، وهي الإلهة عشتار البابلية، ومنها الإله نرجول أو نرجل، وقد عثر على عدد كبير من أصنامه في كل معابد الحضر، وهو إله الحرب، ويبدو أن الحضريين اقتبسوا عبادته من الأشوريين الذين يُعرف عندهم باسم نرجال وهو إله الحرب وحارس العالم تحت الأرض حيث معبد الأرواح، وصوَّروه على مسكوكاتهم بصورة رجل عاري الجسم بيده هراوة وعلى ساعده جلد أسد، وهي كصورة هرقل عند الإغريق[2].

وتردَّد اسم الإلهة اللات كثيراً في الكتابات الحضرية، فقد وُجدت بضعة تماثيل ومنحوتات تمثلها بالهيئة التي كانت تُصور فيها الإلهة أثينا عند اليونان، ببزة عسكرية وعلى رأسها خوذة ومرتدية درعاً مزركشاً وممسكة بإحدى يديها رمحاً وبالأخرى ترساً، ولها معابد خاصة تقوم على خدمتها زمرة من المغنيات، وتسمى بها كثير من الحضريين مثل: عويذ اللات، جرم اللات، زيد اللات.

وعبد الحضريون أيضاً مجموعة مكونة من سبعة آلهة تمثل الكواكب الخمسة المعروفة لديهم[3] يضاف إليها الشمس والقمر، ولكل من هذه الآلهة يوم من أيام الأسبوع تُعبد فيه[4].

واعتقد الحضريون بقدسية بعض الحيوانات، كالأفعى والثور والبطة والأسد والكلبة والعنقاء، كما اعتقدو بالأحلام وتأثيرها في مصير الإنسان، وبكونها الوسيط الذي تحقق الآلهة فيه إرادتها، وتنقل للإنسان أوامرها.

التنظيمات المدنية والعسكرية

كان يدير السياسة العامة في الحضر مجلس الشيوخ المؤلف من زعماء القبائل، ويلقب كل عضو بـ«ريا» أي الزعيم، ويشاركهم قادة الجيش ورؤساء القوافل؛ أي كبار التجار، على أن يكونوا من الأشراف أو من الذين أدوا خدمات جليلة للدولة،

---

(١) العلي: ص٧٧. (٢) المرجع نفسه.

(٣) هي على الأغلب: المريخ، عطارد، المشتري، الزهرة وزحل.

(٤) سفر: مقال الحضر، مجلة سومر مجلد ٨، ١٩٥٢م، ص٣٧ ـ ٥٢.

فهو نظام مشيخي، وكان يراعى في الاختيار تمثيل العشائر والأسر البارزة.

يترأس مجلس الشيوخ زعيم يُلقب بـ«مريا»؛ أي السيد، ذكرت النقوش أسماء عدد منهم، وأبرزهم نشريهب، وورود الذي يبدو أنه بنى الإيوانين الكبيرين في المعبد. وكان نصرو بن مريا آخر سيد في الحضر وقد خلفه ابنه سنطرون الثاني الذي اتخذ لنفسه لقب ملك، مفتتحاً بذلك العهد الملكي في الحضر[(١)].

وتطلبت الأوضاع السياسية التي شهدتها الحضر على مراحل زمنية متعاقبة، الاهتمام بالجيش والعناية بإقامة التحصينات حول المدينة وترميم الأسوار والأبراج الكثيرة التي اشتهرت بها البلاد والتي تحيط بالمدينة، وتعزيزها بالمجانيق والقذائف النارية التي اشتهرت باسم القذائف الحضرية[(٢)].

وتعدَّدت غايات التدريب العسكري من الدفاع عن المدينة إلى الإسهام في عمليات التوسع وتأمين السيطرة والمحافظة على المكتسبات. واستعمل الحضريون من الأسلحة: الخناجر والسيوف والرماح والنبال، واستخدموا الإبل لنقل المعدات.

ومجَّد الحضريون الأعلام وأطلقوا عليها اسم سميا وأدخلوها في أسمائهم المركبة فكان اسم عبد سميا من أشهر الأسماء. ويُرمز إلى علم الحضر، عادة، بسارية على رأسها نسر ويليه في الأسفل هلال وصورة إله الشمس، وحول رأسه أشعة وثلاثة أكاليل للنصر وأحياناً ثلاثة نسور باسطة أجنحتها أو ثلاثة أقواس، ويقوم على حراسته شخص ذو رتبة عسكرية عليا ويُطلق عليه رب سميا؛ أي صاحب العلم[(٣)].

التجارة

عمل الحضريون بالتجارة، فتاجروا ونقلوا السلع التجارية من منتوجات الهند وجنوبي آسيا. وتمر القوافل التجارية بالأراضي العراقية لأنها أقصر الطرق التجارية مع الغرب، ويمتد الطريق الرئيس إلى أواسط العراق ثم يتفرع إلى مسالك عدة، منها ما يسير بموازاة نهر الفرات ثم يتجه إلى أعاليه أو ينحرف غرباً إلى تدمر وبلاد الشام، ومنها ما يسلك وادي دجلة أو يتجه إلى الحضر ومنها إلى سنجار ثم إلى نصيبين فأرمينيا في شرقي آسيا الصغرى.

وقد ساعدت قوة الحضر العسكرية وكياسة حكامها على سيطرتها على الطريق التجاري الذي يؤدي إلى مدن الجزيرة الفراتية وأرمينيا. فأمَّن الحضريون نقل السلع وأسهموا في العمليات التجارية، ما ساعد بلادهم على النمو والازدهار، رافق ذلك

(١) العلي: ص٧٣.
(٢) المرجع نفسه: ص٧٤.
(٣) الدليل الأثري والحضاري: ص٤٢٦.

ترقي الحياة الاقتصادية وبخاصة الصناعة وزيادة الثروة. وتضمَّنت النقوش الحضرية أسماء وتماثيل عدد من أهل الحضر الذين نسبوا إلى حرفهم أمثال: بنو البناء، كتصفي المعمار، حجلبا المهندس البناء، رنتى بن بهشي المهندس وكذلك ميوبسا وربا، ومن النحاتين: شمش يهب، عجا، وادي وربا، ومن أصحاب الحرف: بنو بنان القصار، كنزي السمكري والنجار. وكان للغناء مكانة متميزة، واشتهر أسنتر الزمار الذي سُمي بأمير الغناء[١].

(١) العلي: ص٧٥، ٧٦.

مملكة الرها

الإطار الجغرافي

تقع مملكة الرها في الإقليم الشمالي من بلاد الرافدين في القسم الأعلى من الجزيرة الفراتية وحاضرتها مدينة الرها. يحدها نهر دجلة من الشرق ونهر الفرات من الغرب، وتفصلها جبال طوروس عن الأناضول، ويخترق أطرافها الغربية نهرا البليخ والخابور، أرضها متموجة تكثر فيها المرتفعات والتلال، وتخترقها الوديان، وتغزر فيها الأمطار وبخاصة في فصلي الشتاء والربيع، ما جعل أرضها خصبة[(١)].

تُعد الرها من أبرز مدن الجزيرة الفراتية، فهي تقع عند تقاطع الطريق التجاري الممتد من سميساط إلى حرّان، بالطريق التجاري الكبير الذي يصل بين الشرق والغرب والذي يمتد من الفرات عند زوكا بلقيس وبيرتابيرة جك، ماراً بماردين ونصيبين، إلى دجلة حيث تمر قوافل التجارة الذاهبة إلى آسيا الصغرى وأوروبا.

عُرِفت الرها في اليونانية باسم أديسا، وهو أحد أسماء مدن تراقيا، كما عُرِفت بالسريانية باسم أورهاي، وبالأرمينية أورهي، ويُطلق عليها اليوم اسم أورفة. ويبدو أن المدينة كانت موجودة قبل الفتح المقدوني لكنها ضاعت في ثنايا الغموض وأعاد بناءها سلوقس الأول[(٢)]، وسماها أنطيوخوس الرابع أبيقان، باسم جديد مستمد من حاضرة مقدونيا إيكاي القديمة التي تُعرف اليوم باسم ڤودينا، ولعل لهذا الاسم علاقة بوفرة المياه في الرها[(٣)].

---

(١) الحموي: جـ٣ ص١٠٦.

(٢) يبتدئ تاريخ السلوقيين في عام ٣١١ق.م. عندما استولى سلوقس الأول على بابل واستقر بها، ووسَّع حدود دولته بعد معركة أيسوس في فريجيا بآسيا الصغرى عام ٣٠١ق.م فشملت سوريا الشمالية وبلاد ما بين النهرين وما في شرقيهما إلى الهند. انظر: الدبس، يوسف: من تاريخ سوريا الدنيوي والديني: جـ٣ ص٩١.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: جـ١٠ ص٢٦٦، ٢٦٧.

السكان

سكن العرب منذ أقدم الأزمنة منطقة الرها، وكانت تتوارد عليها موجات بشرية تقذفها الجزيرة العربية، فتحفظ سمات سكانها العرب. وأبرز القبائل التي ارتادت بواديها طيء، التي هاجرت من اليمن، وسيطرت على المنطقة في أوائل القرن الأول قبل الميلاد. وتتجلى عروبة سكانها من خلال الأسماء العربية التي شاعت عند سكانها مثل: معن، مذعور، أبجر، وائل، عبدو، بكر وصخر[١].

وعندما أدرك سلوقس الأول أهمية المدينة لحماية دولته أسكن فيها جالية إغريقية، وأغدق عليها الامتيازات؛ ما أثَّر بشكل كبير في نشر الثقافة الهلنستية، فسُكَّت النقود على الطراز الإغريقي وكُتِب عليها بالإغريقية، وتسمَّى كثير من رجال الطبقة العليا بأسماء إغريقية، وكانوا يرسلون أولادهم لتعلم الإغريقية في مدارس أنطاكية وبيروت والإسكندرية واليونان. وأتاح لها موقعها النائي نسبياً عن مراكز الدول الهلنستية الكبيرة في المشرق؛ أن تكون مأوى لعدد من الديانات والمذاهب والثقافات الشرقية، ما ولَّد نشاطاً فكرياً متعدد الجوانب تمثل فيما ظهر من فن وشعر وموسيقى وأدب وفلسفة وعقائد.

الأوضاع السياسية

كانت الرها في أول عهدها تحت حكم السلوقيين، ولما ضعفوا وتراجعت قوتهم منذ أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، وبفعل انهماك الدولتين الكبيرتين فارس وروما بحروبهما، أعلن الرهاويون قيام دولتهم المستقلة في عام (١٣٢ق.م) والتي عُرفت باسم مملكة الرها العربية أو دولة الأباجرة[٢]، وذلك على يد الملك أربو أو الملك أورهاي برجوبا[٣].

وبفعل موقع مدينة الرها الجغرافي الحدي بين نفوذ الدولتين الكبيرتين، ارتبط تاريخها السياسي بالصراع الذي كان قائماً آنذاك بينهما، فتواربت في سياستها، فهي تارة مع الفرس تشد أزرهم وتارة أخرى تتحالف مع الرومان، وأقامت علاقات ودية مع جيرانها، فارتبطت في أواخر القرن الأول الميلادي برباط المصاهرة مع الأسرة الأديابية الحاكمة في نصيبين[٤].

وتتابع على حكم الرها ملوك تفاوتوا في القوة والضعف، وعجز بعضهم عن

(١) العلي: ص٨١.

(٢) نسبة إلى اسم بعض ملوكها، وهو أبجر.

(٣) Duval, R: Histoire Politique, Religieus et Littéraire d'Edesse jusqu'à La Première Croisade p27.

(٤) Ibid.

مواجهة التحديات والأطماع التوسعية التي تعرَّضَت لها الدولة، من ذلك أن الملك أبجر الأول (٩٢ ـ ٦٨ق.م) خضع للملك الأرميني تكرانيس، كما خضع لنفوذ الفرس البارثيين حتى عام (٨٧ق.م). وعندما سيطر الرومان على غربي آسيا، بما فيها آسيا الصغرى وبلاد الشام، حرص ملوك الرها على إقامة علاقات جيدة معهم تجنباً لأخطارهم، وتأميناً لسير تجارتهم، وقد نجحوا في ذلك، فعمل الملك أبجر الثاني (٦٨ ـ ٥٣ق.م) على توسيع نفوذ روما في بلاده، وأنشأ علاقات ودية معها حوالي عام (٦٥ أو ٦٤ق.م)، ما أثار الفرس، فهاجموا الرها واصطدموا بالملك الرهاوي في معركة كاراهاي[1] الشهيرة، وانتصروا عليه، وانتهى عهده بفراغ في الحكم استمر عامي (٥٣ و٥٢ق.م).

ويبدو أن الحكم الروماني كان مكروهاً في الأوساط الشعبية، فقد حدثت ثورة ضد هذا الحكم في عهد الملك أبجر السابع (١٠٩ ـ ١١٦م)، ما دفع روما إلى إرسال فرقة عسكرية بقيادة لوكيوس كوتيوس، هاجمت الرها وأحرقتها، وفرضت السيادة الرومانية عليها والتي استمرت مدة سنتين (١١٦ ـ ١١٨م) حيث أُجبر الرومان على الخروج منها بمساعدة البارثيين الفرس، وتقديراً لهذه المساعدة، سمح الرهاويون بإقامة حامية بارثية في مدينتهم[2].

وشهد عهد الملك وائل بن سحر (١٦٣ ـ ١٦٥م) نشوب الحرب بين فارس وروما والتي شنَّها الامبراطور الروماني لوكيوس ڤيروس (١٦١ ـ ١٦٩م)، وقد نالت الرها نصيبها من الحرب حيث حاصرها الامبراطور الروماني وأجبرها على الاستسلام، وقتل الحامية البارثية، ودخلت المدينة تحت الحماية الرومانية[3].

وشهد عهد الملك أبجر التاسع (١٧٩ ـ ٢١٤م) حدوث فيضانات في عام (٢٠١م) أحدثت أضراراً جسيمة في المحصولات والممتلكات. وأقام هذا الملك علاقات ودية مع روما، فزارها في عام (٢٠٢م) لمعالجة ذيول الكارثة الطبيعية، فاستقبله الامبراطور الروماني سبتيموس سڤيروس (١٩٣ ـ ٢١١م) بالترحاب، غير أن خلفه الامبراطور أنطونيوس كركلا (٢١١ ـ ٢١٧م) قاد جيوشه باتجاه الشرق، فاحتل مدينة الرها ومنحها لقب مستعمرة رومانية من الدرجة الأولى، وقيَّد أبجر التاسع وأبجر العاشر (٢١٤ ـ ٢١٦م) بالأغلال، وقضى شتاء عام (٢١٧م) فيها، منهياً بذلك حكم الأباجرة. أما حاضرتهم، فقد أضحت أحد المراكز الرئيسة للامبراطورية الرومانية

---

(١) كاراهاي: هي شروان، من نواحي باب الأبواب الذي تسميه الفرس الدربند. وقيل شروان: ولاية قصبتها شماخي وهي قرب بحر الخزر. الحموي: ج٣ ص٣٣٩.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: ج١٠ ص٢٦٩. (٣) المرجع نفسه.

على حدودها الشرقية[1]، كما أضحت في عهد الامبراطور غورديان الثالث (٢٣٨ - ٢٤١م)، الذي قاد جيوشه باتجاه الشرق وطرد الفرس من أنطاكية؛ مدينة رومانية[2].

ويبدو أن الاحتلال الروماني لم يدم طويلاً، فقد تعرَّضت المدينة لهجوم فارسي ساساني قاده الامبراطور سابور الأول، فحاصرها واقتحمها بعد أن هزم الامبراطور الروماني ڤاليريان في عام (٢٦٠م). وهناك دلائل تشير إلى أن الرها أضحت بعد ذلك تابعة لمملكة تدمر في عام (٢٧٣م)[3]، ثم استعادها الرومان بعد قضائهم على مملكة تدمر واتخذوها قاعدة عسكرية وحاضرة للبلاد التي كانت في حوزتهم في تلك المنطقة. وعرَّضها موقعها لغزوات متعددة من الفرس ما أضعفها، وزادتها عرقلة التجارة الدولية ضعفاً، من واقع تراجع تجارة الحرير بعد أن أُنشئت له المصانع في القسطنطينية، وتحول طريق التجارة العالمي غرباً إلى البحر الأحمر، فضلاً عن الخلافات المذهبية التي كانت متفاقمة بين الرهاويين[4].

نظام الحكم[5]

كان النظام السياسي في الرها ملكياً، فالملك رأس الدولة والقائد الأعلى للجيش، يضع على رأسه تاجاً من ذهب وتُتخذ توليته تقويماً، وتقام له التماثيل، ويمنح القادة وكبار رجال الدولة أكاليل من الحرير، وهو يُقرر مقدار الضرائب والإعفاء منها، ويساعده نائب هو ولي العهد ويُلقب بـ«حاكم العرب»، ويشرف على قلاع الحدود وثغورها، بالإضافة إلى عدد من المستشارين والموظفين، ومفتش مسؤول عن حفظ وصيانة وثائق الدولة وسجلاتها، وعقود التجارة والبيوع.

ويدير المدينة مجلس من الوجهاء يُشرف على جمع الضرائب، ويهتم بحركة العمران وبالشؤون الإدارية من إنارة ومياه وطرقات وغيرها، وفيها أيضاً صاحب شرطة ومشرف على العساكر.

ويتولى إدارة الأقاليم موظفون يعينهم الملك ويختارهم من أهل البلد الذي يتولون إدارته، ويرتدون ألبسة خاصة، ويمارسون سلطات قضائية ومالية، ويقودون الجيوش في منطقتهم. ويشرف الوالي على الضرائب ويقوم بجمعها مجلس محلي، ويحق له استعمال القوة لجباية المتأخرات.

---

(١) Grand Larousse Encyclopédique T4 p363.

(٢) Duval: p107.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: جـ١٠ ص٢٧٠.

(٤) العلي: ص٨٤.

(٥) المرجع نفسه: ص٨٤، ٨٥.

الأوضاع الاقتصادية

شكَّلت الزراعة المصدر الأول للاقتصاد في الرها، وعماد ثروة البلاد، ويُشرف على الأراضي الزراعية الواقعة حول المدينة موظف يُدعى «والي العرب» يقوم بجباية الضرائب من السكان ويحمي المزراعين من تعديات البدو والأعراب. وتركَّزت الزراعة في القرى والأرياف وأهمها زراعة الكروم والحبوب والخضار وأشجار الفاكهة. ويعمل الأكَّارون في زراعة الأراضي التي يملكونها، في حين يعمل من لا يملك أرضاً من الفلاحين في أراضي الملاكين. وكانت الضرائب تجبى من الفلاحين إما بالنقد وإما بحصة عينية من المحصول. ولم تكن حياة الفلاح مرفَّهة وكثيراً ما يعجز عن دفع الضريبة المتوجبة عليه، فتلجأ الدولة إلى استعمال الشدة في جبايتها. وزاد أوضاع الفلاحين سوءاً ما كان يجري من اضطرابات تُخلُّ بالأمن، وصعوبة عرض الشكاوى على القضاء الذي تفشَّت فيه الرشاوى والمحسوبية.

وشغل الصنَّاع مكانة متميزة في مملكة الرها، وهم يُذكرون في الوثائق بعد الملك والوجهاء والقادة، وأدَّت التجارة دوراً مهماً في تعزيز مكانة الرها وإنماء ثروتها، ومعظم التجار من المحليين، والسلعة الرئيسة فيها الحرير، وتجبي الحكومة منهم ثمن قيمة السلعة. غير أن الحركة التجارية تراجعت بعد تحوُّل طريق التجارة إلى البحر الأحمر، ثم تدهورت بعد أن عمد الرومان إلى تربية دودة الحرير وإنتاج هذه السلعة ما أثر على أوضاع التجار، فترك قسم كبير منهم حرفتهم وعملوا كتّاباً أو انضموا إلى الحرس الملكي(١).

الأوضاع الاجتماعية: المرأة

تمتَّعت المرأة في مملكة الرها بمكانة محترمة، فهي ربة البيت، وتشرف على إدارة أملاكها تحت وصاية زوجها، والطلاق بيد الرجل، لكن لها أن تطلب الطلاق إذا هدَّدها زوجها بالقتل أو هجرها سبعة أعوام، وترث البنت كالولد، والزانية تُرجم. وتلبس المرأة ألبسة ملونة، أكمامها مزخرفة، ولها حزام، وتغطيها عباءة ملونة تربط عند الكتف الأيسر، وتتزيَّن بقلائد من خرز مذهَّب، وتضع على رأسها وشاحاً وقبعة ملونة ومزخرفة، ويلبس الأولاد قميصاً إلى الركبة وسراويل ويُحزمون بالحزام، ويلبس الأب عادة قلادة(٢).

الأوضاع الدينية

اعتنق أهل الرها، في بداية حياتهم، الوثنية كما انتشرت في بلاد الرافدين، وتقوم

---

(١) العلي: ص٨٥، ٨٦.

(٢) المرجع نفسه: ص٨٦.

على عبادة الكواكب وبعض مظاهر الطبيعة، وتسمَّى الناس بأسمائها وشيدوا لها الأصنام والمعابد وقدَّموا لها الأضاحي. نذكر من بين آلهتهم:

الشمس، وسموها بعل أغلبول أو عجلول.

القمر، وأطلقوا عليه اسم سين، ورسموه على نقودهم وتيجان ملوكهم على شكل هلال.

بعلشمين، هو كبير الآلهة، رب السماء ومار أرها.

باركلبا، ابن الكلب، وهو حارس القوافل.

وبعل، ونابو، وأترعت، وهي عشتار البابلية والزهرة عند العرب، وحداد، وسيمي، وبات نيجال زوجة إله القمر(١).

وانتشرت الديانة النصرانية في الرها عند ظهورها، وتبقى أصولها مظلَّلة بالشكوك. فالرواية الشهيرة عن مراسلة الملك أبجر للسيد المسيح تنتمي في الغالب لعالم الأساطير، وقد حاول بعض المؤرخين أن يحافظوا على نواة من الواقع التاريخي فيها ملمحين إلى أن ملك الرها الذي تنصَّر لم يكن أبجر الخامس بل أبجر التاسع، لكن الثابت أن رجلاً نصرانياً ذا ثقافة عالية هو برديصان (١٥٤ ـ ٢٢٢م) كان ناشطاً في الرها أيام الملك أبجر التاسع، وهو الذي يُنسب إليه كتاب القدر، أقدم كتاب بالسريانية بعد التوراة، وعلى الرغم من أنه كتب بالسريانية، إلا أنه كان ملماً بالتيارات السائدة في الكتابات اليونانية المعاصرة، ومن الواضح أن برديصان استقطب التلامذة، ولذلك يمكن أن يقال أنه أسس مدرسة من النوع الذي قُيِّض له أن ينشأ في الرها في أوائل القرن الخامس الميلادي.

وانصرف الناس في الرها عن عبادة الأصنام إلى الديانة الجديدة، وحارب أبجر التاسع الوثنية في بلاده بعنف بالغ، وصادق برديصان، وضمَّ إليه رجل الدين النصراني يوليوس أفريكانوس، زمناً، ورفع من شأن النصرانية، واتخذها ديناً رسمياً للدولة(٢).

ويبدو أن تحول ملوك الرها إلى النصرانية كان أحد الأسباب التي حملت الامبراطور الروماني الوثني كركلا إلى مهاجمة الرها.

وساهمت الرها في نشر التعاليم النصرانية في شمالي بلاد الرافدين من خلال تحولها إلى مركز أدبي سرياني شرقي، كما ساهم في هذه الحركة عدد من العلماء والأدباء ورجال الدين النصارى، ما سيكون له شأن في الأدب السرياني والأدب النصراني وتاريخ النسطورية.

---

(١) العلي: ص٨٦، ٨٧.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: جـ١٠ ص٢٦٩، ٢٧٠.

ممالك أخرى

ظهرت إمارات عربية أخرى في بلاد ما بين النهرين على أثر ضعف السلوقيين، منها:

إمارة سنجار، وسنجار موضع قديم كان معروفاً في أيام الأشوريين، وقد مرَّ الامبراطور الروماني تراجان بسنجار وهو في طريقه إلى الحضر وطيسفون، ونزل بها بعد أن تغلب على ملكها معتز عام (١١٥م)[١].

إمارة حمص، ظهرت في الوقت الذي ظهرت فيه الإمارات العربية الأخرى على أثر الضعف الذي حلَّ بالسلوقيين، وحكمتها أسرة عربية، واستدل الباحثون من أسماء ملوكها على أصلهم العربي، وتقع هذه الإمارة في السهل الذي يرويه نهر العاصي[٢].

---

(١) علي: جـ٢ ص٦٢٢. سوسة: ص٢٥٧.

(٢) المرجعان نفساهما.

الفصل السادس عشر

الأنباط ـ تدمر

مملكة الأنباط

تمهيد

قامت في منطقة شمال غربي الجزيرة العربية ممالك عدة أدَّت دوراً بارزاً في تاريخها وحضارتها مثل مملكة أدوماتو الواقعة على حافة النفود الشمالية في الطرف الجنوبي لوادي السرحان، وتُسمى أيضاً دومة الجندل، وهي قاعدة منطقة الجوف وقد نشأت في القرن السابع قبل الميلاد، ومملكة ديدان أو لحيان، الواقعة على طريق التجارة المؤدي إلى الشمال، وقاعدتها مدينة العُلا الحديثة، غير أن أشهر هذه الممالك أربع أدّت دوراً مميزاً وبارزاً في الأحداث السياسية الداخلية والخارجية بما ارتبطت به من علاقات مع الدول الكبرى، وهي ممالك الأنباط وتدمر والغساسنة والتنظيم السياسي الذي قام في مكة، وارتبط قيامها بالنشاط التجاري بين الجنوب والشمال.

ظروف قيام مملكة الأنباط

ارتبط قيام مملكة الأنباط بالنشاط التجاري في اليمن والحجاز، فقد كانت بادية الشام وجنوبي فلسطين مركزاً لهجرات قبلية متتابعة من جنوبي الجزيرة العربية منذ العصور القديمة، إلا أن استقرار قبائل عربية في بادية الشام يرجع إلى عصور سابقة للعصر الروماني، ومن أقدم الشعوب التي استقرت في جنوبي فلسطين شعب الأنباط.

فالأنباط إذن قبائل عربية بدوية، نزحوا من الجزيرة العربية منذ القرن السادس قبل الميلاد، وانتشروا في بادية شرقي الأردن، شمالي الحجاز، ونزلوا في المناطق التي كانت تحت سيطرة الكنعانيين والآراميين على طريق القوافل الذي يمتد بين الشام ومصر، وتوسعوا على حساب الأدوميين في شبه جزيرة سيناء وجنوبي فلسطين، ثم أنشأوا لهم دولة عربية امتدت من نهر الفرات شرقاً إلى البحر الأحمر غرباً، يحدها من الغرب وادي عربة، ومن الجنوب بادية الحجاز ومن الشرق بادية الشام ومن الشمال فلسطين[١].

---

(١) زيدان: ص٨١.

ووسَّع الأنباط، خلال ازدهار قوتهم، أراضي دولتهم فشملت: دمشق، وسهل البقاع، وجبل عامل، والأقسام الجنوبية والشرقية من فلسطين، وحوران، وأدوم، ومدين، وديدان، وسواحل البحر الأحمر، وربما وصل بعض روادهم إلى دلتا النيل الشرقية والمناطق الخصبة المطلة على البحر الأبيض المتوسط.

وبنى الأنباط المدن وأنشأوا القرى، واتخذوا مدينة البتراء[1] عاصمة لهم، وتقع في جنوب غربي وادي موسى في شرقي الأردن على الخط التجاري الذي يصل جنوبي الجزيرة العربية بشمالها، وتحيط بها الجبال من كل الجهات بحيث يتعذر الدخول إليها إلا من الممر الضيق المعروف بالسيق[2].

تتميز بلاد الأنباط بأنها بلاد جبلية قفراء قليلة المياه تكثر فيها المرتفعات الصخرية الوعرة والشُعب، وقد انعكست هذه الطبيعة على النبط فطبعتهم بطابعها، لذلك عُرف الأنباط بشدَّة المراس، وساعدتهم هذه البيئة الصخرية على صدِّ هجمات الأعداء حيث صعب على هؤلاء قهرهم وإخضاعهم، ومن أجل ذلك سمَّى اليونان بلادهم باسم بلاد العرب الصخرية كما سميت عاصمتهم بالبتراء؛ أي الصخرة لأنها منحوتة في الصخور[3]، وعُرفت في المصادر العربية باسم الرقيم[4]، كما أتاحت لهم هذه الطبيعة أن يمارسوا العمل التجاري، فنقلوا السلع بين مختلف الأقاليم، وسيطروا على طريق القوافل التجارية الموازي للبحر الأحمر، والذي يربط اليمن والعربية الجنوبية بالشام ومصر عن طريق غزة، والمدن الفينيقية على البحر الأبيض المتوسط[5].

التاريخ المبكر للأنباط

بدأ ذكر الأنباط منذ أوائل القرن الرابع قبل الميلاد على أثر فتوح الإسكندر المقدوني في الشرق، ثم تفكُّك امبراطوريته بعد وفاته وتوزُّعها على قادته، والمعروف أن سلوقس بن أنطيوخوس حصل على سوريا وبلاد الرافدين، ونال بطليموس بن لاغوس مصر وأفريقيا، وكانت العلاقات بينهما عدائية بفعل طموح كل منهما في أراضي الآخر، فاستغل الأنباط ذلك ووسَّعوا حدود مملكتهم من

(١) البتراء: اسم يوناني معرَّب.

(٢) السيق: لعله لفظ نبطي متوارث حرَّفه الناس من كلمة الشق في السبئية القديمة. هاردنغ، لانكستر: آثار الأردن: ص١١٧.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) الحموي: ج٣ ص٦٠. والرقيم: النقش القديم.

(٥) هاردنغ: ص١١٦، ١١٧.

غزة إلى أيلة، وأحكموا قبضتهم على الطريق التجاري البري، ما أثار الطرفين معاً، فنهض أنتيغوناس السلوقي لاحتلال بلاد الأنباط لقطع التجارة على خصومه البطالسة، وإرغام الأنباط على التحالف معه، وأرسل حملة عسكرية، في عام (٣١٢) قبل الميلاد، قوامها أربعة آلاف جندي من المشاة وستمائة من الفرسان بقيادة صديقه أثنيوس، فتصدّى لها الأنباط وهزموها، وكرَّر محاولته بعد مدة وجيزة، فأرسل حملة قوامها أربعة آلاف فارس ومثلها من المشاة، انتهت بعقد صلح مع الأنباط. ويبدو أن سلوقس أدرك أنه غير قادر على احتلال البلاد بفعل موقعها المنيع وصمود أهلها، واضطر إلى قبول الصلح وقنع بالهدايا التي قُدِّمت إليه[١].

ومن جهة أخرى، أدرك البطالسة أهمية بلاد الأنباط وأثرها في التجارة الخارجية لمصر، كما أدركوا أيضاً صعوبة الاستيلاء على تلك البلاد الجبلية - الصحراوية، لذلك اتجهوا إلى تنشيط تجارة البحر الأحمر بهدف تجاوز الطريق البري والاستغناء عنه، فأنشأوا على سواحله المصرية الموانئ والمحطات والطرق، كما مدُّوا نفوذهم إلى فلسطين والموانئ الفينيقية التي كانت تنتهي إليها القوافل النبطية، وأرسلوا حملة عسكرية احتلت أراضي اللحيانيين الواقعة في الطرف الشمالي من الحجاز، وأقاموا مستعمرات لهم عند أطراف بلاد الأنباط، فأحاطوا بهذه البلاد وبسطوا نفوذهم وسيطرتهم على منافذ الطرق التجارية الأمر الذي أدّى إلى إضعاف التجارة البرية المارة ببلاد الأنباط، وقد أدرك هؤلاء هذا الخطر الذي يتهددهم، فقاموا ببعض النشاطات العسكرية المضادة، فهاجموا السفن البطلسية في البحر الأحمر بهدف عرقلة تجارتهم، الأمر الذي دفع بطليموس الثاني (٢٨٥ - ٢٤٦ق.م) إلى إنشاء قوة بحرية لحراسة السفن التجارية البطلسية، كما هاجم الطرف الشمالي للبحر الأحمر ودخل خليج أيلة[٢].

وما جرى في القرن الثاني قبل الميلاد من حروب بين البطالسة والسلوقيين، استفاد منه الأنباط، فنشَّطوا تجارتهم مع سوريا، ووصل تجارهم إلى صور وجبيل حيث وُجدت آثار لهم هناك، وربما امتد نشاطهم إلى المدن السورية الأخرى[٣]. ثم ضعف السلوقيون في القرن الأول قبل الميلاد، واضطربت أوضاع المنطقة بفعل الصـراع بين البارثيين الفرس والرومان حيث تمكَّن البارثيون من احتلال العراق؛ فاستقلَّت إمارات متعددة في جنوبي بلاد الشام، وراحت تتنازع للسيطرة والهيمنة، ما

---

(١) أوروسيوس: تاريخ العالم: ص٢٤٤، ٢٤٥. (٢) علي: جـ٣ ص١٩.

(٣) المرجع نفسه: ص٤٧.

عرقل التجارة المارة بالعراق الأمر الذي أدَّى إلى أن تستعيد طرق التجارة في غربي الجزيرة العربية أهميتها، فازدهرت البتراء. والواقع أن معظم أخبار الأنباط وآثارهم المكتشفة تبدأ من هذه الحقبة[١].

أشهر ملوك الأنباط

تعاقب على حكم الأنباط ملوك عدة أشهرهم:

الحارث الأول (١٦٩ ـ ١٤١ق. م)

أنشأ الأنباط دولة منظَّمة، وولوا عليهم ملوكاً، وضربوا النقود، واستوزروا الوزراء، وكان ملوكهم يُسمون في الغالب باسم الحارث، أريتاس، أو عبادة، أوباداس، أو مالك، ماليكوس، وأقدم من وقف الباحثون على اسمه من ملوكهم الحارث الأول، وكان معاصراً لأنطيوخوس الرابع السلوقي، ملك سوريا، وبطليموس فيلوماتر، ملك مصر، وبفعل تجاور بلاده مع الفلسطينيين وبسبب عدائه مع السلوقيين حالف الحارث الأول المكابيين[٢] ضد السلوقيين. ففي عام (١٦٦ق.م) قام يهوذا المكابي (١٦٦ ـ ١٦٠ق.م) بالثورة على السلوقيين ونجح بانتزاع بيت المقدس منهم بالاستعانة بالأنباط[٣]. ودلالة على حسن العلاقات بين الطرفين، قدَّم الحارث الأول مساعدة عسكرية لأونياس الثالث المكابي في صراعه مع أخيه ياسون على منصب الكهانة العظمى وطاردته من مدينة إلى مدينة وأجبرته على الفرار إلى مصر حيث احتمى بالبطالسة[٤].

الحارث الثاني (١١٠ ـ ٩٦ق. م)

عُرف هذا الملك باسم إيروتيموس الثاني، وعاصر بطليموس الثامن، وسوتر الثاني، ملك مصر، وبحكم العلاقات الجيدة بين النبطيين واليهود في فلسطين، طلب يوناثان المكابي، الذي خلف أخاه يهوذا بعد مصرعه في عام (١٦١ق.م)، المساعدة ضد أعدائه، وأرسل أخاه يوحنا إلى البتراء، ليطلب من النبطيين «أن يعيروه عدتهم الوافرة»[٥]، ويدل ذلك على أن الأنباط كانوا آنذاك على درجة عالية من القوة

---

(١) العلي: ص٤٧.

(٢) المكابيين: أسرة يهودية ١٧٥ ـ ٨٦ق.م، عملت على استقلال اليهود عن الاحتلال الأجنبي ويشغل ما قامت به هذه الأسرة من أعمال سفران في العهد القديم يُسميان أسفار المكابيين.

(٣) انظر، فيما يتعلق بحروب يهوذا المكابي ضد السلوقيين: سفر المكابيين الأول: الإصحاح ٣ ـ ٥.

(٤) سفر المكابيين الثاني: الإصحاح ٥، الآية ٨.

(٥) سفر المكابيين الأول: الإصحاح ٩، الآية ٣٥.

وأصحاب عدة وعتاد، غير أن يوحنا لم يصل إلى عاصمة الأنباط، فقد تعرَّض لهجوم قامت به جماعة من العرب من بني عمري، فغدروا به وقتلوه[١]. وعندما حاصر الملك المكابي إسكندر جانيوس (١٠٣ ـ ٧٦ق.م) مدينة غزة في عام (٩٦ق.م) التمس أهلها المساعدة من الحارث الثاني غير أن هذا أحجم عن مساعدتهم تقديراً للعلاقات الجيدة مع المكابيين، ما أتاح للملك المكابي أن يقتحم المدينة[٢].

لم تستمر سياسة التحالف وحسن الجوار قائمة بين الأنباط والمكابيين مدة طويلة، وسرعان ما تحوَّلت إلى سياسة عداء من واقع طموح المكابيين للتوسع على حساب هؤلاء في الأردن والتوغل في المناطق النبطية، وتأسيس حكومة قوية تنافس حكومة الأنباط، الأمر الذي دفع هؤلاء إلى التصدي لهذا المشروع التوسعي. وأدى إلى النزاع بين الطرفين إلى اصطدامات عسكرية.

فقد نشبت الحرب بين الطرفين بسبب التنازع على الأردن[٣].

عبادة الأول (٩٥ ـ ٨٨ ق.م)

استمرت العلاقات العدائية بين الأنباط والمكابيين، فقد اجتاح الملك جانيوس في عام (٩٠ق.م) وادي عربة التابع للأنباط، واحتل أرض جلعاد ومؤاب وفرض الجزية على أهلها، فتصدّى له عبادة الأول ونصب له كميناً في الجولان، فدمَّر جيشه كله، إذ حصره في وادي عميق وسحقه بعدد من الجمال، ما اضطر جانيوس إلى الفرار وعاد إلى بيت المقدس. وكان وقع الهزيمة مأساوياً على الشعب اليهودي ما دفعه إلى الثورة، غير أن الملك واجه الثائرين بالقوة. وأتاح هذا الانتصار لعبادة الأول أن يستولي على حوران، فتحرَّج موقف جانيوس ومال إلى التفاهم مع العرب وتنازل لعبادة الأول عن مؤاب وجلعاد ليحافظ على ما تبقَّى من مملكته[٤].

رب إيل الأول (٨٨ ـ ٨٧ ق.م)

خلف رب إيل أباه عبادة، ولم يشهد عهده إنجازات تُذكر باستثناء انتصاره الكبير على الملك المقدوني أنطيوخوس الثاني عشر، صاحب سوريا الملقب بديونيسوس،

---

(١) كان هؤلاء من قبيلة عربية تسكن في ميديا، وهي من أقدم مدن مؤاب وتبعد ثمانية أميال إلى الجنوب الشرقي من حسبان وأربعة عشر ميلاً شرقي بحيرة لوط، وتقع في العربية النبطية. انظر: علي: ج٣ ص٢٤.

(٢) Josèphe, Flavius: La Guerre des Juifs p132.

(٣) The Universal Jewish Encyclopedia. vol 8 p79.

(٤) Josèphe: p132.

الذي قاد حملة ضد الأنباط في عام (٨٨ق.م)، فقتله وأجبر جيشه على الفرار إلى قانا في جنوبي لبنان بعد أن هلك معظمه جوعاً[١].

الحارث الثالث (٨٧ ـ ٦٢ ق.م)

خلف الحارث الثالث أباه رب إيل، ويُعد من أشهر ملوك الأنباط وذلك بما قام به من فتوح وما حقَّقه من انتصارات أتاحت للأنباط أن يوسعوا حدود دولتهم على حساب السلوقيين واليهود معاً، لذلك يُعد المؤسس الحقيقي لدولة الأنباط.

والواقع أن عهد الحارث الثالث شهد بداية التدخل الروماني في منطقة الشرق الأدنى في مقابل تراجع قوة السلوقيين في سوريا والبطالسة في مصر، ذلك أن هذه الدول المقدونية كانت قد بدأت بالتدهور لتحل محلها على المسرح الدولي قوة جديدة هي قوة روما التي بدأ ظهورها بشكل تدريجي منذ القرن الثالث قبل الميلاد، وحين أطلَّت العقود الأخيرة من القرن الأول قبل الميلاد، كانت هذه القوة قد أضحت امبراطورية وأخذت تتدخل في شؤون المناطق المتاخمة لسواحل البحر الأبيض المتوسط في الشرق والغرب.

استغل الحارث الثالث هذا الأمر وراح يتوسع على محورين: شمالي على حساب السلوقيين، وجنوبي على حساب اليهود.

أما المحور الأول، فقد قطف ثمار انتصار والده على السلوقيين في سوريا، فمضى في توسيع سلطة الأنباط، ومدَّ نفوذه إلى جبل عامل، وتغلَّب على منطقة البقاع، وكان سكان دمشق قد سئموا ظلم اليونانيين ونزاعاتهم الداخلية ومضايقة البطالسة وأشياعهم من العرب، فرأوا في الأنباط قوة خلاص لهم من هذا الوضع السيء، فدعوا الحارث الثالث إلى المدينة وعرضوا عليه أن يتسلم الحكم، فلبى نداء الدعوة، فدخل دمشق وملكها، وحكمها مدة خمسة عشر عاماً (٨٥ ـ ٧٠ق.م)، وتخليداً لهذه المناسبة، ضرب النقود النبطية وكانت تحمل صورته واسمه وعبارة «فيل هلين» أي محب الهللينيين، وعيَّن قبل مغادرته دمشق نائباً عنه يتولى شؤونها باسمه[٢].

وعندما اطمأن الحارث الثالث إلى نفوذه في سوريا توجه جنوباً للتدخل في شؤون مملكة يهوذا مرة أخرى والتوسع على حسابها، وما جرى آنذاك من نشوب الصراع

(١) Josèphe: p134. عباس، إحسان: تاريخ دولة الأنباط: ص٤١.
وفي رواية أن صاحب هذه المعركة هو الحارث الثالث ابن رب إيل. علي: جـ٣ ص٢٩.
(٢) زيدان: ص٨٧. عباس: ص٤٢.

على السلطة بين الأخوين هركانوس الثاني وأرسطوبولس الثاني بعد وفاة والدهما إسكندر جانيوس في عام (٧٦ق.م)؛ أتاح له أن يُحقِّق غايته، فقد جنَّد أرسطوبولس المرتزقة وجماعات من العرب، ومن جهته التمس هركانوس المساعدة من الحارث الثالث ووعده في مقابل ذلك أن يرد إليه عدداً من المدن كان والده قد اغتصبها من العرب، من بينها ماديا ونبالو ولبياس وأوريبا[١].

كان من الطبيعي أن يوافق الحارث الثالث على التماس المساعدة لسببين:

الأول: توسيع أملاكه على حساب مملكة يهوذا.

الثاني: استغلال فرصة الانقسام الداخلي ليقضي على هذه المملكة نهائياً، فجهَّز من أجل ذلك حملة عسكرية ضخمة قوامها خمسين ألفاً من المشاة والفرسان، وخرج من البتراء في عام (٦٦ق.م) بصحبة هركانوس متوجهاً إلى بيت المقدس، ولما وصل إليها ضرب حصاراً محكماً عليها، وتحصَّن أرسطوبولس بداخلها، وكاد أن يفتحها لولا تدخل الرومان آنذاك[٢].

كانت طلائع الجيوش الرومانية التي أرسلها القائد الروماني بمبيوس (١٠٦ ـ ٤٨ق.م)، قد وصلت آنذاك إلى سوريا بقيادة سكاوروس، فالتمس لأرسطوبولس مساعدته وأغدق عليه الهدايا والمال.

وكان هذا قد وصل إلى دمشق، فاغتنم الفرصة المواتية وتوجه صوب بيت المقدس لإنقاذها من الحصار. لم يكن بوسع الحارث الثالث أن يقاوم القائد الروماني، ففكَّ الحصار عن بيت المقدس وتوجه بجيشه إلى عمَّان، ما أتاح لأرسطوبولس أن ينتقم منه، فخرج بجيشه من بيت المقدس وطارده حتى أدركه عند بابيرون، إحدى مدن عربة، فاصطدم به وهزمه وقتل من جيشه أكثر من ستة آلاف رجل، من بينهم فاليون شقيق أنتيباتر ملك الأدوميين، وزحف سكاوروس من جهته إلى البتراء بهدف الاستيلاء عليها فأسكته الأنباط بالهدايا والأموال[٣].

والواقع أن القائد الروماني هاله تحصينات المدينة الطبيعية المنيعة، وفي رواية أنه عجز عن الوصول إلى البتراء بفعل وعورة الطريق وقلَّة الزاد وتعرُّض جيشه للمجاعة، على الرغم من أن أنتيباتر، ملك أدوم، زوَّده بالقمح وبكل ما يحتاج إليه، لذلك اضطر أنتيباتر إلى إرسال سفير إلى الحارث الثالث يعرض عليه الانسحاب مقابل المال، فوافق الملك النبطي على دفع ثلاثمائة طالن، فتوقف سكاوروس عن الحرب وعاد أدراجه، وقد خلَّد حملته هذه بعد عودته إلى روما، فأصدر نقداً يرمز إليها

---

(١) Josèphe: p137.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid: pp137, 138.

مدعياً أن الحارث الثالث خضع له وركع بين يديه ذليلاً[1].

عبادة الثاني (٦٢ - ٤٧ ق. م)

تولى حكم الأنباط، بعد الحارث الثالث، ابنه عبادة الثاني، وقد شهد عهده سيطرة الرومان على الشرق حيث استولوا على آسيا الصغرى وسوريا ومصر، وانتزعوا ما كان بيد الحارث الثالث من أراضٍ في سوريا، كما سيطروا على موانئ البحر الأبيض المتوسط والتي كانت منفذاً لتجارة الأنباط، وأدرك هؤلاء فوراً مدى الخطر الذي يشكله الرومان على بلادهم، فسعوا إلى مسالمتهم والتقرب منهم، والتعاون معهم وكان من نتيجة هذه السياسة أن عمَّ الاستقرار والأمن ربوع المملكة.

مالك الأول (٤٧ - ٣٠ ق. م)

خلف مالك الأول أباه عبادة الثاني، فتابع سياسة والده السلمية مع الرومان، واشترك في حملة يوليوس قيصر على الإسكندرية في عام (٤٧ق.م) حيث قدَّم فرقة عسكرية من الفرسان، وحدث في عهده أن قضى القائد الروماني أنطونيوس على الأسرة المكابية اليهودية في بيت المقدس، ونصَّب مكانها الأسرة الهيرودية[2] فعيَّن هيرودوس ملكاً على اليهود في عام (٣٧ق.م) فكان أداة طيعة في أيدي الرومان.

وتدهورت في عهده العلاقة بين الأنباط والرومان بسبب محالفة الأنباط للبارثيين الفرس الذين هاجموا فلسطين في عام (٤٠ق.م) بهدف الاستيلاء عليها، وعندما تعرَّض هؤلاء للهزيمة أمام الجيوش الرومانية اضطر الأنباط إلى دفع الجزية للرومان، وما حدث بعد ذلك من تقديم أنطونيوس قسماً كبيراً من الأراضي الشرقية هدية لكليوباترة ملكة مصر ومن بينها أراضي المملكة النبطية؛ أن تحوَّل دفع الجزية إليها، لكن مالكاً الأول رفض أن يدفع الجزية لها ما حملها على تكليف هيرودوس بحربه وتأديبه، فاصطدم به في أكثر من معركة عند بلدات: ديوسبوليس وقناتا عبر الأردن وفيلادلفيا، عمَّان، وهزمه في معظمها، وأخضعه أخيراً في عام (٣١ق.م)[3].

عبادة الثالث (٣٠ - ٩ ق. م)

خلف عبادة الثالث أباه مالكاً الأول، وتميز عهده بأول ظهور واضح في مجال السياسة الخارجية مع الامبراطورية الرومانية من واقع المساعدة التي قدَّمها وزيره سللايوس، صالح، كمرشد للقوات الرومانية التي كانت في طريقها إلى العربية

---

(١) Josèphe: Jewish Antiquities. Trans by Ralf Maveas. Bk14 p51.

(٢) نسبة إلى مؤسسها هيرودس.

(٣) Josèphe: pp173 - 176.

الجنوبية بقيادة إيليوس غالوس، وربما تعمَّد الوزير النبطي تضليل الحملة بهدف القضاء عليها وإفشال هدفها، ومن ثَمَّ يتمكَّن الأنباط من السيطرة على المنطقة، فقبضت عليه روما وحاكمته وقتلته[1]، ومعنى هذا أن مملكة الأنباط كانت داخلة في نفوذ الامبراطورية الرومانية، وأن روما وجدت من حقها أن تقدم على هذا التصرف على الرغم من أن مملكة الأنباط لم تكن ولاية رومانية من الناحية الرسمية، وذلك لحماية مصالحها في ظروف كانت تستوجب موقفاً حازماً على حدودها الشرقية، إذ كان للسلام السائد في ولاياتها الشرقية ألا يتعرض لهزات في غير صالحها، ونجاحه في ظل توثب البارثيين الفرس لمدِّ نفوذهم باتجاه الغرب، والاضطراب السائد على الحدود الرومانية في الشرق الذي لا بد أن يؤدي إلى اهتزاز نفوذ روما، وأعني بذلك العلاقة العدائية بين الأنباط وبين هيرودوس حاكم اليهودية والتي نتج عنها بعض الثورات ضد حكمه وحروب مسلحة بين الطرفين.

الحارث الرابع (٩ق. م - ٤٠م)

خلف الحارث الرابع شقيقه عبادة الثالث، تلقَّب بلقب «رحم عمه»، أي المحب لأمته، وبـ«ملك النبط»[2]، وقد بلغت دولة الأنباط في عهده ذروة عظمتها، وكان عهده عهد رخاء وسلام وتميز بنهضة اقتصادية وعمرانية وعسكرية.

فيما يتعلق بالنهضة الاقتصادية، فقد جرى في عهده تحول الأنباط إلى الاستقرار الزراعي، وجاء هذا التحول نتيجة سيطرة روما على الطرق التجارية وتحويل تجارتها إلى مرفأ لوكو ليمن في مصر، المقابل لمرفأ لوكي كومي في الحجاز، ومنه إلى كوبتس، وهي مدينة في مصر العليا، ثم إلى الإسكندرية[3] ما أثر سلباً على الوضع الاقتصادي للأنباط، لكن الحارث الرابع لم يتخلَّ عن إيجاد طرق تجارية بديلة عن الطرق التقليدية، فازدهرت طريق برية أخرى لا تنافسها الطريق المصرية، التي اعتمدها الرومان، وهي تسلك وادي السرحان من دومة الجندل إلى بُصرى، إلا أن الاقتصاد النبطي أضحى على أي حال يعتمد أساساً على الزراعة. واعتمدت الزراعة النبطية على مياه الري في الإنتاج، وعلى نظام متطور لحفظ مياه الأمطار وإيصالها إلى الحقول والبساتين.

---

(١) هاردنغ: ص١٢٣. Philby: pp100, 101.

(٢) Bowersock, G.W: A Report on Arabia Provincia. p223.

Encyclopedia Religion vol 9 p12.

(٣) Bowersock: p228.

وفيما يتعلَّق بالناحية العمرانية، فقد نشطت الحركة العمرانية في عهد الحارث الرابع، وبخاصة إنشاء المدن في النقب ومدائن صالح، الحجر، التي كان المركز الرئيس والعاصمة الجنوبية للمملكة النبطية، كما كانت البتراء العاصمة الشمالية. والمعروف أن مدائن صالح كانت تقع على الطريق التجاري الذي يربط بين بعض المواقع على المحيط الهندي في جنوبي جزيرة العرب وبين شاطئ البحر الأبيض المتوسط في الشمال، كما كان لها ميزة أثرية خاصة، بما تحوي واجهات المدافن المنحوتة بالصخر من كتابات ونقوش تُعد المصدر الرئيس للكتابات والنقوش النبطية، وتتحدث معظمها عن الملكية القانونية لأصحاب هذه المدافن عبر أجيال عدة، ويلاحظ أن بعضها يحمل اسم النقَّاش، ويعود تاريخ أقدم نقش إلى السنة الأولى بعد الميلاد، وكان معظمها مدافن لضباط عسكريين[١].

وانتشر العمران كذلك في المنطقة الشمالية التي تسيطر على الطرق الداخلية من وادي السرحان ابتداء من الجوف باتجاه دمشق، ونالت البتراء نصيباً كبيراً. فقد تمَّ إنشاء أكبر معْلَمَيْن من معالم المدينة، وهما المسرح المحفور في الصخر عند الطرف الداخلي للسيق، والمعبد القائم في مركز المدينة والذي يُعرف اليوم باسم قصر البنت، وهو يحتوي على نقش يثبت أن بناءه جرى في أيام الحارث الرابع[٢]، وكان هذا الملك متأثراً بالثقافة الهيللينية وبالحياة الهيللينية، ويظهر هذا التأثر واضحاً في المباني العامة وفي الكتابات اليونانية.

وأما من حيث النهضة العسكرية، فقد اهتم الحارث الرابع بتقوية وسائل الدفاع الداخلي للبتراء، وأقام الحاميات العسكرية في المراكز الكبرى، وبفضل علاقته الجيدة مع الرومان والتي قامت على أساس التعاون المثمر، عاش الأنباط حياة مستقرة وهادئة لم يعكرها سوى الصدامات التي نشبت مع هيرودوس أنتيباس، ابن هيرودوس الكبير صاحب الجليل وملحقاته، بسبب مشكلة عائلية، ذلك أن هيرودوس كان متزوجاً من ابنة الحارث الرابع، ثم خرج على التقاليد والأعراف الدينية، فأحب هيروديا زوجة أخيه فيليب، وهي بحكم قرابتها امرأة لا يحل له الزواج منها، واشترطت عليه أن يُطلق زوجته النبطية، وعندما علمت الأميرة العربية بما يُدبَّر لها غادرت الجليل عائدة إلى أبيها، فغضب وقرَّر الانتقام من صهره الذي أهان ابنته وأهانه. وجرت بين الرجلين رحى معركة ضارية في

---

(١) الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي: ص٢٧٦، ٢٧٧. زيدان: ص٩٠. علي: ج٣ ص٤٥. معطي: ص٣٤٣، ٣٤٤.

(٢) معطي: ص٣٤٤.

جلعاد في عام (٣٦م) أسفرت عن انتصار الحارث الرابع، فالتمس هيرودوس أنتيباس المساعدة من حاميه الامبراطور الروماني طيباريوس، فكتب إلى عامله على سوريا لوقيوس فيتاليوس أن يسير فوراً لمحاربة الحارث الرابع والقبض عليه حياً وإرساله مكبلاً بالسلاسل إلى روما، أو إرسال رأسه إليه إن قُتل[1]. وفي الوقت الذي شرع فيه القائد الروماني بالزحف نحو البتراء، وما إن وصل إلى بيت المقدس أتاه نعي طيباريوس في عام (٣٧م)، فعاد أدراجه إلى أنطاكية تاركاً للحارث الرابع أن يستولي على دمشق. ونستدل من رواية وردت على لسان بولس الرسول، في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس، أن الحارث الرابع كان آنذاك حاكماً على دمشق، إذ يقول: «كان عامل الملك الحارث في دمشق يأمر بحراسة المدينة للقبض علي، ولكني دُليت في زنبيل من كوة على السور فنجوت من يديه»[2].

مالك الثاني (٤٠ ـ ٧٥م)

تولى مالك الثاني حكم المملكة النبطية خلفاً لأبيه الحارث الرابع، وبدأ في عهده الضعف والانحلال يدبان في أوصال الدولة، وراحت النساء يتدخلن في الشؤون العامة ويشاركن أزواجهن وأبنائهن في مقاليد الحكم، وضُربت النقود بأسمائهن وهو مظهر من مظاهر السيادة.

لم يخرج مالك الثاني عن سياسة «صدق الولاء» مع روما، فأمدَّ الامبراطور الروماني تيطس بالمساعدات المالية والعسكرية، واشترك معه في حملته ضد اليهود في فلسطين عام (٦٧م)[3]، فقدَّم فرقة عسكرية قوامها خمسة آلاف من المشاة وألفاً من الفرسان، وقد سكَّ نقوداً نبطية كثيرة تُخلِّد هذه الذكرى، كما سكَّ نقوداً فضية وبرونزية نقش عليها صورته وصورة زوجته، ومن الملاحظ أن ملوك الأنباط بدأوا ينقشون صورهم وصور زوجاتهم منذ أيام عبادة الثالث.

رب إيل الثاني (٧٥ ـ ١٠١م)

تولى رب إيل الثاني، الملقب بسوتر، الحكم بعد أبيه مالك الثاني، فقضى معظم وقته في بصرى تاركاً شؤون الحكم بيد أمه شقيلة وزوجته جميلة، ما أثار حفيظة بعض القبائل التي تمرَّدت عليه بقيادة دمسي، ولكن رب إيل قمع حركة التمرد ولُقِّب

(١) العهد الجديد، إنجيل مرقس: الإصحاح السادس، الآية ١٧ ـ ٢٩.

(٢) الإصحاح ١١، الآية ٢٣.

(٣) Josèphe: Bk15 p79.

من أجل ذلك «واهب الحياة والخلاص لأمته»، وسكَّ هذا الملك نقوداً نقش عليها صورته وصورة زوجته وشقيقته[١].

مالك الثالث (١٠١ - ١٠٦م)

هو آخر ملوك الأنباط، وشهد عهده سقوط المملكة بيد الرومان الذين ضموها إلى الولاية العربية، التي أسسوها لحماية أملاكهم وخطوط تجارتهم في الشرق واتخذوا من بصرى عاصمة لها، وهي التي ورثت البتراء اقتصادياً وسياسياً. فقد عمد الامبراطور فسبازيان إلى رسم خريطة جديدة للشرق تخدم سياسة روما ومصالحها التجارية في ظل ظروف كانت تستوجب موقفاً حازماً، إذا كان للسلام السائد في هذه المنطقة ألا يتعرض لأية خضَّات في غير صالح روما، كما أن البارثيين الفرس لم ينفكُّوا عن محاولاتهم توسيع حدود امبراطوريتهم أو مناطق نفوذهم نحو الغرب على حساب الحدود الرومانية ومناطق نفوذ الرومان، كما كانوا يُهددون الطرق التجارية التي تصل روما بالشرق الأقصى؛ فكلَّف قائده العسكري تراجان، والد الامبراطور تراجان، بهذه المهمة.

اعتمد تراجان الأب سياسة حثِّ المدن العربية على تحصين دفاعاتها، واستولى على بعض المناطق في بلاد ما بين النهرين، وعزل الأسرة العربية المالكة في حمص بهدف إزالة نفوذها وسيطرتها على الطريق التجاري الذي يربط تدمر بالبحر المتوسط[٢] وكانت خطوته التالية الاستيلاء على مملكة الأنباط وضمِّها إلى الأملاك الرومانية.

ففي أواخر القرن الأول الميلادي أضحت غارات البدو على بلاد الشام وفلسطين تشكل خطراً على سياسة روما التجارية في الشرق، ذلك أن هذه الهجمات جعلت هذه التجارة عرضة للخطر لدى نشوب حرب مع الفرس في الصحراء السورية، ثم إنه أراد أن يتخطَّى الفرات شرقاً في محاولة لبلوغ شاطئ الخليج العربي، غير أنه أراد أن يُدعِم مواقعه الجنوبية أولاً حتى لا يأخذه الفرس أو القبائل العربية على حين غرَّة[٣]، وقد شقَّ لهذا الغرض ما يُسمى «طريق تراجان»، وهي طريق صحراوية حصينة تبدأ بالعقبة وتمر بالبتراء وبصرى وتنتهي عند نهر الفرات في الصحراء السورية مروراً بأم الجمال وخربة سمرا، وهي مواقع كانت مهمة آنذاك على طريق القوافل[٤].

---

(١) عباس: ص٦٦ - ٧٠.

(٢) Bowersock: Syria Under Vespasian p140.

(٣) Trimingham: p49.

(٤) سحاب: ص٦٤.

وكانت البتراء، سواء بموقعها الذي تحصنه التكوينات الصخرية المرتفعة أو بموقعها التجاري الحيوي على الخط التجاري الذي يصل بين شمالي الجزيرة العربية وجنوبها، تشكل نقطة إغراء بالنسبة لروما، سواء في التصدي لأي اجتياح فارسي أو من حيث ضمان التحكم في أحد الخطوط التجارية الرئيسة، كما أنه يضع المدخل الشمالي للبحر الأحمر تحت سيطرتها.

وتحقيقاً لهذا الهدف سمَّى الامبراطور تراجان في عام (١٠٥م) مملكة الأنباط المقاطعة العربية، وأرسل الموفد القنصلي كورنيليوس بالما في عام (١٠٦م) ليستولي عليها عسكرياً[١]، وتصادف ذلك مع وفاة مالك الثالث. وعلى هذا الشكل زالت مملكة الأنباط، لكن سكانها ظلوا يمارسون التجارة وقيادة القوافل على الرغم من انصراف كثير منهم إلى العمل الزراعي، وقد وُجدت كتابات نبطية على طرق التجارة في طور سيناء ومصر وأماكن أخرى، تدل على استمرار تجارة الأنباط بين مصر والجزيرة العربية وبلاد الشام بعد سيطرة الرومان على المملكة[٢].

حضارة الأنباط

النظام السياسي

ظهر الأنباط على المسرح السياسي منذ القرن السادس قبل الميلاد، لكن المصادر التي بحثت في تاريخهم أرَّخت لأعمال ملوكهم الذين حكموا بين عامي (١٦٩ق.م و١٠٦م) وأهملت من سبقهم، ولعل السبب في ذلك أن الأنباط كانوا، في بداية حياتهم السياسية، تحت حكم البطالسة ويعيشون كغيرهم من عرب البادية في ظل نظام قبلي مشيخي قبل أن يُطوِّروه بعد أن استقروا إلى نظام ملكي، والمعروف أن الانتقال من النظام القبلي إلى النظام الملكي كان مألوفاً لدى العرب قبل الأنباط وبعدهم.

كان الملك هو رئيس الدولة ويتمتع بسلطات شبه مطلقة، فهو يُعين الوزراء والموظفين وقادة الجند ويوكل إليهم إدارة الأعمال المدنية والعسكرية، والتفَّت حوله طبقة من الأشراف احتكرت النظر في المسائل العليا للدولة وتقديم الاستشارات للملك، ويقال للواحد منهم «أخو الملك»، وانحصرت بهم هذه الوظائف القيادية العامة كما انحصرت الملكية في الأسرة الحاكمة[٣].

---

(١) Gabrieli, F: A Short History of the Arabs p16.

(٢) علي: جـ٣ ص٤٩، ٥٠.

(٣) المرجع نفسه: ص٥١. Strabo: Bk16 pp21, 66.

غير أن ملك الأنباط، الذي كان يعيش في الترف وأبهة الملك، ظل يحتفظ بكثير من خصائص شيخ القبيلة، فهو يخدم نفسه بنفسه كما يخدم ضيوفه ويكشف لشعبه عن شؤونه الذاتية، وإذا قيل له «مرنا» أي سيدنا، فما ذلك إلا قياماً بواجب التعظيم والاحترام، ويبدو أن ملوك الأنباط هم الوحيدون من بين الملوك العرب كانوا ينعتون أنفسهم بنعوت خاصة مثل: «ملك رحم عمه» أي «الملك الرحيم بشعبه» أو «الملك المحب لشعبه» إلى جانب النعت بـ«ملك النبط» «ملك نبطو»[(١)].

اللغة

إن حضارة الأنباط مركَّبة، فهي عربية في لغتها، وآرامية في كتابتها، وسامية في ديانتها، ويونانية ـ رومانية في فنها وهندستها المعمارية، ولكنها عربية في جوهرها[(٢)].

فالأنباط من عرب شمالي الجزيرة العربية، ولعلهم أقرب الدول القديمة إلى عرب الحجاز، فأغلب الأسماء التي كانت شائعة في مجتمعهم هي نفسها الأسماء المستعملة في الحجاز والعربية الجنوبية عند ظهور الإسلام مثل: حارثة، مالك، جذيمة، كليب، وائل، قصي، عدي، جميلة، هاجر، شقيلة، وغيرها، كما أن تركيب لغتهم يشبه تركيب النحو العربي المعروف لدينا، واللغة النبطية هي لهجة عربية شمالية، وكثير من كلماتها وعباراتها الواردة في النقوش هي عربية، مثل قبر[(٣)].

استعمل الأنباط الخط الآرامي المشتق من الفينيقي، واللغة الآرامية في الكتابة والمعاملات الرسمية والتجارية نظراً لأن هذه اللغة كانت السائدة في منطقة المشرق آنذاك، فكأنه كانت لهم لغة خاصة بالتخاطب وأخرى للكتابة، لكنهم حوَّروا الخط الآرامي وصقلوه تدريجياً حتى أضحى خطاً قائماً بذاته وهو أصل الخط العربي الكوفي[(٤)]. ووُجدت نقوش على شواهد القبور مزدوجة اللغة، آرامية وعربية، مثل نقش رقاش في الحجر وفي أم الجمال، وهو المعروف باسم «فهرو بن شلي معلم جذيمة ملك تنوخ» وهو يعود إلى عام (٢٧٠م)، حتى إذا وصلنا إلى نقش النمارة

---

(١) علي: جـ٣ ص٥١، ٥٢.

(٢) حتي، فيليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين: جـ١ ص٤٢٦.

(٣) زيدان: ص٩٣ ـ ٩٥. العلي: ص٥٠، ٥١.

(٤) المرجعان نفساهما. نامي، خليل يحيى: أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام: ص١٠٤، ١٠٥. مقال في مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية الجزء الأول، أيار ١٩٣٥م.

الذي يرجع إلى عام (٣٢٨م) وجدنا الخط نبطياً واللغة عربية[١].

الحركة العمرانية

اشتهر الأنباط بعمائرهم المنحوتة في الصخر، ولا تزال آثار بعضها موجودة إلى اليوم وأهمها:

الخزنة، وهو بناء محفور في الصخر شأنه شأن بقية منشآت البتراء، مؤلف من طابقين، يتميز الطابق العلوي منه بوجود إفريز مثلث الشكل يتوسطه جوسق مستدير، ويعلو الإفريز جرة كبيرة منحوتة من الصخر الأصم، أحدثت فيها كسور كثيرة نتيجة لتعرضها لرصاص البنادق، إذ كان الاعتقاد السائد أن بداخلها كنزاً من الذهب، ولهذا عُرف البناء كله بالخزنة. وتُوِّج الطابق السفلي بإفريز ذي أشرطة بارزة تشكل مثلثاً على نحو نظام واجهات المعابد الإغريقية، وتقوم الواجهة على أعمدة ضخمة، وتزدان بنقوش وكتابات نبطية، ويبدو أن الخزنة كانت معبداً، نظراً لكثرة ما فيها من تماثيل[٢].

المسرح، الذي يُفضي إلى سهل فسيح تتناثر فيه الكهوف الطبيعية أو المحفورة في الصخر، ولبعضها واجهات منقوشة[٣].

الدير، هو بناء ضخم يبلغ عرضه نحو خمسين متراً ويصل ارتفاعه حتى قمة الجرة، أي خمسة وأربعين متراً، ويزدان بواجهة من الطراز الهيلليني، وبداخله قاعة فسيحة، جدارها الخلفي مجوف أقيم فيه نصب حجري يمثل الإله ذا شرى، ويرجع تاريخ بنائه إلى القرن الثالث الميلادي.

قصر البنت، أو قصر بنت فرعون، هو بناء مشيد غير محفور في الصخر.

ضريح الجرة، يزدان بواجهة تُعد من أروع ما تبقى من الآثار ذات الطابع الهيلليني.

ضريح القصر وضريح سكستوس فلورنتينيوس المشيد عام (١٤٠م)[٤].

الدين

كان الأنباط وثنيين عبدوا عدداً من الآلهة، وشاركوا العرب في عبادتها، نذكر منها:

---

(١) معطي: ص٣٤٨.
(٢) هاردنغ: ص١٢٦.
(٣) زيدان: ص٨٤.
(٤) هاردنغ: ص١٣٠، ١٣١، ١٣٤.

ذو الشرى: وهو الإلٰه الرئيس عند الأنباط، ولعل اسمه مشتق من الشراة وهي منطقة جبلية حول البتراء، ويتمثل هذا الإلٰه في صورة صخرة سوداء مستطيلة، وهو إلٰه الشمس، إذ كان النبطيون يحتفلون بعيده سنوياً، ويُعد حامي الملوك.

اللات: هي إلٰهة القمر عند الأنباط.

العزى ومناة وهبل.

شيع القوم: أي حامي القوم، وهو إله القوافل.

ظلت عبادة ذي الشرى حتى ظهور الإسلام في شمالي الحجاز، وانتقلت عبادة بعض هذه الآلهة إلى مكة على يدي عمرو بن لحي الخزاعي بعد عودته من البلقاء[1]، ويدل ذلك على مدى اعتقاد الناس بأثر الأنباط في عبادة المكيين عند ظهور الإسلام.

---

(١) الكلبي: ص٢٤، ٢٥.

مملكة تدمر

تاريخ تدمر المبكر

نشأت تدمر في طرف بادية الشام حول نبع ماء بالقرب من حمص في مكان وسط يكاد يمثل همزة وصل بين أراضي الفرات الشمالية الغربية الخصبة وأراضي الشام الشمالية الشرقية، وهذا ما جعل منها مركزاً تجارياً متميزاً وملتقى للقوافل التجارية التي تصل بين العراق والشام.

إن تاريخ تدمر المبكر موغل في القدم، فقد ورد ذكرها لأول مرة في نقش اكتُشف في مسكنة على الفرات يعود إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، يذكر أنه أمام أربعة شهود، بينهم اثنان تدمريان، يدفع ملك داغان فدية تبلغ أربعة وسبعين شاقلاً من الفضة إلى خادم آثر التدمري، وفيه أول طبعة ختم تدمري معروفة حتى الآن[1]. ونوَّه الملك الآشوري تغلت فلاسر الأول (١١١٧ ـ ١٠٨٠ق.م)، في نقش له يعود تاريخه إلى عام (١١٠٠ق.م)، بتدمر الموجودة في بلاد أمورو[2]. ولا بد أن تكون تدمر موضوع البحث، ويظهر اسم تدمر في إحدى الرقم الآشورية المكتشفة في منطقة كبادوكيا بآسيا الصغرى، كمستعمرة تجارية للآشوريين في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد.

ويذكر المؤرخ السرياني ملالاس بأن التدمريين ساعدوا الملك الكلداني نبوخذ نصر (٦٠٤ ـ ٥٦٢ق.م) خلال هجومه على اليهود في فلسطين، وأمدُّوه بثمانية آلاف من رماة النبال[3]، وأول من ذكرها من الكتّاب الكلاسيكيين هو بلينوس فقال: إنها مدينة شهيرة تتميز بموقعها، ولها ينابيع وعيون وتحيط الرمال بحدائقها، وقد عزلتها الطبيعة عن العالم ببادية واسعة الأطراف، بعيدة المسافات، وتقع بين امبراطوريتين

---

(١) البنّي، عدنان: تدمر والتدمريون: ص٦٦.

(٢) أمورو: نسبة إلى الآموريين، وهم من الشعوب السامية، حكموا أجزاء من سوريا وفلسطين وبابل، وكان البابليون يُطلقون على سوريا وفلسطين أرض الآموريين.

(٣) العلي: ص٥٤.

عظيمتين، روما وفارس، ولهذا استرعت أنظار الأولين[١].

عُرفت تدمر عند الكتّاب اليونان والرومان باسم بالميرا، وهي مشتقة من كلمة Palma اللاتينية، بمعنى النخل، وقد أطلق الإسكندر المقدوني عليها هذا الاسم نظراً لكثرة ما كان يُزرع فيها من أشجار النخيل[٢]، وربما هي ترجمة لكلمة تامار العبرية ومعناها نخلة. وتامار اسم موضع إلى الجنوب الشرقي من يهوذا ورد ذكره في العهد القديم، ولا يُعرف هذا الموضع اليوم على وجه التحقيق، ويرى علماء التوراة أنه الموضع الذي بناه النبي سليمان والمذكور في سفر الملوك الأول[٣]. ثم إن ورود اسم تامار على هذه الصورة كان نتيجة خطأ ارتكبه كتبة سفر الأخبار[٤]، فخلطوا بين تامار الواقعة جنوبي البحر الميت وبين تدمر المدينة المشهورة التي بناها النبي سليمان في البرية والتي وردت بهذا الاسم[٥]، فالأصل هو تامار ثم صارت تدمر.

والواقع أنه نتج عن التغيُّر في أسماء المدن التي بناها سليمان في البرية خلط وتحريف، فتدمر موضوع البحث لم تكن من بناء سليمان لأن ملكه لم يمتد إلى هذه البلاد البعيدة عن حدود مملكة إسرائيل، وأخذ العرب الجاهليون اسم المدينة من خلال ما رواه العهد القديم في أسفاره، فتامار بمعنى تمر ربما تحوَّل إلى تدمر، لكن الراجح أن كلمة تدمر العربية هي تحوير لكلمة تتمر الآرامية التي تعني المدينة التي يكثر فيها النخل، فكأنها مدينة النخل، وهو المعنى نفسه الذي عُرفت به المدينة عند اليونان والرومان حيث سميت باسم بالميرا كما ذكرنا.

وينسب الإخباريون العرب بناء تدمر إلى شخصية خرافية هي تدمر بنت حسان بن أُذينة بن السميدع التي يرتفع نسبها إلى سام بن نوح[٦]، وذكر بعضهم أن الزباء ملكة تدمر هي ابنة عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر من أهل بيت عاملة من العماليق[٧].

بدأت تدمر تظهر كمحطة تجارية هامة على طريق القوافل بين العراق والشام بعد

---

(١) Natural History: Bk6 p86.

(٢) سفر حزقيال: الإصحاح ٤٧، الآية ١٩. الإصحاح ٤٨، الآية ٢٨. سفر الملوك الأول: الإصحاح ٩، الآية ١٨.

(٣) الإصحاح ٩، الآية ١٧.

(٤) انظر: سفر الأخبار الثاني: الإصحاح ٨، الآية ٤.

(٥) سفر الملوك الأول: الإصحاح ٩، الآية ١٨. ويستبعد ياقوت الحموي نسبة بناء تدمر إلى سليمان وقال: «... ولكن الناس إذا رأوا بناء عجيباً جهلوا بانيه أضافوه إلى سليمان وإلى الجن». معجم البلدان: جـ٢ ص١٧.

(٦) معجم البلدان: جـ٢ ص١٧.

(٧) المسعودي: جـ٢ ص٦٩.

قيام الدولة الأخمينية الفارسية في القرن السابع قبل الميلاد، فقد وحّدت هذه الدولة منطقة غربي آسيا ما كان سبباً في تنشيط حركة القوافل التجارية على الطرق التي تصل بين العراق والهند وآسيا الصغرى وبلاد الشام، وعندما خضعت تدمر للإسكندر المقدوني لم يهتز مركزها التجاري، بل استمر تألقها التجاري في ظل الوحدة التي أقامها الإسكندر بين الشرق والغرب، وظلّت محتفظة بمكانتها التجارية في أيام السلوقيين خلفاء الإسكندر الذين شجعوا الحركة التجارية على الطريق الذي يمر بالعراق وتدمر، في محاولة لمنافسة البطالسة الذين كانوا يسيطرون على طرق التجارة الجنوبية في البحرين الأحمر والأبيض المتوسط[١].

وما حدث بعد ذلك من قيام الدولة البارثية في العراق وإيران وانتصارها على السلوقيين، سبَّب أضراراً جسيمة لاقتصاد تدمر؛ لأنه فصل بين العراق وبلاد الشام ما هدَّد التجارة التدمرية، ولما سيطر الرومان على بلاد الشام وفلسطين ومصر، وهادنوا الدولة البارثية، عادت التجارة الشرقية تمر بتدمر، وراجت رواجاً كبيراً[٢].

علاقة تدمر مع روما في القرون الأولى للميلاد

لعل أول مناسبة تُذكر عن علاقة تدمر مع الامبراطورية الرومانية، جرت في عام (١٧م) على عهد الامبراطور طيباريوس (١٤ ـ ٣٧م)، فقد أصدر هذا الامبراطور قراراً في السنة المذكورة يتعلق بالجمارك الخاصة بهذه المدينة[٣]، وهذا يعني أن تدمر كانت آنذاك داخلة في نفوذ روما، ولعل السبب الذي دفع الامبراطور الروماني لاتخاذ هذا الإجراء يكمن في عاملين متداخلين يتعلقان، كما سبق أن ذكرنا في حال مملكة الأنباط، بوجود الخطر الفارسي في الشرق.

والواقع أن العلاقات الفارسية ـ الرومانية كانت متوترة في أغلب الأحيان ويُعبِّر هذا التوتر عن نفسه في شكلين متكاملين:

الأول: محاولة دائمة من جانب الفرس لقطع طرق التجارة التي تصل الامبراطورية الرومانية بتجارة الشرق الأقصى عبر آسيا الوسطى، أو على الأقل تهديد هذه الطرق.

الثاني: انفجار هذا التوتر على شكل اصطدامات مسلحة على الحدود الفاصلة بين الامبراطوريتين[٤].

وكانت تدمر تقع في منطقة قرب هذه الحدود بين وادي الرافدين، الذي يسيطر

---

(١) علي: ج٣ ص٨٥.

(٢) العلي: ص٥٤. سالم: ص٢٠٢، ٢٠٣.

(٣) Cary, M: History of Rome p24.

(٤) يحيى: ص٤٣٢.

عليه الفرس شرقاً، وبين سوريا التي يسيطر عليها الرومان غرباً، ويمر عبرها الخط التجاري الهام الذي يصل الشرق بالغرب في أقصى الشمال من الجزيرة العربية.

والواضح أن هذا الموقع الهام في نقطة الوسط بين الامبراطوريتين هو الذي حدَّد شكل العلاقة بين البلدين بحيث اختلفت عما ذكرناه عند الحديث عن علاقة الأنباط بروما، ذلك أن منطقة الأنباط كانت تقع على الحدود المباشرة بين الامبراطوريتين. من هنا كان باستطاعة روما أن تلجأ إلى الضغط المباشر عليها، غير أن وضع العلاقة كان يختلف في حالة تدمر، إذ إن موقعها يتيح لها بنقل ولائها للطرف الذي يضغط عليها أكثر من الطرف الآخر، لذلك فإن سياسة روما اتسمت منذ البداية بشيء من الليونة على الرغم من تبعيتها لها إن بشكل رسمي أو غير رسمي[١].

ونتيجة لهذا الوضع، انتقلت تدمر من النفوذ الروماني غير المباشر إلى تبعية واضحة على عهد الامبراطور هادريان (١١٧ ـ ١٣٨م) الذي بذل عناية كبيرة بوضع المدينة نظراً لحاجة الامبراطورية إلى التجارة مع الفرس، ولهذا سعى في الوقت نفسه إلى تحسين علاقاته بالفرس والمحافظة على أمن البادية. وهكذا أضحت تدمر مستعمرة رومانية، لكن ذلك لا يعني أنها أضحت ولاية رومانية بل كانت في الواقع حكومة مستقلة ذات سلطة تتمتع بقدر من الحرية في إدارة شؤونها، خاضعة خضوعاً شكلياً لحكم الرومان[٢].

وأخذت تدمر تأخذ الطابع الروماني منذ عهد الامبراطور كركلا، الذي حاول ربط الامبراطورية بمستعمراتها عن طريق منح الجنسية الرومانية لجميع سكان هذه المستعمرات ومنها تدمر، وأخذ التدمريون يضيفون إلى أسمائهم العربية أو الآرامية أسماء رومانية أو يونانية مثل اسم سبتيموس الذي أضافته الأسرة الحاكمة التي ينتمي إليها الملك أُذينة، وحمل رجال السلطة التنفيذية والإدارية ألقاباً يونانية مثل لقب: Proedros، الرئيس، ومثل أسماء: Archontes، وSyndicus وغيرهما، والتي كانت تطلق على مجالس محلية يتألف كل منها من عشرة أعضاء[٣].

وأسس الامبراطور تراجان فرقة تدمرية نظامية مساعدة في الجيش الروماني، وأقام حامية رومانية في تدمر، واعتنى بالطريق الموصل إليها، وعيَّنَ ممثلاً لروما فيها كان يتخذ القرارات المهمة في حين لم يكن لمجلسي الشيوخ والشعب سوى سلطات محدودة[٤].

---

(١) يحيى: ص٤٣٢، ٤٣٣.

(٢) Cambridge Ancient History: XI p139.

(٣) Encyclopedia Britannica. vol 17 p162.

(٤) البنّي: ص٧٢.

ارتقاء تدمر

كان للشروط التي وضعها الامبراطور هادريان، عندما تنازل عن بلاد الرافدين للبارثيين، فاتحة عهد من السلام كان له أثر كبير في رخاء تدمر الاقتصادي، فاستغلت تدمر هذا السلام، بالإضافة إلى سياسة خليفته أنطونيوس بيوس (١٣٨ ـ ١٦١م) السلمية، فوسَّعت تجارتها عبر الفرات وأقامت معبداً في بابل[١]. وعلى الرغم من انتمائها المعلن للمعسكر الروماني إلا أنها أقامت علاقة وثيقة مع قبائل العرب في منطقة النفوذ الفارسي، بل ومع الفرس أنفسهم، لتأمين تجارتها، وقد سهَّل لتحقيق هذا الأمر أن الأطراف كافة كانت بحاجة إلى تجارة الشرق[٢]. والمعروف أنه كانت لتدمر مكانة في الشبكة التجارية منذ قيام الدولة السلوقية، غير أنها لم تزدهر إلا عندما أدمجت بالنظام التجاري النبطي، وفتْح الفرات الأسفل للملاحة بين الامبراطوريتين البارثية والرومانية اللتين اتفقتا على ضرورة هذه الوساطة التجارية عبر الحدود[٣].

وأبدت روما اهتماماً سياسياً زائداً بتدمر منذ النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، وبخاصة بعد أن بدأت البتراء تفقد مكانتها بفعل تحوُّل التجارة عنها إلى مصر وإلى طريق الفرات، وكانت تدمر، في أوقات السلم بين الفرس والرومان، تستقطب جزءاً مهماً من تجارة الشرق بفعل تميز طريقها عن الطرق الأخرى بالقصر وسرعة النقل[٤].

وما وافى القرن الثالث الميلادي حتى تعاظمت قوة تدمر، حتى أن التدمريين سيطروا على قسم من الشرق الهيلليني خلال الحرب التدمرية ـ الرومانية، ويمكن القول بأن مظاهر النشاط الروماني في القرن المذكور لم يكن منفصلاً عن الحيوية التدمرية، ذلك أن علاقة أسرة سافيروس، التي استولت على العرش في روما منذ عام (١٩٣م)، بمدينة حمص التي كانت تتحكم بالمنفذ الوحيد لطريق تدمر المباشر إلى البحر الأبيض المتوسط، واهتمام هذه الأسرة بتحسين الوحدات العربية داخل الجيش الروماني مثل الرماة والهجانة، وكذلك اهتمام فيليب العربي بالمقاتلين البدو، كل ذلك ساهم في تعاظم قوة تدمر.

ففي عام (٢٠٨م)، أي في عصر سبتيموس سافيروس، ظهرت الوحدات التدمرية بقوة في نظام الحاميات الرومانية عند نهر الفرات، وقد يكون لذلك علاقة بارتقاء قوة تدمر[٥]، وقد رافق ذلك على الجانب الآخر من نهر الفرات، انقلاب في دولة

---

(١) علي: ج٣ ص٨٧، ٨٨.

(٢) سحاب: ص٦٩.

(٣) Trimingham p31.

(٤) سحاب: ص٦٩.

(٥) المرجع نفسه: ص٧٠.

الفرس، حدث في عام (٢٢٦م)، وانتقل بنتيجته الحكم من البارثيين الذين أصابهم الوهن، إلى الساسانيين الذين ورثوا العداوة القديمة بين فارس واليونان مع اختلاف الخصم، بعد أن حلَّ الرومان في ربوع الشرق الأدنى، وكان التنازع على مناطق الأطراف والسيطرة على طرق القوافل التجارية بين الشرق والغرب من أهم أسباب هذا النزاع، وأخذ الفرس يُبدِّلون الأوضاع باتجاه الصدام المسلح بدليل ما جرى من صدِّ الساسانيين محاولة الامبراطور الروماني سافيروس ألكسندر (٢٢٢ ـ ٢٣٥م) من مدِّ نفوذه إلى الخليج العربي[١]، وقد انتقم الساسانيون بإزالة مدينتين عربيتين من مدن الشرق المارة عبر الفرات، هما الحضر ودورة، اللتين كانتا على الولاء لروما وفيهما حاميات رومانية. وقاومت تدمر هجمات الساسانيين، وانتهز الأعراب هجمات الفرس في السنوات (٢٤٣ و٢٥٦ و٢٥٩م)، وأسْر الامبراطور الروماني فالريان في عام (٢٦٠م)، فأخذوا يغيرون على المدن ويهاجمون المواقع الرومانية، فازدادت بذلك حاجة روما إلى تدمر وقوتها العسكرية وقدرتها على ردع الأعراب، فألَّفت كتائب عربية للقتال في البوادي[٢].

ذروة قوة تدمر

كانت الامبراطورية الرومانية أمام موقف صعب كاد أن يقضي على جناحها الشرقي في الأزمة التدمرية، إذ إن حماية الحدود كانت تحتاج إلى إشراك العرب في نظام دفاعي يمتلكون عناصره ويمسكون بزمامه، وكانت هذه الحاجة مدخلهم إلى الجيش الروماني والإدارة الرومانية حتى بلغوا العرش الامبراطوري نفسه، ولو شاء العرب أن يسلكوا سلوكاً استقلالياً لسبَّبوا مشكلة للامبراطورية، وهذه كانت مشكلة روما حين بدا في عام (٢٦٠م) أن تدمر قد أخذت فعلاً تسلك هذا السلوك الاستقلالي[٣].

والواقع أن تدمر، قبل الانقلاب الساساني، قد بلغت ذروة قوتها الاقتصادية، فتجمَّعت لدى تجارها وأرباب المال فيها ثروات طائلة، وازداد عدد قوافلها، واغتنت الدولة وقوي جيشها وتوطدت مكانتها، وأدرك قادتها وساستها الأخطار التي تهدد تجارتهم واستقلال بلدهم بفعل المتغيرات السياسية والعسكرية في المنطقة، وبخاصة ما جرى من احتلال بلاد ما بين النهرين من قبل الساسانيين واجتياحهم أجزاء واسعة من سوريا وآسيا الصغرى، ما عرَّض تجارة التدمريين للخطر، فنهضوا للتصدي للغزاة

---

(١) علي: جـ٤ ص٦٨.

(٢) المرجع نفسه: ص٦٩ .Trimingham: pp30, 31

(٣) سحاب: ص٧٧، ٧٨.

ومقاومتهم وتحرير الأراضي المحتلة وإعادة حركة التجارة بين تدمر والخليج العربي من جهة وسوريا وموانئ البحر الأبيض المتوسط من جهة ثانية، وتطلّبت هذه السياسة التدمرية الجديدة توثيق علاقة الحكومة التدمرية السياسية والعسكرية بروما التي قدَّمت لها المساعدات العسكرية والمالية للدفاع عن مصالحهما المشتركة[١].

وكان على رأس الإمارة التدمرية، آنذاك، أسرة أذينة، وهي أسرة وطنية عريقة تولى رجالها رئاسة الحكومة وقيادة البلد، واستطاعت، بفضل تأييدها للرومان وتقربها إليهم، أن تكتسب ودَّ الأباطرة وتنال عطفهم والإنعام على أفرادها بالألقاب وبالمال والمساعدة العسكرية، نذكر من هذه الأسرة:

سبتيموس حيران، خيران: الملقب برأس تدمر، وقد تمكّن من تثبيت حكم أسرته والهيمنة على شؤون المدينة وتوسيع تجارتها، فاكتسب بذلك منزلة كبيرة عند أهل تدمر وعند الرومان. وقد رافق الامبراطور سبتيموس سافيروس، خلال حروبه ضد البارثيين الفرس، وتقرَّب إليه ولقب نفسه سبتيموس، وهو والد أذينة أو أخوه الذي سيصبح حاكم تدمر[٢] ومؤسس المملكة.

أُذينة[٣]: خلف أُذينة سبتيموس حيران بعد وفاته، وكان قد تولى، قبل أن يتسلم الحكم، قيادة الجيش والقوافل ورئاسة قبائل البادية، فاكتسب خبرات أسهمت في تنمية مؤهلاته الخاصة، وكان يحمل درجة قنصل في عهد الامبراطور فالريان في عام (٢٥٨م)، كما كان يحمل لقب مرن، أي سيدنا، وهو لقب يستعمله التدمريون[٤].

أخضع أُذينة القبائل المجاورة، ووضع خطة للتوسع، واكتفت روما بالتبعية الاسمية من جانبه تاركة له قدراً من الحرية والاستقلال يكاد يكون تاماً حيث وصل إلى درجة الحكم الذاتي، وحتى يُجنب بلاده ويلات الحروب ويحافظ على تجارتها، فكر بالاتصال بالفرس، والتفاهم معهم، وعندما هاجم الملك الفارسي سابور الأول سوريا وكبادوكيا واستولى على أنطاكية في عام (٢٥٨م)، ثم اصطدم بالامبراطور الروماني فالريان في عام (٢٦٠م) عند الرها وانتصر عليه وأسره[٥]؛

---

(١) دلو: جـ٢ ص٣٣٩.

(٢) مجلة المشرق، السنة الأولى، الجزء ١٣ تموز ١٨٩٨م ص٥٩٠ ـ ٥٩٢. البنّي: ص٧٥.

(٣) هو أذينة الثاني. أما أُذينة الأول فهو الزعيم الأول لأسرة أُذينة وينسبه المؤرخون العرب إلى هوبر العمليقي، فهو أُذينة بن السميدع. انظر: الطبري: جـ١ ص٦١٧، ٦١٨.

(٤) علي: جـ٣ ص٩٢.

(٥) خُلِّدت هذه الأحداث في صورة يظهر فيها سابور الأول فارساً والامبراطور الروماني جاثٍ أمامه، وهي النقوش التي تُعرف في إيران اليوم باسم نقش رستم.

ازداد تصميمه على التفاهم مع الملك الفارسي، فأرسل إليه وفداً محملاً بالهدايا مظهراً رغبته في موادعته ما أثار غضب سابور الأول الذي كان يرى قدومه بنفسه لتقديم فروض الولاء والطاعة والخضوع التام لسلطته، فأساء استقبال أعضاء الوفد ومزَّق رسالته وألقى بهداياه في النهر وتوعده بالعقاب على تجرئه في مخاطبته، فغضب الملك التدمري، وقرَّر الرد، فجمع جيشاً من العرب أمَّر عليه زبدا، كبير قادته، وزبّاي، رئيس القواسين ورماة السهام، وضم إليه بعض الكتائب الرومانية وفلول جيش فالريان المأسور، وسار على رأس هذا الجيش يريد طيسفون، عاصمة سابور الأول. وفي أثناء زحفه على طيسفون وصلت إليه أنباء تغلُّب القائد الروماني كاليستوس على الفرس وفرار هؤلاء باتجاه بلادهم، فغيَّر أُذينة وجهة زحفه وأسرع إليهم ليقطع عليهم خط الرجعة وَمَنْعهم من عبور الفرات، فاصطدم بهم وتغلَّب عليهم، وولى سابور الأول هارباً في جو الهزيمة القاتم وهو جزع تاركاً أمواله وأسرته غنيمة في أيدي التدمريين، فطارده أُذينة حتى أسوار عاصمته، ولكنه لم يتمكن من تحرير الامبراطور فالريان من الأسر إلا أنه حرَّر الجزيرة الفراتية، نصيبين وحران وغيرهما، واسترد أنطاكية[1].

كانت النتيجة الطبيعية لهذا الانتصار ازدياد حاجة روما إلى قوة تدمر، فكافأ الامبراطور الروماني الجديد غالينيوس بن فالريان أُذينة على هذا الانتصار الذي حقَّقه على الفرس، فأنعم عليه في عام (٢٦٢م) بلقب «قائد عام على جميع جيوش الشرق» وحثَّه على مواصلة الحرب لتحرير والده فالريان من الأسر[2]، كما كافأه مرة ثانية في عام (٢٦٤م) على إخلاصه لروما، فمنحه لقب امبراطور على جميع بلاد المشرق وتضم سوريا والعربية الشمالية، وربما أرمينيا[3]. ولم يكتف أُذينة بما ناله من تكريم فلقب نفسه أيضاً بلقب «ملك الملوك»[4].

وعزم أُذينة على مواصلة الحرب ضد الفرس، فغادر عاصمته على رأس الجيش وتوجَّه إلى العاصمة الفارسية، يرافقه ابنه سبتيموس هيرودوس، وعيَّن قبل مغادرته سبتيموس وورود نائباً عنه أثناء غيابه. وضرب أُذينة الحصار على طيسفون، وكاد

---

(١) الدبس، المطران يوسف: من تاريخ سورية الدنيوي والديني: جـ٤ ص٢٢، ٢٣. علي: جـ٣ ص٩٧.

(٢) مجلة المشرق: ص٦٣٧.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: جـ٥ ص١٤. مجلة المشرق، السنة الأولى، الجزء ١٥ آب ١٨٩٨م ص٦٨٨.

(٤) البنّي: ص٧٥، ٧٦.

سابور الأول يلتمس منه الأمان لولا حدوث نزاعات دموية على السلطة في روما، ففك الحصار عنها وعاد إلى بلاده[١]. والواقع أن ما جرى من خروج القائد الروماني مكريانوس على الامبراطور غالينيوس، حيث نصَّب نفسه امبراطوراً على سوريا وآسيا الصغرى وفلسطين، أجبر أُذينة على العودة إلى بلاده لاتخاذ موقف من الوضع الجديد، إذ لم يكن مطمئناً إلى مكريانوس، وخشي أن يستولي على بلاده إن تمكَّن واستأثر بالحكم. وفي الوقت الذي كان يهم بالخروج إلى حمص لحربه، جاءه نبأ مقتله، وأعلن أهل حمص ولاءهم له وخروجهم على مكاثيوس بن مكريانوس الذي خلفه، وساندوا القوات التدمرية في حصار المدينة التي استسلمت للملك التدمري على أثر مقتل مكاثيوس في داخلها، وذلك في عام (٢٦٢م)[٢].

وصمَّم أُذينة بعد ذلك على تحرير الامبراطور فالريان من أسر الفرس ومحاربة خصمه المتغطرس سابور الأول، إما حباً في إذلاله والانتقام منه، بعد أن أهانه، أو تقرباً للرومان وتودداً للامبراطور غالينيوس، فجمع جيشاً وزحف باتجاه طيسفون في أوائل عام (٢٦٥م)، فحاصرها مدة. ويبدو أن سابور الأول مال إلى الصلح، غير أن اشتراط أُذينة فك أسر فالريان أفشل محاولة الصلح حيث تمسك الفرس بالامبراطور الروماني. ووقع في غضون ذلك حادث بدَّل الخطط العسكرية وأجبر أُذينة على فك الحصار عن طيسفون والذهاب إلى آسيا الصغرى لصد هجوم القوط على سوريا ومقاطعات بيثينيا وفريجيا وغلاطية وكبادوكيا، عبر البحر الأسود وميناء هرقلة، ولما علم هؤلاء بقدوم الملك التدمري، فرُّوا هاربين عبر ميناء هرقلة عائدين إلى بلادهم[٣].

وفي الوقت الذي كان فيه أُذينة بحمص يريح جنده، وقد وصل إلى ذروة مجده تعرَّض لمؤامرة، وذهب ضحية الخيانة والغدر مع ابنه سبتيموس هيرودوس، إذ قتلهما معنيوس بن حيران بتدبير روما على الأرجح؛ لأن المنطلق الأساسي للسياسة الرومانية إزاء تدمر كان بطبيعة الحال هو المصلحة الرومانية في المقام الأول، وعلى هذا فحين شكَّت روما في بعض تصرفات الملك التدمري الذي كان يعمل لمصلحة بلاده ويتصرف وفق ذلك، اغتالته مع ابنه، وذلك في عام (٢٦٦ ـ ٢٦٧م)[٤].

أثبت أُذينة، خلال حياته السياسية، أنه وطني صادق، وقائد فذ، يتمتع بشجاعة فائقة اعترف بها أعداؤه وأكسبته تقدير واحترام الرومان، وهو رجل دولة من الطراز الأول؛ ما أسهم في خلق وحدة وطنية ساعدته على تحقيق الانتصارات.

---

(١) علي: جـ٣ ص٩٥.
(٢) مجلة المشرق: ص٦٨٧.
(٣) المرجع نفسه: ص٦٩١.
(٤) المرجع نفسه: ص٦٩١، ٦٩٢.

الزباء - زنوبيا -: خلف وهب اللات أباه أُذينة[1] بعد مقتله وكان قاصراً، فتولت والدته الزباء[2] الوصاية عليه. والواقع أن شخصية الزباء من الشخصيات الهامة في تاريخ الشرق الأدنى القديم، فما إن تولت السلطة حتى وضعت نصب عينيها المحافظة على مكتسبات زوجها والتوسع باتجاه الجنوب والشمال على حساب الرومان والسيطرة على طرق التجارة الشرقية، وقد ساعدها على ذلك عاملان:

الأول: القوة العسكرية الهائلة التي تركها لها زوجها، وعمادها العنصر العربي، والمعروف أن أُذينة ترك لها مُلكاً مُمهداً، وجيشاً قوياً على رأسه قائدان من أقدر قادة ذلك العصر هما زبدا وزباي.

الثاني: ثقافتها العالية، فهي تتكلم العربية واليونانية والقبطية بطلاقة وربما اللاتينية، وقرأت تاريخ الشرق الأدنى وتاريخ الرومان، وأمَّ بلاطها عدد من الفلاسفة والمؤرخين والكتَّاب أمثال: الفيلسوف الشهير كاسيوس ديونيسيوس لونجينوس، والكاتب المؤرخ كليركراتس الصوري، واللغوي والفيلسوف لوبوكوس البيروتي، والمؤرخ الدمشقي بوزانياس ونيوكوماخس[3].

وأجمعت المصادر التي تعرَّضت لذكرها على أنها كانت على قدر كبير من الذكاء وسعة الحيلة، قديرة على إدارة شؤون البلاد، تقرَّبت من عرب البادية واتخذت منهم مقاتلين، كما ضمَّت إليها عرب المدن والحواضر واتخذت منهم أعواناً ومساعدين، ثم أعطت ابنها جميع الألقاب التي كانت لأبيه، مثل لقب «ملك الملوك» و«قائد عام على جميع عساكر الشرق» و«قنصل وامبراطور» واحتفظت لنفسها بالتاج مع لقب «ملكة الشرق»[4].

وعمدت الزباء، قبل الشروع في التوسع، إلى تأمين جبهتها الشرقية مع الفرس وتحصينها لصدِّ غاراتهم وحتى لا تؤخذ على غرة، فبنت الحصن الذي اتخذ اسمها على الفرات.

لم يكن الرومان بغافلين عن تطلعات الزباء التوسعية، وأخذوا يراقبون تحركاتها،

---

(١) كان لأُذينة من زوجته الزباء ثلاثة أولاد هم: وهب اللات وحيران وتيم اللات.

(٢) ورد اسمها بالآرامية بت زباي، أي ابنة العطية، وتُسمى في المصادر العربية بالزباء بنت عمرو بن ظرب بن حسان بن أُذينة، ويسميها الطبري نائلة. والواضح أن اسم الزباء مشتق من اسم أبيها زباي، فحذفت الياء وأُبدلت بهمزة فإصبحت زباء.

(٣) علي: ج٣ ص١٠٨.

(٤) البنّى: ص٨١. جيبون، إدوارد: اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها: ج١ ص٢٦٨.

فقرَّر الامبراطور الروماني غالينيوس مهاجمتها قبل أن تبدأ بتنفيذ مشروعاتها، في خطوة استباقية، فتظاهر بإرسال جيش لمحاربة الفرس ووجَّهه إلى سوريا لمهاجمة تدمر، فبلغت أخباره الزباء، فسارعت إلى ملاقاته وانتصرت عليه في معركة حاسمة قُتل فيها القائد الروماني هرقليانوس[١].

كان الهدف الأول لملكة تدمر السيطرة على مصر. فبالإضافة إلى نية التوسع، أرادت الزباء أن تضرب روما في أهم منطقة اقتصادية وسياسية، والسيطرة على طريق التجارة الجنوبي عبر البحر الأحمر ومراقبة المواصلات بين الهند وعالم البحر الأبيض المتوسط[٢] وهو أمر يُعبِّر عن ذكائها الخارق وبُعد نظرها، وكان هذا المشروع أعمق جذوراً وأبعد نظراً من مجرد الطموح إلى السيطرة، وأن الصراع السياسي مع روما لم يكن ضحلاً خالياً من الحوافز السياسية العليا، ولم يكن استيلاؤها على مصر سوى الدخول في المجال الطبيعي الذي يوافق الطموح السياسي، والمعروف أن مصر كانت إهراء من إهراءات روما ومنفذاً للتجارة الشرقية عبر الجنوب.

كان على ملكة تدمر أن تُهيئ الظروف الداخلية، وتستغل الظروف الخارجية قبل أن تُقدم على غزو ومصر:

من حيث الظروف الداخلية، فقد أرادت أن تكسب ودَّ المصريين، فادَّعت انتسابها إلى الملوك المقدونيين البطالسة الذين حكموا مصر، وشبَّهت نفسها بكليوباترة ملكة مصر، ولكنها تفوقها عفة وطهارة وجرأة، في الوقت الذي لم تُعلن تنصلها من أصلها التدمري السوري لمجرد أنها أمرأة بدوية عربية، وظلت تعتز بانتسابها إلى عرب تدمر، ولعلها كانت تهدف إلى الإيحاء بشرعية مسلكها الذي ستسلكه بضم مصر إلى دولتها، فتهيئ المصريين نفسياً لخطواتها التي ستخطوها، وتُعبئ نفوسهم لتقبُّل هذا العمل الخطير بوصفها وريثة كليوباترة، وأنها تعمل على تخليص المصريين من السيطرة الرومانية، ويبدو أنها نجحت في عملها، وأثمرت جهودها، فقد ذكر أن الوطنيين في مصر، المعارضين للحكم الروماني، كاتبوها يحثونها على المجيء لتحرير بلادهم من الرومان وتولي الحكم[٣].

ومن حيث استغلال الظروف الخارجية، فقد أتاح لها:

---

(١) جيبون: جا ص٢٦٧. علي: ج٣ ص١١٢.

(٢) لقد سار نابوليون بونابرت، في أواخر القرن الثامن عشر، على خطى الزباء، فاحتل مصر لضرب قوة بريطانيا السياسية والاقتصادية من خلال السيطرة على طريق الهند، وهو شريانها الحيوي الذي يمر في مصر.

(٣) جيبون: جا ص٢٦٥. سالم: ص٢١٠، ٢١١.

ـ الصراع على السلطة في روما إثر مقتل الامبراطور غالينيوس في عام (٢٦٨م) واعتلاء أوريليوس كلوديوس الثاني القوطي (٢٦٨ ـ ٢٧٠م) عرش الامبراطورية.

ـ ارتباك الوضع السياسي في روما بسبب غزوات البرابرة الجرمان والقوط ومهاجمتهم القسم الغربي من الامبراطورية.

ـ خروج بروبوس، حاكم مصر الروماني، على رأس أسطوله لمطاردة القراصنة. فأرسلت جيشاً كثيفاً إلى مصر تعداده سبعين ألف مقاتل بقيادة زبدا، اصطدام بالجيش الروماني المرابط في هذا البلد بقيادة بروبوس نفسه، وكان قد عاد مسرعاً عندما علم بزحف الجيش التدمري، وانتصر عليه في معركة قرب بابليون، ودخل مصر وضمها إلى أملاك تدمر، وذلك في عام (٢٧٠م)[1]، وبذلك تكون تدمر قد سيطرت على طرق التجارة الجنوبية مع الشرق الأقصى عبر البحر الأحمر.

لم تتحدث الروايات التاريخية عن رد فعل روما تجاه أحداث مصر، وهي منطقة هامة من مناطق الامبراطورية، ويبدو أن الزباء أدركت أنها انتزعت من روما أخطر منطقة اقتصادية وسياسية فأرادت أن تُهدئ من روع الرومان، فأجرت مفاوضات مع روما في أواخر حكم الامبراطور أوريليوس كلوديوس الثاني أسفرت عن موافقة الرومان على بقاء الجيوش التدمرية في مصر مع اعتراف تدمر بسيادة الرومان على هذا البلد، بدليل أنه وُجد نقد ضُرب على أحد وجهيه صورة مزدوجة لوجه القيصر أورليان (٢٧٠ ـ ٢٧٥م)، الذي خلف كلوديوس الثاني حاملاً لقب أغسطس، مع وجه وهب اللات وعليه اللقب الذي تلقب به في حياته، ويشير ذلك إلى الحكم المزدوج على مصر، أو أن وهب اللات أضحى يحكم مصر من قبل الامبراطور الروماني[2].

الواقع أن هذا التفاهم بين روما وتدمر لم يدم طويلاً، فقد تعرض الامبراطور أورليان لضغط من مجلس الشيوخ الروماني لإنقاذ الامبراطورية مما حاق بها من أخطار وتصدع في أوروبا بفعل هجمات البرابرة الجرمان، وفي الشرق، وتحديداً، ظهور ملكة تدمر وأطماعها في مصر وسوريا وآسيا الصغرى، واضطر الامبراطور بعد الانتهاء من ذيول اعتلائه العرش وتأديب الجرمان وردهم إلى ما وراء الحدود الرومانية؛ إلى الالتفات نحو الشرق، ولما علمت الزباء بنوايا روما أقدمت على إلغاء الاتفاق المعقود مع كلوديوس وأمرت بمحو صورة أورليان من النقود كبرهان

---

(١) مجلة المشرق، السنة الأولى، أيلول ١٨٩٨م الجزء ١٨ ص٨٢٦. جيبون: جا ص٢٦٧.
Lapierre: Tom I p399. Browning, Inan: Palmyra pp45 - 47.

(٢) البنّى: ص٨٣. Encyclopedia Britannica: vol 17 p163.

على قطع علاقاتها بروما وعدم اعترافها بسيادتها الاسمية عليها، وضرب صورة وهب اللات وحده مع اللقب الامبراطوري المخصص لأباطرة روما، وفي هذا التحدي الصريح دليل واضح على ما حدث من توتر في العلاقات السياسية بين البلدين أدى إلى نشوب نزاع مسلح بينهما، وبهذه الأعمال التي رأت فيها روما تحدياً سافراً لها تكون تدمر قد قطعت كل خيوط التعاون مع روما(١).

تطلَّعت الزباء بعد ذلك إلى التوسع باتجاه الشمال للسيطرة على طرق التجارة الشمالية مع ما يشكل من تحد سافر لروما، فأرسلت جيوشها إلى آسيا الصغرى، فاحتلت الأناضول ووصلت إلى مضيق البوسفور من دون أن تلقى مقاومة تُذكر. وباحتلال مصر وآسيا الصغرى وضمهما إلى سوريا، تكون الزباء قد سيطرت على منافذ الطرق التجارية الجنوبية والشمالية، بالإضافة إلى طرق المواصلات البرية والبحرية مع الشرق الأقصى وتحكَّمت بالمصادر الرئيسة لتموين روما، وبذلك تكون تدمر قد بلغت ذروة قوتها وعظمتها السياسية في الربع الثالث من القرن الثالث الميلادي(٢).

ويبدو أن الزباء تطلعت للزحف على روما في خطوة جريئة، بدليل أنها أمرت بصنع عجلة فاخرة للدخول بها في موكب النصر إلى عاصمة الرومان(٣)، واضطرت، من أجل تنفيذ هذه الخطة، إلى سحب معظم جيشها المرابط في مصر، معتمدة على دفاع المصريين بأنفسهم إذا ما تعرَّضوا لهجوم الرومان، فانتهز الامبراطور أورليان هذه الفرصة وأرسل مدداً لبروبوس، وكان زبدا قد وصل في غضون ذلك إلى مصر لمساعدة فيروس نائب الملكة، على صدِّ الرومان، فجرى قتال بين الطرفين أسفر عن انتصار بروبوس، واضطر التدمريون إلى إخلاء مصر إلى أعدائهم وذلك في عام (٢٧١م)، فكانت هذه أول نكسة تتعرَّض لها الزباء، ومنذ ذلك الوقت (٢٩ آب ٢٧١م) انقطع في الإسكندرية ضرب النقود التي تحمل صورة الزباء ووهب اللات(٤).

وشعر الرومان بخطر توسع التدمريين، وأفزعهم تعاظم قوتهم العسكرية وتنامي نفوذهم السياسي، فنهض الامبراطور أورليان لإعادة بسط السيطرة الرومانية على الطرف الشرقي للامبراطورية، وبعد أن حقَّق الأمن على جبهة الدانوب في وجه توثب البرابرة الجرمان، ووجَّه إلى تدمر ضربة عسكرية قاسية في مصر، قرر القضاء على تدمر وحكامها الذين عدَّهم ثائرين على السلطة الشرعية، فقاد حملة عسكرية اجتاحت آسيا الصغرى وتقدمت باتجاه الأراضي السورية.

---

(١) Encyclopedia Britannica: vol 17 p163.

(٢) البنّي: ص٨٢. جيبون: جا ص٢٦٧، ٢٦٨. (٣) علي: جـ٣ ص١١٦.

(٤) المرجع نفسه: ص١١٧.

ونهضت الزباء لتدافع عن أملاكها ووجودها، وقرَّرت التصدي لأورليان عند أنطاكية، وكانت على رأس الجيش، أما القيادة فكانت لزبدا، غير أنها خسرت المعركة واضطرت إلى الانسحاب إلى حمص، فتعقَّبها أورليان، وفتح مدن عدة حتى بلغ المدينة مدركاً أن النصر الحقيقي لا يتم إلا بالقبض على الملكة والاستيلاء على تدمر، وجرت المعركة الثانية عند أسوار هذه المدينة وأسفرت عن خسارة الزباء وفرارها إلى عاصمتها للتحصن بها، ودخل أورليان مدينة حمص، ثم لحق بها، ولما وصل إلى تدمر ضرب حصاراً مركزاً عليها وقطع عنها الإمدادات الاقتصادية والعسكرية.

وأرسلت الزباء إلى الفرس والأرمن وبعض قبائل العرب تطلب المساعدة، إلا أنهم أحجموا عن تقديم أي إمدادات، ذلك أن الفرس لم يبادروا إلى استغلال الفرصة والانقضاض على الرومان عدوهم التقليدي، لانهماكهم بمشكلاتهم الداخلية وصراعاتهم على السلطة، ذلك أن سابوراً الأول كان قد توفي في عام (٢٧١م) فتولى هرمز الملك من بعده، وكان رجلاً ضعيفاً خائر القوى فعُزل بعد سنة قضاها ملكاً، وقامت فتن داخلية بسبب ذلك لم تسمح للفرس أن يرسلوا قوة لمساعدة الزباء. أما الأرمن فقد خشوا قوة الرومان الذين سيطروا على مناطقهم في جنوبي آسيا الصغرى.

وأما القبائل العربية فرأت أن مصلحتها الانحياز إلى الطرف القوي ومالت إلى الاتفاق مع أورليان، إذ ما الذي يجنيه سادات القبائل من ملكه محاصرة؟ وقد أدرك الامبراطور الروماني هذه الصفة فيهم فاستقطبهم بالمال. وبذلك تحسَّن وضع الامبراطور وتراجع أمل الزباء بالنصر.

وأدرك أورليان أن تدمر لن تكون سهلة المنال، فقد واجهت قواته مقاومة ضارية، واستبسل المدافعون، ورموا الرومان بالسهام وألقوا عليهم الحجارة والنيران، وأُصيب الامبراطور، الذي تولى العمليات العسكرية بنفسه، بجرح من إحدى النبال، ويبدو أنه ساوره الشك في الانتصار إلى حد أنه رأى من الحكمة أن يعرض الاستسلام على الزباء مقابل:

- الإبقاء على حياتها.
- أن تذهب مع أسرتها وحاشيتها للسكن حيث يشير الامبراطور، بعد أخذ رأي مجلس الشيوخ.
- أن تدفع جزية لخزينة روما: حجارة كريمة، ذهباً، فضة، حريراً، خيلاً وجمالاً.
- يحتفظ أهل تدمر بقوانينهم وامتيازاتهم السابقة.

رفضت الزباء هذا العرض مرتكزة على الأمل في أن تُرغم المجاعة وقسوة المناخ

ووصول المساعدات من الفرس والأرمن والعرب؛ الامبراطور على فك الحصار، ولما لم يتحقَّق شيء من ذلك قرَّرت الذهاب بنفسها إلى فارس لطلب المساعدة، فتسللت ليلاً من المدينة مع فئة من أنصارها عبر أنفاق خاصة وتوجهت إلى حصنها على الفرات، ولما علم الامبراطور بهروبها أرسل وراءها قوة عسكرية من الفرسان اقتفى أفرادها أثرها وقبضوا عليها.

كان وقوع الزباء في أيدي الرومان ضربة قاصمة للتدمريين الذين فقدوا الأمل بالانتصار وأن مقاومتهم لم تعد مجدية، وبخاصة أن المؤن والعتاد بدأت بالنفاد، لذلك قرروا فتح أبواب مدينتهم للرومان في خريف عام (٢٧٢م)، أو في بداية عام (٢٧٣م)، ودخلها أورليان ووضع يده على غنائم كثيرة وعلى أموال المدينة وكنوزها، وقوَّض معالمها، وقبض على حاشية الملكة ومستشاريها وبعض خاصتها وقتلهم، كان من بينهم الفيلسوف لونجين.

وترك أورليان حامية عسكرية في تدمر وغادرها عائداً إلى روما مصطحباً معه الملكة وابنها وهب اللات، وما كاد يعبر المضائق إلى تراقيا حتى وردت إليه الأخبار عن ثورة قام بها سكان تدمر بقيادة أبسوس. الواقع أن هؤلاء استغلوا خروج الامبراطور مع قواته، وقلة عدد الحامية الرومانية، فانتفضوا على الحكم الروماني وقتلوا أفراد الحامية مع قائدهم، فاضطر أورليان للعودة سريعاً إلى سوريا فهاجم تدمر ودخلها وانتقم من سكانها ودمَّر أسوارها وقلاعها وسائر مبانيها، ولم يسلم الشيوخ والنساء والأطفال من القتل، وعلى الرغم من ذلك فقد أمر أورليان بإعادة ترميم معبد الشمس، وربما أثَّرت قسوة الانتقام في نفسه، فاستشعر شيئاً من الرحمة، فأمر بعد الانتهاء من العمليات العسكرية على إعادة بنائه، ومنح من تبقَّى من السكان ترخيصاً بترميم المعبد والأسوار وبناء مساكنهم(١).

بعد أن قضى أورليان على ثورة أبسوس في تدمر وأخمد انتفاضة فيروس في مصر، عاد إلى روما في عام (٢٧٤م) في موكب امبراطوري فخم اشترك فيه ألف وستمائة مصارع وعدد غفير من الأسرى من بينهم الملكة الزباء مكبلة بالأصفاد، ومعها ابنها وهب اللات وبعض رعاياها وثلاث عجلات ملكية: عجلة أُذينة، زوج الزباء، وهي مزينة بالذهب والجواهر، وعجلة الزباء الخاصة التي أعدتها لتدخل على متنها منتصرة إلى روما، وعجلة أهداها هرمز بن سابور إلى القيصر، وعشرون فيلاً، وأربعة نمور ملكية، وأكثر من مائتين من أغرب الحيوانات من مختلف

---

(١) انظر فيما يتعلق بسقوط تدمر: جيبون: جا ص٢٧٣، ٢٧٤. علي: ج٣ ص١٢٠ ـ ١٢٦. مجلة المشرق، السنة الأولى، الجزء ٢٢، ١٨٩٨م، ص١٠٣٦ ـ ١٠٣٨، وج٢٣ ص١٠٥٨ ـ ١٠٦٠.

البيئات، وكمية كبيرة من كنوز آسيا وشعارات أمم كثيرة[1].

وقُضِي على الملكة أن تقبع في بيت خُصِّص لها في تيفولي على بعد خمسة وعشرين ميلاً من روما، مع أولادها لتعيش في عزلة عن العالم، ويبدو أنها تحولت مع الزمن إلى امرأة رومانية وتزوج بناتها من أسرات نبيلة، ولم يكن عنصرها قد انقرض بعد القرن الخامس الميلادي[2].

حضارة تدمر

النظام السياسي

ليست لدينا معلومات عن التنظيم السياسي في تدمر قبل القرن الأول الميلادي، حيث تكثر الوثائق التي تشير أنه كان في تدمر تنظيم أكثر دقة وتقدماً من التنظيمات السياسية في الدول العربية الأخرى، كدولة المناذرة مثلاً، وتُبين هذه الوثائق أنه كان يرأس النظام السياسي ملوك ينتمون إلى أسر ثرية، منها أسرة آل أُذينة، يساعدهم في الحكم مستشارون وحاشية البلاط وموظفون كبار وقادة الجيش، كما كان يوجد مجلس للشيوخ يُدعى بولي، ومجلس للشعب يدعى ديموس، وتدل الأسماء اليونانية لهذه المجالس على مدى تأثر تنظيم تدمر بالنظم الإغريقية[3].

يضم مجلس الشيوخ رؤساء القوافل والتجار ورجال الأعمال والوجهاء، يتولون الوظائف العامة والقيادية، ومنهم السدنة والكهان، ولهذا كان من الطبيعي أن تعمل الحكومة التدمرية لمصلحة الفئات التجارية العليا. وللمجلس رئيس وأمين سر، وللرئيس دور هام في إدارة شؤون الدولة، ويضم مجلس الشعب أفراد العشائر البالغين، ومع تنامي ثروة التجار وأرباب القوافل ازداد نفوذ مجلس الشيوخ وتراجع نفوذ مجلس الشعب، ثم تراجع نفوذ المجلسين في عهد أُذينة الذي أدار معظم السلطات بنفسه[4].

وكان للمدينة رئيس يتولى إدارتها هو بمثابة المحافظ، وموظف يدعى متقن المدينة، وموظف للمالية، وموظف مسؤول عن الأسواق هو بمثابة المحتسب، وموظف مسؤول عن فض النزاعات والنظر في الشؤون القضائية، وللمدينة قوة من

---

(١) جيبون: جا ص٢٧٥ ـ ٢٧٧. علي: ج٣ ص١٢٦، ١٢٧.
(٢) المرجعان نفساهما. (٣) العلي: ص٥٩.
(٤) المرجع نفسه: ص٥٩، ٦٠، ٦١.

الشرطة مهمتها حماية القوافل والطرق من غزوات البدو، مكونة من رماة النبال والخيالة والهجانة، يتولى رئاستها الزعماء الأغنياء، ويحمي هذه القوة إلٰهي القوافل أرصو وعزيزو، العزى، وهناك قوة مسلحة تعسكر عند الآبار واستراحات القوافل وفي المناطق الهامة من الصحراء[١].

الجيش

أنشأت حكومة تدمر، إلى جانب الشرطة والقوات المسلحة الخاصة بحماية القوافل وطرقها، جيشاً نظامياً قوياً استطاع أن يصمد أمام الفرس ويلحق بهم الهزائم ويكبدهم خسائر مادية ومعنوية، وينتزع من الرومان سوريا ومصر وآسيا الصغرى، وقد بلغ قوامه في بعض المراحل نحو سبعين ألفاً، وجعل من تدمر عاصمة لدولة واسعة الأرجاء.

يتألف الجيش التدمري من الفرسان والمشاة وقوات ثقيلة التسليح قوامها المجانيق وآلات الحصار. ففي عام (٢٦٤م) حاصر الجيش التدمري مدينة طيسفون عاصمة الفرس وضربها بالمجانيق[٢]، وصمد هذا الجيش أمام هجمات الفرس والرومان على مناطق الحدود أكثر من مرة، واشتهر من قادته زبدا وزباي، وقد تمتعا بقدرات قتالية عالية، وبفضل هذا الجيش توطدت الدولة وتعزَّز الأمن.

الحياة الاجتماعية

يتألف المجتمع التدمري من ثلاث طبقات: المواطنين الأحرار والأجانب والعبيد.

تتكوَّن طبقة المواطنين الأحرار من عدد من القبائل ينتسب أفراد كل منها إلى جد واحد، نذكر من بينهم بني: توبات، بلتي، بلعا، برسعة، جد بعل، حشاش، قمر، بعل، شمعون، تيم وغيرهم، يتفاوتون في المكانة الاجتماعية، ويحتكرون الوظائف الإدارية، ويتمتعون بنوع من الاستقلال الداخلي، ولكل قبيلة مجلس خاص، وكثيراً ما كانت الخصومات تنشب بينها وتؤدي إلى قيام تحالفات بين القبائل المتنازعة، ويتسمَّى أغلب أفرادها بأسماء ساميَّة في حين يتسمَّى القليل منهم بأسماء إغريقية.

عمل كثير من أفراد هذه الطبقة في التجارة، ما أتاح لهم الاحتكاك بالأجانب، فوسَّعوا أفقهم وتعلموا لغات عدة، فانتشرت الآرامية والإغريقية التي كتبت بها معظم

---

(١) العلي: ص٥٩، ٦٠، ٦١.

(٢) علي: جـ٨ ص٩٥.

وثائقهم، كما استعملوا اللاتينية في مراسلاتهم الرسمية في العصر الروماني.

وتتكون طبقة الأجانب من الإغريق والعبيد المحررين والفرس والرومان، ولم تكن لهم مكانة كبيرة في المجتمع، غير أنه وُجد عدد من الفرس «الأرستقراطيين» كانوا يُعامَلون كأهل المدينة الأحرار، كما وُجد بعض الرومان عملوا في الوظائف العامة. وأقام التجار الأجانب في خانات خاصة، وخضعوا لموظف خاص، وأقامت الجاليات الأجنبية في فنادق خاصة بها.

وتتكوَّن طبقة العبيد من الأجانب الذين يعملون خدماً، ولم يتمتعوا بأي حقوق مدنية غير أنه يحق للواحد منهم أن يتحرَّر إذا ما قام بعمل مهم.

تأثر الشعب التدمري في ذوقه ولباسه وفنه بالمؤثرات الخارجية، فكان الأفراد يلبسون السراويل والأردية المزخرفة الشبيهة بالألبسة الفارسية، وتأثر فنهم بالفن البابلي والفارسي واليوناني[١].

كانت الحضارة التدمرية خليطاً من عناصر سورية ويونانية وفارسية على الرغم من أن التدمريين كانوا قبائل عربية، ولغة التخاطب والكتابة عندهم لهجة من الآرامية الغربية، تندرج إلى المجموعة التي تندرج فيها النبطية غير أن اللغة اليونانية كانت سائدة إلى جانب اللغة الآرامية[٢].

آثار تدمر

ما تزال بقايا تدمر قائمة بين دمشق والفرات في منتصف الطريق بينهما، وأبرز هذه الآثار معبد بعل، وهو مُقام على تل مرتفع أمامه قوس هائل وطريق فسيح يشكل محور المدينة تتفرع منه طرقات فرعية، وعلى جوانبه الحوانيت والمخازن المليئة بالبضائع. يبلغ طول هذا الطريق ألفاً وسبعين متراً، يحف به على اليمين واليسار صفان من الأعمدة الضخمة وصل عددها إلى ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً، لم يتبقَّ منها سوى مائة وخمسين، ولهذا سميت بطريق الأعمدة، نُحت معظمها من المرمر الأبيض، وبعضها من الغرانيت السماقي، وهي مرتبطة ببعضها بواسطة إفريز متصل وطنف على النظام اليوناني.

شرع في بناء هذا المعبد في أوائل القرن الأول الميلادي، وأُضيفت إليه إضافات متعددة خلال هذا القرن والقرن الثاني الميلادي، وأُقيم على طراز المعابد الشرقية. فهو يشتمل على هيكل رئيس يتوسط فناء مربع الشكل طول كل ضلع منه مائتي متر،

---

(١) العلي: ص٥٧، ٥٨.

(٢) Encyclopedia Britannica: vol 17 p163.

يحيط به سور تحف به أروقة تطل عليه بواسطة صف من الأعمدة ذات تيجان كورنثية، ويقوم في الفناء مذبح وحوض وقنوات وممر للضحايا، ويمثل هذا المعبد من حيث النظام المعماري نظام البناء التدمري، أما العناصر المعمارية كالأعمدة والتيجان فقد اتبعت الأسلوب الروماني[١].

لم يكن معبد بعل الوحيد في المدينة، بل هناك معابد عدة أخرى مبنية بالحجارة وتزينها نقوش وصور مختلفة وبعض التماثيل، نذكر منها معبد بعل شمين. ومن آثار تدمر أيضاً، آثار حمامات، ودور خاصة مبلطة بالفسيفساء والرخام، وآثار قصر آل الزباء. يشكل هذا القصر تحفة في فن النحت بتيجانه الكورنثية الغنية بالزخارف وواجهاته المخرمة بالزخارف[٢]، كما أن هناك عدداً من الخانات التي تنزل فيها القوافل، ويقيم فيها الأجانب وهي أبنية ضخمة واسعة. ومن آثار تدمر أيضاً مقابرها، وبعضها على شكل أبراج عالية مربعة الشكل تشتمل في الداخل على غرف يُدفن فيها الموتى، وبعضها الآخر على شكل بيوت ذات غرفة واحدة مزينة بالنقوش وأنواع الزخرفة، ويلاحظ انتشار هذا النوع من القبور في المناطق التي سكنها العرب في أطراف الشام والعراق في العهد البيزنطي[٣]، كذلك تبقَّت في تدمر آثار قنوات كانت محفورة في باطن الأرض، وبقايا أحواض وخزانات في ظاهر المدينة[٤].

الدين

لم يختلف الدين في تدمر عن الأديان الشائعة في سوريا الشمالية وعند قبائل العرب في البادية، فقد عبد التدمريون آلهة عديدة وردت أسماؤها في كتاباتهم، منها ما كان معروفاً عند العرب وبعضها الآخر آرامي أو بابلي أو فينيقي، ولعل لذلك علاقة بمدى الاحتكاك التجاري بينهم وبين جيرانهم، فاقتبسوا بعض آلهتهم وعبدوها، وأعظم هذه الآلهة ثلاثة هي:

بعل: يُعد هذا الإله وطنياً، وعبادته معروفة عند الساميين منذ أقدم الأزمنة.

بعل شمش، أي بعل السماء أو رب السماء، إنه حامي الزراعة، وأصله معبود فينيقي.

---

(١) البنّي، عدنان: حول المشروع التدمري الاستثنائي، مجلة الحوليات الأثرية السورية، العدد ١٣ عام ١٩٦٣ ص١١٧، ١١٨. سالم: ص٢٢٠.

(٢) المرجعان نفساهما.

(٣) علي: ج٣ ص١٣٥، ١٣٦.

(٤) سالم: ص٢٢٠.

يرحيل: إلٰه القمر.

كانت هذه الآلهة ترسم في الغالب مجتمعة على شكل ثالوث بحيث يكون الإله بعل في الوسط والإلٰهان بعل شمش ويرحيل عن يمينه وشماله، وتُعبد في معبد واحد. وازدادت مكانة الإلٰه بعل شمش في عهد الرومان وصار يُعرف بالإلٰه الطيب الرحيم وأخذ ينافس الإلٰه بعل في مكانته، وهناك إشارة إلى ملك بعل وهو كالرسول للآلهة[١].

وعبد التدمريون، إلى جانب هذه الآلهة: شمش وعشتروت وأنينا وفرجال، وهي آلهة بابلية، كما عبدوا الإلهين حدد وعشتروت السورية، والآلهة: اللات وأرصو وعزيزو والعزى، وهي آلهة عربية.

وشكَّل رجال الدين في تدمر طبقة متميزة قوية أقام معظم أفرادها في المعابد الرئيسة، وكانت وظائفهم شرفية لا وراثية، ويرأس رجال الدين الموائد الدينية التي تقام عادة في الأعياد وعند دفن الموتى[٢].

---

(١) العلي: ص٥٨.

(٢) المرجع نفسه: ص٥٩.

الفصل السابع عشر

المناذرة ـ الغساسنة
مملكة المناذرة

ظروف قيام الدول الحدودية

شهدت المدة الزمنية بين القرنين الثالث والسابع الميلاديين ظروفاً من نوع جديد أدَّت إلى اتخاذ علاقات بعض الإمارات العربية منحى عسكرياً في بعض الأحيان من خلال الصراع بين الامبراطوريتين الكبيرتين الفارسية والبيزنطية، اللتين تحيطان بالجزيرة العربية من الشرق والغرب، وظهرت في القرن الثالث الميلادي ظروف معينة داخلية وخارجية أدَّت إلى اعتماد هاتين الامبراطوريتين على إمارات حدودية تتبع كل منها إحدى القوتين، وتدافع عن حدودها عسكرياً، وكان الأمر ينتهي في بعض الأحيان بحصر الصراع بين إمارتين متجاورتين دفاعاً عن مصالح الدولتين الكبيرتين.

ففيما يتعلق بالظروف الداخلية، فقد كانت تجري داخل الجزيرة العربية تحركات قبلية باتجاه الهلال الخصيب في القسمين الشرقي على الحدود الغربية للفرات، المناذرة، والشمالي على الحدود السورية، الغساسنة، وبدأت هذه القبائل تستقر على الحدود الفاصلة بين الدولتين الكبيرتين، وانتهى الأمر بأن شكَّل كل من هذه التجمعات القبلية كياناً سياسياً يمكن أن نسميه دولة أو إدارة، ما لبثت أن دخلت في علاقة تبعية مع الدولة الكبيرة المتاخمة لها. فقد دخل المناذرة في دائرة النفوذ الفارسي، في حين دخل الغساسنة في دائرة النفوذ البيزنطي، وأدَّت كل من هاتين الدولتين مهمتها ودورها كدولة حدودية تحمي حدود القوة الكبيرة التي تتبعها من غارات الإمارة الأخرى، لكن مع ذلك فإن دور هاتين الإمارتين لم يكن كله تبعية للقوتين الكبيرتين، ويبدو أن هذا القدر من حرية التحرك لم يكن وارداً إلا في حالات تعتمد إما على الشخصية القوية لأحد هؤلاء الأمراء، أو ترتبط بظروف ناتجة عن تزعزع مؤقت في الأسرة الحاكمة في إحدى هاتين القوتين الكبيرتين، وحرصت هاتان القوتان على إزاحة أي أمير من هؤلاء الأمراء من الطريق إذا شعرتا، من خلال تصرفاته، بالشك في مدى ولائه للقوة التي يتبعها.

وفيما يتعلق بالظروف الخارجية، فإن كلاً من هاتين القوتين الكبيرتين شهدت تغييرات في غضون القرنين الثالث والرابع الميلاديين أثَّرت على اتجاه كل منها. ففي الشرق، شهدت الامبراطورية الفارسية اضطرابات داخلية حول العرش انتهت بسقوط الأسرة البارثية وقيام أسرة جديدة هي الأسرة الساسانية، لتنهمك بعض الوقت في تثبيت أقدامها في الحكم والسيطرة على أراضي الامبراطورية.

وفي الغرب كانت القبائل الجرمانية المتبربرة قد بدأت تستقر على حدود الامبراطورية الرومانية، تلى ذلك مرحلة من الاضطراب والتدهور انتهت إلى تقسيم الامبراطورية إلى قسمين شرقي وغربي في عام (٣٩٥م)، وعُرف القسم الشرقي بالامبراطورية البيزنطية التي اتخذت القسطنطينية عاصمة لها، وشهدت هذه الامبراطورية بعض الصراعات الداخلية أثَّرت على فاعليتها في مجال الصراع الخارجي[١].

والمعروف أن القبائل القريبة من العمران تميل إلى تشكيل مجمعات شبه مستقرة على أطراف العمران المجاورة لها، وتعيش إما على السلب والنهب أو على تنظيم وجودها بموجب اتفاقيات مع جيرانها يكون من شروطها أن تقوم هذه القبائل المهادنة بحماية المزارعين المستقرين من تعديات البدو، وفي ظل هذه الظروف قامت ممالك اللخميين أو المناذرة والغساسنة والأنباط وتدمر[٢].

نزوح قبائل عربية إلى العراق

كانت بادية العراق مقبلة بوجهها إلى الصحراء ومعرَّضة لهجرات العرب المقيمين في أطراف الجزيرة العربية أو المهاجرين من جنوبها، من دون أن تصادفهم عوائق جغرافية تصدهم باستثناء نهر الفرات الذي يفصل الصحراء عن المناطق الخصبة في العراق. وتزداد هذه الهجرات في الأوقات التي تكون فيها الدول القائمة في العراق ضعيفة، حيث يتيح لها هذا الضعف التوغل إلى الداخل العراقي والتمتع بنفوذ قوي والتأثير في الوضع السكاني والتجاري، ونتيجة لذلك أضحت المنطقة المجاورة للفرات الجنوبي هدفاً لهجرة قبائل عربية في عصر ملوك الطوائف[٣]، وينسب الإخباريون هذه الهجرة إلى قبائل تنوخ.

تتباين روايات المصادر في أصل التنوخيين، إذ إن كلمة تنوخ تعني الإقامة[٤]،

---

(١) انظر: يحيى: ص٤٢٥ ـ ٤٢٧.
(٢) دي لاسي: ص١٦٩، ١٧٠.
(٣) ملوك الطوائف هم الذين اقتسموا امبراطورية الإسكندر المقدوني، وإنما سموا بملوك الطوائف لأنهم شكَّلوا دولاً تتفاوت فيما بينها في الحجم والقوة والضعف، حتى كان لكل مدينة تقريباً حاكمها المستقل وهي في نزاع مستمر.
(٤) ابن منظور: جـ٣ ص١٠.

وكانوا بذلك الاسم كأنهم عمارة من العمائر وقبيلة من القبائل[١]، وقد أُطلق على تكتل قديم بين جماعة عربية يمنية، وبعض القبائل الشمالية، من بني معد بن عدنان، كقيس عيلان والأزد وقضاعة وكهلان ولخم، متآزرة متناصرة مجتمعة في البحرين، متوسعة بانضمام قبيلة نمارة إليها[٢]، ومن بين هذه القبائل المتحالفة أيضاً قبيلة تنتسب إلى تنوخ بن قحطان بن عوف الذي يعود نسبه إلى يعرب بن قحطان. وورد أيضاً بأن تنوخ اسم جنس لثلاث قبائل من نصارى العرب هي: بهراء وتنوخ وتغلب، اجتمعوا في البحرين، فسمُّوا المكان الذي اجتمعوا فيه تنوخاً، ثم قبائل تنوخ، وتغلَّب لفظ تنوخ على إحدى قبائلهم المنسوبة إلى الملك النعمان بن ماء السماء اللخمي[٣]. وأخذت هذه القبائل تتطلع إلى النزوح إلى مشارف العراق بهدف الاستقرار، وسنحت لها الفرصة عندما نشب في بلاد فارس الصراع على السلطة في أواخر عهد الدولة البارثية، فهاجرت إلى الحيرة[٤] والأنبار[٥].

أقام التنوخيون في الحيرة في ظل النفوذ الفارسي، يدينون بالولاء للفرس إلى أن قدم إليها تبَّع أسعد أبو كرب، فخلَّف فيها جماعة من جنده ممن لم يقووا على

---

(١) الحموي: جـ٢ ص٣٣٠، ٣٣١.
(٢) الطبري: جـ١ ص٦٠٩ ـ ٦١٢.
(٣) شيخو: بيروت تاريخها وآثارها: ص٦٧.
(٤) الحيرة: مدينة قديمة البنيان تقع في مكان يُقال له النجف على ضفة الفرات الغربية، وعلى بُعد ثلاثة أميال من الكوفة. وأقدم نص كتابي لاسم الحيرة، حيرتا، يرجع إلى عام (١٣٢م)، ويُستدل منه على أن الحيرة أُنشئت في عصر سابق للعصر الساساني. ويرجع الإخباريون إنشاءها إلى بختنصر، واسمها سرياني من كلمة حرتا أو حيرتا أو حيرتو، ومعناها المخيم، وقيل الحصن المحاط بخندق، أو أنه مشتق من الحيرة والضلال لأن تبعاً الأكبر لما أقبل بجيوشه من اليمن، وبلغ موضع الحيرة ضلَّ دليله وتحيَّر. ويقال إنه مشتق من الإقامة والاستقرار لأن تبعاً هذا لما قصد خراسان خلَّف قسماً من جنده في ذلك الموضع وقال لهم: حيَّراويه أي أقيموا به. وفي رواية أن مالكاً بن زهير القضاعي لما نزلها جعلها حيراً؛ أي: حظيرة أو بستاناً، وأقطعه قومه، فصارت بذلك الحيرة.
الطبري: جـ١ ص٥٥٨. الحموي: جـ٢ ص٣٢٩. الدليل الأثري والحضاري: ص٤٢٧.
(٥) الأنبار: من المواضع السابقة على عصر الدولة الساسانية. ازدهرت ونمت في عهد سابور بن هرمز ذو الأكتاف (٣١٠ ـ ٣٧٩م) الذي حصَّنها بالقلاع والأسوار لكي تُسهم في صدِّ غارات الرومان على بلاده، وحفر إلى الجنوب منها نهراً يصل الفرات بدجلة كان يُعرف بنهر عيسى. واكتسبت الأنبار بفضل هذا النهر أهمية كبيرة، إذ أضحت مركزاً تجارياً هاماً ومخزناً للمواد والأقوات لتزويد الحاميات العسكرية بما تحتاج إليه. والمعروف أن اسم الأنبار القديم بار بمعنى المخزن، وهو يُعبِّر عن الشهرة التجارية التي نالتها، وإنما سميت الأنبار أنباراً لأنه كان يُجمع بها أنابير الحنطة والشعير والتبن، وكانت تسمى الأهراء لأن كسرى كان يرزق أصحابه رزقهم منها. الحموي: جـ١ ص٢٥٧.

المضي معه[1]، وأمَّها البدو لابتياع حاجاتهم، ولم يلبثوا أن أقاموا فيها. كما أتاها جماعات من مدن العراق والجزيرة الفراتية، فراراً من حكم أو ضيق عيش، حتى أضحى سكانها أخلاطاً من قبال العرب. وقسَّمت المصادر العربية أهل الحيرة إلى ثلاثة أثلاث هي:

الثلث الأول: هم تنوخ الذين كانوا أصحاب المظال وبيوت الشعر أو الوبر، وقد سكنوا في غربي الفرات ما بين الحيرة والأنبار، وعملوا في تربية الحيوانات ورعيها وسمُّوا بعرب الضاحية، أشهرهم قبائل طيء وتميم وأسد وبعض صعاليك من القبائل الأخرى.

الثلث الثاني: هم العبَّاد، وكانوا قبائل شتى من العرب، سكنوا الحيرة وابتنوا المنازل وعملوا في الزراعة والتجارة والحرف، وتعبَّدوا لملوكهم في بادئ الأمر ثم اجتمعوا على النصرانية بعد انتشارها في العراق، أشهرهم قبائل تيم ولخم والأزد.

الثلث الثالث: هم الأحلاف الذين لحقوا بأهل الحيرة، ونزلوا بينهم، ولم يكونوا من تنوخ سكان بيوت الشعر ولا من العباد، ودانوا لأردشير، مؤسس الأسرة الساسانية في فارس، ثم حالفوا المناذرة واعترفوا بسيادتهم.

وأقام في الحيرة، إلى جانب هذه الفئات، جماعات من النبط وبقايا قدماء العراقيين من الكلدانيين والبابليين والآراميين، وقد عملوا في فلاحة الأرض وزراعتها، كما وُجدت جالية فارسية وأخرى يهودية[2].

وعلى هذا الشكل استقر التنوخيون في غربي الفرات، وسيطروا على الطريق التجاري الذي يصل الخليج العربي بشواطئ البحر المتوسط غرباً وببلاد فارس شرقاً.

ملوك الحيرة التنوخيين

مالك بن فهم

يكاد يجمع الإخباريون على أن أول من ملك من تنوخ الذين استقروا في المظال والأخبية، بين الأنبار والحيرة، هو مالك بن فهم الأزدي، وكان منزله مما يلي الأنبار[3]. وكان مالك هذا قد سار من اليمن مع بني جفنة بن عمرو بن عامر مزيقياء

---

(١) ضمَّت هذه الجماعة أفراداً من بني لحيان، بقايا جرهم، وبني جُعفى وطيء وكلب وتميم ومذحج. الطبري: جـ١ ص٦١٢.

(٢) المصدر نفسه. علي: جـ٣ ص١٦٨ ـ ١٧٣.

(٣) اليعقوبي: جـ١ ص٢٥٤. الطبري: جـ١ ص٦١٢.

الذين انتقلوا إلى الشام، وانتقل هو إلى العراق، فملك على من كان بالجزيرة الفراتية من عرب مضر بن نزار وغيرهم[1].

عمرو بن فهم

خلف عمرو بن فهم أخاه مالكاً، ولا نعرف شيئاً يذكر عنه، فالإخباريون لم يزيدوا عن ذكر اسمه فقط.

جذيمة الأبرش

هو جذيمة الوضَّاح بن مالك بن فهم، وقد بالغ الإخباريون في مدحه، فذكروا أنه كان ثاقب الرأي، بعيد المغار، شديد النكاية، ظاهر الحزم، وهو أول من غزا بالجيوش، فشنَّ الغارات على قبائل العرب. ويعللون تلقبه بالأبرش والوضَّاح أي الأبرص لبرص كان به، فهابت العرب أن تسميه به وتنسبه إليه إعظاماً له[2].

شملت سلطة جذيمة الأبرش الحيرة والأنبار وبقة وهيت وعين التمر وأطراف البر إلى الغمير والقطقطانة وما وراء ذلك، وكانت تُجبى له الأموال منها، وتفد الوفود عليه[3].

لقد عاصر جذيمة الأبرش انحلال وسقوط الدولة البارثية فاستفاد من ذلك وتمدَّد إلى الضفة الشرقية لنهر الفرات، وغزا طسماً وجديساً في منازلهم من جَوِّ اليمامة وما حولها، وحاول أن يتمدَّد إلى البحرين جنوباً وإلى بادية الشام غرباً، وتبادل الغزوات مع بني إياد بن نزار الذين كانوا ينزلون في المنطقة الممتدة من أرض الجزيرة إلى البصرة، ولكنها انتهت باتفاق سلام بين الجانبين[4].

حالف جذيمة الأبرش الدولة الساسانية بعد قيامها، فأمَّن لنفسه صداقتها، وتجنَّب مصير الممالك العربية التي آلت إليه، كالحضر. وتأثَّر خلال حياته السياسية بالأوضاع المحيطة به، فأراد أن يصبغ حكمه بصبغة دينية، فتنبَّأ وتكهَّن، واتخذ صنمين يقال لهما الضيزنان[5].

واصطدم جذيمة الأبرش خلال حروب التوسع بعمرو بن الظرب بن حسان بن أُذينة بن السميدع بن هوبر العمليقي، ملك العرب، الذي كان يملك من مشارق الشام إلى الفرات من قِبل الرومان، وكانت داره بالمضيق بين الخانوقة وقرقيسياء، انتهت بانتصار جذيمة ومقتل عمرو[6].

---

(١) اليعقوبي: جا ص٢٥٤.
(٢) الطبري: جا ص٦١٣.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه: ص٦١٤.
(٦) المصدر نفسه: ص٦١٧، ٦١٨.

خلف عمرو ابنته الزباء واسمها نائلة، فأرادت أن تنتقم من قاتل أبيها، فلجأت إلى الحيلة والخداع حتى أقنعته بزيارتها في قصرها، ولما أصبح في قبضتها قتلته[1]. وتُنهي الرواية العربية العلاقة بين الحيرة وتدمر بالانتقام الذي نفَّذه عمرو بن عدي، ابن أخت جذيمة الأبرش والذي خلفه في حكم الحيرة بواسطة قصير بن سعد اللخمي، الذي هاجم تدمر واستولى عليها بالحيلة، ولما همَّ بقتل الزباء، امتصت خاتمها المسموم فقتلت نفسها[2].

الراجح أن الإخباريين العرب أضفوا على قصة الزباء وخاتمتها جواً خيالياً، ونسجوا الأساطير حولها، لذلك لا تعدو أن تكون قصة خيالية أبطالها الزباء وجذيمة وقصير، والثابت تاريخياً أن الزباء حُملت أسيرة إلى روما كما ذكرنا في الفصل السابق، وأن الغزو الذي تعرَّضت له كان غزواً رومانياً، إذ تشير المصادر اليونانية والرومانية أنها أُسرت على يد الامبراطور الروماني أورليان.

ملوك الحيرة اللخميين (المناذرة)

عمرو بن عدي (٢٦٨ ـ ٢٨٨م)

اختلف الإخباريون في أسماء ملوك الحيرة اللخميين، وأعمارهم، وعدد سني ملكهم، فعدد هؤلاء قد يزيد على عشرين ملكاً عند بعضهم، وقد ينقص عن هذا العدد عند بعضهم الآخر، وإذ نتبنى رواية الطبري المستندة على رواية الكلبي[3]، فإن أول من ملك من هؤلاء هو عمرو بن عدي بن نصر، ابن أخت جذيمة الأبرش، وكان هذا قد استخلفه على مملكته قبل ذهابه لمقابلة الزباء، والمعروف أن عمرو تربى في بيت خاله وعلى يديه، وشاركه في بعض أعماله الإدارية، لذا كان من الطبيعي أن يخلفه في الحكم وبخاصة أنه لم يكن لجذيمة ولد يرثه، واتخذ الحيرة منزلاً ومقاماً وحاضرة، ويُعد عمرو هذا مؤسس إمارة اللخميين المناذرة في الحيرة، وإليه يُنسب ملوك آل نصر اللخميون.

---

(١) الطبري: جـ١ ص٦٢٠، ٦٢١. المسعودي: جـ٢ ص٦٩ ـ ٧١.

(٢) المصدران نفساهما: ص٦٢٥. ص٦٩ ـ ٧١.

(٣) لقد جزَّأ الطبري قائمة الكلبي لملوك الحيرة، وأوردها في ثنايا حديثه عن ملوك الفرس، وفي المناسبات، ولم يذكرها جملة واحدة، وفي مكان واحد أو فصل واحد، وتبنَّى حمزة الأصفهاني هذه الرواية وخالفها ابن قتيبة.
انظر: ابن قتيبة: المعارف: ص٣٥٧ ـ ٣٦١. اليعقوبي: جـ١ ص٢٥٤ ـ ٢٦٣. المسعودي: جـ٢ ص٦٥، ٦٦. حمزة الأصفهاني: ص٧٤ ـ ٨٨.

استفاد عمرو بن عدي من سقوط مملكة الحضر، الدولة العربية في شمالي بلاد الرافدين، فأضحى أعظم أمير عربي في العراق، تحالف مع الفرس الساسانيين متبعاً خطى سلفه، وكان هؤلاء يطمعون في السيطرة على تلك البلاد، وكان «حاكماً متفرداً بملكه، مستبداً بأمره، يغزو المغازي ويصيب الغنائم، وتفد عليه الوفود دهره الأطول، لا يدين لملوك الطوائف في العراق ولا يدينون له»[(١)] وهابته الملوك.

ويرجع الفضل إلى عمرو بن عدي في تمصير الكوفة بعدما كانت قد خربت وأقفرت، وطالت مدة حكمه، وبالغ الرواة فيها، وهي لا تزيد عن عشرين عاماً[(٢)].

امرؤ القيس بن عمرو (٢٨٨ ـ ٣٢٨م)

لما هلك عمرو بن عدي خلفه ابنه امرؤ القيس ويُعرف عند الإخباريين بامرئ القيس البدء، أي الأول، وهو أول من تنصَّر من ملوك آل نصر بن ربيعة وعمال ملوك الفرس، وقد عاصر عدداً منهم.

كان امرؤ القيس عظيماً في حجم فتوحه حتى عينه الملك سابور على فرج العرب من ربيعة ومضر وسائر من ببادية العراق والحجاز والجزيرة[(٣)] بدليل الكتابة المنقوشة على قبره بالخط النبطي واللسان العربي الشمالي، في خرائب النمارة بحوران الشام ومما جاء فيها: «هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج، وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم، وهزم مذحج إلى اليوم، وقاد الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر، وأخضع معداً واستعمل بنيه على القبائل، وأنابهم عنه لدى الفرس والروم، فلم يبلغ ملك مبلغه إلى اليوم، وتوفي في اليوم السابع من مكسلول، أيلول، وفّق بنوه للسعادة»[(٤)]. ويستدل من عبارة «الذي تقلد التاج» على أن صاحب التاج هو من الملوك الذين كان لهم اتصال بالفرس، وأن المقصود به أحد ملوك الحيرة لوجود صلة لهم بالامبراطورية الفارسية.

---

(١) الطبري: جـ١ ص٦٢٧.

(٢) المسعودي: جـ٢ ص٧٤. اليعقوبي: جـ١ ص٢٥٥. زيدان: ص٢٢٠.

(٣) الطبري: جـ١ ص٦٢٨.

(٤) المعروف أن أهل الشام وحوران كانوا يؤرخون في ذلك الوقت بالتقويم البصروي، نسبة إلى بصرى عاصمة حوران، وهو يبدأ بدخولها في حوزة الرومان سنة (١٠٥م)، فإذا أُضيفت إلى (٢٢٣) كان المجموع (٣٢٨) وهي السنة التي توفي فيها امرؤ القيس. زيدان: ص٢٢٧، ٢٢٨. ديسو، رينيه: العرب في سوريا قبل الإسلام: ص٣٦.

ويبدو أن هذا التوسع مرده إلى انتهاز امرئ القيس للفرص التي أتاحتها له الحروب بين الدولتين الفارسية والرومانية من جهة والأوضاع الداخلية المضطربة التي شهدتها كل منهما من جهة أخرى.

ولُقِّب امرؤ القيس بمحرق العرب، أو محرق[1]، لأنه أول من عاقب وأحرق بالنار، وأضحت هذه الصفة تطلق على بني نصرٍ، ويبدو أَن هذه الصفة لم تُطلق عليه لأنه أحرق أعداءه، ولكن لهذه الصفة علاقة بصنم يُدعى محرق تعبَّدت له بعض القبائل مثل بكر بن وائل وربيعة، وقد ورد من بين الأسماء الجاهليين اسم له علاقة بهذا الصنم هو عبد محرق[2].

عمرو بن امرئ القيس (٣٢٨ ـ ٣٧٧م)

خلف عمرو أباه امرأ القيس، ويبدو أن أيامه، على الرغم من طولها، كانت أيام سلم ورخاء، لذا أهمله المؤرخون، ولم يتحدثوا عنه إلا قليلاً، وقد نعته بعض الإخباريين بالمحرق[3] ما يدل على أنه كان محارباً ولكنهم لم يذكروا شيئاً عن تلك الحروب.

أوس بن قلام (٣٧٧ ـ ٣٨٢م)

هو رجل من العماليق من أسرة غريبة على آل نصر اغتصب العرش منهم إثر ثورة قام بها، وليس له نسب فيهم، وفي رواية أن الملك الفارسي سابور بن سابور هو الذي استخلفه على عمله. لا نعرف من أعمال أوس هذا شيئاً إلا أنه حكم خمسة أعوام وقتله أحد بني نصر ويُدعى جحجبا بن عتيك بن لخم[4].

امرؤ القيس الثاني ابن عمرو بن امرئ القيس (٣٨٢ ـ ٤٠٣م)

عاد الملك في الحيرة إلى بني عمرو بن عدي بن نصر اللخمي باعتلاء امرئ القيس الثاني العرش، وعاصر هذا الملك من الفرس الملوك: أردشير بن سابور وسابور بن سابور وبهرام بن سابور ويزدجر الأثيم، ويُعرف بامرئ القيس البدء، وليس لدينا من أخباره ما يستحق الذكر[5].

النعمان الأول ابن امرئ القيس الثاني (٤٠٣ ـ ٤٣١م)

تولى الحكم بعد وفاة والده، وأمه شقيقة بنت ربيعة بن ذهل بن شيبان[6]، وحظي

---

(١) ابن قتيبة: ص٣٥٨.

(٢) علي: جـ٣ ص١٨٨، ١٨٩.

(٣) المسعودي: جـ٢ ص٧٤.

(٤) الطبري: جـ٢ ص٦٥.

(٥) المصدر نفسه. زيدان: ص٢٢٩.

(٦) الطبري: جـ٢ ص٨٩، ٢٠٥.

بشهرة كبيرة بين ملوك الحيرة لم ينلها أحد قبله، فهو النعمان الأعور[١]، والنعمان السائح[٢]؛ لأنه زهد في الدنيا في آخر حياته، فتخلّى عن الملك، ولبس المسوح، وساح في الأرض[٣]. وهو أيضاً النعمان الذي بنى قصري الخورنق والسدير، ويبدو أنه كان جديراً بهذه الشهرة، فقد كان «حازماً، ضابطاً لملكه، وأنه اجتمع له الأموال والأتباع والرقيق، ما لم يملكه أحد من ملوك الحيرة، وكان من أشد العرب نكاية في الأعداء، وأبعدهم مغازاً وغزا الشام مراراً كثيرة، وأكثَرَ المصائب في أهلها، وسبى وغنم»[٤].

اهتم النعمان بالعمران، فبنى قصر الخورنق بتكليف من الملك يزدجر الأثيم، وكان هذا لا يعيش له ولد، فسأل عن منزل بريء صحيح من الأدواء والأسقام، فدُلَّ على ظهر الحيرة، فدفع ابنه بهرام جور، وكان وليداً، إلى النعمان وأمره ببناء الخورنق مسكناً له، وفي رواية أنه دفعه إلى المنذر بن النعمان، وأمره بإخراجه إلى بوادي العرب ليشب صحيحاً فصيحاً، وكافأه بأن ملَّكه على العرب، ومنحه مرتبتين سنيتين وكسوة على قدر منزلته، فاستجاب لأمره واختار لرضاعة بهرام جور ثلاث نسوة ذوات أجسام صحيحة وأذهان ذكية، وآداب رضية من بنات الأشراف، اثنتين عربيتين وثالثة أعجمية، فتداولن رضاعته ثلاث سنين، وفُطم في السنة الرابعة، وبقي بهرام جور في قصر الخورنق حتى أضحى رجلاً ومات والده[٥].

ويبدو أن بعض أهل مملكته أرادوا إقصاءه عن سدة الحكم لنشوئه في بلاد العرب وتخلُّقه بأخلاقهم، وبفعل أنه من ولد يزدجر الأثيم الذي اشتهر بسوء السيرة، وملَّكوا رجلاً من عقب أردشير بن بابك يُقال له كسرى، فسارع المنذر إلى مساعدة بهرام جور وقدَّم له قوة عسكرية مكَّنته من استرجاع عرشه، وبذلك زادت مكانته في البلاط الساساني[٦]. ويمكن التوفيق بين الروايتين بأن يزدجرد أمر النعمان ببناء الخورنق حتى يقيم فيه ابنه بهرام جور، فلما مات النعمان وخلفه المنذر تولى رعاية بهرام جور وتربيته ثم قام أخيراً بمساعدته لاسترجاع عرش أبيه[٧].

وبدأ في عهد النعمان انتشار النصرانية في الحيرة بعد أن تسربت إليها في عهد امرئ القيس، الأول، فقد استقطب انعزال القديس سمعان العمودي على قمة جبل

---

(١) كان النعمان أعور. ابن قتيبة: ص٣٥٨.
(٢) حمزة الأصفهاني: ص٦٨.
(٣) الطبري: جـ٢ ص٦٧.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) الطبري: جـ٢ ص٦٩.
(٦) المصدر نفسه: ص٦٩، ٧٠.
(٧) اليعقوبي: جـ١ ص٢٠٥. سالم: ص٢٦١.

في سوريا، عدداً كبيراً من عرب الحيرة العباد، وكانوا يقصدونه للتبرك وطلب الشفاعة من أمراضهم.

وقد عارض النعمان في بادئ الأمر تلك الزيارات إلى أراضي تقع تحت سيطرة الرومان خشية على بلاده، ثم عاد وأباحها إثر رؤيا منامية ظهر له فيها القديس سمعان العمودي وهو يهدده بالضرب بالعصا، ومالت نفسه إلى اعتناق النصرانية لولا خشيته من الفرس، بدليل أنه بينما كان يجلس يوماً بالخورنق ينظر منه إلى ما بين يديه من الفرات وما عليه من النخل والأجنة والأشجار؛ ذُكر أمامه الموت فقال: «وما ينفع هذا مع نزول الموت وفراق الدنيا، فتنسَّك واعتزل الملك»[1] وانسحب من الحياة السياسية العامة وانقطع إلى حياة العبادة والتصوف، فارتدى مسوح الرهبان، واختفى عن الأنظار، وتنسَّك في الجبال والفلوات، ما يحملنا على الاعتقاد بأنه كان على استعداد لتقبل النصرانية، وأن رعاياه النصارى تمتعوا في عهده بحرية كاملة[2].

المنذر بن النعمان الأول (٤٣١ ـ ٤٧٣م)

خلف المنذر بن النعمان أباه بعد انسحابه من الحياة السياسية، ونسب إليه بعض الإخباريين تربية بهرام جور ومساعدته على استرجاع عرش والده، كما ذكرنا. واشترك المنذر في الحرب التي نشبت بين الروم، البيزنطيين، والفرس، ذلك أن البيزنطيين اتهموا بهرام جور ووالده باضطهاد النصارى في بلادهما، فأعلنوا الحرب عليه. والواضح أن هذه التهمة كانت ذريعة لشن الحرب ضمن الصراع المتنامي بين الدولتين الفارسية والبيزنطية، والمعروف أن العلاقات بينهما اتسمت بالطابع العسكري المرير مع بعض الهدوء النسبي، وكان التنازع على مناطق الأطراف بالإضافة إلى السيطرة على طرق القوافل التجارية بين الشرق والغرب من أهم أسباب النزاع.

وتجدَّد النزاع بين الدولتين في عهد بهرام جور، ويبدو أنه تهيب الدخول في الحرب وخشي عاقبة الهزيمة، فالتمس المساعدة من المنذر الذي لبّى النداء على الفور وأرسل قوة عسكرية إلى سوريا، إلا أن هذه الحملة تعرَّضت لخسارة جسيمة أثناء عبور أفرادها نهر الفرات وغرق أكثرها[3].

---

(١) اليعقوبي: ص٢٥٦. الطبري: جـ٢ ص٦٧.

(٢) Nicholson, R.A: A Literary History of the Arabs p41.

(٣) علي: جـ٣ ص٢٠٨.

الأسود بن المنذر بن النعمان الأول (٤٧٣ ـ ٤٩٣م)

خلف الأسود أباه المنذر، وقد غزا بلاد الشام طلباً لثأر ابن عم له يُدعى أبو أُذينة الغساني، وكان الغساسنة قد قتلوا أخاً له، فانتصر على الغساسنة وأسر بعض أمرائهم وقتلهم بناء على طلب ابن عمه[١].

المنذر بن المنذر بن النعمان الأول (٤٩٣ ـ ٥٠٠م)

لم يذكر له المؤرخون حوادث تستحق الذكر.

النعمان بن الأسود (٥٠٠ ـ ٥٠٤م)

قضى هذا الأمير مدة حكمه القصيرة في الحرب ضد البيزنطيين وحلفائهم من العرب في بلاد الشام والجزيرة الفراتية، فاصطدم بالقائد البيزنطي أوجينوس عند مكان يقال له بثرابسوس، البئر، على الفرات، ولكنه مني بهزيمة قاسية، كما اشترك في الحرب التي نشبت بين الفرس والبيزنطيين في عام (٥٠٢م)، إذ طلب منه الملك الفارسي قباذ أن يهاجم المناطق الجنوبية للحدود البيزنطية. واصطدم أيضاً بالقائدين أوليمبوس وأورجينوس على مقربة من قرقيسياء على الخابور، ومني بهزيمة أخرى، إلا أنه ردَّ اعتباره حين تغلَّب عليهما في جولة أخرى من الحرب. وحاصر النعمان الرها مع قباذ في عام (٥٠٤م) فأصيب بجرح في رأسه أثناء الحصار توفي من أثره[٢]، فانتهز العرب من بني ثعلبة المتحالفون مع البيزنطيين، هذه الفرصة، فأغاروا على عاصمته وسلبوا ما أمكنهم حمله، واضطرت حامية المدينة إلى الفرار إلى البادية[٣].

أبو يعفر علقمة بن مالك بن عدي (٥٠٤ ـ ٥٠٧م)

كان معاصراً لقباذ، وهو من بني الذميل، وهم بطن من لخم[٤]، ولا تتحدث روايات المصادر عن علاقته بالأسرة الحاكمة ولا عن كيفية تعيينه والأسباب التي أدَّت إلى اختياره لهذا المنصب، وكل ما ذكرته أنه حكم ثلاث سنين[٥].

---

(١) أبو الفداء: جـ١ ص١١٧.

(٢) زيدان: ص٢٣٢. Bury, J,B: History of the Later Roman Empire I p434.

(٣) علي: جـ٣ ص٢١٦.

(٤) أبو الفداء: جـ١ ص١١٨.

(٥) الطبري: جـ٢ ص١٠٤.

امرؤ القيس الثالث ابن النعمان (٥٠٧ ـ ٥١٤م)

لا تذكر روايات المصادر أي إنجاز له[١].

المنذر بن امرئ القيس بن ماء السماء (٥١٠ ـ ٥٥٤م)

هو أشهر ملوك اللخميين وأكثرهم حركة، فقد عاصر من الفرس قباذ وابنه أنوشروان، ومن البيزنطيين جستنيان الأول (٥٢٧ ـ ٥٦٥م)، ومن الغساسنة الحارث بن جبلة، وكلهم من كبار الرجال اجتمعوا في عصر واحد.

ويُعرف المنذر عند الإخباريين بالمنذر بن ماء السماء، وبابن ماء السماء، وماء السماء لقب أمه مارية بنت عوف بن جشم، وقد سُميت بماء السماء لجمالها وحسنها، كما يُعرف بذي القرنين بسبب ضفيرتين في رأسه[٢]، إلا أننا لا نعلم شيئاً يُذكر عن والده امرئ القيس.

والجدير بالذكر، أن المؤرخين البيزنطيين واللاتين أطلقوا على المنذر ابن الشقيقة، وأما الإخباريون فقد جعلوا شقيقة أماً للنعمان الأعور، ولم يشيروا إلى ملك اسمه المنذر وأمه شقيقة، فهل نحن أمام ملك آخر اسمه المنذر بن الشقيقة حكم في أوائل القرن السادس الميلادي؟ واختلفوا كذلك في مدة حكمه، فجعله بعض الإخباريين بين ثلاثة وعشرين واثنين وثلاثين عاماً، في حين يرى أحد الباحثين أنه حكم بين اثنين وأربعين وستاً وأربعين عاماً تقريباً[٣].

ومهما يكن من أمر، فقد حفل عهد المنذر بالنشاط العسكري، وكان حليفاً للفرس في مواجهة البيزنطيين وحلفائهم الغساسنة، وكان خليقاً أن يُسمى باسمه عصر بكامله، ويصح أن يكون عنواناً لحروب القرن لمساهمته الكبيرة في الجهد العسكري وظهور كفاءته في خوض الحروب، ومن حسن حظ الفرس أن المنذر وُجد في ذروة الصراع الفارسي ـ البيزنطي حيث كان عوناً لهم ورأس الحربة التي شغلت بيزنطية وجيوشها عقوداً طويلة، وقد كُتب لبيزنطية أيضاً أن تحظى بقائد عربي كبير على الجانب الغساني في مواجهة الفرس وحلفائهم اللخميين، هو الحارث بن جبلة. وبدا النزاع بين الزعيمين العربيين في ظل الصراع الفارسي ـ البيزنطي، وكأنه صراع خاص، لشدة ما احتدم القتال بينهما،

---

(١) الطبري: جـ٢ ص١٠٤.

(٢) المصدر نفسه: ص٨٩، ١٠٤. حمزة الأصفهاني: ص٨٢.

(٣) Bury: I p91.

واستقرَّت حُمَّى المنافسة الشخصية[١].

اشترك المنذر في الحروب التي خاضها الفرس ضد البيزنطيين والغساسنة، فحين انهارت هدنة عام (٥٠٦م)[٢] بين الامبراطوريتين، استؤنفت العمليات العسكرية، وقد تذرع الفرس بتلكؤ بيزنطية في دفع الأتاوة المقررة عليها في معاهدة الصلح، لشن الحرب، أما السبب الحقيقي للحرب، فهو إيعاز بيزنطية للحبشة بغزو اليمن، وكان المنذر قد أحجم عن مساعدة ذي نواس الملك اليمني حين استنجده في مؤتمر الرملة وآثر عروض البيزنطيين السلمية[٣]. وقد يكون قباذ أراد أن يُعوض خسارته في اليمن بتقدم يحققه في بلاد الشام، فأوعز إلى المنذر بمهاجمة الأراضي البيزنطية في بلاد ما بين النهرين، فأسر قائدين بيزنطيين هما ديموستراتس ويوحنا، واضطر الامبراطور البيزنطي جستين الأول (٥١٨ ـ ٥٢٧م) إلى إرسال سفارة إلى المنذر في عام (٥٢٤م) مؤلفة من إبراهيم وشمعون الأرشامي وسرجيوس أسقف الرصافة[٤]، للتفاوض في إطلاق سراحهما، وقد نجحت مهمة السفارة في فك أسر القائدين لكن المنذر استأنف العمليات العسكرية فهاجم قلعة المضيق وحمص[٥].

ولما مات جستين الأول في عام (٥٢٧م)، واعتلى جستنيان عرش الامبراطورية وقعت حوادث اشترك فيها المنذر، فقد ساءت العلاقة آنذاك بينه وبين قباذ إما بسبب الاختلاف الديني ومحاولة قباذ فرض التعاليم المزدكية على المنذر وعرب الحيرة، ورفض المنذر هذا التوجه، وإما لسبب سياسي من واقع قلق قباذ من شخصية المنذر القوية، وتوسع نفوذه، وقد خشي مغبة اتصاله بالبيزنطيين والانضمام إليهم، وروى الطبري أن الحارث الكندي كان يستثمر إغارة الأعراب على أراضي الفرس ليحصل من قباذ على أتاوة ما يجعله منافساً للمنذر في جباية الأموال من عرب الحيرة ومناطق نفوذها[٦]، فعزله قباذ وعيَّن مكانه الحارث الكندي ملكاً على الحيرة، ولجأ المنذر إلى البادية، وظل محتمياً

---

(١) سحاب: ص١٠٥، ١٠٧.

(٢) عُقدت الهدنة بين الامبراطورين قباذ وأنستاسيوس.

(٣) Shahid, Irfan: The Conference of Ramla A.D, 524, pp128 - 130.

(٤) هي رصافة الشام. الحموي: ج٣ ص٤٧، ٤٨.

(٥) علي: ج٣ ص٢١٩. Devreesse: p281.

(٦) تاريخ الرسل والملوك: ج٢ ص٨٩، ٩٠.

بالقبائل العربية حتى توفي قباذ وتولى مكانه ابنه أنوشروان فأعاده إلى منصبه في حكم الحيرة وفرَّ الحارث منها.

لم يترك المنذر الحارث وشأنه، وانتقم منه ومن قومه، فتتبع الكنديين وأثار عليهم القبائل في نجد والحجاز، وأوقع بهم في ديار بني مرين وفي يوم أوارة الأول، فأسر يزيد بن شرحبيل الكندي وقتله، كما أسر عدداً كبيراً من بكر بن وائل وذبحهم على جبل أوارة، وأحرق نساءهم[١].

بدأ جستنيان عهده باسترداد تدمر ودفع حلفائه الغساسنة إلى دخول الأراضي الفارسية حيث عادوا بسبي وغنائم، وفي أوائل عام (٥٢٨م) هاجم البيزنطيون وحلفاؤهم الغساسنة مدينة نصيبين، فتصدَّى لهم المنذر وهاجمهم فيما كانوا يجتازون الصحراء باتجاه المدينة وكبَّدهم خسائر جسيمة، وجدَّد انتصاره في العام التالي على البيزنطيين، ورأى قباذ أن يهاجم أرمينيا، لكنه استمع إلى نصائح المنذر وتوجه بقواته إلى أنطاكية، فهاجمها ودخلها من دون مقاومة تُذكر، فسبى وغنم وتراجع من دون أن يلقى الجيش البيزنطي[٢].

ويبدو أن تعاظم شهرة المنذر وهيبته بين العرب، دفع الامبراطور البيزنطي إلى اصطناع قطب يوازي به ملك الحيرة، فاختار الحارث بن جبلة الغساني لهذه المهمة وجعله عاملاً على العرب في عام (٥٢٩م).

جدَّد الفرس وعرب الحيرة بقيادة المنذر هجماتهم على الأراضي البيزنطية في ربيع عام (٥٣١م)، وجاءت ردّاً على هزيمة الفرس في العام الماضي على يد القائد البيزنطي بلزاريوس، وبلغ الحلفاء موقعاً متوسطاً بين قنسرين والفرات، فتبعهم بلزاريوس بوحدات ضمَّت نسبة كبيرة من العرب بقيادة الحارث بن جبلة، واصطدم، بهم عند الرقة قرب الفرات. ونجح المنذر في الإيقاع بالقوات البيزنطية ـ الغسانية المتحالفة التي تراجعت إلى الرقة، واجتاح منطقة الرها ودخل إلى المدينة ونهبها، كما هاجم قنسرين وأحرق ربضها، ثم انسحب في جنح الظلام، ويبدو أن انتصاره لم يكن حاسماً، وخشي عاقبة الهزيمة ففضَّل الانسحاب على ذلك.

وخشي جستنيان أن تنهار تحالفات بيزنطية في المنطقة من فعل هذه الهزيمة، فسارع إلى حث مملكة أكسوم الحبشية على شن هجمات على مناطق النفوذ الفارسية

---

(١) ابن الأثير: جا ص٤٩٧. وأوارة: اسم ماء أو جبل لبني تميم. الحموي: جا ص٢٧٣.

(٢) سحاب: ص١٠٨، ١٠٩.

في جنوبي الجزيرة العربية انطلاقاً من اليمن التي احتلها الأحباش قبل ست سنوات، وعمد في الوقت نفسه إلى مسالمة الفرس ودعم وكلائه الغساسنة[١].

وما جرى بعد ذلك من الصلح بين فارس وبيزنطية في نيسان عام (٥٣٢م)، كان من بين شروطه أن تدفع بيزنطية أتاوة للمنذر. وعلى الرغم من هذا الصلح الذي سُمي بالسلام الأبدي[٢]، فقد تجدَّد الصراع بين المنذر والحارث من أجل السيادة على القبائل العربية في بادية الشام. ففي عام (٥٣٩م) استؤنفت الحرب بسبب التنازع على مراعٍ للغنم[٣]، والواقع أن جفافاً حصل في تلك السنة أصاب وادي الفرات الأسفل، فاضطر المنذر إلى إرسال قطعانه إلى ما وراء تدمر لترعى، فتصدى له الحارث بن جبلة ليمنعه، واحتج المنذر بأن معاهدة السلام الأبدي لم تُعرض عليه ولم يكن العرب من الموقعين عليها، بل إن قانوناً قديماً كان يُخوله جباية ضريبة ممن ترعى ماشيته في تلك المنطقة، وردَّ عليه الحارث بأن الأرض رومانية[٤].

وتدخل جستنيان بين الرجلين في هذه القضية، لكن جهود الوساطة فشلت، واستغل كسرى أنوشروان الذي خلف أباه قباذ هذه الفرصة، فاستأنف العمليات العسكرية، فتقدم باتجاه بلاد الشام، واستولى على دارا والرها ومنبج وقنسرين وحلب وأنطاكية التي نقل سكانها إلى أرض السواد، وسيطر في العام التالي على حمص وأفامية ومدن كثيرة مجاورة، وبلغ في تقدمه ساحل البحر الأبيض المتوسط، ولما حاول أن يشق طريقه شمالاً إلى البحر الأسود اعترضته قبائل اللازيين والقوقازيين الذين يدينون بالطاعة لبيزنطية، فهزمهم واستولى على معاقلهم[٥].

نتيجة هذا التوسع الفارسي على الأرض، خشي جستنيان مغبة الأمر، وعمد إلى الحصول على هدنة، فطلب كسرى مبلغاً كبيراً من المال، وأتاوة سنوية، وأجرة حراسة ممرات القوقاز من هجمات البرابرة. وفي الوقت الذي كان فيه الامبراطور البيزنطي يدرس هذه المقترحات، شدَّد كسرى من ضغطه العسكري ووصل إلى البحر الأبيض المتوسط مرة أخرى عند سلوقية، واجتاز الفرات أكثر من مرة، فاضطر جستنيان إلى قبول شروط الصلح، وتحقَّق السلام في عام (٥٤٥م)[٦].

ويبدو أن لذلك علاقة بتراجع النشاط التجاري وما يدره من أرباح للدولتين

---

(١) سحاب ص١٠٩.

(٢) Devreesse: p286.

(٣) Shahid: The Arabs in the Peace Treaty of 561. p199.

(٤) سحاب: ص١١٠.

(٥) Bury: II pp79, 123.

(٦) ذكر الطبري شروط الصلح: جـ٢ ص١٢٢.

الكبيرتين بسبب الحروب المتواصلة التي طبعت النصف الأول من القرن السادس الميلادي، وشعر كل من الطرفين الفارسي والبيزنطي أن حليفه العربي بدأ يقلقه في علاقته مع الطرف الآخر، بعد أن تحوَّلت مغامراتهما العسكرية إلى سجال شخصي خارج نطاق حاجات الدولتين ومصالحهما. فبعد هدنة عام (٥٤٥م) استؤنفت الحرب بين الرجلين عام (٥٤٦م) واستمرت حتى عام (٥٥٤م)، وامتنع كل من كسرى وجستنيان من التدخل فيها، وجرى اللقاء الأخير بين الرجلين في عين أُباغ[١]، وأسفر عن انتصار الحارث بن جبلة، ومقتل المنذر بن امرئ القيس[٢].

كان المنذر بن امرئ القيس وثنياً يقدس الأصنام المعروفة في الجزيرة العربية، ونقل الصنمين الضيزنين وأقامهما على باب الحيرة لحمايتها ولينحني لهما الداخلون إلى المدينة[٣]، كما قدَّم بعض الأسيرات الغسانيات ضحايا إلى الآلهة العزى، إلا أنه تأثر بزوجته النصرانية هند الغسانية، وهي ابنة عمة امرئ القيس الشاعر المعروف، وأم عمرو بن المنذر وأخيه قابوس، وقد نقلت إليه بعض تعاليم المسيح، فساهم معها في بناء عدد من الكنائس والأديرة[٤].

عمرو بن المنذر، أو عمرو بن هند (٥٥٤ ـ ٥٧٨م)

خلف عمرو أباه المنذر، وكان ملكاً طموحاً قوي الشكيمة، عُرِف بمضرط الحجارة[٥]، نظراً لشدته وقوته. كان رجلاً شديد التأثر والانفعال مما يُقال له، ولذلك تعرَّض لمشكلات عديدة لم تكن لتحدث لولا هذا الحس المرهف عنده الذي جعله عُرضة لهجاء الشعراء وأدَّى إلى نهايته بالقتل.

ساعد عمرو بن هند الساسانيين في حروبهم ضد البيزنطيين، والواقع أنه لم يكن لجم الفرس والبيزنطيين للعرب، في معاهدة عام (٥٦١م)[٦]، دليلاً على رغبة صادقة بالسلام بقدر ما كان رغبة في استخدام الوكيلين العربيين في الحرب والسلام وفقاً لمصالحهما، وقد أثبت كسرى بعد أربع سنوات من توقيع المعاهدة أنه ما يزال يوعز إلى حليفه العربي عمرو بن هند بمهاجمة الأراضي البيزنطية، ويتظاهر بعدم خرق

---

(١) عين أُباغ: واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام. الحموي: جـ٤ ص١٧٥.

(٢) الأصفهاني، حمزة: ص٨٢. ابن الأثير: جـ١ ص٤٨٧ ـ ٤٨٨.

(٣) الحموي: جـ٤ ص١٩٧ ـ ١٩٩.

(٤) Labourt: Le Christianisme dans L'Empire Perse p206.

(٥) محمد بن حبيب: المحبّر: ص٣٤٢.

(٦) تُحظر المادة السادسة من معاهدة عام ٥٦١م بين الفرس والبيزنطيين على القبائل العربية اجتياز الحدود من أراضي دولة إلى أراضي دولة أخرى.

المعاهدة، وكان عمرو هذا قد أغار على الغساسنة في بلاد الشام في عام (٥٦٣م) أخذاً بثأر أبيه وإخضاع هؤلاء وإجبارهم على دفع الأتاوة، وعهد إلى أخيه قابوس بمواصلة غزوهم في عامي (٢٦٦ و٢٦٧م)، وكانت حجته في ذلك أن جستنيان كان يدفع له كل سنة مائة رطل ذهباً منذ عقد معاهدة عام (٥٦١م) مقابل امتناع المناذرة عن مهاجمة مناطق الحدود السورية، فلما مات وتولى العرش البيزنطي جستين الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨م) توقف عن دفع الأتاوة وأساء إلى رسوله إلى القسطنطينية للتفاوض في إعادة دفعها، والملاحظ أن الفرس لم يشتركوا علناً في الحرب إلا في عام (٥٧٢م)[١].

وسَّع عمرو بن هند نفوذه وسلطانه فشمل العراق والأردن إلى اليمامة من بلاد بني جودة، وغزا بني تغلب عندما امتنعوا عن تقديم المساعدة له في حربه ضد الغساسنة، وانتقم منهم[٢]، كما غزا طيئاً بتحريض زرارة بن عدس على الرغم من وجود حلف بينه وبينهم، وغزا تميماً، فقتل من بني دارم مائة نفس انتقاماً لقتلهم أخيه سعد أو ابنه مالك، وكان ذلك في يوم أوارة الثاني، وألقى بالقتلى في النار، فعُرف بالمحرق[٣].

بالغ عمرو بن هند في العظمة حتى توهم في نفسه الفضل على الناس كلهم، وخُيِّل إليه أنه ليس من أمير في العرب لا يخدمه ويتمنى رضاه، وكانت تلك المبالغة سبب مقتله على يد عمرو بن كلثوم التغلبي عندما حاول ابن هند أن يستذل أمه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة، وأن يستعملها خادمة لأمه هند في إحدى المناسبات، فصرخت ليلى: «واذلاه، يا آل تغلب» فسمعها ولدها، فثار الدم في وجهه والقوم يشربون، فنهض إلى سيف ابن هند وهو معلق بالسرادق، فأخذه وضرب به عمرو بن هند فقتله، وخرج ينادي: «يا آل تغلب» فأسرع التغلبيون ونهبوا مال الملك وخيله، وسبوا النساء، وقتلوا الرجال، ولحقوا ببلادهم[٤].

قابوس بن المنذر (٥٧٨ - ٥٨١م)

خلف عمراً بن المنذر أخوه قابوس، وكان ضعيف الشخصية وفيه لين، فسموه فتنة العرس أو قينة العرس[٥]، وقتله رجل من بني يشكر «وسلب ما كان

---

(١) سحاب: ص١١٦، ١١٧. Devreesse: pp295 - 297.

(٢) الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني: جا١١ ص٥٥، ٥٦.

(٣) المصدر نفسه. ابن قتيبة: ص٣٥٩. ابن الأثير: جا١ ص٤٩٧ - ٤٩٩.

(٤) الأصفهاني، أبو الفرج: جا١١ ص٥٣، ٥٤.

(٥) استخرج هذا اللقب من شعر منسوب إلى طرفة هجا فيه عمراً بن هند وقابوساً، فقال:

يــأت الــذي لا تــخــاف سُـبَّـتُـهُ   عـمـرو وقـابـوس قـيـنـتـا الـعـرس

اليعقوبي: جا١ ص٢٥٧.

عنده وعليه»[١].

فيشهرت أو زيد (٥٨١ ـ ٥٨٢م)

خلف قابوس بن المنذر رجل من خارج الأسرة الحاكمة هو فيشهرت أو زيد[٢]، وقد ملَّكه الفرس، ويبدو أن اضطرابات داخلية حصلت في الحيرة، أو أن نزاعاً على السلطة داخل الأسرة الحاكمة، دفعت الملك الفارسي إلى اتخاذ هذا الإجراء الذي استمر عاماً واحداً.

المنذر بن المنذر بن ماء السماء (٥٨٢ ـ ٥٨٥م)

تولى المنذر حكم الحيرة بعد فيشهرت، وهو أخو عمرو وقابوس، وقد ورث الصراع مع الغساسنة، فنهض للانتقام من الحارث الغساني الذي قتل والده، فالتقيا في مرج حليمة[٣]، فاقتتلا فقُتل المنذر وأُسر ابنه امرؤ القيس، وبقي أسيراً عند الغساسنة إلى أن حرَّرته بكر بن وائل في إحدى غاراتها على بعض بوادي الشام[٤]، وأرسل الحارث بعد المعركة جيشاً إلى الحيرة فنهبها وأحرقها[٥].

ترك المنذر اثني عشر ولداً سُمُّوا الأشاهب لجمالهم، أشهرهم الأسود، وكان المنذر قد أرسل ابنه النعمان إلى عدي بن زيد التميمي، وهو رجل من عبَّاد الحيرة، ليربيه ويُنشئه نشأة أميرية، وأرسل ابنه الأسود إلى عدي بن أوس بن مرينا، وهو من أشراف الحيرة اللخميين المقدمين عند كسرى، ولما دنت ساعة وفاته لم يُملِّك أحداً منهم، وأوصى بهم إياس بن قبيصة الطائي وملَّكه على الحيرة إلى أن يرى هرمز بن كسرى رأيه، وكان قد خلف والده، وهذا يعني أن تنصيب أمراء الحيرة أضحى من اختصاص الأكاسرة[٦].

النعمان بن المنذر، أبو قابوس (٥٨٥ ـ ٦١٣م)

عيَّن كسرى أبرويز بن هرمز، بعد أشهر من وفاة المنذر، ابنه النعمان أبو قابوس، بناء على نصيحة عدي بن زيد، أحد كُتَّابه ومترجميه، ولُقِّب بالصعب لسرعة غضبه وأخذه بالوشايات، وقيل له «أبيت اللعن»[٧]، وقد بلغت مملكة

---

(١) الأصفهاني، حمزة: ص٨٥. (٢) الطبري: جـ٢ ص٢١٣.
(٣) إنما سُمي بمرج حليمة، بحليمة ابنة الحارث الغساني. الحموي: جـ٢ ص٢٩٦.
(٤) الأصفهاني، أبو الفرج: جـ١١ ص٤٨، ٤٩. (٥) ابن الأثير: جـ١ ص٤٩٠.
(٦) المصدر نفسه: ص٤٣٦.
(٧) المسعودي: جـ٢ ص٧٥. ابن الأثير: جـ١ ص٣٩٩.

الحيرة في عهده درجة متقدمة في الترف والنمو الاقتصادي، كما أصيبت بالضعف واضمحلَّت بعد وفاته.

واجهت النعمان خلال حياته السياسية مشكلتان كانتا على شيء من الخطورة، وتسبَّبتا في ضعف مملكة الحيرة.

تمثَّلت **الأولى** بالتوسع اللخمي على الأرض، ذلك أن مملكة الحيرة توسعت في عهد النعمان، فامتدت جنوباً إلى البحرين، وبلغت جبلي طيء أجأ وسلمى غرباً، وكانت قوافل النعمان ولطائمه[1] تذهب إلى الحجاز لتباع في سوق عكاظ[2] وأدَّى هذا التوسع إلى احتكاكه بكثير من قبائل العرب. فقد اصطدم ببني يربوع بن تميم في يوم طِخفة في محاولة لانتزاع الردافة[3] منهم وإعطائها إلى بني دارم، إلا أنه تعرَّض للهزيمة[4]، كما اشتبك مع بني عامر بن صعصعة بسبب مهاجمة هؤلاء لتجارته إلى الحجاز واستيلائهم عليها، فأرسل جيشاً من حلفائه ضمَّ، بالإضافة إلى جنود من لخم، مقاتلين من كلب وضُبَّة وتميم وغيرهم، اصطدموا ببني عامر يوم السلان، وأسفر القتال عن هزيمة جيش النعمان[5].

وتمثَّلت **الثانية** بتدهور علاقته مع كسرى أبرويز، إما بسبب سجن النعمان لعدي بن زيد ثم قتله[6]، حيث استغل خصومه هذه الحادثة وأوغروا صدر كسرى عليه، أو بفعل امتناع النعمان عن تزويج بناته وبنات عمه لأولاد كسرى[7].

وخشي النعمان غضب كسرى فغادر الحيرة ولحق بجبلي طيء، وكان متزوجاً منهم، فطلب أن يمنعوه فرفضوا خوفاً من كسرى، فانتقل إلى غيرهم من القبائل، فلم يجد إلا صدوداً، وتوجه أخيراً إلى منزل هانئ بن مسعود الشيباني، فأودعه أهله وماله وسلاحه، ثم سار إلى المدائن عاصمة الفرس للاجتماع بكسرى ليرى فيه رأيه، فقبض عليه كسرى وأرسله مخفوراً إلى خانقين[8] وحبسه هناك، وبقي النعمان في سجنه حتى

(١) اللطيمة: هي التجارة. (٢) ابن الأثير: جـ١ ص٥٧٠.

(٣) الردافة: بمنزلة الوزارة، ويجلس الرديف عن يمين الملك.

(٤) ابن الأثير: جـ١ ص٥٧٨.

(٥) المصدر نفسه: ص٥٧٠، ٥٧١. والسُلَّان: أرض تهامة مما يلي اليمن. الحموي: جـ٣ ص٢٣٤.

(٦) كانت هناك منافسة في بلاط كسرى بين عدي بن زيد وعدي بن أوس من بني مرينا، فقد نصح الأول كسرى بتمليك النعمان، في حين تبنى الثاني ترشيح أخيه الأسود. وعندما اختار كسرى النعمان، غضب عدي بن أوس وتآمر على عدي بن زيد ووشى به أمام النعمان الذي سجنه ثم قتله بناء على نصيحة بني بقيلة. الطبري: جـ٢ ص١٩٣ ـ ٢٠٠.

(٧) انظر تفاصيل الرواية عند المسعودي: جـ٢ ص٧٦، ٧٧.

(٨) خانقين: بلدة من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد. الحموي: جـ٢ ص٣٤٠.

أصيب بمرض الطاعون وتوفي[١]، وفي رواية أن كسرى حبس النعمان بساباط المدائن ثم أمر به فرُمي تحت أرجل الفيلة، وقيل بل مات في محبسه بساباط[٢].

ويروي الإخباريون أن النعمان تنصَّر، وكان وثنياً قبل ذلك، ويرجعون فضل تنصُّره إلى عدي بن زيد الذي تولى تنشئته[٣]، وقد ترك أربع بنات أشهرهن هند.

اشتهر بلاط الحيرة في عهد النعمان بالترف، وكان يضاهي بلاط كبار الملوك، فقد وفد عليه الشعراء ومدحوا النعمان، كان من بينهم: حسان بن ثابت، والنابغة الذبياني الذي اشتهر بصلته الوثيقة بالنعمان، واتصل به المنخل اليشكري الذي سعى ضد النابغة عند كسرى، والأسود بن يعفر وحاتم الطائي[٤].

وأشاد الإخباريون بالقوة العسكرية التي توفرت للنعمان والتي تألفت من كتائب مشهورة منها: الرهائن والصنائع والوضائع والأشاهب والدوسر التي ضرب بها المثل في البطش، فقيل: «أبطش من دوسر»[٥].

إياس بن قبيصة (٦١٣ ـ ٦١٨م)

انتهى بوفاة النعمان حكم اللخميين أو المناذرة في الحيرة، لأن كسرى عيَّن مكانه رجلاً من طيء اسمه إياس بن قبيصة[٦]، ويبدو أنه كان مكروهاً من أهل الحيرة، ولم يتمكّن من ملء الفراغ الذي تركه النعمان، كما لم يستطع أن يحافظ على المنجزات المكتسبة للملوك المناذرة، ما اضطر كسرى إلى دعمه بحامية عسكرية تشد أزره.

أدَّى زوال أسرة المناذرة إلى تحطيم الحاجز الذي أقامه الفرس أمام العرب، فانكشفت الامبراطورية الفارسية، ووقفت القبائل العربية وجهاً لوجه أمامها، إذ لم تصدهم قوة، فأخذوا يشنون الغارات على أطراف الامبراطورية في العراق وساعدهم على ذلك الاضطراب الداخلي بفعل الصراع على السلطة وانهماك كسرى بالحرب مع البيزنطيين[٧]، وتوغَّل بعضهم في داخل العراق. ولعل أهم المواجهات التي حدثت بين الطرفين، العربي والفارسي، آنذاك هي حرب ذي قار[٨] الشهيرة، وقد تألف الطرف العربي من بني بكر، وبخاصة شيبان، وقد وقعت عقب زوال أسرة المناذرة من الحيرة وكنتيجة مباشرة لها لأن النعمان أودع سلاحه عند هانئ بن

---

(١) الطبري: جـ٢ ص٢٠٥، ٢٠٦. ابن الأثير: جـ١ ص٤٤٠، ٤٤١.

(٢) المسعودي: جـ٢ ص٧٨.

(٣) الأصفهاني، حمزة: ص٨٥.

(٤) الأصفهاني، أبو الفرج: جـ١١ ص٨، ١٢ ـ ١٤. المسعودي: جـ٢ ص٧٥، ٧٦.

(٥) الميداني: جـ١ ص١١٨.

(٦) الطبري: جـ٢ ص١٩٤.

(٧) انظر تفاصيل هذه الأحداث في المصدر نفسه: ص١٧٦ ـ ١٨٧.

(٨) ذوقار: ماء لبني بكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط. الحموي: جـ٤ ص٢٩٣.

مسعود الشيباني، كما ذكرنا، فأراد كسرى استرجاعه بالقوة، ولكن هانئ رفض ذلك، فنشب القتال بينهما، وكانت النتيجة انهزام الجيش الفارسي[(١)].

آزاذبه بن ماهان الهمذاني (٦١٨ - ٦٢٨م)

عزل الفرس، على أثر خسارتهم في ذي قار، إياس بن قبيصة عن حكم الحيرة، وعيَّنوا عليها حاكماً فارسياً هو آزاذبه بن ماهان الهمذاني[(٢)]، إلا أن هذا لم يتمكَّن من أن يعيد الثقة التي كانت بين المناذرة والأكاسرة وأن يُحسِّن العلاقة التي ساءت بين العرب والفرس، فاستقلَّت القبائل العربية التي ارتبطت بالدولة الفارسية، منها: بكر بن وائل، التي استقلَّت في منطقة البحرين، وحذت حذوها بعض قبائل العرب في أواسط الجزيرة العربية، ما اضطر الفرس إلى أن يعيدوا إلى حكم الحيرة، أحد أبناء النعمان وهو المنذر المعروف بالمغرور، وفي رواية أن عرب الحيرة استغلوا الاضطراب الداخلي في فارس بفعل الصراع على السلطة فعزلوا آزاذبه وأقاموا المنذر المغرور ابن النعمان مكانه، ولم يكن أمام الأكاسرة سوى الاعتراف بالأمر الواقع[(٣)].

المنذر المغرور ابن النعمان (٦٢٨ - ٦٣٢م)

حدث في عهد المنذر أن خرجت جيوش المسلمين لفتح العراق، فذعر، وتعرَّض في الوقت نفسه لمضايقات الفرس، ما أدى إلى عزله من إمارة الحيرة بإيعاز من كسرى أو نتيجة لثورة قام بها أهل الحيرة، فذهب إلى البحرين وأسَّس دولة له في ربوعها، إلا أن سلطته كانت مقيدة من قبل رؤساء القبائل الذين حدُّوا من سلطانه، وظلَّ الوضع على ذلك حتى الفتح الإسلامي، حيث انتصر المسلمون عليه في معركة جواثا، فشتَّتوا قواته ودخلوا البحرين وقتلوه. وفي رواية أنه نجا من المعركة ولحق بالخط[(٤)] فهاجمه العلاء بن الحضرمي، فاحتلها وقتله. وفي رواية أخرى أنه لحق بمسيلمة وقُتل معه، ثم فتح خالد بن الوليد الحيرة صلحاً ما أثار غضب الملك الفارسي يزدجرد فعمل على استرجاعها، فعيَّن قابوس بن قابوس بن المنذر عليها وأغراه بحرب المسلمين ووعده بالمساندة لاستعادة مُلك آبائه، فسار قابوس إلى القادسية ونزل فيها، واصطدم بالمسلمين وقُتل[(٥)]، ولم نعد نسمع بعد ذلك عن المناذرة شيئاً، وهم الذين حكموا ما يقارب ستمائة واثنين وعشرين عاماً.

---

(١) الطبري: جـ٢ ص١٩٣، ١٩٤.
(٢) المصدر نفسه: ص٢١٣.
(٣) ابن خلدون: جـ٢ ص٢٦٨.
(٤) الخط: هو خط عُمَان، ومن قراه: القطيف والعُقَير وقطر. الحموي: جـ٢ ص٣٧٨.
(٥) البلاذري: فتوح البلدان: ص٩٤، ٩٥. الطبري: جـ٢ ص٢٦٨، ٢٦٩. الأصفهاني، حمزة: ص٨٧.

تعقيب على حكم اللخميين المناذرة

وصلت إمارة المناذرة إلى قدر من الاستقرار كان من نتائجه ذلك النشاط المعماري المتقدم، مثل قصر الخورنق وقصر السدير والدير الذي أقامته هند، أم عمرو بن هند، والحياة الثقافية في الحيرة، وحياة البذخ التي كان يمارسها رجال البلاط، وتوافد الشعراء والمغنين والموسيقيين، لكن ارتبط هذا الاستقرار دائماً بإرادة الدولة الفارسية الكبيرة التي كان منطلقها الأساسي هو مصلحتها تجاه الصراع الكبير بينها وبين الامبراطورية البيزنطية، ومدى ثقتها في ولاء الأمراء اللخميين تجاه هذا الهدف. لكن ظروفاً معينة، كالصراع الداخلي في فارس حول السلطة والذي كان ينشب بين حين وآخر، أتاح الفرصة لبعض أمراء المناذرة للتدخل، في مناسبة واحدة على الأقل، في تحديد الشخص الذي يلي العرش، كما حدث أيام المنذر بن النعمان الأول، إلا أن الوضع كان يتغير إذا شعر الأباطرة الفرس بشيء من الشك في ولاء الأمراء المناذرة، وقد حدث هذا بعد حكم النعمان بن المنذر أبي قابوس، إذ نجد أن الامبراطور الفارسي يُعين إياس بن قبيصة الطائي من خارج أسرة المناذرة، مقيماً فارسياً يمسِك بمقاليد الحكومة، ثم آزاذبه بن ماهان الهمذاني الفارسي، ما أدى إلى انقطاع حكم أسرة المناذرة ومن ثم الحكم العربي في الحيرة، وظل الأمر كذلك حتى الفتوح الإسلامية[١].

حضارة اللخميين المناذرة

نظام الحكم

كان نظام الحكم في الحيرة ملكياً، وقد تأثر بالنظم الفارسية، فكان الملك يضع التاج على رأسه رمزاً للملكية، ويتخذ الحجَّاب، وربما أقام ستارة تحجبه عن زواره فلا يظهر شخصياً إلا لأشدِّ المقربين إليه، وكانت تحيته الخاصة «أبيت اللعن». ويساعد الملك في إدارة الدولة الأرداف، وهم كالوزراء، فإذا ركب الملك يركب الرديف وراءه، وإذا جلس، جلس الرديف عن يمينه، وإذا شرب سقى الرديف بكأسه من بعده، وإذا غاب خلفه، وكانت الردافة مقصورة على بني يربوع، ولما أراد النعمان أبو قابوس تحويلها إلى الحارث الدارمي، ثار بنو يربوع عليه ما يدل على أهميتها. ويعمل في خدمة الدولة طبقة من الموظفين والكتَّاب، وقد دوَّنوا أخبار المناذرة في وثائق حُفظت في كنائس الحيرة وأديرتها، واطلع الإخباريون العرب عليها، أمثال هشام بن محمد الكلبي الذي استخرج أخبار العرب وأنساب آل

(١) يحيى: ص٣٥١، ٣٥٢.

نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتأريخ سنيهم؛ من بيع الحيرة، وفيها مُلكهم وأمورهم كلها[١].

الحركة العلمية

نشطت الحركة العلمية في الحيرة وازدهرت بفضل تشجيع ملوكها، وتعدَّدت فيها مدارس العلم، وتلقى عدد من كبار المفكرين واللاهوتيين والشعراء والأدباء دراساتهم العلمية فيها، نذكر منهم: إيليا الحيري، مؤسس دير مار إيليا في الموصل ومار عبدا الكبير، وتعلم المرقش الأكبر وأخوه حرملة الكتابة على أحد النصارى من أهلها[٢]، كما تعلم بشر بن عبد الملك الكندي، صاحب دومة الجندل، الخط العربي على يد أهلها أيضاً، وعن طريقه تعلم سفيان بن أمية بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة الكتابة[٣].

وكان الصبيان في الحيرة يتعلمون القراءة والكتابة في النقيرة، وهي إحدى قراها[٤]، والخط الحيري هو أساس الخط العربي، واشتق الخط الحيري من الخط الآرامي[٥]. وفي رواية أن ثلاثة نفر من طيء اجتمعوا ببقة، إحدى بلدات الحيرة، وهم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة، فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار، ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار[٦].

وبفعل موقع الحيرة بين العراق والشام وبلاد العرب، جرى احتكاك ثقافي بين أهلها وبين الشعوب المجاورة، فقد تأثر الحيريون بالثقافات الفارسية والسريانية واليونانية، وأخذوا عن شعوبها كثيراً من آدابهم وعلومهم.

كان حكام الحيرة يشجعون الشعراء والأدباء ويمنحونهم الهبات والعطايا، لذلك تردَّد كثير منهم على البلاط الحيري أمثال: المرقش الأكبر والمرقش الأصغر وعمرو بن قميئة والمتلمس وطرفة بن العبد والمنخل اليشكري والنابغة الذبياني وحسان بن ثابت وغيرهم، كما ظهر فيها عدد من الشعراء منهم عدي بن زيد العبادي وإياس بن قبيصة الطائي.

كانت الحيرة مركزاً علمياً هاماً وملتقى الأدباء العرب في الجاهلية، وكان النعمان بن المنذر يجتمع بهم في قصر الخورنق ويقيم مهرجاناً عربياً يتفاخر فيه

---

(١) الطبري: جـ١ ص٦٢٨.
(٢) الأصفهاني، أبو الفرج: جـ٦ ص١٣٠.
(٣) البلاذري: فتوح البلدان: ص٤٥٧.
(٤) الحموي: جـ٥ ص٣٠١.
(٥) عبادة، عبد الفتاح: انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم العربي: ص٩.
(٦) البلاذري: ص٤٥٦، ٤٥٧.

الجميع بالجنس العربي، وعندما قدم النعمان هذا على كسرى مرة، رأى عنده وفوداً من العرب والهند والصين يتذاكرون ملوكهم وبلادهم، فافتخر بالعرب وفضَّلهم على جميع الأمم، فأخذت كسرى العزة، فعدَّد مزايا قومه وغمط من حق العرب، فردَّ عليه النعمان معدداً مآثر العرب وفضائلهم حتى بُهت الملك الفارسي، وعندما عاد النعمان إلى الحيرة استدعى خطباء العرب وأدباءها، فأقبل منهم أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة والحارث بن عباد وغيرهم، فأخبرهم بما جرى، ثم أرسلهم إلى كسرى وكتب معهم كتاباً، فلما صاروا بمجلس كسرى خطب كل منهم خطبة آية في البلاغة «وألقوا من درر الكلام ما يزرى بالجمان ويصح أن تتخذ فصاحته منوالاً ينسج عليها»[(١)].

واشتهرت الحيرة بالعلوم الطبية، وظلت محافظة على هذه الشهرة حتى في العصر الإسلامي، فأنجبت حنين بن إسحاق، طبيب الخليفة العباسي المتوكل، وكان أبوه إسحاق صيدلانياً، وحدث أن كان المتوكل الليثي الشاعر في الحيرة، فأصابه رمد شديد فمر به قس نصراني فذره[(٢)] وعالجه[(٣)].

الحركة الاقتصادية

عمل أهل الحيرة بالزراعة والرعي، وهما حرفتان أملتهما طبيعة موقع المدينة في أرض السواد وعلى حافة الصحراء ما جعلها تجمع بين حياة البداوة وحياة الاستقرار، وكانت مزارع النخيل والبساتين تمتد في نواحيها من النجف حتى الفرات[(٤)].

واشتغل أهل الحيرة كذلك بالتجارة، والمعروف أن مدينة الحيرة نشأت كمحطة للطرق التجارية، وعليه كانت التجارة وخدمة القوافل العمل الرئيس والأساس الذي قام عليه اقتصاد اللخميين المناذرة، وأضحت الحيرة في القرن الأول قبل الميلاد المدينة الرئيس للقوافل وسوقاً عظيمة، فسيطرت على طرق غزة وبصرى ودمشق والأبلة، وأتاح قرب موقع الحيرة من الفرات لأهلها أن يركبوا السفن في الفرات حتى الأبلة، ثم يركبون السفن الكبيرة من هناك فيبحرون إلى الهند والصين شرقاً وإلى البحرين وعدن غرباً، «وكانت تتوارد على الحيرة، المتاجر العظام لأنها كانت من ظهر البرية على مرفأ سفن البحر من الصين والهند وغيرها»[(٥)].

وتخرج القوافل من الحيرة محملة ببضائع الهند والصين وعُمان والبحرين، إلى

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد: ج ٢ص٤ ـ ٢١، في رواية طويلة.
(٢) الذر: طرح الذرور في العين، وهو الكحل ونحوه.
(٣) الأصفهاني، أبو الفرج: ج١٢ ص١٦٦. (٤) سالم: ص٢٩٩، ٣٠٠.
(٥) البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز: معجم ما استعجم: ج٢ ص٤٧٨.

تدمر وحوران. وأثرى الحيريون من الحركة التجارية نتيجة تدفق الثروات عليهم، وتجلّى هذا المظهر بالترف الذي ساد البيوت، واللباس الفاخر.

وبلغت الصناعة في الحيرة درجة عالية من الاتقان حتى أنها أضحت تُنسب إلى الحيرة، وأهم الصناعات التي اشتهرت بها الحيرة: صناعة النسيج، وبخاصة الحرير والكتان والصوف، وكان قصر الخورنق يضم عدداً من القين والنساج، وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم:

إذ لا ترجى سليمى أن يكون لها ... من بالخورنق من قين ونساج[1]

واشتهرت الحيرة بصناعة الأسلحة من سيوف ونصال ورماح، واكتسبت السيوف الحيرية شهرة بين العرب، وكانت صناعة التحف المعدنية والحلى من أرقى الصناعات، وتفنَّن الصاغة في صناعة أدوات الزينة من ذهب وفضة ورصَّعوها بالجواهر واليواقيت[2]، وذاعت شهرة الخزف الحيري وصناعة الجلود والدباغة والتحف المصنوعة من العاج[3].

الحركة العمرانية

اشتهرت الحيرة، عاصمة اللخميين المناذرة، بقصورها وأديرتها، وتبارى الشعراء في وصف القصور وبخاصة الخورنق والسدير[4]. وقد تأثَّر الفن المعماري عند الحيريين بالفن المعماري الهيلليني والساساني، ولكن الحيريين طوَّروه بشكل أبعده عن أصوله الأولى، فأضحى فناً قائماً بذاته. وظل هذا الطراز الفني في بناء القصور معروفاً في العصر الإسلامي، فقد اتبع الخليفة العباسي المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٦١م)، في بناء قصوره، نظام البناء المعروف بالحيري والكمين والأورقة، ذلك أن بعض سمَّاره حدَّثه في بعض الليالي أن بعض ملوك الحيرة، من النعمانية، من بنى قصراً أحدث بنياناً في دار قراره، وهي الحيرة، على صورة الحرب وهيئتها[5]، للهجه بها وميله نحوها لئلا يغيب عنه ذكرها في سائر أحواله، فكان الرواق فيه مجلس الملك، وهو الصدر، والكمان ميمنة وميسرة، ويكون في البيتين اللذين هما الكمان من يقرب منه من خواصه، وفي اليمين منهما خزانة الكسوة، وفي الشمال ما احتيج إليه من الشراب، والرواق قد عمَّ فضاؤه الصدر، والكمين والأبواب الثلاثة على الرواق، فسمي هذا البنيان إلى هذا الوقت بالحيري والكمين، إضافة إلى الحيرة، واتبع الناس المتوكل في ذلك ائتماماً بفعله، واشتهر إلى الغاية[6].

---

(١) الأصفهاني، أبو الفرج: جـ١١ ص٥٩. (٢) غنيمة: ص٨٤، ٨٥.

(٣) سالم: ص٣٠١. (٤) انظر الفصل العاشر.

(٥) أي: على شكل ترتيب الجيوش في المعركة، قلب وميمنة وميسرة ومقدمة ومؤخرة.

(٦) المسعودي: جـ٤ ص٤، ٥.

وبنى الحيريون الكنائس والأديرة متأثرين بالفن المعماري الشائع في معابد آشور وبابل، وهي لم تكن مزودة بجنبات وإنما كانت تنتهي بفتحات مربعة الشكل، والجدران مكسوة بكسوة جصية نقشت فيها زخارف نباتية تتجلَّى فيها التقاليد البيزنطية والساسانية، وبعضها مدهون بالألوان الزاهية والأصباغ، ويتكرر فيها رمز الصليب محاط بدائرة، وهي تخلو من صور الإنسان والحيوان، لكن الحموي يذكر أن أهل المنذر كانوا يجعلون في حيطان دياراتهم الفسافس وفي سقوفها الذهب والصور[١]، نذكر منها:

- بيعة تُنسب إلى قوم من الأزد من بني عمرو بن مازن الغساني، وتُسمى بيعة مازن[٢].
- بيعة بني عدي بن الذميل من لخم[٣].
- كنيسة الباغوتة، وهي إحدى المراكز السبعة للعبادة عند العرب.
- دير اللج، بظاهر الحيرة، بناه النعمان بن المنذر أبو قابوس في أيام حكمه[٤].
- دير مارت مريم، بناه المنذر بنواحي الحيرة بين الخورنق والسدير وبين قصر أبي الخصيب، وكان مشرفاً على النجف[٥].
- دير هند الكبرى، بنته هند أم عمرو، وكتبت في صدره «بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الأملاك، وأُم الملك عمرو بن المنذر أمة المسيح وأُم عبده وبنت عبيده في مُلك مَلك الأملاك خسرو أنوشروان في زمن مار أفريم الأسقف، فالإله الذي بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها ويقبل بها وبقومها إلى إقامة الحق ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر»، ويقع هذا الدير بالقرب من دير اللج على طف نجف[٦].
- دير هند الصغرى، بنته هند ابنة النعمان بن المنذر، وأقامت فيه حتى ماتت ودفنت فيه[٧].
- دير الجماجم، يُنسب إلى إياد، وكانت بينهم وبين بهراء بن عمرو بن قضاعة وبين بني القين بن الحاف حرب، فقتل فيها من إياد خلق، فلما انقضت الوقعة دفنوا قتلاهم عند الدير، وكان الناس بعد ذلك يحفرون، فتخرج جماجم، فسمي دير الجماجم. وفي رواية أن مالك الرماح بن محرز الأيادي قتل قوماً من الفرس ونصب جماجمهم عند الدير، فسمي دير الجماجم[٨].

---

(١) معجم البلدان: جـ٢ ص٥٣٨.
(٢) البلاذري: ص٢٨٠.
(٣) المصدر نفسه: ص٢٨٣.
(٤) الحموي: جـ٢ ص٥٣٠.
(٥) المصدر نفسه: ص٥٣١.
(٦) المصدر نفسه: ص٥٤٢.
(٧) المصدر نفسه: ص٥٤١.
(٨) البلاذري: ص٢٨٢.

ووُصفت الحيرة بالبيضاء تعبيراً عن حسن عمارتها، ووضوح اللون على سائر أبنيتها، كما وُصفت بالامتداد والاتساع، فقالوا الحيرة الروحاء[1].

الجيش

اهتم اللخميون المناذرة بقواتهم العسكرية وتنمية قدراتهم القتالية، بهدف حماية مكتسباتهم التجارية، والتوسع على حساب جيرانهم، وردِّ الاعتداءات الخارجية. واشتهرت خمس فرق عسكرية أدَّت دوراً بارزاً على الساحة العسكرية هي[2]: الشهباء، أي القوية والشديدة والكثيرة السلاح، وقوامها ألف جندي من الفرس[3]. الدوسر، نظموها على نسق تنظيم الجيش الفارسي، وكانت لتنوخ، ولها قائدان، وتكوَّنت في عهد أبي قابوس من إخوته وبني عمه وأتباعهم وأعوانهم[4].

الرهائن، قوامها خمسمائة جندي يقيمون على باب الملك مدة سنة ثم يُستبدلون بخمسمائة آخرين من قبائل العرب في فصل الربيع، وينصرف أولئك إلى أحيائهم، فكان الملك يغزو بهم ويوجههم.

الصنائع، هم بنو قيس وبنو تيم اللات، وكانوا خواص الملك لا يبرحون بابه، فهم بمثابة الحرس الملكي.

الوضائع، قوامها ألف جندي من الفرس، وضعهم ملك فارس في الحيرة لمساعدة ملوك العرب عند الحاجة، وكانوا يرابطون مدة سنة ثم ينصرفون ويحل محلهم ألف آخرون[5].

الدين

عبد اللخميون المناذرة، في بداية حياتهم السياسية، الأصنام، فهم وثنيون. فقد رُوي أن جذيمة الأبرش قد تكهَّن، وكان له صنمان يُقال لهما الضيزنان[6]، وقد ظل هذان الصنمان حتى أيام المنذر بن ماء السماء الذي نقلهما إلى الحيرة وأقامهما على بابها لينحني لهما الداخلون إلى المدينة، كما ذكرنا، وكان الحيريون يحلفون بسد، وهو صنم كان في الحيرة[7]. وعبد أهل الحيرة العزى واللات ومحرق.

وحاول قباذ نشر المزدكية في الحيرة، فقاومه المنذر، فعزله عن الملك وعيَّن الحارث الكندي مكانه، وقد أبدى هذا استعداده لمساعدته على نشرها بين أهل

---

(١) الحموي: جـ٢ ص٣٢٨.
(٢) الميداني: جـ١ ص١١٨، ١١٩.
(٣) الطبري: جـ٢ ص٦٧.
(٤) المصدر نفسه: ص١١٨.
(٥) المصدر نفسه: جـ٢ ص٦٧.
(٦) المصدر نفسه: جـ١ ص٦١٤.
(٧) الأصفهاني، أبو الفرج: جـ٢ ص١٠٤.

الحيرة، ولكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ إن كسرى أنوشروان، الذي خلف قباذ، اضطهد المزدكية وأعاد المنذر إلى العرش، ومن المحتمل أن الزرادشتية كانت منتشرة في الحيرة وبخاصة بين الجالية الفارسية وربما دان بعض الحيريين بها.

لكن الواضح أن أهم الديانات التي انتشرت في الحيرة هي النصرانية، وذلك على يد مبشرين من تلاميذ المسيح، وأول من تنصَّر من الملوك اللخميين المناذرة امرؤ القيس بن عمرو بن عدي ثم المنذر بن ماء السماء الذي تزوج من هند وهي نصرانية، ثم النعمان بن المنذر أبو قابوس، ويبدو ان النصرانية لم تتجذَّر آنذاك في التربة الحيرية، فعندما مات عمرو بن هند، مُضرِّت الحجارة، عاد خليفته قابوس أو المنذر بن المنذر إلى الوثنية ونشأ ابنه النعمان عليها فكان يذبح للأصنام حتى تنصَّر أخيراً على يد الجاثليق صبر يشوع، وفي رواية أنه تنصَّر على يد عدي بن زيد كما ذكرنا.

ومن مظاهر انتشار النصرانية في الحيرة كثرة الأديرة التي زادت على العشرين ديراً خُصِّص بعضها مراكز للتعليم الديني، فتخرج منها عدد من رجال الدين النصراني الذين تبوَّأوا مكانة بارزة في تاريخ الكنيسة، وقد ترجموا عدداً من الكتب الفلسفية والدينية إلى اللغة السريانية التي كانت شائعة عندهم، وعندما بدأت حركة الترجمة في العصر العباسي الأول ساهم سريان الحيرة بنقل مئات الكتب، حتى إن حنين بن إسحاق عرَّب أكثر من مائة كتاب في مختلف العلوم. وهكذا كان لهذه المدينة المقام الأول في نقل تراث الفكر اليوناني إلى العرب وفي جعل اللغة العربية أداة للتعبير عن الفلسفة والعلوم[١].

---

(١) العلي: ص١٢٦.

مملكة الغساسنة

أصل الغساسنة

يرجع أصل الغساسنة إلى أزد اليمن، هاجروا من جنوبي الجزيرة العربية إلى بادية الشام قبل أو بعد حادثة سيل العرم، بفعل تصدع سد مأرب أو تهدمه، وقد سبَّب ذلك تدهور نظم الزراعة والري، ونقص الإنتاج.

سارت قبيلة غسان في بادئ الأمر إلى تهامة بين بلاد الأشعريين وعك، ونزلت على ماء يقال له غسان، فنسبت إليه، وكانت بزعامة عمرو بن عامر مزيقياء[١]، ثم انتقلت إلى بلاد الشام[٢]، ونزلت في حوران والجولان وغوطة دمشق وأعمالها، ونزل قسم منها في الأردن من أرض الشام[٣].

ويُعرف الغساسنة أيضاً بآل جفنة وبأولاد جفنة، وذلك لانتسابهم إلى جفنة بن عمرو مزيقياء وهو أول ملوكهم، ويُنسب الحارث الأول الغساني أحد أمرائهم إلى جفنة، ويدعى الحارث الجفني، وكذلك يُسمون بآل ثعلبة نسبة إلى جدهم ثعلبة بن مازن[٤].

ظروف قيام مملكة الغساسنة

اتسمت الأوضاع السياسية والعسكرية في بلاد الشام، في أواخر القرن الخامس الميلادي، بالفوضى وعدم وضوح الرؤية، إذ خلت بادية الشام، بين حوران والفرات وعلى امتداد خمسمائة كيلومتر، من أي وجود عسكري بيزنطي، وتخلَّى البيزنطيون عن

---

(١) هو عمرو بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث، وإنما سمي مزيقياء إما لأنه كان يُمزِّق كل يوم من سني ملكه حلتين لئلا يلبسهما غيره، أو لأن الأزد تمزقت خلال عهده كل ممزق عند هربهم من سيل العرم. المسعودي: جـ٢ ص٨٣. الأصفهاني، حمزة: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء: ص٧٧. نولدكه، تيودور: أمراء غسان: ص٣.

(٢) يرجع سبب انتقال قبيلة غسان من تهامة إلى بلاد الشام إلى ما جرى من قتل ثعلبة بن عمرو مزيقياء، ملك عك. ابن خلدون: جـ٢ ص٢٧٨.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٧٩.

(٤) نولدكه: ص٤.

الحزام الممتد بين دمشق وتدمر، ولم تعد هذه الأخيرة سوى تجمع بشري يتحصَّن خلف الأسوار درءاً لهجمات البدو، وخلت المواقع التي كانت قبل قرن تحرس الحدود، على طول نهر الفرات حتى قصر الحير، من الجند، وتراجعت الحدود البيزنطية إلى مثلث الرقة ـ سورة ـ الرصافة، وضعف خط الخابور وتخلَّى عنه البيزنطيون، وتراجعت خطوط الدفاع البيزنطية إلى الشمال الغربي، فامتدت من قلعة المضيق شمال غربي حماة إلى باشان فسروج، ودعمها خط ثان يمر بالرها وآمد وسميساط، ومع ذلك لم يكن الدفاع عن هذه المنطقة محكماً، فعلى امتداد ثلاثمائة كيلومتر بين النهرين، لم يكن البيزنطيون ولا الفرس يعرفون الحدود تماماً، بل كانوا يقيمون في أماكن متفرقة بمبان يسكنها بعض البدو فيسمونها خطاً دفاعياً[1].

ووصل بنو غسان في هذه الظروف السياسية والعسكرية إلى بلاد الشام في عام (٤٩٠م) تقريباً قادمين من الجزيرة العربية بقيادة جفنة بن عمرو مزيقياء. كان يسكن هذه البلاد قوم يُعرفون بالضجاعمة من قبائل بني سليح من قضاعة، وهم وكلاء البيزنطيين، يجبون لهم من نزل بساحتهم من مضر وغيرها، وقبلت غسان أن تدفع الخراج لسليح، ويبدو أنها شعرت بعد ذلك بضعف سليح، فأرادت التوقف عن الدفع، وما حدث بعد ذلك من قتل جذع بن عمرو الغساني لجابي سليح؛ أن نشبت الحرب بين الطرفين في مكان يُقال له المخفَّف، فانتصرت غسان وأبادت سليح، وحلَّت محلها في المكان والوظيفة. فقد عيَّن الامبراطور البيزنطي أنستاسيوس (٤٩١ ـ ٥١٨م) بني غسان وكلاء للبيزنطيين مكان سليح، وكتب بينه وبينهم كتاباً فيما يشبه الحلف العسكري في عام (٥٠٢م)[2]، وعلى هذا الشكل قامت مملكة الغساسنة.

والواقع أن ثورة الغساسنة على حكم سليح في عام (٤٩٧م) وهجمات القبائل العربية على فلسطين، يشبه الثورة العامة في المنطقة في الوقت الذي كان ملوك الحيرة المناذرة يشنون الغارات على منطقة الفرات السورية. ولم يكن الغساسنة وحدهم يقودون القبائل العربية في جنوبي بلاد الشام، فقد تعرَّضت الأراضي البيزنطية في جزيرة يوتابه وفلسطين وفينيقيا وسوريا لهجمات قبائل عربية كندية في عام (٥٠١م)، من دون أن تملك بيزنطية وسيلة للرد، هذا في الوقت الذي كان الفرس يستعدون لتنفيذ هجوم كبير ضد أراضي ما بين النهرين، لذلك لم يكن أمام الامبراطور البيزنطي إلا أن يتفاهم مع صاحبي السلطان الحقيقيين في جنوبي بلاد الشام، الحارث بن عمرو الكندي وزعيم الغساسنة[3]، فأقرَّ الأول عاملاً لبيزنطية

---

(١) سحاب: ص١٠٢. Devreesse: pp270, 272, 273. (٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه: ص١٠٣، ١٠٤. Devreesse: p274. Smith. p443.

على جنوبي فلسطين ومناطق سيناء، وعقد مع الثاني الحلف العسكري الذي ذكرناه، ولا بد أن يكون العامل التجاري هو الذي دفع بيزنطية إلى عقد هذه الأحلاف تحسباً لتوقف التجارة الآتية من الفرات[١].

أشهر ملوك بني غسان وإنجازاتهم

الملوك الأوائل

اختلف الرواة العرب حول عدد ملوك الغساسنة الذين تولوا الحكم ومدة حكم كل منهم. ففي قائمة الدينوري أحد عشر ملكاً[٢]، كما هي الحال عند المسعودي[٣]، وفي قائمة الأصفهاني اثنان وثلاثون ملكاً أو أميراً[٤]، ويتفق أبو الفداء مع الأصفهاني من حيث العدد والترتيب ولكنه يخالفه في مجمل سني حكمهم[٥]، والواضح أن سبب الاختلاف مرده أن عدداً من ملوكهم قد حكموا متعاصرين وبخاصة الإخوة منهم، ولا تورد المصادر البيزنطية سوى أسماء الذين تعاملوا مع البيزنطيين.

ولا شك بأن جفنة بن عمرو مزيقياء هو أول من ملك من بني غسان، فهو الذي قادهم ضد بني سليح الضجاعمة وضد البيزنطيين، وقد ملَّكه الامبراطور البيزنطي أنستاسيوس كما ذكرنا.

تولى بعد جفنة أولاده وأحفاده، نذكر منهم:

ابنه عمرو، الذي أقام عدداً من الأديرة منها: دير حالي ودير أيوب ودير هند، وخلفه ابنه ثعلبة بن عمرو، وهو الذي بنى صرح الغدير في أطراف حوران مما يلي البلقاء، وجاء بعده ابنه الحارث بن ثعلبة، ثم ملك ابنه جبلة بن الحارث، الذي بنى القناطر والأدراج والقسطل، وخلفه ابنه الحارث بن جبلة[٦].

كانت الأوضاع السياسية والعسكرية خلال عهد هؤلاء مضطربة، ففي أواخر صيف عام (٥٠٢م) هاجم قباذ ملك فارس والنعمان الثاني بن أسود ملك الحيرة الجزيرة الفراتية وشمالي سوريا، فحاصر قباذ آمد وتوغل النعمان إلى حران وتوجَّه صوب الرها، واضطرت الجيوش البيزنطية نتيجة الضغط العسكري إلى الانسحاب من أمام الجيوش الفارسية والعربية، وسقطت آمد في (كانون الثاني ٥٠٣م) وافتقدت

(١) سحاب: ص١٠٣، ١٠٤.
(٢) المعارف: ص٣٥٥ ـ ٣٥٧.
(٣) مروج الذهب: جـ٢ ص٨٣ ـ ٨٥.
(٤) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء: ص٩٠ ـ ٩٦.
(٥) المختصر في أخبار البشر: جـ١ ص١١٩ ـ ١٢١.
(٦) الأصفهاني، حمزة: ص٩٠، ٩١.

نفسها بالمال[١].

لم يقف الحليفان البيزنطي والغساني موقف المتفرج تجاه هذا الهجوم الفارسي - الحيري، ففي صيف تلك السنة ردَّ المقاتلون الغسانيون عرب الحيرة المناذرة عن منطقة الخابور، وواصلوا هجومهم حتى وصلوا إلى الحيرة نفسها، ولما حاول النعمان مهاجمة الرها من جديد أصيب بجرح توفي من أثره، فعيَّن قباذ أبا يعفر بن علقمة خليفة له من خارج الأسرة اللخمية، فحاصر الرها في (أيلول ٥٠٤م)، فنهض البيزنطيون للدفاع عنها وأجبروا قباذ على قبول الصلح، وفي الوقت الذي كان فيه الطرفان يتباحثان في شروطه، كان الغساسنة والمناذرة يواصلون القتال[٢].

الحارث بن جبلة (٥٢٨ - ٥٦٩م)

هو أحد ملوك الغساسنة الكبار وأول أمراء الغساسنة العظام، كان عاملاً للبيزنطيين وعاصر الأباطرة جستنيان الأول البيزنطي وقباذ وكسرى أنوشروان، وقد منحه الامبراطور البيزنطي لقب فيلارك أو بطريق بعد انتصاره على المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة في عام (٥٢٨م)، وقمع ثورة السامريين في فلسطين في عام (٥٢٩م) وأقرَّ سلطته على القبائل العربية في أطراف بلاد الشام، وقد هدف إلى استغلال قدراته العسكرية للوقوف في وجه المنذر بن ماء السماء اللخمي، وكان لقب بطريق من أسمى الألقاب البيزنطية، وقد تحدثنا في الفصل السابق عن الحروب التي نشبت بين الرجلين والتي انتهت بمقتل المنذر.

لم تكن علاقة الحارث بن جبلة ببيزنطية علاقة تبعية بالمطلق، فقد تمتع بقدر من الاستقلال الذاتي، فنجد على سبيل المثال أنه اشترك في الحملة البيزنطية التي قادها بلزاريوس في عام (٥٤١م) ضد الفرس، غير أنه لم يكد يعبر دجلة حتى انسحب من الحملة، ويبدو أنه أقدم على ذلك إما بسبب خلاف حصل بينه وبين قائد الحملة أو أنه أراد الانفراد بالقيادة، والراجح أنه انسحب أنفة من الاشتراك في حملة يقودها قائد بيزنطي بدليل أنه لم يكد يمضي ثلاثة أعوام على حملة بلزاريوس حتى اشتبك في قتال عنيف مع المنذر بن ماء السماء اللخمي.

ولما تقدمت السن بالحارث رأى أن يُعيِّن أحد أولاده خلفاً له، لكنه فضَّل استخراج رأي الامبراطور البيزنطي جستنيان الأول، كما أراد أن يقف على توجهاته بشأن العلاقة مع عمرو بن هند ملك الحيرة الذي خلف والده المنذر، فذهب إلى

---

(١) سحاب: ص١٠٤.

(٢) المرجع نفسه. Devreesse: pp275, 276.

القسطنطينية في عام (٥٦٣م)، وقد بهرته مظاهر الحضارة والبذخ في عاصمة البيزنطيين، وأحدثت في نفسه أثراً كبيراً، كما أنه أحدث بدوره تأثيراً قوياً في سكان العاصمة[(١)]، غير أنه لم يُستقبل استقبال المنتصرين، ويبدو أن لذلك علاقة باعتقاده المونوفيزيتي، أي مذهب الطبيعة الواحدة المناهض لمذهب الدولة الرسمي، وتولى الدفاع عن المونوفيزيتيين لتحريرهم من اضطهاد البيزنطيين[(٢)]، وسعى لدى هؤلاء إلى تعيين يعقوب البرادعي، مؤسس الكنيسة السورية اليعقوبية، ورفيقه ثيودورس أسقفين في المقاطعات العربية في سوريا[(٣)]، كما سعى إلى توطيد هذا المذهب بين عرب الشام بعامة والغساسنة بخاصة، كشكل من أشكال الرد على سياسة حكام بيزنطية تجاه الغساسنة، وكمحاولة احتجاج على إخضاعهم وفرض إرادتهم وهيمنتهم على سوريا.

والواقع أن اعتناق الحارث المذهب المونوفيزيتي ودفاعه عنه ومحاولته نشره في سوريا كان السبب الرئيس والمباشر في نظرة الشك التي كان ينظر إليه بها الامبراطور البيزنطي، واستغل بطارقة القسطنطينية هذه الفرصة لإثارة المشاعر هناك حول أمير مونوفيزيتي[(٤)].

توفي الحارث في أواخر عام (٥٦٩م) بعد أن حكم مدة أربعين سنة تقريباً، ويشغل مكانة كبيرة في نفوس العرب.

المنذر الأكبر بن الحارث بن جبلة[(٥)] (٥٧٠ ـ ٥٨١م)

خلف المنذر أباه الحارث، استهل حكمه بالحرب مع ملك الحيرة قابوس فانتصر عليه في ٢٠ أيار (٥٧٨م)[(٦)]، ويبدو أن البيزنطيين كانوا يعارضون هذا التوجه العسكري في المنطقة ويعملون على لجم العرب تنفيذاً لبنود المعاهدة المعقودة مع الفرس في عام (٥٦١م)، كما أنهم لم يستحسنوا تطرفه في تأييد المذهب اليعقوبي[(٧)]،

---

(١) بلغ من شهرته في الشجاعة وشدة البأس أن كانت النساء البيزنطيات يخوِّفن أولادهن باسمه وبخاصة جستين ابن أخي الامبراطور، الذي كان مضطرب العقل، ولما تسلم مقاليد الحكم كان أهل البلاد يخوِّفونه بالحارث بن جبلة كلما أساء التصرف.

(٢) انظر فيما يتعلق بالانشقاقات الدينية والمذهبية، وبخاصة المونوفيزيتية: كرديه، لويس وجورج قنواتي: فلسفة الفكر الديني: جـ٢ ص٣١٦ ـ ٣٤٢.

(٣) نولدكه: ص٢٠، ٢١. (٤) المرجع نفسه: ص٢٢.

(٥) يذكر حمزة الأصفهاني أنه لُقِّب بالمنذر الأكبر تمييزاً له عن أخيه المنذر الأصغر. تاريخ سني الملوك والأنبياء: ص٩١.

(٦) نولدكه: ص٢٥. ويجعل نولدكه السنة ٥٧٠م.

(٧) Devreesse: pp295 - 297.

فتوقفوا عن دفع المال الذي كانوا يقدمونه للغساسنة ما سبَّب القطيعة بين المنذر وجستين الثاني (٥٦٥ ـ ٥٧٨م)، وكان المنذر بحاجة إلى هذه المساعدة المادية ليتمكن من إعداد جيش قوي ومنظم يستطيع الوقوف به في وجه المناذرة اللخميين والفرس، ثم دبَّر البيزنطيون مؤامرة لاغتياله، فقد أمر جستين الثاني عامله البطريق مرقيانوس وكان معسكراً في نصيبين، بأن يحتال عليه ليقتله، وعندما علم بذلك، غادر إلى البادية، فاستغل المناذرة هذه الفرصة وهاجموا بلاد الشام، ما دفع البيزنطيين إلى مراسلته والتودد إليه لاسترضائه، وأرسلوا إليه البطريق جستنيان، اجتمع به في مدينة الرصافة وأقنعه بالعودة إلى التعاون، وذلك في صيف (٥٧٨م)، فعاد المنذر إلى بلاده ليقوم بالدفاع عن بلاد الشام[١].

وزار المنذر القسطنطينية في ٨ شباط عام (٥٨٠م) مصطبحاً معه اثنين من أبنائه، فلما وصل إليها استقبله الامبراطور طيباريوس (٥٧٨ ـ ٥٨٢م) بكل مظاهر الاحترام والتبجيل، وأنعم عليه بالتاج، ولم يكن البيزنطيون ينعمون من قبل على عمالهم العرب إلا بالإكليل وهو أدنى من التاج، وأغدق عليه الامبراطور الهدايا النفيسة مما لم ينعم به أي ملك عربي من قبل، كما أنعم على ولديه بدرجات عسكرية. واغتنم المنذر وجوده في العاصمة البيزنطية، فسعى للحصول على العفو عن أصحاب مذهبه المونوفيزيتي، وعمل على توطيد السلام مع البيزنطيين[٢]، إلا أنه واجه معارضة شرسة من رجال الدين الذين أخذوا يحرضون الامبراطور عليه، وساعدهم في هذه المهمة بعض كبار رجال الدولة المتزمتين.

وما جرى بعد عودة المنذر من القسطنطينية من هجوم مشترك قام به مع موريس حاكم بلاد الشام ضد الفرس، ثم فشل الحملة الذي عُزي إلى خيانة المنذر ما زاد من إيغار صدور البيزنطيين عليه. والواقع أن موريس وجد الجسر الكبير المنصوب على نهر الفرات مهدماً، فاضطر إلى التراجع خائباً، واتهم المنذر بالتواطؤ مع الفرس، وأنه هو الذي هدم الجسر لتفشيل الحملة، وقرَّر القبض عليه انتقاماً.

ويبدو أن المنذر أراد أن يُثبت حسن نيته تجاه حلفائه البيزنطيين فهاجم الحيرة وألحق بها أذى كبيراً من دون التنسيق معهم، فعدَّ هؤلاء ذلك تحدياً لهم، ورغبة المنذر في الخروج على طاعتهم، ما زاد في تصميمهم على الانتقام منه بقتله، فأصدر الامبراطور أمراً سرياً إلى ماغنوس، حاكم بلاد الشام وصديق المنذر، بالعمل على قتله.

---

(١) نولدكه: ص٢٦.

(٢) المرجع نفسه: ص٢٧. مجلة المشرق، السنة ٣٤، جا ص٦٤، عام ١٩٣٦م.

وصادف آنذاك أن انتهى البيزنطيون من بناء كنيسة في حوران، وقد عزم ماغنوس على تدشينها فدعا صديقه المنذر إلى الاحتفال بذلك، فلما حضر ألقى القبض عليه وأرسله مكبلاً إلى القسطنطينية حيث وُضع في الإقامة الجبرية، ولما انتقل العرش إلى موريس (٥٨٢ ـ ٦٠٢م)، وكان يكره المنذر ويعاديه، أمر بنفيه إلى صقلية، وقطع المساعدة السنوية التي كان البيزنطيون يقدمونها إلى الغساسنة، وقضى المنذر نحبه في منفاه[١].

تصدع مملكة الغساسنة وزوالها

أثار الإجراء البيزنطي ثائرة أبناء المنذر فشقوا عصا الطاعة على الدولة البيزنطية، فتركوا ديارهم وتحصَّنوا في البادية، واتخذوها مركز انطلاق لشن الغارات على المناطق البيزنطية بقيادة النعمان، وهو الأخ الأكبر[٢]، فتعرَّضت بصرى لغاراتهم، وكانت أكبر قاعدة عسكرية بيزنطية في جنوبي بلاد الشام، واستولوا على حوران، ما دفع الامبراطور موريس إلى أن يأمر ماغنوس بتجهيز حملة لتأديبهم، وألحق بالحملة ابناً آخر للمنذر كان قد أعدَّه ليتولى مقام أبيه غير أنه توفي بعد أيام.

ويبدو أن ماغنوس صادف صعوبة في حرب أبناء المنذر في البادية، وحتى يتجنب كارثة محققة عمد إلى الحيلة للقضاء عليهم، فأرسل إلى النعمان أنه يريد مقابلته للاتفاق معه على شروطٍ للصلح، وقد ظنَّ النعمان أن القائد البيزنطي صادق في دعوته، فذهب لمقابلته، وما إن وصل حتى ألقى القبض عليه وأرسله مكبَّلاً إلى القسطنطينية حيث حُجر عليه[٣].

تصدَّعت إمارة الغساسنة على أثر هذه الأحداث وتفكَّكت عرى وحدتها، واختارت كل قبيلة أميراً عليها، ولا شك بأن هؤلاء كانوا من المشايخ الذين تقلَّصت سلطتهم في ظل وحدة الإمارة وبخاصة أيام الحارث وابنه المنذر، وراحت هذه القبائل تتطاحن فيما بينها من أجل الحصول على السيادة والرئاسة، كما راحت تغير على المناطق المتحضرة في سوريا وتعيث فساداً في المناطق المعمورة، فشكلت خطراً جدياً على الوجود البيزنطي. وزاد الغزو الفارسي لسوريا في عامي (٦١٣ ـ ٦١٤م) وضع الغساسنة سوءاً وتعقيداً بما أدى إليه من تشرذم هذه القبائل وتفرقها أيدي سبأ، فارتحل قسم منها إلى الصحراء، ولحق بعضها ببلاد فارس وهاجر بعضها الآخر إلى كبادوكيا في آسيا الصغرى للاحتماء بالبيزنطيين، وبدَّل هؤلاء مذهبهم الديني، وتحوَّلوا إلى مذهب الطبيعتين، وهو المذهب الرسمي للدولة البيزنطية.

---

(١) نولدكه: ص٣٠.

(٢) في رواية لحمزة الأصفهاني أن النعمان شقيق المنذر. تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء: ص٩١.

(٣) نولدكه: ص٢٢، ٢٣.

دفعت هذه المتغيرات السياسية والعسكرية البيزنطيين إلى تعيين أمير غساني جديد بدلاً من المنذر ليقوم بضبط الوضع، وإعادة الأمن إلى نصابه وحماية الحدود من هجمات الفرس وحلفائهم الحيريين.

وتختلف المصادر في ذكر أسماء أمراء غسان بعد المنذر، ومدد حكم كل منهم، اختلافاً كبيراً، لكن مما لا شك فيه أن الذين تولوا إمارة الغساسنة بعد المنذر كانوا ضعافاً وأن مُدد حكمهم كانت قصيرة.

استمر الاحتلال الفارسي لبلاد الشام حتى عام (٦٢٩م) عندما تمكَّن الامبراطور هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م) من طرد الفرس من هذه البلاد، والراجح أنه عيَّن أحد أمراء غسان أميراً على الغساسنة بدليل أن هؤلاء اشتركوا مع البيزنطيين في محاربة المسلمين، وأن خالد بن الوليد هزمهم في عام (٦٣٣م) في دومة الجندل، وكان جبلة بن الأيهم ملكاً عليهم، كما انتصر عليهم في عام (٦٣٤م) في مرج راهط بنواحي دمشق، فسبى منهم وقتل بعض رجالهم، ونشر راية الإسلام في ثنية العقاب بدمشق وفي غوطتها في القرى المجاورة[١].

وتشير المصادر العربية إلى اسم غساني هو الحارث بن أبي شمر أمير دمشق، الذي أرسل إليه الرسول ﷺ في عام (٦٢٧م) شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة ليطلب منه الدخول في الإسلام، وكان يحمل إليه كتاباً منه[٢].

وكان جبلة بن الأيهم آخر أمراء الغساسنة، فهو الذي أسلم وارتد عن دينه خوف العار والقود من اللطمة[٣]، «ذلك أنه أسلم في عهد عمر بن الخطاب ثم تنصر بعد ذلك، وأن سبب ارتداده أنه مر في سوق دمشق، فوطئ رجلاً من مزينة فوثب الرجل فلطمه، فأخذه الغسانيون فأدخلوه على عبيدة بن الجراح فقالوا: هذا لطم سيدنا. فقال أبو عبيدة بن الجراح: البينة أن هذا لطمك. قال: وما تصنع بالبينة؟ قال: إن كان لطمك لطمته بلطمتك. قال: ولا يُقتل؟ قال: لا. . قال: تقطع يده؟ قال: لا إنما أمر الله بالقصاص، فهي لطمة بلطمة. فخرج جبلة ولحق بأرض الروم وتنصر ولم يزل هناك إلى أن هلك». وفي رواية أنه لطم رجلاً من مزينة داس على ردائه، فأمر عمر بن الخطاب بالاقتصاص منه، فقال: «أوَعينه مثل عيني، والله لا أقيم ببلد علي به سلطان». فدخل بلاد الروم مرتداً[٤].

---

(١) البلاذري: ص١١٩. الطبري: جـ٣ ص٣٧٨، ٣٧٩.

(٢) الطبري: جـ٢ ص٦٥٢. (٣) المسعودي: جـ٢ ص٨٥.

(٤) البلاذري: ص١٤٢. طبقات ابن سعد: جـ١ ص٢٦٥. ويذكر ابن سعد أنه أسلم في عهد الرسول ﷺ وأهدى له هدية، ولم يزل مسلماً حتى كان في زمان عمر بن الخطاب، =

حضارة الغساسنة

العمران

امتدت سلطة الغساسنة خلال حياتهم السياسية على كل القبائل البدوية الضاربة في فلسطين ومنطقة شرقي الأردن وأطراف بلاد الشام، وقد اعتمدوا على هذه القبائل في حروبهم، إلا أنهم افتقروا إلى القواعد العسكرية المحصنة مثل دمشق وبصرى وتدمر.

كانت الجابية بالجولان قاعدة ملكهم وهي معسكرهم ومقرهم، لذلك عُرفت بجابية الملوك.

وعلى الرغم من أن المؤرخين البيزنطيين والسريان يذكرون «معسكر الغساسنة» إلا أنه ليس هناك دليل على أن معسكرهم هذا أضحى مدينة كالحيرة، إذ كانوا يتنقلون أحياناً، وقد اتخذوا جلَّق عاصمة لهم أمداً من الوقت[١].

لكن الغساسنة شادوا كثيراً من القصور والأديرة وأنشأوا المدن والقرى، وبنوا القناطر، وأصلحوا الصهاريج، وقد تأثر فن البناء عندهم، في الغالب، بالفن الساساني، كقصر المشتى وكذلك بعض الآثار الأخرى الواقعة في البادية[٢].

النشاط الاقتصادي

اهتم الغساسنة بتنمية الزراعة التي كانت العمل الرئيس لغالبية السكان، فاستغلوا موارد المياه في حوران والجولان، وأنشأوا الأقنية والقناطر فعمرت القرى والضياع، كما اهتموا بتنشيط التجارة، وغدت بصرى، قصبة حوران، مركزاً تجارياً ومحطة هامة للقوافل وسوقاً نشطة للبيع والشراء.

والمعروف أن النشاط التجاري في جنوبي بلاد الشام قد انتقل إلى هذه المدينة عقب سقوط دولة الأنباط على أيدي الرومان عام (١٠٦م)، فورثت البتراء اقتصادياً وسياسياً[٣].

= والمعروف أنه اشترك في معركة اليرموك حليفاً للبيزنطيين ضد المسلمين.

(١) العلي: ص١٠٨.

(٢) علي: ج٣ ص٤٤١.

(٣) دلو: ج٢ ص٣٣٥.

الفصل الثامن عشر

مكة

أهمية مكة

كان لحواضر الحجاز، قبيل ظهور الدعوة الإسلامية، دور بارز في الجزيرة العربية يتمثل في المركز الديني والتجاري الذي تبوأته، وبخاصة مكة، وفي المكانة التجارية التي بلغتها قريش والتي مهدت لها الطريق لتتولى زعامة عرب الحجاز السياسية في المرحلة التاريخية التي سبقت ظهور الإسلام. ومن أبرز حواضر الحجاز مكة، يثرب والطائف، وسنقصر بحثنا على مكة نظراً لأهميتها المتفردة كمركز الثقل في الجزيرة العربية قبل الإسلام وفي عصر الرسالة.

والواقع أن الحجاز بعامة ومكة بخاصة تشكل منطقة ذات خصوصية متميزة بوصفها قاعدة الانطلاق التاريخي لحركة التطور في بلاد العرب، إذ في هذا الموقع، كان يتحرك التاريخ الجديد والذي كان يتغذى من جانبي العالم المتحضر آنذاك، فارس وبيزنطية. وكان الحجاز، ومكة نقطة المركز منه، ملتقى أكبر الطرق التجارية العالمية حاملة إليها مكتسبات التاريخ البشري الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية حتى ذلك الوقت، والتي كانت تصب في قلب المجتمع الجاهلي عبر هذه الصلات التجارية، كالمعارف العلمية، والمهارات الحرفية، والأفكار والعقائد المتنوعة، وكثير من العادات الحضرية التي كان يمارسها زعماء القبائل وكبار تجار قريش، واستخدام المقتنيات المنزلية النفيسة وغيرها. وكانت هذه المؤشرات الخارجية تتفاعل مع المؤشرات الداخلية لتحدد مسار تطور المجتمع العربي في العصر الجاهلي القريب من ظهور الإسلام، وتُعد مكة نموذجاً حياً بما حوته من نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية والتي عرفتها تلك المدن.

ولمكة أهمية كبيرة في التاريخ الإسلامي، ففيها وُلد النبي محمد ﷺ وعاش، وبلّغ رسالته طيلة ثلاثة عشر عاماً، وكان لأوضاعها الدينية والاجتماعية الأثر الواضح في تكوين آرائه ومعتقداته، فقد أقرَّ الإسلام بعضها، وعدَّل بعضاً، وهاجم الكثير مما كان سائداً فيها من معتقدات وأوضاع، ويُعد الوقوف على أوضاعها ضرورة لاستيعاب الأساس الذي قام عليه الإسلام.

المدلول الاصطلاحي لكلمة مكة

تعدَّدت الروايات حول اشتقاق اسم مكة، إلا أنها تتمحور حول قدمها الزمني وقدسيتها، نذكر منها:

ـ اسم مكة قديم في المدى الزمني وأصله بابلي، مشتق من كلمة مكا وتعني البيت العتيق، وهو اسم الكعبة عند العرب، يدل ذلك على قدم هذه المدينة(١).

ـ إن أصل اسم مكة مشتق من مكرب أو مقرب الكلمة العربية، وهو اللقب الذي يحمله كهنة سبأ قبل ان يتحولوا إلى ملوك، وتعني الهيكل أو المقرب إلى الله، وذلك بصفتها مدينة مقدسة(٢).

ـ وردَ في جغرافية بطليموس اسم ماكارابا وهو قريب من اسم مكرب السبئي، ويبدو أن له علاقة بالبيت العتيق الذي كان أساس شهرتها كعاصمة دينية في العهد الجاهلي(٣). ولعل بطليموس إذ سمَّى مكة بهذا الاسم كان يعني الأمر نفسه قبل الإخباريين العرب بقرون عدة، على أنه من المفيد أن نجد حديث هذا الجغرافي القديم الذي اعتمده الجغرافيون العرب في العصر الوسيط، مستنداً يؤكد أن مكة كانت معروفة في عهده أي في القرن الثاني الميلادي(٣).

ـ إن اسم مكة مشتق من كلمة المكوك لأنها تقع بين جبلين مرتفعين عليها، وهي في هبطة بمنزلة المكوك(٤).

ـ سميت مكة بها الاسم لانها تمكُّ الجبارين أي تذهب نخوتهم، وقيل إنها تمكُّ الذنوب أي تذهب بها كما يمكُّ الفصيل ضرع أمه فلا يبقى فيه شيء.

ولما كانت مكة مكاناً مقدساً للعبادة، فقد امتكَّت الناس، أي جذبتهم من جميع الأطراف، وقيل لأن أهلها يمتكّون الماء، أي يستخرجونه، نظراً لقلة مائها(٥).

ـ ذكر القرآن الكريم مكة بأسماء عديدة منها: البلد الأمين(٦)، أم القرى(٧)، البيت الحرام(٨)، البيت العتيق(٩) لأنها أقدم بيت، أي مسجد، وُضع للناس في الأرض، وبكة(١٠). والمقصود ببكة موضع البيت، وما حوله مكة، أي أنها موضع

---

(١) زيدان: ص٢٧٥.

(٢) بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية: ص٣١.

(٣) Lammens: La Meque a la Veille de L'Hégrie p22.

(٤) الحموي: جـ٥ ص١٨٢.

(٥) المصدر نفسه: جـ٥ ص١٨٠ ـ ١٨٢.

(٦) التين/ ٣.

(٧) الشورى/ ٧، الأنعام/ ٩٢.

(٨) المائدة/ ٩٧.

(٩) الحج/ ٣٣.

(١٠) آل عمران/ ٩٦، ٩٧.

القرية[1]، وقيل إنها سميت بكة لأنها تبكُّ الجبابرة، أي تدق أعناقهم إذا ألحدوا فيها بظلم، أو لأن الأقدام تبكُّ بعضها بعضاً أمام البيت[2].

الواضح أن الإشارات السابقة إلى معاني اسم مكة تؤكد أنها كانت حتى في تاريخها القديم تتمتع بمنزلة دينية متميزة في بلاد العرب ما يضعها في مركز بالغ الأهمية من تاريخ العصر الجاهلي، وأنها كانت في أول أمرها مقاماً دينياً أسسه النبي إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا لا نستبعد أنها كانت تُعرف باسم بكة ثم تحول إلى مكة.

مكة في إطارها الجغرافي والمناخي

تقع مكة وسط الحجاز الذي يمتد من حدود اليمن جنوباً حتى أطراف بوادي الشام شمالاً، ويفصل بين غور تهامة وبين هضبة نجد، بواد غير ذي زرع، يُعرف ببطن مكة[3]، وتحيط بها الجبال من الجهات كلها بحيث تشكل دائرة حول الكعبة، وقد سهَّلت على أهلها مهمة الدفاع عنها، غير أنه يتخلَّل هذه الجبال وديان وشعاب تجري فيها السيول بعد الأمطار، وكثيراً ما تهدد العمران في مكة، وقد أغرقت الكعبة وهدمتها مرات عدة، كما أنها شكلت ملجأ للخارجين على أهل مكة[4].

كانت المياه شحيحة في مكة بسبب قلة الأمطار، فكان المكيون يشربون من آبار خارج الحرم، يحملون مياهها في المزاد[5] والقرب ثم يصبونه في حياض من أدم بفناء الكعبة، فيرده الحاج، وعندما انتشرت قريش في مكة، وكثر سكانها، قلَّت عليهم الماء واشتدت مؤنتها، فحفر رجالها آباراً عديدة[6].

تقع مكة في واد غير ذي زرع، لذلك اعتمد سكانها على المدن الأخرى في معيشتهم وأقواتهم، تأتيهم الأقوات من الطائف ومن السراة، وعمادهم التجارة.

إن مناخ مكة قاري، جاف، حار جداً في الصيف، وتهب عليها الرياح الساخنة التي تخمد الأنفاس. وقد وصف المقدسي مناخ مكة بقوله: «ويكون بالحرم حر عظيم، وريح تقتل، وذباب في غاية الكثرة»[7]. وبفعل مناخ كهذا، تكثر الأوبئة والأمراض، وكانت حليمة السعدية حدَّثت والدة النبي ﷺ، آمنة، في إبقائه معها في ديارها بعيداً عن جو مكة، خوفاً من الوباء الذي تفشى فيها[8]. والمعروف ان

---

(1) الحموي: جـ5 ص182. (2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه: جـ2 ص218 ـ 220.

(4) انظر فيما يتعلق بجبال مكة وشعابها: الأزرقي: جـ2 ص266 ـ 302.

(5) المزاد: وعاء يوضع فيه الزاد، ووعاء من جلد يوضع فيه الماء.

(6) انظر فيما يتعلق بآبار مكة قبل الإسلام: الأزرقي: جـ2 ص214 ـ 224.

(7) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ص90. (8) ابن هشام: جـ1 ص186.

مرض الجدري والحصبة تفشيا في أرض العرب منذ عام الفيل.

ولا شك بأن درجة الحرارة كانت ترتفع بشكل ملفت في فصل الصيف، وما إن ينتهي هذا الفصل ويأتي فصل الخريف حتى يعيش السكان هاجس السيول التي تشكل خطراً على العمران، وكثيراً ما كانت تتفشى الأوبئة عقبها(١).

مكة عبر تاريخها

يرجع تاريخ مكة إلى عهود قديمة، وأقدم من حكمها العماليق وعليهم السميدع بن هوبر بن لاوي وخلفهم بنو جرهم القحطانيون، لكن يرتبط اسمها وبناؤها بالنبي إبراهيم عليه السلام الذي هاجر من أور الكلدانيين في بلاد ما بين النهرين إلى أرض كنعان حوالي عام (١٨٥٠ق.م)، وبعد أن تنقل في مدنها تزوج سارة ورحل بها إلى مصر، وهناك تزوج هاجر التي أنجبت له ابنه إسماعيل، ثم عاد إلى أرض كنعان وتحديداً إلى أرض الجنوب من فلسطين(٢).

وبأمر من الله تعالى، خرج إبراهيم من جنوبي فلسطين بزوجه هاجر وابنه الرضيع إسماعيل إلى مكة، وأسكن أهله هناك عند البيت الحرام بواد غير ذي زرع، خالٍ من البشر والماء والنبات. وقد وردت في القرآن الكريم إشارات واضحة عن قصة إبراهيم، قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم/٣٧]. يُفهم من هذه الآية الكريمة أن مكة كانت قبل وصول إبراهيم إليها، خالية من الحياة، لذلك دعا ربه أن يجعل أفئدة من الناس تميل إليهم وإلى هذا المكان المجدب.

وعاد الأب بعد زمن ليتفقد أهله وليعيد بناء الكعبة استجابة لأمر الله تعالى. وتعاون الأب والابن في هذا العمل الكبير وأنجزاه. ودعا إبراهيم الناس للطواف حولها والسعي بين الصفا والمروة والقيام بكل المناسك المفروضة يوم الحج، والصلاة والالتزام بمشاعر الدين الحنيف، دين إبراهيم عليه السلام(٣).

وعندما أخرج الله ماء زمزم لأم إسماعيل، مرَّ ركب من جرهم عائدين من بلاد الشام إلى اليمن، فاستأذنوها ان ينزلوا معها على الماء، فوافقت، وقد أحبَّت الأنس بهم، فنزلوا وبعثوا إلى أهلهم فقدموا إليهم، فكانت معهم هي وابنها حتى ترعرع

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص٧١.

(٢) ابن سعد: جـ١ ص٤٦، ٤٧. المسعودي: جـ٢ ص١٨، ٢٢. قاموس الكتاب المقدس: ص١٠.

(٣) الأزرقي: جـ١ ص٥٨ ـ ٦٩.

الغلام، فلما بلغ أنكحوه امرأة منهم، وكانت والدته قد توفيت قبل ذلك[١]، ومن نسل هذا الزواج جاءت طبقة العرب المستعربة التي تشكل أحد فرعي العرب الباقية. وتولى أبناء إسماعيل حراسة البيت وخدمته من بعده حتى تسلَّم الحارث بن مضاض الجرهمي هذه المهمة، وهو أول من ولي البيت من الجرهميين[٢].

وما حدث بعد ذلك من تهدم سد مأرب، أن هاجرت قبيلة خزاعة من اليمن إلى مكة، ونزلت بظاهرها، ثم راحت تتحين الفرص للانقضاض على جرهم وطردهم من مكة والحلول محلها، وقد تمَّ لها ما أرادت في عهد ربيعة بن حارثة، وهو لحي، ثم تولى عمرو بن لحي أمر البيت، وهو أول من تولاه من خزاعة، كما أنه أول من أدخل الأصنام إلى مكة ونصبها حول الكعبة، كما ذكرنا[٣].

وتشعَّبت بطون كنانة ومضر خلال حكم خزاعة لمكة الذي استمر نحو ثلاثة قرون، وتوزَّعت أحياؤهم وبيوتهم في ظاهرها، أي خارجها. ويربط النسابون نسب قريش بإسماعيل بن إبراهيم، ويقولون إن قريشاً من صلب عدنان حفيد إسماعيل، ومن نسل رجل واحد هو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[٤]، وقريش لقب مُنح للنضر أو لحفيده فهر بن مالك وأولاده من بعده[٥].

---

(١) الأزرقي: جـ١ ص٥٧.

(٢) المصدر نفسه: ص٨١. المسعودي: جـ٢ ص٢٢، ٢٣.

(٣) الأزرقي: جـ١ ص٩٥.

(٤) ابن سعد: جـ١ ص٥٥، ٥٦.

(٥) روى الإخباريون الكثير عن أصل تسمية قريش بهذا الاسم، أشهرها:

- سميت قريش، بقريش بن بدر بن الحارث بن يخلد بن النضر بن يخلد بن كنانة، وكان قريش في بدر دليل بني النضر في أسفارهم، وصاحب مسيرتهم، فإذا قدمت عير بني النضر قالت العرب أقبلت عير قريش، باسم دليلهم.
- أن قريشاً جمَّاع نسب فليس بأب ولا أم، وإنما نعتت بعض العرب النضر بن كنانة بهذا الاسم، ثم خرج يوماً على نادي قومه فقالوا: انظروا النضر كأنه جمل قريش.
- القريش تصغير كلمة قرش، وهي دابة بحرية كبيرة تأكل دواب البحر الأخرى.
- قيل إن النضر كان في البحر، فهاجم قرشاً سفينته، إلا أن النضر قتله.
- التقريش لغة: يعني التفتيش، وكان النضر يُقرش أو يبحث ويفتش عن حاجة ذوي الفاقة، فيقضيها لهم. والتقرش، لغة أيضاً: يعني التجمع، ولذلك عندما جمع قصي قومه في مكة سموا كذلك.
- أن قريشاً اسم للنضر ولقريش من بعده.
- أن التقريش من جمع المال عن طريق التجارة، وقد سمي بنو النضر بذلك لشهرتهم التجارية.
- اجتناب قريش وبُعدها عن الغارات، فهي قد تقرشت عن الحروب.

تبدأ معلوماتنا عن قريش منذ عهد زعيمها ومُجمِّعها قصي بن كلاب، فهو أول زعيم واضح الشخصية التاريخية، استولى على مكة من خزاعة، في أيام أبي غبشان، بعد حروب ونزاعات بين القبيلتين دامت بين أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلاديين[١]، والمعروف أنه كان متزوجاً من حُبَّى بنت حُلَيْل زعيم خزاعة، لكن هذه المصاهرة لم تقف أمام طموحه السياسي.

وبنى قصي كيان قريش الاجتماعي، وصنَّف القرشيين إلى صنفين: قريش البطاح وقريش الظواهر، وجاء هذا التصنيف على أساس التحدر من فهر بن مالك، فالفهريون جميعاً قرشيون، ولكن القرشيين ليسوا كلهم فهريين إلا من ناحية انحدارهم من فهر بن مالك.

فقريش البطاح هم الذين أنزلهم قصي بطحاء مكة، أي داخلها، وهم بنو: عبد مناف، عبد الدار، عبد العزى، زهرة، مخزوم، تيم بن مرة، جمح، سهم، عدي وعتيك بن عامر[٢]. إنهم قلب قريش وعمادها، تحضروا مع مرور الزمن وتولوا حكم مكة، وهيمنوا على مقدراتها، وكان منهم طبقة التجار والأغنياء.

وأما قريش الظواهر فهم الذين أنزلهم قصي في ظاهر مكة على المرتفعات وفيما حولها وهم: بنو محارب والحارث بن فهر، وبنو الأدرم بن غالب بن فهر، وبنو هصيص بن عامر بن لؤي[٣].

وقام قصي، بعد أن تمَّت له الغلبة، بأعمال عدة متميزة طبعت مكة بطابع قرشي خاص، وثبَّتت أقدامه في الحكم وأمَّنت انتقال السلطة إلى خلفائه من أسرته، نذكر منها:

- بنى لنفسه منزلاً في بطن مكة وأمر قومه ببناء منازل لهم إلى جوار الكعبة تاركاً مكاناً كافياً للطواف، والمعروف أن الخزاعيين ومن كان قبلهم لم يسكنوا مكة بل كانوا يتواجدون فيها بالنهار فقط، وإذا أمسوا خرجوا منها[٤]، وبذلك يكون قصي وقومه أول من اتخذ مكة سكناً ومقاماً.
- توسَّع في العمران، وكان بطن مكة كثير الشجر القصير، وكان الناس يهابون قطعه بفعل حرمة المكان، فقطعه قصي بيده وتبعه الناس.
- هدم الكعبة ثم بناها بنياناً لم يبنه أحد من قبله.
- بني دار الندوة، وجعل بابها إلى الكعبة، فكانت قريش تقضي فيها أمورها، مثل

(١) ابن سعد: جا ص٦٨، ٦٩. المسعودي: ج٢ ص٣١.
(٢) المسعودي: ج٢ ص٣٢.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) اليعقوبي: جا ص٢٨٩.

مراسم النكاح، التشاور في مسألة الحرب والسلم، عقد لواء الحرب، تعذير الغلمان، أي ختانهم.

- كانت لقصي، إلى جانب دار الندوة، الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والقيادة[١].

- حفر بئراً بمكة هي العجول، وهي أول بئر حفرتها قريش بعد إسماعيل بن إبراهيم[٢].

- أبقى على العادات والتقاليد التي كانت سائدة، كما أقرَّ العرف الجاهلي.

ومات قصي، فدُفن بالحجون، وهو جبل بأعلى مكة كان أهلها يدفنون موتاهم فيه.

تكمن أهمية قصي في أنه وضع أساس قوة قريش ومكانتها ومجدها في مكة، ونقلها من البداوة إلى الحضارة والاستقرار، ووضع لها نظاماً مشيخياً شورياً من عنده، انفرد به من بين رؤساء العرب قبل الإسلام، وأنصف به العشائر والبطون جميعاً، وهو كذلك صاحب الفضل في تنظيم أمور مكة.

وتبقى قصة قصي في المصادر العربية ذات دلالة تاريخية لانها تُعبِّر عن مفهوم القرشيين في الاستيلاء على مكة، وما يعنيه هذا الاستيلاء من وظائف ومهام يضطلعُ بها القوم لتنظيم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والقيام على الحرم وخدمته.

وبقدر ما حقَّق تقسيم قصي والتخصيص الذي نفَّذته الوحدة السياسية، إلا أن قريشاً كادت أن تتعرض للتصدع بعد وفاته، فقد انتقلت سلطاته وحقوقه إلى ابنه البكر عبد الدار بعهد منه[٣]، غير أن أخاه عبد مناف ثار عليه ونازعه على السلطة، فانقسمت قريش نتيجة ذلك إلى جماعتين متنافستين، وأنشأت كل جماعة الأحلاف لتقوية موقفها، ومن أهم تلك الأحلاف، التي أثَّرت على مسار الأحداث في الجاهلية، حلف المطيبين الذي أنشأه بنو عبد مناف، وهم عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل[٤]، وهم أصحاب الإيلاف، ودخل فيه بنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم وبنو الحارث بن لؤي، من قريش الظواهر، وحلف الأحلاف المناهض له بقيادة بني عبد الدار وحلفائهم، وهم بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدي[٥]. ولا يتعلق ما رافق نشوء هذين الحلفين من أحداث، تختص مباشرة بالتجارة، لكنهما ظلا على

---

(١) انظر فيما يتعلق بهذه الأعمال: ابن سعد: جا ص٧٠، ٧١.

(٢) الأزرقي: جا ص٢١٥. الحموي: ج٤ ص٨٧. السهيلي: الروض الأنف، جا ص١٧٢.

(٣) ابن هشام: جا ص١٥٢ ـ ١٥٤.

(٤) أخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم تأكيداً على تحالفهم، فسموا المطيبين.

(٥) تعاقد بنو عبد الدار مع حلفائهم وتعاهدوا عند الكعبة، فجاءوا بوعاء مملوء دم بقرة وأدخلوا أيديهم فيه فسموا لعقة الدم، كما سموا الأحلاف.

التشكيل نفسه تقريباً في أزمة حلف الفضول التي نشأت قبل مبعث النبي محمد ﷺ، وهي أزمة تتصل مباشرة بالتجارة المكية وتنظيمها. فقد حصل انقسام جديد بعد موت عبد مناف بن قصي طال مباشرة هذا البطن، وانقسمت قريش تبعاً لذلك إلى طائفتين:

طائفة بني هاشم وحلفائهم من بني المطلب وبني زهرة وبني تيم وبني الحارث بن فهر، في حين خرج بنو أسد من الحلف، وقد مثَّلوا تقاليد عبد المطلب بن هاشم وقواعده الأخلاقية والدينية.

وطائفة بني عبد شمس وحلفائهم من بني مخزوم وبني سهم وبني جمح وبني عبد الدار، وقد شكَّلوا طبقة التجار الأغنياء(١).

وأنشأت الطائفة الأولى حلف الفضول، وعلى الرغم من أن هذا الحلف يبدو إحياء لحلف المطيبين إلا أن علاقته بتجارة مكة وتنظيمها أشد وضوحاً، واستمرت الطائفة الثانية في حلف الأحلاف.

والملفت في هذه المرحلة ان بني عبد مناف انقسموا أربعة أقسام: اثنان منهم، وهم بنو هاشم وبنو المطلب، بقيا مع حلفائهما السابقين في حين خرج الاثنان الآخران، وهما بنو عبد شمس وبنو نوفل، من الحلف، وكان لذلك علاقة بالتغييرات في السيطرة على الحركة التجارية التي انتقلت من بني هاشم إلى رجال آخرين من بني عبد شمس ومخزوم، فازدادت ثرواتهم في حين تناقصت ثروات بني هاشم.

إلى جانب هذه الصورة السلبية للمجتمع المكي القرشي المنقسم على ذاته، فإن هذا المجتمع عرف بعض النواحي الإيجابية ميَّزت القرشيين عن بقية العرب، نذكر منها:

ـ إن وفرة المال في أيدي هذا النفر من القرشيين، جعلت مكة سوقاً تجارية وملتقى تجارات العالم، على الرغم من أن كبار رجال قريش قد ظلوا، من ناحية المظهر، أقرب إلى حياة البداوة.

ـ وجود الكعبة في ديارهم وقيامهم بأمرها.

ـ أقاموا نظاماً سياسياً يقارب الأنظمة السياسية المعروفة آنذاك خارج الجزيرة العربية.

ـ تكتُّلُ القرشيين في جبهة واحدة إذا داهمهم خطر خارجي، على الرغم من خلافاتهم الداخلية وانقسامهم السياسي والاجتماعي.

ـ تميز القرشيون بالبديهة وسرعة الجواب وحسن التصرف في الخطاب، وهي الخصائص الذهنية التي تنتج عن تعاطي التجارة.

ـ اعترف العرب بامتياز قريش بالغنى ووفرة المال، وقد عرفت مكة رجالاً أغنياء مثل الوليد بن المغيرة وهشام بن المغيرة، والد أبي جهل، وأبي أحيحة سعيد بن

---

(١) ابن هشام: جا ص١٥٣ ـ ١٥٥.

العاص، غير أنه شاب هذا الغنى بعض السلبيات مثل الجشع والطمع والرغبة في زيادة المال واستثماره ولو على حساب الآخرين، من هنا تعاطى القرشيون الربا والتطفيف والإخسار في الكيل والميزان والقياس، وكان هذا يثير غضب الأعراب الذين كانوا يكرهون الأغنياء، فضلاً عن المرابين والمستغلين، وهو شعور عام عند كثير من العرب نحو القرشيين.

وتعرَّضت مكة في عام (٥٧٠م) لغزوة حبشية هي أخطر ما واجهته من أزمات خلال تاريخها المتصاعد، قادها أبرهة الأشرم، حاكم اليمن من قبل الأحباش، بهدف مزدوج ديني وسياسي - تجاري.

فقد قامت هذه الحملة ضمن الصراع المتنامي بين النصرانية واليهودية في العربية الجنوبية واستعداد معتنقيهما للتمدد إلى الحجاز بعامة وإلى مكة بخاصة، وقد أماط هذا الصراع اللثام عن كثير مما جرى بين الدولتين الكبيرتين فارس وبيزنطية، ومحاولاتهما السيطرة على تجارة الشرق، ومثَّل أبرهة العقيدة النصرانية في صراعها مع يهودية حِمير في حين ساندت فارس دولة حِمير.

وكانت غزوة الفيل محاولة بيزنطية لدفع الحبشة وأبرهة للمساهمة في الجهد العسكري ضد الفرس في اليمن وبخاصة بعد أن وصل نفوذ هؤلاء إلى الحجاز، وأخذوا يُهددون الطرق التجارية التي كانت بيزنطية تعتمد عليها في غربي الجزيرة العربية والبحر الأحمر. والواقع أن الفرس والبيزنطيين كانوا يوعزون لحلفائهم بالتحرش العسكري، وقد دفعت بيزنطية هذه المرة بأبرهة ليشن حملته انطلاقاً من الجنوب في الوقت الذي وصل فيه نفوذ الغساسنة في الشمال إلى خيبر ويثرب[(١)].

وتوافقت سياسة بيزنطية تجاه مكة مع تطلعات أبرهة الدينية والاقتصادية، وهو الذي خشي من تعاظم نفوذ مكة التجاري والمكاسب المالية الهائلة التي يجنيها القرشيون من التجارة، حتى مع الأحباش، مدركاً في الوقت نفسه مدى مساهمة الحرم المكي في نجاحهم، وإذا كان لا بدَّ من تحجيم نفوذهم والقضاء على تجارتهم، وهي مصدر ثروتهم، فلا بد من أن يستولي على طرق القوافل الشمالية وتحويل العرب للحج إلى حرم آخر بدلاً منه، ورأى أن كل أسباب صرف حاج العرب عن مكة إلى بلاده متوافرة لديه، فقد بنى كنيسة في صنعاء من أجل هذه الغاية دعاها القليس ونقل إليها رفات بعض شهداء نجران، مضفياً عليها صفة المزار[(٢)]، كما أنه يمتلك قوة عسكرية ذات بأس.

وتذرع أبرهة للقيام بحملته بما فعل رجل كناني من النسأة من التغوط في داخل

---

(١) سحاب: ص١٦٤، ١٦٥، ١٦٧.

(٢) الأزرقي: جـ١ ص١٣٩.

القليس ازدراء[1]، والمعروف أن كنانة حليفة قريش، بل إن قريشاً من كنانة، وإن القول بان ملطخ القليس من النسأة والحمس، ذو دلالة مهمة بوصف هؤلاء متشددين في عقيدتهم.

تجهَّز أبرهة وزحف على رأس الجيش، الذي بلغ تعداده عشرين ألفاً، ومعه الفيل إلى مكة لينفذ مشروعه، هدم الكعبة. وأفاضت روايات المصادر في وقائع الحملة[2]، ولن نضيف جديداً إذا أعدنا سردها، إلا أن محاولة معرفة موقف العرب منها يمكن أن:

- يُعزِّز معرفتنا بالعلاقة بين هذه الغزوة والصراع الديني والسياسي والتجاري في الجزيرة العربية.
- مكانة المتحاربين بين المعسكرين الفارسي والبيزنطي.
- مكانة مكة بين العرب.

لقد واجه أبرهة، على طول طريقة إلى مكة، قبائل عربية دفعتها الحمية الدينية والعنصرية للدفاع عن مكة التي كانوا يحجون إليها، وعن قريش المسؤولة عن إدارة مقدساتها.

بدأت المقاومة من اليمن، فقد نهض ذونفر، وهو من أشراف حِمير، للتصدي لأبرهة، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حربه ومجاهدته عن بيت الله الحرام وما يريد من هدمه، فأجابه من أجابه من العرب، ويشير ذلك إلى بعض البدو الذين انضموا إليه للدفاع عن مكة. وجرت بين الطرفين مناوشات خفيفة انتهت بانهزام ذي نفر وأسره، ولما همَّ أبرهة بقتله، طلب أن يبقيه حياً لعله ينفعه، فتركه. ولما وصل جيش أبرهة إلى جوار مكة سأل عبد المطلب بن هاشم عن ذي نفر، وكان صديقاً له، فدخل عليه في محبسه. وسأله عبد المطلب عما إذا كان هناك من مخرج من هذا الخطر الداهم، ولما لم يكن بيد ذي نفر حيلة بسبب سجنه، فقد أوصى به أنيساً، سائس الفيل، وهو صديقه، على أن يستأذن له الملك، فيكلمه بما يشاء[3].

وواجه أبرهة، خلال زحفه، قبائل عربية أخرى مثل خثعم، إذ تصدى له نفيل ابن حبيب شيخ خثعم في قبائل من العرب، فقاتله أبرهة وتغلَّب عليه وأسره، ولما أُحضر بين يديه، طلب نفيل منه ان يبقيه حياً على أن يعمل دليلاً له في أرض

---

(١) الطبري: جـ٢ ص١٣٠، ١٣١.

(٢) انظر: ابن هشام: جـ١ ص٦٤ ـ ٧٣. الأزرقي: جـ١ ص١٣٤ ـ ١٤٨. محمد بن حبيب المنمق: ص٧٠ ـ ٧٧. تفسير ابن كثير: جـ٤ ص٥٤٨ ـ ٥٥٣.

(٣) ابن هشام: جـ١ ص٦٩.

العرب، ويضمن له قبائل خثعم، شهران وناهس، فأعفاه وخلّى سبيله وخرج معه يدله[1]، لذلك لم يكن تصديهم لأبرهة في البداية بفعل الحمية الدينية وإنما بفعل الصداقة التي كانت تربط شيخهم نفيل بن حبيب بعبد المطلب بن هاشم، وهي صداقة تجارة مشتركة[2].

وتصدت لأبرهة القبائل التي شكّلت الحلف الذي قامت عليه كندة، والمعروف أن مملكة كندة التي قامت في وسط الجزيرة العربية، كانت درعاً لليمن في عهد يوسف ذي نواس، وزالت بزواله، إذ سقط ذو نواس في عام (٥٢٥م) واضمحل الوجود الكندي في عام (٥٢٨م)، غير أن الحلف المذكور كان لا يزال قائماً، وظل أعضاؤه على عدائهم لأبرهة، فلما حانت الفرصة حاولوا محاربته.

وتابع أبرهة زحفه باتجاه مكة، ولما وصل إلى الطائف هادنته ثقيف، وهمَّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم من العرب بقتاله، ثم استدركوا واقعهم وعرفوا أنهم لا طاقة لهم به، فتخلوا عن ذلك[3]. والمعروف أن كنانة وهذيل من الحمس، حلفاء قريش، وعندما ذهب عبد المطلب للاجتماع بأبرهة اصطحب معه كلاً من يعمر ابن نفاثة بن عدي الكناني، وهو يومئذٍ سيد بني بكر من كنانة، وخويلد بن وائلة الهذلي، وهو يومئذٍ سيد هذيل، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت[4]. والواضح أن التحالف السياسي بين قريش وبين هذه القبائل العربية واستعدادها افتداء مكة بثلث أموالها، كانت تحفزه عوامل دينية وتجارية.

يتبين مما سبق أن العرب الذين واجهوا أبرهة كانوا صنفين:

الأول: مكة وحمسها وحجيجها من البدو والحضر.

الثاني: القبائل التي كان ولاؤها يربطها بالحيرة أو بدولة ذي نواس المندثرة، ومكانة هؤلاء في الصراع الدولي كان معلوماً[5].

وساندت بعض القبائل العربية أبرهة في مهمته، إما خوفاً أو تزلفاً أو أخذاً بالثأر، من دون أن يكون لهذا التعاون معنى سياسي خاص، كان منهم عك والأشعريون وخثعم بعد هزيمتهم، لكن لما وصل أبرهة إلى مكة كسر الأشعريون والخثعميون سيوفهم وسهامهم وأعلنوا أنهم أبرياء من أي نية لهدم البيت[6].

---

(١) الأزرقي: ص١٤٢.
(٢) محمد بن حبيب: ص٧٠.
(٣) ابن هشام: ج١ ص٦٨.
(٤) المصدر نفسه: ص٦٩.
(٥) سحاب: ص١٧٤.
(٦) الطبرسي، الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن: ج٣٠ ص٢٣٤ ـ ٢٣٧.

وساير أبرهة في مسعاه، محاباة او تزلفاً، كل من المطلب بن مالك ومسعود بن معتب الثقفيين وأبي رغال، الذي عمل دليلاً لأبرهة ومات، فرجم قبره.

وانضم إلى أبرهة فسَّاق العرب وطخاريرهم[١] وكان أكثرهم من خثعم، وكانوا لا يحجون البيت ولا يُحرِّمون الحرم، واتبعه أيضاً بنو منبه بن كعب بن الحارث بن كعب، وكانوا لا يُحرِّمون الحرم ولا يحجون البيت، وكان منهم الأسود بن مقصود الذي يقول:

يا فرس اعدي بِيَه إذا سمعت التلبية

وكان قبل ذلك يقطع على الحاج والعمَّار سبيلهم[٢].

وينتسب هؤلاء إلى نصارى نجران، وإذا كانوا كذلك فإن أمر مشاركتهم في الحرب إلى جانب أبرهة أمر مفهوم، وكان هدم الكعبة في نظرهم إما أخذاً بالثأر مما فعله الكناني في القليس من التغوط، أو تنفيذاً لإحلال صنعاء محل مكة مثابة للعرب ومحجة لهم[٣].

لكن أبرهة فشل في تحقيق مشروعه بهدم الكعبة، وكانت نهايته وجيشه مفجعة، فقد أرسل الله جماعات من الطير ترميهم بحجارة من سجيل[٤] فتتركهم كأوراق الشجر الجافة، فمات فوراً معظم أفراد الجيش، ورحل من بقي منهم، وهم في حال ذعر شديد يتساقطون على الطريق بفعل إصابتهم، حاملين معهم قائدهم أبرهة وقد أصيب أيضاً، وما إن وصل إلى صنعاء حتى توفي بسبب إصابته[٥].

عوامل بروز مكة على المسرح السياسي

أ ـ وقوعها في واد غير ذي زرع

إن افتقار مكة لمقومات المدينة الزراعية او الرعوية لا يسمح بافتراض ظهورها قبل ظهور الوساطة التجارية، وعلى الرغم من أنها تقع في واد غير ذي زرع، إلا إنها كانت محجَّة منذ زمن بعيد، لكن الحج والمواسم التجارية اقترنت معاً زمناً طويلاً، وشكَّل هذا الافتقار حافزاً على تعاطي الأعمال التجارية.

كذلك، أحاطت بمكة منطقة عازلة محرمة على الدول الأجنبية حتى خلا تاريخها من سيطرة أي دولة عليها، وتتصف هذه المنطقة بوعورة المسالك وجفاف الصحراء من حولها على نحو جعل أكثر الدول قوة تعجز عن النفاذ إليها، وقد افتخر

---

(١) الطخارير: جمع الطُخرور، وهو الغريب والضعيف والمتفرق من الناس.

(٢) محمد بن حبيب: ص٧٠.

(٣) سحاب: ص١٧٥، ١٧٦.

(٤) سجيل: كلمة فارسية معناها الطين والحجر.

(٥) ابن هشام: جا ص٧١ ـ ٧٣.

القرشيون بهذا الشرف لمدينتهم التي كانت لقاحاً؛ أي أنها لا تدين لدين ملوك الأرض، ولم يؤدِّ أهلها أتاوة، ولا ملكها ملك قط من سائر البلدان، وتحج إليها الملوك من «حِمير وكندة وغسان ولخم فيدينون للحمس من قريش، ويرون تعظيمهم والاقتداء بآثارهم، مفروضاً وشرفاً عندهم عظيماً، آمنين يغزون الناس ولا يُغزون، يَسبون ولا يُسبون، ولم تُسب قرشية قط فتوطأ قهراً، ولا يُجال عليها السهام»[١].

ثم إن النظام القبلي الذي أتبعته مكة كان لا يسمح بقيام سلطة مركزية محلية تربط الأطراف بعضها ببعض، وإن ظروف الصحراء الصعبة حظَّرت على أي سلطة مركزية خارجية أن تمد سلطانها المباشر إلى داخل الجزيرة العربية على الرغم من خطورة المصالح الدولية، ورغبة الحكومات في هذا الأمر، وهذا ما جعل مكة مدينة حرة مستقلة[٢].

وارتقت مكة إلى مرتبة الزعامة السياسية بعد هزيمة أبرهة وارتداده عنها على الرغم من أنها لم تتصدَّ بنفسها للغزو الحبشي[٣]، إلا إنها برهنت عن قدرتها على أن تكون لقاحاً. وفي ظل الصراع الفارسي ـ البيزنطي في العربية الجنوبية بعد موت أبرهة وسيطرة الفرس على اليمن، ومحاولة الحيرة مد النفوذ الفارسي إليها من أجل تحقيق اتصال بري مباشر مع اليمن؛ كان على مكة أن تقف على الحياد من أجل تأمين مركزها التجاري. لقد رفضت كلا النفوذين الفارسي والبيزنطي من خلال التزندق في أيام قباذ ملك الفرس، وتمليك عثمان بن الحويرث النصراني، وسعت إلى منعه، وتابعت التمسك بدين إبراهيم والآباء الأوائل[٤]. وتعزَّزت هذه الزعامة من واقع سيطرتها على خطوط التجارة في غربي الجزيرة العربية، والتي صادفت قبولاً لدى الدولتين الكبيرتين. فبيزنطية، قبل سقوط أبرهة، كانت ترغب في اختيار طريق آمن لتجارتها لتجنب صعوبات الإبحار في البحر الأحمر[٥]، وكان الطريق

---

(١) الحموي: جـ٥ ص١٨٣.

(٢) الشريف: ص٩١. سحاب: ص١٨٧، ١٨٨.

(٣) لقد أصيب أبرهة وجيشه بالمرض بفعل الطير الأبابيل التي أرسلها الله تعالى، والتي هاجمت الجيش الحبشي. انظر: سيرة ابن هشام: جـ١ ص٧١ ـ ٧٣.

(٤) محمد بن حبيب: ص١٥٤ ـ ١٥٩.

(٥) تتمثل هذه الصعوبات بـ:

ـ القرصنة.

ـ وجود الشعب المرجانية.

ـ خلو شواطئه من المرافئ الصالحة لرسو السفن وحمايتها.

ـ قلة الماء والمؤن على جانبيه.

=

التجاري عبر الحجاز يُحقق لها هذه الرغبة. وكانت مكة ملتزمة بالإيلاف وتأمين وصول تجارة الشرق إلى أسواق بيزنطية في بلاد الشام، ولم يكن الفرس في وضع يسمح لهم بتغيير هذه المعادلة لأن القبائل العربية الضاربة على الطريق التجاري هي الأخرى ملتزمة بالإيلاف مع مكة. أما بعد سقوط أبرهة وسيطرة الفرس على اليمن، قنع هؤلاء، أي الفرس، بتقاضي مكوس التجارة المكية لعدم قدرتهم على السيطرة على المنطقة إذ باءت محاولتهم عبر حروب الفجار بالفشل، كما سيمر معنا، ولم يكن لبيزنطية من سبيل سوى القبول بالتجارة المكية بعد أن تقلَّص نفوذ حلفائها على طول الجانب الغربي من جزيرة العرب.

وهكذا كانت مكة مؤهلة لتسلم زمام التجارة الشرقية وتنظيمها، وكانت الظروف الدولية ملائمة لاضطلاعها بهذه المهمة(١).

ب ـ موقعها «الاستراتيجي» المتميز

تعاظمت مكانة مكة عندما أخذت مواسم الحج ورحلات القوافل التجارية تدر أرباحها على زعمائها وتجارها. فقد تعاظمت قريش التجارة، بشكل واضح منذ استقرارها في مكة في عهد قصي، ويبدو انها بدأت محلية قبل أن تتحول تدريجياً إلى دولية بفعل عقود الإيلاف وتداخل استعدادات قريش مع الظروف الدولية وحال العرض والطلب على طرفي خطوط التجارة الشرقية.

لقد احتلت مكة موقعاً متميزاً على أحد أهم طرق التجارة الشرقية في منتصف الطريق المعبد للقوافل بين اليمن والشام، وهي تقوم في وادٍ منبسط من أودية جبل السراة، تحيط به الجبال الجرداء من كل جانب وتكاد تحميه إلا من ثلاثة منافذ، يصله أحدها بطريق اليمن، ويصله الثاني بطريق قريب من البحر الأحمر عند مرفأ جدة، ويصله الثالث بالطريق المؤدي إلى فلسطين. والراجح أن واديها اتُخذ قبل أن تُبنى مكاناً لاستراحة رجال القوافل القادمة من الشمال إلى الجنوب بسبب ما كان من ماء زمزم، وتحوَّلت تدريجياً إلى مستودع للتجارة، وأضحت مقاماً دينياً بفعل وجود الكعبة وإقامة الأصنام حولها حيث يلجأ إليها الحاج لالتماس العون منها(٢).

إن وصف مكة وموقعها من طرق التجارة، أمر ضروري، وبالمقارنة مع غيرها من المدن التي تقع على مفاصل الطريق التجاري نفسه كيثرب، والتي لم تنل شهرة توازي شهرتها، فإن ديمومة ملاءمة الظروف التجارية لأوضاعها المتغيرة أحياناً، وعدم ربط

= ـ الرياح الشمالية المعاكسة للسفن خلال إبحارها نحو الشمال.

(١) انظر: سحاب: ص١٨٩، ١٩٠.

(٢) الشريف: ص٩٢.

ذلك بالظروف المعاصرة والأوضاع الدولية المحيطة، بالإضافة إلى استقرارها وسط حرم ديني يحجه العرب أو كثير منهم، لا بد أن يحدث تفاعلاً متصاعداً بين النشاط التجاري والمواسم الدينية، ثم إن اقتران الحج بالتجارة واستيلاء قريش، القبيلة المتاجرة، عليها؛ رافقه تنظيم قصي لشعائر الحج ووظائفه المختلفة، وقد أهَّلها هذا الاقتران لتقوم بمهمة التجارة الدولية، على أثر التحولات التاريخية الملائمة وانتقال مفاصل التجارة الخارجية بسبب الصراع الدائم بين الدولتين الكبيرتين(١).

جـ - تحول التجارة الشرقية إلى غربي الجزيرة العربية

إن الظروف التاريخية الملائمة التي أتاحت انتقال طريق التجارة الشرقية إلى غربي الجزيرة العربية، تكمن في أسباب عدة أهمها(٢):

- اندلاع الحروب الطويلة والمستمرة بين الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية في أوائل القرن السادس الميلادي، والتي بلغت ذروتها في الحملة الفارسية الشاملة التي قادها كسرى الأول في عام (٥٣٩م)، فاجتاح الشرق كله، ثم الانتشار الفارسي الواسع في عهد كسرى الثاني أبرويز في عام (٦١١م) والذي أخلَّ بموازين القوى. وتبع ذلك هجوم مضاد قام به الامبراطور البيزنطي هرقل، استعاد بنتيجته الأراضي التي انتزعها الفرس، واستولى على المدائن عاصمة الفرس في عام (٦٢٨م)، وقد أدَّت هذه الحروب إلى تعطيل الطريق التجاري عبر الخليج العربي إلى الفرات وأخرجته من المنافسة، وتعرُّض العلاقات التجارية مع الشرق لخسائر كبيرة، وبخاصة ان المحطات التجارية الواقعة على هذا الطريق كانت هدفاً لتلك الحروب.

- ظهور المملكتين العربيتين التابعتين، مملكة المناذرة في الحيرة التابعة للفرس، ومملكة الغساسنة في الشام التابعة للبيزنطيين، وقد غلبت عليهما النزعة العسكرية ما أجَّج النزاع بين الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية المتنازعتين أصلاً، فاستغل المكيون فرصة هذا القتال الدائم وتعطل طريق التجارة، فقاموا بالخدمات التجارية التي كانت المميز الأساسي لاقتصاد الجزيرة العربية.

- انخراط الأحباش في السياسية الدولية في القرن السادس الميلادي، وقد تعاظم نفوذهم على أثر غزوهم اليمن في عامي (٥٢٤ و٥٢٥م). وإذ رأى الامبراطور البيزنطي جستنيان أن يتخذ من البحر الأحمر طريقاً للاتصال المباشر بين الدولة

---

(١) سحاب: ص١٩٣.

(٢) المرجع نفسه: ص٢٠٠، ٢٠١.

Shahid, Irfan: The Arabs in The Peace Treaty of 561. pp185 - 192.

البيزنطية والهند، تحتَّم عليه أن يقيم علاقات وثيقة مع الأحباش النصارى بأن حثَّهم على أن يشتروا الحرير من الهند ثم يبيعونه للدولة البيزنطية، وهو الدور الذي كان يقوم به الفرس، وتدل سفارته إلى النجاشي بشأن تجارة الحرير على أن الأحباش كانوا بحارة قادرين على منافسة الفرس في احتكارهم تجارة الحرير، لكن النشاط البحري الحبشي كان يولي اهتمامه التجاري شطر القارة الإفريقية، كما أثبت الأحباش عدم قدرتهم على منافسة نفوذ الفرس في الهند، وعندما خلا البحر الأحمر من السفن البيزنطية لم تقو البحرية الحبشية على سد الفراغ فيه. أما غزوة الأحباش لليمن فلم تكن كل آثارها واضحة في نطاق تطور أوضاع التجارة الشرقية، لكن المؤكد هو أن الحِميريين، الذين ازدهرت على أيديهم طريق العطور أو طريق البخور طوال قرون من الزمن، أضحوا شعباً مغلوباً على أمره، وفقدوا سيطرتهم على هذا الطريق واضمحل نفوذهم التجاري ما أتاح لمكة سبيل الاستيلاء على تجارة الشرق.

ـ نمو مكة وتمرسها في تنظيم التجارة على أثر الغزو الحبشي لليمن وضرب الأحباش التنظيم التجاري الحِميري. والواقع أن سقوط اليمن شكَّل فرصة استغلها المكيون استغلالاً تاماً، وأضحت مدينتهم محطة مهمة على طريق القوافل في منتصف الطريق بين مأرب في الجنوب والبتراء في الشمال، ما هيَّأ لها أسباب التقدم التجاري في غربي الجزيرة العربية وملتقى ثلاث طرق رئيسة لتجارة الشرق هي: طريق شرقي الجزيرة، عبر وادي الرمة ووادي الدواسر، وطريق الجنوب المنطلق من اليمن، وقد نظَّم عليه المكيون في القرن السادس الميلادي رحلة الشتاء، وطريق البحر الأحمر الذي حمل من القارة الإفريقية إلى الشاطئ المجاور لمكة على شاطئ البحر الأحمر، منتجات الأحباش وتجاراتهم من أسواق الشرق. والمعروف أن الأحباش توقفوا عند النصف الجنوبي للبحر الأحمر ولم يتجاوزوه صعوداً إلى النصف الشمالي بسبب خطورة الإبحار فيه، ما دفع المكيين إلى اجتذاب تجارة أفريقيا إلى الشاطئ الآسيوي ليحملوها على قوافلهم إلى أسواق فلسطين وبلاد الشام. وأضحت تجارة معظم المواد النفيسة التي تطلبها بيزنطية تعتمد على مكة، وبخاصة في أوقات اشتداد حدة الصراع الفارسي ـ البيزنطي.

ـ دفعت تدابير المراقبة المشدَّدة التي نفَّذتها الدولتان الفارسية والبيزنطية على الحدود بينهما في بادية الشام؛ التجار إلى سلوك طرق أخرى تجنبهم هذه المراقبة، وتُوفر عليهم بعض المكوس.

ـ كان استعداد مكة الذاتي في غاية الأهمية، وقد حسمت المنافسة لصالحها حين توافرت الظروف الخارجية الملائمة. وعندما سيطر أبرهة على اليمن وعزَّز قبضته

العسكرية على بعض القبائل العربية في وسط الجزيرة، لم ينجح في انتزاع تجارة الشرق من المكيين، وكانت غزوته لمكة دليلاً على هذا الفشل، ثم إن تنظيم العمل التجاري لا يحتاج إلى قوة عسكرية قدر حاجته إلى رأس مال تجاري، ووسائل نقل منظمة، وعهود كالتي عقدتها قريش مع القبائل العربية وملوك الأطراف من أجل ضمان المرور الآمن، وهي عناصر ذاتية توافرت لمكة ولم تتوافر لغيرها.

- وقف المكيون، من الصراع السياسي والعسكري في القرن السادس، على الحياد، وكانت للفرس مصلحة في أن يشتري المكيون بضائع تجارتهم الشرقية، وكانت لبيزنطية رغبة في شراء هذه البضائع. ولما حاول كل من الطرفين الاستيلاء على مكة وطرقها التجارية، وفشل، لم يجد بداً من ترك التجارة المكية تسير في مسارها الطبيعي، إذ لم يكن هناك بديل عن مكة والحرب سجال بينهما.

د - انهيار التجارة اليمنية

أتاح انهيار النظام التجاري اليمني، بفعل الغزو الحبشي لليمن، لمكة أن تستولي على زمام تجارة الشرق. والمعروف أن مكة كانت مركزاً لتجارة الحِميريين وأن الغزوات التي تعرَّض لها اليمن في القرن السادس الميلادي، دمَّرت تجارته، وأضعفه صراع الدول الكبرى على أرضه، ما أتاح إلى بروز زعماء القبائل، فتعاظمت مساهمتهم في التجارة البرية.

وفي الوقت الذي شهد فيه اليمن انهياراً لحضارته ووقوعه تحت الاحتلال الحبشي، وبفعل عدم قيام سلطة موحدة على جانبي مضيق باب المندب بعد احتلال أبرهة لليمن، بسبب أن هذا القائد استقل بحكم اليمن وأفشل المسعى الحبشي؛ كانت مكة قد بدأت تبرز كمجتمع حضاري مهم في الجزيرة العربية، وتتقدم إلى الصدارة حيث تمكَّنت من استغلال فرصة القتال الدائم بين الفرس والبيزنطيين، وتعطُّل طرق التجارة، وضعف الدولة الحِميرية في أواخر عهدها؛ فقامت بالخدمات التجارية التي كانت المميز الأساس لاقتصادها.

عوامل تفوق مكة

أدى عدد من العوامل إلى تفوق مكة التجاري، نذكر منها:

- انتقال محور تجارة الشرق إلى غربي الجزيرة العربية، كما ذكرنا.

- الحروب الفارسية - البيزنطية المتواصلة على مقربة من طريق الخليج العربي إلى الفرات والتي عطَّلته، وتعطَّل أيضاً طريق البحر الأحمر بفعل صعوبة الإبحار فيه.

- استعداد قريش الذاتي والمناسب من واقع انهيار جميع منافسيها وعجزهم عن

الاضطلاع بهذه المهمة التي كان القرشيون يطمحون إلى القيام بها في التجارة الدولية.

ـ لقد حُسمت المنافسة لصالح قريش حين توافرت الظروف الخارجية الملائمة. فعندما دعا الامبراطور البيزنطي جستنيان الأول مملكة الحبشة، بعد هزيمته في الرقة عام (٥٣١م)، إلى شن حرب ضد الفرس بمساعدة اليمن، فشل في مسعاه[١]. وفي الوقت الذي تعطلت فيه التجارة على خط الفرات، وفيما كان اللاعبون الكبار يتقاتلون؛ كانت قريش تنظم السلام بين القبائل العربية. وعندما احتل أبرهة اليمن، وعزَّز سلطته على بعض القبائل العربية، لم يتمكَّن من انتزاع تجارة الشرق من أيدي القرشيين.

ـ وقوف القرشيين على الحياد في الصراع السياسي والعسكري في القرن السادس الميلادي بين القوتين العظميين، إذ من الطبيعي أن تتجنَّب التجارة أماكن الحروب وما يجاورها.

تنظيم العلاقات التجارية[٢]

فرضت مهمة القرشيين في مجال الوساطة والتجارة الداخلية والخارجية، أشكالاً من التنظيمات التجارية المتطورة بالقياس للعصر الجاهلي، منها ما يتعلق بالأسواق الداخلية ومنها ما يتعلق بالتعامل مع الخارج.

تتمثل الأولى:

ـ بتنظيم أسواق موسمية يتم فيها التبادل التجاري، كموسم الأشهر الحرم، وقد نظَّموا أوقاتها على نحو يضمن لها الهدوء والأمان. وكان الحج من أكبر المواسم لقريش، تبيع ما عندها للأعراب القادمين إليها من البادية، ولأهل القرى القريبة من مكة والبعيدة عنها مثل الطائف ويثرب، وتشتري منهم ما يحملونه معهم من مواد وسلع، ثم تنقل قوافلهم ما يفيض منها إلى الأسواق الخارجية في بلاد الشام والعراق، وتشتري في مقابل ذلك ما يحتاج إليه أهل الحجاز وأعراب البادية من سلع ومواد.

ـ بالجباية المفروضة على الأسواق، كجباية المكوس التي كانت تؤخذ من بائع السلع، وضريبة الأرباح على المبيعات.

ـ بتنظيم المعاملات من إجارة وديْن ورهن ومزارعة، ويتعلق بعضها بالعقارات وحقوق الانتفاع بالمراعي والمياه، ويتعلق بعضها الآخر بالمكاييل والموازين والمقاييس.

وتتمثل الثانية:

ـ بأشكال العلاقات التي كان القرشيون يُحققون أهدافهم التجارية والاقتصادية على أساسها في التعامل مع بلدان العالم الخارجي، وهي أكثر تطوراً من حيث

---

(١) Devreesse: p284.

(٢) انظر: مروة: جا ص٢٢٤ ـ ٢٢٧.

أسلوبها المتقدم، ومن حيث كونها تشكل عاملاً لتطوير الخدمات التجارية، وإنماء التجارة القرشية، وإن النجاح الذي حقَّقوه لم يكن عفوياً بل استند على تنظيم ذي مستوى متقدم بالمقارنة مع ما هو متعارف عليه في ذلك العصر، ولا شك بأن القرشيين، بفضل ممارساتهم الطويلة، وتنوع صلاتهم الخارجية، على الصراع السياسي والعسكري بين الفرس والبيزنطيين، وإدراكهم لواقعهم؛ وقفوا على الحياد، ليحتفظوا بمصالحهم التجارية لدى كل منهما.

كانت القوافل القرشية الذاهبة إلى بلاد الشام تنزل في أسواق محدَّدة عيَّنتها الحكومة البيزنطية لتحصيل الضرائب المفروضة على الصادرات، ولتراقب الأجانب الذين يدخلون إلى أراضيها، ولا بد أن يكون مثل هذا التحديد جاء نتيجة اتفاقيات رسمية معقودة بين أصحاب هذه القوافل، أو من يمثلهم من زعماء قريش، وبين الحكومة البيزنطية.

ولعل الدافع لعقد هذه الاتفاقيات تحقيق المنافع التجارية المتبادلة، وحرص الحكومة البيزنطية على مراقبة تحرك التجار العرب في البلاد الخاضعة لها من المنطقة المتصلة بالجزيرة العربية، وربما كان مبعث هذا الحرص عدم اطمئنان البيزنطيين لحياد القرشيين تجاه الصراع بينهم وبين الفرس، وربما كان من بين تجار البيزنطيين في مكة من يتجسَّس لهؤلاء على العرب ويكتب إليهم عن صلاتهم بالفرس وعن اتصالات هؤلاء بأهل الجزيرة.

ومهما يكن من أمر، فإن العلاقات التجارية بين القرشيين وبين البيزنطيين كانت تخضع لاتفاقيات مشروطة بحدود معينة، كما كان الأمر كذلك في علاقاتهم مع الفرس والحبشة، وهي الإيلاف[١].

لم يقم الإيلاف حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام، وهو الثالث من أولاد عبد مناف، وحصل من قيصر على كتاب يُؤمِّن قريشاً وتجارتها.

وكان هاشم كلما مرَّ بحي من العرب بطريق الشام، أخذ من أشرافهم إيلافاً بالأمان عندهم وفي أرضهم بغير حلف على أن تحمل إليهم قريش بضائع وسلعاً، فيكفونهم حملانها ويردون إليهم رأس مالهم وربحهم، ولما قدم مكة عرض على القرشيين هذا الإيلاف مع الشام، فكانت قريش تخرج بتجارتها إلى الشام وهي آمنة، فهاشم إذن هو منشئ الإيلاف.

ومات هاشم بغزة في إحدى رحلاته التجارية، فخرج المطلب بن عبد مناف،

(١) الإيلاف: هو العِصَم، والعِصَم حبل تُشد به القربة أو الدلو التي تُعلق بها الوعاء، ويستعمل مجازاً بمعنى العهد.

وهو أكبر أولاده، إلى اليمن، فأخذ من ملوكهم عهداً لتجار قريش الذين يتاجرون مع العربية الجنوبية، كما أخذ الإيلاف ممن مرَّ به من العرب حتى أتى مكة.

وهلك المطلب بردمان من اليمن وهو في طريق عودته إلى مكة في إحدى رحلاته التجارية، فخرج عبد شمس بن عبد مناف، وهو ثاني أولاد عبد مناف، إلى الحبشة، وأخذ من ملكها كتاباً وعهداً لمن يتاجر مع الحبشة من قريش، ثم أخذ الإيلاف ممن بينه وبين القبائل العربية حتى بلغ مكة[١].

وهلك عبد شمس بمكة، فخرج نوفل، وهو أصغر ولد عبد مناف، إلى العراق، فأخذ عهداً من كسرى لتجار قريش، ثم أقبل يأخذ الإيلاف من العرب على طريق العراق، حتى قدم مكة، ثم رجع إلى العراق، فمات بسلمان[٢].

وهكذا فإن التجارة الدولية؛ أي نقل البضاعة من فريق إلى فريق خارج نطاق الجزيرة العربية، تتطلب أماناً في ديار القبائل على طول الطرق التجارية، وأماناً عند طرفي كل فريق، حيث تُشرى البضاعة وحيث تباع، وهذا ما حقَّقه الإيلاف.

ويشير الإيلاف إلى المدى الذي بلغته سيطرة قريش متمثلة ببني عبد مناف على شؤون التجارة في المنطقة العربية الغربية خلال النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي بحيث ملكوا من الأمر ما أتاح لهم أن يعقدوا المعاهدات وينظموا علاقات المنطقة التجارية مع غيرهم على مستوى الملوك والحكام وفقاً لما تقتضيه مصالحهم التجارية وامتيازتهم الاجتماعية[٣].

وسنَّت قريش، استناداً للإيلاف، رحلتي الشتاء إلى اليمن والحبشة والعراق، والصيف إلى بلاد الشام، ويعني ذلك أنها وسَّعت تجارتها وانتقلت بها من مرحلة التجارة المحلية، التي كانت قائمة منذ أزمنة غير معروفة، إلى مرحلة التجارة الدولية التي كانت تتطلب ربط السوقين، سوق المحيط الهندي وسوق البحر الأبيض المتوسط، بشريان القوافل الصحراوية. وتوضح سورة قريش في القرآن الكريم إيلاف الرحلتين بإطعام الله قريش من جوع وأمانه إياهم من خوف، ويؤكد أن قريشاً، حين عقدت الإيلاف لتسيير القوافل إلى وجهاتها المذكورة؛ اتسعت تجارتها وازداد دخلها، وأن عهود الإيلاف ضمن لها السلام بين القبائل وأمان الطريق[٤].

---

(١) محمد بن حبيب: ص٤١ ـ ٤٥.

(٢) القالي، أبو علي إسماعيل القاسم: ذيل الأمالي والنوادر: ص١٩٩، ٢٠٠.

(٣) مروة: جا ص٢٢٧.

(٤) قال عزَّ من قائل في سورة قريش: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ❁ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ❁ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ❁ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾.

أضحى الإيلاف قيمة يُفاخَر بها حتى نُسب إلى مطرود بن كعب الخزاعي يرثي عبد المطلب، قوله:

يا أيها الرجل المحوَّلُ رحله   هلَّا نزلت بآل عبد مناف
هبلتك أمك[1] لو نزلت بحيِّهم   ضمنوك من جوع ومن إقراف[2]
الآخذون العهد من آفاقها   والراحلون لرحلة الإيلاف
والمطعمون إذا الرياح تناوحت[3]   حتى تغيب الشمس في الرِّجاف[4]
والخالطون غنيهم بفقيرهم   حتى يكون فقيرهم كالكافي[5]

ويبدو أن الأسلوب الذي اتبعته قريش في إيلاف العرب لم يكن الأسلوب الوحيد؛ لأن بعضها قد لا يرغب أو لا يقدر على الاشتراك بالتجارة، وقد تكون له القدرة على عرقلة تجارتها، فلجأ القرشيون إلى استمالة هؤلاء بدفع جُعل لقاء حق المرور الآمن، وأضحت هذه الأتاوات مصدر دخل ثابت لكثير من البدو[6]. وقد أدرك شيوخ هؤلاء القبائل أن مصلحتهم تقضي في نجاح تجارة قريش، لذلك عمدوا إلى ردِّ الجُعل الذي تقاضوه لقاء المرور الآمن، إلى أصحاب القوافل، إذا ما تعرضت لاعتداء لم يتمكَّنوا من ردِّه، فازدادت الثقة بهذا النظام، كما ازداد إحساس القبائل بالتبعات الملقاة على عواتقهم[7].

كان لتنظيم العلاقات التجارية بين قريش والعالم الخارجي على النحو المتقدم، انعكاسات اقتصادية واجتماعية على حياة أهل الحجاز في المدن والبادية معاً، لعل أهمها:

- وفَّر الأسباب لانتظام هذه العلاقات من دون تركها لعفوية الظروف الطارئة أو لتقلبات الأوضاع السياسية.

- فتح مجالات واسعة الحد للتجارة الشرقية وللوساطة التجارية بين الشرق والغرب.

- شكَّل عاملاً أساسياً في نشر التعامل النقدي داخل المجتمع القبلي بمختلف أنواع النقد المتداول آنذاك في الدول التي كان القرشيون يتعاملون معها، مثل الدينار الذهب البيزنطي والدرهم الفضة الفارسي.

---

(١) هبلتك أمك؛ أي ثكلتك.
(٢) إقراف؛ أي أنهم يضمنون نزيلهم من الجوع والبغي والمرض.
(٣) تناوحت الرياح: اشتد هبوبها.   (٤) الرِّجاف: يوم القيامة.
(٥) البلاذري: أنساب الأشراف: جا ص٦٧. ابن منظور: جـ٩ ص١١٣، ١١٤.
(٦) الشريف: ص٨٠.   (٧) سحاب: ص٢٢٥.

ـ كان أداة فعَّالة في ربط أعداد وفئات كثيرة من سكان المدن والبادية بالعملية التجارية، سواء كان ذلك بمشاركة بعضهم في تمويل القوافل بمستويات متفاوتة أم بتشغيل قسم كبير منهم، إما أدلاء للقوافل أو حراساً لها أو مقدمين الخدمات الضرورية لها على المحطات المنتشرة على طول الطرق البرية وفي الموانئ البحرية، أو متاجرين يتبادلون معها السلع الاستهلاكية، وينشئون تجارات صغيرة بين القبائل، إضافة إلى رؤساء القبائل الذين كانوا يتقاضون الأتاوات والضرائب والهدايا لقاء حماية القوافل، كما كانوا يوظفون مكاسبهم المالية بالتجارة[١].

ارتفعت مكانة مكة نتيجة الأعمال التجارية واشتهرت في بلاد العرب، فتوافد عليها التجار من بلاد الشام والعراق وبيزنطية وفارس. وكانت قريش تفرض الأتاوات على التجار الأجانب الوافدين إلى مكة، وعلى التجار غير المرتبطين معها بروابط التحالف، من ذلك ضريبة العشر، فكانوا يعشرون من يدخل مكة من تجار الروم (البيزنطيين)[٢].

وقام تجار قريش بدور الوساطة أو الاتجار بنقل تجارة أهل اليمن والعربية الجنوبية وأفريقيا الشرقية إلى أسواق فلسطين وبلاد الشام، وحمل تجارة بلاد الشام وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحجاز ونجد واليمن مُحقِّقين بذلك أرباحاً طائلة جعلتهم من أغنى العرب عند ظهور الإسلام، وصيَّرت مكة مركزاً مالياً كبيراً في الجزيرة العربية كلها[٣]، ودهليزاً لمنتجات الهند والصين وشرقي أفريقيا وفارس والعراق وبلاد الشام والجزيرة العربية.

وكان لبعض الأسر المكية الغنية تجارات خاصة مع البلدان المجاورة خارج إطار رحلتي الشتاء والصيف، ولها وكلاء يبيعون لها ويشترون، كما كانت هي تتوكل لتجار العراق وبلاد الشام واليمن، وجنت من هذا التعامل أرباحاً طيبة[٤].

وهكذا كانت التجارة وما يرتبط بها من خدمات مصدراً رئيساً لثروة مكة وغنى زعماء قريش الذين أضحوا يشكلون «أرستقراطية» المجتمع الجاهلي.

مؤسسات مكة السياسية والاجتماعية

تمهيد

إن التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي عبَّرت عنها سيطرة قصي على مقدرات

---

(١) بلياييف: ص١٣٥، ١٣٦. مروة: جا ص٢٢٨.
(٢) طبقات ابن سعد: جا ص٣٩.
(٣) دلو: جا ص١٣٩.
(٤) علي: ج٤ ص١١٤.

مكة كانت تعني بالضرورة حدوث تطور آخر هو نتيجة حتمية لها، تمثَّل بنوع من التنظيم السياسي بما يتناسب معها، ويُكوِّن الإدارة الكفيلة بحمايتها وحماية المكاسب التي نتجت عنها، ولا بد من الإشارة إلى أن بعض هذه المؤسسات سبق ظهور قصي، وقد أحياها بعد استيلائه على مكة. فعلى الرغم من أن البيت الحرام كان محجة العرب منذ أيام خزاعة على الأقل، إلا أن روايات المصادر لا تذكر شيئاً مهما عن الرفادة والسقاية والأشهر الحرم وغيرها قبل عهد قصي. وتُعبِّر هذه المؤسسات عن مفهوم القرشيين للاستيلاء على السلطة في مكة، وما يعنيه ذلك من وظائف ومهام يضطلع بها القوم لتنظيم الحياة السياسية والدينية والاجتماعية، والمعروف أن الصراع بين قصي وخزاعة كان على ولاية البيت ومفتاح الكعبة والمؤسسات التابعة لهذه الولاية، إلا أن قصياً أقرَّ، بعد أن ولي مكة للعرب، ما كانوا عليه، وذلك أنه كان يراه ديناً في نفسه لا ينبغي تغييره، فأقرَّ آل صفوان وعدوان والنسأة ومرة بن عوف على ما كانوا عليه، واحتفظ لنفسه بدار الندوة والحجابة واللواء والرفادة والسقاية؛ أي بالأمور المالية والإدارية والعسكرية، فحاز بذلك شرف مكة كلها[1]. وتُجمع روايات المصادر على أن قصياً هو الذي أنشأ هذه الوظائف، على الرغم من أن الحرم المكي والحج إليه كانا قائمين قبل استيلاء قصي وقريش على مكة، وقد يعني ذلك إما أن تكون خزاعة، بعد أن ضعف أمرها في مكة، قد أهملت هذه الوظائف، فأعاد قصي تنظيمها وتوسيع نطاقها، وإما أن قصياً ارتأى أن يُنشئ هذه الوظائف ليعزز مكانة مكة ويجمع العرب من حولها.

دار الندوة[2]

كان نظام الحكم في مكة أشبه ما يكون بحكم مجلس مدينة أو حكم مجلس بلدي، لا حاكم فيه ينفرد بالحكم، وليس فيه تمثيل نيابي بالمعنى المفهوم للانتخاب، إنه نظام مشيخي يتألف من عشرة أعضاء شيوخ هم بمثابة الأشراف والنخبة الواعية من حكماء القوم الأكثر عقلانية، والأبعد عن التأثر بالانفعالات العاطفية، يمثلون البطون القرشية، إنهم أصحاب النفوذ والمال، يشغلون المركز الأول في الدولة، ويُورِّثون مناصبهم إلى أولادهم أو إلى زعيم العائلة، ويمكن تسميته بحكم دار الندوة أو حكم ندوة قريش، وكان على رأسه في عصر الرسالة

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص١٤٨.

(٢) وإنما سميت بدار الندوة لأن القرشيين كانوا ينتدون فيها، أي يجتمعون للخير والشر، والنديُّ مجمع القوم إذا اجتمعوا.

أبو سفيان بن حرب، الذي تمكَّن من الوصول إلى هذا المركز بفضل أهمية عشيرته وغناها في المجتمع.

شكَّلت دار الندوة، أو الملأ، المظهر الأول لتجلي سيادة قريش وسيطرتها على مقدرات مكة، أنشأها قصي بن كلاب، كما ذكرنا، قرب الكعبة من جهة الشمال، ولعل الهدف من إقامتها قرب الكعبة هو إضفاء شيء من الحرمة عليها، وتُمثل أساس الدولة؛ أي المؤسسة السياسية للطبقة الحاكمة التي تهيمن على مجالات النشاط السياسي والاقتصادي، وهي تُمثل، في الوقت نفسه أيضاً، ولادة هذه الطبقة في المجتمع الجاهلي.

يجتمع أعضاء الملأ ليتناقشوا في الأمور المهمة التي تخص مكة والعشائر القرشية، مثل الاشتراك في الحروب، عقد المعاهدات والاتفاقيات، تجهيز القوافل وتنظيمها، إجراء مراسم النكاح، درع النبات(١) وغيرها، ويشبه ذلك ما كان يجري عند الإغريق من الإقرار بالوصول إلى سن المواطنية(٢)، ويبدو أن ذلك كان يجري في الجاهلية بمراسم احتفالية(٣).

وضع قصي شروطاً لدخول دار الندوة، منها أن الندوة مفتوحة لكل بني قصي مهما بلغت أعمارهم، وأما من عداهم، من عامة قريش، فلا يدخلها إلا من بلغ الأربعين عاماً من عمره.

ويبدو أن هذا التدبير قد ينطبق على الأوضاع في أيام قصي، ولا يمكن أن ينطبق في أيام ظهور الإسلام؛ لأن عدد أحفاد قصي أصبح كبيراً، كذلك لم يراع السن بدقة، فقد دخلها حكيم بن حزام وعمره خمس عشرة سنة، ودخلها أبو جهل وعمره ثلاثون سنة(٤). ولا شك بأن الثراء كان من المؤهلات للنفوذ السياسي في مجلس دار الندوة.

---

(١) عندما تبلغ الجارية، أي الفتاة، تُدرع في دار الندوة، فيشق درعها، أي ثوبها الصغير، وتُلبس ثوباً كبيراً خاصاً بالمرأة.

(٢) العلي: ص١٤٥.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف: جا ص٥٩. ابن سعد: جا ص٧٠.

(٤) ابن بكار، الزبير: جمهرة نسب قريش وأخبارها: ص٣٥٣، ٣٥٤. الأزرقي: جا ص١٠٩. النهروالي، قطب الدين: كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام: ص٤٥.
الواقع أن حكيم بن حزام قد دخل دار الندوة وهو في هذه السن تيمناً به واعترافاً ببركته لأن أمه ولدته في جوف الكعبة؛ ودخلها عمرو بن هشام، أبو جهل، نظراً لحكمته وسداد رأيه فقد احتكم إليه العرب كثيراً في أمور مختلفة.

لم يكن في قرارات دار الندوة ما يوحي بأي نوع من أنواع القسر، بل كان التزام الإجماع والتقليد والعرف يوحي للمكيين سلوكاً جماعياً يبدو اختيارياً، ولم تكن قرارات مجلس الملأ ملزمة للقبائل إلا عند الإجماع، ولذا لم يكن لعشيرة سلطان على عشيرة، بل كانت العشائر حرة تماماً، لكن اشتراكها معاً في المصلحة كان يُخفِّف من غلواء هذا الأمر(١)، وكان بمقدور الأكثرية إذا أقرَّت قراراً أن تقاطع معارضيها أو تستخدم الضغط الإجماعي ضدهم(٢).

وإذ كانت العشائر خاضعة اختيارياً لمجلس الملأ، كان المجلس مصدر السيادة المكية، ذلك أن مدينة مكة كانت مستقلة وتتمتع بالسيادة، وهي تعقد المواثيق والعهود مع الأجانب، وتقيم العلاقات معهم من دون الرجوع إلى أي سلطان غير سلطان الملأ. وكان ينظم العلاقات مع الخارج، سفير مُنافِر، أي مُحاكم، فإذا نشبت حرب بين قريش وبين غيرهم بعثوه سفيراً مطلق الصلاحية، وكان عمر بن الخطاب يشغل هذا المنصب قبل ظهور الإسلام، ومن مهامه أن يُنافر القبائل التي تتحدى السلطة المكية(٣).

وعزَّزت هيئة الملأ سلطانها بجهاز عسكري تشكل من حلفاء قريش ومن الأحابيش(٤)، والمعروف أن قريشاً، بوصفها تتعاطى التجارة، نأت عن الانخراط بنفسها في هذه القوة العسكرية، وأن سر قوتها هو الأحلاف التي مكَّنتها من أن تسود القبائل، فتحولَّت بذلك إلى ما يشبه الزعامة السياسية والاقتصادية.

والواقع أن التنظيم السياسي والعسكري الذي ابتدعته قريش قبل الإيلاف، لم يكن هدفه بالضرورة تسيير التجارة الدولية، إذ يستطيع هذا التنظيم أن يسد حاجات أخرى، منها القيام على تنظيم الحج والأسواق الموسمية المحلية وربما تنظيم تجارة اللبان اليمني لحساب الدولة الحِميرية أو لمن ورث حكم اليمن من بعدها، لكن يبدو أن الإيلاف، حين نشأ، استوعب فيما يبدو هذه المؤسسات وأدرجها في نظامه

---

(١) الشريف: ص١١٢، ١١٣.

(٢) كما حصل عندما قاطعت قريش بني هاشم وبني المطلب عندما رفض أبو طالب، عم النبي ﷺ، تسليمه إلى القرشيين المعارضين لدعوته ليقتلوه.
ابن هشام: ج٢ ص١٠١، ١٠٢. البلاذري: أنساب الأشراف: ج١ ص٢٦٥، ٢٦٦.

(٣) ابن عبد ربه: ج٣ ص٣١٤.

(٤) يُطلق مصطلح الأحابيش إما على فئة من الرقيق الأسود الحبشي المصدر الذي استقر في مكة وجوارها بعد هزيمة أبرهة، وإما على قبائل عربية اجتمعوا عند جبل حبشي في أسفل مكة وتعاهدوا على نصرة قريش وحماية الحرم.
Watt, Montgomery: Muhammad at Mecca pp154 - 157.

الواسع، بعد أن اتسعت آفاق تجارة قريش. ولا شك في أن بقاء دار الندوة والحلف مع الأحابيش وغيرهما قائمين حتى ظهور الإسلام، لدليل على استيعاب الإيلاف لهذه المؤسسات وقدرته على تكييفها ضمن أطره[1].

وبناءً على ما تقدم يمكن القول بأن دار الندوة تملك ما يشبه السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية والإدارية مجتمعة في هيئة واحدة؛ أي هي الفئة العليا من قريش. وكمظهر لحصر السلطات في هذه الفئة المتميزة، حصر الملأ حق دخول دار الندوة لمن بلغ الأربعين من العمر من قريش باستثناء أولاد قصي، فإن لهم جميعاً حق دخولها حتى من كان منهم دون الأربعين كما ذكرنا، وذلك امتياز حصري لذوي السلطة.

احتفظت دار الندوة بمكانتها في الإسلام على الرغم من توقفها عن أداء مهمتها، ذلك أن معاوية بن أبي سفيان قد ابتاعها بمائة ألف درهم وجعلها داراً للإمارة ينزل فيها إذا قدم إلى مكة في موسم الحج، كما نزلها معظم خلفاء بني أمية وبعض الخلفاء العباسيين الأوائل، إلى أن اتخذ هارون الرشيد دار العمارة مقراً لنزوله، وهجر دار الندوة التي حلَّ عليها الخراب واضمحل شأنها ثم تهدمت حوالي نهاية القرن الثالث الهجري، ودخلت في توسعة الحرم المكي في عام (٢٨١هـ) في عهد الخليفة العباسي المعتضد[2].

الحجابة

هي السدانه، وكان القائم بها يمتلك مفاتيح الكعبة، فهو الذي يأذن للناس بالدخول إليها ويسمح بممارسة الشعائر الدينية فيها، والراجح أنها لا تتطلب أن يكون صاحبها عالماً في الدين، وقد أخذها قصي عن خزاعة، ويبدو أنها، أي خزاعة، أهملت هذه الوظيفة عندما ضعف أمرها في مكة، فأعاد قصي تنظيمها وتوسيع نطاقها، ومن أجل ذلك نسب الإخباريون إنشاءها إليه.

اللواء

هو راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا إلى الحرب، فهو العلم الذي يُحمل في المعارك وتدور المعركة حوله.

القيادة

هي قيادة الجيش في المعارك، يتولاها قصي أو من يُنيبه عنه.

---

(١) سحاب: ص٢٩٦.

(٢) ابن بكار: ص٦٢٦. الأزرقي: ج١ ص٢٦٩، ج٢ ص١٠٩، ٢٥٣.

الرفادة والسقاية

اختصت كل من الرفادة والسقاية بخدمة غير المكيين ممن يفدون على مكة في المواسم، وكانتا وثيقتي العلاقة بسعي قريش إلى جمع قبائل العرب حول حرمها، «وكانت الرفادة خرجاً تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب، فيصنع به طعاماً للحجيج فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، وذلك أن قصياً فرضه على قريش، فقال لهم حين أمرهم به: يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته، وأهل الحرم، وأن الحجاج ضيف الله وأهله وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم. ففعلوا، فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجاً، فيدفعونه إليه، فيصنعه طعاماً للناس أيام منى، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية على قومه حتى قام الإسلام، ثم جرى في الإسلام إلى يومك هذا، فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينقضي الحج»(١).

والسقاية ملازمة للرفادة لتخفيف مشاق الحج وعنائه، وكان القائم بالسقاية يجمع الماء من آبار مكة ويحمله على الإبل في المزاد والقِرب ويصبه في حياض من أدم توضع في فناء الكعبة، فيرده الحجيج ويشربون منه(٢).

لم تكن السقاية ماء على الدوام، بل إن بعض القرشيين سقى الحجاج نبيذاً ولبناً، بل إن أبا أمية المغيرة المخزومي سقى الحجاج عسلاً فسُمِّي زاد الركب(٣).

ولا بد للقرشيين، حتى يخرجوا في كل عام الخرج الخاص بالرفادة، أن تكون تجارتهم مزدهرة لأنها المورد الذي يُنفقون منه على إعداد الخدمات لزوار البيت، والمعروف أن تجارة قريش كانت، منذ عهد قصي وقبل الإيلاف، محلية، وقد حوَّلها الإيلاف، الذي قام به أحفاد قصي من أبناء عبد مناف، إلى تجارة خارجية. فهل باستطاعة التجارة المحلية أن تتحمل مصاريف الرفادة والسقاية؟. يذكر المسعودي أن عبد المطلب بن هاشم هو أول من أقام الرفادة والسقاية للحاج، وكان أول من سقى الماء بمكة عذباً(٤)، ويخالف ذلك ما ذكرته المصادر الأخرى. والراجح أن الرفادة والسقاية أُنشئت قبل الإيلاف، وربما قبل عهد قصي لإطعام وسقاية الحجيج الذي كان قليل العدد إذا ما قورن بما أضحى عليه بعد الإيلاف،

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص١٥٢. محمد بن حبيب: ص٣٢، ٣٣. العسكري: ص١٦، ١٧.

(٢) الأزرقي: جـ١ ص١١٠.

(٣) محمد بن حبيب: ص٣٦٧.

(٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر: جـ٢ ص١٠٣.

فازدادت بطبيعة الحال قدرة القرشيين على الإطعام والإسقاء[1].

التنازع القرشي حول اقتسام السلطة

عندما شاخ قصي ورقَّ عظمه، جعل لابنه عبد الدار، وكان يؤثره على بقية إخوته، دار الندوة والحجابة واللواء والرفادة والسقاية، ما أثار عليه إخوته بعد وفاة والدهم، وبخاصة عبد مناف.

ويبدو أن قصياً آثر عبد الدار لأنه البكر، ولأن عبد مناف كان قد شرف في عهد أبيه وذهب كل مذهب. قال قصي لعبد الدار: «أما والله يا بني لألحقنك بالقوم، وإن كانوا قد شرفوا عليك[2]، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له، ولا يعقد لقريش لواء لحربها إلا أنت بيدك، ولا يشرب أحد بمكة إلا من سقايتك، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامك، ولا تقطع قريش أمراً من أمورها إلا في دارك. فأعطاه داره، دار الندوة التي لا تقضي قريش أمراً من أمورها إلا فيها، وأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة»[3]. وهكذا ورَّث قصي هذه الوظائف لابنه البكر وحرم أبناءه الباقين ما أثار حنقهم، فاندلعت النزاعات بينهم، وانقسمت قريش إلى طائفتين شكَّلتا حلف المطيبين وحلف الأحلاف، أو حلف لعقة الدم، كما ذكرنا.

وسوند بعد ذلك بين القبائل، وتحدَّدت لكل قبيلة القبيلة الأخرى المواجهة لها، والتي عليها أن تقاتلها حتى الفناء، وهي على الشكل التالي:

- بنو عبد مناف في مواجهة بني سهم.
- بنو أسد في مواجهة بني عبد الدار.
- بنو زهرة في مواجهة بني جمح.
- بنو تميم في مواجهة بني مخزوم.
- بنو الحارث في مواجهة بني عدي بن كعب[4].

---

(١) سحاب: ص٢٢٨.

(٢) يبدو أن المقصود بالشرف هنا، الثراء الناتج عن التجارة.

(٣) وفي رواية أن قصياً قسَّم مهام مكة بين ولده، فجعل السقاية والرئاسة لعبد مناف، والدار لعبد الدار، والرفادة لعبد العزى، وحافتي الوادي لعبد قصي. وقيل إنه قسَّم أمور مكة الستة بين ابنيه عبد الدار وعبد مناف، فأعطى الأول السدانة، وهي الحجابة، ودار الندوة، واللواء، وأعطى الثاني السقاية، والرفادة، والقيادة.
ابن هشام: جـ١ ص١٥٢. وقارن باليعقوبي: جـ١ ص٢٩٢. والأزرقي: جـ١ ص١٠٩، ١١٠.

(٤) ابن هشام: جـ١ ص١٥٤.

وتجهَّزت الطائفتان للقتال ثم تداعتا فجأة إلى الصلح الذي تضمَّن ما يلي:
- يأخذ بنو عبد مناف السقاية والرفادة.
- يكون من نصيب بني عبد الدار الحجابة واللواء والندوة[1].

وتحاجز الناس عن الحرب، وثبت كل قوم مع من حالفوا، وظلوا على هذا النحو حتى ظهور الإسلام ولكن مع شيء من التغيير[2].

استمرت هذه الوظائف في أعقاب الأجداد يتوارثونها: فقد ظلّت دار الندوة لعبد الدار وولده، حتى باعها عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار من معاوية بن أبي سفيان، فجعلها داراً للإمارة في مكة[3]، كما ذكرنا.

وآلت الحجابة بعد عبد الدار إلى ابنه عثمان ثم إلى عبد العزى بن عثمان، ثم إلى أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى، ثم إلى طلحة بن أبي طلحة. وعندما فتح النبي محمد ﷺ مكة دعا عثمان بن طلحة[4]، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففُتحت له، فدخلها، ثم جلس في المسجد، فقام إليه العباس بن عبد المطلب، وفي رواية علي بن أبي طالب، والمفتاح في يده، فقال: «يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية» فأنزل الله عليه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء/٥٨]، عندئذ دعا عثمان بن طلحة فأعطاه المفتاح وقال: (هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم بر ووفاء)[5].

ولم يزل اللواء في بني عبد الدار حتى كان يوم أُحد، مع طلحة بن أبي طلحة، فقُتل عليه من قُتل منهم، وعندما أسلم بنو عبد الدار قالوا: «يا نبي الله، اللواء إلينا. فقال ﷺ: الإسلام أوسع من ذلك. فبطل اللواء»[6].

وآلت الرفادة والسقاية إلى هاشم بن عبد مناف، ثم للمطلب بن عبد مناف، ثم لعبد المطلب، ثم للزبير بن عبد المطلب، ثم لأبي طالب، ولم يكن أبو طالب قادراً

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص١٥٤.
(٢) لقد تغيّرت التحالفات وفقاً للظروف السياسية حتى استقرت على الشكل التالي: نشأ حلف الفضول، وكان امتداداً لحلف المطيبين بعد أن خرج منه بنو نوفل وبنو عبد شمس الذين انضموا إلى الأحلاف، وبنو الحارث بن فهر، لكن هؤلاء عادوا وانضموا إلى بني هاشم، وخرج من الحلف، على عهد النبي ﷺ، بنو أسد ودخله بنو عديٍّ.
(٣) البلاذري: جـ١ ص٦٠.
(٤) كان عثمان بن طلحة قد أسلم في الهدنة بين صلح الحديبية وفتح مكة.
(٥) ابن هشام: جـ٤ ص٩٣، ٩٤. الأزرقي: جـ١ ص١١١. البلاذري: جـ١ ص٦٠. تفسير ابن كثير: جـ١ ص٥١٥.
(٦) البلاذري: جـ١ ص٦١، ٦٢.

على الإنفاق، فآلت الرفادة والسقاية إلى العباس بن عبد المطلب، ثم آلت إلى عبد الله بن عباس، ثم إلى ابنه علي وأحفاده حتى أخذها منهم الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بحجة أنهم لا يلونها بأنفسهم وإنما يقلدونها مواليهم، فولّى أمر السقاية ونفقة البيت وإطعام الحاج، مولى له يُسمَّى زريق(١).

العقائد الدينية

الحج

كانت الآلهة في بلاد العرب، على تعددها، مستقرة في أماكن بيوتها، وكان عبَّادها يزورونها في تلك البيوت، وقد تكون الزيارات منظمة في مواعيدها وأشكالها، وقد تكون منظمة بحسب مراسم وطقوس معينة وفي أوقات محددة، وتُسمى الحج.

والحج من أقدم الشعائر التي مارستها الأمم القديمة ومن بينهم العرب، وهو نظام سامي قديم، وأقرته الأديان السماوية، ويُعدُّ من أعظم الشعائر التي أقرها الإسلام من التراث السابق، وأساسه من شعائر عبادة التوحيد دين إبراهيم الحنيف.

وَوُجد في الجزيرة العربية عدد من الآلهة كان يحج إليها، فقد كان الأزد يحجون في مكة ويقفون مع الناس المواقف كلها، ولكنهم لا يحلقون رؤوسهم، فإذا انتهوا من ذلك، أتوا مناة فحلقوا رؤوسهم عندها، وأقاموا عندها، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك(٢). وكانت قريش تزور العزى، وتُهدي لها، وتتقرَّب عندها بالذبائح(٣)، كما كانت قضاعة ولخم وجذام وأهل الشام يحجون إلى الأقيصر، ويحلقون رؤوسهم عنده(٤)، وكانت مذحج تحج إلى يغوث، كما كانت طيء تعبد القلس وتهدي إليه(٥).

وذكر محمد بن حبيب نص تلبيات العرب لإساف والعزى واللات وجهار وسواع وشمس ومحرق واللبا ومرحب وذريح وذي الكفين وهبل(٦)، ما يحمل على الاعتقاد بأنه كان يُحج إليها كلها.

وكان الحج إلى مكة يتم في أشهر معينة هي شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة، وهي من الأشهر الحرام الأربعة التي تشمل رجب أيضاً. ولما كان للحج علاقة بالمواسم والتجارة التي تتبع السنة الشمسية، فمن الراجح أنه كان ثابتاً في أحد مواسم السنة، وذلك بإضافة شهر كل ثلاث سنوات. ويمكن أن نستنتج من تسميات

---

(١) البلاذري: جـ١ ص٦٤.
(٢) الحموي: جـ٥ ص٢٠٥.
(٣) الكلبي: ص٣٩.
(٤) المصدر نفسه: ص٥٢.
(٥) المصدر نفسه: ص٧٠، ٧١.
(٦) المحبَّر: ص٣١٠ ـ ٣١٤.

الأشهر العربية، أن الحج يقع في الخريف وهو فصل معتدل المناخ نسبياً وتكون فيه الحياة الاقتصادية ناشطة نظراً لحاجة الناس إلى التزود لفصل الشتاء[1].

تنوع مناسك الحج وشعائره

الحلة

تنوعت طقوس الحج وشعائره بتنوع القبائل، وقد صنَّفهم المؤرخون في نوعين هما الحلة والحمس[2]، وأضاف محمد بن حبيب[3] نوعاً ثالثاً فرعياً هو الطُلُس. فالحلة هم: تميم باستثناء يربوع، ومازن وضبة وحميس وظاعنة والغوث بن مرة وقيس عيلان بأسرها باستثناء ثقيف، وعدوان وعامر بن صعصعة وربيعة بن نزار كلها، وقضاعة كلها ما خلا علافاً وجناباً والأنصار وخثعماً وبجيلة بن عبد مناة بن كنانة، وهذيل بن مدركة وأسداً وطيئاً وبارقاً.

كان الحلة يُحرِّمون الصيد في النسك ولا يحرمونه في غير الحرم، ويتواصون في النسك، ويمنح الغني ماله أو أكثره في نسكه، فيسلأ فقراؤهم السمن ويجتزُّون من الأصواف والأوبار والأشعار ما يكتفون به، ولا يلبسون في نسكهم الجدد ولا يدخلون من باب دار ولا من باب بيت، ولا يأويهم ظل ما داموا محرمين. وكانوا يدهنون، ويأكلون اللحم، وأخصب ما يكونون أيام نسكهم، فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم، تصدَّقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم، ثم استكروا في ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد، ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء، يباشرونها بأقدامهم، فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عراة، وكان لكل رجل من الحلة حرمى من الحمس يأخذ ثيابه، فمن لم يجد ثوباً طاف عرياناً. وإنما كانت الحلة تستكري الثياب للطواف في رجوعهم إلى البيت؛ لأنهم كانوا إذا خرجوا حجاجاً لم يستحلوا أن يشتروا شيئاً ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم، إلا اللحم[4].

وفيما يتعلق بلباس الإحرام، فإن الحلة كانت تطوف بالبيت أول ما يطوف الرجل والمرأة في أول حجة يحجانها، عراة، وكان بنو عامر بن صعصعة وعك ممن يفعل ذلك، فكانوا إذا طافعت المرأة منهم عريانة تضع إحدى يديها على قبلها والأخرى على دبرها، ويطوف الرجال في النهار والنساء في الليل، فإذا بلغ أحدهم باب المسجد قال للحمس: «من يعير مصوناً؟ من يعير معوزاً؟»، فإن أعاره أحمسي ثوبه طاف به، وإلا ألقى ثيابه بباب المسجد، ثم دخل للطواف، فطاف بالبيت سبعاً

---

(١) العلي: ص٢٤٤ ـ ٢٤٦.

(٢) الأزرقي: جا ص١٣٩.

(٣) المحبَّر: ص٢٠١.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٠١، ٢٠٢.

عرياناً. فكانوا يقولون: «لا تطوفوا في الثياب التي فارقنا فيها الذنوب»، ثم يرجع إلى ثيابه فيجدها لم تُحرَّك. وكانت بعض نسائهم تتخذ سيوراً متعلقة في حقوتها وتستر بها، إلا أن يتكرَّم مُتكرِّم فيطوف في ثيابه، فإن طاف فيها لم يحل له أن يلبسها قط، ولا ينتفع بها ويطرحها لقاً[١].

وكان مما سنوا به إذا حج الصرورة[٢] من غير الحمس... رجلاً أو امرأة، لا يطوف بالبيت إلا عرياناً، والصرورة أول ما يطوف... في ثوب أحمسي إما إعارة أو إجارة، يقف أحدهم بباب المسجد، فيقول: «من يعير مصوناً؟ من يعير ثوباً؟» فإن أعاره أحمسي ثوباً أو أكراه طاف به، وإن لم يُعره ألقى ثيابه بباب المسجد من خارج، ثم دخل الطواف وهو عريان، يبدأ بإساف فيستلمه، ثم يستلم الركن الأسود، ثم يأخذ عن يمينه، ويطوف، ويجعل الكعبة عن يمينه، فإذا ختم طوافه سبعاً استلم الركن، ثم استلم نائلة فيختم بها طوافه، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تُمسّ، فيأخذها فيلبسها، ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عرياناً، ولم يكن يطوف بالبيت عرياناً إلا الصرورة من غير الحمس.

الحمس[٣]

الحمس هم قريش كلها وكنانة وخزاعة ومن ولدته قريش من سائر العرب، وكل من جاور مكة أو نزلها من قبائل العرب[٤].

لقد أحاطت قريش نفسها بمجموعة من العقائد الدينية التي كان بعضها قائماً قبل عام الفيل، ونشأ بعضها الآخر بعد عام الفيل، ومنها الحمس. ذكر ابن هشام عن ابن إسحاق: «وقد كانت قريش، لا أدري أقبل الفيل أم بعده، ابتدعت رأي الحمس رأياً رأوه وأداروه، فقالوا: نحن بنو إبراهيم، وأهل الحرمة، وولاة البيت، وقطان مكة وساكنها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا، ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا، فلا تُعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفَّت العرب بحرمتكم، وقالوا: قد عظَّموا من الحل مثل ما عظَّموا من الحرم، فتركوا الوقوف على عرفة، والإفاضة منها، إلا أنهم قالوا: نحن أهل الحرم، فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة، ولا نُعظِّم غيرها كما نُعظِّمها نحن

(١) الأزرقي: جـ١ ص١٨١، ١٨٢. واللقا: من الثياب التي يطوفون فيها ويرمون بها بباب المسجد فلا يمسها أحد من خلق الله حتى تبليها الشمس والأمطار والرياح ووطء الأقدام.

(٢) الصرورة: من لم يحج قط.

(٣) الأحمس: المتشدد على نفسه في الدين.

(٤) ابن هشام: جـ١ ص٢٣٠.

الحمس والحمس أهل الحرم، ثم جعلوا لمن وَلدوا من العرب من ساكن الحل «والحرم مثل الذي لهم، بولادتهم إياهم، يحل لهم ما يحل لهم، ويُحرم عليهم ما يُحرم عليهم»[(١)].

وفي رواية، أن الحماسة نشأت بعد عام الفيل، وكانوا كذلك حتى بعث الله محمداً ﷺ فنسخه، فأفاض من عرفات، وطاف الحجاج بالثياب التي معهم من الحل، وأكلوا طعام الحل في الحرم أيام الحج[(٢)]. وكان الحمس لا يمخضون اللبن، ولا يأكلون الزبد، ولا يلبسون الوبر ولا الشعر، ولا يستظلون به ما داموا حرماً، ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجنه وإنما يستظلون بالأدم، ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم. وكانوا يُعظمون الأشهر الحرم، ولا يخفرون فيها الذمة، ولا يظلمون فيها، ويطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم، وإذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية وأول الإسلام، فإن كان من أهل المدر، نقب نقباً في ظهر بيته، فمنه يدخل ومنه يخرج، ولا يدخل من بابه. فقصَّروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل، فلم يكونوا يقفون به ولا يفيضون منه، وجعلوا موقفهم في طرف الحرم من نمرة بمغضى المأزمين يقفون به عشية عرفة، ويظلون به يوم عرفة في الأراك من نمرة ويفيضون منه إلى المزدلفة، فإذا عممت الشمس رؤوس الجبال دفعوا. . .»[(٣)].

الواضح أنه بعد محاولة أبرهة الفاشلة غزو مكة، أعظم العرب قريشاً، وأرادوا حماية الحرم وتنظيم الشعائر الدينية، وصادفت هذه الرغبة قبولاً لدى قريش التي تعاظمت ثقة قياداتها بنفسها، كما تعاظم التفاف العرب حول الحرم وما يمثله في العقيدة الدينية أولاً وفي التجارة ثانياً؛ لأن التجارة متعذرة لولا عقيدة الحمس؛ لأنه أمَّن السلام للحرم وما حوله.

وأثبتت حروب الفجار أن الحماية التي أعدتها قريش لحرمها وتجارتها بفضل عقيدة الحمس، استطاعت أن تردع الحيرة عن القيام بغزوة لحساب الفرس شبيهة بغزوة أبرهة التي تمت لحساب البيزنطيين. وجعل الحمس من الحرم نواة لعدد كبير من القبائل انتظمت خلف القيادة القرشية، فاجتمع التجار من حول الكعبة آمنين على تجارتهم، وتعزَّزت العلاقة بين قريش والقبائل، فقام بعضها بالدفاع عن الحرم المكي وطقوسه، مثل ما فعل زهير بن جناب، سيد بني كلب، حين حطَّم الحرم الذي أنشأته غطفان بديلاً لها عن الحرم المكي[(٤)].

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص٢٢٩، ٢٣٠. (٢) ابن الأثير: جـ١ ص٤١٠، ٤١١.

(٣) الأزرقي: جـ١ ص١٨٠، ١٨١.

(٤) الأصفهاني، أبو الفرج: جـ ١٩ ص١٥، ١٦. سحاب: ص٣٠٢، ٣٠٣.

يتبين من المقارنة بين الحلة والحمس الفوارق التالية:

- لم تتقيَّد الحلة بما تقيَّدت به الحمس، ولعل هذا هو السبب الذي أغفل فيه المؤرخون والرواة، الذين لم يذكروا الطلس، صفاتهم ودمجوهم بأهل الحلة.

- لم يمارس الحمس أعمال البدو والرعاة مثل أقط الأقط وسل السمن والزبد أو غزل الشعر والوبر مما يختص به البدو، والمعروف أن القرشيين وهم أساس الحمس لم يكونوا رعاة.

- لا يقف الحمس بعرفة عند بداية الحج، وهو الذي كانت تفعله الحلة؛ لأن عرفة تقع خارج حرم مكة.

- كانت الحلة تطوف بالبيت أول ما يطوف الرجل والمرأة في أول حجة يحجانها عراة كما ذكرنا، أما الحمس فكانت تطوف في ثيابها.

الواضح أن نظم عقيدة الحلة والحمس ابتدعتها قريش لمصلحتها الأدبية والمادية. فقد نظَّمت شؤون الحج والقدوم إلى مكة وفقاً لهذه الغاية، وكانت تبتدع من الأمور ما يُحقق لها الاحترام والكسب المادي، ولبلدها القدسية عند العرب، ثم إن هذه السنن التي فرضتها على العرب جميعاً هي في الحقيقة متصلة بنشاطها التجاري، فإن الناس يطرحون أزواد الحل قبل الدخول في الحرم حتى يبتاعوا أزوادهم من قريش[١] على الرغم من وجود الرفادة، وكذلك عليهم أن يلبسوا المآزر الأحمسية، فيشتروا ما يلزمهم من قريش[٢]، ونتيجة لذلك كانت تنشط سوق مكة في موسم الحج.

وتحتوي عقيدة الحلة والحمس كذلك على بعض المعتقدات الشعبية الشائعة مثل الإيمان بالأرواح عند عتبات البيوت، أو السحر المرتبط بالملابس، وغير ذلك مثل التعفُّف عن أطايب الطعام[٣].

والواقع أن قريشاً، وهي أهل الحرم، كانت أقدر من أي قبيلة أخرى على تبديل عادات الحج، بالإضافة إليها أو الحذف منها، وتدل النصوص على أنها كانت تقيم الشعائر، فتفرض ما تشاء منها. يلاحظ ذلك من النصوص «وقد كانت قريش... ابتدعت رأي الحمس»، «ثم ابتدعوا؛ أي القرشيون، في ذلك أموراً لم تكن لهم حتى قالوا: لا ينبغي للحمس... ثم رفعوا في ذلك فقالوا: لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤوا به معهم... ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس»، «فحملوا على ذلك العرب، فدانت لهم»[٤].

---

(١) ابن الأثير: جـ١ ص٤١١. (٢) المصدر نفسه.

(٣) سحاب: ص٣٠٤، ٣٠٥.

(٤) ابن هشام: جـ١ ص٢٢٩، ٢٣٠. ابن الأثير: جـ١ ص٤١٠، ٤١١.

الطُلُس

الطُلُس هم سائر أهل اليمن وأهل حضرموت وعك وتجيب وإياد، وإنهم في منزلة بين الحلة والحمس، يصنعون في إحرامهم ما تصنعه الحلة، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنعه الحمس. وكانوا لا يتعرَّون حول الكعبة ولا يستعيرون ثياباً، ويدخلون البيوت من أبوابها، وكانوا لا يئدون بناتهم، ويقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون[1].

ويبدو أن تصنيف الطلس في منزلة بين منزلتي الحلة والحمس مرده إلى قيام علاقة خاصة بين أهل اليمن وأهل حضرموت وبين قريش، اعترف فيها هؤلاء بالزعامة الدينية والسياسية والتجارية للقرشيين في مكة في أواخر القرن السادس الميلادي على الأقل، وربما نشأ هذا الاعتراف بعد سقوط مملكة حِمير في سنة (٥٢٥م) وتعاظَمَ لدى هزيمة أبرهة وزوال الحكم الحبشي هناك[2].

ودلالة على هيبة قريش وحرمها في نفوس العرب، ما أنشأته من عقائد حول حرمها وتجارتها، وفرضتها على العرب وجعلتهم يرتدعون عن مهاجمة الحجاج والقوافل التجارية الذاهبة إلى مكة، وذلك حالما يعلن الحاج أو التاجر عن نيته في السفر، ويتم الإعلان بأساليب مختلفة، منها: أن الرجل إذا خرج من بيته في الأشهر الحرم حاجاً أو تاجراً أهدى[3] وأحرم[4] ثم قلّد[5] وأشعر[6]، فيكون بذلك أماناً للمحلين، وإذا لم يملك الحاج شيئاً أو انفرد وخشي على نفسه، ولم يكن معه هدي أو قربان للحرم، قلَّد نفسه بقلادة شعر أو وبر، فإذا فرغ من حجه وقفل عائداً، تقلد بقلادة من لحاء شجر الحرم أماناً له في المحلين[7].

مراسم الحج

لدينا معلومات مفصلة نسبياً حول مراسم الحج إلى مكة في العصر الجاهلي، نجملها بما يلي: «فإذا كان الحج من الشهر الذي يسمونه ذا الحجة، خرج الناس إلى مواسمهم، فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة فيصبحون به عشرين ليلة تقوم فيها أسواقهم بعكاظ، والناس على مداعيهم وراياتهم منحازين من المنازل، تضبط

---

(١) محمد بن حبيب المحبَّر: ص٢٠٢. (٢) سحاب: ص٣٠٦.
(٣) الإهداء سَوْق الهدي الذي سيقدمه قرباناً. (٤) الإحرام: دخول الحرم.
(٥) التقليد: تعليق قلادة من جلد في أعناق الهدي إشارة إلى أنها قربان للبيت الحرام.
(٦) الإشعار: القيام بمشاعر الإحرام.
(٧) المرزوقي، أحمد بن محمد بن الحسن الأصفهاني: الأزمنة والأمكنة: جـ٢ ص١٦٦.

كل قبيلة أشرافها وقادتها، ويدخل بعضهم في بعض للبيع والشراء، ويجتمعون في بطن السوق، فإذا مضت العشرون انصرفوا إلى مجنة، فأقاموا بها عشراً أسواقهم قائمة، فإذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا إلى ذي المجاز، فأقاموا به ثمان ليالٍ أسواقهم قائمة، ثم يخرجون يوم التروية من ذي المجاز إلى عرفة، فيرتوون ذلك اليوم من الماء بذي المجاز، وإنما سمي يوم التروية لترويهم من الماء بذي المجاز، ينادي بعضهم بعضاً ترووا من الماء؛ لأنه لا ماء بعرفة ولا بالمزدلفة يومئذ، وكان يوم التروية آخر أسواقهم. وإنما يحضر هذه المواسم بعكاظ ومجنة وذي المجاز التجار، ومن كان يريد التجارة. ومن لم يكن له تجارة ولا بيع يخرج في أهله متى أراد، ومن كان من أهل مكة ممن لا يريد التجارة، خرج من مكة يوم التروية، فيرتوون من الماء، فتنزل الحمس أطراف الحرم من نمرة يوم عرفة، وتنزل الحلة عرفة... فإذا جاؤوا عرفة أقاموا بها يوم عرفة، فتقف الحلة على الموقف من عرفة عشية عرفة، وتقف الحمس على أنصاب الحرم، وأفاضت الحلة من عرفة حتى يلتقوا بمزدلفة جميعاً، وكانوا يدفعون من عرفة، إذا طفلت الشمس للغروب وكانت على رؤوس الجبال، كأنها عمائم الرجال في وجوههم، فإذا كان هذا الوقت دفعت الحلة من عرفة، ودفعت معها الحمس من أنصاب الحرم حتى يأتوا جميعاً مزدلفة، فيبيتون بها، حتى إذا كانت في الغلس، وقفت الحلة والحمس على قزح، فلا يزالون عليه حتى إذا طلعت الشمس وصارت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم دفعوا من مزدلفة، وكانوا يقولون: أشرق ثبير كيما نغير؛ أي أشرق بالشمس حتى ندفع من المزدلفة»[1].

يقف نص الأزرقي عند هذا الحد، ولكن يمكن إكمال وصف الحج في العصر الجاهلي مما ذكره الكلبي عن حج المشركين «وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف في عرفة ومزدلفة، وإهداء البدن والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه»[2].

الأشهر الحرم

تُعدُّ الأشهر الحرم من المؤسسات العقائدية المهمة التي ارتبطت بموسم الحج وبأسواق العرب وتجاراتهم وبخاصة مكة، والمعروف أن العرب كانوا يحجون إلى البيت الحرام منذ زمن بعيد، وأنه كانت لهم أسواق يقيمونها في شهور السنة، وينتقلون من سوق إلى سوق آخر. والأشهر الحرم أربعة: ثلاثة متواليات، وهي

---

(١) الأزرقي: جا ص١٨٧ ـ ١٨٩.

(٢) كتاب الأصنام: ص٢٤، ٢٥.

ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وشهر فرد هو رجب، ويتوسط الحج الأشهر الثلاثة، إذ يطاف بالبيت في التاسع من ذي الحجة.

وكان الحجاج يقصدون مكة من اليمن وحضرموت، ومن الشام والحيرة، ولا يحتاجون للوصول إلى مكة إلى أكثر من شهر، وشهراً آخر للعودة، فيبقى للحاج والتاجر شهر ثالث يقضي فيه مناسكه أو تجارته إذا شاء، أو يختصر مكوثه قدر حاجته.

أما شهر رجب ويُسمى رجب مضر، ومضر الأصم، فهو مشتق من الترجيب؛ أي التعظيم. ويبدو أن المكيين كانوا يحتفلون بعيد لهم في هذا الشهر، وهو عيد خاص بقبائل مضر أو قبائل الحجاز أو بعضها، وربما يكون هذا أصل حرمته[(١)].

ويبدو أن تأسيس الأشهر الحرم كان عملاً مكياً أو مضرياً ثم تقبّلته القبائل بعد أن أدركت مدى فائدته، ودخلت فيه فيما بعد بفعل أن الحاجة إلى هدنة الأشهر الحرم، كانت دعامة ماسة نظراً لفقدان الأمن للأعراب وأهل المدر بسبب الغزوات والغارات المتبادلة واشتداد العصبية والأنفة والحمية، فالأعراب بحاجة إلى تصريف ما يفيض من نتاج حيواناتهم، من جلود وحليب وأجبان وما إلى ذلك؛ لشراء حاجياتهم من القوت والملابس. واحتاج أهل المدر إلى مقايضة غلالهم وسلعهم، فاصطبغت الهدنة بالقداسة، وتحوَّلت إلى عقيدة دينية، فإذا انتُهكت الأشهر الحرم، اضطرب أمر الحج وتعطلت التجارة وانقطعت الأرزاق.

ودلالة على حرمة هذه الأشهر، فقد حاول عمرو بن عبد العزى أن يجمع فوارس بني ليث ليغير بهم على جوف مكة في الشهر الحرام، فأبوا عليه ذلك وقالوا: «ويحك في الشهر الحرام وفي الحرم، وعظَّموا عليه»[(٢)].

وكان صعاليك العرب وخلعاؤها أشد الجماعات خطراً على الأمن والأشهر الحرم والإيلاف والحماسة، لأنهم لا يتقيدون بعقيدة ولا بعرف أو تقاليد، ولعل هذا هو السبب الذي دفع قيادات مكة على مصانعتهم وإيوائهم. فكانت مكة مكاناً أوى إليه ذؤبان العرب وخلعاؤهم وصعاليكهم، حتى كثر عددهم بها بفعل ما وجدوا فيها من الأمن والأمان والحماية والمعونة، وقد هدفت قريش حماية مصالحها الدينية والاقتصادية، وكفاية نفسها وحرمها وتجارتها شر هؤلاء الفتَّاك لأنهم كانوا قادرين على مهاجمة قوافلها ونهبها[(٣)].

لكن قريشاً لم تنجح تماماً في جعل كل العرب تحترم هذه الأشهر الحرم، إذ لم

---

(١) سحاب: ص٣٠٩.
(٢) محمد بن حبيب: المنمق: ص١٢٢.
(٣) الأصفهاني، أبو الفرج: ج٢١ ص٢١٦. علي: ج٩ ص٦١٨، ٦١٩.

تكن خثعم وطيء لترعاها، كما كانت لبعض القبائل الأخرى أشهر حرم غير هذه، فكان لغطفان البسلُ، وهي ثمانية أشهر حرم لهم من كل سنة من بين العرب(١).

النسيء

ارتبطت مواسم الحج والأسواق والتجارة عند العرب بمسار السنة الشمسية، في الوقت الذي اعتمدوا السنة القمرية مع ما بينهما من فروق في عدد الأيام، لذلك كبسوا السنة القمرية حتى توافق شهورها شهور السنة الشمسية، فكبسوا في كل ثلاث سنين شهراً. والنسيء مستورد، فقد نقله العرب عن اليهود قبل ظهور الإسلام بمائتي عام تقريباً(٢).

والنسيء: التأخير، هدفه اختصار هدنة الأشهر الحرم الثلاثة المتوالية ذي القعدة وذي الحجة والمحرم؛ لأن العرب تعيش من سيوفها ورماحها فيشق موالاة الأشهر الحرم الثلاثة عليها، فكان الناسئ يبدل في ترتيب الأشهر فقط، فيصبح ذو القعدة ذا الحجة، وذو الحجة صفراً ثم المحرم، بدلاً من أن يسبق المحرم صفراً، وبهذا تتحقَّق هدنة الغزوات شهرين وتُستأنف شهراً في صفر المقدم، وتعود إلى الهدنة في المحرم المنسوء بعد أن يغنم الغازون ما يسد حاجتهم، يضاف إلى ذلك أن النسيء كان يجعل للحج شهراً ليس للحج، وبذا يصرف الناس عن أداء شعائرهم وفرائضهم في زمنها وذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [التوبة/٣٧]، والمعروف أن العرب في الجاهلية لا يغيرون بعضهم على بعض في الأشهر الحرم، يلقى الرجل قاتل أبيه ولا يمد إليه يده. وخطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع حول أمر النسيء، فقال: (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السمٰوات والأرض) وتلا عليهم الآية المذكورة في تحريم النسيء فأهملوه حينئذ وزالت شهورهم عما كانت عليه، وصارت أسماؤها غير مؤدية إلى معانيها(٣). ويعني ذلك أن الإسلام نظر إلى النسيء على أنه فعل عبث بنظام وضعه الله.

كان النسيء في كندة، ثم انتقل إلى كنانة(٤)، وأول من أنسأ الشهور، من مضر،

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص١٢٦. الأزرقي: جـ١ ص١٨٤. والبَسل من الأضداد، وهو الحرام والحلال. ابن منظور: جـ١١ ص٥٥.

(٢) البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد: الآثار الباقية عن القرون الخالية: ص١٥. المسعودي: جـ٢ ص١٨٨.

(٣) البيروني: ص١٤، ١٥، ٦٢. ومعنى استدارة الزمان هي تأخير الشهور بفعل النسيء.

(٤) كان مالك بن كنانة نكح إلى معاوية بن ثور الكندي، وهو يومئذ في كندة. الأزرقي: جـ١ ص١٨٢، ١٨٣.

مالك بن كنانة[1]، وفي رواية أن أول من نسأ الشهور على العرب القلمَّس، وهو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة، ثم قام بعده على ذلك ابنه عبَّاد بن حذيفة، ثم قام بعد عباد: قلع بن عباد، ثم قام بعد قلع: أمية بن قلع، ثم قام بعد أمية: عوف بن قلع، ثم قام بعد عوف، أبو ثمامة جنادة بن عوف، وكان آخرهم، وعليه قام الإسلام. وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فحرم الأشهر الحرم الأربعة، رجباً وذا القعدة وذا الحجة والمحرم، فإذا أراد أن يحل شيئاً أحل المحرم فأحلوه، وحرَّم مكانه صفر فحرموه؛ ليواطئوا عدة الأشهر الحرم الأربعة[2].

ليس لدينا دليل قاطع على أن النسيء قام نحو مائتي سنة قبل الإسلام؛ أي في عهد قصي، إذ المعروف أن قصياً أحيا المؤسسات المكية التي كانت قائمة قبل توليه مقدرات مكة «فأقرَّ آل صفوان وعدوان والنسأة ومرة بن عوف على ما كانوا عليه»، وهذا يعني أن النسيء كان مؤسسة قائمة منذ أيام خزاعة التي أهملتها وأعيد العمل بها أيام قصي، فمنشأ النسيء إذن ليس مالك بن كنانة أو حذيفة بن عدي، والراجح أنه سريرٌ بن ثعلبة الكناني، جد قصي بن كلاب لأمه[3].

حروب الفِجار

ويرتبط بالأشهر الحرم ما نشب من حروب الفجار بين قريش وكنانة من جهته وبين قيس عيلان، هوازن، من جهة أخرى، وسُميت الفِجار لأنها وقعت في الأشهر الحرم. وكانت العادة في الجاهلية عدم الاقتتال في الأشهر الحرم نظراً لقدسيتها ومكانتها، وعلى الرغم من هذه الحرمة فقد وقعت فيها حروب عُرفت بحروب الفِجار وبأيام الفِجار لأن من اشترك فيها فجر بانتهاكه قدسيتها.

والفِجارات أربعة، ثلاثة لم تتضمن أحداثاً تُذكر، في حين احتوى الرابع أحداثاً جسيمة كان لها صدى في الجزيرة العربية وخارجها.

نشب الفِجار الأول بين كنانة وهوازن حين تفاخر بدر بن معشر الكناني في سوق عكاظ متحدياً الأحيمر بن مازن الهوازني فقطع هذا رجله، فتحاور الحيان وكاد أن يكون بينهما قتال، ثم تراجعا ورأيا أن الأمر يسير[4].

---

(١) الأزرقي: جـ١ ص١٨٢.　　(٢) ابن هشام: جـ١ ص٦٣، ٦٤.

(٣) انظر: سحاب: ص٣٣٣، ٣٣٥.

(٤) ابن عبد ربه: جـ٥ ص٢٥١، ٢٥٢. الأصفهاني، أبو الفرج: جـ٢٢ ص٥٤، ٥٥. ويذكر الأحمر بن مازن.

ونشب الفِجار الثاني بين قريش وكنانة وبين هوازن حين كشف فتية من قريش وكنانة عن دبر امرأة من بني عامر بن صعصعة من هوازن، فثارت المرأة ونادت «يا آل عامر»، ونادى الفتية قومهم، فاقتتلوا، وانتهى القتال بتوسط حرب بن أمية واحتمل دماء القوم وأرضى بني عامر من مَثْلَةِ صاحبتهم[١].

ونشب الفِجار الثالث بين كنانة وهوازن، وسببه أنه كان لرجل من بني جشم بن بكر بن هوازن دَيْن على رجل من بني كنانة، فماطله في تسديده، فشهَّر الهوازني به في سوق عكاظ بقرد، فاغتاظت كنانة وعدَّته تعييراً وإهانة لها، فقتل أحد بني كنانة، ذلك القرد ضرباً بالسيف، فهتف الجشمي «يا آل هوازن»، وهتف الكناني «يا آل كنانة»، فتجمع الحيان، فاقتتلوا حتى تحاجزوا، ولم يكن بينهم قتلى، ثم كفُّوا، وأصلح عبد الله بن جدعان بينهم[٢].

ونشب الفِجار الرابع، مباشرة بعد الفِجار الثالث، بين قريش وكنانة كلها وبين هوازن، وقد اتخذ بُعداً إقليمياً من واقع محاولة الفرس، بعد سيطرتهم على اليمن لدى سقوط الأحباش، تسيير قوافل تجارية لحسابهم وحساب حلفائهم ملوك الحيرة، من دون أن تسلك الطريق التجارية التقليدي من شرقي الجزيرة إلى غربها عبر وادي الرمة ووادي الدواسر إلى مكة، ونهضت قريش للتصدي للمشروع الفارسي والإمساك بتجارة الشرق، وكان عليها أن تجد الذريعة التي تبرر ذلك.

كانت قريش تستخدم صعاليكها الذين آوتهم لاتقاء شرهم، لمرافقة وحراسة قوافلها التجارية، وكان البراض بن قيس بن رافع الضمري أحد هؤلاء، وكان حليف حرب بن أمية. واعتاد النعمان بن المنذر ملك الحيرة أن يُرسل لطيمة إلى سوق عكاظ في كل سنة يجيزها له سيد مضر. وفي ذي الحجة عام (٥٨٥م) جهَّز اللطيمة على عادته، وراح يبحث عن رجل يجيزها له، فعرض البراض عليه إجازتها على بني كنانة، فقال النعمان: «إنما أريد رجلاً يجيزها على أهل نجد وتهامة»[٣]، فأبدى عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب، وهو رجل شريف من هوازن، استعداده القيام بهذه المهمة، فقال له البراض مستغرباً: «من بني كنانة تجيزها يا عروة؟ قال:

---

(١) ابن عبد ربه: جـ٥ ص٢٥٢. الأصفهاني، أبو الفرج: جـ٢٢ ص٥٥، ٥٦.

(٢) المصدران نفساهما: ص٢٥٢. ص٥٦.

(٣) كانت عير النعمان ولطائمه، التي توافي سوق المواسم، إذا دخلت تهامة لم تهج حتى عدا النعمان على أخ بلعاء بن قيس فقتله، فجعل بلعاء بن قيس يتعرض للطائم التي للنعمان بتهامة فينهبها، وقد فعل ذلك مرتين، فخاف النعمان على لطيمته، فقال يومئذ: «من يجيز هذه العير؟». محمد بن حبيب: المنمق: ص١٦٥.

نعم، وعلى الناس جميعاً، أفكلب خليع يجيزها؟» ويقصد بالكلب البراض نفسه. فترصَّده بأرض أوارة قرب وادي تيمن وقتله، واستاق اللطيمة إلى خيبر ثم إلى مكة[1]. هذه خلاصة الرواية التي أشعلت الحرب.

والواقع أن النعمان حين يكلف هوازنياً أن يجيز له اللطيمة، فهذا يعني أنه أراد سلوك طريق لا تمر بمكة، والمعروف أن إجازة اللطائم تعود إلى سيادة القبيلة في نطاق أرضها، ويبدو هذا واضحاً من جواب عروة، حين سأله البراض «أتجيزها على كنانة؟»، فأجابه متحدياً: «نعم وعلى الخلق كلهم». وكان البراض يعلم، وهو يقتل عروة الرحال، أن فعلته ستلقى صدى طيباً في أوساط قريش لأنها تُحقق مصلحتهم العليا، وأن القرشيين سيساندونه، وعلى الرغم من أن حادثة القتل اتخذت دافعاً شخصياً، إلا أن قريش استغلتها ووظفتها لصالحها.

استمر حرب الفِجار الرابع أربعة أعوام، واشتبك الطرفان في خمسة أيام كان آخرها بعد الفيل بعشرين عاماً، حوالي عام (٥٩٠م)، وذلك بعد موت عبد المطلب بن هاشم باثني عشر عاماً، وكان أعظم ما اشتهر بين العرب من أيامهم، وهذه الأيام هي:

١ ـ **يوم نخلة**، وفيه ارتحلت قريش من سوق عكاظ على عجل عائدة إلى مكة فور تلقيها نبأ الاغتيال، فطاردتها هوازن بعد أن علمت بخبر الحادثة حتى حجز الليل بينهما ودخلت قريش الحرم، فأمسكت هوازن عنها. فكان هذا اليوم كفافاً لا على هؤلاء ولا على هؤلاء[2]، ويدل ذلك على أن هوازن الذين لم يكن منهم حُمس سوى عامر بن صعصعة، تجنَّبوا مع ذلك دخول الحرم المكي كمقاتلين، على الرغم من أنهم تقاتلوا وقريش في الشهر الحرام، ما يدل على أن حرمة البيت كانت عند العرب أعلى مرتبة من الأشهر الحرم، وهوازن من مضر مثل قريش[3].

٢ ـ **يوم شمطة**[4]، كان لهوازن على كنانة وقريش.

٣ ـ **يوم العبلاء**[5]، كان لهوازن على كنانة وقريش، وقُتل في هذا اليوم العوام ابن خويلد، والد الزبير بن العوام، قتله مرة بن معتب الثقفي[6].

---

(١) محمد بن حبيب: ص١٦٤ ـ ١٦٨. الأصفهاني، أبو الفرج: ج٢٢ ص٥٧، ٥٨. ابن عبد ربه: ج٥ ص٢٥٣، ٢٥٤. ابن هشام: ج١ ص٢٠٩.

(٢) محمد بن حبيب: ص١٦٤ ـ ١٦٩. الأصفهاني، أبو الفرج: ج٢٢ ص٦٠، ٦١. ابن عبد ربه: ج٥ ص٢٥٥.

(٣) سحاب: ص٣١٤.

(٤) شمطة: موضع قريب من عكاظ.

(٥) العبلاء: اسم لصخرة بيضاء إلى جنب عكاظ. الحموي: ج٤ ص٨٠.

(٦) ابن عبد ربه: ج٥ ص٢٥٧.

٤ ـ **يوم شرب**[١]، كان لقريش وكنانة على هوازن. وفي هذا اليوم قيَّد حرب وسفيان وأبو سفيان أبناء أمية أنفسهم كيلا يفروا، فسموا العنابس، وحضر النبي ﷺ هذا اليوم، ولم يقاتل فيه. وجرى في هذا اليوم قتال شديد[٢].

٥ ـ **يوم الحريرة**[٣]، كان لهوازن على كنانة وقريش، وهو آخر الأيام الخمسة، قُتل فيه أبو سفيان ابن أمية، أخو حرب بن أمية[٤].

مال الطرفان بعد ذلك إلى الصلح وتداعوا إليه بعد تدخل عتبة بن ربيعة، وكان يومئذ شاباً لم يُكمل الثلاثين عاماً من عمره، وتراضوا بأن يعدُّوا القتلى ويؤدي من فضل، فكان الفضل لقيس على قريش وكنانة، وحتى يؤدي هؤلاء الفضول قدَّموا رهائن لهوازن أربعين رجلاً فيهم حكيم بن حزام. فلما رأت عامر بن صعصعة الرهن في أيديهم عَفَرا من الدماء، وأطلقوهم. فانتهت بذلك حروب الفِجار، وكان يقال: «لم يسد من قريش مملِّق إلا عتبة وأبو طالب، فإنهما سادا بغير مال»[٥].

وشهد النبي محمد ﷺ سائر أيام الفِجار باستثناء يوم نخلة، وهو ابن عشرين عاماً، فكان يُنبل على أعمامه؛ أي يرد عليهم النبل، كما كان يناولهم إياها، ورمى فيها بأسهم. وسُئل يوماً عن ذلك فقال: (ما أحب أني لم أكن فعلت)، (فإنهم تعدوا على قومي، عرضوا عليهم أن يدفعوا إليهم البراض صاحبهم فأبوا)[٦].

انتصرت قريش على الحيرة وحقَّقت غايتها لكن تدريجياً وفقاً لتقلب الظروف السياسية، وتعزَّزت مكانتها التجارية عندما تردَّت العلاقات بين فارس والحيرة، ولم تُفوت أي فرصة تتاح لها لسد كل فراغ سياسي وتجاري على الساحة.

وحاولت الحيرة أن تستعيد هيبتها أمام العرب، فجهَّز النعمان لطيمة عيَّن على قيادتها أخاه لأمه وبرة بن رومانس، وأرسلها إلى سوق عكاظ، وحشد معها قوة عسكرية من معد وغيرها، واستدعى حلفاءه من العرب، فلبّى الدعوة ضرار بن عمرو الضبي وأبناؤه التسعة المتمرسين على القتال، وانضمَّ إليهم حبيش بن دلف الضبي[٧]،

---

(١) شرب: موضع قرب مكة. الحموي: جـ٣ ص٣٣٢.
(٢) الأصفهاني، أبو الفرج: جـ٢٢ ص٦٦ ـ ٦٩.
(٣) الحريرة: موضع بين الأبواء ومكة قرب نخلة. الحموي: جـ٢ ص٢٥٠.
(٤) الأصفهاني، أبو الفرج: جـ٢٢ ص٧٠، ٧١. محمد بن حبيب: ص١٨٢ ـ ١٨٤.
(٥) الأصفهاني، أبو الفرج: جـ٢٢ ص٧٢، ٧٣. ابن عبد ربه: جـ٥ ص٢٥٨، ٢٥٩. السهيلي: جـ١ ص٢١١.
(٦) الأصفهاني: المصدر نفسه: ص٧٣. محمد بن حبيب: ص١٨٠.
(٧) الأصفهاني: المصدر نفسه: جـ٢٢ ص٧٣.

وأمر أخاه أن يهاجم بني عامر بن صعصعة بعد انتهاء الموسم، والمعروف أن هؤلاء من هوازن حلفاء الحيرة لكنهم كانوا من البطون المنتمية إلى الحمس وبالتالي أقرب إلى قريش، ما يوحي بأنهم ساعدوا القرشيين في حرب الفِجار الرابعة. ويذكر ابن الأثير أن سبب الحملة مهاجمة بني عامر إحدى لطائم النعمان التي كان يرسلها كل سنة إلى سوق عكاظ[(١)].

وعلمت قريش بأمر الحملة فسارع عبد الله بن جدعان بإنذار بني عامر فاستعدوا للمواجهة، وهزموا حملة النعمان في معركة يوم السُلّان وأسروا أخاه، ولم يُفرجوا عنه إلا بفدية بلغت ألف بعير وقينتين وبعضاً من أمواله[(٢)].

ومما يؤكد علاقة بني عامر بن صعصعة الجيدة بقريش ما جرى من مهاجمة هبيرة بن عامر بن سلمة القشيري من بني عامر بن صعصعة مضرباً للنعمان، واختطف زوجته المتجردة وغنم أمواله، في الوقت الذي كان ابنه قرَّة بن هبيرة مكلفاً بمرافقة لطيمة النعمان «يخفرها على من ليس من دينه من العرب»، فاستولى قرَّة على اللطيمة في حين اضطر النعمان إلى الهرب بعد خلافه مع كسرى عام (٦٠٤م)[(٣)].

---

(١) الكامل في التاريخ: جـ١ ص٥٧٠ ـ ٥٧٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سحاب: ص٣١٧.

الخاتمة

عاش العرب الجاهليون في جزيرتهم منقسمين إلى قبائل يخضعون لمشيئة شيخ القبيلة، ويأتمرون بأمره، ويسيرون بهديه، في حين تتفرع القبيلة إلى بطون وأفخاذ لكل منها زعيم، لكن يجمعها عصبية قبلية، هي القاسم المشترك أيام الكر والفر، يتألبون تحتها في حروبهم وغزواتهم، وشكَّلت الأسرة العربية وحدة اجتماعية هي أساس القبيلة، وقد سبق الانتساب إلى الأب، الذي كان سائداً في المجتمع العربي الجاهلي القريب من ظهور الإسلام، الانتساب إلى الأم، وهو دور الطوطم حيث يرجع النسب إليها. وشاع عند بعض الجاهليين ظاهرة الوأد، وهي مشكلة اجتماعية بارزة، والمعروف أن العربي يؤثر البنين على البنات، وهو أمر طبيعي في مجتمع قبلي يقوم على النسب والعصبية والغزو والحروب، كما عرف المجتمع العربي أنواعاً عديدة من الزواج.

وتتصل ديانة العرب بالعقائد السامية، المشتركة في جوهرها مع جميع شعوب منطقة الشرق الأدنى، فعبدوا الأجرام السماوية كالشمس والقمر والزهرة التي تحوَّلت في الشمال إلى اللات والعزى وبعل والتي تأثرت بعد ذلك بالهيللينية، كما عبدوا الحجارة المؤلهة كما هي الحال في مكة، وأقاموا في أعيادهم مواسم للشعر والمفاخرة.

وينقسم العرب في مجموعهم إلى قسمين متميزين اليمنيون في الجنوب والقيسيون في الشمال. وقد هاجرت بعض القبائل من الجنوب إلى الشمال على أثر تصدع أو تهدم سد مأرب متخطين أبناء عمومتهم هناك، فأسسوا في شمالي الحجاز وبوادي الشام والعراق، ممالك يمنية الأصل تأثرت بالنظم الفارسية والبيزنطية، وحمل المهاجرون معهم لغتهم وكتابتهم التي تحولت في الشمال إلى ما يسمى في اللغة السامية بالكتابات المعينية واللحيانية والثمودية والصفوية، قبل أن تقع تحت تأثير الفينيقية والعبرانية والسريانية والنبطية والآرامية، وأنشأوا حضارة عربية أصيلة قائمة على استخدام الجمل والتنقل بين البلاد للتجارة، والتشبث بالتحرر والاستقلال من واقع استخدام السياسة والمواربة بين الدول الكبرى.

وتسربت إلى العرب، من وادي الرافدين، الحلقة الحضارية عبر طريق جنوب شرقي على طول سواحل الخليج العربي إلى عُمان وحضرموت حيث ازدهرت في اليمن، وارتكزت أصولها على التجارة والنقل، فوسَّعت نطاق نشاطها عبر باب المندب إلى الحبشة، وبذلك أضحى مركز الثقل فيها هو نقطة عقدة المواصلات في منطقة عدن حيث التقاء بحر الهند بالبحر الأحمر. وعندما بدأت حضارة اليمن بالتراجع والاضمحلال، كان من الطبيعي أن يحمل المهاجرون من اليمن حضارتهم معهم إلى الشمال الذي ألفوه منذ القديم، وذلك عبر الحجاز ونجد وبادية الشام حيث كوَّنوا لهم مراكز حضارية على طول الطريق قبل أن يستقروا في بلاد الشام والعراق.

وقامت عند أطراف البادية في اليمن، وفي شمالي الجزيرة العربية مجتمعات بشرية قطعت شوطاً كبيراً في تطورها، واشتهرت إحدى ملكاتها بلقيس، أو ملكة سبأ. واشتهرت في العهد الروماني مملكة الأنباط في البتراء التي تقع إلى الجنوب الشرقي من البحر الميت، وسيطرت على المنطقة الواقعة غربي الفرات، كما قامت مملكة تدمر في شمالي سوريا، وقد توسعت عبر تاريخها إلى آسيا الصغرى في الشمال وإلى مصر في الجنوب الغربي.

وقامت في العهد البيزنطي مملكتان، ملوكهما من النصارى، هما مملكتا المناذرة اللخميين والغساسنة، وقد ساندت الأولى الفرس، واتخذت من الحيرة قاعدة لها، وآزرت الثانية البيزنطيين، واتخذت من بصرى حاضرة لها. واستطاعت مملكة كندة أن تؤلف في القرن الخامس الميلادي، في قلب الجزيرة العربية، حلفاً قبلياً.

وأنشأت بعض القبائل في بعض المدن نوعاً من الحكم على أساس النظام «الارستقراطي» تولى الأمر فيه كبار التجار والأغنياء، كما في مكة، إذ كان الأمر بيد قريش التي كانت مهيأة، بفضل موقفها المحايد من الصراع الدولي وانفتاحها على العالم الخارجي من خلال العمل التجاري، واضمحلال الدول العربية التي شغلت حيزاً واسعاً في الحياة السياسية مثل المناذرة والغساسنة في الشمال وحِمير في الجنوب. وقد نشطت الحركة التجارية في بلاد العرب إما عن طريق البحر الأحمر أو عن طريق القوافل البرية، التي تحولت بعد ذلك عن موانئ البحر المذكور تفادياً للأخطار التي كانت تتهددها.

وفي الوقت الذي كان العرب يقتربون من بلوغ عصر الرسالة، انتابتهم يقظة قومية عارمة تمثلت بالاتجاه نحو الوحدة من واقع التضامن ضد مطامع الدول الأجنبية في بلاد العرب بين الفرس والبيزنطيين، إلى تململ القبائل العربية التي اتجهت نحو

الوحدة، كما حدث بعد تحرير اليمن من سيطرة الحبشة، وصادف ذلك مع تغلغل المؤثرات الأجنبية إما بواسطة القبائل المقيمة على الخط الدائري، أو بواسطة الدعاة اليهود والمبشرين النصارى.

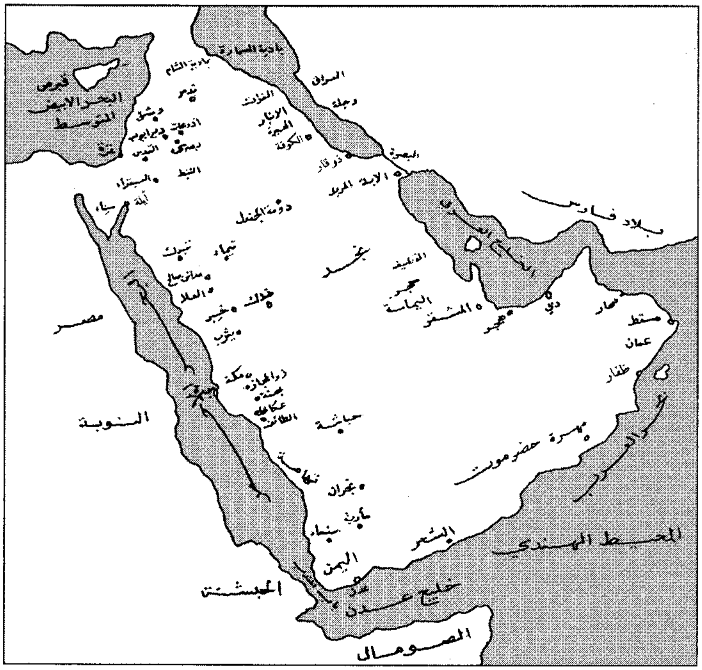
ورافق هذه اليقظة السياسية يقظة دينية تمثلت بظاهرة الحنفاء، وراح المتنورون من القرشيين وغيرهم يثورون على أوضاعهم الاجتماعية والدينية والسياسية الفاسدة، فدعوا إلى نبذ الشر واغتنام الخير، وهو مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي نادى به الإسلام. وفي إطار هذه الدعوة، وفي محاولة المحافظة على المكتسبات التجارية خاض القرشيون حروب الفِجار ضد الذين انتهكوا الأشهر الحرم وضد الذين حاولوا انتزاع الامتيازات التجارية منهم، كما عقدوا حلف الفضول فيما بينهم، تعاهدوا فيه بألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها ومن غيرهم ممن دخلها من سائر الناس، إلا قاموا معه، وكانوا على ظالمه حتى ترد مظلمته.

في هذا الوسط التي ذكرنا، وُلد النبي محمد ﷺ في مكة، وشبَّ في جو تجاري شارك ببعض نشاطه في شبابه قبل أن يتفرغ للدعوة الإسلامية، فأخذ يُبشر بدين جديد قائم على الوحدانية المطلقة ويحمل في ثناياه عوامل التغيير والإصلاح، فدعا إلى عبادة الله الواحد الأحد القيوم والقدير، والطاعة والتسليم المطلق بالإسلام، إذ إن الله كريم رحيم يعد عباده ومن يُسلِّم أمره إليه بالجنة، ويبعث في قلبه الإيمان، وهو واهب الأشياء ومقسم الأرزاق، يحثُّ المسلم على السعي والعمل من أجل دنياه وآخرته.

إن هذا الموقف، وهذه القناعة الداخلية، لا تلزم صاحبها إلا بالدعاء لله والشكر له، والسير على تعاليمه ووصاياه والجهاد في سبيله، والاعتصام بمكارم الأخلاق، والتزام الفضيلة، والتصدق للغير من دون التفرقة في الجنس واللون، والرفق بالمرأة.

هذه بإيجاز التعاليم التي قام النبي محمد ﷺ يدعو إليها العرب في مكة بأسلوب جزل وعبارة جمعت بين الإيجاز والإعجاز، غير أن قريشاً خشيت على نفسها وعلى مصالحها من أمر هذه الدعوة الجديدة، ووجد فيها زعماؤها تهديداً لعقيدتهم وخطراً على نفوذهم ومكتسباتهم، فقاموا يضطهدون الرسول وأصحابه الذين آمنوا بدعوته ما حمله على الهجرة إلى يثرب التي عُرفت منذ ذلك الحين بالمدينة المنورة، وقد تغير موقفه في المدينة، فلم يعد يكتفي بالدعوة، بل راح ينظم المسلمين من المهاجرين والأنصار، ولما كانت الشريعة لا تختلف عن العقيدة أو الإيمان، وتتمتع مثلها بسلطة إلهية ملزمة تضبط الشؤون الدينية والأمور الدنيوية، فتفرض على المسلم الزكاة والجهاد ضد المشركين لحملهم على الدخول في الإسلام، ونشر مبادئ الدين

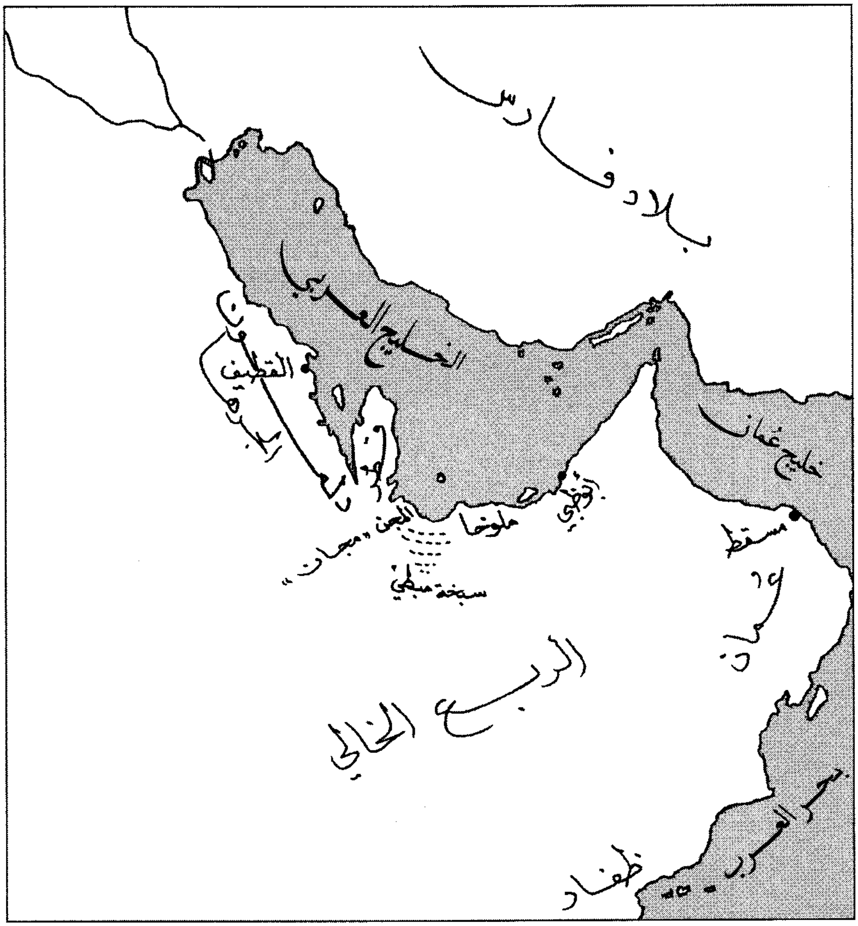
الحنيف. وبعد مواجهات عسكرية عديدة مع قريش استطاع النبي فتح مكة، فأسلم أهلها، وأقبلوا على الدعوة الجديدة محافظة منهم على ما كان لهم من مكانة في الجاهلية، وفرض على كل مسلم ومسلمة الحج إلى بيت الله الحرام مرة واحدة على من يستطيع ذلك، وتصرف بمناسك الحج وشعائره بما يتوافق مع مبادئ الإسلام، فألغى منها ما يتعلق بالوثنية، ولم تلبث القبائل في أنحاء الجزيرة العربية أن أقبلت على الدين الجديد. وعندما قُبض النبي في عام (١١هـ/ ٦٣٢م) كان قد انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم في وحدة قوية متماسكة. وهكذا تمَّ للجزيرة العربية وحدة دينية وسياسية متماسكة لم تعرف مثلها من قبل.



أسواق العرب



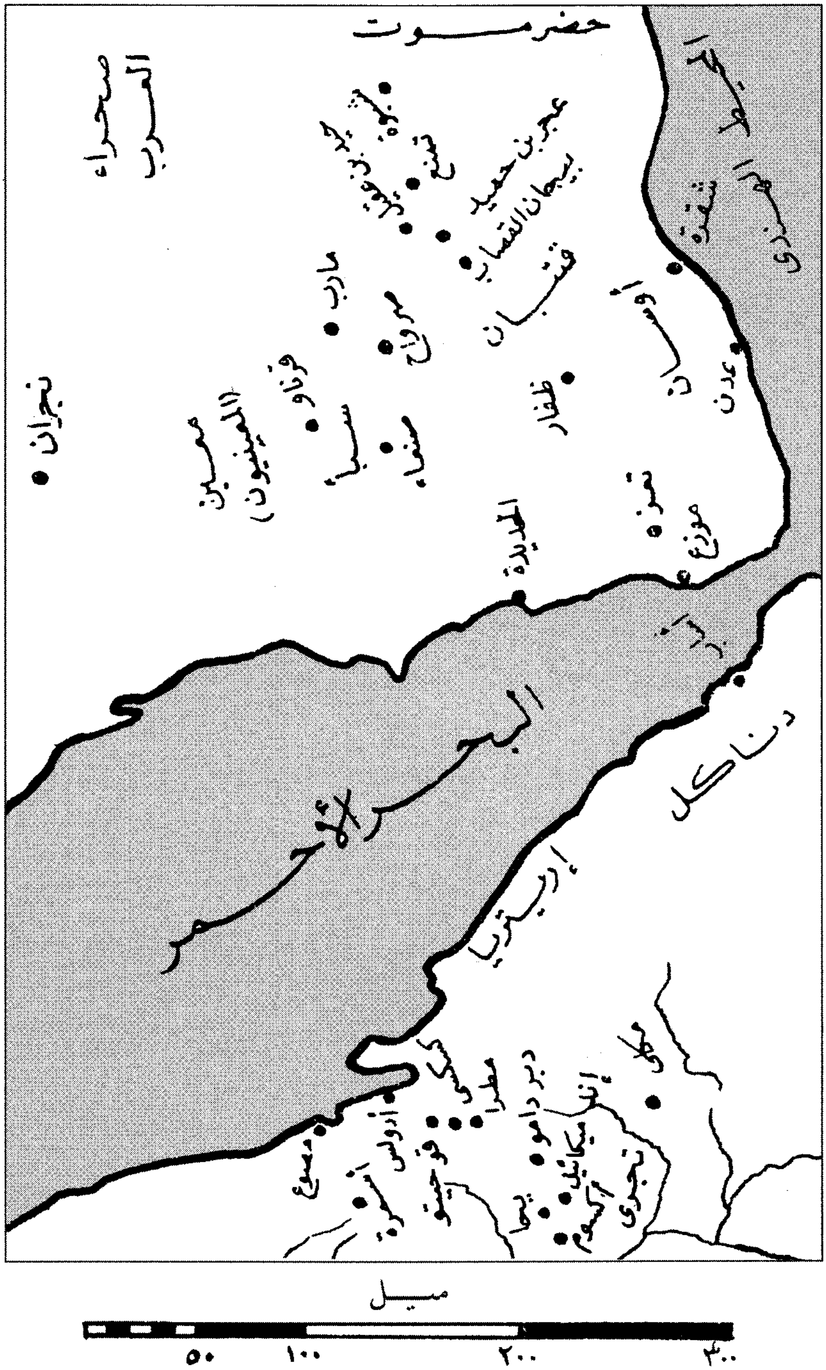
طرق القوافل التجارية



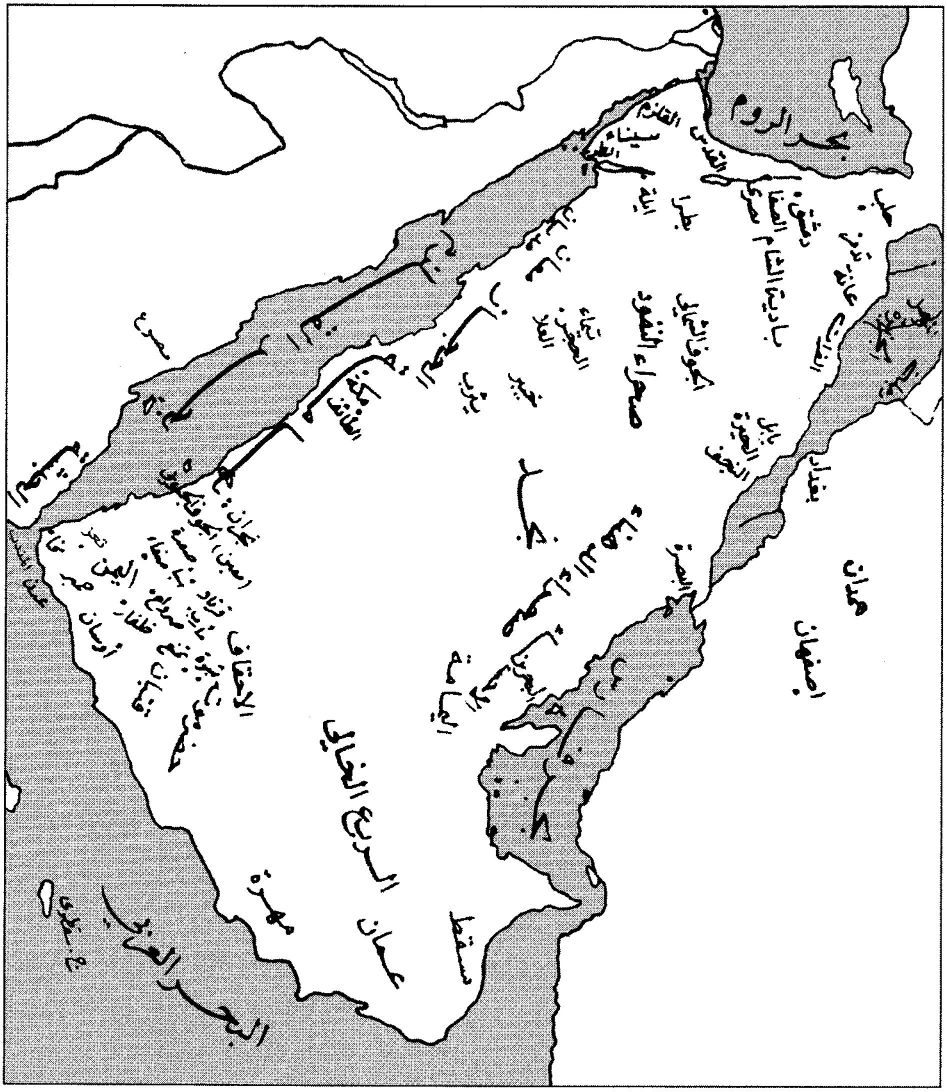
بلاد العرب الجنوبية الشرقية



بلاد العرب الشمالية



بلاد العرب الجنوبية



جزيرة العرب: الأقاليم والبلاد

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

أ ـ المصادر

❑ ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم:

ـ **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، المطبعة الوهبية، مصر ١٨٨٢م.

❑ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن. . . بن عبد الواحد الشيباني:

ـ **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

ـ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، المطبعة الوهبية، القاهرة، ١٢٨٦هـ.

❑ الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد:

ـ **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**، تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس، بيروت، ط٣، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

❑ الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد:

ـ **مسالك الممالك**، ليدن، ١٩٢٧م.

❑ الأصفهاني، حمزة:

ـ **تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء**، منشورات مكتبة الحياة، بيروت.

❑ الأصفهاني، الحسن بن عبد الله:

ـ **بلاد العرب**، تحقيق محمد الجاسر وصالح العلي، دار اليمامة، الرياض، ١٣٨٨هـ.

❑ الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين:

ـ **كتاب الأغاني**، مؤسسة جمَّال للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.

❑ الأصمعي، عبد الملك بن قريب:

ـ **كتاب الدارات**، باعتناء أوغست هغنر، مجلة المشرق، السنة الأولى، الجزء الأول، ١٨٩٨م.

ـ **الأصمعيات**، تحقيق وشرح محمد حمود، دار الفكر العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

ـ **تاريخ العرب قبل الإسلام**، تحقيق الشيخ محمد آل ياسين، بغداد، ١٩٥٩م.

❑ الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم:
- **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات**، تحقيق عبد السلام هارون، ط٥، دار المعارف، مصر.
❑ الأبشيهي، شهاب الدين محمد:
- **المستطرف في كل فن مستظرف**، تقديم وشرح مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
❑ البغدادي، عبد القادر بن عمر:
- **خزانة الأدب**، المطبعة الأميرية، بولاق، القاهرة.
❑ ابن بكار، الزبير:
- **جمهرة نسب قريش وأخبارها**، تحقيق وشرح محمود محمد شاكر، بيروت ١٩٨١م.
❑ البكري أبو عبيد الله بن عبد العزيز:
- **معجم ما استعجم**، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، ١٩٤٥م.
❑ البلاذري، الإمام أبو الحسن:
- **فتوح البلدان**، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م.
- **أنساب الأشراف**، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
❑ البيروتي، أبو الريحان محمد بن أحمد:
- **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
❑ التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب:
- **شرح القصائد العشر**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٦٤م.
❑ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:
- **البيان والتبيين**، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت.
- **كتاب الحيوان**، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.
❑ الجرهمي، عبيد بن شرية:
- **أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها أو كتاب الملوك وأخبار الماضين**، ملحق بكتاب التيجان لوهب بن منبه، حيدرآباد، الدكن ـ الهند، ١٣٤٧هـ.
❑ الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت:
- **معجم البلدان**، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٧٩م.
❑ ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد:
- **جمهرة أنساب العرب**، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.
❑ ابن حبيب، محمد بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي:
- **المحبَّر**، تحقيق سيد كسروي، دار الغد العربي، القاهرة، ٢٠٠٠م.

- **المنمق في أخبار قريش**، تعليق وتصحيح خورشيد أحمد فارق، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

❑ ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي:
- **كتاب صورة الأرض**، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م.

❑ ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد:
- **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق علي بن عبد الواحد وافي، القاهرة، ١٩٥٧م.
- **تاريخ ابن خلدون المسمَّى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**...، مؤسسة جمَّال للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.

❑ ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن:
- **الاشتقاق**، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مطبعة السنّة المحمدية، مصر، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

❑ أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي:
- **ديوان الحماسة**، تحقيق عبد المنعم أحمد صالح، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.

❑ الدميري، كمال الدين:
- **حياة الحيوان الكبرى**، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٥٨م.
- **ديوان الأعشى**، شرح وتعليق محمد حسين، المطبعة النموذجية، مصر، ١٩٥٠م.
- **ديوان أوس بن حجر**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.
- **ديوان الخنساء**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٣م.
- **ديوان سلامة بن جندل**، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٧م.
- **ديوان طرفة بن العبد**، تحقيق علي الجندي، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.
- **ديوان الطرماح بن حكيم الطائي**، تحقيق عزة حسين، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٨م.
- **ديوان الفرزدق**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م.

❑ ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن:
- **العمدة في محاسن الشعراء وآدابه ونقده**، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ط٣، ١٩٦٣م.

❑ الزبيدي، محب الدين أبو الفيض محمد:
- **تاج العروس من جواهر القاموس**، المطبعة الخيرية، مصر، ١٣٠٦هـ.

❑ الزوزني، أبو عبد الله الحسن بن أحمد:
- **شرح المعلقات العشر**، منشورات مكتبة الحياة، بيروت.

❑ ابن سعد:
- **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت.

□ ابن سعيد الأندلسي:
- **نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب**، تحقيق نصرت عبد الرحمٰن، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٤.

□ السكري، أبو سعيد الحسن بن الحسين:
- **شرح أشعار الهذليين**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٥م.

□ ابن سلام، أبو عبيد القاسم:
- **كتاب الأموال**، مؤسسة ناصر الثقافية، بيروت، ١٩٨١م.

□ ابن سلام، محمد الجمحي:
- **طبقات فحول الشعراء**، بريل، ليدن، ١٩١٣م.

□ السمهودي، نور الدين علي:
- **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى**، مطبعة الآداب والمؤيد، مصر، ١٣٢٦هـ.

□ السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمٰن بن الخطيب:
- **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، تقديم وتعليق طه عبد الرؤوف، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

□ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمٰن بن الناصر الشافعي:
- **المزهر في علوم اللغة**، شرحه وضبطه وعلّق عليه محمد أحمد جاد المولى وآخرون، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.

□ الشبلي، بدر الدين أبو عبد الله:
- **أكام المرجان في أحكام الجان**، مطبعة السعادة، ١٣٢٦هـ.

□ الشهرستاني، أبو الفتح محمد عبد الكريم:
- **الملل والنحل**، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٨م.
- **صحيح البخاري بشرح الكرماني**، المطبعة البهية المصرية، القاهرة، ١٩٣٧م.

□ الضبي، المفضل بن محمد بن يعلي:
- **المفضليات**، تحقيق وشرح محمد حمود، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- **أمثال العرب**، القاهرة، ط١.

□ أبو طالب، المفضل بن سلمة:
- **الفاخر**، تحقيق عبد الحليم الطماوي، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ١٩٦٠م.

□ الطبرسي، الفضل بن الحسن:
- **جامع البيان في تفسير القرآن**، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١م.

❑ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير:
- **جامع البيان عن تأويل القرآن**، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٤٦م.
- **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٠م.

❑ ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي:
- **العقد الفريد**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٦٥م.

❑ العسقلاني، الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي المعروف بابن حجر:
- **فتح الباري بشرح البخاري**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٩م.
- **الإصابة في تمييز الصحابة**، مطبعة مصطفى محمد، مصر، ١٩٣٩م.

❑ العسكري، أبو هلال:
- **الأوائل**، تحقيق محمد المصري ووليد قصاب، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٥م.

❑ أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي ...بن أيوب:
- **تقويم البلدان**، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م.

❑ الفردوسي، أبو القاسم منصور بن فخر الدين أحمد:
- **الشاهنامة**، تعريب عبد الوهاب عزام، طهران، ١٩٧٠م.

❑ القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم:
- **كتاب الأمالي**، دار الكتب العلمية، بيروت.

❑ ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري:
- **المعارف**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٣م.
- **كتاب الأنواء**، حيدرآباد، الدكن ـ الهند، ١٩٥٦م.

❑ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد:
- **الجامع لأحكام القرآن**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٧م.

❑ القزويني، زكريا بن محمد:
- **عجائب المخلوقات**، غوتنغن، ١٨٤٩م.
- **آثار البلاد وأخبار العباد**، طبعة وستنفلد.

❑ القسطلاني، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد الشافعي:
- **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

❑ القفطي، جمال الدين يوسف:
- **تاريخ الحكماء**، لايبزيغ، ١٣٢٠هـ.

- القلقشندي، أحمد بن علي:
  - **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
  - **نهاية الأدب في معرفة أنساب العرب**، تحقيق الأبياري، القاهرة، ١٩٥٩م.
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر:
  - **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تحقيق محمد حلمي الفقي، مطبعة السنّة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٣م.
- الكتاني، عبد الحي:
  - **نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية**، بيروت.
- ابن كثير، الحافظ عماد الدين إسماعيل القرشي الدمشقي:
  - **تفسير القرآن العظيم**، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٠م.
- الكلبي، هشام بن محمد السائب:
  - **كتاب الأصنام**، تحقيق محمد عبد القادر أحمد وأحمد محمد عبيد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني:
  - **سنن ابن ماجه**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن المجاور، أبو الفتح جمال الدين بن يعقوب:
  - **صفة بلاد اليمن ومكة والحجاز المسماة بتاريخ المستبصر**، اعتنى بطبعه أوسكر لونغرين، بريل، ليدن، ١٩٥١م.
- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد:
  - **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تحقيق محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧م.
- المرتضى، علي بن الحسن الموسوي العلوي.
  - **أمالي المرتضى**، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٤م.
- المرزوقي، أحمد بن محمد بن الحسن الأصفهاني:
  - **الأزمنة والأمكنة**، حيدرآباد، الدكن ـ الهند، ١٣٣٢هـ.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي:
  - **إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع**، تحقيق محمود محمد شكري، القاهرة، ١٩٤١م.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين:
  - **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، دار الأندلس، بيروت، ط١، ١٩٦٥م.
  - **التنبيه والإشراف**، بيروت، ١٩٦٥م.

- مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري:
  - **الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم**، مصر، ١٩٦٦م.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم:
  - **لسان العرب**، دار صادر، بيروت.
- الميداني، أبو الفضل النيسابوري:
  - **مجمع الأمثال**، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.
- ابن ناقيا، أبو القاسم عبد الله بن محمد:
  - **الجمان في تشبيهات القرآن**، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي. سلسلة كتب التراب، وزارة الثقافة، بغداد، ط٣، ١٩٦٨م.
- النهروالي، قطب الدين:
  - **كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام**، تحقيق وستنفلد، ليبزغ، ١٨٥٧م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب:
  - **نهاية الأرب في فنون الأدب**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
- ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب:
  - **السيرة النبوية، على متن الروض الأنف للسهيلي**، تقديم طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
- الهمذاني، الحسن بن أحمد بن يعقوب:
  - **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الآداب، بيروت ـ لبنان.
  - **كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء**، تحقيق كريستر فرتول، وزارة الإعلام والثقافة اليمنية، صنعاء، ط٢، ١٩٨٥م.
  - **الإكليل**، تحقيق أنستانس الكرملي، مطبعة السريان الكاثوليكية، بغداد، ١٩٣١م.
- وهب بن منبه:
  - **كتاب التيجان في ملوك حمير**، حيدرآباد، الدكن ـ الهند، ١٣٤٧هـ.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب:
  - **تاريخ اليعقوبي**، تحقيق عبد الأمير مهنا، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
  - **كتاب البلدان**، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩٢م.

ب ـ المراجع

- الأفغاني، سعيد:
  - **أسواق العرب في الجاهلية والإسلام**، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٠م.

❑ الألوسي، محمود شكري:
- **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، باعتناء محمد بهجت الأثري، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٢٤م.
❑ الأنصاري، عبد الرحمٰن الطيب:
- **أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو**، الرياض، ١٩٧٩م.
- **قرية الفاو**، صورة للحضارة العربية قبل الإسلام، الرياض، ١٩٨٢م.
❑ أمين، أحمد:
- **فجر الإسلام**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦م.
❑ أورسيوس:
- **تاريخ العالم**، تعريب عبد الرحمٰن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧م.
❑ أوليري، دي لاسي:
- **جزيرة العرب قبل البعثة «بلاد العرب قبل محمد»**، تعريب موسى علي الغول، وزارة الثقافة، عمان، ١٩٩٠م.
❑ إيمار، أندريه وجانين أوبوايه:
- **روما وإمبراطوريتها**، الجزء الثاني من موسوعة تاريخ الحضارات العام، منشورات عويدات، بيروت، ط٣، ١٩٩٤م.
❑ بروكلمان، كارل:
- **تاريخ الشعوب الإسلامية**، تعريب نبيه فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٧٧م.
❑ بليابيف، ي.أ.م:
- **العرب والإسلام والخلافة العربية في القرون الوسطى**، تعريب أنيس فريحة، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٣م.
❑ البنى، عدنان:
- **تدمر والتدمريون**، دار الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٨م.
❑ الجارم، محمد نعمان:
- **أديان العرب في الجاهلية**، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٣م.
❑ جيبون، إدوارد:
❑ اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، تعريب محمد علي أبو درة، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٩م.
❑ حتي، فيليب:
- **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، تعريب جورج حداد وعبد الكريم رافق، بيروت، ١٩٥٨م.

- حتي، فيليب وإدوارد جرجي وجبرائيل جبور:
- **تاريخ العرب**، دار غندور، بيروت، ط٥، ١٩٧٤م.
- حمور، عرفان محمد:
- **أسواق العرب**، دار الشورى، بيروت، ١٩٧٩م.
- الحوفي، أحمد محمد:
- **الحياة العربية من الشعر الجاهلي**، القاهرة، ١٩٥٦م.
- حسين، طه:
- **في الأدب الجاهلي**، القاهرة، ١٩٢٧، ١٩٢٩م.
- **من حديث الشعر والنثر**، دار المعارف، مصر، ١٩٣٦م.
- حسين، محمد:
- **الهجاء والهجاءون في الجاهلية**، بيروت، ١٩٦٠م.
- خان، محمد عبد المعين:
- **الأساطير والخرافات عند العرب**، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٠م.
- الخربوطلي، علي حسني:
- **العرب واليهود في العصر الإسلامي**، سلسلة كتب قومية، العدد ٢٤٧.
- دائرة المعارف الإسلامية، الشارقة، ط١، ١٩٩٨م، دار المعرفة، بيروت.
- الدبس، المطران يوسف:
- **من تاريخ سوريا الدنيوي والديني**، دار الجيل، بيروت.
- دراز، عمر عبد المجيد:
- **المراعي ووسائل تحسينها في المملكة العربية السعودية**، الرياض، ١٣٨٥هـ.
- دلو، برهان الدين:
- **جزيرة العرب قبل الإسلام**، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٩م.
- الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي، مكتبة التربية العربي لدول الخليج بالرياض، ١٩٨٨م.
- ديورانت، ول:
- **قصة الحضارة**، مجلد١، جـ٢، تعريب محمد بدران، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، القاهرة.
- ديسو، رينيه:
- **العرب في سوريا قبل الإسلام**، تعريب عبد الحميد الدواخلي، القاهرة، ١٩٥٩م.
- ريغنس، بلاشير:
- **تاريخ الأدب العربي**، تعريب إبراهيم الكيلاني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٣م.

❑ زلوم، عبد الكريم:
- **الأموال في دولة الخلافة**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣م.

❑ زيادة، نقولا:
- **المسيحية والعرب**، قدموس للنشر والتوزيع، دمشق، ط٢، ٢٠٠٠م.

❑ زيدان، جرجي:
- **العرب قبل الإسلام**، دار الهلال، القاهرة.
- **تاريخ آداب اللغة العربية**، الهلال، القاهرة، ١٩٥٧م.

❑ سالم، السيد عبد العزيز:
- **تاريخ العرب في عصر الجاهلية**، دار النهضة العربية، بيروت.
- **تاريخ الدولة العربية**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م.
- **دراسات في تاريخ العرب**، عصر ما قبل الإسلام، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨م.

❑ الشريف، أحمد إبراهيم:
- **مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥م.

❑ شيخو، الأب لويس:
- **النصرانية وآدابها عند العرب الجاهليين**، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت، ١٩١٢، ١٩٢٦م.
- **بيروت تاريخها وآثارها**، بيروت، ١٩٢٠م.
- **المجاني الحديثة، مختارات من مجاني الأدب العربي في حدائق العرب**، تحقيق وشرح فؤاد أفرام البستاني، بيروت، ١٩٦٠م.

❑ الصالح، صبحي:
- **دراسات في فقه اللغة**، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٠م.

❑ الصباح، محمد علي:
- **عنترة بن شداد**، حياته وشعره، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٠م.

❑ ضيف، شوقي:
- **تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي**، دار المعارف، مصر، ط٨.

❑ عابدين، عبد المجيد:
- **المدخل إلى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية**، مصر، ١٩٥١م.

❑ عبادة، عبد الفتاح:
- **انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم العربي**، القاهرة، ١٩١٥م.

❑ عباس، إحسان:
- **تاريخ دولة الأنباط**، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٧م.

❑ عبد الجبار، عبد الله ومحمد عبد المنعم خفاجي:
- **قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي**، القاهرة، ١٩٨٠م.
❑ عبد الحميد، سعد زغلول:
- **في تاريخ العرب قبل الإسلام**، دار النهضة العربية، بيروت.
❑ عثمان، عبد العزيز:
- **معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم**، دار الفكر الحديث، بيروت، ط٢، ١٩٦٧م.
❑ العطار، محيي الدين:
- **كتاب بلوغ الأرب في مآثر العرب**، لبنان، ١٣١٩هـ.
❑ العظم، نزيه مؤيد:
- **رحلة في بلاد العرب السعيدة**، مطبعة البابي الحلبي القاهرة.
❑ أبو العلاء، محمد طه:
- **جغرافية شبه الجزيرة العربية**، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٢م.
❑ علي، فؤاد حسنين:
- **استكمال لكتاب التاريخ العربي القديم**، لديتليف نلسن، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٣م.
❑ العلي، صالح أحمد:
- **تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية**، شركة المطبوعات، بيروت، ٢٠٠٠م.
❑ الغنيم، عبد الله يوسف:
- **جزيرة العرب في كتاب المسالك والممالك**، لأبي عبيد البكري، دار ذات السلاسل، الكويت، ١٩٧٧م.
❑ فارس، أحمد:
- **تاريخ الأدب العربي**، دار الأمان، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
❑ فخري، أحمد:
- **اليمن ماضيها وحاضرها**، القاهرة، ١٩٥٧م.
- **الاكتشافات الأثرية في اليمن**، مصر، ١٩٦١م.
❑ فروخ، عمر:
- **تاريخ الجاهلية**، بيروت، ١٩٦٤م.
❑ الفيومي، محمد إبراهيم:
- **تاريخ الفكر الديني الجاهلي**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٤، ١٩٩٤م.
❑ **قاموس الكتاب المقدس**، مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، بيروت، ط٢.
❑ قطب، سيد:
- **في ظلال القرآن**، ط٥، ١٩٦٧م.

- كردية، لويس وجورج قنواتي:
- **فلسفة الفكر الديني**، تعريب صبحي الصالح وفريد جبر، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.
- لانكستر، هاردينغ:
- **آثار الأردن**، تعريب سليمان موسى، عمان، ١٩٧١م.
- لوييس، برنارد:
- **العرب في التاريخ**، تعريب نبيه أمين فارس ومحمود زايد، بيروت، ١٩٥٤م.
- مبارك، زكي:
- **النثر الفني في القرن الرابع**، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٥م.
- **مجلة الحوليات الأثرية السورية**، العدد ١٣، عام ١٩٦٣م.
- **مجلة المشرق**، العددان ١٣ و٢٢، عام ١٨٩٨م، العدد ٣٤، عام ١٩٣٦م.
- **مجلة الهلال**، السنة ٦، العدد ٨، ١٨٩٧م.
- مروة، حسين:
- **النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية**، دار الفارابي، بيروت، ط٤، ١٩٨١م.
- معطي، علي:
- **تاريخ العرب الاقتصادي قبل الإسلام**، دار المنهل اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، ٢٠٠٣م.
- **تاريخ العرب السياسي قبل الإسلام**، دار المنهل اللبناني، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
- موسل، لويس:
- **شمال الحجاز**، تعريب عبد المحسن الحسيني، الإسكندرية، ١٩٥٢م.
- نامي، خليل يحيى:
- **أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام**، مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية، أيار، ١٩٣٥م.
- نصيف، عبد الله آدم:
- **القنوات والنظام الزراعي في المدينة المنورة**، دار المريخ، لندن، الرياض، ١٩٨٦م.
- النعيم، نورة عبد الله العلي:
- **الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثالث الميلادي**، الرياض، ١٩٩٢م.
- نولدكه، تيودور:
- **أمراء غسان**، تعريب جوزي بندلي وقسطنطين زريق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٣٣م.

□ نيلسن، ديتليف:
- **الديانة العربية القديمة**، مقال في كتاب التاريخ العربي القديم، تعريب فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٣م.
□ هومل، فرتز:
- **التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية**، فصل في كتاب التاريخ العربي القديم، تعريب فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٣م.
□ ولفنسون، إسرائيل:
- **تاريخ اليهود في بلاد العرب**، القاهرة، ١٩٢٧م.
□ يحيى، لطفي عبد الوهاب:
- **العرب في العصور القديمة**، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.

ثانياً: المصادر والمراجع باللغات الأوروبية:

- Albright, W.F:
  * **The Chronology of the Minaen Kings of Arabia.** Bulletin of the American school of Oriental Research, Newhaven, 1953.
- Bell, Richard:
  * **The Origin of Islam in its Christian Environment,** London, 1926.
- Bowen, Richard:
  * **Irrigation in Ancient Qatar,** John Hopkins press, Baltimore, 1958.
- Bowersock, G.W:
  * **A Report on Arabian Provincia,** Journal of Roman Studies 61, 1971.
  * **Syria Under Vaspasian,** Journal of Roman Studies, 63, 1973.
- Bury, J.B:
  * **History of the Later Roman Empire,** London, 1931.
- Browning, Inan:
  * **Palmyra,** London, 1974.
- **Cambridge Ancient History,** vol XI.
- Cary, M:
  * **History of Rome,** 2nd Ed, London. 1960.
- Cook, G.A:
  * **A Text book of North Semitic Inscriptions,** Oxford, 1903.
- Devreesse, Robert:
  * **Arabes - Perses et Arabes - Romains, Lakhmides et Ghassanides**, Revue Biblique, II, 1942.
- Diodorus, S:
  * **Library of History**, Trans. by R.M, Greer and C.H, old father, Loeb classical Library, London, 1970.

- Duval, R:
  * **Histoire Politique, Religieus et Litéraire d'Edesse jusqu'à la Première Croisade,** Paris, 1892.
- **Encyclopedia Britannica.**
- **Encyclopedia of Religion and Ethics.**
- Evenari, M:
  * **The Challenge of the Desert,** Cambridge, 1971.
- Fakhry, Ahmad:
  * **An Archaeological Journey to Yemen,** Government Press, Cairo, 1952.
- Gabrieli, Francisco:
  * **Les Arabs,** Paris, 1963.
  * **A Short History of the Arabes.** Trans. by Robert Hale, London, 1965.
- **Grand Larousse: Encyclopédique**, Paris, 1962-1964.
- Hill, G.F:
  * **Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia and Persia,** British Museum, London, 1922.
- **Jewish Encyclopedia,** New York, 1902.
- Josèphe, Flavius:
  * **La Guerre des Juifs.** Traduit du Grec par Pierre Savinal, Ed de Minuit, Paris, 1977.
  * **Jewish Antiquities.** Trans. by Ralph Maveas, Loeb Classical Library, London, 1976.
- Lammence, Henry:
  * **Berceau de l'Islam,** Rome 1914.
  * **La cité Arabe de Taif à la Veille de l'Hégire,** Beyrouth, 1922.
  * **La Meque a la Veille de l'Hégire,** Beyrouth, 1924.
- Labort:
  * **Le Christianisme dans l'Empire Perse**, Paris, 1907.
- La Pierre, Paul Bovier:
  * **Précis de l'Histoire D'Egypté,** Le Caire, 1932.
- Margoliouth:
  * **The Relation between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam,** London, 1924.
- Meyendor, J:
  * **Unité de l'Empire et des Chrétiens,** Paris, 1993.
- Moreland, W.H:
  * **The Ships of the Arabian Sea about A.D 1500.** The Journal of Royal Asiatic Society, London, 1939.

- Moscati, Sabatino:
  * **Histoire et Civilization du Peuple Sémitiques,** Paris, 1954.
- Nodeman, S.A:
  * **Preliminary History of Characene,** Berytus Museum of Archology of The American University of Beirut, Beirut, 1960.
- Nichelson, R.A:
  * **A Literary History of the Arabs,** Cambridge, 1953.
- **Periplus of The Erythean Sea.** Trans. by wilfred Scholf, Oriental Book Reprint, 5th Edition, New Delhi 1954.
- Pliny, G:
  * **Natural History**. Trans. by H.Rakhan, London, 1969.
- Rou, George:
  * **Ancient Iraq,** London, 1964.
- Rodinson, M:
  * **Mohammad,** Penguin Books, Sufolk Great Britain.
- Shahid, Irfan:
  * **The Conference of Ramla A.D 524,** Journal of Near Eastern Studies, XXXIII, 1961.
  * **The Arabs in the Peace Treaty of 561,** Arabica III, 1956.
- Smith:
  * **A Dictionary of The Bible Comprising its Antiquities Biography, Geography and Natural History.**
- Strabo:
  * **The Geography of Strabo.** Trans. by H.L. Jones, Loeb Classical Library, London, 1983.
- Theophrastus:
  * **Enquiry into Plants.** Trans. by Sir Arthur Hort, Loeb Classical Library, London, 1968.
- Trimingham, J.S.
  * **Christianity among The Arabs in Pre-Islamic Times.**
- Walker, J:
  * **The Moongod on Coins of The Hadramaut.** Bulletin of the School Oriental and African Studies, London, 1952.
- Watt, Montgomery:
  * **Muhamad at Mecca,** Oxford University Press, 1993.

محتوى الكتاب

الموضوع | الصفحة

شكلَّت جزيرة العرب قديماً معبراً بين القارات الثلاث: آسيا وأفريقيا وأوروبا، وانطلقت منها إلى الأقطار المجاورة هجرات بشرية كان آخرها الفتح الإسلامي، ونشأت على أطرافها، في بلاد العرب، وفي قلب الحجاز، حضارات تفوّقت على الحضارات التي عاصرتها، بعضها باد واندثر، وبعضها لا تزال معالم حضارته ماثلة للعيان في اليمن وشمالي الحجاز والأردن وتدمر.

في هذا الكتاب يتناول المؤلف أوضاع جزيرة العرب قبل الإسلام من مختلف النواحي: الاقتصادية والاجتماعية والدينية والأدبية والعلمية والسياسية، ويتوسع في الحديث عن مكة ومجتمعها قبل الإسلام، ويتناول بالبحث دول وممالك: المعينيِّين، والسبئيِّين، والحميريِّين، وكندة وميسان، والحضر، والرها، والأنباط، وتدمر، والمناذرة، والغساسنة وغيرها...

والمؤلف أستاذ جامعي، ومؤرخ اشتهر بدقته العلمية، وحياده، وأسلوبه الأدبي المميَّز، وقد نشرت له دار النفائس عدداً كبيراً من الكتب غطَّت معظم التاريخ الإسلامي إن لم نقل كلَّه.

الناشر

ISBN 978-9953-18-465-4
9 789953 184654